

طبعة
الكتاب
الأدبي
العلمي

١٠

اهداءات ٢٠٠٢

أد / السيد محمد بدوي

الاسكندرية

قصة الحضارة

تأليف

ول ديورانت

الجزء الثاني

الشرق الأدنى

ترجمة

محمد بدوي

المراقب العام للثقافة العامة بوزارة المعارف

اختارته وأنفقت على ترجمته

الأمانة العامة للثقافة

في

جامعة الدول العربية



كتب عربي
(أهداء)

وقامت بنفقات طبعه ونشره

لجنة التأليف والترجمة والنشر

٦٥٠٩٧

رقم التسجيل



تمثال من الحجر الأصيل (الجرانيت) لرمسيس الثاني
في متحف تورين بإيطاليا

فهرس

الكتاب الأول

الشرق الأدنى

الموضوع	الصفحة
جدول مسلسل لتاريخ الشرق الأدنى	٥
الباب السابع : سومر	٩
توجيه — فضل الشرق الأدنى على الحضارة الغربية	
الفصل الأول : عيلام	١١
ثقافة السوس — عجلة الفخاري — عجلات المركبات	
الفصل الثاني : السومريون	١٣
١ — تاريخهم	١٣
الكشف عن أرض سومر — جغرافيتها — أهلها	
وجنسيتهم — مظهرهم — الطوفان السومري —	
الملوك — مصلح قديم — مرجون ملك أكّد —	
عصر أور الذهبي	
٢ — الحياة الاقتصادية	٢٣
الزراعة — الصناعة — التجارة — طبقات الناس — المعلوم	
٣ — نظام الحكم	٢٦
الملوك — الخطط الحربية — أمراء الإقطاع — القانون	
٤ — الدين والأخلاق	٢٨
يجمع الآلهة السومريين — طعام الآلهة — الأصاير —	
التعليم — صلاة سومرية — عاهرات المعابد —	
حقوق المرأة — أدهنة الشعر والوجه	
٥ — الآداب والفنون	٣٤
الكتابة — الأدب — الهياكل والقصور —	
صناعة التماثيل — صناعة الفخار — الحلى —	
كلمة موجرة عن المدينة السومرية	

الموضوع	الصفحة
الفصل الثالث : الانتقال إلى مصر	٤٢
أثر السومريين في أرض الجزيرة — بلاد العرب القديمة —	
أثر بلاد الجزيرة في مصر	
الباب الثامن : مصر	
الفصل الأول : هبة النيل	٤٧
١ — في الوجه البحري	٤٧
الإسكندرية — النيل — الأهرام — أبو الهول	
٢ — مشرعة النهر	٥٢
متف — روائع الملكة حتشپسوت — تمثالا ممنون	
الأقصر والسكرنك — عظمة الحضارة المصرية	
الفصل الثاني : البناءون العظام	٦١
١ — كشف مصر	٦١
شميليون وحجر رشيد	
٢ — مصر في عصر ما قبل التاريخ	٦٣
العصر الحجري القديم — العصر الحجري الحديث — عصر	
البداري — عصر ما قبل الأسر — جنس المصريين	
٣ — الدولة القديمة	٦٦
الأقسام الإدارية — الشخصية التاريخية الأولى —	
كيويس — خفرن — الغرض من بناء الأهرام —	
فن المقابر — التحنيط	
٤ — الدولة الوسطى	٧٣
عهد الإقطاع — الأسرة الثانية عشرة —	
سيطرة الهكسوس	
٥ — الإمبراطورية	٧٦
الملكة العظيمة — تحتمس الثالث — ذروة المجد	
الفصل الثالث : حضارة مصر	٨٢
١ — الزراعة	٨٢
٢ — الصناعة	٨٤
المعدنون — الصناع — العمال — المهندسون —	
النقل — البريد — التجارة وشئون المال — الكتابة	
٣ — نظام الحكم	٩١
الموظفون — الشرائع — الوزير — الملك	
٤ — القانون الأخلاقي	٩٥
مضاجعة الملك لأقاربه — الحريم — الزواج —	

الصفحة	الموضوع
	مركز المرأة — سلطان الأم في مصر — القوانين الأخلاقية الخاصة بعلاقة الرجال والنساء
٩٩	٥ — العادات
	الأخلاق الشخصية — الألعاب — المظهر الخارجي — الأصباغ والأدهان — الملابس — الحلي
١٠٤	٦ — القراءة والكتابة والتعليم
	التعليم — مدارس الحكومة — الورق والحبر — مراحل تطور الكتابة — أشكال الكتابة المصرية
١١٠	٧ — الآداب
	التصوير ودور الكتب — السندباد المصري — قصة سنوحى — الروايات الخيالية — قطعة غرامية أشعار الحب — التاريخ — ثورة في الأدب
١١٨	٨ — العلوم
	منشأ العلوم المصرية — الرياضيات — علم الفلك والتقويم — التشريع ووظائف الأعضاء — الطب والجراحة والقوانين الصحية
١٢٧	٩ — الفن
	العمارة — النحت في الدولة القديمة والدولة الوسطى والإمبراطورية وفي عهد الملوك الساويين — النقوش التصوير — الفنون الصغرى — الموسيقى — الفنون
١٤٩	١٠ — الفلسفة
	تعاليم پتاح حوتب — تحذيرات إنبوور — محاورات كاره المجتمع — أسفار الحكمة المصرية
١٥٥	١١ — الدين
	آلهة السماء — آلهة الشمس — آلهة الزرع — الآلهة الحيوانية — آلهة العلاقات الجنسية — الآلهة البشرية — أوزير — إيزيس وحورس — الآلهة الصغرى — الكهنة — عقيدة الخلود — كتاب الموتى — الاعترافات السلبية — السحر — الفساد
١٦٨	الفصل الرابع : الملك المارق
	أخلاق إخناتون — الدين الجديد — ترنيمة الشمس — التوحيد — العقيدة الجديدة — الفن الجديد — الارتكاس — نفر تيتي — تفكك الإمبراطورية — موت إخناتون

الموضوع	الصفحة
الفصل الخامس : اضمحلال مصر وسقوطها... ..	١٨٠
توث عنخ آمون — جهود رمسيس الثانى — ثروة الكهنة —	
فقر الشعب — فتح مصر — خلاصة فى فضل مصر على الحضارة	
الباب التاسع : بابل	
الفصل الأول : من حمورابى إلى نبوخذ نصر	١٨٧
فضل بابل على المدنية الحديثة — أرض ما بين النهرين —	
حمورابى — عاصمة ملكه — سيطرة الكاشيين —	
رسائل تل العمارنة — فتح الآشوريين — نبوخذ نصر —	
بابل فى أيام مجدها	
الفصل الثانى : الكادحون	٢٠٠
الصيد — الحرث — الطعام — الصناعة — النقل —	
أخطار التجارة — المرابون — الرقيق	
الفصل الثالث : القانون	٢٠٧
قانون حمورابى — سلطة الملك — تحكم الآلهة —	
الفصص — أنواع العقاب — قوانين الأجور والأمان —	
رد البضائع المسروقة عن طريق الدولة	
الفصل الرابع : آلهة بابل	٢١١
الدين والدولة — واجبات الكهنة وسلطانهم — الآلهة	
الصغار — مردك — إشتار — القصص البابلية	
عن خلق العالم والطوفان — حب إشتار وتموز — نزول	
إشتار إلى الجحيم — موت تموز وبعثته — الطقوس	
الدينية والصلوات — تسايح التوبة — الخطيئة —	
السحر — الخرافات	
الفصل الخامس : أخلاق البابليين	٢٢٩
انفصال الدين عن الأخلاق — العهر المقدس — الحب	
الحر — الزواج — الزنا — الطلاق — مركز المرأة —	
انحلال الأخلاق	
الفصل السادس : الكتابة والأدب	٢٣٥
الكتابة المسمارية — حل رموزها —	
اللغة — الأدب — ملحمة جلجاميش	
الفصل السابع : الفنون	٢٢٤
الفنون الصغرى — الموسيقى — التصوير —	
النحت — النحت المنخفض — العمارة	

الموضوع	الصفحة
الفصل الثامن : علوم البابليين	٢٤٩
الرياضة — الفلك — التقويم — الجغرافية — الطب	
الفصل التاسع : الفلاسفة	٢٥٥
الدين والفلسفة — أيوب البابليين — كحيلت البابليين — رجل يقاوم السكينة	
الفصل العاشر : قبرية	٢٦١

الباب العاشر : آشور

الفصل الأول : أخبارها	٢٦٤
بداية تاريخها — مدتها — أصل سكانها — الفاتحون — سنحريب — وعسرهدون — سردنابالوس	
الفصل الثاني : الحكومة الآشورية	٢٧٢
الترعة الاستعمارية — الحروب الآشورية — الآلهة المجندة — القانون — لذة الانتقام والتعذيب — الإدارة — عنف ملوك الشرق	
الفصل الثالث : الحياة في آشور	٢٧٨
الصناعة والتجارة — الزواج والآداب العامة — الدين والعلم — الكتابة ودور الكتب — المثل الأعلى للرجل الكامل عند الآشوريين	
الفصل الرابع : الفن الآشوري	٢٨٦
الفنون الصغرى — النقش المنخفض — التماثيل — البناء — صفحة من سردنابالوس	
الفصل الخامس : خاتمة آشور	٢٩٧
آخر أيام ملك — أسباب انحلال آشور — سقوط نينوى	

الباب الحادي عشر : خليط من الأمم

الفصل الأول : الشعوب الهندورية	٣٠٠
مسر ح الأجناس — الميتانيون — الحثيون — الأرمن — السكوثيون — الفريجيون — الأم المقدسة — الليديون — كروسس — العملة — صولون وقورش	
الفصل الثاني : الأقوام الساميون	٣٠٨
قدم العرب — الفينيقيون — تجارتهم العالمية — طوافهم حول إفريقيا — مستعمراتهم — صور وصيدا — آلهتهم — نشر الحروف الهجائية — سوريا — عشتورت — موت أدنيس وبعثه — التضحية بالأطفال	

الموضوع	الصفحة
الباب الثاني عشر : اليهود	
الفصل الأول : الأرض الموعودة	٣٢٢
فلسطين — مناخها — عهد ما قبل التاريخ — شعب إبراهيم — اليهود في مصر — الخروج — فتح كنعان	
الفصل الثاني : سليمان في ذروة مجده	٣٢٨
أصل اليهود — مظهرهم — لغتهم — نظامهم — القضاة والملوك — شاؤل — داود — سليمان — ثروته — الهيكل — نشأة المشكلة الاجتماعية في إسرائيل	
الفصل الثالث : رب الجنود	٣٣٨
تعدد الآلهة — يهوه — عقيدة الإله الأعظم — خصائص الدين اليهودي — فكرة الخطيئة — القربان — الختان — الكهنوت — آلهة عجيبة	
الفصل الرابع : المتطرفون الأولون	٣٤٨
حرب الطبقات — أصل الأنبياء — عاموس وأورشليم — إشعيا — تنديده بالأغنياء — عقيدة المسيح المنتقذ — أثر الأنبياء	
الفصل الخامس : موت أورشليم وبعثها	٣٥٦
مولد التوراة — تدمير أورشليم — الأسر البابلي — إرميا — حزقيال — إشعيا — تحرير اليهود — الهيكل الثاني	
الفصل السادس : أهل الكتاب	٣٦٦
سفر الشريعة — تأليف الأسفار الخمسة — أساطير التكوين — الشريعة الموسوية — الوصايا العشر — فكرة الله — السبت — الأمرة اليهودية — قيمة الصرائع الموسوية	
الفصل السابع : أدب التوراة وفلسفتها	٣٨٥
التاريخ — القصص — الشعر — المزامير — نشيد الإنشاد — الأمثال — فكرة الخلود — تشاؤم سفر الجامعة — مجيء الإسكندر	

الباب الثالث عشر : فارس

الفصل الأول : قيام دولة الميديين وسقوطها	٣٩٩
أصولهم — حكمهم — معاهدة سرديس الدموية — انحطاطهم	
الفصل الثاني : عظمة الملوك	٤٠٣
قورش صاحب الشخصية الروائية — خطته السياسية المستنيرة — قميز — دارا الأكبر — غزو بلاد اليونان	

الموضوع	الصفحة
الفصل الثالث : الحياة الفارسية والصناعات	٤٠٩
الإمبراطورية — الشعب — اللغة — الزراعة — الطرق	
الإمبراطورية — التجارة والشئون المالية	
الفصل الرابع : تجربة في نظام الحكم	٩١٥
الملك — الأشراف — الجيش — القانون — عقاب	
وحشى — الحواضر — الولايات — عمل جليل في الإدارة	
الفصل الخامس : زردشت	٤٢٤
رسالة النبي — الديانة الفارسية قبل زردشت — كتاب	
الفرس المقدس — أهورا مزدا — الأرواح الطيبة	
والحيثية — كفاحها للاستيلاء على العالم	
الفصل السادس : الفلسفة الأخلاقية في الديانة الزردشتية	٤٣١
الإنسان ميدان قتال — النار المخلدة — الجحيم والمطهر	
والجنة — عبادة ميثرا — المجوس — البارسيين	
الفصل السابع : أدب الفرس وأخلاقهم	٤٣٨
العنف والشرف — قانون النظافة — خطايا الجسد —	
العذارى والأعزاب — الزواج — النساء — الأطفال —	
آراء الفرس في التربية والتعليم	
الفصل الثامن : العلوم والفنون	٤٤٥
الطب — الفنون الصغرى — قبرا قورش ودارا —	
قصور پرسبوليس — نقش الرماة — قيمة الفن الفارسي	
المفصل التاسع : الانحطاط	٤٥٤
كيف تموت الأمم — خشيارشاي — فقره عن التقتيل —	
أرت خشت الثاني — قورش الأصغر — دار الصغير —	
أسباب الانحطاط السياسية والحربية والخلقية —	
الإسكندر — فتح فارس والزحف على الهند	
المراجع	٤٦١
فهرس الأعلام	٤٧٨

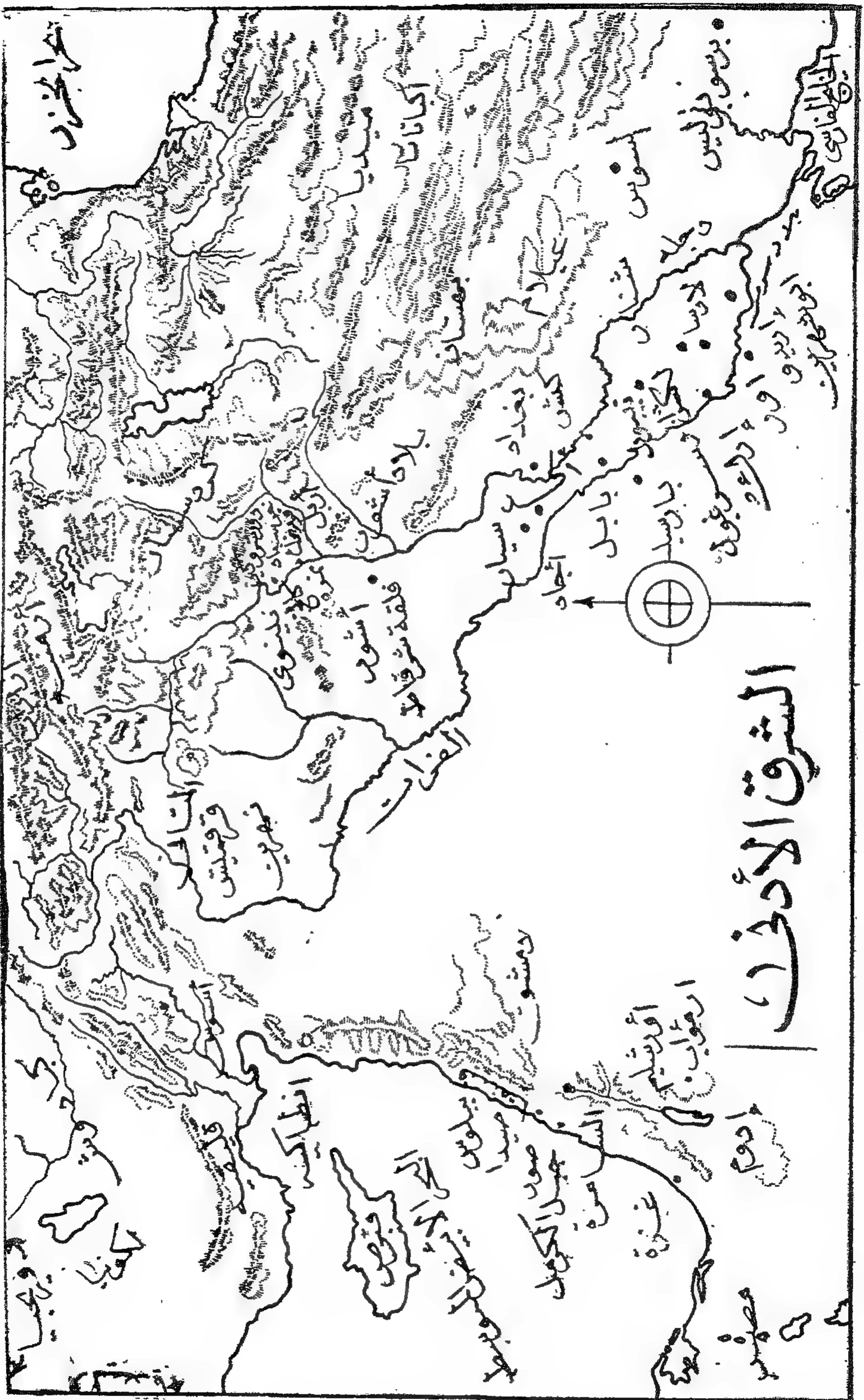
فهرس الخرائط والصور

الصفحة	الصورة
تمثال من الحجر الأعل لرسيس الثانى	...
خريطة الشرق الأدنى	...
جوديا الصغير	...
لوحة نارام سن	...
خريطة مصر	...
البهو والعمد فى الهيكل العظيم فى الأقصر	...
صورة مستعادة للبهو ذى السقف المقام على العمد فى الكرنك	...
عمد تحمل سقف البهو الكبير فى الكرنك	...
حجر رشيد	...
رأس الملك خفرع منحوت من حجر الديوريت	...
هيكل الدير البحرى	...
تمثال الكاتب	...
تمثال شيخ البلد	...
رأس من حجر الخرسان	...
رأس ملك	...
الصقر الملكى والأفعى	...
رأى تحتمس الثالث	...
رسيس الثانى يقرب قرباناً	...
تمثال من البرنز لتكوششت	...
تمثال منتيو محبت	...
تمائيل صخمة لرسيس الثانى مع تمائيل الملكة نفرنرع	...
الراقصة	...
قطعة ترقب فريستها	...
كرسى توت عنخ آمون	...
رأس نفرتيتى	...
الإله شمش ينزل بالقوانين على حمورابى	...
١٨٩	...

الصفحة	الصورة
٢٤٥	أسد بابل
٢٧٩	منشور سنحريب
٢٨٦	نقش آشورى يمثل مردك يقاتل تيامات
٢٨٧	صيد الآساد
٢٨٨	اللبؤة المحتضرة
٢٨٩	الثور المجنح
٢٩١	رأس عسرهدون
٣٢٥	شارع فى القدس الحديثة
٣٣٥	صورة مستعادة لهيكل سليمان
٤٥٠	خرائب برسيوليس
٤٥٣	نقش الرماة

ملحوظة : نرجو أن يستبدل القارىء فى صحائف هذا الكتاب لفظ نقش منخفض
بنقش غائر كلما وجدده .

الشرق الأدنى



أدم

أورشليم

البحر الأحمر

جبل الكرم

صيدا

البحر الأبيض المتوسط

افطاكيس

قلاية

البحر المتوسط

مصر

ليبيا

تونس

البحر الأبيض المتوسط

برسوجليس

السوس

مشن

بغداد

كركوك

السليمانية

النجف

الكاظمين

الفرات

الفرات

الفرات

الفرات

الفرات

البحر الأبيض المتوسط

السوس

مشن

بغداد

كركوك

السليمانية

النجف

الكاظمين

الفرات

الفرات

الفرات

الفرات

الفرات

الكتاب الأول

الشرق الأدنى

« وفي ذلك الوقت نادتنى الآلهة : أنا حورابى ، الخادم الذى سرت
من أعماله ، ... والذى كان عوناً لشعبه فى الشدائد ، ... والذى
أفاء عليه الثروة والوفرة ... ، لأمنع الأقوياء أن يظلموا الضعفاء وأنشر
النور فى الأرض ، وأرعى مصالح الخلق »

قانون حورابى — المقدمة

جدول مسلسل لتاريخ الشرق الأدنى^(١)

ق . م	مصر	ق . م	غرب آسية
١٨٠٠٠	ثقافة وادى النيل فى	٤٠٠٠٠	ثقافة العصر الحجري
	العصر الحجري القديم		القديم فى فلسطين
١٠٠٠٠	ثقافة وادى النيل فى	٩٠٠٠	ثقافة عصر البرنز فى
	العصر الحجري الحديث		التركستان
٥٠٠٠	ثقافة وادى النيل فى	٤٥٠٠	الحضارة فى السوس
	عصر البرنز		وكيش
٤٢٤١	ظهور التقويم المصرى	٣٨٠٠	الحضارة فى كريت
٤٠٠٠	ثقافة البدارى		(إقريطش)
٣٥٠٠ — ٢٦٣١	١ — الدولة القديمة	٣٦٣٨	الأسرة الثالثة فى كش
	الملكية	٣٦٠٠	الحضارة فى سومر
٣٥٠٠ — ٣١٠٠	من الأسرة الأولى إلى	٣٢٠٠	أسرة أكشاك فى سومر
	الثالثة	٣١٠٠	أور — نينا الأول
٣١٠٠ — ٢٩٦٥	الأسرة الرابعة —		ملك لكش
	الأهرام	٣٠٨٩	الأسرة الرابعة من
٣٠٩٨ — ٣٠٧٥	خوفو (كيوبس حسب		ملوك كش
	تسمية هيروdot)	٢٩٠٣	الملك اورو كاجينا
٣٠٦٧ — ٣٠١١	خفرع (خفرن)		يصلح لكش
٣٠١١ — ٢٩٨٨	منقورع (ميسرينس)	٢٨٩٧	لوجال — زجيزى يفتح
٢٩٦٥ — ٢٦٣١	الأسرات الخامسة		لكش
	والسادسة	٢٨٧٢ — ٢٨١٧	سرجون الأول (يوحد
٢٧٣٨ — ٢٦٤٤	بني الثانى (أطول حكم		سومر وأكد)
	عرف فى التاريخ)	٢٧٩٥ — ٢٧٣٩	نارام — سن ملك
٢٦٣١ — ٢٢١٢	عصر الإقطاع		سومر وأكد
٢٣٧٥ — ١٨٠٠	ب — الدولة الوسطى	٢٦٠٠	جوديا ملك لكش
	الملكية	٢٤٧٤ — ٢٣٩٨	عصر أور الذهبى
٢٢١٢ — ٢٠٠٠	الأسرة الثانية عشرة		كتاب القوانين الأول
٢٢١٢ — ٢١٩٢	أمينحيت الأول	٢٣٥٧	العميلاميون ينهبون أور

(١) التواريخ كلها قبل الميلاد ، وما كان منها قبل عام ٦٦٣ ق . م فهو تقريبي ،
والتواريخ المذكورة إلى جانب الحكم تبين تواريخ حكمهم لا تواريخ حياتهم .

ق. م	مصر
٢١٩٢ — ٢١٥٧	سنوسريت
	(سيزوستريس) الأول
٢٠٩٩ — ٢٠٦١	سنوسريت الثالث
٢٠٦١ — ٢٠١٣	أمنمحيث الثالث
١٨٠٠ — ١٦٠٠	سيطرة الهكسوس
	على مصر
١٥٨٠ — ١١٠٠	ج — الإمبراطورية المصرية
١٥٨٠ — ١٣٢٢	الأسرة الثانية عشرة
١٥٤٥ — ١٥١٤	تحتمس الأول
١٥١٤ — ١٥٠١	تحتمس الثاني
١٥٠١ — ١٤٧٩	الملكة حتشبسوت
١٤٧٩ — ١٤٤٧	تحتمس الثالث
١٤١٢ — ١٣٧٦	أمنحوتب الثالث
١٤٠٠ — ١٣٦٠	عصر رسائل تل العمارنة
	وخروج غرب آسية
	على مصر
١٣٨٠ — ١٣٦٢	أمنحوتب الرابع
	(إخناتون)
١٣٦٠ — ١٣٥٠	توت عنخ آمون
١٣٤٦ — ١٢١٠	الأسرة التاسعة عشرة
١٣٤٦ — ١٣٢٢	حارح
١٣٢١ — ١٣٠٠	سيتي الأول
١٣٠٠ — ١٢٣٣	رمسيس الثاني
١٢٣٣ — ١٢٢٣	مرنبتاح (منفتاح)
١٢١٤ — ١٢١٠	سيتي الثاني
١٢٠٥ — ١١٠٠	الأسرة العشرون
	ملوك يسمون باسم رمسيس
١٢٠٤ — ١١٧٢	رمسيس الثالث
١١٠٠ — ٩٤٧	الأسرة الحادية والعشرون
٩٤٧ — ٧٢٠	الملوك اللويون
	الأسرة الثالثة والعشرون
	ملوك بوبسطة
٩٤٧ — ٩٢٥	شيشنق الأول
٩٢٥ — ٨٨٩	أسركون الأول
ق. م	غرب آسية
٢١٦٩ — ١٩٢٦	الأسرة الأولى البابلية
٢١٢٣ — ٢٠٨١	حورابى ملك بابل
٢١١٧ — ٢٠٩٤	حورابى يفتح سومر
	وعيلام
١٩٢٦ — ١٧٠٣	الأسرة الثانية البابلية
١٩٠٠	ظهور الحضارة الحثية
١٨٠٠	الحضارة في فلسطين
١٧٤٦ — ١١٦٩	سيطرة الكاشيين
	على بابل
١٧١٦	نهضة دولة آشور في
	عهد شمشى أداد الثاني
١٦٥٠ — ١٢٢٠	استعباد اليهود في مصر
١٦٠٠ — ١٣٦٠	سيادة مصر على فلسطين
	وسوريا
١٥٥٠ —	حضارة ميتانى
١٤٦١	برا — برياش الأول
	ملك بابل
١٢٧٦	سلما نصر الأول يوحد
	دولة آشور
١٢٠٠	استيلاء اليهود على كنعان
١١١٥ — ١١٠٣	تقلت فلاسر الأول يوسع
	دولة آشور
١٠٢٥ — ١٠١٠	شاؤل ملك اليهود
١٠١٠ — ٩٧٤	داود ملك اليهود
١٠٠٠ — ٦٠٠	العصر الذهبي لفينيقية (١)
	وسوريا
٩٧٤ — ٩٣٧	سليمان ملك اليهود
٩٣٧	انقسام اليهود : دولتا
	يهوذا وإسرائيل
٨٨٤ — ٨٥٩	آشور ناصر بال الثاني
	ملك آشور
٨٥٩ — ٨٢٤	سلما نصر الثالث ملك
	آشور

(١) تكتب أحياناً فونيقية

ق. م	غرب آسية
٨١١ — ٨٠٨	سلما نصر (سميراميس)
	في آشور
٧٨٥ — ٧٠٠	عصر أرمينية الذهبي (أورارتو)
٧٤٥ — ٧٢٧	تغلك فلاصر الثالث
٧٣٢ — ٧٢٢	استيلاء آشور على دمشق والسامرة
٧٢٢ — ٧٠٥	سرجون الثاني ملك آشور
٧٠٩	ديوسيز ملك الميديين
٧٠٥ — ٦٨١	سنحريب ملك آشور
٧٠٢	إشعيا الأول
٦٨٩	سنحريب ينهب بابل
٦٨١ — ٦٦٩	عسر هدون ملك آشور
٦٦٩ — ٦٢٦	أشور — يانيسال (سرنابالس) ملك آشور
٦٦٠ — ٥٨٣	زردشت (زرثوسترا)
	أوزروستر عند اليونان
٦٥٢	جيجيس ملك ليديا
٦٤٠ — ٥٨٤	سياخار ملك الميديين
٦٣٩	سقوط السوس وخاتمة عيلام
٦٣٩	يوشيا ملك اليهود
٦٢٥	نبو بولصر يعيد إلى بابل استقلالها
٦٣١	يدايات الكتب الخمسة الأولى من العهد القديم
٦١٢	سقوط نينوى وخاتمة آشور
٦١٠ — ٥٦١	ألياطس ملك ليديا
٦٠٥ — ٥٦٢	نبوخذ ناصر الثاني ملك بابل
٦٠٠	إرميا في أورشليم ، سنك العملة في ليديا
٥٩٧ — ٥٨٦	نبوخذ ناصر يستولى على أورشليم
٥٨٦ — ٥٣٨	أسر اليهود في بابل
٥٨٠	حزقيال في بابل
٥٧٠ — ٥٤٦	كروسس ملك ليديا

ق. م	مصر
٨٨٠ — ٨٥٠	أسركون الثاني
٨٥٠ — ٨٢٥	شيشنق الثاني
٨٢١ — ٧٦٩	شيشنق الثالث
٧٦٣ — ٧٢٥	شيشنق الرابع
٨٥٠ — ٧٤٥	الأسرة الثالثة والعشرون ملوك طيبة
٧٢٥ — ٦٦٣	الأسرة الرابعة والعشرون ملوك منف
٧٤٥ — ٦٦٣	الأسرة الخامسة والعشرون الملوك الإثيوبيون
٦٨٩ — ٦٦٣	طاهر قا
٦٨٥	انتعاش مصر التجاري
٦٧٤ — ٦٥٠	احتلال الآشوريين مصر
٦٦٣ — ٥٢٥	الأسرة السادسة والعشرون ملوك ساو (سايس أوصان الحجر)
٦٦٣ — ٦٠٩	أبسماتيك (ابسماتكس) الأول
٦٦٣ — ٥٢٥	انتعاش الفن المصري في عهد ملوك ساو
٦١٥	اليهود يبدءون في الزواج إلى مصر
٦٠٩ — ٥٩٣	نسكو (نخاو) الثاني
٦٠٥	نخاو يبدأ بادخال الحضارة الهيلينية في مصر
٥٩٣ — ٥٨٨	أبسماتيك الثاني
٥٦٩ — ٥٢٦	أحموس (أماسيز) الثاني
٥٦٨ — ٥٦٧	نبوخذ ناصر الثاني يغزو مصر
٥٦٠	ازدياد نفوذ اليونان في مصر
٥٢٦ — ٥٢٥	أبسماتيك الثالث

ق. م	مصر	ق. م
٥٥٥ — ٥٢٩ قورش الأول ملك الميديين	٥٢٥ فتح الفرس لمصر	
والفرس	٤٨٥ ثورة مصر على الفرس	
٥٤٦ قورش يستولى على سرديس	٤٨٤ إعادة فتح مصر على يد	
٥٤٠ إشعيا الثاني	خشيرشا (وهو كزر كس	
٥٣٩ قورش يستولى على بابل وينشئ	عند اليونان ويسميه البيروني	
الإمبراطورية الفارسية	أخشويرش)	
٥٢٩ — ٥٢٢ قمير ملك الفرس	٤٨٢ مصر تنضم إلى الفرس في	
٥٢١ — ٤٨٥ دارا الأول ملك الفرس	حربها مع اليونان	
٥٢٠ تشييد الهيكل الثاني في أورشليم	٤٥٥ إخفاق الحملة الأثينية الموجهة	
٤٩٠ واقعة مرathon	إلى مصر	
٤٨٥ — ٤٦٤ خشيرشا الأول ملك الفرس		
٤٨٠ واقعة سلاميس		
٤٦٤ — ٤٢٣ أخشويرش (أردشير		
ارتكزر كس) الأول ملك		
الفرس		
٤٥٠ سفر أيوب ؟		
٤٤٤ عزرا في أورشليم		
٤٢٣ — ٤٠٤ دارا الثاني ملك الفرس		
٤٠٤ — ٣٥٩ أخشويرش الثاني ملك الفرس		
٤٠١ هنريمة قورش الأصغر في		
كونكسا		
٣٥٩ — ٣٣٨ أوكس ملك الفرس		
٣٣٨ — ٣٣٠ دارا الثالث ملك الفرس		
٣٣٤ واقعة نهر غرانيقوس ودخول		
الاسكندر أورشليم		
٣٣٣ واقعة إسوس	٣٣٢ فتح اليونان مصر وتأسيس	
٣٣١ استيلاء الاسكندر على بابل	الإسكندرية	
٣٣٠ واقعة أرييلاء الشرق الأدنى	٢٨٣ — ٣٠ الملوك البطالمة	
يصبح جزءاً من دولة	٣٠ مصر تصبح جزءاً من	
الإسكندر	الدولة الرومانية	

الباب السابع

سومر (*)

توجيه — فضل الشرق الأدنى على الحضارة الغربية

لقد انقضى منذ بداية التاريخ المكتوب حتى الآن ما لا يقل عن ستة آلاف عام ، وفي خلال نصف هذا العهد كان الشرق الأدنى مركز الشئون البشرية التي وصل إلينا علمها . وإذا ذكرنا هذا اللفظ المبهم في هذا الكتاب فإننا نقصد به جميع بلاد أسية الجنوبية الغربية الممتدة جنوب روسيا والبحر الأسود ، وغرب الهند وأفغانستان . وسنطلق هذا الاسم أيضاً — وإن خرجنا في هذا على مقتضيات الدقة أكثر من ذي قبل — على مصر ، لأن هذه البلاد كانت شديدة الاتصال بذلك الجزء من العالم كما كانت مركزاً انتشرت منه الحضارة الشرقية . على هذا المسرح غير الدقيق التحديد الأهل بالسكان وبالثقافات المتباينة نشأت الزراعة والتجارة ، والخليل المستأنسة والمركبات ، وشكت النقود ، وكتبت خطابات الاعتماد ، ونشأت الحرف والصناعات ، والشرائع والحكومات ، وعلوم الرياضة والطب ، والحقن الشرجية ، وطرق صرف المياه ، والهندسة والفلك ، والتقويم والساعات ، وصورت دائرة البروج ، وعرفت الحروف الهجائية والكتابة ، واخترع الورق والخبر ، وألفت الكتب وشيدت المكتبات والمدارس ، ونشأت الآداب والموسيقى والنحت وهندسة البناء ، وصنع الخزف المطلق المصقول والأثاث الدقيق الجميل ، ونشأت عقيدة التوحيد ووحدة الزواج ، واستخدمت أدهان التجميل والحلي ، وعرف النرد والداما ، وفرضت ضريبة الدخل ، واستخدمت المرضعات ، وشربت الخمر — عرفت هذه الأشياء كلها واستمدت منها أوربا وأمريكا ثقافتها على

(*) ويكتبها بعض المؤرخين السومر والبعض الآخر شومر (المترجم)

مدى القرون عن طريق كريت واليونان والرومان . وقصارى القول أن
« الآريين » لم يشيدوا صرح الحضارة — بل أخذوها عن بابل ومصر ، وأن
اليونان لم ينشئوا الحضارة إنشاء لأن ما ورثوه منها أكثر مما ابتدعوه . وكانوا
الوارث المدلل المتلاف لذخيرة من الفن والعلم مضى عليها ثلاثة آلاف من السنين ،
وجاءت إلى مدائنهم مع مغنم التجارة والحرب . فإذا درسنا الشرق الأدنى
وعظمنا شأنه فإننا بذلك نعتزف بما علينا من دين لمن شادوا بحق صرح الحضارة
الأوربية والأمريكية ، وهو دين كان يجب أن يؤدي من زمن بعيد .

الفصل الأول

عيلام

ثقافة السوس — مجلة الفخارى — مجلات المركبات

إذا نظر القارىء إلى مصور لبلاد إيران ومر بإصبعه على نهر دجلة — مبتدئاً من الخليج الفارسى حتى يصل إلى العمارة ، ثم اتجه به شرقاً مخترقاً حدود العراق إلى مدينة شوشان الحديثة ، إذا فعل هذا فقد حدد لنفسه موقع مدينة السوس القديمة — التى كانت فيما مضى مركز إقليم يسميه اليهود بلاد عيلام — أى الأرض العالية . فى هذا الصقع الضيق الذى تحميه من غربه المناقع ومن شرقه الجبال الخافة بهضبة إيران العظيمة ، أنشأ شعب من الشعوب لا نعرف أصله ولا الجنس الذى ينتمى إليه إحدى المدن الأولى المعروفة فى تاريخ العالم . وقد وجد علماء الآثار الفرنسيون فى هذا الإقليم منذ جيل مضى آثاراً بشرية يرجع عهدها إلى عشرين ألف عام ، كما وجدوا شواهد تدل على قيام ثقافة راقية يرجع عهدها إلى عام ٤٥٠٠ ق . م . (*) (١)

ويبدو أن أهل عيلام كانوا فى ذلك الوقت قد خرجوا توا من الحياة البدوية ، حياة صيد الحيوان والسمك ، ولكنهم كانت لهم وقتئذ أسلحة وأدوات من النحاس ، وكانوا يزرعون الحبوب ويؤنسون الحيوان ، وكانت لهم كتابة مقدسة ووثائق تجارية ، وعرايا وحلى ، وتجارة تمتد من مصر إلى الهند (٢) . ونجد بين أدوات الطران المسواة التى ترجع بنا إلى العصر الحجري الجديد مزهريات كاملة الصنع رشيقة مستديرة عليها رسوم أنيقة من أشكال هندسية أو صور جميلة

(*) يعتقد الأستاذ برستد أن ده مرجان ، وپپلى وغيرهما من العلماء قد بالغوا فى قدم هذه الثقافة وثقافة أنو (٢) .

تمثل الحيوان والنبات ، تعد بعضها من أجمل ما صنعه الإنسان في عهود التاريخ كله^(٤). ولسنا نجد في تلك البلاد أقدم ما عرف من عجلات الخزاف وحسب بل نجد فيها أيضاً أقدم ما عرف من عجلات المركبات ، ذلك أننا لا نعثر مرة أخرى على هذه المركبة التي كان لها شأن متواضع ، ولكنه شأن حيوى ، في نقل المدنية من مكان إلى مكان ، إلا بعد هذا الوقت في بلاد بابل ، ثم بعد ذلك أيضاً في مصر^(٥). ثم انتقل العيلاميون من هذه البدايات المعقدة إلى حياة السلطان والغزوات الأعباء الثقالة ، فامتلكوا سومر وبابل ، ثم دارت عليهم الدائرة فاستولت عليهم هاتان الدولتان كليهما بعد الأخرى . وعاشت مدينة السوس ستة آلاف من السنين ، شهدت في خلالها عظمة إمبراطوريات سومر ، وبابل ، ومصر ، وأشور ، وفارس ، واليونان ، ورومة ؛ وظلت ، باسم شوشان ، مدينة مزدهرة حتى القرن الرابع عشر الميلادى . ومرت بها في خلال تاريخها الطويل فترات مختلفة نمت فيها ثروتها نموا عظيما . وحسبنا شاهداً على هذا وصف المؤرخين لما عثر عليه فيها آشور بانيبال حين استولى عليها ونهبها في عام ٦٤٦ ق . م من ذهب وفضة ، وحجارة كريمة ، وجواهر ملكية ، وثياب ثمينة ، وأثاث فخم ، ومركبات ساقها الفاتحون وراءهم إلى نينوى . ذكر المؤرخون هذه المغانم كلها ولم يحاولوا الانتقاص من شأنها أو الاستخفاف بها . وهكذا بدأ التاريخ دورته المحزنة فبدلها في وقت قصير من فنها المزدهر حرباً وخراباً .

الفصل الثاني

السومريون

١ — تاريخهم

الكشف عن أرض سومر — جغرافيتها — أهلها وجنسياتهم — مظهرهم —
الطوفان السومري — الملوك — مصلح قديم — سرجون ملك أكاد — عصر أور القدي

إذا عدنا إلى خريطة الشرق الأدنى وتبعنا المجرى المشترك المكون من
نهرى دجلة والفرات من مصبه في الخليج الفارسي إلى أن ينفصل المجرى (عند
بلدة القرنة الحديثة) ، ثم تتبعنا نهر الفرات متجهين إلى الغرب ، وجدنا في شماله
وجنوبه المدن السومرية القديمة المطمورة وهي : إريدو (أبو شهرين الحديثة) وأور
(المقيّر الحديثة) وأروك (وهي المسماة إرك في التوراة والمعروفة الآن باسم الوركاء)
ولارّسا (المسماة في التوراة باسم إلسار والمعروفة الآن باسم سنكرة) ولكش
(سبرلا الحديثة) ونيور (نقر) . تتبع بعدئذ نهر الفرات في سيره نحو
الشمال الغربي إلى بابل التي كانت في يوم من الأيام أشهر بلاد الجزيرة (أرض
ما بين النهرين) تجد إلى شرقها مباشرة بلدة كش مقر أقدم ثقافة عرفت في هذا
الإقليم ، ثم سر بعدئذ مع النهر صعودا قرابة ستين ميلا حتى مقر أجاد قصبة مملكة
أكّد في الأيام الحالية . ولم يكن تاريخ أرض الجزيرة القديم من إحدى نواحيه
إلا صراعا قامت به الشعوب غير السامية التي تسكن بلاد سومر لتحتفظ باستقلالها
أمام الهجرات السامية والزحف السامي من كش وأجاد وغيرها من مرا كز العمران
الشمالية . وكانت هذه الأجناس المختلفة الأصول في خلال هذا الصراع تتعاون
دون أن تشعر بتعاونها — ولعلها كانت تتعاون على الرغم منها — لتقيم صرح

حضارة هي أول ما عرف في التاريخ من حضارة واسعة شاملة فذة ، وهي من أعظمها إبداعاً وإنشاء (*) .

وليس في وسعنا رغم ما قام به العلماء من بحوث أن نعرف إلى أية سلالة من السلالات البشرية ينتمي هؤلاء السومريون ، أو أى طريق سلكوه حتى دخلوا بلاد سومر . ومن يدري لعلمهم جاءوا من آسية الوسطى أو من بلاد القفقاس أو من أرمينية واخترقوا أرض الجزيرة من الشمال متتبعين في سيرهم مجرى دجلة

(*) لقد كان كشف هذه الحضارة المنسية من أروع القصص الروائية وأكثرها غرابة في علم الآثار . لقد كان الرومان واليونان واليهود ، وهم الذين نسيهم القدماء جهلاً منا بالمدى الواسع لأحقاب التاريخ ، لا يعرفون شيئاً عن سومر ، ولعل هيرودوت لم يصل إلى علمه شيء عن هؤلاء الأقوام ، وإذا كان قد وصل إلى علمه شيء عنهم فقد أغفل أمرهم لأن عهدهم كان أبعد إليه من عهده هو إلينا . ولم يكن ما يعرفه بروسس ، وهو مؤرخ بابلي كتب حوالي ٢٥٠ ق.م عن سومر إلا مزيجاً من الخرافات والأساطير . فقد وصف في تاريخه جيلاً من الجبابرة يقودهم واحد منهم يسمى أوانس خرج من الخليج الفارسي ، وأدخل في البلاد فنون الزراعة وطرق المعادن والكتابة . ثم يقول : « وقد ترك إلى بني الإنسان كل الأشياء التي تصلح أمور حياتهم ولم يُخترع من ذلك الوقت شيء ما حتى الآن » (٦) . ولم تكشف بلاد سومر إلى العالم إلا بعد ألفي سنة مما كتبه عنها بروسس . فقد تبين هنكز في عام ١٨٥٠ أن كتابة مسمارية — تكتب بضغط قلم معدني ذي طرف دقيق على طين لين ، وتستخدم في لغات الشرق الأدنى السامية — أن كتابة من هذا النوع قد أخذت عن أقوام أقدم عهداً من الساميين الذين استعملوها فيما بعد كانوا يتكلمون لغة كثيرة ألفاظها غير سامية . وقد أطلق أوبرت على الشعب الذي ظنه صاحب هذه الكتابة اسم الشعب « السومري » (٧) . وكشف رولنسن ومساعدوه في نفس الوقت تقريباً بين الخرائب البابلية الواحاً نقش عليها كلمات من هذه اللغة القديمة وبين سطورها ترجمتها إلى اللغة البابلية كما يفعل علماء الجامعات في هذه الأيام (٨) . وفي عام ١٨٥٤ أزاح عالمان إنجليزيان الثرى عن مواقع مبدن أور ، وإريدو ، وأزك . وكشف العلماء الفرنسيون في أواخر القرن التاسع عشر عن أنقاض لكش وعثروا بينها على ألواح نقش عليها تاريخ الملوك السومريين ، وفي أيامنا هذه كشف ولى الأستاذ بجامعة ينسلفانيا وكثيرون غيره من العلماء عن مدينة أور العتيقة حيث أنشأ السومريون كما يلوح الحضارة لهم قبل عام ٤٥٠٠ ق.م . وهكذا تعاون العلماء من مختلف الأمم على كشف السر الغامض من تلك القصة العجيبة التي لا آخر لها . وأخذوا يتعقبون الحقائق التاريخية بلا ملل تعقب رجال الشرطة السرية للصوم والمجرمين . على أننا مع هذا لم نعد بعد بداية البحث والتنقيب في بلاد سومر . ولستأ ندري ماذا يسفر عنه هذا البحث من حضارة ومن معلومات تاريخية ، بعد أن تحفر الأرض وتدرس المواد المستكشفة كما حفر العلماء أرض مصر ودرسوا آثارها في خلال المائة السنين الأخيرة .

والفرات — حيث توجد — كما في آشور مثلاً — شواهد دالة على ثقافتهم الأولى .
أو لعلهم قد سلكوا الطريق المائي من الخليج الفارسي — كما تروى الأساطير —
أو من مصر أو غيرها من الأقطار ، ثم اتخذوا سبيلهم نحو الشمال متتبعين على مهل
النهرين العظيمين . أو لعلهم جاءوا من السوس حيث يوجد بين آثارها رأس
من الأسفلت فيه خواص الجنس السومري كلها . بل إن في وسعنا أن نذهب إلى
أبعد من هذا كله فنقول إنهم قد يكونون من أصل مغولي قديم موغل في القدم .
ذلك بأن في لغتهم كثيراً من التراكيب الشبيهة بلسان المغول^(٩) . لكن علم هذا
كله عند علام الغيوب .

وتدل آثارهم على أنهم كانوا قصار القامة ممتلئ الجسم ، لهم أنوف شحم مصفحة
ليست كأنوف الأجناس السامية ، وجباه منحدره قليلاً إلى الوراء ، وعيون مائلة
إلى أسفل . وكان كثيرون منهم ملتحمين ، وبعضهم حليقيين ، وكثرتهم العظمى
يحفون شواربهم . وكانوا يتخذون ملابسهم من جلود الغنم ، ومن الصوف المنزول
الرفيع ، وكانت النساء يسدن من أكتافهن اليسرى مآزر على أجسامهن ،
أما الرجال فكانوا يشدونها على أوساطهم ويتركون الجزء الأعلى من أجسامهم
عارياً . ثم علت أثواب الرجال مع تقدم الحضارة شيئاً فشيئاً حتى غطت جسمهم
كله إلى الرقبة . أما الخدم رجالاً كانوا أو نساء فقد ظلوا يمشون عراة من الرأس
إلى وسط الجسم إذا كانوا في داخل البيوت . وكانوا في العادة يلبسون قلانس على
رؤوسهم وأخفافاً في أقدامهم ، ولكن نساء الموسرين منهم كن ينتعلن أحذية
من الجلد اللين الرقيق غير ذات كعاب عالية ، وذات أربطة شبيهة بأربطة أحذيتنا
في هذه الأيام . وكانت الأساور والقلائد والخلائيل والخواتم والأقراط زينة
النساء السومريات التي يظهرن بها ثراء أزواجهن كما تظهره النساء الأمريكيات
في هذه الأيام^(١٠) .

ولما تقادم العهد بمدنيتهم — حوالي ٢٣٠٠ ق . م — حاول الشعراء والعلماء

السومريون أن يستعيدوا تاريخ بلادهم القديم . فكتب الشعراء قصصاً عن بداية الخلق ، وعن جنة بدائية ، وعن طوفان مروع غمر هذه الجنة وخربها عقاباً لأهلها على ذنب ارتكبه أحد ملوكهم الأقدمين^(١١) . وتناقل البابليون والebraانيون قصة هذا الطوفان وأصبحت بعدئذ جزءاً من العقيدة المسيحية . وبينما كان الأستاذ ولي ينقب في خرائب أور عام ١٩٢٩ إذ كشف على عمق عظيم من سطح الأرض ، عن طبقة من الغرين سمكها ثمان أقدام ، رسبت — إذا أخذنا بقوله — على أثر فيضان مروع لنهر الفرات ظل عالماً بأذهان الأجيال التالية ومعروفاً لديهم باسم الطوفان . وقد وجدت تحت هذه الطبقة بقايا حضارة قامت قبل هذا الطوفان ، وصفها الشعراء فيما بعد بأنها العصر الذهبي لتلك البلاد .

وحاول الكهنة المؤرخون في هذه الأثناء أن يخلقوا ماضياً يتسع لنوع جميع عجائب الحضارة السومرية . فوضعوا من عندهم قوائم بأسماء ملوكهم الأقدمين ، ورجعوا بالأسر المالكة التي حكمت قبل الطوفان إلى ٤٣٢٠٠٠ عام^(١٢) ، ورووا عن اثنين من هؤلاء الحكام وهما تموز وجلجمش من القصص المؤثرة ما جعل ثانيهما بطل أعظم ملحمة في الأدب البابلي . أما تموز فقد انتقل إلى مجمع الآلهة البابليين ، وأصبح فيما بعد أدنيس اليونان . وأهل الكهنة قد تغالوا ببعض الشيء في قدم حضارتهم ، ولكن في وسعنا أن نقدر عمر الثقافة السومرية تقديراً تقريبياً إذا لاحظنا أن خرائب نينور تمتد إلى عمق ست وستين قدماً ، وأن ما يمتد منها أسفل آثار سرجون ملك أكد يكاد يعدل ما يمتد فوق هذه الآثار إلى أعلى الطبقات الأرضية (أى إلى بداية القرن الأول من التاريخ الميلادي) .

وإذا حسبنا عمر نينور على هذا الأساس رجع بنا إلى عام ٥٢٦٢ ق . م . ويلوح أن أسراً قوية من ملوك المدن مستمسكة بعروشها قد ازدهرت في كش حوالي عام ٤٥٠٠ ق . م وفي أور حوالي ٣٥٠٠ ق . م . وإنا لنجد في التنافس الذي قام بين هذين المركزين الأولين من مراكز الحضارة القديمة أول دور من

أدوار النزاع بين السامية وغير السامية ، وهو النزاع الذى يكون فى تاريخ الشرق الأدنى مأساة دموية متصلة تبدأ من عهد عظمة كش السامية وتستمر خلال فتوح الملكين الساميين سرجون الأول وحمورابى إلى استيلاء القائدين الآريين قورش والإسكندر على بابل فى القرنين السادس والرابع قبل الميلاد ، وإلى اضطراع الصليبيين والمسلمين لامتلاك قبر المسيح ، وإلى التسابق التجارى ، وتمتد إلى هذا اليوم الذى يحاول فيه البريطانيون جاهدين أن يسيطروا على الأقوام الساميين المنقسمين على أنفسهم فى الشرق الأدنى وينشروا السلام فى ربوعه .

وبعد عام ٣٠٠٠ ق . م . تروى السجلات المكونة من ألواح الطين التى كان الكهنة يحتفظون بها ، والتى وجدت فى خرائب أور ، قصة دقيقة دقيقة لا بأس بها عن قيام ملوك المدائن وتبويجهم وانتصارهم غير المنقطع وجنائزهم الفخمة فى مدن أور وكش وأرك وما إليها . وما أكثر ما غالى المؤرخون فى هذا الوصف ، لأن كتابة التاريخ وتحيز المؤرخين من الأمور التى يرجع عهدها إلى أقدم الأزمان . وكان واحد من هؤلاء الملوك وهو أوروكاچينا ملك لكش ملكاً مصلحاً ومستبداً مستنيراً ، أصدر المراسيم التى تحرم استغلال الأغنياء للفقراء واستغلال الكهنة لكافة الناس . وينص أحد هذه المراسيم على أن الكاهن الأكبر يجب « ألا يدخل بعدها اليوم حديقة الأم الفقيرة يأخذ منها الخشب أو يستولى على ضريبة من الفاكهة » . وخفضت رسوم دفن الموتى إلى خمس ما كانت عليه ، وحرم على الكهنة وكبار الموظفين أن يقتسموا فيما بينهم ما يقر به الناس قرباناً للآلهة من أموال أو ماشية . وكان مما يباهى به الملك أنه « وهب شعبه الحرية » . وما من شك فى أن الألواح التى سجلت فيها مراسيمه تكشف عن أقدم القوانين المعروفة فى التاريخ وأقلها ألفاظاً وأكثرها عدلاً .

واختيمت هذه الفترة الواضحة من تاريخ أور كما تختتم فى العادة مثيلاتها من الفترات على يد رجل يدعى لوجال — زجيزى ، غزا لكش ، وأطاح بأوروكاچينا

ونهب المدينة وهي في أوج عزها ورخائها، وهدم معابدها، وذبح أهلها في الطرقات،
وساق أمامه تماثيل الآلهة أسيرة ذليلة. ومن أقدم القصائد المعروفة في التاريخ
قصيدة كتبت على لوح من الطين لعل عمرها يبلغ ٤٨٠٠ سنة يرثى فيها الشاعر
السومري دِنْجِرِ دَامُو انتهاب إلهة لكش ويقول فيها:

وأسفاه! إن نفسي لتذوب حسرة على المدينة وعلى الكنوز.
وأسفاه! إن نفسي لتذوب حسرة على مدينتي جرسو (لكش) وعلى
الكنوز.

إن الأطفال في جرسو المقدسة لقي بؤس شديد
لقد استقر (الغازي) في الضريح الأثم
وجاء بالملكة المعظمة من معبدها.

أى سيدة مدينتي المقفرة الموحشة متى تعودين؟^(١٥)

ولا حاجة بنا إلى الوقوف عند السفاح لوجال — زجيزى وغيره من الملوك
السومريين ذوى الأسماء الطنانة الرنانة أمثال لوجال — شجنجور، ولوجال —
كيجوب — تدودو، ونيجي — دبتى، ولوجال — أندرنوجنجا
وفي هذه الأثناء كان شعب آخر من الجنس السامى قد أنشأ مملكة أكد بزعامة
سرجون الأول، واتخذ مقر حكمه في مدينة أجاد على مسيرة مائتى ميل أو نحوها
من دول المدن السومرية من ناحية الشمال الغربى. وقد عثر في مدينة سومر على
أثر ضخيم مكون من حجر واحد يمثل سرجون ذا الحية كبيرة تخلع عليه كثيراً من
المهابة، وعليه من الثياب ما يدل على الكبرياء وعظيم السلطان. ولم يكن سرجون
هذا من أبناء الملوك: فلم يعرف التاريخ له أباً، ولم تكن والدته غير عاهرة من
عاهرات المعابد^(١٦). ولكن الأساطير السومرية اصطنعت له سيرة روتها على لسانه
شبيهة في بدايتها بسيرة موسى، فهو يقول: وحملت بى أمى الوضيعة الشأن،
وأخرجتنى إلى العالم سرّاً ووضعتنى في قارب من الأسل كالسلة، وأغلقت علىَّ

الباب بالقار»^(١٧). وأنجاه أحد العمال ، وأصبح فيما بعد ساقى الملك ، فقر به إليه ، وزاد نفوذه وسلطانه . ثم خرج على سيده وخلعه وجلس على عرش أجاد ، وسمى نفسه «الملك صاحب السلطان العالى» وإن لم يكن يحكم إلا قسماً صغيراً من أرض الجزيرة . ويسميه المؤرخون سرجون «الأعظم» لأنه غزا مدناً كثيرة ، وغنم مغنم عظيمة ، وأهلك عدداً كبيراً من الخلائق . وكان من بين ضحاياه لوجال — زجيزى نفسه الذى نهب لكش وانتهك حرمة إلهتها ، فقد هزمه سرجون وساقه مقيداً بالأغلال إلى نپور . وأخذ هذا الجندى الباسل يخضع البلاد شرقاً وغرباً ، شمالاً وجنوباً ، فاستولى على عيلام وغسل أسلحته فى مياه الخليج الفارسى العظيم رمزاً لانتصاراته الباهرة ، ثم اجتاز غرب آسية ووصل إلى البحر الأبيض المتوسط^(١٨) ، وأسس أول إمبراطورية عرفها التاريخ ، وظل يحكمها خمساً وخمسين سنة ، وتجمعت حوله الأساطير فهيات عقول الأجيال التالية لأن تجعل منه إلهاً . وانتهى حكمه ونار الثورة مشتعلة فى جميع أنحاء دولته .

وخلفه ثلاثة من أبنائه كل منهم بعد أخيه . وكان ثالثهم نارام — سن بناءً عظيماً وإن لم يبق من أعماله كلها إلا لوحة تذكارية تسجل انتصاره على ملك خامل غير ذى شأن . وقد عثر ده مورجان على هذه اللوحة ذات النقش البارز فى مدينة السوس عام ١٨٩٧ ، وهى الآن من كنوز متحف اللوفر ، وتمثل نارام — سن رجلاً مفتول العضلات ، مسلحاً بالقوس والسهام ، يطأ بقدميه فى خيلاء الملوك أجسام من ظفر بهم من أعدائه . ويدل مظهره على أنه يتأهب لأن يرد بالموت العاجل على توصل أعدائه المنهزمين واسترحامهم . وصور بين هؤلاء الأعداء أحد الضحايا وقد أصابه سهم اخترق عنقه فسقط على الأرض يحتضر ، وتطل على هذا المنظر من خلفه جبال زجروس . وقد سجل انتصار نارام — سن على أحد التلال بكتابة مسمارية جميلة . وتدل هذه اللوحة على أن فن النحت قد توطدت وقتئذ قواعده وأصبحت له تقاليد مرعية طويلة الأمد .

على إن إحراق مدينة من المدن لا يكون في جميع الأحوال من الكوارث
الأبدية التي تبتلى بها ، بل كثيراً ما يكون نافعا لها من الناحيتين العمرانية
والصحية . وهذه القاعدة تنطبق على لكش في ذلك العهد ، فقد ازدهرت هذه



شكل (٥) « جوديا الصغير »
تمثاله في متحف اللوفر

المدينة من جديد قبل أن يحل القرن السادس والعشرون قبل الميلاد ، وذلك في عهد
ملك آخر مستنير يدعى جوديا تعد تماثيله القصيرة المكتنزة أشهر ما بقي من آثار
فن النحت السومري . وفي متحف اللوفر تمثال له من حجر الديوريت يمثل في
موقف من مواقف التقوى ، ورأسه ملفوف بعصابة ثقيلة كالتي نراها في
التمائيل المقامة في مسرح الكولوسيوم ، ويداه مطويتان في حجره ، وكتفاه

وقدماء عارية ، وساقاه قصيرتان ضخمتان يغطيها ثوب نصفى مطرز بطائفة كبيرة من الكتابة المقدسة . وتدل ملامحه القوية المتناسبة على أنه رجل مفكر ، عادل ، حازم ، دمث الأخلاق . وكان رعاياه يحلون له ، لا لأنه جندي محارب ، بل لأنه فيلسوف مفكر أشبه ما يكون بالإمبراطور ماركس أوريليوس الرومانى ، يختص بعنايته الشؤون الدينية والأدبية والأعمال النافعة للإنشائية ، شاد المعابد ، وشجع دراسة الآثار القديمة بالروح التى تدرسها بها البعثات التى كشفت عن تماثله ، ويحد من سلطان الأقوياء رحمة بالضعفاء . ويفصح نقش من نقوشه التى عثر عليها عن سياسته التى من أجلها عبده رعاياه واتخذوه إلهاً لهم بعد موته : « فى خلال سبع سنين كانت الخادمة ندًا لخدمتها ، وكان العبد يمشى بجوار سيده ، واستراح الضعيف فى بلدى بجوار القوى » (١٩) .

وفى هذه الأثناء كانت « أور مدينة الكلدان » تنعم بعهد من أكثر عهودها الطوال رخاء وازدهاراً ، امتد من عام ٣٥٠٠ ق . م (وهو على ما يلوح عهد أقدم مقابرها) إلى عام ٧٠٠ ق . م . وأخضع أعظم ملوكها أور — أنجور جميع بلاد آسية الغربية ونشر فيها لواء السلام ، وأعلن فى جميع الدولة السومرية أول كتاب شامل من كتب القانون فى تاريخ العالم . وفى ذلك يقول : « لقد أقمت إلى أبد الدهر صرح العدالة المستندة إلى قوانين شمس الصالحة العادلة » (٢٠) . ولما زادت ثروة أور بفضل التجارة التى انصبت إليها صبا عن طريق نهر الفرات فعل فيها ما فعل بركليز بأثينا من بعده فشرع يحملها بإنشاء الهيكل ، وأقام فيها هي وغيرها من المداثن الخاضعة له أمثال لارسا وأوروك ونيور كثيراً من الأبنية . وواصل ابنه دنجى طوال حكمه الذى دام ثمانية وخمسين عاماً أعمال أبيه ، وحكم البلاد حكماً عادلاً حكماً ، جعل رعاياه يتخذونه من بعده موته إلهاً ، ويصفونه بأنه الإله الذى أعاد إليهم جنتهم القديمة .

لكن سرعان ما أخذ هذا المجد يزول ، فقد انقض على أور التى كانت تنعم

وقبئذ بالرخاء والفراغ والسلم أهل عيلام ذوو الروح الحربية من الشرق ،
والعموريون الذين علا شأنهم وقبئذ من الغرب ، وأسروا ملكها ، ونهبوها
ودصروها شر تدمير . وأنشأ شعراء أور القصائد التي يندبون فيها انتهاب تمثال
إشتار أهم الإلهة المحبوبة التي انتزعها من ضريحها الغزاة الآثمون . ومن الغريب
أن هذه القصائد قد صيغت في صيغة المتكلم ، وأسلوبها مما لا تسر منه آذان الأدباء
السفستائيين ، ولكننا على الرغم من هذا نحس من خلال الأربعة الآلاف من
السنين التي تفصل بيننا وبين الشاعر السومري بما حل بالمدينة وأهلها من خراب
وتدمير . يقول الشاعر :

لقد انتهك العدو حرمتي بيديه النجستين ؛
انتهكت يداه حرمتي وقضى على من شدة الفزع .
آه ، ما أتعس حظي ! إن هذا العدو لم يظهر لي شيئاً من الاحترام ،
بل جرّذني من ثيابي وألبسها زوجه هو ،
وانتزع مني حلي وزين بها أخته ،
وأنا (الآن) أسيرة في قصوره — فقد أخذ يبحث عني
في ضريحي — واحسرتاه . لقد كنت أرتجف من هول اليوم الذي أخرج فيه ،
فقد أخذ يطاردني في هيكلتي ، وقذف الرعب في قلبي ،
هناك بين جدران بيتي ؛ وكنت كالجمامة ترفرف ثم تحط
على رافدة ، أو كالبومة الصغيرة اختبأت في كهف ،
وأخذ يطاردني في ضريحي كما يطارد الطير ،
طاردني من مدينتي كما يطارد الطير وأنا أتحسر وأنادي
« إن هيكلتي من خلفي ، ما أبعد المسافة بينه وبينني » (٢١) .

وهكذا ظلت بلاد سومر خاضعة لحكم العيلاميين والعموريين مائتي عام
تبدو لأعيننا كأنها لحظة لا خطر لها .

ثم أقبل من الشمال حمورابى العظيم ملك بابل واستعاد من العيلاميين أوروك وإيسين ، وظل ساكناً ثلاثاً وعشرين سنة غزا بعدها بلاد عيلام ، وقبض على ملكها ، وبسط حكمه على عمور وأشور النائية ، وأنشأ إمبراطورية لم يعهد التاريخ من قبل لها مثيلاً فى قوتها ، وسنّ لها قانوناً عاماً نظم شئونها . وظل الساميون بعد ذلك الوقت قرناً كثيرة يحكمون ما بين النهرين حتى قامت دولة الفرس ، فلم نعد نسمع بعدئذ شيئاً عن السومريين إذ طويت صفهم القليلة فى كتاب التاريخ .

٢ — الحياة الاقتصادية

الزراعة — الصناعة — التجارة — طبقات الناس — العلوم

انقضى عهد السومريين ، ولكن حضارتهم لم يقض عليها ، فقد ظلت سومر وأكد تخرجان صناعات وشعراء وفنانين وحكام ورجال دين ، وانتقلت حضارة المدن الجنوبية إلى الشمال على طول مجرى الفرات ودجلة حتى وصلت إلى بلاد بابل وأشور ، وكانت هى التراث الأول لحضارة بلاد الجزيرة .

وكان أساس هذه الثقافة هو تربة الأرض التى أخصبها فيضان النهرين السنوى ، وهو الفيضان الناشئ من سقوط الأمطار الشتوية . وكان هذا الفيضان ضاراً ونافعاً ، فقد هدى السومريين إلى أن يجروا ماءه جرياناً أميناً فى قنوات للرى تخترق البلاد طولاً وعرضاً ؛ وقد خلدوا أخطاره الأولى بالقصص التى تتحدث عن فيضان عظيم طغى على الأرض ثم انحسر عنها آخر الأمر ونجا الناس من شره^(٢٣) . وكان نظام الرى المحكم الذى يرجع عهده إلى ٤٠٠٠ سنة قبل الميلاد من أعظم الأعمال الإنشائية فى الحضارة السومرية ، وما من شك فى أنه كان أيضاً الأساس الذى قامت عليه . فقد أخرجت الحقول التى عنوا بريها وزرعها محصولات موفورة من الذرة والشعير والقمح والبلح والخضر الكثيرة المختلفة

الأنواع ، وظهر عندهم المحراث من أقدم العصور تجره الثيران كما كانت تجره في بلادنا حتى الأمس القريب . وكان يتصل به أنبوبة مثقوبة لبذر البذور . وكانوا يدرسون المحاصيل بعربات كبيرة من الخشب ركبت فيها أسنان من الظران تفتت القش ليكون علفا للماشية ، وتفصل منه الحب ليكون طعاما للناس^(٢٤) .

ولقد كانت هذه الثقافة ثقافة بدائية من نواح كثيرة . فقد كان السومريون يستخدمون النحاس والقصدير ، وكانوا يخلطونهما في بعض الأحيان ليصنعوا منهما البرنز ، وبلغ من أمرهم أنهم كانوا من حين إلى حين يصنعون من الحديد آلات كبيرة^(٢٥) . ولكن المعادن مع هذا كانت نادرة الوجود قليلة الاستعمال ؛ وكانت كثرة الآلات السومرية تتخذ من الظران ، وبعضها ، كالمناجل التي يقطع بها الشعير ، يصنع من الطين ؛ أما الدقيق منها كالأبر والمثاقب فكان يصنع من العاج والعظام^(٢٦) . وكانت صناعة النسيج واسعة الانتشار يشرف عليها مراقبون يعينهم الملك^(٢٧) على أحدث طراز من الإشراف الحكومي على الصناعات عرف حتى الآن . وكانت البيوت تبنى من الغاب تعلوه لبنات من الطين والقش تعجن بالماء وتجفف في الشمس . ولا يزال من السير العشور على منازل من هذا الطراز في الأرض التي كانت من قبل بلاد سومر ، وكان لهذه الأكواخ أبواب من الخشب تدور في أوقاب منحوتة في الحجارة ، وكانت أرضها عادة من الطين ، وسقفها مقوسة تصنع من الغاب المثني إلى أعلى ، أو مستوية مصنوعة من الغاب المغطى بالطين المبسوط فوق دعائم من الخشب . وكانت البقر والضأن والمعز والخنازير تجول في المساكن في رفقة الإنسان البدائية . وكان ماء الشرب يؤخذ من الآبار^(٢٨) .

وأكثر ما كانت تنقل البضائع بطريق الماء . ولما كانت الحجارة نادرة الوجود في بلاد سومر فقد كانت تنقل إليها من خارج البلاد عن طريق الخليج الفارسي أو من أعالي النهرين ، ثم تحمل في القنوات إلى أرصفة المدن النهرية .

لكن النقل البرى أخذ ينمو وينتشر ، وشاهد ذلك ما كشفته بعثة أ كسفر د في كش من مركبات هى أقدم ما عرف من المركبات ذات العجلات فى تاريخ العالم^(٢٩) . وقد عثر فى أما كن متفرقة على أختام يستدل منها على وجود صلات تجارية بين سومر و بين مصر والهند^(٣٠) . ولم تكن النقود قد عرفت فى ذلك الوقت ، ولهذا كانت التجارة تتبادل عادة بطريق المقايضة ، ولكن الذهب والفضة كانا يستعملان حتى فى ذلك الوقت البعيد لتقدير قيم البضائع ، وكانا يقبلان فى العادة بدلاً من البضائع نفسها — إما على هيئة سبائك وحلقات ذات قيم محدودة وإما بكميات تقدر قيمتها حسب وزنها فى كل صفقة تجارية . وكانت الطريقة الثانية أكثر الطريقتين استعمالاً . وإن كثيراً من ألواح الطين التى وصلت إلينا وعليها بعض الكتابة السومرية لهى وثائق تجارية تكشف عن حياة تجارية جمّة النشاط . ويتحدث لوح من هذه الألواح فى لغة تدل على الملل والسامة عن « المدينة التى تعج بضوضاء الإنسان » . وكان لديهم عقود مكتوبة موثقة يشهد عليها الشهود ، ونظام للائتمان تقرض بمقتضاه البضائع والذهب والفضة ، وتؤدى عنها فوائد عينية يختلف سعرها من ١٥ ٪ إلى ٣٣ ٪ فى السنة^(٣١) . ولما كان استقرار المجتمع يتناسب إلى حد ما تناسباً عكسياً مع سعر الفائدة فإن لنا أن نفترض أن التجارة السومرية كانت كتجارتنا يحيط بها جو من الارتباب والاضطراب الاقتصاديين والسياسيين .

وقد وجدت فى المقابر كميات كبيرة من الذهب والفضة منها ما هو حلى ومنها ما هو أوان وأسلحة وزخارف ، بل إن منها ما هو عدد وآلات . وكان أهل البلاد الأغنياء منهم والفقراء ينقسمون إلى طبقات ومراتب كثيرة ، وكانت تجارة الرقيق منتشرة بينهم وحقوق الملكية مقدسة لديهم^(٣٢) . ونشأت بين الأغنياء والفقراء طبقة أفرادها من صغار رجال الأعمال وطلاب العلم والأطباء والكهنة . وقد علا شأن الطب عندهم فكان لكل داء دواء خاص ، ولكنه ظل مختلط

بالدين ويعترف بأن المرض لا يمكن شفاؤه إلا إذا طردت الشياطين من أجسام المرضى ، لأن الأمراض إنما تنشأ من تقمصها هذه الأجسام . وكان لديهم تقويم ، لا نعرف متى نشأ ولا أين نشأ ، تقسم السنة بمقتضاه إلى اثني عشر شهرا قمريا يزيدونها شهراً في كل ثلاثة أعوام أو أربعة حتى يتفق تقويمهم هذا مع فصول السنة ومع منازل الشمس . وكانت كل مدينة تسمى هذه الأشهر بأسماء خاصة^(٣٣)

٣ — نظام الحكم

الملك — الخطط الحربية — أمراء الإقطاع — القانون

والحق أن كل مدينة كانت شديدة الحرص على استقلالها ، تعض عليه بالنواجذ ، وتستمتع بملك خاض بها تسميه باتيسي أو الملك — الكاهن فتدل بهذه التسمية نفسها على أن نظام الحكم كان وثيق الاتصال بالدين . وما وافي عام ١٨٠٠ ق . م حتى نمت التجارة نموا جعل هذا الانفصال بين المدن أمراً مستحيلاً ، فنشأت منها جميعاً « إمبراطوريات » استطاعت فيها شخصية قوية عظيمة أن تخضع المدن والملك — الكهنة لسلطانها ، وأن تؤلف من هذه المدن وحدة سياسية واقتصادية . وكان هذا الملك الأعظم صاحب السلطان المطلق يحيط به جو من العنف والخوف شبيه بما كان يحيط بالملك في عصر النهضة الأوروبية . ذلك بأنه كان معرضاً في كل وقت إلى أن يقضى عليه بنفس الوسائل التي قضى بها على أعدائه وارتقى بها عرشه . وكان يعيش في قصر منيع له مدخلان ضيقان لا يتسع الواحد منهما لدخول أكثر من شخص واحد في كل مرة . وكان عن يمين المدخل وشماله مخابى يستطيع من فيها من الحراس السريين أن يفحصوا عن كل زائر أو ينقضوا عليه بالخناجر^(٣٤) . بل إن هيكلك الملك كان هو نفسه مكاناً سرياً مختفياً في قصره يستطيع أن يؤدي فيه واجباته الدينية دون أن تراه الأعين ، أو أن يغفل أداءها دون أن يعرف الناس شيئاً عن هذا الإغفال .

وكان الملك يخرج إلى الحرب في عربة على رأس جيش مؤلف من خليط من المقاتلين مسلحين بالقسي والسهام والحراب . وكانت الحرب تشن لأسباب صريحة هي السيطرة على طرق التجارة والاستحواذ على السلع التجارية ؛ فلم يكن يخطر لهم ببال أن يستروا هذا الغرض بستار من الألفاظ يخدعون بها أصحاب المثل العليا . من ذلك أن منشئوسو ملك أكد أعلن في صراحة أنه يغزو بلاد عيلام ليستولى على ما فيها من مناجم الفضة ، وليحصل منها على حجر الديوريت لتصنع منه التماثيل التي تخذل ذكره في الأعقاب — وتلك هي الحرب الوحيدة في التاريخ التي تخوضها الجيوش لأغراض فنية . وكان المغلوبون يباعون ليكونوا عبيداً ، فإذا لم يكن في بيعهم ربح ذبحوا ذبحاً في ميدان القتال . وكان يحدث أحيانا أن يقدم عشر الأسرى قربانا إلى الآلهة المتعطشة للدماء ، فيقتلوا بعد أن يوضعوا في شباك لا يستطيعون الإفلات منها . وقد حدث في هذه المدن ما حدث بعدئذ في المدن الإيطالية في عصر النهضة ، فكانت النزعة الانفصالية التي تسود المدن السومرية حافزا قويا للحياة والفن فيها ، ولكنها كانت كذلك باعثا على العنف والنزاع الداخلي ، فأدى هذا إلى ضعف الدويلات جميعها وإلى سقوط بلاد سومر بأكملها^(٣٥) .

وكان نظام الإقطاع وسيلة حفظ النظام الاجتماعي في الإمبراطورية السومرية . فقد كان الملك عقب كل حرب يُقطع الزعماء البواسل مساحات واسعة من الأرض ويعفيها من الضرائب . وكان من واجب هؤلاء الزعماء أن يحافظوا على النظام في إقطاعاتهم ، ويقدموا الملك حاجته من الجند والعتاد . وكانت موارد الحكومة تتكون من الضرائب التي تجبي عيناً وتخزن في المخازن الملكية وتؤدي منها مرتبات موظفي الدولة وعملها^(٣٦) .

وكان يقوم إلى جانب هذا النظام الملكي الإقطاعي طائفة من القوانين تستند إلى سوابق كثيرة من عهد أور — أنجور ودنجي اللذين جمعوا قوانين أور ودونهاها .

فكانت هي المعين الذي استمد منه حمورابي شريعته الدائمة الصيت . وكانت تلك الشرائع أبسط وأكثر بدائية من الشرائع اللاحقة ، ولكنها كانت أيضاً أقل منها قسوة .

مثال ذلك أن الشرائع السامية تقضى بقتل الزوجة إذا زنت ، أما الشريعة السومرية فكل ما تميزه أن تسمح للزوج بأن يتخذ له زوجة ثانية ، وأن ينزل الزوجة الأولى منزلة أقل من منزلتها السابقة^(٣٧) . والقانون السومري يشمل العلاقات التجارية كما يشمل العلاقات الزوجية والجنسية بوجه عام ، وينظم شئون القروض والعقود ، والبيع والشراء ، والتبني والوصية بكافة أنواعها . وكانت المحاكم تعقد جلساتها في المعابد وكان معظم قضاتها من رجال الدين ؛ أما المحاكم العليا فكان يعين لها قضاة فنيون مختصون . وخير ما في القانون كله هو النظام الذي وضعه لتجنب التقاضي : ذلك أن كل نزاع كان يعرض أولاً على محكم عام واجبه أن يسويه بطريقة ودية دون أن يلجأ المتنازعون إلى حكم القانون^(٣٨) ، فيها هي ذي مدنية بدائية يجدر بنا أن نتلقى منها درساً نصالح به مدنيقتنا .

٤ — الدين والأفهام

يجمع الآلهة السومرية — طعام الآلهة — الأساطير — التعليم — صلاة سومرية — عاهرات المعابد — حقوق المرأة — أدهنة الشعر والوجه

نشر أور — أنجور في البلاد شرائعه باسم الإله الأعظم شمش ، ذلك أن الحكومة سرعان ما رأت ما في الالتجاء إلى الدين من فوائد سياسية . فلما أن أصبح الآلهة ذوي فائدة من هذه الناحية تضاعف عددهم مراراً حتى أصبح لكل مدينة ، ولكل ولاية ، ولكل نوع من النشاط البشري ، إله موحد مدبر . وكانت عبادة الشمس قد تقادم عهدها حين نشأت بلاد سومر ، وكان مظهرها عبادة شمس « نور الآلهة » الذي كان يقضى الليل في الأعماق الشمالية حتى يفتح

له الفجر أبوابه فيصعد في السماء كاللهب ويضرب بعربته في أعماق القبة الزرقاء . ولم تكن الشمس إلا عجلة في مركبته النارية^(٣٩) . وشيدت مدينة نپور المعابد العظيمة للإله إنليل ولصاحبته نهيل ، وأكثر ما كانت تعبد أوروك إلهة إنيني العذراء إلهة الأرض والمعروفة لدى أهل أكّد الساميين باسم إستير ، والتي تشبه عند أهل الشرق الأدنى أفرديتي — ديمتر الفاجرة الغعلبيجة عند الغربيين . وعبدت مدينتا كس ولكش أمّاهما حزينة هي الإلهة ننكر ساج التي أحزنها شقاء البشر فأخذت تشفع لهم عند الآلهة الذين كانوا أشد منها قسوة^(٤٠) ؛ وكان ننجرسو إله الرّبيّ و « ربّ الفيضانات » . وكان أبو أوتموز إله الزرع ؛ وكان سنّ إله القمر ، وكانوا يمثلونه في صورة إنسان يعلو رأسه هلال أشبه شيء بالهالات التي تحيط برؤوس التقديسين في العصور الوسطى ؛ وكان الهواء كله في زعمهم مملوءاً بالأرواح — منها ملائكة خيرون لكل سومري ملك منهم يحميه ، ومنها أرواح خبيثة أو شياطين تعمل جاهدة لطرد الروح الخيرة الواقي وتقمص جسم الآدمي وروحه

وكانت كثرة الآلهة تسكن المعابد حيث يقرب لها المؤمنون القرابين من مال وطعام وأزواج ، وتنص ألواح جوديا على الأشياء التي ترتاح لها الآلهة وتفضلها عن غيرها ، ومنها الثيران ، والمعز ، والضأن ، واليمام ، والدجاج ، والبط ، والسمك والبلح ، والتين ، والخيار ، والزبد ، والزيت ، والكمك^(٤١) . ولنا أن نستدل من هذا الثبت على أن الموسرين من أهل البلاد كانوا يقيمون بالكثير من أصناف الطعام ؛ ويلوح أن الآلهة كانوا في بادئ الأمر يفضلون لحم الآدميين ، فلما ارتقت أخلاق الناس لم يجدوا بدءاً من الاقتناع بلحم الحيوان .

وقد عثر في الخرائب السومرية على لوحة نقش عليها بعض الصلوات وجاءت فيها هذه النذر الدينية الغريبة : « إن الضأن فداء للحم الآدميين ، به افتدى الإنسان حياته »^(٤٢) ، وأثرى الكهنة من هذه القرابين حتى أصبحوا أكثر الطبقات مالا وأعظمها قوة في المدن السومرية ، وحتى كانوا هم الحكام

المتصرفين في معظم الشئون ، حتى ليصعب علينا أن نحكم إلى أى حد كان البابائيسى كاهناً — وإلى أى حد كان ملكاً .

فلما أسرف الكهنة في ابتزاز أموال الناس نهض أورو كاجينا كما نهض لوثر فيما بعد ، وأخذ يندد بنهمهم وجشعهم ، ويتهمهم بالرشوة في توزيع العدالة ، وبأنهم يتخذون الضرائب وسيلة يبتزون بها من الزراع والصيادين ثمرة كدهم . وأفلح وقتاً ما في تطهير المحاكم من هؤلاء الموظفين المرتشين الفاسدين ، وسن قوانين لتنظيم الضرائب والرسوم التي تؤدي للمعابد ، وحى الضعفاء من ضروب الابتزاز ، ووضع الشرائع التي تحول دون اغتصاب الأموال والأموال^(٤٣) . لكن العالم كان قد عمر حتى شاخ ، وتأصلت فيه الأساليب القديمة التي غشّاها الزمان بشيء من التبجيل والتقديس .

واستعاد الكهنة سلطانهم بعد موت أورو — كاجينا كما استعادوا سلطانهم في مصر بعد موت إخناتون ؛ ذلك أن الناس لا يترددون في أن يؤدوا أغلى الأثمان لكي يعودوا إلى ما خطته لهم أساطيرهم ؛ وكانت جذور الأساطير الدينية حتى في ذلك العهد السحيق قد أخذت تتأصل في العقول . ومن حقنا أن نفترض أن السومريين كانوا يؤمنون بالحياة الآخرة ، لأن الطعام والأدوات كانت تدفن مع الموتى في القبور^(٤٤) ، ولكنهم كانوا يصورون الدار الآخرة ، كما صورها اليونان من بعدهم ، عالماً مظلماً تسكنه الأطياف التعسة ويهوى إليه الموتى أيا كان شأنهم من غير تمييز بينهم .

ولم تكن فكرة الجنة والنار والنعيم الدائم والعذاب الخلد ، قد استقرت بعد في عقولهم ، ولم يكونوا يتقدمون بالصلاة والقربان طمعاً في « الحياة الخالدة » ، بل كانوا يتقدمون بهما طمعاً في النعم المادية الملموسة في الحياة الدنيا^(٤٥) . وتصف إحدى الأساطير المتأخرة كيف علمت إى إلهة الحكمة أدايا حكيمٍ يريدو جميع العلوم ، ولم تخف عنه من أسرارها إلا سراً واحداً — هو سر الحياة الأبدية التي

لا تنتهى بالموت^(٤٦). وتقول أسطورة أخرى إن الآلهة خلقت الإنسان منعا سعيدا ، ولكنه أذنب وارتكب الخطايا بإرادته الحرة ، فأرسل عليه طوفان عظيم عقابا له على فعله ، فأهلك الناس كافة ولم ينج منه إلا رجل واحد هو تجتوج الحائك ، وإن تجتوج هذا خسر الحياة الخالدة والعافية لأنه أكل فاكهة شجرة محرمة^(٤٧). وكان الكهنة يعلمون الناس العلوم ويلقنونهم الأساطير ، وما من شك في أنهم كانوا يتخذون من هذه الأساطير سبيلا إلى تعليم الناس ما يريدونه هم ، وإلى حكمهم والسيطرة عليهم . وكانت تلحق بمعظم الهياكل مدارس يعلم فيها الكهنة الأولاد والبنات الخط والحساب ، ويغرسون في نفوسهم مبادئ الوطنية والصلاح ، ويعدون بعضهم للمهنة العليا مهنة الكتبة . ولقد بقيت لنا من أيامهم الألواح المدرسية وعليها جداول للضرب والقسمة ، والجذور التربيعية والتكعيبية ، ومسائل في الهندسة التطبيقية^(٤٨) . ويستبدل من أحد الألواح المحتوية على خلاصة لتاريخ الإنسان الطبيعي على أن ما كان يتلقاه أطفال ذلك العهد من هذا العلم لم يكن أسخف كثيرا مما يتلقاه أبناؤنا في هذه الأيام . فقد جاء في هذا اللوح : « إن الإنسان في أول خلقه لم يكن يعرف شيئا عن خبز يؤكل أو ثياب تلبس ، فكان الناس يمشون مكبين على وجوههم ، يقتلعون الأعشاب بأفواههم ليقبضوا بها كما تقبضت بها الأغنام ، ويشربون الماء من حفر في الأرض^(٤٩) » .

ومن أعظم الشواهد الناطقة بما بلغه من هذا الدين — وهو أول الأديان التي عرفها التاريخ — من نبيل في التعبير والتفكير ، ذلك الدعاء الذي يقضيه به الملك جوديا للإلهة « بو » راعية لكش ونصيرتها :

أى ملكتى ، أيتها الأم التى شيدت لكش

إن الذين تلحظينهم بعينيك ينالون العزة والسلطان ،

والعابد الذى تنظرين إليه تطول حياته ؛

أنا لیس لی أم — فأنت أمى ،

وليس لى أب — فأنت أبى ... ؛
أى إلهتى بو ؟ إن عندك علم الخير ،
وأنت التى وهبتنى أنفاس الحياة ،
وسأقيم فى كنفك أعظمك وأجّلك ،
وأحتفى بحماك يا أمّاه (٥٠)

وكان يتصل بالهياكل عدد من النساء منهن خادّيات ، ومنهن سرارى
للآلهة أو لممثليهم الذين يقومون مقامهم على الأرض ؛ ولم تكن الفتاة السومرية
ترى شيئاً من العار فى أن تخدم الهياكل على هذا النحو ، وكان أبوها يفخر بأن
يهب جمالها ومفاتها لتخفيف ما يعترى حياة الكهان المقدسة من ملل وسامة ؛ وكان
يحتفل بإدخال ابنته فى هذه الخدمة المقدسة ، ويقرب القرابين فى هذا الاحتفال ،
كما كان يقدم بائنة ابنته إلى المعبد الذى تدخله (٥١)

وكان الزواج قد أصبح وقتئذ نظاماً معقداً تحوطه شرائع كثيرة . فكانت
البنت إذا تزوجت تحتفظ لنفسها بما يقدمه أبوها من بائنة ؛ ومع أن زوجها كان
يشترك معها فى القيام على هذه البائنة ، فقد كان لها وحدها أن تقرر من يرثها بعد
وفاتها . وكان لها من الحقوق على أولادها ما لزوجها نفسه ، وإذا غاب زوجها ولم
يكن لها ابن كبير يقيم معها كانت تدير هى المزارع كما تدير البيت . وكان لها أن تشغل
بالأعمال التجارية مستقلة عن زوجها ، وأن تحتفظ بعبيدها أو تطلق سراحهم .
وكانت تسمى أحياناً إلى منزلة الملكة كما سمت شوب — آد وتحكم مدينتها حكماً
رحيماً رغداً قوياً (٥٢) . غير أن الرجل كان هو السيد المسيطر فى الأزمات جميعها
وكان من حقه فى بعض الظروف أن يقتل زوجته أو يبيعها أمة وفاء لما عليه من
الديون . وكان الحكم الأخلاقى على الرجل يختلف عن الحكم الأخلاقى على
المرأة حتى فى ذلك العهد السحيق ، وكان ذلك نتيجة لازمة لاختلافهما فى شئون
الملكية والوراثة . فزنى الرجل كان يعد من النزوات التى يمكن الصفح عنها ،

أما زنى الزوجة فكان عقابه الإعدام ، وكان ينتظر منها أن تلد لزوجها وللدولة كثيراً من الأبناء ؛ فإذا كانت عاقراً جاز طلاقها لهذا السبب وحده ، أما إذا كرهت أن تقوم بواجبات الأمومة ، فكانت تقتل غرقاً . ولم يكن للأطفال شيء من الحقوق الشرعية ، وكان للآباء إذا تبرءوا منهم علناً أن يحملوا ولاية الأمور على نفيهم من المدينة^(٥٣) .

غير أن نساء الطبقات العليا كن يحمين حياة مترفة ، وكان لهن من النعم ما يكاد يعدل بؤس أخواتهن الفقيرات ، شأنهن في هذا شأن النساء في جميع الحضارات . فالأدهان والأصباغ والجواهر من أظهر العاديات في المقابر السومرية وقد كشف الأستاذ ولي في قبر الملكة شوب — آد عن مدهنة صغيرة من دهنج^(*) أزرق مشرب بخضرة ، وعلي دبابيس من الذهب رؤوسها من اللازورد ، كما عثر أيضاً على مثبتة عليها قشرة من الذهب المحرم . وقد وجدت في هذه المثبنة التي لا يزيد حجمها على حجم الخنصر ملعقة صغيرة لعلها كانت تستخدم في أخذ الصبغة الحمراء من المدهنة . وكان فيها أيضاً عصا معدنية يستعان بها على ملوسة الجلد ، وملقط لعله كان يستعمل لتزجيح الحاجبين أو لنزع ما ليس مرغوباً فيه من الشعر . وكانت خواتم الملكة مصنوعة من أسلاك الذهب وكان أحدها مطعماً بفصوص من اللازورد ، وكان عقدها من الذهب المنقوش واللازورد . وما أصدق للمثل القائل إنه لا جديد تحت الشمس وإن الفرق بين المرأة الأولى والمرأة الأخيرة ليتسع له سم الخياط .

(*) الدهنج كجمر جوهر كالزمرد ويسمى أيضاً الملائخيت Malachite (الترجم)

(٣ — قصة الحضارة — ج ٢)

٥ — الآداب والفنون

الكتابة — الأدب — الهياكل والقصور — صناعة التماثيل —
صناعة الفخار — الحلى — كلمة موجزة عن المدينة السومرية

الكتابة أروع ما خلفه السومريون ، ويبدو هذا الفن عندهم فنا عظيم الرقي صالحا للتعبير عن الأفكار المعقدة في التجارة والشعر والدين . والنقوش الحجرية أقدم ما عثر عليه من النقوش ، ويرجع عهدا إلى عام ٣٦٠٠ ق . م ^(٥٤) ؛ وتبدأ الألواح الطينية في الظهور حوالي ٣٢٠٠ ق . م . ويلوح أن السومريين قد بدءوا من ذلك الوقت يجدون في هذا الكشف العظيم ما ترتاح له نفوسهم وما ينفي بأغراضهم . ولقد كان من حسن حظنا أن سكان ما بين النهرين لم يكتبوا بالمداد السريع الزوال على الورق السريع العطب القصير الأجل ، بل كتبوا على الطين الطرى ونقشوا عليه ما يريدون نقشه بسن آلة حادة كالإسفين . وكانوا في ذلك جد مهرة ، فاستطاع كتابهم بفضل هذه المادة اللينة أن يحتفظوا بالسجلات ، ويدونوا العقود والمشارطات ، ويكتبوا الوثائق الرسمية ، ويسجلوا الممتلكات والأحكام القضائية والبيوع ، ويخلقوا من هذه كلها حضارة لم يكن القلم فيها أقل قوة من السيف . وكان الكاتب إذا أتم ما يريد كتابته جفف اللوح الطيني في النار أو عرضه لحرارة الشمس ، فجعله بذلك مخطوطا أبقى على الدهر من الورق ، ولا يفوقه في طول عمره إلا الحجر وحده . وكانت نشأة هذه الكتابة المسمارية وتطورها أعظم ما للسومريين من فضل على الحضارة العالمية .

ونقرأ الكتابة السومرية من اليمين إلى اليسار ؛ والبابليون على ما نعلم هم أول من كتب من اليسار إلى اليمين . ولعل الكتابة في سطور كانت نوعا من العلامات والصور التي جرى بها العرف والتي كانت تصور أو تنقش على الأواني الخزفية السومرية البدائية ^(*) . وأكبر الظن أن الصور الأصلية قد صغرت وبسطت

(*) ارجع إلى ما قلناه عن الكتابة في الجزء الأول .

في خلال القرون الطويلة وبسبب الرغبة في سرعة كتابتها ، حتى أضحت شيئاً فشيئاً علامات تختلف في شكلها اختلافاً تاماً عن الأشياء التي كانت تمثلها ، فصارت بهذا رموزاً للأصوات لا صوراً للأشياء . ولنضرب لهذا مثلاً من اللغة العربية يوضح هذه الطريقة وهو صورة العين . فإذا افترضنا أن صورة العين قد صغرت وبسطت وصورت حتى لم يعد معناها العين نفسها بل كان هو الصوت الخاص الذي تمثله مع حركتها (وهو الفتحة في هذه الحال) والذي ينطق به مع حروف أخرى في كلمات مختلفة كالعسل مثلاً ، كان هذا شبيهاً بما حدث في اللغة السومرية (*) . ولم يخط السومريون الخطوة التالية في هذا التطور فيجعلوا الرسم ممثلاً للحرف وحده دون الحركة فيفصلوا الحركة عنه حتى يمكن استخدام العلامة الدالة على العين في ألفاظ مثل غنب وعرقوب ومعمل تختلف حركة العين فيها عن الفتحة . وظلت هذه الخطوة التي أحدثت انقلاباً عظيماً في طرق الكتابة حتى خطاها قدماء المصريين (٥٥) .

ويغلب على الظن أن الانتقال من الكتابة إلى الأدب تطلب عدة مئات من السنين . فقد ظلت الكتابة قروناً عدة أداة تستخدم في الأعمال التجارية لكتابة العقود والصكوك ، وقوائم البضائع التي تنقلها السفن ، والإيصالات ونحوها ؛ ولعلها كانت بالإضافة إلى هذا أداة لتسجيل الشؤون الدينية ، ومحاولات للاحتفاظ بالطلاسم السحرية ، والإجراءات المتبعة في الاحتفالات والمراسم ، وبالأقاصيص المقدسة ، والصلوات والتراتيل ، حتى لا تبعد أو يدخل عليها المسخ والتغيير . ومع هذا فلم يحل عام ٢٧٠٠ ق.م حتى كان عدد كبير من دور الكتب العظيمة قد أنشئ في المدن السومرية . فقد كشف ده سرزاك في مدينة تلو مثلاً ،

(*) هذا المثل من وضعنا . وأما المؤلف فقد ضرب مثلاً حرف b الإنجليزى ومركباته bee (النحلة) ، being كائن . كذلك عدلنا الكلام في الفقرة التالية حتى يتفق مع المثل العربى . والمعنى رغم هذا التغيير واحد ويوضح ما يرمى إليه المؤلف . ولسنا نعد هذا تصرفاً في الترجمة بل نراه واجباً ضرورياً للترجمة الصحيحة . (المترجم)

وفي أنقاض عمائر معاصرة لعهد جوديا ، مجموعة مؤلفة من ثلاثين ألف لوح موضوعة بعضها فوق بعض في نظام أنيق منطقي دقيق^(٥٦) . وبدأ المؤرخون السومريون من عام ٢٠٠٠ ق . م يكتبون ماضيهم ويسجلون حاضرهم ليخلفوه لمن يجيء بعدهم . ووصلت إلينا أجزاء من هذه السجلات ولكنها لم تصل إلينا في صورتها الأصلية بل جاءتنا مقتبسة في تواريخ المؤرخين البابليين . على أن من بين ما بقي من هذه الكتب في صورته الأصلية لوحا غثر عليه في نيور كتب عليه الأصل السومري البدائي للمحمة جلعيمش التي سندرسها فيما بعد في الصورة التي تطورت إليها عند البابليين^(٥٧) . وتحتوي بعض الألواح المحطمة على مرثيات ذات قوة لا بأس بها في أسلوب أدبي خليق بالتقدير . وفي هذه الألواح تبدأ خاصة التكرار اللفظي الذي تمتاز به أغاني الشرق الأدنى ، فترى ألفاظا بعينها تتكرر في بداية السطور ، كما ترى كثيراً من الجمل تكرر المعنى الذي ذكر في جمل سابقة أو توضحه . وفي هذه الآثار التي نجت من عوادي الأيام ترى النشأة الدينية للأدب في الأغاني والمرثيات التي يرددوها الكهنة . فلم تكن القصائد الأولى إذن أراجيز أو أناشيد غزلية بل كانت صلوات وأدعية دينية .

وما من شك في أن قرونا طويلة من النماء والتطور في سومر وفي غيرها من البلاد قد سبقت هذه البدايات الثقافية الظاهرة ؛ فهذه الثقافات لم يبتدعها السومريون في هذه الحقبة بل نمت عندهم وتطورت . وكما يبدو في الكتابة أن السومريين قد ابتدعوا الخط المسماري ، كذلك يبدو في العمارة أنهم ابتدعوا الأشكال الأساسية للمنازل والهياكل والأعمدة والقباب والعقود^(٥٨)

ويخيل إلينا أن الفلاح السومري كان في أول الأمر ينشئ كوخه بأن يغرس الأعواد على هيئة مربع أو مستطيل أو دائرة ، ويثني أعلاها حتى تجتمع ، ثم يربطها حتى يتكون منها قوس أو عقد أو قبة^(٥٩) ؛ فكان ذلك هو البداية البسيطة أو المظهر الأول المعروف لهذه الأشكال الهندسية المعمارية . وقد عثر المنقبون في

خرائب نيور على مجرى مائى معقود أنشئ منذ خمسة آلاف من السنين ، وعثر فى مقابر أور الملكية على عقود يرجع تاريخها إلى عام ٣٥٠٠ ق.م . وكانت لمداخل المعقودة مألوفة فى أور منذ عام ٢٠٠٠^(٦٠) ق.م . وكانت عقودها عقودا حقة أى أن أحجارها كانت صَنِجِيَّة الرص — كل حجر منها على هيئة إسفين يتجه طرفه الرفيع إلى أسفل بحكم الوضع فى مكانه .

أما الأغنياء من أهل المدن فكانوا يشيدون قصورا يقيمونها على رُبى تعلو عن أرض السهل بنحو أربعين قدما فى بعض الأحيان ، وكانوا يجعلونها منيعة لا يمكن الوصول إليها إلا من طريق واحد ، وبذلك يستطيع كل عظيم سومرى أن يتخذ قصره حصنا له . وإذا كانت الحجارة نادرة الوجود فى تلك البلاد فقد كان أغلب هذه القصور يُبنى من الآجر ، وكانت الجدران الحمراء تغطى بحليات من الآجر نفسه ذات أشكال مختلفة — منها لولاب ، ومقرنصات ومثلثات ، ومنها معينات أو مشجرات . وكانت الجدران الداخلية تغطى بالجص وتنقش نقشا بسيطا . وكانت الحجرات والمرافق تقام حول فناء يلقى البيت وهج شمس البحر الأبيض وحرّها . ولهذا السبب عينه مضافا إليه رغبة القوم فى الأمن من الأعداء كانت الحجرات تطل على هذا الفناء الداخلى بدل أن تطل على العالم الخارجى . أما النوافذ فكانت من الكاليات أو لعلمهم كانوا فى غير حاجة إليها . وكانت المياه تؤخذ من الآبار ، وكان ثمة نظام واسع للمجارى وتصريف الفضلات من الأحياء المأهولة فى المدن . وكان أثاث البيوت قليلا بسيطا ، ولكنه لم يكن يخلو من طابع الفن والذوق ، وكانت بعض الأسيرة تطعم بالمعادن أو بالعاج ، وكانت لبعض الكراسى الساندة أحيانا أرجل تنتهى بما يشبه مخالب السباع^(٦١) على النحو الذى نشاهده فى كراسى المصريين الأقدمين .

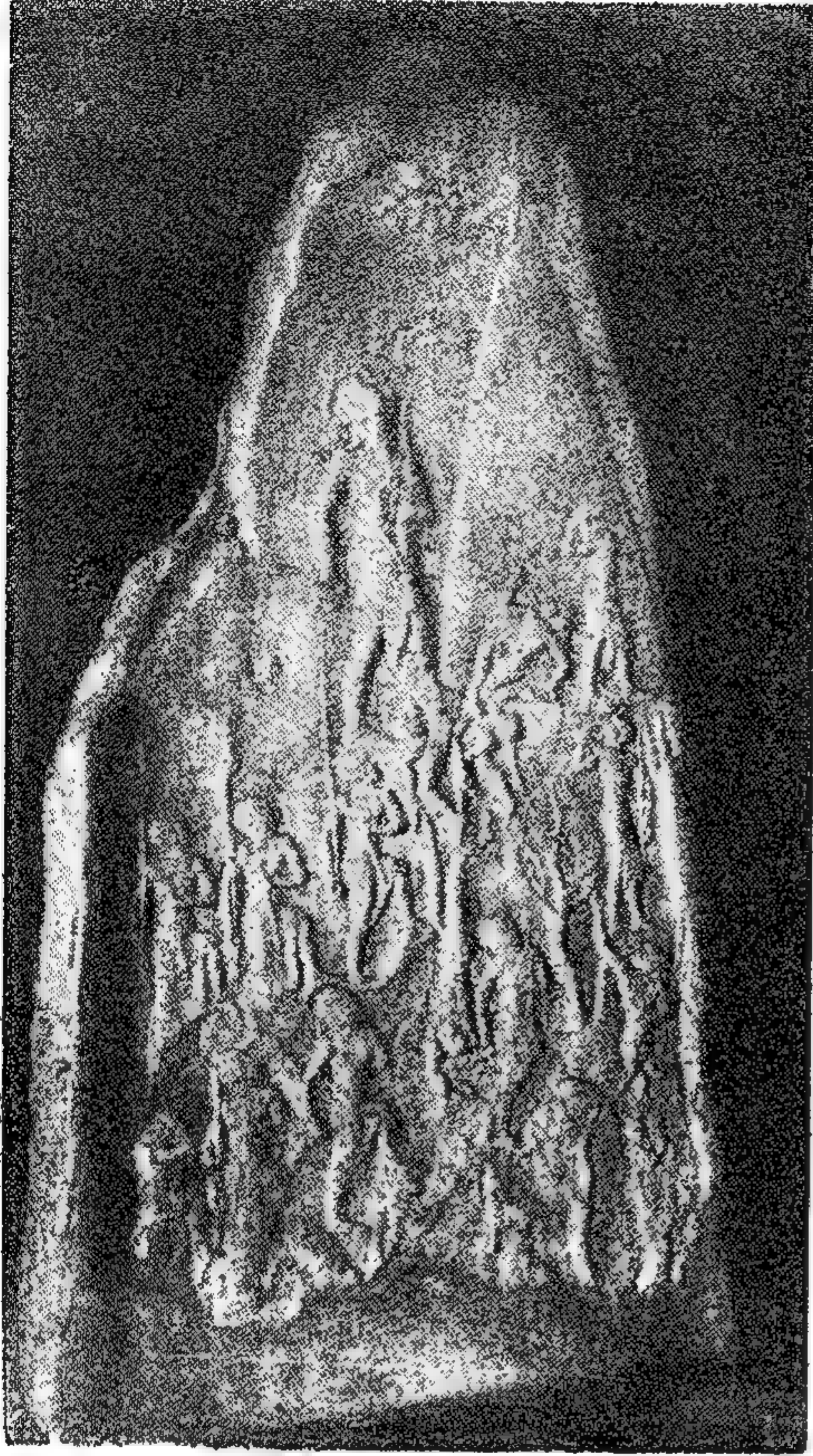
أما الهياكل فكانت تستورد لها الحجارة من الأقطار النائية وكانت تزين بأعمدة وأفاريز من النحاس مطعمة بمواد شبيهة بالحجارة الكريمة . وكان هيكلا

ناتار في أور طرازاً تحتذيه سائر هياكل أرض الجزيرة ، فكانت جدرانها مغطاة من الخارج بالقرميد الأزرق الشاحب ، أما من الداخل فكانت تكسوه ألواح من الأخشاب النادرة ، كخشب الأرز والسرو تطعم بالرخام والمرمر والعقيق الظفري واليماني والذهب . وكان أعظم هيكل في المدينة يقام عادة فوق ربوة ، يعلوه برج من ثلاث طبقات أو أربع أو سبع في بعض الأحيان ، يحيط به سلم لولبي ذو بسطة عند كل مقلب . وكانت هذه الأبراج أعلى صروح في المدائن السومرية ، ومساكن أعظم آلهتها ، وكان في وسع الحكومة أن تجدد فيها آخر حصن روحي وطبيعي يعصمها من الثوار أو الغزاة (*) (٦٢)

وكانت الهياكل تزينها أحيانا تماثيل للآلهة وللحيوان وللأبطال من بني الإنسان . وكانت هذه التماثيل ساذجة غير جميلة في صناعتها ، تمثل القوة والعظمة ولكنها ينقصها الصقل والأناقة والدقة الفنية . ومعظم ما بقي منها يمثل الملك جوديا . وهي منحوتة من حجر الديوريت الصلب نحتاً واضح المعارف ولكنه مع ذلك فبح ساذج . وقد عثر في خرائب تنتمي إلى العهد السومري الأول على تماثيل صغيرة من النحاس على شكل ثور عدا عليه الدهر ولكنه لا يزال يفيض حيوية وهمية ثورية . وفي مدينة أور عثر المنقبون على رأس بقرة مصنوع من الفضة في قبر الملكة شب — آد وهو آية فنية تشهد بما وصل إليه الفن من رقي عظيم ، وإن كان الدهر قد عدا عليها حتى لم يعد في وسعنا أن نقدرها التقدير الذي هي خليفة به . وإن هذا الحكم ليؤيده ما بقي من النقوش المحفورة تأييداً

(*) وقد أوضحت هذه الأبراج إلى المهندسين الأمريكيين بطراز جديد من المباني الشاهقة . ولم يسع القائمين على أعمال التنظيم في تلك البلاد إلا أن يرغموهم على الرجوع بالطبقات العليا من المباني إلى الداخل حتى لا يجلبوا الضوء عن جيرانهم . وإذا ما مثل الإنسان لنفسه أبراج السومريين التي أقيمت من الآجر منذ ٥٠٠٠ عام وأبراج مدينة نيويورك المقامة من الآجر في هذه الأيام إذا مثل الإنسان لنفسه هذه وتلك تضاعف الزمن أمامه حتى لم يعد أطول من طرفه عين .

لا يكاد يترك مجالاً للشك فيه . كذلك تظهر خشونة الفن السومري في « لوحة



الضقور » التي أقامها
إينا — نوم ملك
لكش ، واسطوانة
إينشار المصنوعة من
الرخام السماقي^(٦٣) والصور
الهزلية (وهي بلا شك
هزلية) التي تمثل أور —
نيننا^(٦٤) ، وبخاصة في
« لوحة النصر » التي
أقامها نارام — سين ،
ولكنها مع ذلك تم عن
حيوية قوية في الرسم
والنحت لا تكاد تترك
مجالاً للشك في وجود
فن ناشئ سائر في
طريق الازدهار .

شكل (٦) لوحة نارام — سين

المحفوطة في متحف اللوفر

أما صناعة الخزف فليس في وسعنا أن نحكم عليها هذا الحكم السهل الذي
أصدرناه على صناعة النحت . ولعل عوادي الزمن من أسباب الخطأ في هذا الحكم ،
فقد لا يكون ما بقي لنا من آثار هذه الصناعة إلا أقلها شأنًا . ولعل هؤلاء الناس
كانت لديهم قطع منه لا تقل في إتقانها عن الأواني المنحوتة من المرمر التي عثر
عليها في إريدو^(٦٥) ، ولكن معظم الخزف السومري — وإن كانت عجلة الفخرياني
قد استخدمت فيه — لا يعدو أن يكون آنية ساذجة من الفخار لا تسمو إلى

مستوى مزهريات عيلام. وأما صناعة الذهب فقد بلغت مستوى رفيعا كما يدل على ذلك ما وجد في أقدم مقابر أور التي يرجع تاريخ معظمها إلى عام ٤٠٠٠ ق.م من أوانٍ من الذهب تنم عن ذوق راق ومصقولة أجمل صقل. وفي متحف اللوفر مزهرية من الفضة ضخمة كجسم جوديا ولكنها مزينة بطائفة كبيرة من صور الحيوانات المنحوتة نحتا جميلا^(٦٧). وأجمل ما وجد من هذه القطع الفنية غمد من الذهب وخنجر مطعم باللازورد عثر عليهما المنقبون في أور^(٦٨). وإذا كان لنا أن نحكم على هذه الآلة الفنية من صورها الشمسية^(*) حق لنا أن نقول إن الفن يكاد يسمو فيها إلى ذروة الكمال. وقد كشف في هذه الخرائب عن عدد كبير من الأختام الاسطوانية معظمها مصنوع من المعادن الثمينة أو الأحجار الكريمة، وعليها نقوش منحوتة فيما لا يزيد على بوصة مربعة أو بوصتين. ويلوح أن السومريين كانوا يستخدمون هذه الأختام فيما تستخدم فيه نحن الإمضاءات، وكلها تشهد بما بلغت الحياة والأخلاق في تلك الأيام من رقي وتهذيب يتقضى ما لدينا من فكرة ساذجة عن تقدم الإنسان المتواصل من ثقافات الأيام الخوالي المنحوسة إلى ثقافات هذه الأيام التي بلغت الحد الأقصى من الكمال!

ويمكن أن نلخص الحضارة السومرية تلخيصا موجزا في هذا التناقض بين خرفها الفج الساذج وحليها التي أوفت على الغاية في الجمال والإتقان. لقد كانت هذه الحضارة مزيجاً مركباً من بدايات خشنة وإتقان بارع في بعض الأحيان. وفي تلك البلاد — على قدر ما وصل إليه علمنا في الوقت الحاضر — نجد أول ما أسسه الإنسان من دول وإمبراطوريات، وأول نظم الري، وأول استخدام للذهب والفضة في تقويم السلع، وأول العقود التجارية، وأول نظام للائتمان، وأول كتب القوانين، وأول استخدام للكتابة في نطاق واسع، وأولى قصص الخلق والطوفان، وأولى المدارس والمكتبات، وأول الأدب والشعر، وأولى

(*) وأصل هذه التحفة محفوظ الآن في متحف بغداد.

أصباغ التجميل والحلى ، وأول النحت والنقش البارز ، وأول القصور والهياكل ،
وأول استعمال المعادن في التزيين والترصيع والتزيين . وهنا نجد في البناء أول العقود
والأقواس وأولى القباب ؛ وهنا كذلك تظهر لأول مرة في التاريخ المعروف بعض
مساوئ الحضارة في نطاق واسع : يظهر الرق والاستبداد وتسلط الكهنة وحروب
الاستعمار . لقد كانت الحياة في تلك البلاد متنوعة ، مهذبة ، موفورة النعم ، معقدة .
وهنا بدأت القوارق الطبيعية بين الناس تنتج حياة جديدة من الدعة والنعم
للأقوياء ، وحياة من الكدح والعمل المتواصل لسائر الناس . وفي تلك البلاد
كانت بداية ما نشأ في تاريخ العالم من اختلافات يخططها الحصر .

الفصل الثالث

الانتقال إلى مصر

أثر السومريين في أرض الجزيرة — بلاد العرب
القديمة — أثر بلاد الجزيرة في مصر

على أننا إذا ما تحدثنا عن بلاد السومريين نكون جد قريبين من بداية التاريخ قريبا يصعب علينا معه أن نحكم حكما دقيقا أى الحضارات التى نمت فى بلاد الشرق الأدنى والتى يتصل بعضها ببعض أوثق اتصال — نقول أى هذه الحضارات كانت أسبق من أختها أو أيها أعقت الأخرى . إن أقدم مدونات كتابية وصلت إلينا هى المدونات السومرية وإن كان هذا فى حد ذاته لا يقوم دليلا على أن الحضارة السومرية أولى الحضارات ؛ فقد لا يكون هذا الكشف إلا وليد الظروف المحضة ، وقد يكون نتيجة عبث الموت والفناء بمخلفات الأقدمين . ولقد عثر على تماثيل صغيرة وآثار أخرى شبيهة بآثار السومريين فى بلدتى آشور وسامراء وهما من البلاد التى شملتها فيما بعد دولة آشور . ولسنا نعرف هل هذه الثقافة القديمة مستمدة من بلاد سومر أو أنها قد انتقلت إليها من مكان آخر عن طريق نهر دجلة . كذلك تشبه شرائع حمورابى شرائع أور — أنجور ودنجى ولكننا لا نستطيع أن نثبت أن الأولى تطورت عن الثانية ، وليست تطورا لشريعة أخرى أقدم منهما عهداً وأن كاتبا الشريعتين استمدتا أصولها منها . وكل ما فى وسعنا أن نقوله هو أننا نرجح ، ولا نؤكد ، أن حضارة البابليين والأشوريين مستمدتان من سومر وأكد ، أو أن سومر وأكد قد لقحتا الحضارتين البابلية والأشورية بلقاحهما^(٦٩) . ذلك أن آلهة بابل ونينوى وأساطيرهما الدينية ليست فى كثير من الأحوال إلا آلهة وأساطير سومرية طرأ عليها التحوير والتطور ، وأن

العلاقة التي بين اللغتين البابلية والأشورية وبين اللغة السومرية لنسبه العلاقة القائمة بين اللغتين الفرنسية والإيطالية من جهة واللغة اللاتينية من جهة أخرى . ولقد لفت شوينفرت أنظار العلماء إلى تلك الحقيقة الطريفة العظيمة الخطر ، وهي أن الشعير والذرة الرفيعة والقمح وتأنيس الماشية والمعز والضأن ، وإن ظهرت كلها في مصر وبلاد ما بين النهرين من أقدم العهود المدونة ، لا توجد في حالتها البرية الطبيعية في مصر بل في بلاد آسية الغربية وبخاصة في بلاد اليمن وبلاد العرب القديمة . وهو يستدل من هذا على أن الحضارة — وهي هنا زراعة الحبوب واستخدام الحيوانات المستأنسة — قد ظهرت في العهود القديمة غير المدونة في بلاد العرب ، ثم انتشرت منها في صورة « مثلث ثقافي » إلى ما بين النهرين (سومر ، وبابل وأشور) وإلى مصر^(٧٠) . ولكن ما وصل إلى علمنا عن تاريخ بلاد العرب القديمة حتى الآن ليبلغ من القلة حدا لا نستطيع معه إلا أن نقول إن هذا مجرد فرض جائز الوقوع .

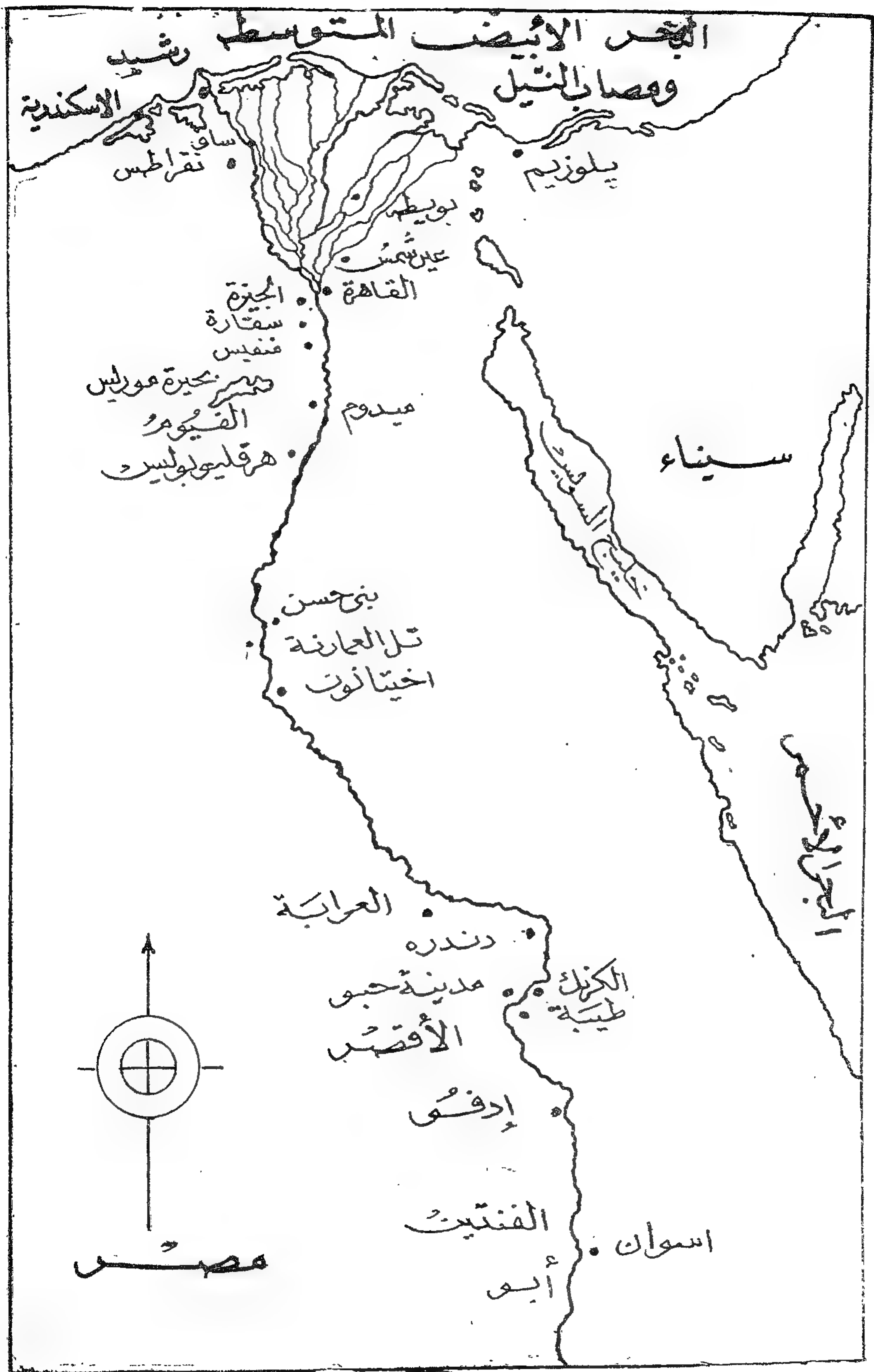
وأكثر من هذا احتمالا أن عناصر معينة من الثقافة المصرية مستمدة من بلاد السومريين والبابليين . فنحن نعلم أن مصر وبلاد النهرين كانتا تتبادلان التجارة — وخاصة بطريق برزخ السويس — ولعلهما كانتا تتبادلانها أيضا بالطريق المائي طريق مصاب الأنهر المصرية القديمة في البحر الأحمر^(٧١) . وإن نظرة إلى الخريطة لتوضح لنا السبب في أن مصر كانت طوال تاريخها المعروف تنتمي إلى آسية الغربية أكثر مما تنتمي إلى إفريقية . لقد كان من السهل أن تنتقل التجارة والثقافة إلى مصر من بلاد آسية بطريق البحر الأبيض المتوسط . ولكنها لا تلبث أن تعترضها الصحراء التي تفصل هي وجنادل النيل بلاد مصر عن سائر بلاد إفريقية . ومن ثم كان من الطبيعي أن نجد في الثقافة المصرية عناصر كثيرة من ثقافة ما بين النهرين .

وكما رجعنا إلى الوراء في دراسة اللغة المصرية القديمة زاد ما نجده فيها من

صلات بينها وبين لغات الشرق الأدنى السامية^(٧٢) . ويبدو أن الكتابة التصويرية التي كان المصريون يستخدمونها قبل عصر الأسر الحاكمة قد انتقلت إلى مصر من بلاد السومريين^(٧٣) . والخاتم الاسطوانى — وأصله بلا شك من بلاد الجزيرة — يظهر في أقدم العهود المعروفة من تاريخ مصر ، ثم يختفى ، وقد كان أسلوبا قديما دخيلا استبدل به أسلوب وطنى أصيل^(٧٤) . وليست عجلة الفخراى معروفة في مصر قبل عهد الأسرة الرابعة — أى بعد أن ظهرت في سومر بزمن طويل ، ولعلها جاءت إلى مصر من أرض النهرين مع العربات والعجلات^(٧٥) . ورؤوس الصولج المصرية لا تفترق في شيء عن البابلية^(٧٦) . ومن بين الآثار المصرية التي ترجع إلى عصر ما قبل الأسر والتي عثر عليها في جبل الأراك سكينة من الطران جميل الصنع عليه نقوش بارزة هي بعينها نقوش أرض الجزيرة من حيث موضوعها وطرزها^(٧٧) . ولعل صناعة النحاس قد نشأت في غرب آسية ثم انتقلت بعدئذ إلى مصر^(٧٨) . وتشبه الهندسة المعمارية المصرية الأولى هندسة أرض الجزيرة في استخدام النقوش الفائرة لتزيين الجدران المتخذة من الآجر^(٧٩) . وفخار عهد ما قبل الأسر المصرية وتماثيله الصغيرة وموضوعات زينتها تشبه مثيلاتها في أرض الجزيرة في كثير من الأحوال أو شديدة الصلة بلاريب^(٨٠) . ومن بين الآثار المصرية الباقية من ذلك العهد تماثيل صغيرة لآلهة لا يخطئ الإنسان في أنها من أصل أسيوى . ولقد كان الفنانون في أورينحتون التماثيل وينقشون النقوش التي يدل طرازها وما جرى عليه العرف في صنعها على قدم هذين الفنانين في بلاد سومر ، وذلك في الوقت الذي يلوح فيه أن الحضارة المصرية لم تعد عهد بدايتها^{(٨١)(*)} .

(*) حاول مؤرخ كبير هو لايوت اسمث أن يعارض هذه الآراء بقوله إن مصر وإن لم يعرف فيها الشعر والذرة الرفيعة والقمح بأشكالها البرية الطبيعية ، كانت هي البلاد التي نجد فيها أقدم الشواهد الدالة على زراعة هذه النباتات . وهو يعتقد أن الزراعة والحضارة بوجه عام قد انتقلتا إلى بلاد سومر من مصر نفسها^(٨٢) . وكذلك لا يؤمن الأستاذ برستد ، أعظم علماء العاديات المصرية الأمريكيين ، بأسبقية الحضارة السومرية للحضارة المصرية ؛ وهو يعتقد أن العجلات قديمة في مصر قدمها في بلاد السومريين إن لم تكن أقدم ، ويرفض رأى شوينفرت وحجته في ذلك الرفض أن الحبوب قد وجدت في أشكالها البرية في مرتفعات بلاد الحبشة .

ولا غضاضة على مصر في أن تعترف بالسبق لبلاد سومر . ذلك أنه مهما
تكن الأصول التي استمدتها مصر من أرض دجلة والفرات فإن هذه الأصول
سرعان ما نمت وأينعت وأثمرت حضارة مصرية خالصة فذة هي بلا ريب من
أغنى الثقافات المعروفة في التاريخ وأعلاها شأنًا وأعظمها قوة ؛ وهي مع ذلك من
أكثرها رشاقة وجمالاً ، حضارة إذا قيست إليها الحضارة السومرية لم تكن هذه
إلا بداية فجأة ، بل إن حضارتى اليونان والرومان لا تفضلانها في شيء .



الباب الثامن

مصر

الفصل الأول

هبة النيل

١ - في اليوم البحري

الإسكندرية - النيل - الأهرام - أبو الهول

هذا مرفأ أمين أوفى على الغاية في الأمان . ففي خارج حاجز المياه ترى الأمواج الصاخبة يعلو بعضها فوق بعض ، أما في داخله فالبحر مرآة من اللجين . هناك ، على جزيرة فاروس الصغيرة ، في عهد من عهود مصر الموعلة في القدم ، شاد سُستراتس من الرخام الأبيض منارته العظيمة ورفعها خمسمائة قدم لتكون هادية لجميع الملاحين الضارين في مياه البحر الأبيض المتوسط ، ولتكون إحدى عجائب العالم السبع .

ولقد عفت آثار هذه المنارة بفعل الأيام والمياه الغاضبة ، ولكن منارة جديدة قد حلت الآن محلها تهدي السفن التجارية بين الصخور إلى أرصفة ميناء الإسكندرية ، حيث أنشأ الإسكندر ذلك الفلام السياسي العجيب مدينته العظيمة التي اختلطت فيها الأجناس ، والتي ورثت فيما بعد ثقافة مصر وفلسطين واليونان . وفي مرفأ الإسكندرية استقبل قيصر وهو غاضب مكتئب رأس پمبي مفصولاً من جسده . وإذا أطل المسافر من نافذة القطار وهو يخترق المدينة لحت عيناه في بعض

أجزائها أزقة وطرفات غير مرصوفة ، وأمواجا من الحرارة ترقص في الهواء ، وعمالا عرايا إلى أوساطهم يكدحون في مختلف الأعمال ، ونساء ذوات مآزر سود يحملن الأثقال ، وشيوخا عليهم جلابيب بيض فاخرة وعمائم تكسوهم المهابة والوقار . وتقع العين من بعيد على ميادين فسيحة وقصور فخمة لا تقل جمالا عما شاهده فيها البطالمة حين كانت الإسكندرية ملتقى العالم كله . ثم لا يلبث الإنسان أن يرى نفسه فجأة في الريف ويرى المدينة من ورائه تتراجع إلى أفق دال النهر الخصيبة ، وهي ذلك المثلث الأخضر الذي يبدو في المصورات كجريد النخلة السامقة محمولا على جذع نهر النيل الرفيع .

وما من شك في أن هذه الدال كانت في يوم من الأيام خليجا في البحر ؛ طمره النهر الواسع طمرا بطيئا لا تدركه العين بما ألقاه فيه من الغرين الذي حمله معه آلاف الأميال (*) . وفي هذا الركن الطيني الصغير الذي يحيط به مصب النهر العظيم يُخرج ستة ملايين من الفلاحين قطنا يصدرون منه إلى خارج بلادهم ما قيمته مائة ألف ريال في كل عام . وفي ذلك الصقع من أصقاع العالم يجري أعظم نهر من أنهار الأرض وأوسعها ذكرا ، تسطع الشمس على مياهه البراقة الهادئة وتكتنفه من جانبيه أشجار النخل الرفيعة السامقة والحشائش والحقول الناضرة . وليس في وسع المسافر أن يرى الصحراء الغربية من مجرى النهر العظيم أو الوديان الجافة التي كانت من قبل روافد له . ولا تستطيع في هذه المرحلة أن تدرك ضيق أرض مصر الشديد ، واعتمادها التام على نهر النيل ، وما يحيط بها على الجانبين من رمال سافية تناصبها العدا .

ويمر القطار الآن وسط السهل الرسوبي المغطى بعضه بالماء ، والذي تحترقه قنوات الري في كل مكان ، وينتشر فيه الفلاحون يحدّون ويكدحون وليس عليهم

(*) يعتقد الجغرافيون القدماء أنفسهم (استرابوان مثلا) أن أرض مصر كانت فيما مضى تغمرها مياه البحر الأبيض المتوسط وأن صحاريها كانت في قاع هذا البحر .

إلا القليل من الثياب . والنهر يفيض في كل عام ويبدأ فيضانه وقت الانقلاب الصيفي ويدوم نحو مائة يوم . وماء الفيضان هو الذى أخصب الصحراء ، وأوجد مصر « هبة النيل » كما سماها هيروودوت . ومن اليسير على الإنسان أن يدرك لِمَ وجدت الحضارة في هذا الوادى موطناً من أقدم مواطنها . ذلك أننا لا نجد في أى بلاد أخرى في العالم نهراً مثل نهر النيل سخياً بمائه ، يعلو بقدر ، ويسهل التحكم فيه ، وليس في وسع بلاد أخرى أن تضارع مصر في هذا إلا أرض الجزيرة . ولقد ظل زراع مصر آلاف السنين يرقبون فيض النيل بقلوب واجفة ، ولا يزال المنادون إلى يومنا هذا في أيام الفيضان يعلنون أنباءه في كل صباح في شوارع القاهرة . وهكذا ينحدر الماضي إلى المستقبل انحدار هذا النهر الهادئ الدائم الجريان ماراً في طريقه بالحاضر مرّاً خفيفاً . إن تقسيم الأيام إلى ماض وحاضر ومستقبل عمل من صنع المؤرخين ، أما الزمن فلا يعرف هذا التقسيم

لكن لكل هبة ثمنها ، ومهما يكن تقدير الفلاح لقيمة هذا الفيض العظيم فقد أدرك أنه إن لم يسيطر عليه فإنه لا يروى الحقول فحسب بل إنه يروىها ويخربها . ومن أجل هذا احتقر من عهود ما قبل التاريخ تلك القنوات التى تخترق أرض مصر طولاً وعرضاً وتتقاطع فيها تقاطع خيوط الشباك ، واحتبس فيها المياه الزائدة(*) حتى إذا ما انخفضت مياه النهر رفعها إلى الأرض في دلاء معلقة في قوائم طويلة وأنشد وهو يرفعها الأغاني التى استمع إليها النيل من خمسة آلاف من السنين . ذلك أن هؤلاء الفلاحين الذين نراهم الآن منقبضين لا يضحكون حتى في أثناء غنائهم لا يختلفون في شيء عن أجدادهم الذين عاشوا على ضفاف النهر طوال القرون الخمسين الماضية^(٢) . وهذا الجهاز الذى يُرفع به الماء ، والذى لا تزال نشاهده الآن ، قديم قدم الأهرام نفسها ، ولا يزال مليون من هؤلاء الفلاحين يتكلمون

(*) ليس الغرض من إنشاء القنوات الاحتفاظ بالمياه الزائدة بل الغرض منها إيصال الماء إلى الأرض البعيدة عن مجرى النهر . (المترجم)

اللغة المنقوشة على الآثار القديمة رغم انتشار اللغة العربية في كافة أنحاء البلاد (*) (٤)

وفي أرض الوجه البحرى ، وعلى بعد خمسين ميلا إلى الجنوب الشرقى من الإسكندرية ، موقع مدينة نقراتيس القديمة التى كانت فى يوم من الأيام مدينة صناعية عظيمة يسكنها اليونان المجدون . وعلى بُعد ثلاثين ميلا إلى شرق هذه المدينة موقع ساو (سايس أو صا الحجر) التى بعثت فيها الحضارة القومية المصرية آخر مرة فى القرون التى سبقت الفتح الفارسى والفتح اليونانى . وعلى بعد مائة وتسعة وعشرين ميلا فى جنوب الإسكندرية الشرقى تقع مدينة القاهرة . والقاهرة مدينة جميلة ولكنها ليست مصرية خالصة ، فقد شادها الفاتحون المسلمون فى عام ٩٦٨ بعد الميلاد . تم أقام الفرنسيون المرحون فى قلب الصحراء باريسا أخرى دخيلة غير حقيقية ، على الساحل أن يجتازها فى سيارة أو عربة تجرها الجياد ، إذا أراد أن يجتازها على مهل ، لي شاهد مصر القديمة عند الأهرام .

ولشد ما تبدو هذه الأهرام صغيرة الحجم حين ينظر الإنسان إليها من الطريق الطويل المؤدى إليها ؛ فهل قطعنا نحن هذه الرحلة الطويلة لنرى هذه الآثار الصغيرة ؟ لكنها لا تلبث أن يزداد حجمها كأن يداً قد رفعتها فى الهواء . ونصل إلى منحى فى الطريق ، ونقبل فجأة على حافة الصحراء ، وتواجهنا الأهرام عارية منعزلة فى الرمال ، ضخمة شاهقة تسمو قممها فى سماء مصر الصافية . ونبصر عند سفوحها خليطا من أجناس مختلفة — منهم رجال أشداء يركبون الحمير ذاهبين بها إلى أعمالهم ، ومنهم سيدات فى عربات نقل ، ومنهم شبان مرحون على ظهور الخيل ، وفتيات يجلسن فى غير اطمئنان على ظهور الجمال تلتمع ثيابهن الحريرية

(*) يقول المؤلف إنه استقى هذه المعلومات من كتاب إيرمن Erman « الحياة فى مصر القديمة Life in Ancient Egypt » ولكننا لم نجد هذا القول أو ما يقرب منه فى كتاب إيرمن . ولعله يقصد بالمليون من الفلاحين الذين يتكلمون اللغة المنقوشة على الآثار ، أقباط مصر . ولكن الأقباط لا يتكلمون اللغة المصرية القديمة وليست اللغة القبطية هى بعينها لغة الآثار وإن احتوت بعض ألفاظ منها . وحتى هذه اللغة لا يتحدث بها الأقباط وإن درسها بعضهم .

فوق سيقانهم في ضوء الشمس . ونرى في كل مكان الأدلاء العرب على استعداد لمهونة القادمين وتأدية ما يلزمهم من خدمات . ونقف حيث وقف قيصر ونابليون ، ونذكر أن خمسين قرناً تطل علينا ، نقف حيث جاء أبو القاريخ (*) قبل أن يحىء قيصر بأربعائة عام ، واستمع إلى القصص التي دهش منها بركليز . ثم يسقط من الصورة عامل الزمن فيبدو لنا قيصر وهيرودوت ونحن أيضاً كأننا كلنا يعاصر قديمنا حديثنا ، ونقف ذاهلين أمام هذه المقابر التي كانت أقدم إلى قيصر وهيرودوت من اليونان بالنسبة إلينا .

وإلى جوار الأهرام يربض تمثال أبي الهول ، نصفه أسد ونصفه فيلسوف ، يقبض بمخالبه القوية على الرمال ، ويحدق بعينه وهو ساكن لا يتحرك في الزائرين العابرين وفي السهل الأزلى . إنه لتمثال ينتهى فيه جسم الأسد برأس إنسان له فكأن بارزان ، وعينان قاسيتان ، كأن المدينة التي صورته (٢٩٩٠ ق.م) لم تنس ما كان عليه الإنسان من وحشية في سابق عهده . وكانت الرمال تغطيه في الزمن القديم ، ولذلك لا يذكر هيرودوت كلمة واحدة عنه وهو الذى أبصر بعينه أشياء كثيرة لا وجود لها في تلك البلاد .

ألا ما أعظم ما كان يتمتع به أولئك المصريون الأقدمون من ثراء . وما أقوى سلطانهم وأعظم حذقهم في طفولة التاريخ نفسها . لقد استطاعوا بثرائهم وقوتهم وحذقهم أن ينقلوا هذه الحجارة الضخمة ستائة ميل أو أكثر وأن يرفعوها ، وهى تزن عدة أطنان إلى علو خمسمائة قدم ، وأن يطعموا المائة ألف من العمال الذين ظلوا يكدحون عشرين عاماً كاملة في تشييد هذه الأهرام إذا لم يكونوا قد أدوا لهم أجورهم على عملهم هذا ! وقد احتفظ لنا هيرودوت بنقش وجدده على هرم منها يسجل مقدار ما استهلكه العمال الذين شادوه من فجل وثوم وبصل ، كأن

(*) يقصد هيرودوت . (المترجم)

هذه أيضا أشياء لا بد لها أن تخلد (*) . على أننا نقادر هذا المكان في غير بهجة ، ذلك أنا نرى في هذا الحرص الشديد على الضخامة شيئاً من النزعة الممجية البدائية أو النزعة الممجية الحديثة . إن ذاكرة من يشاهدها وخياله وقد تضخما بفعل التاريخ وتأثيره ، هما اللذان يخلعان العظمة على هذه الآثار . أما هي في ذاتها فلا تعدو أن تكون دليلاً على الغرور الباطل ؛ فهذه مقابر أراد بها الموتى حياة خالدة . ولعل الصور قد رفعت كثيراً من شأنها ؛ ذلك أن الصور الشمسية تستطيع أن تسجل كل شيء عدا الأقدار ، وأن تعظم من شأن أعمال الإنسان بما تحيطها به من مناظر الأرض والسماء . إن منظر غروب الشمس في الجزيرة لأعظم في نظرنا من رؤية الأهرام .

٢ — مشرقة النهر

منف — روائع الملكة حتشبسوت — تمثالا ممنون —
الأقصر والكرك — عظمة الحضارة المصرية

يركب المسافر من القاهرة باخرة صغيرة تصعد في النهر — أي تسير فيه جنوباً — سيراً بطيئاً يستمر ستة أيام تصل بعدها إلى الكرنك والأقصر وتمر على بعد ثلاثين ميلاً إلى جنوب القاهرة بموقع منف أقدم العواصم المصرية . في هذه المدينة كان يحكم الملوك العظام ملوك الأسرتين الثالثة والرابعة ، وقد بلغ عامرها في أيامهم مليونين من الأنفس . والآن لا ترى العين فيها إلا صفا من الأهرام الصغيرة وأيكة من النخل ؛ أما ما عدا هذا فهو صحراء لا آخر لها ، ورمال جرداء تغوص فيها الأقدام ، وتؤدي بوجهها الأعين وتسد مسام الجلد ، وتغطي كل شيء ، وتمتد من مراكش مخترقة طور سيناء وبلاد العرب والتركستان والتبت إلى

(*) يقول ديودور الصقلي (وهو كاتب يجب أن يقرأ على الدوام بحذر) : إن نقشا على الهرم الأكبر ينص على (أن ١٦٠٠ وزنة أي ١٦٠٠٠٠٠ و ١٦٠٠٠٠٠) ريال قد أنفقت في شراء الخضر والمسهلات للعمال .

بلاد المغول . وفي هذه المنطقة الرملية التي تحترق قارتين من أكبر قارات العالم قامت مراکز الحضارة في الزمن القديم ، ثم عفت آثارها حين ارتد الجليد إلى الوراء فاشتدت الحرارة وقلت الأمطار . ويمتد بحذاء النيل من البحر الأبيض (*) المتوسط إلى بلاد النوبة شريط ضيق من الأرض الخصبة يبلغ عرضه اثني عشر ميلا على كلتا الضفتين انتزع من الصحراء . وهذا هو الخيط الذي كانت تتعلق به حياة مصر . ومع هذا فما أقصر ما تبدو حياة اليونان أو رومة بالقياس إلى السجل الحافل في حياة مصر الذي يمتد من ميناء إلى كليو بطرة !

و بعد أسبوع من بداية الرحلة تصل الباخرة النيلية إلى الأقصر ؛ وفي هذا المكان الذي تقوم فيه قرى صغيرة من حولها الرمال السافية شيدت أكبر العواصم المصرية وأغنى مدينة في العالم القديم ، كانت معروفة عند اليونان باسم طيبة وعند أهلها القدامى باسم ويزى ، ونى . وعلى الضفة الشرقية لنهر النيل يقوم الآن الفندق المعروف بقصر الشتاء (ونتر بالاس) يتوهج سياجه بزهر الجهنمية ، فإذا أطل المسافر على الضفة الغربية رأى الشمس تغرب من وراء مقابر الملوك في بحر من الرمال ، ورأى السماء مزدانة بصفحات براق ما بين أرجوانية وذهبية ، وتسطع في الغرب من بعيد أعمدة هيكل الملكة حتشبسوت الفخم ، إذا نظر إليه القادم من بلاد الغرب ظنه بهو أعمدة شاده اليونان أو الرومان الأقدمون .

فإذا أصبح الصباح ركب السائح قاربا بطيئا يعبر به النهر فوق ماء هادئ ساكن ، فلا يخطر بباله أن هذا النهر بعينه قد ظل يجري على هذا المنوال قرونا يخطئها الحصر . فإذا عبر النهر إلى الضفة الغربية سار في الصحراء ميلا بعد ميل في طرق جبلية متربة ، مارا بقبور تاريخية قديمة حتى يصل إلى تلك الآلة الفنية الرائعة ، وأعنى بها هيكل الملكة حتشبسوت العظيمة ، الذي ترتفع عمده البيضاء

(*) لعله يقصد من القاهرة أما ما يقع شمالها حتى البحر الأبيض فهو دال النهر التي تمتد أرضها الزراعية أضفاف هذا القدر . (المترجم)

الساكنة في وهج السماء الصافية . وهنا اعتزم الفنان أن يحيل الطبيعة وتلاها إلى جمال أعظم من جمالها ، فشاد في مواجهة أجراف الحجر الأعل هذا العمود التي لا تقل فخامة عن العمود التي أقامها إكتينوس ليركليز . وليس في وسع من يشاهدها أن يخالجه شك في أن اليونان قد أخذوا فنون عمارتهم عن هذا الشعب المبدع المبتكر ، وابعثهم أخذوها منه عن طريق جزيرة كريت . وعلى جدران هذا المعبد نقوش غائرة تنبض بالحياة والحركة والفكر وتقص قصة أولى نساء التاريخ العظيمات وملكة ليست أقل ملكاته شأنًا .

ويشاهد المرء في طريقه وهو راجع تمثالين كبيرين يمثلان أعظم ملوك مصر تنعما ، وهو الملك أمنمحاتب الثالث ، ويسميها الرحالة اليونان خطأ « تمثالي ممنون » . ويبلغ ارتفاع الواحد منهما سبعين قدما ، ويزن سبعائة طن ، وهو منحوت من كتلة حجرية واحدة . وعلى قاعدة أحدهما نقش خطته يد السياح اليونان الذين زاروا هذه الآثار منذ ألفي عام . وهنا أيضا تتضاءل الدهور تضائلا غريبا ويبدو هؤلاء اليونان في حضرة هذين التمثالين العظيمين معاصرين لنا نحن . وعلى بعد ميل منهما جهة الشمال آثار حجرية من عهد رمسيس الثاني ، وهو شخصية من أروع الشخصيات في التاريخ ، يبدو الإسكندر الأكبر إلى جانبها إنسانا لا قيمة له ولا خطر . لقد عاش هذا الملك تسعة وتسعين عاما جلس منها على عرش مصر سبعة وستين ، وأنجب من الأبناء مائة وخمسين . وتراه هنا تمثالا كان ارتفاعه في يوم من الأيام ستا وخمسين قدما ، أما الآن فيمتد على الأرض بين الرمال ستا وخمسين يسخر منه الغادون والرائحون . وقد حرص علماء نابليون على قياس كل جراحة فيه فقدروا طول أذنه بنصف قدم ، وعرض قدمه بخمسة أقدام ، وقدروا وزنه بألف طن . وكان حقا على نابليون أن يحيمه بما حيا به الفيلسوف جوته فيما بعد إذ قال : « هاهوذا رجل ! » .

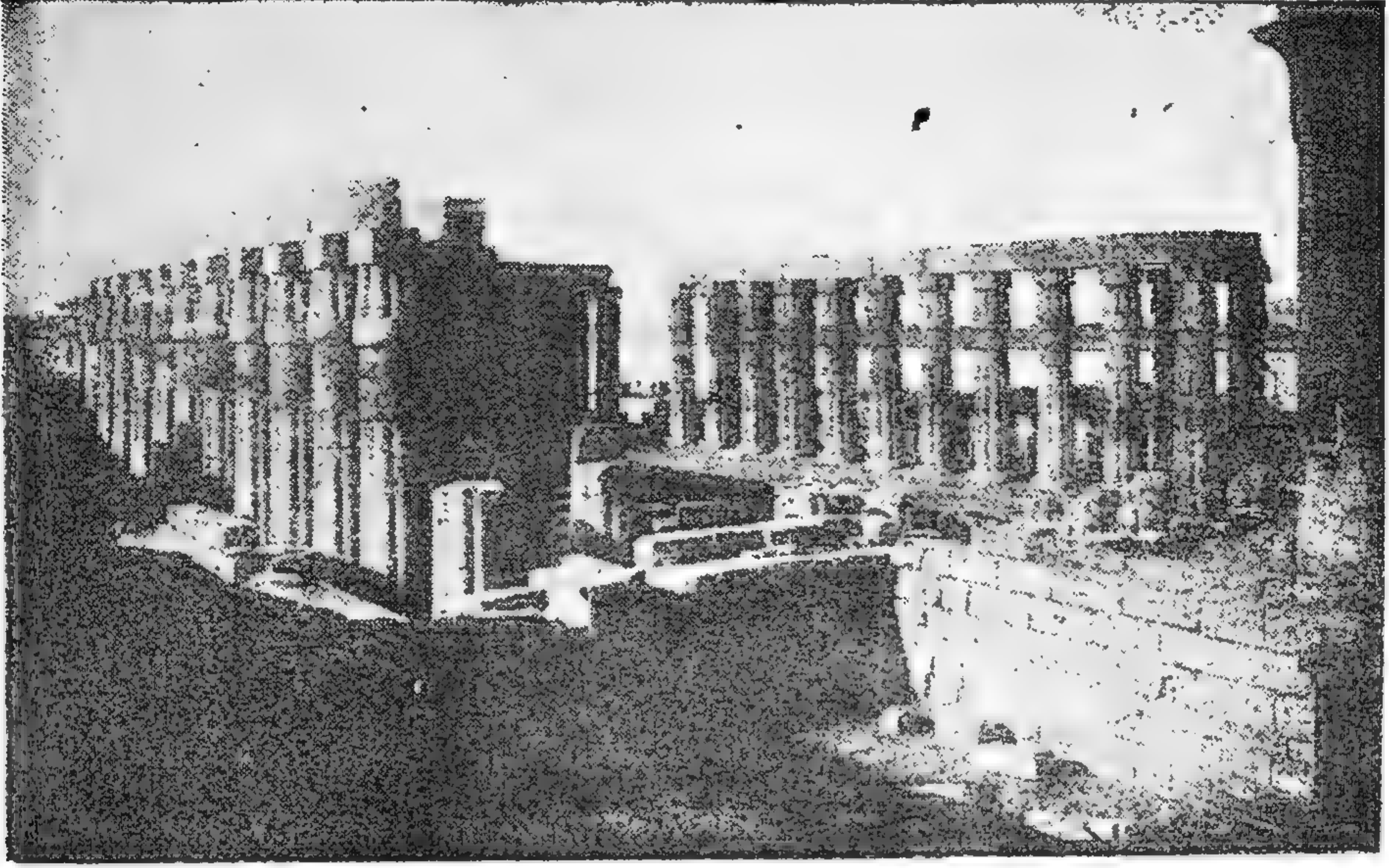
ومن حولنا في هذا المكان على شاطئ النيل الغربي مدينة الموتى حيث

كشفت علماء الآثار المصرية المنقبون في كل ناحية من نواحيها قبرا للملك من الملوك . ولقد كان قبر نوت عنخ آمون في أثناء زيارتي مغلقا ، مغلقا حتى في وجه من كانوا يظنون أن الذهب تفتح له جميع الأبواب .

أما قبر سيتي الأول فمفتوح ، وهنا في الأرض الظليلة المائلة إلى البرودة يستطيع السائح أن يبصر سقفا وطرفات منقوشة ، ويعجب بما كان للصناع في ذلك العهد من مهارة ، وما كان في البلاد من ثروة استطاعت بهما أن تنشئ أمثال هذه التواييت الضخمة ، وأن تحيطها بهذا الفن الرائع . ولقد شاهد المنقبون في أحد هذه المقابر آثار أقدام العبيد الذين حملوا جثة الملك المحنطة ليودعوها مقرها الأخير منذ ثلاثة آلاف عام^(٦) .

هذا ما يشاهده السائح على الضفة الغربية . أما الضفة الشرقية فهي مزدانة بأحسن الآثار وأجملها : ففي الأقصر القائمة على هذه الضفة بدأ أمنحوتب العظيم يقيم صرحه الضخم مستعينا بالمغانم التي أفاءتها على مصر فتوح تحتمس الثالث . ولكن المنية عاجلته قبل أن يتمه ، فوقف العمل مائة عام كاملة حتى جاء رمسيس الثاني وأتمه بما يليق بالملك من أبهة . ولا يكاد المرء ينظر إلى هذا البناء حتى تغمره روح فن العمارة المصرية الذي لا تقتصر مزاياه على السعة والقوة بل تجمع إليهما الجمال الرائع ودلائل الرجولة السامية . لقد كان في هذا الصرح بهو عظيم فسيح الأرجاء تغطيه الآن الرمال ، ولكن أرضه في الأيام الخالية كانت كلها من الرخام ، وتقوم على ثلاثة من جوانبه عمدة فخمة لا تضارعها إلا عمدة الكرنك وحدها . وفي كل جهة حجارة عليها نقوش غائرة وتماثيل تنم عن العظمة حتى بعد أن عدت عليها عوادي الزمان . فليتمثل القارئ ثمانية أعواد طويلة من أعواد البردي — مهد الكتابة ولكنه هنا طراز من طرز الفن ؛ ومن تحت أزهارها التي لا تزال في أكامها خمسة أربطة قوية تشد هذه الأعواد فتجتمع بين

الجمال والقوة ، ولتصور بعدئذ أن هذه الحزمة كلها من صخر أصم . تلك هي العمدة المقامة في الأقصر على هيئة نبات البردى . ولتصور القارىُّ بهوا مشيداً كله من هذه العمدة مرفوعة عليها دعائم ضخمة وأكنان ظليلة . لتصورها القارىُّ بالصورة



شكل (٧) البهو والعمدة في الهيكل العظيم في الأقصر

التي تركتها عليها عوادي ثلاثين قرناً ؛ ثم ليحكم بعدئذ على أقدار الرجال الذين استطاعوا في ذلك العهد السحيق الذي كنا نسميه طفولة المدنية أن يفكروا في هذه الآثار العظيمة ثم يخرجوا أفكارهم إلى حيز الوجود .

ثم يجتاز السائح بين الأطلال القديمة والأقذار الحديثة طريقاً غير معبد يؤدي إلى هياكل الكرنك آخر ما احتفظت به مصر من آثارها لتعرضها على زائريها . وقد اشترك في تشييدها نحو خمسين من الفراعنة من أواخر الدولة القديمة إلى أيام البطالمة . وأخذت هذه الهياكل تنمو ويزداد عديدها جيلاً بعد جيل حتى غطت هذه الصروح ، وهي أعظم ما قر به فن العمارة قرباناً للآلهة ، ما لا يقل عن ستين فداناً من الأرض . وثمة طريق تحفه من الجانبين تماثيل لأبى الهول يؤدي من هذه

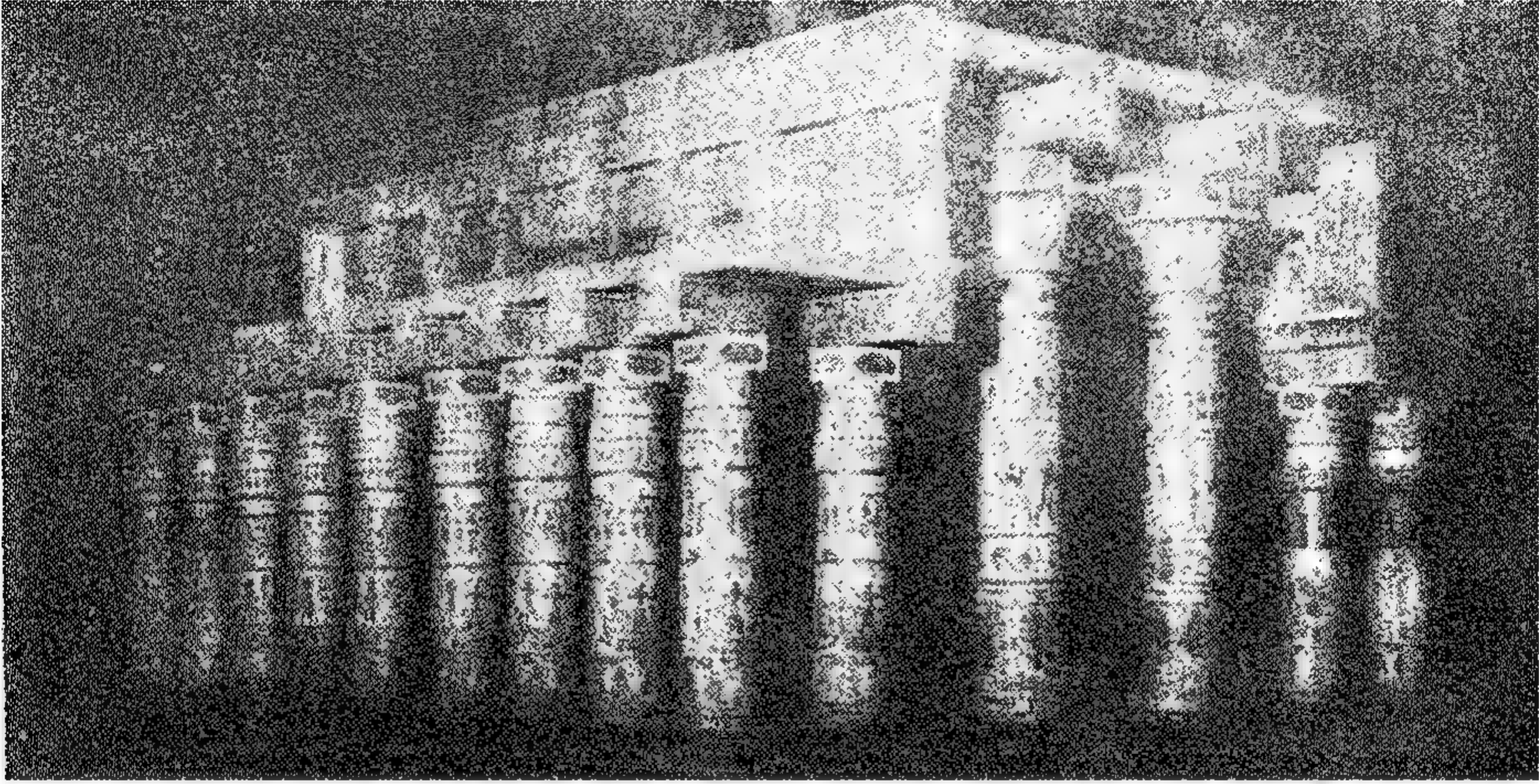
الهياكل إلى المكان الذى وقف فيه شميليون واضع علم الآثار المصرية القديمة
فى عام ١٨٢٨ وكتب :

« وجئت آخر الأمر إلى القصر أو بعبارة أصح إلى مدينة الآثار — إلى
الكرنك . وفيها تبدت لى عظمة الفراعنة بأكملها ، وشاهدت كل ما تصوره
الناس وما أخرجوه فى أكبر صورته ٠٠٠ وما من شعب قديم أو حديث غير قدماء
المصريين قد صور لنفسه فن العمارة بهذا السمو وهذه العظمة وهذه الفخامة .
لقد كانوا يفكرون كما يفكر الجبابرة الذين تبلغ قامته الواحد منهم مائة من
الأقدام^(٧) » .

وليس فى وسع الإنسان أن يفهم هذا البناء على حقيقته إلا إذا كانت لديه
خرائط ورسوم ، وكان ملما بكل ما بلغه فن العمارة من رقى . فليتصور القارئ
رقعة فسيحة مسورة مربعة الشكل طول كل ضلع من أضلاعها ثلث ميل ، كثيرة
الأبهاء ، كانت تحتوى فى وقت من الأوقات على ٨٦٠٠٠ تمثال^(٨) . أهم ما فيها
مجموعة من المباني يتألف منها هيكل أمون وطوله ألف قدم فى ثلثمائة ؛ وبين كل
بهو وبهو أبواب عظيمة ؛ وأعمدة النصر التى أقامها نابليون مصر تحتمس الثالث
وقد تهشمت تيجانها ولكنها لا تزال تشهد بدقة النحت والتصوير ؛ ثم بهو
الاحتفالات ذو العمد المخددة التى شادها هذا الملك الباسل نفسه والتى تستبق كل
ما فى العمد الدورية المقامة فى بلاد اليونان من قوة وعظمة ، ثم هيكل پتاح الصغير
ذو العمد التى لا تقل رشاقة عن أشجار النخيل الحية القائمة بجوارها ، ثم المتنزه
العظيم الذى أنشأه تحتمس أيضا والذى يضم طائفة من العمد العارية الضخمة .
وأعظم من هذا كله البهو الأكبر ذو السقف العظيم المقام على أعمدة ضخمة تبلغ
عدتها مائة وأربعين ، متقاربة بعضها من بعض لتقى من فيها حر الشمس اللافتح
وتمثل فى أعلاها رؤوس النخل منحوتة فى الحجارة ، وتحمل سقفا من كتل

(١) فى متحف الفن بمدينة نيويورك نموذج لهذا البهو .

ضخمة من الحجارة منحوتة من الحجر الأعبل الصلب وممتدة من تاج عمود إلى تاج عمود . وبالقرب من هذه الردهة مسلتان رفيعتان كلتاهما من حجر واحد ، متماثلتان أتم تماثل ومتساويتان في الجمال والرشاقة ، تقومان كأنهما عمودان من النور



شكل (٨) صورة مستعادة للبهو ذى السقف المقام على العمدة فى الكرنك

بين حطام التماثيل والهياكل ، وتذيعان بما عليهما من النقوش رسالة الملكة الفخورة حتشبسوت إلى العالم . وقد جاء فى هذا النقش أن « هاتين المسلتين قد صنعتهما من الحجر الأعبل الصلب الذى جىء به من محاجر الجنوب ، وأن رأسيهما من الذهب الإبريز الذى اختير من أحسن ما حوته منه البلاد الأجنبية . ويمكن مشاهدتهما على النهر من بعيد ونورها الساطع يشع فى الأرضين . وإذا ما لاح قرص الشمس بينهما بدا كأنه يبرز حقا فى أفق السماء ... وأنتم يا من ترون هذين الأثرين بعد زمن طويل ويا من تتحدثون من بعدى عما فعلت ، ستقولون : إنا لا ندري ، لا ندري كيف أقاموا جبلا كله من الذهب ... لقد أنفقت فى تذهيبهما ذهباً كنت أكيله كيلاً كأنه أكياس الحب ... ذلك أنى أعرف أن الكرنك أفق الأرض السماوى^(٩) . »

أعظم بها من ملكة وأعظم بهم من ملوك ! أكبر الظن أن هذه الحضارة — أولى الحضارات العظيمة — كانت أجملها كلها ، وأكبر الظن أيضاً أننا لم نعدُ طور البداية في الكشف عن عظمتها . وفي جوار بحيرة الكرنك المقدسة رجال يحفرون الأرض ويحملون التراب في أسفاط صغيرة مزدوجة معلقة في عصا



شكل (٩) عمد تحمل سقف البهو الكبير في الكرنك

على الكتفين . وإلى جانبهم عالم من علماء الآثار المصرية مكب على نقوش هيروغليفية على حجرين أخرجتا من الأرض توا ، وهو واحد من آلاف الرجال أمثال كارتر ، وبرستيد ، ومسبيرو ، وبيترى ، وكايار ، وويجال ، الذين عاشوا في تلك البلاد عيشة البساطة والقناعة في حرارة الشمس اللاخفة والرمال السافية يحاولون أن يحلوا لنا طلسم أبي الهول ، وأن يخطقوا من بين أحضان الثرى الضنين

فنون مصر وآدابها وتاريخها وحكمتها ؛ والأرض والسماء تعا كسهم في كل يوم ،
والخرافات تلغهم وتعوقهم ، والرطوبة وقوى التحات تغير في كل يوم على الآثار التي
يخرجونها من باطن الأرض ، وهذا النيل الذي يفيض على البلاد بالخصب والنماء
يتسلل في أيام فيضانه إلى خرائب الكرنك ، فيفكك الأعمدة ويصدعها (*) ،
ويترك عليها بعد أن ينحسر عنها طبقة من الأملاح تأكل الحجارة كما يأكل
الجدام الأجسام .

والآن فلنستعرض مرة أخرى عظمة مصر ومجدها في تاريخها وحضارتها قبل
أن تنصدع آثارها وتنهار بين الرمال .

(*) في ٣ أكتوبر سنة ١٨٩٩ تفكك أحد عشر عموداً من عهد الكرنك بتأثير الماء
وهوت إلى الأرض .

الفصل الثاني

البناءون العظام

١ - كشف مصر

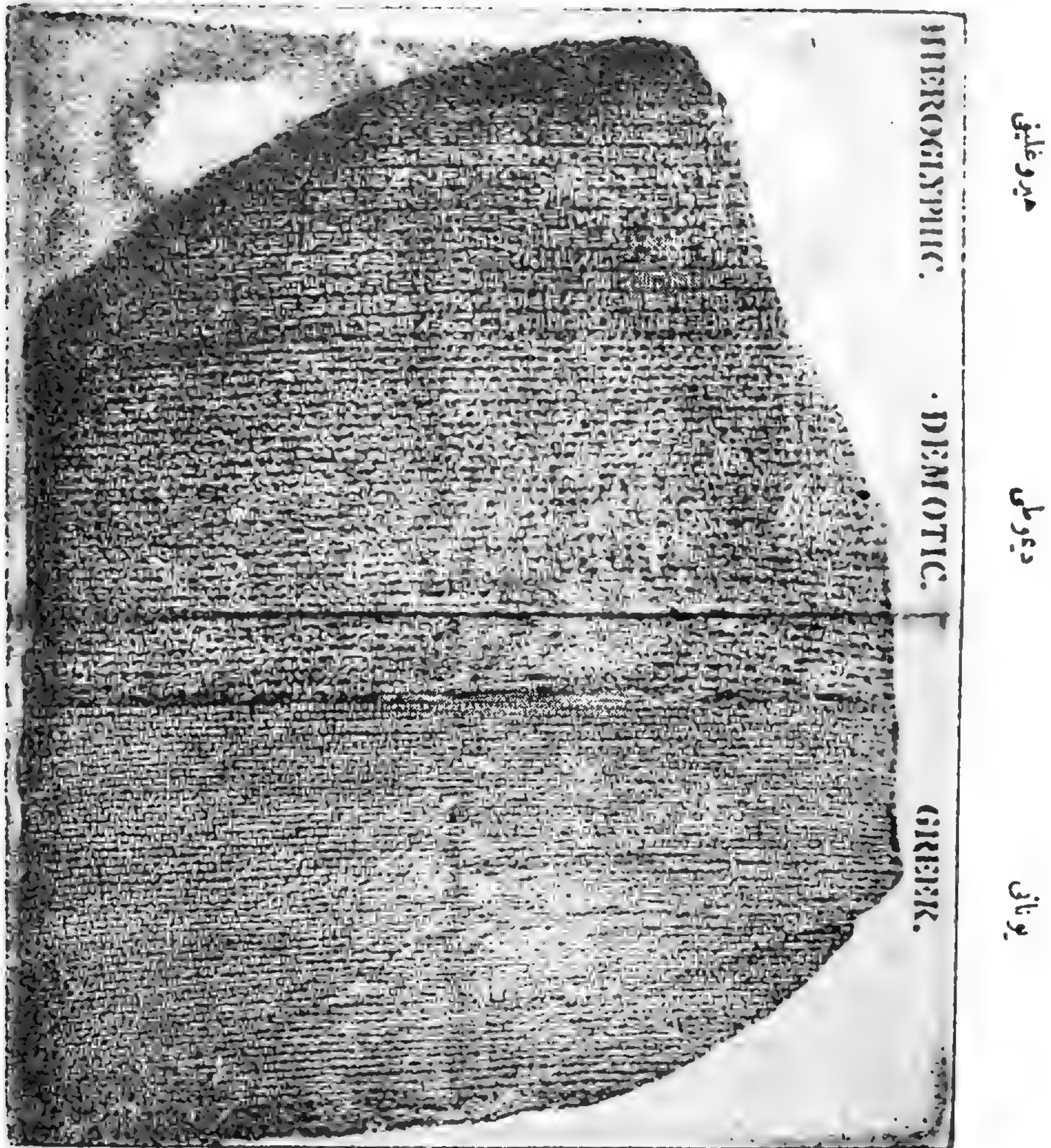
شميليون وحجر رشيد

إن الكشف عن تاريخ مصر لهو أروع فصل في كتاب علم الآثار . لقد كان كل ما تعرفه العصور الوسطى عن مصر أنها مستعمرة رومانية وموطن من مواطن المسيحية ؛ وكان الناس في زمن النهضة يظنون أن الحضارة بدأت في بلاد اليونان ، وحتى عصر الاستنارة (*) لم يكن يعرف من مصر أبعد من الأهرام . وكان علم الآثار المصرية نتيجة ثانوية من نتائج حروب نابليون الاستعمارية . ذلك أن القائد القورسبيقي العظيم ، لما قاد الحملة الفرنسية على مصر في عام ١٧٩٨ ، اصطحب معه طائفة من الرسامين والمهندسين ليرتادوا الأرض ويرسموها ، وشملت هذه الحملة أيضا بعض العلماء الذين كانوا يهتمون بمصر اهتماما يظنه الناس سخيفا في تلك الأيام ، ويسمعون لفهم التاريخ فهما أوفى وأفضل مما كان يفهمه المؤرخون وقتئذ . وكانت هذه العصابة من الرجال هي التي كشفت للعالم الحديث عن هياكل الأقصر والكرنك ، كما كان كتاب « وصف مصر » المحكم الفصل (١٨٠٩-١٨١٣) الذي أعده للمجمع العلمي الفرنسي أول خطوة هامة خطاها العلماء في دراسة هذه الحضارة المنسية (١٠)

على أن هؤلاء العلماء ظلوا سنين طوالا عاجزين عن قراءة النقوش الباقية على الآثار المصرية . وليس ما بذله شميليون أحد هؤلاء العلماء من جد وصبر في

(*) يطلق هذا اللفظ على عصر الفلاسفة الفرنسيين في القرن الثامن عشر . (المترجم)

حل رموز الكتابة الهيروغليفية إلا شاهداً من شواهد كثيرة على الروح العلمى الذى امتاز به علماء تلك الحملة . وعثر شميليون آخر الأمر على مسألة مغطاة بهذه « الرموز المقدسة » مكتوبة باللغة المصرية ولكن فى أسفلها نقوشاً باللغة اليونانية عرف منها أن هذه الكتابة ذات صلة ببطليموس وكليوباترة . وخطر له أن إحدى العبارات الهيروغليفية الكثيرة التكرار والتي يحيط بها الإطار الملصق



شكل (١٠) حجر رشيد
الأصل محفوظ فى المتحف البريطانى

(الخرطوش) هي إسم الملك والمملكة ، فهذه الفكرة (في عام ١٨٢٢) إلى تمييز أحد عشر حرفاً من الحروف المصرية ؛ ولكن ذلك كان مجرد حدس ولم يكن يقيناً . وكان هذا الكشف أول دليل على أن مصر كانت لها حروف هجائية . ثم طبق هذه الحروف على رموز وجدها على حجر كبير أسود عثر عليه جنود نابليون قرب مصب رشيد . وكان على « حجر رشيد » هذا (*) نقوش كتبت بثلاث لغات أولاها الهيروغليفية وثانيها « الديموطية » — الكتابة المصرية الدارجة — والثالثة هي اليونانية . واستطاع شمپليون ، بفضل علمه باللغة اليونانية وبالأحد عشر حرفاً التي عرفها من المسألة الأولى وبعد جهد متواصل دام أكثر من عشرين عاماً ، أن يحل رموز هذا النقش كلها وأن يعرف الحروف الهجائية المصرية بأجمعها . وأن يمهّد السبيل للكشف عن عالم عظيم مفقود . وكان هذا الكشف من أعظم الكشوف في تاريخ التاريخ (**) (١١) .

٢ — مصر في عصر ما قبل التاريخ

العصر الحجري القديم — العصر الحجري الحديث —
عصر البدارى — عصر ما قبل الأسر — جنس المصريين

إن المتطرفين في عصر من العصور هم أنفسهم الرجعيون في العصر الذي يليه ، ومصادقاً لهذه القاعدة نقول إنه لم يكن ينتظر من الرجال الذين أنشأوا علم الآثار المصرية أن يكونوا أول من يؤمن بأن ما في مصر من مخلفات العصر الحجري القديم ينتمى حقاً إلى ذلك العصر . ذلك أن العالم بعد الأربعين لا يظل طليعة تبارها . ولما أن كشفت أولى أدوات آلات الظران في وادى النيل قال سير

(*) وهذا الحجر محفوظ الآن في المتحف البريطاني .

(**) وقد ساعد على هذا الكشف أ ك ر بلاد السياسى السويدى (١٨٠٢) وتومس
ينج العالم الطبيعى الإنجليزى صاحب الكفايات المتعددة (١٨١٤) مجلهما بعض رموز
حجر رشيد (١٢) .

فلندز بيمتري ، وهو الذى لا يتردد عادة فى قبول أكبر الأرقام فى تاريخ مصر ،
إنها من صنع ما بعد الأمر ، وعزا ما سبيرو ، الذى لم يفسد علمه الغزير أسلوبه
الممتع المنمق ، الفخار المصرى الباقى من العصر الحجري الحديث إلى الدولة الوسطى .
ولكن ده مورجان كشف فى عام ١٨٩٥ عن سلسلة متدرجة تكاد تكون
متصلة الحلقات من حضارات تنتمى إلى العصر الحجري القديم — تطابق فى
أكثر نواحيها الحضارات المماثلة لها والتي جاءت فى أوروبا بعدها بزمان طويل .
وكان ما كشفه من مخلفات هذه الحضارات المصرية رؤوس معاول يدوية ،
ومطارد ، ورؤوس سهام ، ومطارق عثر عليها على طول مجرى النيل^(١٣) . وتدرج
مخلفات العصر الحجري القديم تدرجا غير ملحوظ إلى مخلفات العصر الحجري
الحديث على أعماق تدل على أنها تنتمى إلى العهد المحصور ما بين ١٠.٠٠٠ ، ٤.٠٠٠
سنة قبل الميلاد^(١٤) . وترقى صناعة الأدوات الحجرية شيئا فشيئا ، وتزداد تهذيبا ،
وتصل إلى درجة من الحدة والصقل ودقة الصنع لا تضارعها فيها أية ثقافة أخرى
وصل إلينا علمها من ثقافات العصر الحجري الحديث^(١٥) . وقبيل أواخر هذا
العهد تظهر صناعة المعادن فى صور مزهريات ومثاقب ودبابيس من النحاس وحلى
من الفضة والذهب^(١٦) .

ثم يتدرج ذلك العصر إلى العصور التاريخية وتظهر الزراعة فى أثناء هذا
التدرج . وكان أول ما كشف من آثار عصر الانتقال فى عام ١٩٠١ حين عثر
فى بلدة البدارى الصغيرة (وهى فى منتصف المسافة بين القاهرة والكرنك) على
جثث بين أدوات تنتمى إلى عهد يرجع إلى ما قبل المسيح بنحو أربعين قرنا .
ووجدت فى أمعاء هذه الجثث ، التى أبقى عليها جفاف الرمال وحرارتها ستة
آلاف عام ، قشور من حب الشعير^(١٧) غير المهضوم . ولما كان الشعير لا ينبت
بريا فى مصر فقد استدل من وجودها على أن البداريين كانوا يعرفون زراعة
الحبوب . وقد بدأ سكان وادى النيل من ذلك العهد السحيق أعمال الري ،

وقطعوا الأدغال ، وجففوا المستنقعات ، وتغلبوا على تماسيح النهر وأفراسه ، ووضعوا أسس الحضارة على مهل .

وتوحي إلينا هذه البقايا وبقايا أخرى غيرها بشيء من العلم عن حياة المصريين قبل الأسر الأولى التي عاشت في الأزمنة التاريخية . لقد كانت ثقافة ذلك العهد ثقافة وسطا بين الصيد والزراعة ، بدأت منذ قليل باستبدال الأدوات المعدنية بالحجرية . وكان الناس في أيامها يصنعون القوارب ، ويطحنون الحب ، وينسجون الكتان والبسط ، ويتحلون بالحلى ، ويتعطرون بالعطور ، لهم حلاقون وحيوانات مستأنسة ، وكانوا يحبون التصوير وبخاصة تصوير ما يصيدون من الحيوان^(١٨) ، وكانوا يرسمون على خزفهم الساذج صور النساء الحزاني وصوراً أخرى تمثل الحيوانات والآدميين ، وأشكالا هندسية ، وينحتون آلات غاية في الدقة والأناقة يشهد بها سكين جبل الأراك . وكانت لهم كتابة مصورة وأختام أسطوانية شبيهة بأختام السومريين^(١٩) .

وما من أحد يعرف من أين جاء هؤلاء المصريون الأولون . ويميل بعض العلماء الباحثين إلى الرأي القائل بأنهم مولدون من النوبيين والأحباش واللوبيين من جهة ، ومن المهاجرين من الساميين والأرمن من جهة أخرى^(٢٠) ، فالأرض حتى في هذا العهد السحيق لم تكن تسكنها سلالات نقية . ويرجح أن الغزاة أو المهاجرين الذين وفدوا من غرب آسية قد جاءوا معهم بثقافة أرقى من ثقافة أهل البلاد^(٢١) ، وأن تزاوجهم مع هؤلاء الأهلين الأقوياء قد أنجب سلالة هجينة كانت مطلع حضارة جديدة كما هو الشأن في جميع الحضارات . وأخذت هذه السلالات تمتاز بامتزاجا بطيئاً حتى تألف من امتزاجها فيما بين عام ٤٠٠٠ و ٣٠٠٠ ق . م شعب واحد هو الشعب الذي أوجد مصر التاريخية .

٣ — الدولة القديمة

الأقسام الإدارية — الشخصية التاريخية الأولى — كيوس — « بفرن »
الغرض من بناء الأهرام — فن المقابر — التحنيط

وقبل أن يحل عام ٤٠٠٠ ق . م كان هؤلاء الأقوام الذين يقيمون على ضفاف النيل قد أنشأوا لهم حكومة من نوع ما . فقد انقسم الأهليون المقيمون على شاطئ النهر أقساما ينتسب سكان كل قسم منها إلى أصل واحد . وكان لهم شعار واحد ، ويخضعون لرئيس واحد ، ويعبدون إلهاً واحداً بمراسم وطقوس واحدة . وظلت هذه الوحدات الإقليمية قائمة طوال تاريخ مصر القديم ، وظل لحكامها نوع من السلطان يختلف قوة وضعفاً واستقلالاً باختلاف قوة الملك الأعظم وضعفه . وإذا كان كل نظام مطرد النمو تجنح أجزاءه لأن يعتمد بعضها على بعض فإن هذه الأقسام أخذت تنظم نفسها مدفوعة إلى هذا التنظيم بحاجات التجارة النامية وتكاليف الحرب المتزايدة حتى تكونت منها مملكتان واحدة في الجنوب وأخرى في الشمال . ولعل هذا التقسيم كان صورة أخرى من النزاع القائم بين الإفريقيين أهل الجنوب والمهاجرين الآسيويين أهل الشمال .

وقد سوى هذا النزاع الذي زاد من أثر الاختلافات الجغرافية والعنصرية تسوية مؤقتة حين ضم مينا (مينيس) — وهو شخصية لا تزال يكتنفها بعض الغموض — القطرين تحت سلطانه الموحد ، وأعلن في البلاد قانوناً عاماً أوحى إليه به الإله توت^(٢٢) ، وأقام أولى الأسر المالكة التاريخية ، وشاد عاصمة جديدة للملكة في منف (منفيس) و « علم الناس » كما يقول مؤرخ يوناني قديم « استخدام النضد والأسرة ... وأدخل في البلاد وسائل النعيم والحياة المترفة »^(٢٣) .

ولم تكن أعظم شخصية حقيقية عرفها التاريخ شخصية ملك ، بل كانت شخصية فنان وعالم ، وتلك هي شخصية إمحوتب الطبيب والمهندس ، وكبير

مستشارى الملك زوسر (حوالى ٣١٥٠ ق.م) وكان له على الطب المصرى من الفضل ما جعل الأجيال التالية تعبدوه وتتخذوه إلهاً للعلم ومنشئ علومها وفنونها . ويلوح فى الوقت نفسه أنه هو الذى أوجد طائفة المهندسين التى أمدت الأسرة التالية بأعظم البنايين فى التاريخ .

وتقول الرواية المصرية إن أول بيت من الحجر قد أقيم بإشرافه ، وإنه هو الذى وضع تصميم أقدم بناء مصرى قائم إلى هذه الأيام وهو هرم سقارة المدرج ، وذلك الهرم بناء مدرج من الحجر ظل عدة قرون الطراز المتبع فى تشييد المقابر . ويلوح كذلك أنه هو الذى وضع تصميم هيكل زوسر الجنازى وأعمدته الجميلة الشبيهة بزهرة الأزورد (اللوطس) (*) وجدرانها المكسوة المقامة من حجر الجير (٢٤) وفى هذه الآثار القديمة القائمة فى سقارة ، والتى تكاد تكون بداية الفن المصرى فى العهود التاريخية ، نجد الأعمدة الأسطوانية المنقوشة التى لا تقل جمالا عما شاده اليونان منها فيما بعد (٢٥) ، كما نجد فيها نقوشاً بارزة تفيض واقعية وحيوية (٢٦) ، وخزفا أخضر ، وفخاراً ملوناً مطلياً بطبقة زجاجية — يضارع ما أنتجته إيطاليا فى العصور الوسطى (٢٧) . ونجد هناك أيضاً تماثلاً قويا من الحجر لزوسر نفسه عدا عليه الدهر فطمس بعض معالمه التفصيلية ، ولكنه يكشف عن وجه ذى نظرات حادة ثاقبة وعقل مفكر (٢٨) .

ولسنا نعلم حقيقة الأحوال التى جعلت الأسرة الرابعة أهم الأسر الحاكمة فى تاريخ مصر قبل الأسرة الثامنة عشرة ، فقد تكون الثروة المعدنية العظيمة التى استخرجت من أرض مصر فى عهد آخر ملك من ملوك الأسرة الثالثة ، وقد تكون ما أحرزه التجار المصريون من تفوق فى تجارة البحر الأبيض المتوسط ، وقد تكون قسوة خوفو (**) أول ملوك هذا البيت الجديد . وقد ترك لنا هيروودوت ما قاله له

(*) عن ابن البيطار .

(**) هو الذى يسميه هيروودوت كيوبس (حوالى ٣٠٩٨ — ٧٥ ... ق.م) .



شكل (١١) رأس الملك خفرع منحوت من حجر الديوريت

الكهنة المصريون عن منشى^{*} أول هرم من أهرام الجيزة فقال :

« وهم يقولون لى الآن إن العدالة ظلت توزع بالقسطاس ، وإن الرخاء عم جميع أنحاء مصر إلى أيام حكم رمسيسنتس ؛ ثم حكم من بعده كيوس فارتكب كل أنواع الخبائث ؛ ذلك بأنه أغلق جميع الهياكل ... وسخر المصريين لخدمته وحده ... فعين طائفة منهم لقطع الأحجار من المحاجر في جبال العرب ونقلها إلى النيل ، وأمر طائفة أخرى باستقبال الحجارة بعد أن تنقل في النهر على سفن ... وكان يعمل منهم مائة ألف في كل نوبة ، وكل نوبة تعمل ثلاثة أشهر ، وكل هؤلاء يكدحون عشر سنين في إنشاء الطريق الذى كانت تنقل عليه الحجارة ، وهو عمل أرى أنه لا يقل مشقة عن تشييد الهرم نفسه^(٢٩) »

أما خفرع^(*) خليفته على العرش ومنافسه في البناء فلدينا عنه معلومات مستقاة من الآثار نفسها . وذلك أن تمثاله المصنوع من حجر الديوريت والحفوظ في متحف القاهرة يصوره لنا بالصورة التى يمثل بها خيالنا من أنشأ هذا الهرم الثانى وحكم مصر ستا وخمسين سنة إن لم يكن بالصورة التى كان عليها فعلا . فعلى رأسه الباشق رمز السلطة الملكية ، ولو لم يكن هذا الباشق على رأسه لأدركنا من هيئته ومن كل جزء صغير من جسمه أنه ملك بحق^(**) فالتمثال يصوره إنسانا مزدهيا ، صريحا ، جريئا ، ثاقب النظرات ، أشم الأنف ، قويا فى تحفظ وهدوء . ويتضح من صورته هذه أن الطبيعة قد عرفت من زمن طويل كيف تصوغ الرجال ، وأن الفن قد عرف كيف يصورهم⁽⁺⁾ .

ولم بنى هؤلاء الرجال الأهرام ؟ لقد كان هدفهم الدين لا فن العبارة ، فقد كانت الأهرام مقابر نشأت وتدرجت من القبور البدائية . ذلك أن الملك كان

(*) وهو الذى يسميه هيرودوت خفرن (وقد حكم بين ٣٠٦٨ و ٣٠١١ ق م) .

(**) يردد المؤلف فى هذا الوصف ما قاله مسيرو عن هذا التمثال . (المترجم)

(+) لعل اللفظ الأجنبى للهرم بيراميد مشتق من الكلمة المصرية بيروموس ومعناها

ارتفاع لا من الكلمة اليونانية بير — ومعناها النار .

يعتقد كما يعتقد السوق من شعبه أن في كل جسم حي تستقر قرينة — كما — لا تموت حتما إذا لفظ الجسم آخر أنفاسه ، وأن هذه القرينة يُضمن بقاؤها بقاء كاملا إذا ما احتفظ بالجسم آمنا من الجوع والتزيق والبلى . وكانت وسيلةه للبقاء ومقاومة الموت هي الهرم لعلوه وضخامته وشكله وموقعة . وإذا نحن ضربنا صفحا عن أركانه فقد كان شكله هو الشكل الطبيعي الذي تصير إليه طائفة متجانسة من المواد الصلبة إذا ما تركت تسقط على الأرض من غير أن يعوقها عائق ما . وإذا كان يقصد بها كذلك البقاء والخلود فقد وضعت الحجارة في صبر لا يكاد يطيقه إنسان كأنما هي قد علت من نفسها على جانب الطريق ، ولم تقطع وتنقل من محاجر تبعد عن مكانها الحالى مئات الأميال . ويتكوّن هرم خوفو من مليونين ونصف مليون من الكتل الحجرية التي يبلغ وزن بعضها مائة وخمسين طنا^(٣) ومتوسط وزنها طنين ونصف طن ، وتبلغ مساحة قاعدته أكثر من نصف مليون قدم مربعة ، ويعلو في الهواء إلى ارتفاع ٤١١ قدما . وحجارتها مندمجة بعضها في بعض ولم يترك بينها إلا موضع لبضع كتل ليكون طريقا سريا تنقل فيه جثة الملك . ويرشد الدليل السائح الذي يسير مرتجفا على أربع إلى الكهف الذي احتوى جثة الملك على ارتفاع مائة خطوة من القاعدة في قلب الهرم . وهناك في مكان رطب مظلم ساكن في أعماق ذلك الصرح لا يهتدى إليه إنسان استقرت فيما مضى من الأيام عظام الملك خوفو وزوجته ، ولا يزال تابوت الملك المنحوت من الرخام مستقرا في مكانه ، ولكنه محطم وفارغ لأن تلك الحجارة على ضخامتها لم تنج الجثة من أيدي اللصوص كما لم تنجها جميع لعنات الآلهة .

ولما كانت القرينة في رأى المصريين الأقدمين صورة مصغرة للجسم نفسه فقد كان لا بد من أن يقدم لها الطعام والكساء وما يلزمها من الخدمات بعد موت الجسد . ومن أجل هذا كانت تعد في بعض المقابر الملكية دورات مياه لتنتفع بها الروح بعد فراق الجسد ، وتحتوى بعض النصوص الجنائزية فقرات تعبر عن قلق

كاتبها وخوفهم من أن تضطر القرينة إذا أعوزها الطعام إلى أن تطعم من فضلاتها^(٣١). ومن الطبيعي أن يخطر بالبال أن عادات الدفن عند المصريين الأقدمين إذا ما تتبعناها إلى بدايتها قد تؤدي بنا إلى تلك العادة البدائية عادة دفن أسلحة المحارب وعدده مع جثته ، أو إلى نظام شبيه بما كان يتبعه الهنود وهو دفن زوجات الرجل وعبيده معه لكي يقوموا على خدمته وقضاء حاجاته بعد موته . وإذا كان في اتباع هذه العادات كثير من المشقة على الأزواج والعبيد فقد عمد المصريون الأقدمون إلى استخدام الرسامين والمثاليين لرسم الصور وحفر النقوش وصنع التماثيل الصغيرة التي تمثل الزوجات والعبيد . وقد جرت عاداتهم على أن ينقشوا عليها عبارات سحرية تبذل الصور والرسوم فتجعلها قادرة على أداء كل ما يحتاجه الميت من خدمات كأنها أجسام وأشياء حقيقية . ولعل أبناء الميت قد ركنوا إلى التكاسل والاقتصاد في النفقات فجنحوا إلى إهمال الواجبات التي كان الدين يفرضها عليهم في أول الأمر ومنها تقديم الطعام للميت حتى في الحالات التي وقف فيها من ثروته ما يفي بهذه النفقات . ومن أجل هذا كانت الصور المتخذة بديلا من الحقائق احتياطا قائما على الحكمة وحسن التدبير ، فقد كان في وسعها أن تمد قرينة الميت بالحقول الخصبة ، والثيران الثينة ، والعدد الجم من الخدم والصناع النشطين بنفقة قليلة مغرية . ولما كشف المصريون عن هذا المبدأ أخذ الفنانون ينتجون الشيء الكثير من روائع الفن . ففي أحد القبور مسورة لحقل يحرث ؛ وفي قبر آخر ترى المحصول يحصد أو يدرس ، وفي غيرها ترى الخبز يسوى ، وفي رابع ترى الثور يلقح البقرة ، وفي غيره ترى العجل يولد ، وفي آخر ترى الماشية التي كبرت تذبح ، أو اللحم يقدم ساخنا في الصحاف^(٣٢) . ويمثل نقش جميل على حجر جيري عثر عليه في قبر الأمير راع حوتب الميت يستمتع بمختلف الأطعمة على مائدة مبسطة أمامه^(٣٣) . لعمرك إن الفن لم يفعل للإنسان في عصر من العصور ما فعله لهؤلاء المصريين القدامى .

على أنهم لم يكتفوا بهذا بل رأوا أن يضمنوا للقرينة طول الأجل بدفن الجثة في تابوت من أقى الحجارة ، وبتحنيطها تحنيطا كلفهم بلا شك أعظم الجهد والمشقة . وقد برعوا في هذا الفن براعة أبقت على قطع من الشعر واللحم عالقة بالعظام الملكية . وما أجمل وأوضح ما وصف به هيرودوت فن التحنيط حين قال : « أول ما يفعله المحنطون أن يخرجوا المخ من المنخرين بخطاف من الحديد ، فإذا ما انتزعوا جزءاً منه بهذه الطريقة أخرجوا ما بقي منه بإدخال بعض العقاقير فيه ، ثم فتحوا فتحة في جنب الميت بحجر حاد وأخرجوا منها جميع أحشائه ، فإذا ما غسلوا البطن ونظفوه بنبيذ النخل رشوا عليه العطور المسحوقة ، ثم ملئوا البطن بالمر النقي وبمطر العشبة وغيره من العطور ، وأعادوه بالخياطة إلى ما كان عليه من قبل ؛ فإذا ما فعلوا هذا كله غمروه في منقوع النطرون (*) وتركوه فيه سبعين يوماً ، وتركه أكثر من هذا الوقت مخالف للقانون . فإذا انقضت هذه الأيام السبعون غسلوا الجثة ولفوها كلها في أحزمة من القماش المشمع ، وغطوا هذا القماش بطبقة من الصمغ الذي يستعمله المصريون عادة بدل الفراء . وبعد أن يتم هذا كله يسترد أهل الميت الجثة ويصنعون لها صندوقاً من الخشب على صورة إنسان ، فإذا ما أتموا صنعه وضعوا الجثة فيه ، وأحكموا إغلاقه ، وأودعوه لحداً وهو واقف مستند إلى جداره . وبهذه الطريقة يعالجون الأجسام التي يريدون الاحتفاظ بها علاجاً يكلفهم أبهظ النفقات (٣٤) » .

ويقول أحد الأمثال المصرية الماثورة : « إن العالم كله يرهب الزمان ، ولكن الزمان نفسه يرهب الأهرام (٣٥) » . غير أن هرم خوفورغم هذا قد نقص من ارتفاعه عشرون قدماً ، وزال عنه كل غطائه الرخامي . ولعل الزمان لا يرهبه كل الرهبة بل يفعل به مايفعل بغيره ؛ وكل ما في الأمر أنه يبليه على مهل . وإلى

(*) سلكات الصوديوم والألومنيوم

جانب هذا الهرم الأكبر يقوم هرم خفرع ، وهو أصغر من الأول قليلا ، ولكن قوته لا يزال يكسوها غشاء من الحجر الأعبل (الجرانيت) الذى كان من قبل يغطيه كله . وعلى مسافة من هذا الهرم الثانى يقوم هرم آخر متواضع هو هرم منقورع خليفة خفرع على عرش مصر^(١) . وهذا الهرم لا يغطيه الحجر الأعبل بل تغطيه طبقة وضيفة من الآجر كأنها تعلن للعالم أن الدولة القديمة كانت تؤذن بالزوال حين كان الملك يشيد هذا الهرم . وتصور ما وصل إلينا من تماثيل منقورع هذا الملك فى صورة رجل أكثر رقة وتهذيبا وأقل قوة من خفرع^(٢) . إن الحضارة كالحياة تُنفى ما بلغت به حد الكمال ، ولعل النعيم والترف حتى فى هذا العهد السحيق ، ولعل مائلا على العادات والأخلاق من تطور ورقى ، لعل هذا كله قد جعل الناس يحبون السلم ويبغضون الحرب . وقام فجأة إنسان جديد ، اغتصب عرش منقورع وقضى على أسرة بُناة الأهرام .

٤ — الدولة الوسطى

عهد الإقطاع — الأسرة الثانية عشرة — سيطرة الهكسوس

لم يكن الملوك فى بلد من البلاد بالكثرة التى كانوا بها فى مصر القديمة . والتاريخ يضمهم جميعا فى أسر ، تشمل كل أسرة ملوكا من بيت واحد أو ذرية واحدة ؛ ولكن عدد هذه الأسر نفسها يثقل الذاكرة التى لا تطيق كثرتها^(*) .

(١) وهو الذى يسميه هيرودوت ميسرنيس (حكم من ٣٠١١ — ٢٩٨٥ ق.م تقريبا)

(٢) أنظر تمثال منقورع وزوجته فى متحف الفن بنيويورك

(*) وقد أريد المؤرخون أن يسهلوا الأمر على أنفسهم فجمعوا الأسر فى عصور هي

(١) عصر الدولة القديمة وتشمل الأسر من الأولى إلى السادسة (٣٥٠٠ — ٢٦٣١ ق.م)

وتليها فترة من الفوضى وتعقبها (٢) الدولة الوسطى وتشمل الأسر من الحادية عشرة إلى الرابعة عشرة

(٢٣٧٥ — ١٨٠٠ ق.م) ثم تآتى بعدها فترة أخرى من الاضطراب والفوضى يليها

(٣) عصر الإمبراطورية أو الدولة الحديثة ، وتشمل الأسر من الثامنة عشرة إلى العشرين

(١٥٨٠ — ١١٠٠ ق.م) . وأعقبها عصر انقسمت فيه البلاد أقساما وكانت لها عدة

عواصم . ثم جاء (٤) عصر ساو (التي يسميها اليونان سايس والتي تسمى الآن صا الحجر) =

وحكم مصر بيني الثاني أحد هؤلاء الفراعنة أربعا وتسعين سنة (٢٧٣٨ — ٢٦٤٤ ق . م) وحكمه هذا أطول حكم في التاريخ كله . فلما مات عمت القوضى البلاد وأدت إلى الانحلال وخسر خلفه عرشه . وحكم أسراء الإقطاع المقاطعات حكما مستقلا . وهذا التعاقب بين السلطة المركزية وغير المركزية من الظواهر التاريخية التي تتوالى بانتظام ، كأن الناس يملّون الحرية المفرطة تارة والنظام المسرف تارة أخرى . وطنى على البلاد « عصر مظلم » سادته القوضى أربعة قرون ، ثم قام بعدها رجل قوى الإرادة شبيه بشارلمان في عصور أوروبا المظلمة ، فقبض بيد من حديد على زمام الأمور ، وأعاد النظام إلى البلاد ، ونقل العاصمة من منف إلى طيبة ، وتسمى باسم أمينمحييت الأول ، وأسس الأسرة الثانية عشرة . وفي عهد هذه الأسرة ازدهرت الفنون جميعها — مع جواز استثناء فن العمارة — وبلغت من الإتقان درجة لم تبلغها فيما نعرفه من تاريخ مصر قبل هذه الأسرة أو بعدها . ويتحدث إلينا أمينمحييت في أحد النقوش القديمة بقوله :

كنت رجلا زرع البذور وأحب إله الحصاد ؛

وحياى النيل وكل وديانه ؛

ولم يكن فى أيامى جائع ولا ظمآن ؛

وعاش الناس فى سلام بفضل ما عملت وتحدثوا عني .

وكان جزاؤه أن ائتمر عليه من أعلى شأنهم ووضعهم فى المراكز السامية من الوزراء والمستشارين . وقضى أمينمحييت على هذه المؤامرة ، وبطش بالمتآمرين ، ولكنه خلف لابنه — كما فعل پولونيوس من بعده — ملفا من الأوراق يحوى نصيحة مُرَّة ، هى فى واقع أمرها قاعدة عجيبة للحكم المطلق ، ولكنها ثمن باهظ يبتاع به الملك عرشه :

= ويشمل الأسرة السادسة والعشرين (٦٦٣ — ٥٢٥ ق م) . وكل التواريخ الواردة هنا ما عدا الأخير منها تواريخ تقريبية . ويجد علماء الآثار بعض التسلية فى تأخير هذه التواريخ أو تقديمها عدة قرون .

استمع إلى ما سأقوله لك ،
حتى تكون ملك الأرض ... ،
وتزيد فيها الخير :

أقس على جميع من هم دونك —
فإن الناس لا يعنون إلا بمن يرهبهم ؛
ولا تقترب منهم بمفردك ،
ولا تملأ قلبك بالمودّة لأخ ،
ولا تعرف صديقا ... ،

وإذا نمت فاحرس لنفسك قلبك
لأن الإنسان لا صديق له في أيام الشر^(٣٦) .

ولقد أقام هذا الملك الصارم الذى يبدو لنا من خلال أربعة آلاف من
السنين حاكما رحيمًا ، نظاما من الحكم والإدارة دام خمسمائة عام ، أثرت فيه البلاد
مرة أخرى ، وعاد فيه الفن إلى سابق عهوده الزاهرة . واحتفرت سنوسريت الأولى
قناة تصل النيل بالبحر الأحمر ، وصدد الغزاة النوبيين وشاد الهياكل العظيمة في
عين شمس والعراة والكرنك . ولقد نجت من عبث الدهر عشرة تماثيل ضخمة
تمثله جالسا ، وهى الآن في متحف القاهرة . وبدأ سنوسريت آخر هو سنوسريت
الثالث يخضع فلسطين لحكم مصر ، وردّ النوبيين الذين كانوا لا ينقطعون عن الإغارة
على حدودها الجنوبية ، ووضع لوحة عند تلك الحدود كتب عليها أنه لم يضعها
« رغبة في أن تعبدوها ، بل طمعا في أن تحاربوا من أجلها »^(٣٧) . وكان أمينمحييت
الثالث إداريا حازما عني بحفر الترع وتنظيم وسائل الري ، وقضى (ولعله قد أسرف
في هذا القضاء) على أسراء الإقطاع ، وأحل محالهم موظفين معينين من قبل الملك .
وبعد ثلاثة عشر عاما من موته عاد الاضطراب إلى مصر على أثر النزاع الذى قام
بين المتنافسين المطالبين بالعرش ، وانقضى عهد الدولة الوسطى في حال من الفوضى

والتفكك دامت مائتي عام . ثم غزا الهكسوس ، وهم بدو من آسية ، مصر المتقطعة
الأوصال ، فأحرقوا مدنها وهدموا هياكلها وبددوا ما تجمع من ثروتها ، وقضوا
على كثير من معالم فنونها ، وأخضعوا وادي النيل مدى قرنين لحكم « ملوك
الرعاة » (*) . لقد كانت المدن القديمة جزائر صغرى فى بحار من الهمجية ،
أومحلات رخية يحيط بها الجياع والحساد من الصيادين والرعاة ذوى النزعة الحربية .
وكانت حصونها عرضة للتصدع والانهدام من حين إلى حين . بهذه الطريقة أغار
الكاشيون على دولة بابل ، وهاجم الغاليون بلاد اليونان والرومان ، واجتاح
الهون إيطاليا ، وهاجم المغول بيجنج .
لكن الفاتحين لم يلبثوا هم أيضاً أن سمنوا وأترفوا وفقدوا سلطانهم ؛ وجمع
المصريون شملهم وشنوا حرباً عواناً يبعثون بها تحريراً بلادهم ، فطردوا الهكسوس ،
وأسسوا الأسرة الثامنة عشرة التى بلغت البلاد فى أيامها درجة من القوة والمجد لم
تبلغها قط من قبل .

٥ — الامبراطورية

الملكة العظيمة — تحتمس الثالث — ذروة المجد

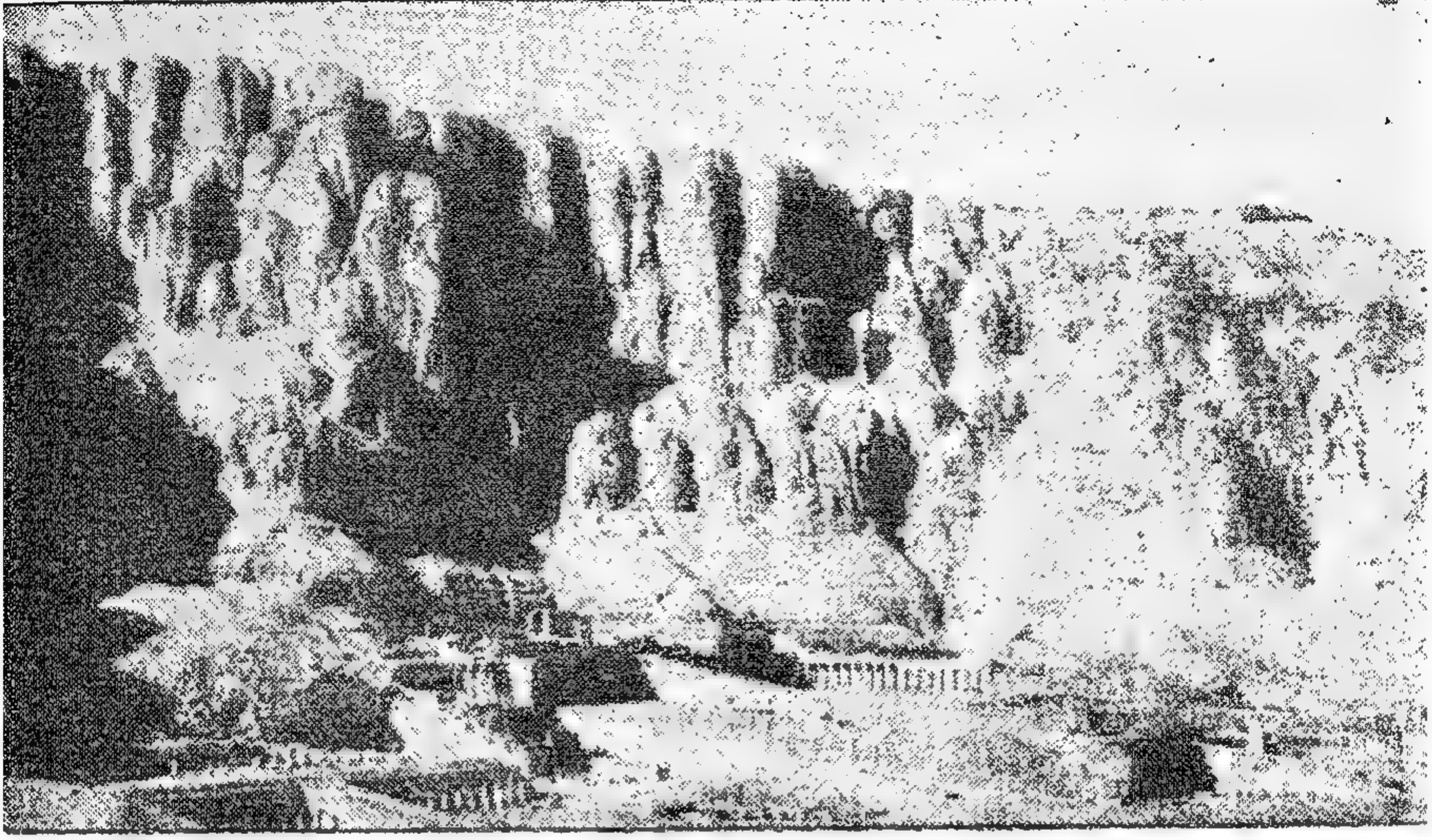
لعل هذا الفتح قد جدد شباب مصر بما أدخله فيها من دم جديد ؛ ولكنه كان
إيذاناً بابتداء كفاح طويل صير بين مصر وغرب آسية دام ألف عام . ذلك أن
تحتمس الأول لم يعزز قوى الدولة الجديدة فحسب ولكنه غزا سوريا أيضاً بحجة
أن مصر يجب أن تسيطر على غرب آسية لكي تمنع الاعتداء على أراضيها فيما بعد ،
وأخضع كل البلاد الواقعة بين ساحل البحر وقرقيش فى الداخل ، ووضع فيها
حاميات من عنده ، وفرض عليها الجزية ، ثم عاد إلى طيبة مثقلاً بالغنائم ومكلاً
بالمجد الذى يكلل على الدوام هامة من يقتل بنى الإنسان . وفى آخر العام الثلاثين

(*) يعتقد كثيرون من المؤرخين أن ترجمة كلمة هكسوس بالرعاة ترجمة خاطئة وأنهم لم
يكونوا رعاة بل « ملوك أقاليم » . (المترجم)

من حكمه رفع ابنته حتشبسوت إلى العرش لتكون شريكة له في الملك . وحكم من بعده زوجها وأخوها لأبيها باسم تحتمس الثاني ، وأوصى وهو على فراش الموت أن يخلفه تحتمس الثالث ابن تحتمس الأول من إحدى سراريه^(٣٨) . ولكن حتشبسوت نَحَتْ هذا الشاب الذي علا نجمه فيما بعد ، واستأثرت دونه بالملك ، وأثبتت أنها لا تختلف عن الملوك في شيء إلا في أنها أنثى .

على أنها لم تعترف حتى بهذا الفرق . ذلك أن التقاليد المقدسة كانت تتطلب من كل ملك مصرى أن يكون ابن الإله العظيم أمون ، ومن أجل هذا أعدت حتشبسوت العدة لأن تكون ذكراً وأن تكون مقدسة ، فاخترت لها سيرة نصت على أن أمون نزل على أحسنى أم حتشبسوت في فيض من العطر والنور ، فأحسنت هذه استقباله ؛ ولما خرج من عندها أعلن أن أحسنى ستلد ابنة تشع على الأرض كل ما يتصف به الإله من قوة وبسالة^(٣٩) . وأرادت الملكة العظيمة بعدئذ أن ترضى أهواء شعبها ، ولعلها أرادت أيضاً أن تشبع رغبة كامنة في صدرها ، فعملت على أن ترسم على الآثار في صورة محارب ملتحم من غير ثديين ؛ ومع أن النقوش الباقية من عهدا تتحدث عنها بضمير المؤنث ، فإنها تسميها « ابن الشمس » و « سيد القطرين » . وكانت حين تظهر أمام شعبها تلبس ملابس الرجال ، وتلبغى لحية مستعارة^(٤٠) .

ولعلها كان من حقها أن تقرر بنفسها أن تكون رجلاً أم امرأة ، وذلك لأنها أضحت من خير الحكام الذين جلسوا على عرش مصر — وهم كثيرون — ، ومن أعظمهم نجاحاً . فقد وطدت دعائم الأمن والنظام في داخل البلاد من غير أن تسرف في الاستبداد ، وحافظت على السلم في خارج مصر من غير خسارة ، وأرسلت بعثة عظيمة إلى بونت (ويرجح أن بونت هذه هي شاطئ إفريقيا الشرق) ، وافتتحت سوقاً جديدة لتجارة مصر ، وجاءت بكثير من الطيبات لشعبها . وعملت على تجميل الكرنك بأن أقامت فيها مسلتين كبيرتين جميلتين ، وشيدت في الدير



شكل (١٢) هيكل الدير البحرى

البحرى الهيكل الفخم الذى اختطه أبوها ، وأصلحت بعض ما خربه ملوك الهكسوس من الهياكل القديمة ، وقالت فى أحد نقوشها تفخر بأعمالها : « لقد أصلحت ما كان من قبل مخرباً ؛ وأكملت ما لم يكن قد تم تشييده حين كان الآسيويون فى وسط الأرض الشمالية يهدمون فيها ما كان قائماً قبلهم^(٤١) » . ثم أنشأت لنفسها آخر الأمر قبراً سورياً مزخرفاً بجوار الجبال التى تطفى عليها الرمال على الضفة الغربية للنيل فى المكان الذى سمي فيما بعد « وادى مقابر الملوك » . وحذا خلفاؤها فى ذلك حذوها ، حتى كان عدد القبور المنحوتة فى التلال قرابة ستين قبراً ملكياً ، وحتى أخذت مدينة الموتى تنافس فى عدد سكانها طيبة مدينة الأحياء ، وكانت « الحافة الغربية » فى المدن المصرية القديمة موطن الموتى من الطبقة العليا ؛ وكانوا إذا قالوا إن فلاناً « ذهب غرباً » قصدوا بقولهم هذا أنه مات .

ودام حكم هذه الملكة اثنتى عشرة سنة فى حكمها سليماً حكيماً ، ثم خلفها تحتمس الثالث وكان حكمه مليئاً بالحروب ، فقد انتهزت بلاد سوريا فرصة موت حتشپسوت فتارت على مصر ، وظن أهلها أن تحتمس الثالث ، وهو

شاب في الثانية والعشرين من عمره ، لن يستطيع الاحتفاظ بالدولة التي أقامها أبوه . ولكن تحتمس لم يقعد عن العمل فسار على رأس جيشه في السنة الأولى من حكمه عن طريق القنطرة وغزة بسرعة عشرين ميلا في كل يوم ، والتحم بالقوات الثائرة عند هارمجدو (أى جبل مجدو) ، وهى بلدة صغيرة ذات موقع حربى منيع بين سلسلتى جبال لبنان على الطريق الممتد بين مصر ونهر القرات . وهى بعينها مجدن التي وقعت فيها عدة وقائع حربية من ذلك اليوم إلى أيام النَّبِيِّ . وفى نفس الممر الذى هزم فيه الإنجليز الأتراك فى عام ١٩١٨ أثناء الحرب العالمية الأولى هزم تحتمس الثالث السوريين وحلفاءهم قبل ذلك بثلاثة آلاف وثلثمائة وسبعة وتسعين عاما . ثم سار تحتمس مظفراً مخترقاً غرب آسية يخضع أهلها ويفرض عليهم الضرائب ويجمع منهم الخراج ، وعاد بعدئذ إلى طيبة منتصراً بعد ستة أشهر من بداية زحفه (*) (٤٢) .

وكانت هذه الحملة أولى حملات بلغت عدتها خمس عشرة أخضع فيها تحتمس الباسل بلاد البحر الأبيض المتوسط الشرقى لحكم مصر . ولم يكن عمله عمل الفاتح فحسب ، بل إنه عمل أيضا على تنظيم فتوحه ، فأقام فى جميع البلاد المفتوحة حاميات قوية ، وأنشأ فيها حكما منظما قديراً . وكان تحتمس أول رجل فى التاريخ أدرك ما للقوة البحرية من شأن عظيم ، فأنشأ أسطولا أخضع لسلطانه بلاد الشرق الأدنى . وكان ما ظفربه من الغنائم عماد الفن المصرى فى عهد الإمبراطورية ، كما كان الخراج الذى أخذ ينصب فى مصر من بلاد الشام منشأ حياة الدعة والنعيم التى تمتع بها شعبه ، فوجدت فى مصر طبقة جديدة من الفنانين غمرتها بروائع الفن . وفى وسعنا أن نتصور إلى حد ما ثروة الحكومة الإمبراطورية الجديدة إذا عرفنا أن خزانة الدولة استطاعت فى يوم من الأيام أن تخرج منها ما زنته تسعة آلاف

(*) تطلب هذا العمل نفسه من النبي ضعفي هذا الزمن ؛ وحاول نابليون أن يقوم بمثله فى عكا فأخفق .

رطل من سبائك الذهب والفضة^(٤٣) . وراجت التجارة في طيبة رواجاً لم تعهده من قبل ، وناءت الهياكل بالقربان ، وارتفع صرح بهو الاحتفالات الملكية في الكرنك ، وأنشئ فيها المتنزه العظيم بما يتفق مع عظمة الإله والملك . ثم عاد الملك من ميدان القتال ووجه عنايته للفن وإدارة شؤون البلاد . ومن أجل آثار ذلك العهد المزهر يات البديعة النقش . وقال عنه وزيره ما كان أمناء سر نابليون المتعجبون المنفيون يقولون عنه « إن جلالته كان يعرف كل ما يحدث ؛ فما من شيء كان يجهله ؛ فقد كان إله المعرفة في كل شيء ؛ ولم تكن هناك مسألة لا يفصل فيها بنفسه^(٤٣) » . وتوفي الملك بعد أن حكم اثنتين وثلاثين سنة (ويقول بعضهم إنها خمساً وأربعين) ، وبعد أن أتم لمصر زعامتها في عالم البحر الأبيض المتوسط .

وجاء من بعده فاتح آخر هو أمنحوتب الثاني فأخضع مرة أخرى بعض عشاق الحرية في سوريا ، وعاد إلى طيبة وفي ركابه سبعة ملوك أسرى أحياء مطأطي الرؤوس في مقدم السفينة الإمبراطورية . وقدم الملك ستة منهم قرباناً لأمون ضحى بهم بيده^(٤٤) . ثم خلفه تحتمس آخر خامل الذكر ، جلس بعده على العرش في عام ١٤١٢ أمنحوتب الثالث فحكم البلاد حكماً طويلاً ارتفعت مصر في خلاله إلى ذروة المجد بفضل ما تجمع فيها من الثروة خلال سيادتها التي دامت قرناً كاملاً . وفي المتحف البريطاني تمثال نصفي لهذا الملك يمثل في صورة رجل يجمع بين الرقة والقوة ، في وسعه أن يقبض بيد من حديد على زمام الأمور في إمبراطوريته التي ورثها ، وأن يعيش مع هذا في جو من الدعة والنعيم لعل بترونيس أو آل مديشي كانوا يحسدونه عليه . ولولا ما كشف من مخلفات توت عنخ آمون لما صدقنا ما تقصه الروايات وما تدونه السجلات من ثراء أمنحوتب ومظاهر ترفه . وقد بلغت طيبة في عهده من العظمة والفخامة ما بلغت أية مدينة أخرى في عهود التاريخ كلها ، فكانت شوارعها غاصة بالتجار ، وأسواقها مملوءة بالبضائع الواردة من جميع أنحاء العالم المعروف وقتئذ ، ومبانيها « تفوق في فخامتها جميع

مبانى العواصم القديمة والحديثة»^(٤٥) ، وقصورها الرائعة تستقبل الخراج من طائفة لا حصر لها من الولايات الخاضعة لسلطانها ، وهيا كلها الضخمة « محلاة كلها بالذهب »^(٤٦) ومزينه بروائع الفنون على اختلاف أنواعها ، وبيوتها ذات الحدائق وقصورها الفخمة ومبانيها المظلة وبحيراتها الصناعية التى كانت مسرحاً لكل ما هو جديد من الأزياء والأنماط ، كما كانت رومة فى عهد الإمبراطورية^(٤٧) . هذه هى عاصمة مصر فى أيام مجدها وفى أيام مليكها الذى بدأ من بعده اضمحلالها وسقوطها .

الفصل الثالث

حضارة مصر

١ - الزراعة

كان من وراء هؤلاء الملوك والملكات بيادق مجهولون ، ومن وراء تلك الهياكل والقصور والأهرام عمال المدن وزراع الحقول^(*). ويصفهم هيرودوت كما وجدهم حوالى عام ٤٥٠ ق . م وصفاً تسوده روح التفاؤل فيقول :

« إنهم يحنون ثمار الأرض بجهد أقل مما يبذله غيرهم من الشعوب ، ... لأنهم لا يضطرون إلى تحطيم أخاديد الأرض بالمحراث أو إلى عزقها أو القيام بعمل كالذى يضطر غيرهم من الناس إلى القيام به لكي يحنوا من ورائه محصولاً من الحَب ؛ ذلك بأن النهر إذا قاض من نفسه وأروى حقولهم ، ثم انحسر ماؤه عنها بعد إروائها ، زرع كل رجل أرضه وأطلق عليها خنازيره ؛ فإذا مادفت هذه الخنازير الحَب في الأرض بأرجلها انتظر حتى يحين موعد الحصاد ، ثم ... جمع المحصول^(٤٩) » .

وكما كانت الخنازير تدوس الحب بأرجلها ، كذلك أنست القردة ودربت على قطف الثمار من الأشجار^(٥٠) ؛ وكان النيل الذى يروى الأرض يحمل لها فى أثناء فيضانه مقادير كبيرة من السمك يتركها فى المناقع الضحلة ؛ وكانت الشبكة التى يصطاد بها السمك هى بعينها التى يحيط بها رأسه أثناء الليل ليتقى بها شر لدغ البعوض^(٥١). على أنه لم يكن هو الذى يفيد من سخاء النهر ، ذلك بأن كل فدان من الأرض كان ملكاً لفرعون لا يستطيع غيره من الناس أن ينتفعوا به إلا بإذن

(*) كان سكان مصر فى القرن الرابع قبل المسيح يقدرون بنحو سبعة ملايين نسمة .

منه . وكان على كل زارع أن يؤدي له ضريبة سنوية عينية تتراوح ما بين عشر^(٥٢) المحصول وخمسه^(٥٣) . وكان أمراء الإقطاع وغيرهم من الأثرياء يملكون مساحات واسعة من الأرض . وفي وسعنا أن نتصور ما كانت عليه أملاكهم من الاتساع إذا علمنا أن واحداً منهم كان يملك ألفاً وخمسمائة بقرة^(٥٤) . وكانت الحبوب والسمك واللحوم أهم الأطعمة . وقد عثر على بقية من نقش يحدد مايسمح للتلميذ أن يأكله ويشربه ، وقد ذكر فيه ثلاثة وثلاثون نوعاً من لحم الحيوان والطيور ، وثمانية وأربعون صنفاً من الشواء ، وأربعة وعشرون نوعاً من الشراب^(٥٥) . وكان الأغنياء يبلعون طعامهم بالنبيذ والفقراء بشراب الشعير الخمر^(٥٦) .

وكانت معيشة الفلاحين معيشة ضنكا . فأما من كان منهم مزارعاً « حراً » فلم يكن يخضع إلا للوسيط والجاني ، وكان هذان الرجلان يعاملانه على أساس المبادئ الاقتصادية التي ثبتت تقاليدها على مدى الأيام ، فكانوا يأخذون من محصول الأرض « كل ماتحملة وسائل النقل » . وإلى القارئ رأى أحد الكتبة الظرفاء في حياة معاصريه من الرجال الذين كانوا يطعمون مصر القديمة :

« هلا استعدت في خيالك صورة الزارع حين يجبي منه عُشر حَبِّه ؟ لقد أتلفتَ الديدان نصف القمح ، وأكلت أفراس البحر ما بقي له منه ، وهاجتها في الحقول جماعات كبيرة من الجرذان ، ونزلت بها الصراصير ؛ والماشية النهمة ، والطيور الصغيرة تختلس منها الشيء الكثير ؛ وإذا غفل الفلاح لحظة عما يبقى له في الأرض ، عدا عليه اللصوص . يضاف إلى هذا أن السيور التي تربط الحديد والمعزقة قد بليت ، وأن الثورين قد ماتا من جرّ المحراث . وفي هذه اللحظة يخرج الجاني من القارب عند المرسى ليطلب العشور ، ثم يأتي حُرّاس أبواب مخازن (الملك) بعصيتهم ، والزنوج بجريد النخل ، يصيحون : تعالوا الآن ، تعالوا ! فإذا لم يأتهم أحد طرخوا الزارع أرضاً ، ودربطوه ، وجروه إلى القناة وألقوه فيها

مبتدئين برأسه ، وزوجته مربوطة معه ، ثم يسلك أطفاله في السلاسل ، ويفرّ جيرانه من حوله لينقذوا حبوبهم^(٥٧) .

تلك بطبيعة الحال قطعة أدبية فيها كثير من المبالغة ، ولكن كاتبها كان في وسعه أن يضيف إليها أن الفلاح كان معرضاً في كل وقت إلى أن يسخر في العمل لخدمة الملك ، يظهر قنوات الري ، وينشئ الطرق ، ويحرق الأراضي الملكية ، ويجرّ الحجارة الضخمة لإقامة المسلات وتشيد الأهرام والهياكل والقصور . وأكبر ظننا أن كثرة العاملين في الحقول كانت قانعة راضية بفرقها صابرة عليه . وكان كثيرون منهم عبيداً من أسرى الحرب أو المدينين ؛ وكانت الغارات تنظم أحياناً للقبض على العبيد ، وكان يؤتى بالنساء والأطفال من خارج البلاد ليبيعن في البلاد لمن يدفع فيهن أغلى الأثمان . وفي متحف ليدن نقش بارز قديم يصور موكباً طويلاً من الأسرى الآسيويين يسيرون مكتئين إلى أرض الأسر ، ويراهم الإنسان أحياء على هذا الحجر الناطق وأيادهم موثقة خلف ظهورهم أو رؤوسهم ، أو موضوعة في أصفاد قوية من الخشب ، وعلى وجوههم إمارات الحقد المنبعثة من اليأس .

٢ — الصناعة:

المعدنون — الصناع — العمال — المهندسون —
النقل — البريد — التجارة وشئون المال — الكتبة

وازداد الفائض من الثروة شيئاً فشيئاً نتيجة عمل الزراع ، وادخر الطعام لمن يعملون في التجارة والصناعة . وكانت مصر تستورد المعادن من بلاد العرب والنوبة لقلتها فيها . وكان بُعد مراكز التعدين مما لا يغري الأهالي باستغلالها لحسابهم الخاص ، ولذلك ظلت صناعة التعدين قروناً كثيرة محتكرة للحكومة^(٥٨) وكانت مناجم النحاس تغل مقادير قليلة منه^(٥٩) ، أما الحديد فكان يستورد من بلاد الحثيين ، وكانت مناجم الذهب منتشرة على طول الضفة الشرقية للنيل وفي

بلاد النوبة ، كما كان يوتى به من خزائن جميع الولايات الخاضعة لسلطان مصر .
ويصف ديودور الصقلي (٥٦ ق . م) المعدنين المصريين وهو يتبعون بالمصباح
والمعول عروق الذهب فى الأرض ، والأطفال وهم يحملون المعدن الخام ، والمهارس
الحجرية وهى تطحنه ، والشيوخ والعجائز وهم يغسلونه . ولسنا نعرف بالضبط
ما فى هذه الفقرة الشهيرة من تزيف مبعثه النعرة القومية العارمة :

« إن ملوك مصر يجمعون السجناء الذين أدانهم القضاء ، وأمرى الحرب
وغيرهم ممن وجهت إليهم التهم الباطلة وزجوا فى السجن فى سورة من الغضب .
وهؤلاء كلهم يرسلون إلى مناجم الذهب تارة وحدهم وتارة مع جميع أسرهم ،
ليقتص منهم عن جرائم ارتكبوها الجرمون منهم ، أو ليستخدموا فى الحصول على
دخل كبير نتيجة كدهم ... وإذ كان هؤلاء العمال عاجزين عن العناية بأجسامهم ،
وليس لهم ثياب تستر عريهم ، فإن كل من يرى هؤلاء البائسين المنكودى الحظ
تأخذه الرحمة بهم لفرط شقائهم . ذلك أنه لا يرى أحداً يرحم المرضى والمشوهين
والعجزة والضعاف من النساء ، أو يخفف العمل عنهم . ولكن هؤلاء كلهم
يُلبسون بالدأب على العمل حتى تنخور قواهم ، فيموتوا فى ذل الأسر . ولهذا فإن
هؤلاء البائسين المساكين يرون مستقبلهم أتعس من ماضيهم لقسوة العقاب الذى
يوقع عليهم ، وهم من أجل ذلك يفضلون الموت على الحياة^(٦٠) . »

وعرفت مصر فى عهد الأسرات الأولى كيف تصنع البرنز بمزج النحاس
بالقصدير ، وصنعت منه فى أول الأمر أسلحة برنزية كالسيوف ، والخوذات
والدروع ؛ ثم صنعت منه بعدئذ أدوات برنزية كالعجلات ، والمهراسات ،
والرافعات ، والبكرات ، وآلات رفع الأثقال ، والأوتاد ، والمحارط ، واللواب ،
والمشاقب التى تشقب أقسى أحجار الديوريت ، والمناشير التى تقطع ألواح الحجارة
الضخمة لصنع التوابيت . وكان العمال المصريون يصنعون الآجر والأسمنت والمصيص ،
ويطلون الفخار بطبقة زجاجية ، ويصنعون الزجاج وينقشونه هو والفخار بمختلف

الألوان . وقد برعوا في حفر الخشب يصنعون منه كل ما يصلح لصنعه من قوارب وعربات وكراسي ، وأسرة ، وتوايت جميلة تكاد تغري الأحياء بالموت . واتخذوا من جلود الأنعام ملابس وكنانات ، ودروعاً ، ومقاعد . وقد صورت على جدران المقابر كل الفنون المتصلة بدبغ الجلود ، ولا يزال الأساكفة إلى الآن يستخدمون السكاكين المقوسة المصورة على تلك الجدران في أيدي دابغى الجلود^(٦١) . وصنع المصريون من نبات البردى الحبال والحصر والأخفاف والورق . وابتدعوا فن الطلاء بالميناء والورنيش ، واستخدموا الكيمياء في الصناعة . ومن الصناعات من كان يعمل في نسج القماش من أدق الخيوط المعروفة في تاريخ النسيج كله . وقد عثر المنقبون على نماذج من الكتان منسوجة من أربعة آلاف عام ، وعلى الرغم من عوادي الأيام فإن « خيوطها قد بلغت من الدقة حدا لا يستطيع الإنسان معه أن يميزها من خيوط الحرير إلا بمجهر . وإن أحسن ما أخرجته المناسج الآلية في هذه الأيام ليعد خشنا غليظا إذا قيس إلى هذا النسيج الذي كان يصنعه المصريون الأقدمون بأنوالهم اليدوية^(٦٢) . وفي هذا يقول بسكل : « إذا فاضلنا بين قدرة المصريين الفنية وقدرتنا نحن ، تبين لنا أننا كنا قبل اختراع الآلة البخارية لا نكاد نفوقهم في شيء »^(٦٣) .

وكانت الكثرة الغالبة من الصناعات من الأحرار ، وقتلهم من الرقيق . وكان العاملون في كل صناعة من الصناعات يؤلفون طبقة خاصة كما هي الحال في الهند اليوم . وكان يطلب إلى الأبناء أن يتخذوا صناعات آبائهم^(٦٤) (*) . وقد جاءتهم الحروب بآلاف من الأسرى فكانوا عوناً على إنشاء الضياع الواسعة وعلى رفق فن الهندسة . وقد أهدى رمسيس الثالث في أثناء حكمه ١١٣٠٠٠ أسير إلى الهياكل^(٦٥) . وكان النظام المألوف للصناعات الأحرار أن تؤلف منهم فرق تتبع

(*) ويضيف ديودور إلى هذا قوله : « إذا اشترك صانع في الشؤون العامة ضرب ضرباً موجماً^(٦٥) »

رئيساً منهم أو مشرفاً عليهم يؤجر على عملها جملة ويؤدى هو لأفرادها أجورهم .
وفى المتحف البريطانى لوحة طباشيرية سجل فيها أحد رؤساء العمال أسماء ثلاثة
وأربعين عاملاً ودون أمام أسمائهم أيام غيابهم وأسباب هذا الغياب من «مرض»
أو «تضحية للإله» أو مجرد «الكسل» . وكان الإضراب كثير الحدوث ؛
وقد حدث مرة أن تأخر صرف الأجور للعمال زمناً طويلاً فحاصروا رئيسهم
وأندروه بقولهم له : « لقد ساقنا إلى هذا المكان الجوع والعطش ، وليست لنا
ثياب ، وليس عندنا زيت ولا طعام ؛ فاكتب إلى سيدنا الملك فى هذا الأمر ،
واكتب إلى الحاكم (حاكم المقاطعة) الذى يشرف على شؤوننا حتى يعطينا
ما نحتاج به »^(٦٧) . وتروى إحدى القصص اليونانية المتواترة خبر فتنة صماء
اندلع لهيبها فى مصر واستولى فيها العبيد على إحدى المديريات ، وظلت فى أيديهم
زمناً طويلاً كانت نتيجة أن الزمن ، الذى يجيز كل شئ ، أقر امتلاكهم
إياها . لكن النقوش المصرية لا تذكر شيئاً قط عن هذه الفتنة^(٦٨) . ومن أغرب
الأشياء أن حضارة كانت تستغل العمال هذا الاستغلال القاسى لم تعرف أو لم
تسجل إلا عدداً ضئيلاً من الثورات .

وكان فن الهندسة عند المصريين أرقى من كل ما عرفه منه اليونان أو الرومان ،
أو عرفته أوروبا قبل الانقلاب الصناعى ؛ ولم يتفوق عليهم فيه إلا عصرنا
الحاضر ، وحتى فى هذا القول الأخير قد نكون مخطئين . مثال ذلك أن سنوسريت
الثالث شاد^(*) سوراً حول بحيرة موريس طوله سبعة وعشرون ميلاً ليجمع فيها
ماء منخفض الفيوم ، وأصلح بعمله هذا ٢٥٠٠٠ فدان كانت من قبل مناقع ،
فأصبحت صالحة للزراعة ، هذا إلى أنه اتخذ من هذه البحيرة خزاناً واسعاً للماء
الرى^(٦٩) . واحتفرت قنوات عظيمة منها ما يصل النيل بالبحر الأحمر ، واستخدمت
الصناديق الغاطسة للحفر تحت الماء^(٧٠) ، ونقلت المسلات التى تزن ألف طن من

(*) إذا قلنا شاد الملك فإننا نقصد بطبيعة الحال أنه قد شيد فى عهده .

أما كن قاصية . وإذا جاز لنا أن نصدق ما ينقله لنا هيرودوت ، أو نحكم على أعمال السابقين بما نشاهده من صورها في النقوش البارزة التي خلقتها الأسرة الثامنة عشرة ، قلنا إن هذه الحجارة الضخمة كان يجرها آلاف من العبيد على عروق من الخشب مطلية بالشحم ، ثم ترفع إلى أماكنها في البناء على طرق طويلة تبدأ من أماكن بعيدة^(٧١) . ولقد كانت الآلات نادرة لأن الجهد العضلي كان رخيصا ، وليس أدل على هذا الرخص من نقش بارز صور فيه ثمانمائة من المجدفين يدفعون سبعة وعشرين قاربا تجر وراءها صندلا للنقل يحمل مسلتين^(٧٢) . هذا هو العصر الذهبي الذي يريد من ينادون بتحطيم الآلات أن يعودوا إليه . وكانت سفن يبلغ طول الواحدة منها مائة قدم وعرضها خمسين قدما تمر عباب النيل والبحر الأحمر ، ثم انتقلت آخر الأمر إلى البحر الأبيض المتوسط . أما في البر فقد كانت البضائع ينقلها الجمالون ، ثم استخدمت في نقلها الجمير ثم الخيل ، وأكبر الظن أن الهكسوس هم الذين جاءوا بالخيول إلى مصر . ولم يظهر الجمال في مصر إلا في عهد البطالمة^(٧٣) . وكان الفقراء من أهل البلاد يتنقلون مشيا على الأقدام أو يستخدمون قواربهم البسيطة ، أما الأغنياء فكانوا يركبون رجايات^(*) يحملها العبيد ثم صاروا فيما بعد يركبون عربات غير أنيقة الصنع يقع ثقلها كله أمام محور العجل^(٧٤) .

وكان لدى المصريين بريد منتظم ؛ فقد جاء في بردية قديمة : « أكتب إلى مع حامل الرسائل »^(٧٥) . إلا أن وسائل الاتصال لم تكن مع ذلك ميسرة ، فقد كانت الطرق قليلة غير معبدة ماعدا الطريق الحربي الممتد من نهر الفرات مارا بغزة^(٧٦) . وكان التواء النيل — وهو أهم وسائل الانتقال وقتئذ — مما ضاعف البعد بين المدن المختلفة . وكانت التجارة الداخلية بدائية نسبيا ، يتم معظمها بطريق المقايضة في أسواق القرى ، ونمت التجارة الخارجية نموا بطيئا ،

(*) الرجاجة الهودج الصغير . (المترجم)

وعاقبها ما كان يفرض عليها من قيود شديدة أشبه ما تكون بأحداث الحواجز الجمركية المفروضة على التجارة الخارجية في هذه الأيام . ذلك أن ممالك الشرق الأدنى كانت قوية الإيمان بمبدأ « الحماية التجارية » لأن الضرائب الجمركية كانت مورداً للخزائن الملكية . على أن مصر مع هذا قد أثرت بما كانت تستورده من المواد الغفل وتصدره من المصنوعات . وكانت أسواق مصر غاصة بالتجار السوريين والكريتيين والقبرصيين ، كما كانت السفن الفينيقية تجرى في النيل من مصبه في الشمال إلى أرصفة طيبة الكثيرة الحركة في الجنوب^(٧٧) .

ولم تكن النقود قد بدأت تستعمل في البيع والشراء ، ولذلك كان كل شيء ، حتى مرتبات أكبر الموظفين ، يؤدي سلعاً ، حبّاً أو خبزاً ، أو خميرة ، أو بيرة أو نحوها . وكانت الضرائب تجبى عينا ، ولم تكن خزائن الملك غاصة بالنقد بل كانت مخازن تكدس فيها آلاف السلع من منتجات الحقول وبضائع الحوانيت . ولما أخذت المعادن الثمينة تقذف على مصر بعد فتوح تحتمس الثالث شرع التجار يؤدون ثمن ما يبتاعونه من البضائع حلقات أو سبائك من الذهب ، تقدر قيمتها بالوزن في كل عملية تجارية ؛ ولم تضرب نقود ذات قيمة محددة تضمنها الدولة لتسهيل هذه العمليات . على أن نظام الائتمان قد نشأ بينهم وارتقى ، وكثيرا ما كانت التحاويل والصكوك المكتوبة تحمل محل المقايضة أو الدفع فورا ؛ وجد الكتبة في كل مكان يعجلون الأعمال بوثائق المبادلة القانونية ، وأعمال المحاسبة والأعمال المالية .

وما من أحد زار متحف اللوفر إلا شاهد تمثال الكاتب المصري الجالس مطوى الساقين ، وجسمه كله يكاد يكون عاريا ، ومن خلف أذنه قلم احتياطي غير القلم الذي يمسكه بيده ، وهو يدون ما يقوم به ويسجل ما يؤدي من العمل ، وما يسلم من البضائع ، وأثمانها وأكلافها ، ومكسبها وخسارتها . يحصى الماشية الذاهبة إلى المذبح ، والحبوب وهي تكال للبيع ، ويكتب العقود والوصايا ، ويقدر ما يجب على سيده أن يؤديه من ضريبة الدخل . والحق أنه لا جديد تحت الشمس . وهو رجل حريص

معنى بعمله مجذ فيه نشيط نشاطا آليا ؛ أوتى قسطا من الذكاء ولكنه ذكاء يقف عند الحد الذى يمنعه أن يكون خطرا ؛ حياته رتيبة مملّة ، ولكنه يواسى نفسه بكتابة المقالات عما يكتنف حياة العامل اليدوى من صعاب ، وما يحيط بأولئك



شكل (١٣) تمثال الكاتب
المحفوظ فى متحف اللوفر

الذين طعامهم الورق ودمائهم المداد من عزة وكرامة لا تقلان عن عزة
الأمرء وكرامتهم .

٣ - نظام الحكم

الموظفون — الشرائع — الوزير — الملك

وكان الملك وأعيان الأقاليم يستعينون بهؤلاء الكتبة للمحافظة على النظام
وسلطان القانون في الدولة . وتصور بعض الألواح القديمة الكتبة يقومون بعملية
الإحصاء ، ويحسبون ما دخل الخزانة من ضريبة الدخل . ويستعينون بالمقاييس
النيلية التي تسجل ارتفاع ماء النهر على معرفة ما سيكون عليه موسم الحصاد ،
فيقدرون منه إيراد الحكومة في العام المقبل ، ويخصصون لكل مصلحة من
المصالح ما سيكون لها من نصيب في هذا الإيراد ؛ وكان عليهم فوق ذلك أن
يشرفوا على شئون الصناعة والتجارة . ولقد أفلحوا من بداية التاريخ تقريباً في
وضع نظام اقتصادي تشرف الدولة عليه^(٧٨) .

وكانت القوانين المدنية والجنائية غاية في الرقي ، كما كانت قوانين الملكية
والميراث من أيام الأسرة الخامسة قوانين مفصلة دقيقة^(٧٩) . وكان الناس جميعاً
متساوين مساواة تامة أمام القانون كما هم متساوون أمامه في هذه الأيام — أى
متى كان الطرفان المتنازعان متساويين في الموارد وفي النفوذ . وأقدم وثيقة
قانونية في العالم كله عريضة دعوى محفوظة الآن في المتحف البريطاني تعرض
على المحكمة قضية من قضايا الميراث المعقدة . وكان القضاة يطلبون أن يُترافع في
القضايا ، وأن يرد على حجج المترافعين ، وأن يناقش أصحابها ويحاجون ، على
ألا يكون ذلك كله خطباً تلقى بل مذكرات مكتوبة تقدم للقضاة — وهو نظام
لا يقل في شأنه عن نظام التقاضي المعقد في هذه الأيام . وكان الحاث في يمينه
يعاقب بالإعدام^(٨٠) . وكان للمصريين محاكم منتظمة مختلفة الدرجات تبدأ من

مجالس الحكم المحلية في المقاطعات وتنتهى بالحاكم العليا في منف أو طيبة أو عين شمس^(٨١). وكانوا يلجئون إلى التعذيب في بعض الأحيان لحمل المجرم على الاعتراف بالحق^(٨٢). وكان الضرب بالعصا من أنواع العقاب الشائعة ، وكانوا يلجئون في بعض الأحيان إلى عقاب المذنب بجذع أنفه أو صم أذنه أو قطع يده أو لسانه^(٨٣) ، أو نفيه إلى أقاليم المناجم ، أو إعدامه بالشنق أو بالحرق ، أو بقطع رأسه أو بإحراقه مصلوباً . وكان أشد ضروب العقاب هو تحنيط المعاقب حياً ، أو إحاطته بطبقة من النطرون القارض تأكل جسمه أكلاً بطيئاً^(٨٤) . وكان المجرمون من عليّة القوم يجنبون عار الإعدام علناً بأن يسمح لهم بقتل أنفسهم بأيديهم كما تفعل طبقة الساموراي في اليابان^(٨٥) . ولم يُعثر على شواهد يستدل منها على وجود نظام للشرطة ، وحتى الجيش العامل — وقد كان على الدوام صغير الحجم لأن في عزلة مصر وموقعها بين الصحراء والبحر ما يرد عنها المغيرين — قلما كان يستخدم لحفظ النظام في داخل البلاد .

ذلك أن الحياة والملكية ، والاطمئنان إلى سلطان القانون والحكومة تكاد تعتمد كل الاعتماد على هيبة الملك ، وكانت المدارس والهياكل دعامة هذه الهيبة . وليس في العالم كله أمة غير مصر — إذا استثنينا الأمة الصينية — جرّوت على أن تعتمد كل هذا الاعتماد على العوامل النفسية لحفظ الأمن في البلاد .

لقد كانت الحكومة المصرية من أحسن الحكومات نظاماً ، وكانت أطول حياة من أية حكومة أخرى في التاريخ . وكان الوزير على رأس الإدارة كلها ، يشغل منصب رئيس الوزراء ، وقاضى القضاة ، ورئيس بيت المال ، وكان الملجأ الأخير للمتقاضين لا يعلو عليه في هذا إلا الملك نفسه . وترى الوزير في نقش على أحد القبور يخرج من بيته في الصباح الباكر « ليستمع إلى مظالم الفقراء ويصغى » كما هو وارد في النقش « إلى ما يقول الناس في مطالبهم ، لا يميز فيها بين الحقير والعظيم »^(٨٦) . وقد وصلت إلينا بردية مدهشة من عهد الإمبراطوية

تحتوى كما تقول هى نفسها على صورة الخطاب الذى كان يلقيه الملك حين يعين الوزير فى منصبه (ولربما كان هذا الخطاب قطعة أدبية من وضع كاتبها نفسه) :
« اجعل عينك على مكتب الوزير ؛ وراقب كل ما يحدث فيه . واعلم أنه هو الدعامة التى تستند إليها جميع البلاد ... ليست الوزارة حلوة ، بل هى مريرة . واعلم أنها ليست إظهار الاحترام الشخصى للأمرء والمستشارين ؛ وليست وسيلة لانتخاذ الناس أيا كانوا عبيدا . انظر ؛ إذا جاءك مستنصف من مصر العليا أو السفلى ، فاحرص على أن يجرى القانون مجراه فى كل شئ ، وأن يتبع فى كل شئ العرف السائد فى بلده ، وأن (يعطى كل إنسان) حقه ... واعلم أن المحاباة بغيضة إلى الإله ... فانظر إلى من تعرفه نظرتك إلى من لا تعرفه ، وإلى المقربين إلى الملك نظرتك إلى البعيدين عن (بيته) . انظر ، إن الأمير الذى يفعل هذا سيبقى هنا فى هذا المكان . وليكن ما يخافه الناس من الأمير أنه يعدل فى حكمه . ارفع القواعد المفروضة عليك^(٨٧) » .

وكان الملك نفسه هو المحكمة العليا ، يستطيع رفع كل قضية إليه فى أحوال معينة ، إذا لم يعبأ المدعى بما يتطلبه رفعها إليه من النفقات . وتمثل بعض النقوش القديمة « البيت الأعظم » الذى يجلس فيه للحكم والذى تتجمع فيه دواوين الحكومة . وقد اشتقت من اسم هذا البيت الأعظم الذى كان المصريون يطلقون عليه لفظ « پيرو » والذى ترجمه اليهود إلى فرعوه ، اشتق من اسمه هذا لقب الملك نفسه . وفى هذا البيت كان الملك يضطلع بواجبه الشاق الرتيب من الأعمال التنفيذية ، التى كانت فى بعض الأحيان لا تقل فى كثرتها وفيما تتطلبه من جهود عن أعمال شندرا جويتا^(*) أو لويس الرابع عشر أو نابليون^(٨٨) . وكان الملك إذا سافر قابله أمرء الإقطاع عند حدود إقطاعاتهم ، وساروا فى ركابه ، وأولموا له

(*) رأس أسرة الموريا التى حكمت الهند والأفغان بعد الإسكندر . وسيرد تاريخه مفصلا عند الكلام على الهند . (المترجم)

الولائم ، وقدموا له من الهدايا ما يتناسب مع ما ينتظرونه منه . وقد جاء في أحد النقوش أن نبيلاً من النبلاء أهدى أمتعته الثمينة الثانية «عربات من الفضة والذهب ، وتمائيل من العاج والأبنوس ، وجواهر ، وأسلحة وتحفا فنية » و ٦٨٠ درعا ، و ١٤٠ خنجرا من البرنز ومزهريات كثيرة من المعادن الثمينة^(٨٩) . وجازاه الملك على هذا بأن أخذ ابنه معه ليعيش في قصره — وهى طريقة ماكرة لاتخاذ رهينة يضمن بها ولاء هذا الشريف . وكان يتألف من أكبر رجال البلاط سنا مجلس شيوخ يسمى سارو أى مجلس العظماء مهمته أن يكون مجلسا استشاريا للملك^(٩٠) . على أن هذه الاستشارة لم تكن فى الواقع ضرورية لأن الملك ومن ورائه الكهنة كان يدعى أنه من سلالة الآلهة وأن الآلهة نفسها قد وهبته السلطة والحكمة . وكان اتصاله بالآلهة على هذا النحو مصدر نفوذه وهيبته . ومن أجل هذا كانت تخلع عليه إذا خوطب صفات من الإجلال يدهش لها الإنسان أحيانا . من ذلك ما جاء فى قصة سنوحى إذ يحببه مواطن صالح بقوله : « أيها الملك الطويل العمر أرجو أن تهب الواحدة الذهبية (أى الإلهة حتحور) الحياة لأنفك »^(٩١) . وكان يقف على خدمة الملك — كما يليق بشخص هذه عظمته — عدد كبير من مختلف الأعوان منهم القواد ، وغاسلو الملابس ، وقضاة ، وحراس خزائنها ، وغيرهم من ذوى المراتب الرفيعة . وكان عشرون من الموظفين يشتركون فى تزيينه ، منهم حلاقون لا يسمح لهم إلا بقص شعره وحلق لحيته ، وآخرون لإلباسه قلنسوته وتاج رأسه ، ومدرمون يقصون أظافره ويدرمونها ، ومعطرون يعطرون جسمه ويكحلون جفون عينيه ، ويحمرون خديه وشفتيه بالصبغة الحمراء^(٩٢) . وجاء فى نقش على أحد القبور أن صاحب القبر كان « المشرف على صندوق دهان الشعر والوجه ، المسيطر على الدهان ، حامل خفي الملك ، الذى يعنى بتحقيقه العناية التى يرضاها القانون »^(٩٣) . وكان الانحلال والضعف عاقبة هذا التمتع المفرط ، وكان الملك يلجأ فى بعض الأحيان إلى الترويح عن نفسه وإزالة ما يعتريه من ملل

وسامة بجشد طائفة من الفتيات في قاربه الملكى وليس عليهن من الثياب إلا نوع من الشباك ذات الثقوب الواسعة . وكان الترف الذى انغمس فيه أمنحوتب الثالث هو الذى مهد السبيل لثورة إخناتون .

٤ — القانون الزمهرى

مضاجعة الملك لأقاربه — الحريم — الزواج — مركز المرأة — سلطان الأم
في مصر — القوانين الأخلاقية الخاصة بعلاقة الرجال والنساء

لقد كانت حكومة مصر شبيهة بحكومة نابليون حتى في مضاجعة الملك لأقاربه ، وكثيراً ما كان الملك يتزوج أخته ، بل كان يحدث أحياناً أن يتزوج ابنته ، ليحتفظ بالدم الملكى نقياً خالصاً من الشوائب . وليس من اليسير أن نحكم هل أضعفت هذه العادة قوة نسل الملوك أو لم تضعفه ؟ لكننا لا نشك في أن مصر لم تكن تعتقد هذا بعد أن ظلت تسير عليه عدة آلاف من السنين ، وانتقلت عادة الزواج بالأخوات من الملوك إلى عامة الشعب حتى لقد وجد في القرن الثانى بعد الميلاد أن ثلثى سكان أرسينوى يسرون على هذه السنّة^(٩٤) . وكان معنى لفظى أخ وأخت في الشعر المصرى القديم كمعنى حبيب وحبيبة في أيامنا هذه^(٩٥) . وكان للملك فضلاً عن أخواته عدد كبير من النساء من أسيرات الحروب وبعضهن من بنات الأعيان أو ممن أهداهن إليه الأقبال الأجانب . من ذلك أن أحد أمراء بلاد « نهرينا » أهدى إلى أمنحوتب الثالث ابنته الكبرى وثلاثمائة من صفوة الفتيات^(٩٦) . وقد حذا بعض النبلاء حذو الملوك في هذا الإسراف وإن لم يبلغوا فيه مبلغهم ، فقد كان عليهم أن يوفقوا في هذه الناحية بين مبادئهم الخلقية ومواردهم المالية .

أما عامة الشعب فكان شأنهم شأن ذوى الدخل المتوسط في سائر الأمم ، يقنعون بزوجة واحدة . ويلوح أن الحياة العائلية كانت منظمة ، ذات مستوى

رفيع من الوجهة الأخلاقية ومن حيث سلطان الأبوين ، ولا تقل في هذا عنها في أرق الحضارات في هذه الأيام . وكان الطلاق نادراً إلا في عهد الاضمحلال . وكان في مقدور الزوج أن يخرج زوجته من داره دون أن يعرضها بشيء . إذا زنت ؛ أما إذا طلقها لغير هذا السبب فكان عليه أن يخصص لها جزءاً كبيراً من أملاك الأسرة .

كذلك كان الأزواج يبذلون قصارى جهدهم في الإخلاص لزوجاتهم — على قدر ما يستطيع الإنسان أن يحكم في هذه الأمور الخفية . ولم يكن مستوأم في هذا أقل منه في المدينيات اللاحقة ، وكان مركز المرأة عندهم أرق من مركزها عند كثير من الأمم في هذه الأيام . وفي ذلك يقول ما كس ملر : « ليس ثمة شعب قديم أو حديث قد رفع منزلة المرأة مثل ما رفعها سكان وادي النيل »^(٩٧) فالنقوش تصور النساء يأكلن ويشربن بين الناس ، ويقضين ما يحتجنه من المهام في الشوارع من غير رقيب عليهن ولا سلاح بأيديهن ، ويمارسن الأعمال الصناعية والتجارية بكامل حريتهن . ولشد ما دهش الرحالة اليونان — وقد اعتادوا أن يضيقوا على نسائهم السليطات — من هذه الحرية ، وأخذوا يسخرون من الأزواج المصريين الذين تتحكم فيه زوجاتهم . ويقول ديودور الصقلي — ولعله يهدف بقوله هذا إلى السخرية من المصريين — إن طاعة الزوج لزوجته في وادي النيل كانت من الشروط التي تنص عليها عقود الزواج^(٩٨) ، وهو شرط لا ضرورة للنص عليه في أمريكا ! وكان النساء يملكن ويورثن ، كما تشهد بذلك وثيقة من أقدم الوثائق في التاريخ ، وهي وصية من عهد الأسرة الثالثة توصي فيها السيدة نب — سبت بأراضيها لأبنائها^(٩٩) . وقد ارتقت حتشبسوت وكليوباترة عرش مصر ، وحكما وخربتا كما يحكم الملوك ويخربون .

على أننا نجد أحياناً نفمة ساخرة في الآداب المصرية . من ذلك ما كتبه رجل من رجال الأخلاق الأقدمين يحذر قراءه منهن .

احذر المرأة التي تأتيك من الخارج ، والتي لا يعرفها أهل مدينتها . فلا ترفع
بصرك إليها إذا أتت ، ولا تعرفها ، فهي كالذردور في الماء العميق ، لا تستطيع
أن تسبر غورها . وإن المرأة التي غاب زوجها لتكتب إليك في كل يوم ، وإذا
لم يكن معها شاهد عليها قامت ونشرت حولك شباكها . وما أشنعها من جريمة
إذا أصغى إليها الإنسان^(١٠٠) ! »

أما النعمة المصرية الخالصة فهي التي نسمعها في نصيحة بتاح حوتب لابنه
والتي يقول فيها :

إذا كنت ناجحاً ، وأثنت ببيتك ، وكنت تحب زوجة قلبك ، فاملاً بطنها
واكس ظهرها . . . وأدخل السرور على قلبها طوال الوقت الذي تكون فيه لك ،
ذلك أنها حرث نافع لمن يملكه . . . وإذا عارضتها كان في ذلك خرابك^(١٠١)
وتحذر بردية بولاق الطفل تحذيراً يشهد بالحكمة البالغة فتقول :

ينبغي لك ألا تنسى أمك . . . فقد حملتك طويلاً في حنايا صدرها وكنت فيها
حملاً ثقيلاً ؛ وبعد أن أتممت شهورك ولدتك . ثم حملتك على كتفها ثلاث سنين
طوالاً وأرضعتك ثديها في فمك ، وغذتك ، ولم تشمئز من قذارتك . ولما دخلت
المدرسة وتعلمت الكتابة كانت تقف في كل يوم إلى جانب معلمك ومعها الخبز
والجعة جاءت بهما من البيت^(١٠٢) .

ويرجح أن هذه المسكنة السامية التي كانت للمرأة إنما نشأت من أن المجتمع
المصري كان أميل إلى تغليب سلطان الزوجة على سلطان الزوج بعض الشيء .
وشاهد ذلك أن المرأة لم تكن لها السيادة الكاملة في بيتها وكفى ، بل إن الأملاك
الزراعية كلها كانت تنتقل إلى الإناث ؛ وفي ذلك يقول بيمري : « لقد كان الزوج
حتى في العهود المتأخرة ينزل لزوجته في عقد زواجه عن جميع أملاكه ومكاسبه
المستقبلية^(١٠٣) » ولم يكن سبب زواج الأخ بأخته أن وجودها معه قد ملأ بحبها قلبه ،
بل كان سببه أن الرجال كانوا يبيعون أن يستميتعوا بميراث الأسرة الذي كان ينحدر

من الأم إلى البنت ، ولا يريدون أن ينعم الغرباء بهذه الثروة^(١٠٤) . على أن سلطان المرأة قد نقص قليلا على مر الزمن ، ولعل سبب هذا النقص هو أثر التقاليد الأبوية التي أدخلها المكسوس ، وأثر انتقال البلاد من عزلتها الزراعية ومن حال السلم إلى طور الاستعمار والحرب . وزاد نفوذ اليونان في أيام البطلمة زيادة أصبحت معها حرية الطلاق ، وهي التي كانت تطالب بها المرأة في الأزمنة السابقة ، حقاً خالصاً للزوج لا ينازعه فيه منازع . بيد أنه حتى في ذلك الوقت لم يقبل هذا التطور إلا الطبقات العليا من أهل البلاد ، أما عامة الشعب فقد ظلت متمسكة بالتقاليد القديمة^(١٠٥) . ولعل سيطرة المرأة على شئونها الخاصة هي التي جعلت قتل الأطفال أمراً نادر الحدوث . ويرى ديودور الصقلي أن من خواص المصريين أن كل طفل يولد لهم يلقي حظه الكامل من التربية والرعاية ، ويقول إن القانون كان يقضى على الأب الذي يرتكب جريمة قتل طفله بأن يحتضن الطفل القليل ثلاثة أيام وثلاث ليال كاملة^(١٠٦) . وكانت الأمر كبيرة ، والأطفال تغص بهم الأكواخ والقصور على السواء ، وكان الأثرياء منهم يلقون صعباً جمة في إحصاء نسلهم^(١٠٧) . وحتى في مسائل الخطبة كانت المرأة هي البادئة . وشاهد ذلك أن ما وصل إلينا من قصائد الغزل ورسائل الحب أغلبه موجه من المرأة إلى الرجل ، فهي التي تطلب تحديد مواعيد اللقاء ، وهي التي تتقدم بالخطبة إلى الرجل مباشرة ، وهي التي تعرض عليه الزواج صراحة^(١٠٨) . وقد جاء في إحدى هذه الرسائل : « أى صديقى الجميل ؛ إنى أرغب فى أن أكون ، بوصفى زوجتك ، صاحبة كل أملاكك^(١٠٩) » . ومن ثم نرى أن الحياء — وهو أمر يختلف عن الوفاء — لم يكن من صفات المصريين البارزة ، فقد كانوا يتحدثون عن الشئون الجنسية بصراحة لم نعهد لها فى التقاليد الأخلاقية المتأخرة عن عهدهم ، وكانوا يزينون هياكلهم بصور ونقوش غائرة تظهر فيها أجزاء الجسم كلها واضحة أتم وضوح ، وكانوا يقدمون لموتاهم من الأدب الفاحش ما يسليهم فى قبورهم^(١١٠) . لقد كان الدم

الذى يجرى فى عروق سكان وادى النيل دماً حاراً ، ومن أجل ذلك كانت البنات يصلحن للزواج فى سن العاشرة ، وكان اتصال الفتيان والفتيات قبل الزواج حراً ميسراً ؛ ويقال إن إحدى السراري فى أيام البطالة استطاعت أن تدخر من الأموال ما بنت به هرمًا . وحتى اللواط لم يكن معدوماً فى مصر^(١١١) . وكانت الفتيات الراقصات الشبهات بأمثلهن فى اليابان يُقبلن فى أرقى مجتمعات الرجال ليقدمن للمجتمعين ضروب التسلية والمتعة الجسمية . وكن يرتدين ملابس شفافة أو يكتفين أحياناً بالتزين بالخلاخل والأساور والأقراط^(١١٢) . ولدينا شواهد على الفسوق الدينى فى نطاق ضيق . وكان من العادات المتبعة التى ظلت باقية إلى عهد الفتح الرومانى أن تختار أجمل بنات الأسر الشريفة فى طيبة وتنذر لأمون . فإذا أضحت لكبر سنّها عاجزة عن إرضاء الإله أخرجت من خدمته بمظاهر التشريف والتعظيم ، وتزوجت ولقيت الترحيب والإجلال فى أرقى الأوساط^(١١٣) . لقد كانت لهذه الحضارة أراءؤها ونزواتها التى تختلف عن آرائنا نحن ونزواتنا .

٥ — العادات

الأخلاق الشخصية — الألعاب — المظهر الخارجى — الأصباغ والأدهان — الملابس — الحلى

إذا شئنا أن نستعيد فى مخيلتنا صورة من الأخلاق الشخصية للمصريين الأقدمين ، وجدنا أن ليس من السهل أن نفرق بين هذه الأخلاق كما نقرأ عنها فى آدابهم وبين ما كان يحدث فى الحياة الواقعية . فما أكثر ما نقرأ عنه من العواطف النبيلة فى كتاباتهم . من ذلك ما كتبه أحد الشعراء ينصح مواطنيه .

أطعم الخبز لمن لا حقل له

واترك وراءك ذكراً طيباً يبقى أبداً الدهر^(١١٤) .

وكثيراً ما يسدى بعض الكبار إلى أبنائهم نصائح حميدة ، فى التحف

البريطاني بردية تعرف باسم : « حكمة أمنحوتب » (حوالى ٩٥٠ ق م) وهى
تُعد أحد الطلاب لتولى منصب عام بطائفة من النواهى لا يبعد قط أن كان لها أثر
فى واضع « أمثال سليمان » أو واضعيها
« لا تطمع فى ذراع من الأرض ،
ولا تعتد على حدود أرملة . . . ،
واحرق الحقل حتى تجد حاجاتك ،
وخذ خبزك من بيدرك ،
وإن قدحاً من الحب يعطيكه الله
لخير من خمسة آلاف تنالها بالعدوان . . . ،
وإن الفقر فى يد الله
لخير من الغنى فى الخازن ؛
وإن الرغيف والقلب مبتهج
لخير من الغنى مع الشقاء . . . (١١٥) »

على أن ما تحويه هذه الآداب من دلائل التقوى والصلاح لم يحل دون المطامع
البشرية . ولم يكن المصريون الأقدمون إلا خلقاً ، لهم ما سائر الخلق من مطامح .
لقد وصف أفلاطون الأثينيين بأنهم محبوبون للمعرفة ، والمصريين بأنهم محبوبون
للثروة . ولعل فى هذا الوصف كثيراً من المغالاة دفعته إليها النعرة الوطنية ، ولكننا
لا نعدو الحقيقة إن قلنا إن المصريين هم أمريكيو العالم القديم . فهو قوم مولعون
بضخامة الحجم ، يحبون المباني الفخمة الكبيرة ، وهم يجدون نشاطهم جماعون
للثروة ، عمليون حتى فى خرافاتهم الكثيرة عن الدار الآخرة . وهم أشد الأمم
للماضية استمساكاً بالقديم ، لم تتبدل حالهم رغم ما طرأ عليهم من أحداث ؛ وظل
فنانوهم يقلدون ما جرى به العرف القديم تقليداً كأنه أمر من أوامر الدين ؛ إذا
نظرنا إلى آثارهم بدا لنا أنهم قوم واقعيون لا يعنون بالسخافات التى لا صلة لها

بالأمور الدينية . ولا يقدرّون الحياة تقديراً أساسه العاطفة ، يقتلون وضميرهم مستريح لأنهم لم يفعلوا ما يخالف الطبيعة البشرية . ولقد كان الجندي المصري يقطع يمين العدو المقتول أو عورته ويأتي بها إلى الكاتب المختصّ ليسجل له عمله هذا في صحيفة حسنة^(١١٦) . وفقد الناس في عهد الأسر المتأخرة عاداتهم وصفاتهم الحربية لطول ما أخذوا إلى الأمن في الداخل وإلى السلام فيما عدا الحروب البعيدة عن ديارهم ؛ وكانت نتيجة هذا أن فئة قليلة من جنود الرومان استطاعت أن تسيطر على مصر كلها^(١١٧) .

ولما كان أكثر ما نعرفه عن المصريين مستمداً من الآثار التي كشفت في مقابرهم أو النقوش التي على جدران هياكلهم ، فقد خدعنا هذه المصادفة المحضة فبالغنا فيما كانوا يتصفون به من جد ووقار . والحق أن بعض ما خلفوه من تماثيل ونقوش ، ومن قصص هزلية عن آلهتهم^(١١٨) ، ليسهد بأنهم كانوا على جانب غير قليل من المرح والفكاهة ، وقد كان لهم كثير من الألعاب والمباريات العامة والخاصة « كالداما » والنرد^(١١٩) ، وكانوا يقدمون اللعب والدمى لأطفالهم كالبلي والكرة النطاطة والخدروف ، وكانوا يعقدون مباريات في المصارعة والملاكمة وصراع الثيران^(١٢٠) ، وكان خدمهم يمسحون لهم في أعيادهم ونزهتهم أجسامهم بالزيوت . وكانوا يضعون على رؤوسهم أكاليل الزهر ويسقون الخمر وتقدم لهم الهدايا ونستطيع استناداً إلى ما لدينا من رسومهم الملونة وتماثيلهم أن نصورهم خلقاً أقوياء الأجسام ، مفتولي العضلات ، عريضي المناكب ، مستدقّ الخصور ، ممتلئ الشفاء ، منبسطة الأقدام لا اعتيادهم الحفاء . وهذه الرسوم والتماثيل تمثل الطبقات العليا نحيفة القوام ، طويلة في هيبة ، ذات وجوه بيضية وجباه متحدرة منقطة ، وأنوف طويلة مصفحة ، وعيون نبجل . وكانت بشرتهم بيضاء وقت مولدهم (تشهد بأنهم من أصل أسيوى لا إفريقي) ، ولكنها سرعان ما تلفحها شمس مصر فتسمر^(١٢١) . وقد جرى العرف بين الفنانين المصريين على أن يرسموا الرجال حمراً

والنساء صفروات ؛ ولربما كان هذان اللونان مجرد طرازين من الزينة للرجال والنساء . هذا شأن الطبقات العليا ، أما الرجل من عامة الشعب فكان يمثل بالصورة التي نراها في تمثال شيخ البلد ، قصير القامة ، ممتلئ الجسم ، كاسى القصب ، وذلك لطول كده وطعامه غير المتزن . وكانت ملامحه خشنة ، وكان أفطس الأنف أخشمه ، ذكياً ولكنه خشن الطباع . ولربما كان الشعب وحكامه من سلاتين مختلفتين ، شأنهم في هذا شأن كثير من الشعوب : فلعل الحكام كانوا من أصل أسيوى وعامة الشعب من أصل إفريقي . وكان شعرهم أسود ، أحجن في بعض الأحيان ، وقلما كان قَطَطاً . وكانت النساء يقصصن شعورهن كأحسن ما يقصصنه في هذه الأيام ؛ وكان الرجال يخلقون لحام ويحفون شواربهم ويزينون أنفسهم بشعور مستعارة فخمة . وكثيراً ما كانوا يقصون شعر رأسهم ليسهل عليهم لبس هذه الشعور المستعارة . وحتى زوجة الملك نفسها كانت تقص شعرها كله ليسهل عليها لبس التاج والشعر الملكي المستعار (كما ترى هذا في صورة تى أم إخناتون) . وكان من المراسم التي لا يستطيع الملك الخروج عليها أن يلبس أكبر ضفيرة مستعارة^(١٢٢) وكانوا يستعينون بفنون التجميل على إصلاح عيوب أجسامهم كل منهم حسب موارده . فكانوا يحمرون أوجهم وشفاههم ، ويلونون أظافرهم ، ويدهنون أعضاء أجسامهم بالزيت ، وحتى تماثيل المصريات كانت تكحل عيونها . وكان ذوو اليسار منهم يضعون في قبور موتاهم سبعة أنواع من الأدهان ونوعين من الصبغة الحمراء . وقد وجدت بين آثارهم كميات كبيرة من أدوات الزينة ، والمرايا ، والمواسى ، وأدوات تجميد الشعر ، ودبابيسه ، والأمشاط ، وصناديق الأدهان ، والصحاف والملاعق — مصنوعة من الخشب ، أو العاج ، أو المرمر ، أو البرنز ، ذات أشكال جميلة تتفق والأغراض التي تستخدم فيها . ولا تزال بعض أصباغ العيون باقية في أنابيبها إلى يومنا هذا ، وليس الكحل الذي تستعمله النساء في هذه الأيام لتزيين حواجبهن ووجوههن إلا صورة أخرى من الزيت الذي كان المصريون

يستخدمونه في غابر الأيام . وقد وصلت إلينا هذه العادة عن طريق العرب ، واشتق من اسمه العربي « الكحل » لفظ « الكحول » الذي نستخدمه الآن . وكانت المطور على اختلاف أنواعها تستخدم لتعطير الجسم والثياب ، كما كانت المنازل تبخر بالبخور والمر^(١٢٣) .

وسارت ملابسهم في جميع مراحل التطور من عرى البدائيين إلى أقمح ملابس عصر الإمبراطورية . ففي أول الأمر كانت الأطفال ذكوراً وأنساً يظنون حتى الثالثة عشرة من عمرهم عراة الأجسام إلا من الأقراط والقلاند . غير أن البنات كن يظهرن شيئاً من الخفر الخلق بهن فيتمنطقن بمنطقة من الخرز في أوساطهن^(١٢٤) . وكان الخدم والزراع يقتصرون على قطعة من القماش تستر عوراتهم . فلما كان عهد الدولة القديمة كان الأحرار من الرجال والنساء يسرون وأجسامهم عارية من فوق السرة ، مغطى ما تحتها إلى الركبة بإزار قصير ضيق من الكتان الأبيض^(١٢٥) . ولما كان الحياء وليد العادة لا الطبيعة فإن هذه الثياب البسيطة كانت ترضى ضمير هؤلاء القوم ، كما كان الإنجليز في العصر الفكتوري يرتضون النقبة (الجونيلا) والخصار^(*) أو ثياب السهرة التي يلبسها الرجال من الأمريكين في هذه الأيام . وما أصدق القول المأثور : ليست فضائلنا إلا معاني تخلعها الأيام على الأفعال والعادات » . وحتى القساوسة أنفسهم في عصر الأمر المصرية الأولى كانوا يكتفون بستر عوراتهم كما تشاهد ذلك في تمثال رنوفر^(١٢٦) . فلما زادت الثروة كثرت الملابس ، فأضافت الدولة الوسطى إزاراً ثانياً فوق الإزار الأول وأكبر منه ، وأضافت الدولة الحديثة غطاء للصدر ودثاراً للكتفين كان يلبس من حين إلى حين . وكان سائقو المركبات وسائسو الخيل يرتدون حللاً فخمة كاملة ويعدون في الشوارع بحلهم هذه ليفسحوا الطريق لمركبات أسيادهم . ونبذت النساء المنزر الضيق في عصور الرخاء المتأخرة واستبدلن به ثوباً فضفاضاً

(*) مشد الخضر (الكورسيه)

ينزل من الكتفين ويربط بمشبك تحت الثدي الأيمن . وظهرت الأنواب المطرزة ذات الأهداب المختلفة التي لا يحصى عديدها ، وتسربت الأنماط والطرز الحديثة إلى البيوت تسرب الأفاعى لتفسد على أصحابها جنة العرى البدائية^(١٢٧) .

وكان الرجال والنساء سواء في الشغف بالحلى والزينة ، فكانوا يحلون بالجواهر أعناقهم ، وصدورهم ، وأذرعهم ، ومعاصمهم ، وأرصاصهم . ولما عم الرخاء البلاد وزاد ثراء أهلها بما جاءها من خراج أملاكها في آسية ، ومن مكاسب تجارة بلاد البحر الأبيض المتوسط ، أصبح التحلى بالجواهر مطلباً يهواه جميع المصريين ، ولم يعد ميزة للطبقات الموسرة ؛ فكان لكل كاتب وتاجر خاتمه المصنوع من الفضة أو الذهب ، ولكل رجل خاتم في إصبعه ، ولكل امرأة قلادة تزينها . وكانت هذه القلائد من أنماط لا حصر لها كما يدل على ذلك ما نراه منها اليوم في المتاحف ؛ فمنها ما لا يزيد طوله على بوصتين أو ثلاث بوصات ، ومنها ما يبلغ طوله خمس أقدام ؛ ومنها ما هو سميك ثقيل ، ومنها ما يضارع « أجمل مخرمات مدينة البندقية خفة وليناً^(١٢٨) » . وأضحت الأقراط في عهد الأسرة الثامنة عشرة حلية لا غنى عنها . فكان لا بد لكل شخص أن تحرق أذنه لتحلى بقرط ، ولم تختص بالأقراط النساء والبنات ، بل كان يتحلى بها أيضاً الأولاد والرجال^(١٢٩) . وكان الرجال والنساء على السواء يزينون أجسامهم بالأساور والخواتم والأنواط والقلائد من الخرز والحجارة الثمينة . وملاك القول أن نساء مصر القديمة لن يتعلمن مناشئاً عن أدهان الشعر والوجه والجواهر لوأنهن بعثن بيننا في هذه الأيام

٦ — القراءة والكتابة والتعليم

التعليم — مدارس الحكومة — الورق والخبر — مراحل
تطور الكتابة — أشكال الكتابة المصرية

كان الكهنة يلقنون أبناء الأسر الغنية مبادئ العلوم في مدارس ملحقة بالهيكل كما هي الحال في أبرشيات طوائف الكاثوليك الرومان في هذه الأيام^(١٣٠) .

ويطلق أحد الكهنة — وقد كان يشغل المنصب الذى يصح أن نسميه فى هذه الأيام وزير المعارف — على نفسه اسم « رئيس الاصطبل الملكى للتعليم »^(١٣١). وقد عثر فى خرائب إحدى المدارس التى يبدو أنها كانت جزءاً من بناء الرمسوم على عدد كبير من المحار لا تزال دروس المعلم القديم ظاهرة عليها. وكان عمل المدرس فى تلك الأيام هو تخريج الكتبة للقيام بأعمال الدولة، وكان المدرسون يستحثون تلاميذهم على الإقبال على التعليم بتدبير المقالات البليغة يشرحون فيها مزاياه. من ذلك ما جاء فى إحدى البرديات : « أفرغ قلبك للعلم وأحبه كما تحب أمك ، فلا شيء فى العالم يعدل العلم فى قيمته ». وتقول بردية أخرى : « ليس ثمة وظيفة إلا لها من يسيطر عليها ، لكن العالم وحده هو الذى يحكم نفسه ». وكتب أحد المولعين بمطالعة الكتب يقول : « إن من سوء الحظ أن يكون الإنسان جندياً ، وإن حرث الأرض لعمل ممل ، أما السعادة فلا تكون إلا فى توجيه القلب إلى الكتب فى النهار والقراءة فى الليل »^(١٣٢).

وقد وصلت إلينا كراسات من عهد الدولة الحديثة وفيها إصلاح المدرسين لأخطاء التلاميذ يزين هوامشها ؛ وهذه الأخطاء تبلغ من الكثرة حداً يجد فيه تلميذ اليوم كثيراً من السلوى^(١٣٣). وكان الإملاء ونقل النصوص أهم طرق التعليم ، وكانت هذه الدروس تكتب على الشقف أو على رقائق من حجر الجير^(١٣٤). وكان أكثر ما يعلم هو الموضوعات التجارية ، وذلك لأن المصريين كانوا أول الأقوام النفعيين ، وأعظمهم استمساكاً بالنظرية النفعية ؛ وكانت الفضيلة أهم الموضوعات التى يكتب فيها المعلمون ، وكانت مشكلة النظام أهم المشاكل التعليمية فى تلك الأيام ، كما هى أهم مشاكله فى الوقت الحاضر. وقد جاء فى إحدى الكراسات : « لا تضع وقتك فى التمنى ، وإلا ساءت عاقبتك . اقرأ بفمك الكتاب الذى فى يدك ؛ وخذ النصيحة ممن هو أعلم منك ». ولعل هذه العبارة الأخيرة من أقدم ما عرف من الحكم فى أية لغة من اللغات. وكان

النظام صارماً يقوم على أبسط المبادئ . وقد جاءت تلك العبارة المنمقة اللفظ في إحدى المخطوطات : « إن للشاب ظهراً ، وهو يلتفت للدرس إذا ضرب ... لأن أذنى الشاب في ظهره » . وكتب تلميذ إلى مدرس سابق يقول : « لقد ضربت ظهري ، فوصل تعليمك إلى أذنى » . وما يدل على أن هذا التدريب الحيوانى لم يفلح على الدوام ما جاء في إحدى البرديات التى يأسف فيها مدرس لأن تلاميذه السابقين لا يحبون الكتب بقدر ما يحبون الخمر^(١٣٤) .

لكن عدداً كبيراً من طلبة الهياكل تخرجوا رغم هذا على أيدي الكهنة ودخلوا المدارس العليا الملحقه بمكاتب خزانة الدولة . وفي هذه المدارس ، وهى أقدم ما عرف من المدارس التى تعلم نظم الحكم ، كان الكتبة يدرسون نظم الإدارة العامة ، حتى إذا ما أتموا دراستهم قضوا مدة التمرين عند بعض الموظفين يعلمونهم بكثرة ما يعهدون إليهم من الأعمال . ولعل هذه الطريقة فى الحصول على الموظفين العموميين وتدريبهم أفضل من الطريقة التى تتبعها نحن فى هذه الأيام طريقة اختبار الموظفين على أساس أقوال الناس فيهم ، واستعدادهم للطاعة والخضوع ، وما يثار حولهم من دعاوة . وعلى هذا النمط أنشأت مصر وبابل فى عصر واحد تقريباً أقدم ما عرف من النظم المدرسية فى التاريخ^(١٣٦) . ولم يرق نظام التعليم العام للشبان فيما بعد إلى هذا المستوى الذى بلغه فى أيام المصريين الأقدمين إلا فى القرن التاسع عشر .

وكان يسمح للطلاب فى الفرق الراقية أن يستعمل الورق — وهو من أهم السلع فى التجارة المصرية ومن أعظم النعم الخالدة التى أنعم بها المصريون على العالم . وكانت طريقة صنعه أن تقطع سوق نبات البردى شرائح توضع متقاطعة بعضها فوق بعض ثم تضغط ويصنع منها الورق عماد المدينة^(١٣٧) ، (وأعظمها سخفاً) . وحسبنا دليلاً على حسن صنعه أن ما كتب عليه من المخطوطات منذ خمسة آلاف عام لا يزال حتى الآن باقياً متماسكاً سهل القراءة . وكانت الكتب تصنع

من الأوراق بعضها بعضها إلى بعض وإصاق الطرف الأيمن من واحدة بالطرف الأيسر من التي تليها ، فتكون منها ملفات يبلغ طول الواحد منها أحياناً نحو أربعين ياردة ؛ ولما كانت تزيد على هذا في الطول لأن مصر لم يكن فيها مؤرخون مولعون بالحشو واللغو . وكانوا يصنعون حبراً أسود لا يتلاشى بمزج الصناج والصمغ النباتي بالماء على لوحة من الخشب . أما القلم فكان قطعة بسيطة من الغاب يعالج طرفها ليكون كقلم الرسام^(١٣٨) .

وبهذه الأدوات الحديثة الطراز كان المصريون يكتبون أقدم الآداب ؛ ويرجح أن لغتهم قد جاءت من آسية ؛ وشاهد ذلك أن أقدم نماذج منها بينها وبين اللغات السامية شبه كبير^(١٣٩) . ويبدو أن أقدم الكتابات المصرية كانت تصويرية — تعبر عن الشيء برسم صورة له . فكانت كلمة بيت مثلاً (وهي في اللغة المصرية بر) يرمز لها بشكل مستطيل ذي فتحة في أحد طرفيه . ولما كانت بعض المعاني مجردة إلى حد يصعب معه تصويرها تصويراً حرفياً فقد استعاض عن التصوير بوضع رموز للمعاني ، فكانت بعض الصور تتخذ بحكم العادة والعرف للتعبير عن الفكرة التي توحى بها لا عن الشيء المصور نفسه ، فكان مقدم الأسد يعبر عن السيادة (كما هو في تمثال أبي الهول) ، وكان الزنبور يعبر عن الملكية ، وفرخ الضفدع عن الآلاف . ثم تطورت هذه الطريقة تطوراً جديداً في هذا الطريق نفسه ، فأصبحت المعاني المجردة التي عجزوا في بادئ الأمر عن تصويرها يعبر عنها برسم صور لأشياء تشبه أسماءها مصادفة الألفاظ التي تعبر عن هذه المعاني . من ذلك أن صورة المِزهر لم تكن تعني المِزهر نفسه فخب بل كان معناها أيضاً طيب أو صالح لأن منطلق اسم المِزهر في اللغة المصرية — نِفِر — شبيه بمنطق اللفظ الذي يعبر عن معنى طيب أو صالح — نِفِر . ونشأت من هذا الجنس اللفظي أي من الألفاظ المتفقة في اللفظ والمختلفة المعنى — ترا كيب غاية في الغرابة . من ذلك أن فعل الكينونة كان يعبر عنه في لغة الكلام بلفظ هوييرو . وقد عجز الكاتب

المصرى فى أول الأمر عن إيجاد صورة يمثل بها هذا المعنى الشديد التجريد ، حتى اهتدى أخيراً إلى تقطيع الكلمة إلى ثلاثة مقاطع خو — پى — رو . ثم عبّر عن هذه المقاطع الثلاثة بصور الغربال (الذى يعبر عنه فى لغة الكلام بلفظ خو) وبالحصيرة (پى) وبالفم (رو) . وسرعان ما جعل العرف والعادة ، اللذان يخلعان القدسية على كثير من السخافات ، هذا الخليط العجيب من الحروف يوحى بفكرة الكينونة . وعلى هذا النحو عرف الكاتب المصرى مقاطع الكلمة ، والصورة التى ترمز لكل مقطع ، ومجموعة الصور التى ترمز لكل لفظ ، فكان الكتاب يقطعون الكلمة الصعبة مقاطع ، ويبحثون عن الألفاظ المشابهة لهذه المقاطع نفسها فى المنطق والمغايرة لها فى المعنى ، ويرسمون مجموعة الأشياء المادية التى توحى بها أصواتها ، حتى استطاعوا فى آخر الأمر أن يعبروا بالعلامات الهيروغليفية عن كل ما يريدون ، فلا يكاد يوجد معنى من المعانى لا يستطيعون التعبير عنه بعلامة أو بمجموعة من العلامات .

ولم يكن بين هذا وبين اختراع الحروف الهجائية إلا خطوة واحدة . لقد كانت العلامة الدالة على البيت تعنى أولاً كلمة البيت — پِرْ . ثم أصبحت رمزاً للصوت پِرْ ، ثم لهذين الحرفين أيا كانت حركاتهما وفى أية كلمة جاءتا . ثم اختصرت الصورة واستخدمت للدلالة على الباء أيا كانت حركتها وفى أية كلمة كانت . ولما كانت الحركات لا تكتب عقب الحروف بل تهمل كلية فإن هذه الصورة أصبحت تمثل حرف الباء . وعلى هذا النمط عينه أصبحت العلامة الدالة على اليد (وتنطق باللغة المصرية رُتْ) تعنى دُ ، دَ ثم أصبحت هى حرف د ، وكذلك صارت العلامة الدالة على الفم (رُ ، رَ) ثم أصبحت حرف ر ، والعلامة الدال على الثعبان هى حرف ز ، وعلامة البحيرة (شى) هى حرف ش — الخ ، وكانت نتيجة هذا التطور أن وجدت حروف هجائية عدتها أربعة وعشرون حرفاً انتقلت مع التجارة المصرية الفينيقية إلى جميع البلاد الواقعة حول البحر الأبيض

المتوسط ، ثم انتشرت عن طريق اليونان ورومة حتى صارت أثمن ما ورثته الحضارة من بلاد الشرق^(١٤٠). والكتابة الهيروغليفية قديمة قدم الأسر المصرية الأولى ، أما الحروف الهجائية فكان أول ظهورها في النقوش التي خلفها المصريون في مناجم سيناء التي يرجعها بعض المؤرخين إلى عام ٢٥٠٠ ق.م وبعضهم إلى عام ١٥٠٠ ق.م^{(١٤١) (*)}.

ولم يتخذ المصريون لهم كتابة قائمة كلها على الحروف الهجائية وحدها لحكمة في ذلك أولغير حكمة ، بل ظلوا إلى آخر عهود حضارتهم يخلطون بين حروفهم وبين الصور الدالة على الرموز وعلى الأفكار وعلى مقاطع الكلمات . ومن أجل هذا صعب على العلماء أن يقرأوا الكتابة المصرية ، ولكن من السهل علينا أن نتصور أن هذا الخلط بين الكتابة بالطريقة المعتادة وبطريقة الاختزال قد سهل عملية الكتابة للمصريين الذين كانوا يجدون فسحة من الوقت لتعلمها . وإذا كانت أصوات الكلمات الإنجليزية لا تعد مرشداً أميناً لهجائها ، فإن الشاب الذي يريد أن يتعلم أساليب الهجاء الإنجليزية يجد فيها من الصعوبة ما كان يجده الكاتب المصري في حفظ الخمسمائة رمز هيروغليفي ، ومعانيها المقطعية ، واستعمالاتها حروفاً هجائية . ومن أجل هذا نشأ شكل سريع سهل من أشكال الكتابة استخدم في الكتابات العادية ، واحتفظ بالطراز الأول منها ليستخدم في « النقوش المقدسة » على الآثار . وإذا كان الكهنة وكتبة الهيكل هم أول من مسخ الكتابة الهيروغليفية على هذا النحو فقد أطلق اليونان عليها اسم الكتابة الهيراطية (المقدسة) ، ولكنها سرعان ما عم استخدامها في الوثائق العامة والتجارية والخصوصية . ثم نشأ على يد الشعب نفسه نمط آخر من الكتابة أكثر من النمط الثاني اختصاراً وأقل

(*) . يعتقد سير تشارلس مارستن معتمداً على أبحاثه الحديثة في فلسطين أن الحروف الهجائية من اختراع الساميين ويمزوها إلى إبراهيم الخليل نفسه^(١٤١) ويذكر لهذا أسباباً وهمية إلى أبعد حدود الوهم .

منه عناية ؛ ولذلك سمي بالكتابة الديموطية (الشعبية) . لكن المصريين كانوا يصرون على ألا ينقشوا على آثارهم إلا الرموز الهيروغليفية الفاخرة الجميلة — ولعلها أجهل نمط من الكتابة عرف حتى الآن .

٧ — الآداب

النصوص ودور الكتب — السندباد المصرى — قصة سنوحى — الروايات الخيالية — قطعة غرامية — أشعار الحب — التاريخ — ثورة في الأدب

إن معظم ما بقى من آداب مصر القديمة مدون بالكتابة الهيروغليفية ، وهذا القدر الباقي قليل لا يغنى ؛ ولهذا فإننا لا نستطيع الحكم على الأدب المصرى القديم إلا من هذه البقايا القليلة وهو حكم أعمى المصادفة فيه النصيب الأوفر . ولعل الزمان قد عدا على أعظم شاعر فى مصر ، ولم يبق إلا شعراء البلاط . وقد كان للمصريين دور كتب وخزنة عليها ؛ فقد كتب على قبر موظف كبير فى الأسرة الرابعة أنه « كاتب دار الكتب »^(١٤٢) . ولسنا نعرف أكانت هذه الدار البدائية مستودعا للأدب ، أم أنها لم تكن إلا مخزناً متربا للسجلات والوثائق العامة . وأقدم ما بقى من الأدب المصرى القديم هو « نصوص الأهرام » وهى موضوعات دينية ورعة منقوشة على جدران خمسة من أهرام الأسرتين الخامسة والسادسة^{(*) (١٤٣)} . وقد وصلت إلينا مكثبات يرجع تاريخها إلى عام ٢٠٠٠ ق . م وتحوى برديات مطوية ومحفوظة فى جرار معنونة ومصنوفة على رفوف^(١٤٥) . وعثر فى إحدى هذه الجرار على أقدم صورة من صور قصة السندباد البحرى ، أولعلنا نكون أقرب إلى الحقيقة إذا أسميناها أقدم صورة من صور قصة رُبنسن كروزو .

(*) وجدت طائفة أخرى من النقوش الجنازية من عصر متأخر عن هذا مكتوبة بالخبر على السطح الداخلى لبعض التوابيت الخشبية التى صنعت لتوضع فيها جثث بعض النبلاء وكبار الموظفين فى أيام الدولة الوسطى . وقد أطلق برستد وغيره من العلماء عليها كلها اسم « نصوص التوابيت »^(١٤٤) .

وهذه القصة « قصة الملاح الذي حطمت سفينته » قطعة من ترجمة ذاتية لحياة ملاح تفيض حياة وشعوراً . ويقول هذا الملاح القديم في أحد سطورها قولاً يذكرنا بقول دانتي : « ما أعظم سرور من يقص ما وقع له حين ينجو من كارثة حلت به ! » . يقول هذا الملاح في مطلع هذه القصة :

« سأقص عليك شيئاً حدث لي حين يمت شطر مناجم الملك ونزلت البحر في سفينة طولها مائة وثمانون قدماً وعرضها ستون ، وفيها مائة وعشرون من صفوة الملاحين المصريين ، خبيرين بمعالم الأرض ومعالم السماء ، وقلوبهم أشد بأساً ... من قلوب الآساد ، يتنبأون بأعاصير البحر وعواصف البر قبل أن تثور . وهبت علينا عاصفة ونحن لا نزال في البحر ... ودفعتنا الرياح حتى كنا نظير أمامها ... وثارت موجة علوها ثمان أذرع ...

ثم تحطمت السفينة ، ولم ينج أحد ممن كان فيها ، وألقت بي موجة من أمواج البحر في جزيرة ، قضيت فيها ثلاثة أيام بمفردي لا رفيق لي إلا قلبي ؛ أنام تحت شجرة وأعانق الظلال ؛ ثم مددت قدمي أبحت عما أستطيع أن أضعه في فمي ، فوجدت أشجار التين والكروم وجميع صنوف الكراث الجميل ... وكان فيها سمك ودجاج ولم يكن ينقصها شيء قط ... وبعد أن صنعت لنفسى جهازاً أوقد به النار أشعلتها وقربت الآلهة قرباناً مشوياً ^(١٤٦) » .

وتروى قصة أخرى مغامرات سنوحى ، وهو موظف عام فر من مصر على أثر وفاة أمينمحييت الأول ، وأخذ يتنقل من بلد إلى بلد في الشرق الأدنى ، وحظي فيها بضروب من النعيم والشرف ، ولكنه رغم هذا لم يطق صبراً على ما حل به من آلام الوحدة والحنين إلى وطنه . وبرح به الألم آخر الأمر حتى ترك ثروته وعاد إلى مصر وقاسى في طريقه إليها كثيراً من الشدائد والأهوال . وقد جاء فيها :

« ألا أيها الإله ، أيا كنت ، يا من قدرت على هذا الفرار ، أعدني إلى البيت (أى الملك) . ولعلك تسمح لي أن أرى الموضع الذي يقيم فيه قلبي .

وأى شيء أعظم من أن تدفن جثتي في الأرض التي ولدت فيها ؟ أغنى على أمرى !
وليصبنى الخير ، وليرحمنى الله ! »

ثم نراه بعدئذ وقد عاد إلى وطنه ، متعباً ، يعالوه العثير من طول السفر في
الصحراء ، يخشى أن ينتهره الملك لطول غيابه عن بلد يراه أهله — كما يرى الناس
بلادهم في سائر الأزمان — البلد المتحضر الوحيد في العالم . ولكن الملك يعفو عنه
ويحسن استقباله ويحبوه بكل أنواع العطور والأدهان :

« وأقيمت في بيت أحد أبناء الملك ، حيث توجد أفخر ضروب الأثاث ، وكان
فيه حمام ... وزالت عن جسمي آثار السنين الطوال ؛ وقص شعري ، ومشط ،
وطرح في الصحراء حمل (من الأقدار ؟) وأعطيت الملابس (القذرة) لرواد
الرمال . وجيء لي بأرق الملابس الكتانية وعطر جسمي بأحسن الزيوت »^(١٤٧) .
أما القصص القصيرة فكثيرة متنوعة فيما وصل إلينا من بقايا الأدب المصري
القديم . ومن هذه قصص عجيبة بديعة عن الأطياف والمعجزات والتلفيقات
العجيبة التي تخلق الأبواب والتي لا تقل في سبكها وقربها من الحقائق عن قصص
الشرطة السرية التي يصدقها رجال الحكم في هذه الأيام . ومنها روايات غرامية
مكتوبة بعبارات طنانة رنانة عن الأمراء والأميرات ، والملوك والملكات ، ومن
بينها أقدم مثال معروف لقصة سندريلا ، وقدمها الصغيرة الجميلة ، وحداثها الجوال ،
وانتهاء القصة بزواجها من ابن الملك^(١٤٨) . وفيها قصص خرافية على لسان الطير
والحيوان تفصح عن نقائص الآدميين وشهواتهم وعواطفهم ، وتهدف في حكمة
وتعقل إلى معان خلقية سامية^(١٤٩) ، كأنما هي منقولة عن خرافات إيروب
ولافنتين .

ومن القصص المصرية التي تمزج الحوادث الطبيعية المعقولة بخوارق الطبيعة ،
والتي تعد نموذجاً لغيرها من القصص المصرية ، قصة أنوبيو وبيتيو ، وهما أخوان
صغير وكبير ظلا يعيشان عيشة راضية سعيدة في مزرعة لهما حتى هامت زوجة

أنويو بحب بيتيو، فردها عن نفسه، فانتقم منه بأن وشت به إلى أخيه واتهمته بأنه أراد بها سوءاً. وجاءت الآلهة والتماسيح لتعين بيتيو على أنويو ولكن بيتيو ينفر من بني الإنسان ويضيق بهم ذرعا ويبتز نفسه ليبرهن بذلك على براءته، ويعتزل العالم إلى الغابات كما فعل تيمن الأثيني (*) فيما بعد. ويعلق قلبه في أعلى زهرة في شجرة لا يستطيع الوصول إليها أحد. وتشفق عليه الآلهة في وحدته فتخلق له زوجة رائعة الجمال يشغف النيل بحبها فقرط جامها، ويختلس غديرة من شعرها. وتحمل مياه النهر هذه الغديرة فيعثر عليها الملك، فيسكره عطرها، ويأمر أتباعه بالبحث عن صاحبها. ويعثر هؤلاء عليها ويأتونه بها، ويتزوجها. وتدب في قلبه الغيرة من بيتيو فيرسل رجاله ليقطعوا الشجرة التي علق عليها بيتيو قلبه، ويقطعها هؤلاء ولا تكاد الزهرة تلمس الأرض حتى يموت بيتيو (١٥٠).
ألا ما أقل الفرق بين أذواقنا وأذواق من سبقونا من الخلق !

وكانت معظم الآداب المصرية الأولى آداباً دينية، وأقدم القصائد المصرية ترانيم نصوص الأهرام. وصيغتها هي أيضاً أقدم الصيغ المعروفة لنا، وهي عبارة عن تكرار المعنى الواحد بعبارات مختلفة، وقد أخذ الشعراء العبرانيون عن المصريين والبابليين هذه الطريقة وخلدوها في المزامير (١٥١). وفي عصر الانتقال من الدولة القديمة إلى الدولة الوسطى تصطبغ الآداب تدريجاً بالصيغة الدنيوية « الدنسة ». وفي قطعة من بردية قديمة لمحة خاطفة تشير إلى طائفة من الأدب الغرامي بقيت لنا لأن كاتباً من كتبة الدولة القديمة قد منعه الكسل أن يتم محو ما على هذه البردية من كتابة فبقى عليها خمسة وعشرون سطراً تستطيع قراءتها، وتروى قصة لقاء بين رع وإحدى الإلهات. وتقول هذه القصة إن « الإلهة التقت بالراعي وهوساً في طريقه إلى البركة، وكانت قد خلعت ملابسها وأرخت شعرها ». ويروي الشاعر ما حدث بعدئذ رواية الخذر الحريص فيقول :

(*) انظر قصة تيمن الأثيني في ترجمتنا العربية لكتاب « قصص من شيكسبير ».

« إليك ما حدث حين نزلت إلى المستنقع ... رأيت فيه امرأة لم تكن صورتها كصورة الخلائق الفانين . وانتصب شعري قائماً على أطرافه حين أبصرت غداؤها ، وذلك لفرط جمالها وبهائها . ولن أفعل قط ما قالته لي ؛ فقد تملكك الرهبة منها جسدي » (١٥٢) .

ولدينا من أغاني الحب الجميلة عدد كبير ، ولكن معظمها يتحدث عن غرام الإخوة والأخوات (*) ، ولهذا تسخر منه أذن السامع في هذه الأيام وتصطك لسماعه . ومن هذه الأغاني مجموعة سميت « الأغاني الجميلة السارة التي غنتها أختك حبيبة قلبك ، التي تسير في الحقول » .

ولدينا محارة من عهد الأسرة التاسعة عشرة أو العشرين تضرب نغمة حديثة على أوتار الحب القديمة جاء فيها :

إن غرام حبيبتي يقفز على شاطئ الغدير .
وفي الظلال تمسح رابض ؛
ولكنني أنزل إلى الماء وأواجه الأمواج .
ويشدد بأسي فوق الغدير
ويكون الماء هو والأرض تحت قدمي سواء ؛
لأن حبها يملأ قلبي قوة ،
فهى لي كتاب من الرقى والتعاويد ؛
وإذا رأيت حبيبتي مقبلة ابتهج لمرآها قلبي
وفتحت ذراعي ومددتها لأضمها إلى صدري
وينشرح قلبي أبد الدهر ... لأن حبيبتي قد أقبلت ،

(*) يظن بعض المؤرخين أن لفظي الأخ والأخت اللذين يردان في الأغاني الغزلية المصرية لا يقصد بهما دائماً أن الفتى والفتاة ابنا أب واحد أو أم واحدة ، بل قد يكونان لفظي إعزاز يطلق على الحب أو المحبوبة . (المترجم)

فإذا ما ضمتها كنت كمن في أرض البخور ،
وكن يحمل العطور ،
وإذا قبّلتها انفرجت شفتاها
وسكرت من غير خمر ،
يا ليتنى كنت جاريته الزنجية التي تقف بين يديها
حتى أرى لون أعضائها كلها (١٥٣) .

والقد قسمنا أنحن هذه السطور من عندنا على غير قاعدة ، وليس في وسعنا أن
نستدل من الصورة الأصلية لهذه الوثيقة على أن ما عليها شعر أو نثر . لقد كان
المصريون يعرفون أن النعمة الموسيقية والعاطفة القلبية هما جوهر الشعر وقوامه ،
فإذا ما وجدت النعمة والعاطفة فلن تهمل الصورة الخارجية قط . على أن العبارات
في بعض الأحيان كان لها وزن يقاس بالنبرات . وكان الشاعر في بعض الأحيان
يبدأ كل جملة أو مقطوعة بنفس الكلمة التي بدأ بها غيرها من الجمل أو المقطوعات
السابقة ، وكان يعتمد أحياناً إلى الجناس اللفظي فيأتي بالألفاظ المتشابهة في أصواتها
ذات المعاني المختلفة أو المتناقضة . وتدل النصوص على أن تجنيس الأحرف في
أوائل الكلمات المتتالية قديم قدم الأهرام نفسها (١٥٤) . وكان حسب المصريين
هذه الصيغ البسيطة ، فقد كان في مقدور شاعرهم أن يعبر بها عن كل لون من
ألوان الحب العذرى الذي يظن نيتشه أنه من اختراع التروبدور . وتدل
بردية هرسى على أن المرأة كانت تستطيع أن تعبر عن هذه العواطف كما يعبر
عنها الرجل :

أنا أختك الأولى ،
وأنت لى كالروضة
التي زرعت فيها الأزهار
والأعشاب العطرة جميعها .

وأجريتُ فيها غديرا
لكي تضع فيه يدك
إذا ماهبت ريح الشمال باردة .
وهي المكان الجميل الذي تنتزه فيه
حين تكون يدي في يدك ،
يفكر عقلانا ويتهيج قلبانا
لأننا نسير معاً ؛
إن سماع صوتك ليسكرني ،
وحياتي كلها في سماعك ،
وإن رؤيتك

لأحب إلى من الطعام والشراب (١٥٥)

وإذا نظرنا إلى هذه القطع الباقية في مجموعها أعترتنا الدهشة من تباين
موضوعاتها . فهي تشمل رسائل رسمية ، ووثائق قانونية ، وقصصا تاريخية ،
وطلاسم سحرية ، وترنيمات مجيدة ، وكتباً دينية مليئة بعبارات التقى والورع ،
وأغاني الحب والحرب ، وأقاصيص غرامية قصيرة ، ونصائح تحض على حسن
الخلق ، ومقالات فلسفية . وجملة القول أن فيها مثلاً من كل شيء عدا الملاحم
والتمثيليات ، وحتى هذه يستطيع الإنسان أن يقول مع بعض التجاوز إن فيها
أمثلة منها . وإن قصة النصر الذي أحرزه رمسيس الثاني بجرأته المدهشة والتي
نقشت شعراً على حجارة أبواب الأقصر العظيمة هي ملحمة على الأقل في طولها
وفيما تبعته في نفس قارئها من ملل . ويتباهى رمسيس الرابع في نقش آخر بأنه
في إحدى الألعاب قد حمى أوزير من ست وأعاد الحياة إلى أوزير (١٥٦) . وليس
لدينا من المعلومات ما نستطيع به أن نبسط القول في معنى هذه الإشارة .

وكتابة التاريخ في مصر قديمة قدم التاريخ نفسه ، بل إن ملوك عصر ما قبل

الأسر كانوا يحتفظون بسجلات تاريخية تفاخراً وإعجاباً بأنفسهم^(١٥٧). وكان المؤرخون الرسميون يصحبون الملوك في حملاتهم ، ولكنهم لا يبصرون هزائمهم ، بل يسجلون ، أو يخترعون من عندهم ، تفاصيل نصرهم ، لأن كتابة التاريخ كانت قد أضحت حتى في ذلك العصر البعيد فنا للزينة والتجمل . وأخذ العلماء المصريون من عام ٢٥٠٠ ق . م يكتبون قوائم بأسماء ملوكهم ، ويؤرخون السنين بحكمهم ، ويذكرون الحوادث الهامة في كل حكم وفي كل عام . فلما تولى تحتمس الثالث الملك كانت هذه الوثائق قد أصبحت توارى بخفى ، تفيض بالعواطف الوطنية^(١٥٨).

وكان فلاسفة الدولة الوسطى يرون أن الإنسان والتاريخ نفسه قد تقادم بهما العهد وأضنتهما الشيخوخة ، وأخذوا يندبون ما انقضى من شباب جنسهم الفتى . وشكا عالم في عهد سنوسريت الثانى أى حوالى ٢١٥٠ ق . م من أن كل ما يمكن أن يقال قد قيل من عهد بعيد ، ومن أن الأدب لم يبق له ما يقوله إلا التكرار . وقال فى أسى وحسرة : « ألا ليتنى أجد ألفاظاً لم يعرفها الناس ، وعبارات وأقوالاً بلغة جديدة لم ينقض عهداً ، وليس فيما تلوكه الألسن أقوال لم تصبح تافهة عملة ، ولم يقلها أباًؤنا من قبل »^(١٥٩).

ولقد أخفى تقادم العهد ما فى الأدب المصرى من تباين كما يخفى ما بين أفراد الشعوب غير المألوفة للإنسان من فروق . بيد أن الآداب المصرية فى خلال تطورها الطويل قد مرت بمحركات ونزعات لا تقل فى تباينها عن الحركات والنزعات التى اضطرب بها تاريخ الآداب الأوربية . وتغيرت لغة الكلام فى مصر تغيراً تدريجياً على مر الزمان ، كما تغيرت لغة الكلام فى أوربا من بعد ، حتى أصبحت هذه اللغة فى آخر الأمر وكأنها لغة أخرى غير التى دونت بها كتب الدولة القديمة . وظل المؤلفون وقتاً ما يكتبون باللغة الأولى ، وظل العلماء يدرسونها فى المدارس والطلاب لا يجدون مندوحة عن دراسة « الآداب القديمة » مستعينين بكتب النحو والمعجم وبالتراجم التى « بين السطور » فى بعض الأحيان . فلما كان القرن الرابع عشر

قبل الميلاد ثار المؤتفون المصريون على هذا الخضوع المزرى للتقاليد ، وفعلوا مثل ما فعل دانتى وتشوسر من بعد ، فأقدموا على الكتابة بلغة الشعب ، ولقد كتبت ترنيمة إخناتون للشمس ، وهى الترنيمة الذائعة الصيت ، باللغة الدارجة .

وكان الأدب الجديد أدباً واقعياً ، فنياً ، مبهجاً . وكان يسر منشئيه أن يسخروا من الأدب القديم ويصفوا الحياة الجديدة . ثم فعل الزمن فعله بهذه اللغة الجديدة فأضحت هى أيضاً لغة أدبية لها أصولها وقواعدها رقيقة دقيقة ، جامدة مقيدة فى ألفاظها وتعبيراتها بما جرى عليه العرف . واختلفت مرة أخرى لغة الكتابة عن لغة الكلام وانتشر التحذلق ، حتى كانت المدارس المصرية فى عصر ملوك ساو تقضى نصف وقتها فى دراسة « الآداب القديمة » آداب عهد إخناتون وترجمتها^(١٦٠) . وحدث مثل هذا التطور فى اللغات القومية فى عهد اليونان والرومان والعرب ، ولا يزال يجرى فى مجراه فى هذه الأيام ؛ ذلك أن كل شىء يسير ولا يبقى جامداً لا يتغير إلا العلماء .

٨ - العلوم

منشأ العلوم المصرية — الرياضيات — علم الفلك والتقويم — التشريع
وظائف الأعضاء — الطب والجراحة والقوانين الصحية

كان معظم علماء مصر من الكهنة ، وذلك لأنهم بعيدون عن صخب الحياة وضجيجها ، يتمتعون بما فى الهياكل من راحة وطمأنينة ؛ فكانوا هم الذين وضعوا أسس العلوم المصرية رغم ما كان فى عقائدهم من خرافات . وهم يقولون فى أساطيرهم إن العلوم قد اخترعها من ١٨٠٠٠ سنة قبل الميلاد تحوت إله الحكمة المصرى فى خلال حكمه على ظهر الأرض البالغ ثلاثة آلاف من الأعوام ، وإن أقدم الكتب فى كل علم من العلوم كانت من بين العشرين ألف مجلد التى وضعها هذا الإله

العالم (١٦١) (*) . وليس لدينا من العلم ما نستطيع به أن نفصل القول في نظرية نشأة العلوم في مصر .

وحسبنا أن نقول إنا نجد العلوم الرياضية متقدمة أعظم تقدم منذ بداية تاريخ مصر المدون ؛ وشاهد ذلك أن تصميم الأهرام وتشيدها يتطلبان دقة في القياس لا يستطيع الوصول إليها بغير معرفة واسعة بالعلوم الرياضية . ولقد أدى اعتماد الحياة في مصر على ارتفاع النيل وانخفاضه إلى العناية بتسجيل هذا الارتفاع والانخفاض وإلى حسابهما حساباً دقيقاً . وكان المساحون والكتبة لا ينقطعون عن قياس الأراضي التي يحيا الفيضان معالم حدودها ؛ وما من شك في أن هذا القياس كان منشأ فن الهندسة ، وشاهد ذلك أن اسمها الأجنبي مشتق من كلمتين معناهما قياس الأرض (١٦٣) . والأقدمون كلهم تقريباً مجمعون على أن هذا العلم من وضع المصريين (١٦٤) وإن كان يوسفوس يظن أن إبراهيم قد جاء بالحساب من كلديا (أي من أرض الجزيرة) إلى مصر (١٦٥) ، وليس من المستحيل أن يكون الحساب وغيره من العلوم والفنون قد جاءت إلى مصر من « أور الكلدان » أو من غيرها من مراكز آسية الغربية .

وكانت الأرقام سمجة متعبة — فقد كان رقم ١ يمثل له بشرطة . ورقم اثنين بشرطتين ، وثلاثة بثلاث شرط ... وتسعة بتسع شرط وتمثل العشرة بعلامة خاصة والعشرون باثنتين من هذه العلامات والثلاثون بثلاث منها ... والتسعون بتسع والمائة بعلامة أخرى جديدة والمائتان بعلامتين والثلاثمائة بثلاث علامات ... والتسعمائة بتسع والألف بعلامة جديدة . أما المليون فكانت تمثله صورة رجل يضرب كفاً بكف فوق رأسه كأنه يعبر عن دهشته من وجود مثل هذا العدد

(*) وهذا مايؤكده لنا إيمليكس (حوالى ٣٠٠ ب . م) أما منيثون المؤرخ المصرى الذى عاش حوالى عام ٣٠٠ ق . م فيرى أن هذا التقدير لا ينصف الإله ؛ ويقدر عدد ما وضع تحوت من الكتب بستة وثلاثين ألف كتاب . وكان اليونان يعظمون تحوت ويسمونه هرميز ترجمحستس — هرميز (عطارد) المثلث العظيمة (١٦٢) .

الكبير^(١٦٦) ، وكاد المصريون أن يصلوا إلى الطريقة العشرية في الأعداد ؛ وإن كانوا لم يعرفوا الصفر ولم يصلوا قط إلى فكرة التعبير عن جميع الأعداد بعشرة أرقام ، بل كانوا يعبرون عن رقم ٩٩٩ مثلاً بسبع وعشرين علامة^(١٦٧) . وكانوا يعرفون الكسور الاعتيادية ، ولكن بسط هذه الكسور كان رقم ١ على الدوام ؛ فكانوا إذا أرادوا كتابة $\frac{2}{3}$ كتبوها $\frac{1}{3} + \frac{1}{3}$. (*) وجداول الضرب والقسمة قديمة قدم الأهرام ، وأقدم رسالة في الرياضة عرفت في التاريخ هي بردية أحسن التي يرجع تاريخها إلى ما بين عام ألفين وألف وسبعمائة قبل الميلاد ؛ ولكن هذه البردية نفسها تشير إلى كتابات رياضية أقدم منها بخمسمائة عام . وهي تحسب سعة مخزن للفلل أو مساحة حقل وتضرب لهذا الحساب أمثلة ، ثم تنتقل من هذا إلى معادلات جبرية من الدرجة الأولى^(١٦٨) . ولم تقتصر الهندسة المصرية على قياس مساحات المربعات والدوائر والمكعبات ، بل كانت تقيس أيضاً أحجام الاسطوانات والكرات ؛ وقد وصلت إلى تقدير النسبة التقريبية بـ ٣١٦ ر ٣^(١٦٩) . وما أعظم فخرنا إذا استطعنا في أربعة آلاف عام أن نتقدم في حساب هذه النسبة التقريبية من ٣١٦ ر ٣ إلى ٣١٤١٦ ر ٣ .

ولسنا نعرف شيئاً عما وصل إليه المصريون في علمي الطبيعة والكيمياء ، ولا نكاد نعرف شيئاً عما وصلوا إليه في علم الفلك . ويلوح أن راصدى النجوم في الهياكل كانوا يظنون الأرض صندوقاً مستطيلاً تقوم في أركانه الجبال لتمسك السماء^(١٧٠) . ولم يشيروا بشيء إلى الخسوف والكسوف ، وكانوا في هذا العلم بوجه عام أقل رقياً من معاصريهم في أرض النهرين ، ولكنهم مع هذا كانوا يعرفون منه ما يكفي للتنبؤ باليوم الذي يرتفع فيه النيل ، وأن يتجهوا بهياكلهم نحو الشرق في النقطة التي تشرق منها الشمس في صباح يوم الانقلاب الصيفي^(١٧١) . ولربما كانوا

(*) لقد ظل الكتبة في التفاتيش الزراعية إلى عهد قريب يعبرون عن ال $\frac{1}{3}$ فيما يسمونه صورة الفدان بقولهم $\frac{1}{3}$ ، $\frac{1}{3}$ (المترجم)

يعرفون أكثر مما عنوا بإذاعته بين شعب كانت خدماته عظيمة القيمة لحكامه .
وكان السكينة يرون أن دراساتهم الفلكية من العلوم السرية الخفية التي لا يحبون
أن يكشفوا أسرارها للسوقة من الناس^(١٧٢) . وظلوا قروناً طويلة متتالية يتتبعون
مواقع الكواكب وحركاتها حتى شملت سجلاتهم في هذه الناحية آلاف السنين .
وكانوا يميزون الكواكب السيارة من النجوم الثابتة ، وذكروا في فهارسهم
نجوماً من القدر الخامس (وهي لا تكاد ترى بالعين العادية) وسجلوا ما ظنوه أثر
نجوم السماء في مصائر البشر . ومن هذه الملاحظات أنشأوا التقويم الذي أصبح
فيما بعد من أعظم ما أورثه المصريون بنى الإنسان .

وبدأوا تقسيم السنة إلى ثلاثة فصول في كل واحد منها أربعة شهور ، أولها
فصل ارتفاع النيل وفيضه وانحساره ، وثانيها فصل الزرع ، وثالثها فصل الحصاد .
وكانت عدة كل شهر من شهورهم ثلاثين يوماً لأن هذا العدد هو أقرب الأعداد
السهلة إلى طول الشهر القمري الذي يبلغ تسعة وعشرين يوماً ونصف يوم . وكان
لفظ الشهر في لغتهم كما هو في اللغة الإنجليزية مشتقاً من رمزهم للقمر^(*) . وكانوا
يضيفون بعد آخر الشهر الثاني عشر خمسة أيام حتى تتفق السنة في الحساب مع فيضان
النهر ومع مواقع الشمس^(١٧٤) . واختاروا لبدء السنة اليوم الذي يضل فيه النيل
عادة إلى أقصى ارتفاعه والذي كانت فيه الشعري العظيمة (وكانوا يسمونها سوئيس)
وقت أن اختاروه تشرق مع الشمس في وقت واحد . ولما كان التقويم
المصري يجعل السنة ٣٦٥ يوماً بدل ٣٦٥½ ، فإن الفرق بين شروق الشعري
وشروق الشمس وهو الذي كان في أول الأمر صغيراً لا يكاد يدرك قد ازداد حتى

(*) لقد كانت الساعة المائية معروفة عند المصريين من زمن بعيد ، ومن أجل هذا
كانوا يعززون اختراعها إلى تحوت إلههم المتعدد الكفايات . وأقدم الساعات الموجودة لدينا
يرجع عهدها إلى أيام تحتمس الثالث ، وهي الآن في متحف برلين . وتتكون من قضيب من
الخشب مقسم ستة أقسام تمثل ست ساعات وفوقه قطعة مستعرضة وضعت بحيث يدل ظلها
الواقع على القضيب على الساعة قبل الظهر أو بعده^(١٧٣) .

بلغ يوماً كاملاً في كل أربع سنين . وبذلك كان التقويم المصري يختلف عن التقويم السماوي الحقيقي بست ساعات في كل عام . ولم يصحح المصريون قط هذا الخطأ ، حتى جاء فلسكيو الإسكندرية اليونان فأصلحوه بأمر يوليوس قيصر (في عام ٤٦ ق . م) وذلك بإضافة يوم بعد كل أربع سنين . وهذا هو ما يسمونه التقويم اليولياني . ثم صحح التقويم تصحيحاً أدق في عهد البابا جريجوري الثالث عشر (١٥٨٢) وذلك بحذف هذا اليوم الزائد (وهو اليوم التاسع والعشرون من فبراير) من السنين المتممة للثلاث التي لا تقبل القسمة على ٤٠٠ ؛ وهذا هو « التقويم الجريجوري » الذي نستخدمه اليوم . وجملة القول أن تقويمنا في جوهره من وضع الشرق الأدنى القديم (١٧٥) (*)

(*) لما كان شروق الشعري منسوباً إلى الشمس يتأخر يوماً كاملاً في كل أربع سنين عما يتطلبه التقويم المصري ليكون الشروقان متفقين على الدوام ، فإن هذا الخطأ يبلغ ٣٦٥ يوماً في كل ١٤٦٠ عاماً . وحين تكمل هذه الدورة السوتية (كما كان المصريون الأقدمون يسمونها) يعود التقويم المكتوب والتقويم السماوي إلى الاتفاق . ولذا كنا نعرف من سنوريس المؤلف اللاتيني أن شروق الشعري الشمسي (منسوباً إلى شروق الشمس) قد اتفق في عام ١٣٩ ق . م مع بداية سنة التقويم المصري القديم ، فإن من حقنا أن نفترض أن هذا التوافق بعينه كان يحدث في كل ١٤٦٠ سنة قبل ذلك التاريخ الأخير ، أي في عام ١٣٢١ ق . م ، وفي عام ٢٧٨١ ق . م ، وفي عام ٤٢٤١ ق . م الخ . ولما كان من الواضح أن التقويم المصري قد وضع في سنة كان فيها شروق الشعري الشمسي (أي المنسوب إلى الشمس) قد وقع في أول يوم من أول شهور السنة ، فإننا نستدل من هذا على أن ذلك التقويم قد بدأ العمل به في سنة كانت فاتحة دورة سوتية . وقد ورد ذكر التقويم المصري لأولى مرة في النصوص الدينية المنقوشة في أهرام الأسرة الرابعة . ولما كان عهد تلك الأسرة يرجع بلا جدال إلى ما قبل عام ١٣٢١ ق . م ، فإن التقويم لابد أن يكون قد وضع في عام ٢٧٨١ ق . م أو في عام ٤٢٤١ ق . م أو قبل هاتين السنتين . وكان الاعتقاد السائد أن أقدم العامين أي عام ٤٢٤١ ق . م هو أول ما حدد من الأعوام في تاريخ العالم ، ولكن الأستاذ شارف Scharf يعارض في هذا ، وليس بعيد أن نضطر إلى الأخذ بالرأي الثاني وهو أن عام ٢٧٨١ أو غاماً قريباً منه هو مولد التقويم المصري القديم . فإذا صح هذا وجب أن نصحح التواريخ السالفة الذكر والتي حددناها لحكم الأسرة الأولى وتشييد الأهرام العظيمة بحيث تكون أقرب إلينا بنحو ثلثمائة عام أو أربعمائة . ولما كان هذا الموضوع لا يزال مثاراً للجدل فقد اعتمدنا في هذا الكتاب على التواريخ الواردة في كتاب التاريخ القديم لجامعة كمبردج Cambridge

ولم يتقدم المصريون في دراسة جسد الإنسان تقدماً يستحق الذكر رغم ما أتاحه لهم فن التحنيط من فرص لهذه الدراسة . فقد كانوا يظنون أن الأوعية الدموية تحمل هواء وماء ونفايات من السوائل . وكانوا يعتقدون أن القلب والأمعاء مركز العقل . ونعلمنا إذا عرفنا ما كانوا يقصدونه بهذه المصطلحات لا نجد أنهم يختلفون عنا كثيراً في معتقداتنا الأكيـدة التي لا تثبت عليها إلا قليلاً . ولكنهم وصفوا بكثير من الدقة العظام الكبرى والأمعاء ، وعرفوا أن القلب هو القوة الدافعة في الكائنات الحية ، وأنه مركز الدورة الدموية . وقد جاء في بردية إيبزر^(١٧٦) أن « أوعيته تتفرع إلى جميع أعضاء الجسد ، فسواء وضع الطبيب إصبعه على جبهة الإنسان ، أو على مؤخر الرأس ، أو على اليدين ... أو على القدمين فإنه يلتقي بالقلب في كل مكان » . ولم يكن بين هذا وبين أقوال ليوناردو وهارفي إلا خطوة واحدة — ولكنها خطوة تطلبت ثلاثة آلاف عام .

أما أ كبرمفخرة علمية للمصريين فهي علم الطب . وكان الكهنة هم البادئين به كما أن فيه من الشواهد ما يدل على أن هذه البداية قد نبتت من السحر . وشأن الطب في هذا يكاد يكون شأن كل شيء آخر في حياة مصر الثقافية . وكانت التمام أكثر شيوعاً بين الناس من حبوب الدواء لعلاج الأمراض أو للوقاية منها . وكان المرض في اعتقادهم هو تقمص الشياطين الجسم ، وعلاجه هو تلاوة العزائم ؛ فقد كان الزكام مثلاً يعالج بمثل هذه العبارات السحرية : « اخرج أيها البرد يا ابن البرد ، يا من تهشم العظم ، وت تلف الجمجمة ، وتمرض مخارج الرأس السبعة . اخرج على الأرض . دفر . دفر . دفر ! »^(١٧٧) — وأكبر الظن أن هذا علاج لا يقل في مفعوله عن أي علاج نعرفه اليوم لهذا المرض القديم .

ثم ترتفع في مصر من هذه الأعماق إلى الأطباء العظام والجراحين والإخصائيين الذين ساروا في صناعة الطب على قانون أخلاقي ظل يتوارث جيلاً بعد جيل حتى وصل إلى القسم الذائع الصيت قسم أبقراط^(١٧٨) . وكان من المصريين إخصائيون

في التوليد وفي أمراض النساء ؛ ومنهم من لم يكن يعالج إلا اضطرابات المعدة ، ومنهم أطباء العميون . وقد بلغ من شهرة هؤلاء أن قورش استدعى واحداً منهم إلى بلاد الفرس^(١٧٩) . أولئك هم الإخصائيون ، أما غير الإخصائيين منهم فقد ترك لهم جمع الفتات بعد هؤلاء وعلاج الفقراء من الناس ؛ وكان من عملهم فوق هذا أن يحضروا أدهان الوجه ، وصبغات الشعر ، وتجميل الجلد ، وأعضاء الجسم ، ومبيدات البراغيث^(١٨٠) .

وقد وصلت إلينا عدة برديات تبحث في الشؤون الطبية . وأعظمها قيمة بردية إدون اسمث ، وسميت كذلك نسبة إلى مستكشفها ؛ وهي ملف طوله خمس عشرة قدماً ، ويرجع تاريخها إلى عام ١٦٠٠ ق . م تقريباً وتعتمد على مراجع أقدم منها كثيراً . وحتى لو ضربنا صفحاً عن هذه المراجع الأولى اظلت هذه البردية نفسها أقدم وثيقة علمية معروفة في التاريخ . وهي تصف ثمانى وأربعين حالة من حالات الجراحة التطبيقية تختلف من كسر في الجمجمة إلى إصابة النخاع الشوكي . وكل حالة من الحالات الواردة فيها مبحوثة بحثاً دقيقاً في نظام منطقي ذي عناوين مرتبة من تشخيص ابتدائي مؤقت ، وفحص ، والبحث في الأعراض المشتركة بين أمراض مختلفة ، وتشخيص العلة ، والاستدلال بأعراضها على عواقبها وطريقة علاجها ، ثم تعليقات على المصطلحات العلمية الواردة فيها وشروح لها . ويشير المؤلف في وضوح لا نجد له مثيلاً قبل القرن الثامن عشر الميلادي إلى أن المركز المسيطر على الطرفين السفليين من أطراف الجسم كائن في المخ . وتلك أول مرة يظهر فيها هذا اللفظ في عالم الأدب^(١٨١) .

وكان المصريون يستمتعون بطائفة كبيرة من الأمراض المتنوعة ، وإن كانوا قد قضى عليهم أن يموتوا بها من غير أن يعرفوا أسماءها اليونانية . وتحدثنا بردياتهم وأجسامهم المخططة عن تدرن النخاع الشوكي وتصلب الشرايين ، والحصوات الصفراوية ، والجدرى وشلل الأطفال ، وفقر الدم ، والتهاب المفاصل ، والصرع

والفقرس ، والتهاب النتوء الحلمي ، والتهاب الزائدة الدودية ، وبعض الأمراض المعجبية . كالاتهاب الفقري الأشوه ، وما يعتري عموكراديس العظام الطويلة من نقص . وليست لدينا دلائل تثبت إصابتهم بالزهرى أو السرطان ، ولكن تقيح اللثة وتسوس الأسنان وهما اللذان لا أثر لهما في أقدم الجثث المحنطة القديمة يظهران بكثرة في الجثث المحنطة الباقية من العهود المتأخرة ، وذلك دليل على تقدم الحضارة في هذه العهود . وكان ضمور عظم الإصبع الصغرى من أصابع القدم وانعدامها — وهي حالة كثيراً ما يعزى سببها إلى الأحذية الحديثة — من الحالات المنتشرة في مصر القديمة ، حيث كان الأهليون على اختلاف أعمارهم وطبقاتهم يسرون كلهم تقريباً حفاة^(١٨٢) .

وكان لدى الأطباء المصريين عدة وافية من القرباذينات (دساتير الأدوية) لمقاومة هذه الأمراض كلها . ففي بردية إيبزر ثبت بأسماء سبعائة دواء لكل الأدوية المعروفة ، من عضه الأفعى إلى حمى النفاس . وتصف بردية كاهون (ويرجع عهدها إلى حوالي عام ١٨٥٠ ق . م) أقماع اللبوس ولعلها كانت تستخدم لمنع الحمل^(١٨٣) . وقد عثر في قبر إحدى ملكات الأسرة الحادية عشرة على صندوق للأدوية يحتوي على مزهريات ، وملاعق ، وعقاقير جافة ، وجذور . وكانت الوصفات الطبية تتذبذب بين الطب والسحر . وكان مفعول الخليط في رأيهم يتناسب مع اشمئزاز النفس منه . وما تصفه تذاكر الأطباء دم العظاية (السحليه) وأذن الخنزير وأسنانه ، واللحم والدهن النتن ، ومخ السلحفاة ، وكتاب قديم مقل في الزيت ، ولبن النفساء ، وماء المرأة الطاهرة ، وبراز الرجال والحير والكلاب والآساد والقطط والقمل — كل هذه واردة في تذاكر الأطباء . وكان الصلع يعالج بتدليك الرأس بدهن الحيوان . وقد انتقلت بعض هذه الوسائل العلاجية من المصريين إلى اليونان ، ثم انتقلت من اليونان إلى الرومان ، ومن الرومان إلينا . ولا تزال إلى اليوم تتجرع في ثقة واطمئنان كثيراً من الأدوية التي خلطها

وجيها لنا المصريون على شاطئ النيل في أقدم الأزمان^(١٨٣).

ولقد حاول المصريون أن يحافظوا على صحة أجسامهم باتباع الوسائل الصحية العامة^(*)، وبجنتان المذكور^(١٨٥) (+) وبتعويد الناس أن يكثرُوا من استخدام الحقن الشرجية. ويقول ديودور الصقلي في هذا المعنى :

وهم يتقنون الأمراض بالمحافظة على صحة أجسامهم وذلك باستخدام المليّنات و بالصوم و بالمقيّئات ، كل يوم في بعض الأحيان وكل ثلاثة أيام أو أربعة في البعض الآخر . وذلك لأنهم يقولون إن الجزء الأكبر مما يدخل في الجسم من طعام يزيد على حاجته ، وإن الأمراض إنما تنشأ من هذا القدر الزائد⁽⁺⁺⁾.

ويعتقد بلني أن المصريين قد تعلموا عادة استخدام الحقن الشرجية من الطائر المعروف « بأبي منجل » ، وهو طائر يقاوم الإمساك الناشئ من طبيعة ما يتناوله من الطعام بإدخال منقاره الطويل في دبره واستخدامه كالحقن^(١٨٨) . ويرى هيرودوت أن المصريين كانوا « يطهرون أجسامهم مرة في كل شهر ثلاثة أيام متوالية ، ويعملون على حفظ صحتهم بالمقيّئات والحقن الشرجية ، لأنهم يظنون أن جميع ما يصيب الناس من الأمراض إنما ينشأ مما يأكلون من الطعام » . وهذا المؤرخ — وهو أول مؤرخ للحضارة — يصف المصريين بأنهم بعد اللوبيين أصبح شعوب العالم أجساما^(١٨٩)

(*) وقد كشفت أعمال الحفر عن طرق كانت تتبع لجمع ماء المطر وتصريف الفضلات بأنايب من النحاس .

(+) وفي أقدم القبور شواهد دالة على هذه العادة .

(++) إن المثل الحديث الذي يقول إننا نعيش على ربع ما نأكل وإن الأطباء يعيشون على الثلاثة الأرباع الباقية لمن أقدم الأمثال .

٩ — الفن

العمارة — النحت في الدولة القديمة والدولة الوسطى والإمبراطورية وفي عهد الملوك
الساوئين — النقوش الغائرة — التصوير — الفنون الصغرى — الموسيقى — الفنون

كان الفن أعظم عناصر هذه الحضارة ؛ فنحن نجد في هذه البلاد ، وفي عهد
يكاد يكون عهد بداية الحضارات ، فنا قويا ناضجا أرقى من فن أية دولة حديثة ،
ولا يضارعه إلا فن اليونان . لقد كان ما امتازت به مصر في أول عهودها من
عزلة وسلم ، ثم ماتدقق فيها بعدئذ من مغامم الظلم والحرب في عهد تحتمس الثالث
ورمسيس الثاني ، مما أتاح لها الفرصة المواتية والوسائل الكفيلة بتشيد المباني
الضخمة ، ونحت التماثيل المتينة ، والبراعة في عدة فنون أخرى صغيرة ، كادت تبلغ
حد الكمال في هذا العهد السحيق . وإن المرء ليقف حائراً مشدوهاً لا يكاد
يصدق ما وضعه الباحثون من نظريات لتطور الرقي البشرى إذا نظر إلى منتجات
الفن المصري القديم .

وكانت العمارة (*) أخص الفنون المصرية على الإطلاق ، وذلك لما تجمع فيها من
روعة وضخامة وصلابة وجمال ومنفعة . وقد بدأ هذا الفن بداية متواضعة بتزيين
المقابر ونقش الوجوه الخارجية لجدران المنازل . وكانت كثرة المساكن تبنى من
الطين تتخللها في بعض الأحيان أعمال بسيطة من الخشب (كالنوافذ الشبكية اليابانية
أو الأبواب الجميلة الحفر) ، والسقف المقامة على جذوع النخل السهلة العلاج .
وكان يحيط بالدار عادة سور يضم فناء ، تصعد منه درج إلى سطح البيت ؛ ومنه
ينزل السكان إلى الحجلات . وكان للموسرين من الأهلين حدائق خاصة يعنون
بتنسيقها ؛ وكان في الحواضر حدائق عامة للفقراء ، ولا يكاد يخلو بيت من أزهار

(*) اقرأ في القسمين الأول والثالث من الجزء الأول من هذا الفصل وصف العمارة في
أيام الدولة القديمة .

الزينة . وكانت جدران المنزل تزين من الداخل بحُصر ملوَّنة ، وتفرش أرضه بالطنافس ، إذا كان ربّ الدار ذا سعة . وكان السكان يفضلون الجلوس على هذه الطنافس عن الجلوس على الكراسي . وكان المصريون في عهد الدولة القديمة يتناولون الطعام وهم جالسون مرتبعون وأمامهم موائد لا يزيد ارتفاعها على ست بوصات كما يفعل اليابانيون في هذه الأيام ، وكانوا يأكلون بأيديهم على طريقة شيكسبير؛ فلما كان عهد الإمبراطورية وقلّ ثمن العبيد أصبح أفراد الطبقات العليا يجلسون على كراسي عالية ذات وسائد ، ويقدم لهم خدمهم أصناف الطعام صنفًا بعد صنف (١٩٠)

وكانت أحجار البناء أغلى من أن تستخدم في تشييد المنازل ؛ ولهذا كانت من مواد الترف الخاصة بالكهنة والملوك . وحتى النبلاء أنفسهم — وهم الطائفة الكثيرة الطموح — آثروا المعابد بأكبر قسط من الثروة وبأحسن مواد البناء ؛ ومن أجل هذا فإن القصور التي كانت تطل على النيل والتي لم يكد يخلو ميل من واحد منها في أيام أمنحوتب الثالث قد تهدمت كلها وعفت آثارها على حين أن أضرحة الآلهة ومقابر الموتى قد بقيت إلى أيامنا هذه . ولما جاءت الأسرة الثانية عشرة لم يعد الهرم الطراز المحبب لمدافن الأموات ، ولهذا اختار ختوم حوتب (حوالي ١١٨٠ ق . م) لمدفنه عند بني حسن شكلاً أهدأ من أشكال الهرم وهو قبر ذو عمد في أحضان الجبل ؛ وما كادت هذه الفكرة تثبت وتستقر حتى اتخذت آلاف الأشكال المختلفة بين التلال الممتدة على جانب النيل الغربي . وهكذا خرجت من رمال مصر ما بين عهد الأهرام والعهد الذي شيد فيه هيكل صخور حتحور عند دندرة — أي في خلال ثلاثة آلاف عام أو نحوها — ضروب من المائر المختلفة لم تفقها قط عمائر أية حضارة من الحضارات الأخرى .

ففي الكرنك والأقصر أيكة من الأعمدة أقامها تحتمس الأول والثالث ، وأمنحوتب الثالث ، وسيتي الأول ، ورمسيس الثاني وغيرهم من الملوك ما بين

الأسرة الثانية عشرة والأسرة الثانية والعشرين ؛ وفي مدينة حبو (حوالى ١٣٠٠ ق . م) صرح متسع الأرجاء ، وإن كان لا يضارع الصروح السالفة الذكر في فخامتها ، قامت عليه فيما بعد قرية عربية وظلت قائمة على صدره عدة قرون . وفي أبيدوس (العرابة) شُيِّد هيكَل سبتي الأول الذى لم يبق منه إلا خرائب ضخمة قائمة كثيبة ؛ وفي إلفنتين معبد صغير هو معبد ختوم (حوالى ١٤٠٠ ق . م) « اليونانى فى دقة بنائه ورشاقته »^(١٩١) ؛ وفي الدير البحرى بهو الأعمدة الذى شادته الملكة حتشبسوت ، وبالتقرب منه الرمسيوم وهى أَيْكَة أخرى من العمد والتماثيل الضخام شادها المهندسون والعبيد الذين سخرهم رمسيس الثانى ، وفى جزيرة فيلة هيكَل إيزيس الجميل (حوالى ٢٤٠ ق . م) المهجور الموحش فى هذه الأيام لأن خزان أسوان قد غمر قواعد عمدته التى بلغت فى عمارتها حد الكمال — وهذه البقايا القليلة المتفرقة إن هى إلا نماذج من الآثار القديمة التى لا تزال تجمل وادى النيل وتنطق خرائبها نفسها بما كان عليه الشعب الذى شادها من قوة وبسالة . ولعل فى هذه الصروح إفراطاً فى الأعمدة وتقاربها بعضها من بعض لاتقاء حر الشمس اللافتح ، ولعل فيها بعداً عن التناسب هو من خصائص الشرق الأقصى ، وافتقاراً إلى الوحدة ، وهياماً همجياً بالضخامة كهيام أهل هذه الأيام . فإن كان ذلك كذلك فإن فيها أيضاً عظمة وسمواً وجلالاً وقوة ؛ فيها الأقواس والعقود^(١٩٢) وهى إن قلت فما ذلك إلا لقلة الحاجة إليها ، ولسكنها من حيث المبادئ التى شيدت عليها تسير فى طريق الانتقال إلى المبادئ التى شيدت عليها العمد والأقواس فى بلاد اليونان والرومان وفى أوربا الحديثة ، وفيها نقوش للزينة لا يفوقها غيرها من النقوش فى تاريخ العالم كله^(١٩٣) ، وفيها عمد على صورة أعواد البردى والأزورد (اللوطس) ، وعمد من الطراز الدورى^(*) الأول^(١٩٤) وعمد فى صورة نساء^(١٩٥) ، وتيجان للعمد منها ما هو فى صورة حتحور

(*) نسبة إلى الفن الدورى اليونانى الذى يمتاز ببساطته وصلابته . (المترجم)

ومنها ما هو على صورة التخيل ؛ وفيها قصور ذات نوافذ قرب السقوف ؛ وفيها عتبات فخمة تمتاز بالقوة والثبات اللذين هما روح الجاذبية القوية في فن العمارة .
لعمري إن المصريين لم أعظم البنائين في التاريخ كله بلا جدال .

ومن الناس من يضيف إلى هذا أنهم أيضاً أعظم المثالين ، فلقد أنشأوا في بداية تاريخهم تمثال أبي الهول ، ذلك التمثال الذي يرمز إلى الصفات الأبدية التي اتصف بها أحد القراعنة الأقوياء ؛ ولعل هذا الفرعون هو خفرع . والتمثال لا ينم عن القوة فحسب ، بل يفصح كذلك عن الصفات الخلقية . ولقد حطمت طلقة من مدافع المماليك أنف التمثال وحلقت لحيته ، ولكن ملامحه القوية الضخمة تعبر أحسن تعبير وأقواء عما اتصف به ذلك الملك من قوة ومهابة وهدوء ونضوج ، وكلها صفات يجب ألا تفارق الملوك . ولقد علت هذه الملامح الساكنة ابتسامة خفيفة لم تفارقها منذ خمسة آلاف من السنين ، كأنما الفنان المجهول الذي صاغه أو الملك المجهول الذي يرمز التمثال له ، كان يفهم كل ما يريد الخلق أن يفهموه عن الخلق . والحق أنه هو « مونا ليزا » من الصخر الأصم .

وما من شيء في تاريخ النحت أجمل من تمثال خفرع المصنوع من حجر الديوريت والذي يقوم الآن في متحف القاهرة . لقد كان هذا التمثال قديماً في أيام بركتيليز ، قدم بركتيليز نفسه بالنسبة إلينا ؛ ومع هذا فقد اجتاز حقبة من الزمان طولها خمسون قرناً ، ثم وصل إلينا ولم تكد تؤثر فيه عواذي الدهر ونوائبه . لقد صنع هذا التمثال من أصلب الحجارة وأشدها استعصاء على الإنسان ، ولكنه ينقل إلينا أكمل ما يكون النقل قوة الملك (أو الفنان) البدنية ، وسلطانه وعناده وصلابة رأيه وبسالته وذكاءه . ويجلس بالقرب منه تمثال عابس متجههم لملك أقدم من صاحب التمثال الأول عهداً هو تمثال الملك زوسر المصنوع من حجر الجير . ومن بعده يكشف لك الدليل بعود الثقاب عن شفافية تمثال رائع من المرمر هو تمثال منقورع . ويضارع تمثالا شيخ البلد والسكراتب تماثيل الملوك من ناحية الإبداع



شكل (١٤) تمثال « شيخ البلد » من الخشب
في متحف القاهرة

والإتقان الفنى الذى ليس بعده إتقان . ولقد وصل إلينا تمثال الكاتب فى عدة أشكال ، وكلاهما من عهد لا نعلمها علم اليقين ، ولكن أشهرها كلاهما تمثال الكاتب المتربع المحفوظ فى متحف اللوفر (*) . وليس تمثال شيخ البلد لشيخ بحق ولكنه تمثال مشرف على الفعلة بيده عصا السلطة ، يخطو إلى الأمام كأنه يلاحظ عماله أو يصدر إليهم أوامره . ويبدو أن اسمه هو كميرو ولكن العمال المصريين الذين أخرجوه من قبره فى سقارة قد أدهشهم ما رأوه من تشابه بينه وبين شيخ البلد الذى يسكنونه ، فأوحت إليهم فكاهتهم بهذا اللقب الذى اشتهر به والذى لا يزال إلى اليوم ملازماً له . وهذا التمثال مصنوع من الخشب المعرض للبلى ولكن الزمان لم يقو على تشويه جسمه الملىء ، أو ساقيه الغليظتين ؛ وينم وسط جسمه على ما يتمتع به الملاك فى جميع الحضارات من سعة فى الرزق وقلة فى الكدح ، وينطق وجهه المستدير بقناعة الرجل الذى يعرف مكانته ويفخر بها . ويشعرنا رأسه الأصلع وثوبه المتهدل على واقعية الفن الذى كان فى ذلك الوقت قد بلغ من القدم درجة أجازت له أن يثور على التقاليد التى جعلت من الفن القديم مثلاً أعلى يحتذى ؛ ولكن فيه أيضاً بساطة جميلة وإنسانية كاملة عبر عنها المثال بلا حقد ولا مرارة ، وعبر عنها فى يسر ورشاقة ، تمتاز بهما اليد الوائقة الصنّاع . وفى ذلك يقول مسبيرو « لو أن معرضاً أنشئ لروائع الفن فى العالم كله لاخترت هذا التمثال لتمثيل فيه عظمة الفن المصرى » (١٩٦) — أو هل أصدق من هذا أن نختص بهذا الشرف تمثال خفرع ؟

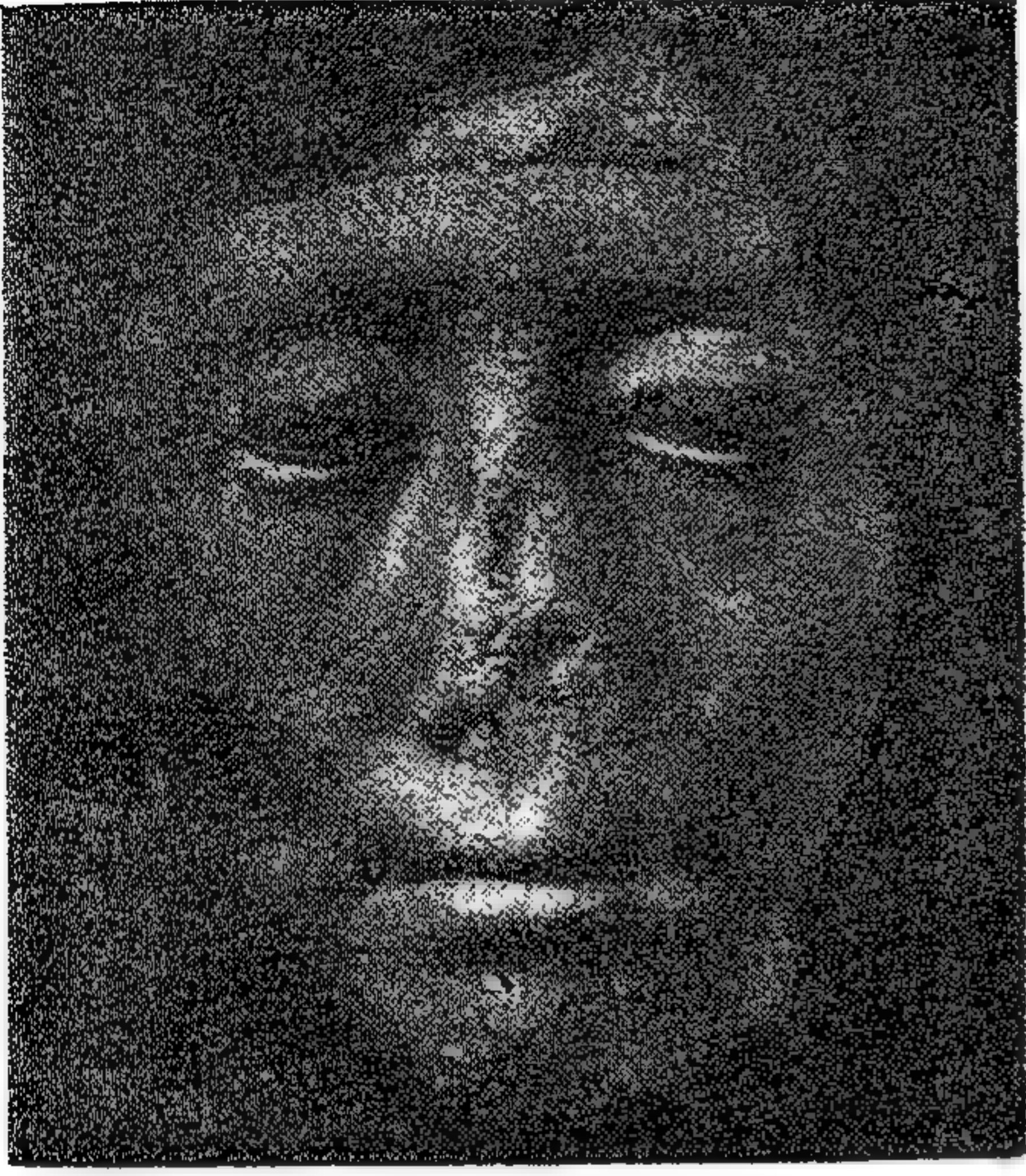
هذه هى الروائع الفنية من تماثيل الدولة القديمة . ولكن هناك آيات فنية أخرى كثيرة أقل منها روعة ، منها تمثالاً رع حوتب وزوجته الجالسان ، ومنها التمثال القوى للكاهن رنوفر ، ومنها تمثالاً الملك فيو پس وولده المصبوبان من

(*) انظر وصفه السابق فى ص ٨٩ وتزين المتحف المصرى بالقاهرة ومتحف الدولة فى برلين تماثيل أخرى للكاتب .

النحاس ، ومنها رأس باشق من الذهب ، ومنها الصورتان الهزليتان لعاصر الخمر وللقزم كمنحوتب ، وكلها إلا واحداً منها في المتحف المصرى بالقاهرة ، وكلها بلا استثناء صور ناطقة بأخلاق أصحابها . ولسنا ننكر أن القطع المبكرة منها خشنة غير مصقولة الصنع ، وأن التماثيل قد صنعت وأجسامها وعيونها متجهة إلى الأمام ، على حين أن الأيدي والأقدام قد رسمت من أحد الجانبين ، وذلك جرياً وراء عرف غريب متبع في جميع ضروب الفن المصرى (*) ، وأن الجسم لم يلق من الفنان عناية كبيرة ، وأنه مثل في معظم الأحيان في صورة راسخة مقننة لا تتفق مع الواقع — فكانت أجسام تماثيل النساء كلها تصورهن فتيات في شرح الشباب وتماثيل الملوك تظهرهم كلهم أقوياء ، وأن الفردية وإن كانت قد بلغت في قنهم درجة عالية قد احتفظ بها عادة في الرؤوس دون الأجسام . ولكن مهما يكن من الجود والتماثل اللذين لحقا فنون النحت والتصوير والنقش البارز وما فرضه عليها الكهنة من قيود العرف ، ومن سلطان لهم شديد ، بالرغم من هذا كله فإن هذا النقص قد عوضه عمق في التفكير ، وقوة ودقة في التنفيذ ، وما تمتاز به الصناعة من طابع خاص واتجاه وصقل . والحق أن فن النحت لم يكن في بلد من البلاد أكثر حيوية مما كان في مصر . إن تماثيل الشيخ ليخرج على كل سلطان ، وإن المرأة التي تطحن الحب لتقبل عليه بكل ما في نفسها من أحاسيس وما في جسمها من عضلات ، وإن الكاتب ليهم بالكتابة ، وإن آلاف الدمي الصغيرة التي وضعت في المقابر لتقوم بالواجبات الضرورية للموتى قد صيغت كلها بحيث يبدو عليها من مظاهر النشاط والجسد ما نكاد معه أن نعتقد ، كما كان يعتقد المصريون الأتقياء ، أن الموتى لا يمكن أن يشقوا ما دام هؤلاء الخدم من حولهم .

(*) هناك تماثيل كثيرة تشذ عن هذه القاعدة العامة منها تماثلاً شيخ البلد والكاتب ، وما من شك في أن هذا العرف لم يكن ناشئاً عن عجز أو جهل بأصول الفن .

ولم تصل منتجات فن النحت المصرى بعد عهد الأسر الأولى إلى ما كانت عليه فى عهدىها إلا بعد أن مضت عليها قرون كثيرة . وإذ كان معظم التماثيل إنما صنع للهياكل أو المقابر فقد كان الكهنة هم الذين يقررون إلى حد كبير الأنماط التى يلتزمها الفنان . ومن هذه السبيل تسربت إلى الفن النزعة الدينية المحافظة ،



شكل (١٦) رأس ملك لعله سنوسريت الثالث فى المتحف الفنى بنيويورك



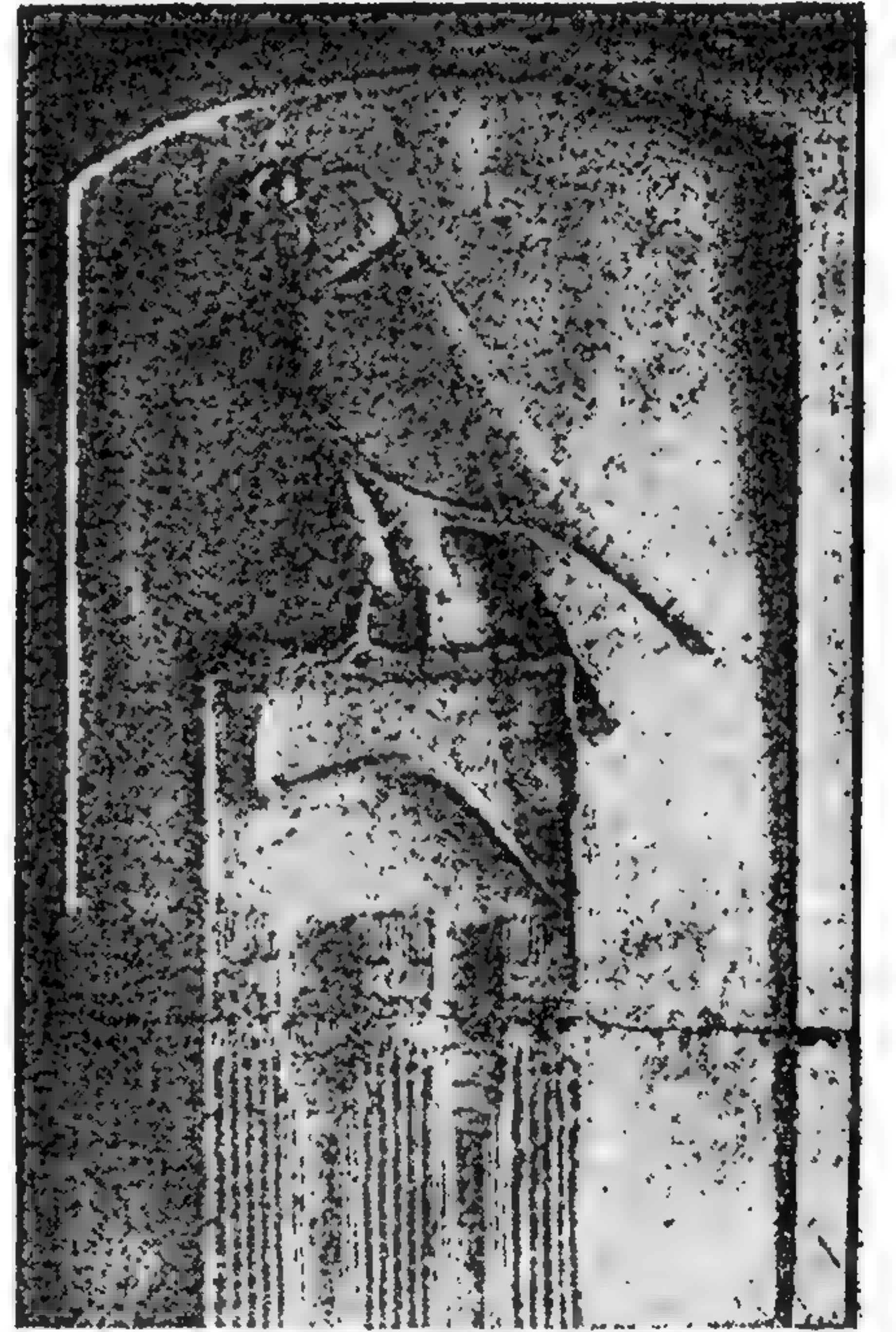
شكل (١٥) رأس من حجر الخرسان وجد فى مصنع المثل نحتمس فى تل العمارنة وهو الآن فى متحف الدولة ببرلين

فجثم على قلب الفن بسببها كابوس التقاليد ، وكان سبباً فى تدهوره . فلما أن تولى الحكم ملوك الأسرة الثانية عشرة الأقوياء عادت الروح الدنيوية غير الدينية إلى الظهور وأثبتت وجودها ، واستعاد الفن شيئاً من قوته القديمة ، وفاق الفنانون ما كان عليهم أسلافهم الأولون من براعة . ويوحى رأس أمينمحييت الثالث المنحوت من حجر الديوريت^(١٩٧) ببعث جديد للفن وبعث للأخلاق . ذلك أن الناظر إلى هذا الرأس يستشف منه صلابه هذا المليك القدير ، ويدرك أن الذى نحته فنان قدير أيضاً . وثمة تمثال ضخمة لسنوسريت الثالث يزينة رأس ووجهه لا تقل الفكرة التى أوحى به ، ولا القدرة التى أخرجته ، عما أوحى به وأخرجته

أية صورة أخرى في تاريخ فن النحت كله . وإن الجذع الباقي من تمثال سنوسريت الأول في متحف القاهرة ليضارع جذع تمثال هرقل في متحف اللوفر . وتكثر تماثيل الحيوانات في كل عصر من عصور التاريخ المصري ، وهي كلها تفيض بالحياة ، فهنا نجد فأراً يعض بندقة ، وهناك ترى قرداً يضرب على وتر ويكشف عن كل ما لديه من مهارة في هذا الضرب ، أو قنفذاً ليس في أشواكه كلها شوكة غير منتفشة . ثم جاء ملوك الهكسوس وانعدم الفن المصري إلا قليلاً مدى ثلاثة قرون .



شكل (١٨) رأس تحتمس الثالث
في متحف القاهرة

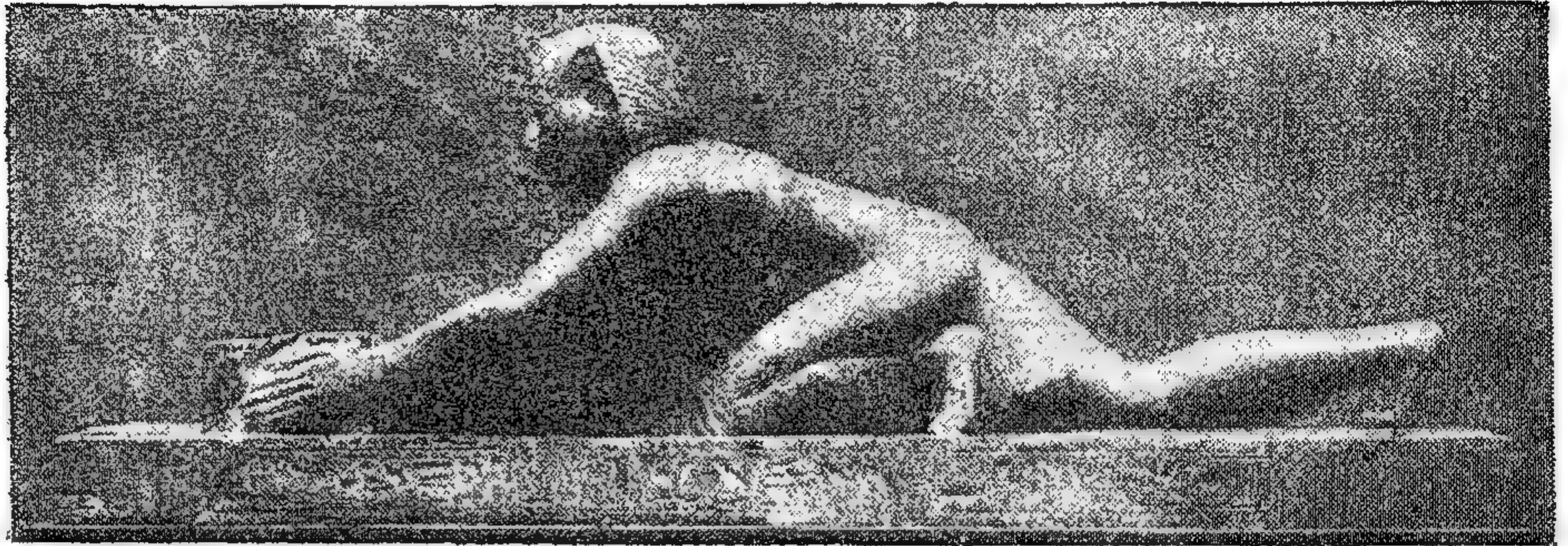


شكل (١٧) الصقر الملكي والأفني
نقش في حجر الجير من الأسرة الأولى
في متحف اللوفر

وبعث الفن بعثاً ثانياً على ضفاف النيل في حكم حتشبسوت وتحتمس

وأمنحوتب ومن تسمى باسميهما من الملوك . ذلك أن الثروة أخذت تتدفق على مصر من سوريا ، وتحول مجراها إلى الهياكل وقصور الملوك ، وتقطرت منها لتغذى الفنون على اختلاف أنواعها . وقامت تماثيل تحتمس الثالث ورسيس الثاني تناطح السماء ، وغصت أركان الهياكل كلها بمختلف التماثيل ، وكثرت روائع الفن كثرة لم يسبق لها مثيل على أيدي هذا الشعب الذي تملكته نشوة بعثها فيه ما بلغه في زعمه من سيادة على العالم بأسره . وإن التمثال النصفى لملك الملكة العظيمة المنحوت من الحجر الأصيل والمحفوظ في المتحف الفني بنيويورك ، وتمثال تحتمس الثالث المصنوع من البازلت والمحفوظ في متحف القاهرة ، وتماثيل أبي الهول المصنوعة في عهد أمنحوتب الثالث والمحفوظة في المتحف البريطاني ، وتمثال إخناتون الجالس المصنوع من حجر الجير والمحفوظ في متحف اللوفر ، وتمثال رسيس الثاني المنحوت من الحجر الأصيل والمحفوظ في تورين ، وتمثال هذا الملك نفسه الجاثم وهو يقدم القرбан للآلهة جثوما لا يكاد يصدق الإنسان أنه يفعله ، والذي مثل الجثوم أكل تمثيل^(١٩٩) ، والبقرة المفكرة في الدير البحري التي يرى مسيرو « أنها تضارع أروع آيات الفن اليوناني والروماني الماثلة لها »^(٢٠٠) وأسدي أمنحوتب الثالث اللذين قال عنهما رسكن إنهما أحسن ما خلفه القدماء على بكرة أبيهم من تماثيل للحيوانات^(٢٠١) ، والتماثيل الضخمة التي صنعها في الصخر عند أبي سمبل مثالو رسيس الثاني ، والآثار العجيبة الرائعة التي وجدت في خرائب منحت الفنان تحتمس في تل العمارنة — والتي تشمل نموذجاً من الجبس لرأس إخناتون ينطق بما كان في هذا العهد المليء بالمآسى من نزعة شعرية وتصوفية — والتمثال النصفى الجميل المصنوع من حجر الجير لنفرتيتي زوجة الملك إخناتون ، ورأس هذه الملكة الجميلة المصنوع من حجر الخرسان وهو أجمل من التمثال النصفى السالف الذكر^(٢٠٢) ، هذه الأمثلة المنتشرة في بلاد العالم تصور للقارى صورة من أعمال النحت الكثيرة الرائعة التي يفيض بها عصر

الإمبراطورية . ولم تفقد الفكاهة منزلتها بين هذه الروائع الفنية العظيمة ؛ فالمثالون المصريون يلهون بالتمائيل الهزلية المضحكة للإنسان والحيوان ؛ وحتى الملوك في عصر إخناتون محطم الأصنام قد جعلها الفنان المصري تبتسم وتلعب (*) .

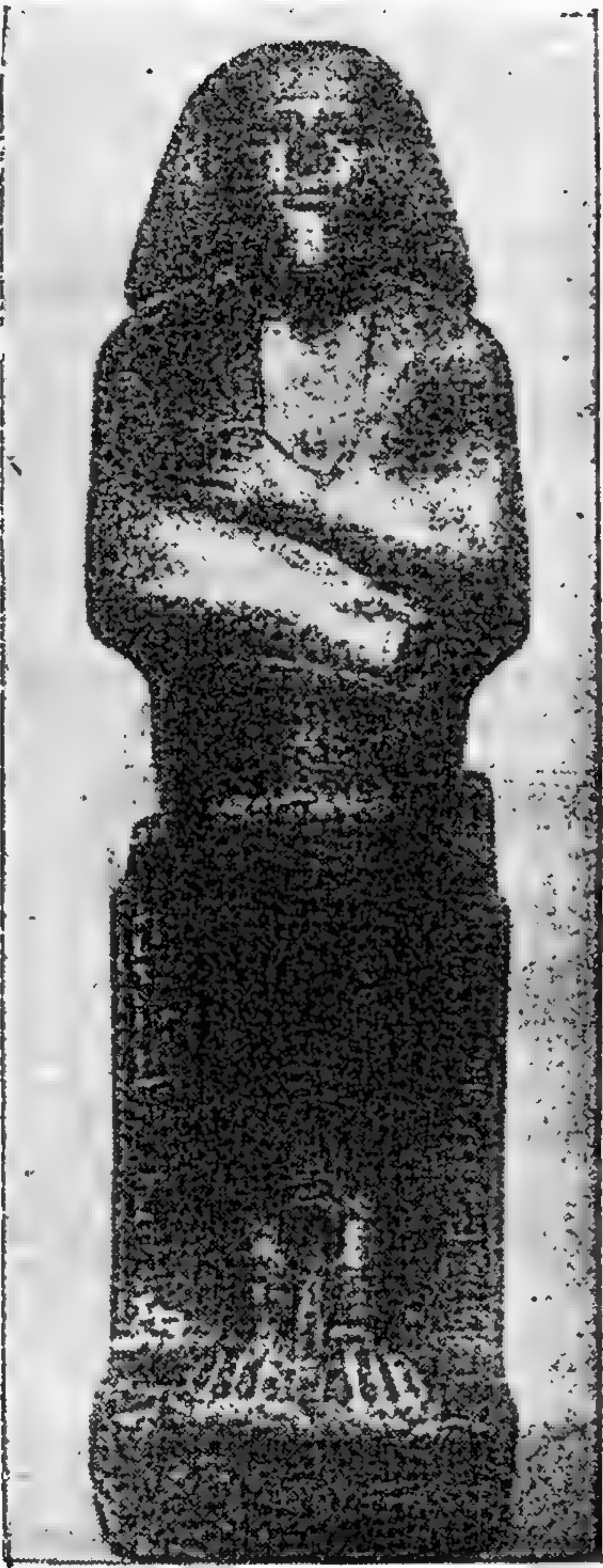


شكل (١٩) رمسيس الثاني يقرب قربانا
صورة تمثال في متحف القاهرة

على أن جذوة النهضة الفنية لم تلبث أن خمدت بعد عهد رمسيس الثاني ، وظل الفن المصري من بعده قروناً كثيرة يقنع بتكرار الأعمال والأشكال القديمة . وحاول الفن أن ينهض من كبوته في عهد ملوك ساو ، وأن يعود إلى ما كان ينزع إليه كبار الفنانين في عهد الدولة القديمة من إخلاص وبساطة في التصوير . وقد عالج المثالون في عهد هذه الدولة أفسى الحجارة كأحجار البازلت والسربنطين (الحية) والبريشيا والديوريت — ونحتوا منها تماثيل واقعية حية نذكر منها تمثال منتيوميحيث^(٢٠٣) ورأساً أصلع من البازلت الأخضر لا يعرف صاحبه يطل الآن على جدران متحف الدولة في برلين . ومما صنعوه من البرنز صورة جميلة للسيدة تكوسشت^(٢٠٤) ، وقد أولعوا أيضاً بتصوير ملامح الناس والحيوان وحركاتهم على حقيقتها ، فنحتوا تماثيل مضحكة لحيوانات غريبة ،

(*) وإن المرء ليدكر بهذه المناسبة ما قاله سياسي مصري بعد زيارته معارض أوروبا الفنية « لقد انتهيت بلادي » .

ولعبيد وآلهة ، وصنعوا من البرنز رأسى قطة وعنزة هما الآت من منهوبات برلين^(٢٠٥) . ثم انقض الفرس بعدئذ على البلاد انقضاؤ الذئاب الكاسرة على الحملان الوديعه المسالمة ، ففتحوا مصر وخرّبوا الهياكل وكتبوا روح البلاد وقضوا على فنونها .



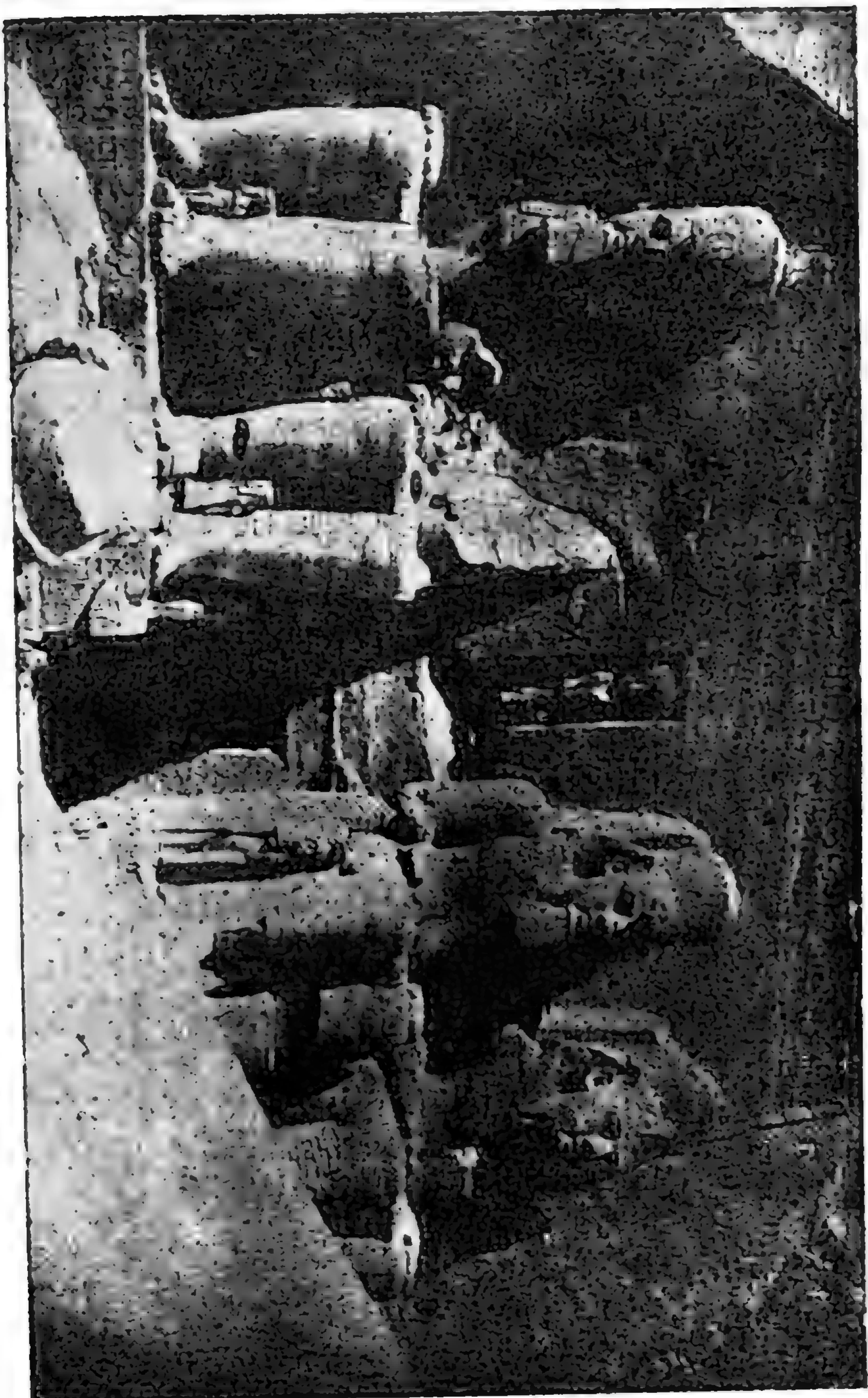
شكل (٢١) تمثال منتيوميحيث الجالس
في متحف الدولة ببرلين



شكل (٢٠) تمثال من البرنز
لتكوسشت في متحف أمينة

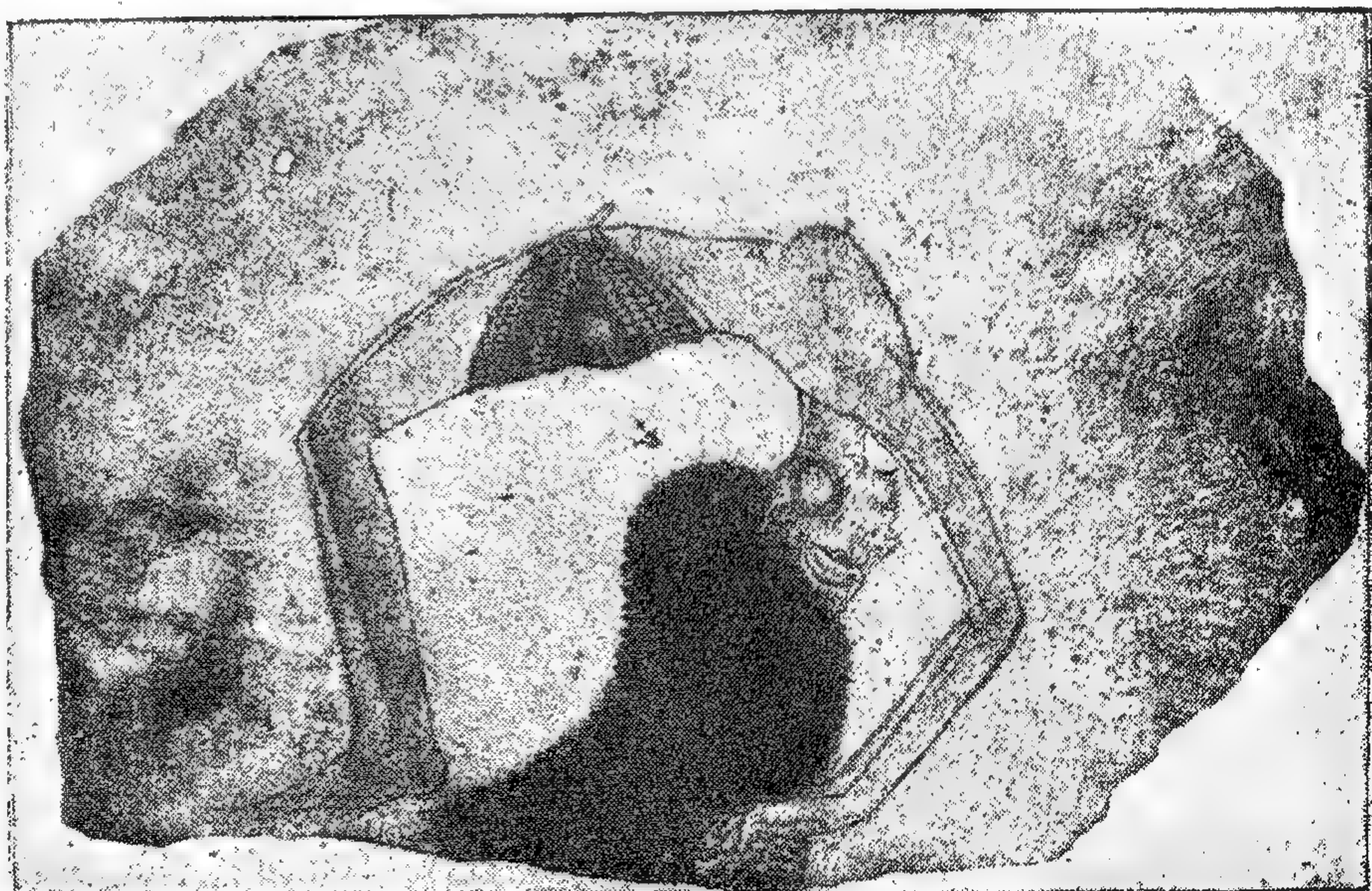
والعمارة والنحت (*) أهم الفنون المصرية ، ولكننا إذا أدخلنا الوفرة في حسابنا كان علينا أن نضيف إليهما النقوش الفائرة . فليس من شعوب العالم شعب جد في حفر تاريخه وأساطيره كما جد في ذلك قدماء المصريين . وإنا ليدهشنا لأول وهلة ما بين القصص المنقوشة على الحجارة الكريمة من تشابه ممل ، كما يدهشنا ازدهانها وكثرتها ، وما فيها من انعدام التماثل وعدم مراعاة قواعد المنظور ، أو المحاولات غير الموفقة التي بذلوها لمراعاتها بتمثيل الأشياء البعيدة في المنظر فوق القريبة ؛ ونحن ندهش حين نرى طول قامة الملك وقصر قامة أعدائه . هذا في النقوش والتصوير ، وفي النحت يصعب علينا أن نألف رؤية عيون وصدور مرسومة كأننا ننظر إليها من الأمام على حين أن الأنوف والذقون والأقدام مرسومة كأننا ننظر إليها من أحد الجانبين — ولكننا في مقابل هذا يروعننا جمال الباشق والأفعى المنقوشين على قبر الملك ونيفيس (٢٠٦) ، ونقوش الملك زوسر الجيرية على هرم سقارة المدرج ، ونقوش الأمير هزبريه الخشبية التي استخرجت من قبره في هذا الموضع نفسه (٢٠٧) ، وصورة اللوبى الجريح المحفورة على قبر من قبور الأسرة الخامسة في أبي صير (٢٠٨) ، وهي دراسة دقيقة لعضلات الجسم المتوترة من شدة الألم . ولا يسعنا أخيراً إلا أن نتأمل في أناة وهدوء النقوش الطويلة التي تقص علينا كيف اجتاح تحتمس الثالث ورمسيس الثانى في حروبهما كل ما اعترض سبيلهما ، وندرك روعة النقوش التي حفرت لسيتى الأولى في العرابة وفي الكرنك ، وندبين ما بلغت من كمال ، ونتبع بعظيم الشوق واللذة النقوش المحفورة على جدران معبد الملكة حتشبسوت في الدير البحرى ، والتي يقص علينا ناقشوها قصة البعثة التي أرسلتها هذه الملكة إلى أرض بنت الجهولة (ولعلها بلاد السومال) . وفي هذه النقوش نرى السفن الطويلة منشورة الشراع تدفعها إلى

(*) سنقصر كلمة النحت في هذا الكتاب على النحت المدور كالتماثيل أما ما كان محفوراً على شيء آخر صوراً كان أو كتابة فسندلج عليه اسم النقوش — البارزة أو الفائرة .



شكل (٢٢) - عاتيل ضخمه لرسمين الثاني لم عاتيل الملوكه فر ترع
 بالحجم الطبيعي في عهد أبي عاتيل

الجنوب مجاديفها المصفوفة وتمتخر المياه المملوءة بحيوان الأخطبوط والحيوانات القشرية وغيرها من دواب البحر ؛ ونرى الأسطول يصل إلى شواطئ بنت ويرحب به شعب البلاد ومليكها ، وهم ذاهلون ولكنهم مفتتنون . ونرى الملاحين يأتون إلى السفن بالآلاف من ضروب المأكولات الشهية ؛ ونقرأ فكاهة العامل الينتى فى قوله : — « إياك أن تزل قدمك أيها الواقف هنا ؛ كن على حذر ! » ثم نصحب السفائن الموقرة بأحمالها وهى عائدة نحو الشمال مملوءة (كما يقول النقش) بعجائب أرض بنت ، من ذهب ، وأخشاب مختلفة الأنواع ، وأدهان للعيون ، وقردة ، وكلاب ، وجلود نمورة ... مما لم يعد به أحد للملك من الملوك منذ بداية العالم . وتخترق السفن القناة العظيمة بين البحر الأحمر والنيل ، ونرى البعثة ترسو سفنها فى أحواض طيبة ، وتفرغ ما فيها من بضائع مختلفة عند قدمى الملكة . ثم نبصر آخر الأمر ، كأنما قد مضى على وصولها بعض الوقت ، كل هذه السلع



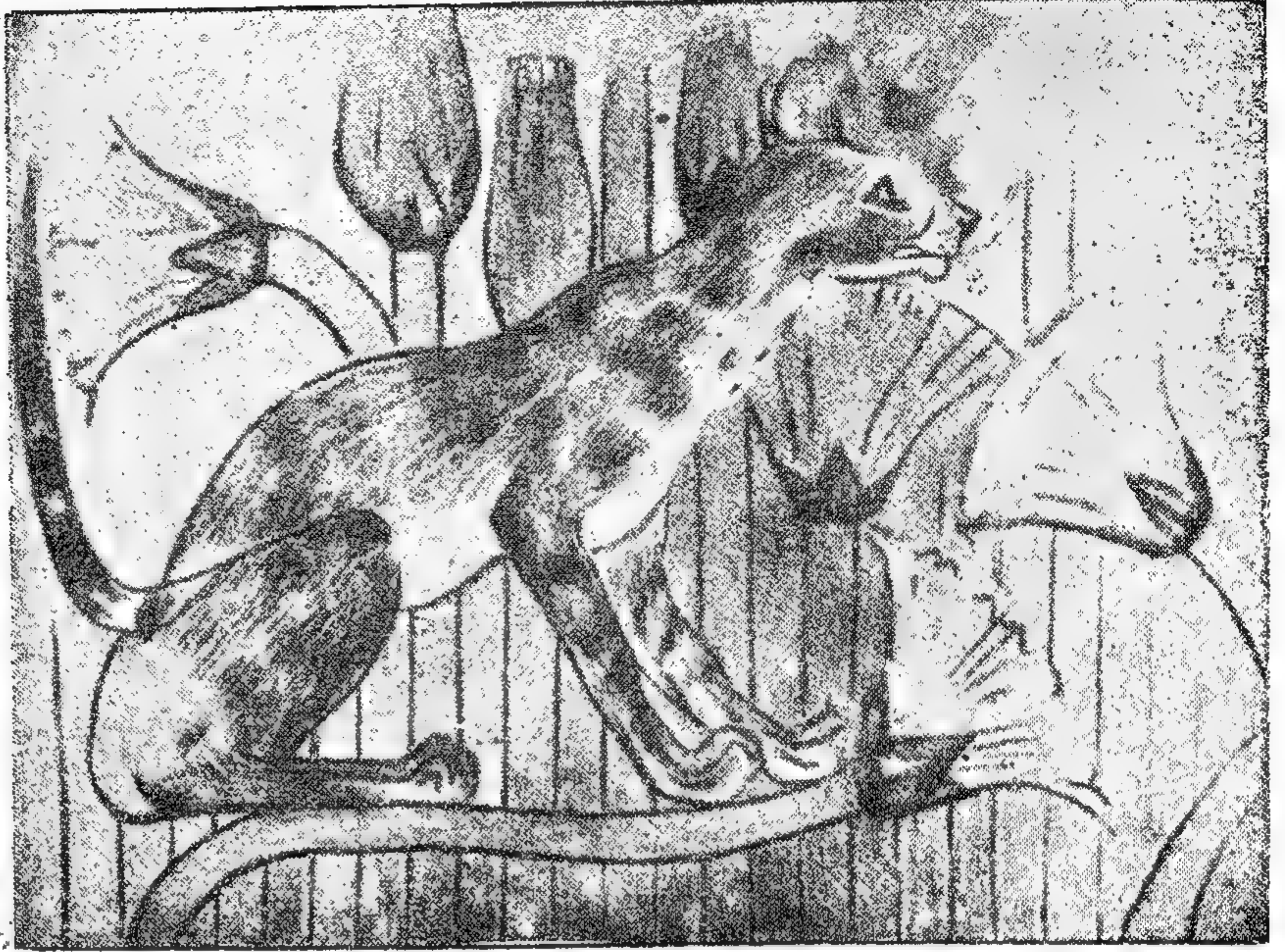
شكل (٢٣) الراقصة
صورة فى متحف تورين بإيطاليا

المستوردة تزين مصر . ففي كل ناحية حلى من ذهب وأبنوس وصناديق عطور وأدهان وأسنان فيلة وجلود حيوان ؛ والأشجار التي جىء بها من بنت وكأنها قد أينعت في أرض مصر كما كانت في بلادها الأصلية حتى كانت الثيران تنفياً ظلال أغصانها . إن هذا النقش بلا ريب لمن أعظم النقوش في تاريخ الفن (٢٠٩) (*) .

والنقش الغائر هو همزة الوصل بين النحت والرسم بالألوان . على أن الرسم الملون لم يرق في مصر إلى منزلة الفن المستقل إلا في عهد البطالمة وبثأثير بلاد اليونان . أما فيما عدا ذلك العهد فقد كان فناً ثانوياً تابعاً لفنون العمارة والنحت والنقش — وكان عمل الرسام هو ملء الخطوط الخارجية التي حفرتها عدد غيره من الفنانين ؛ ولكنه كان رغم منزلته الثانوية واسع الانتشار يراه الإنسان أينما حل . فقد كانت معظم التماثيل تدهن ، والسطوح كلها تلون . ولما كان هذا الفن سريع التأثير بالزمن ينقصه ثبات فن النحت والبناء ، فإننا لا نكاد نجد الآن من الرسوم الملونة التي أخرجها رجال الدولة القديمة إلا صورة رائعة لست إوزات أخرجت من قبر في ميدوم (٢١٠) . ولكننا يحق لنا أن نستنتج من هذه الصورة وحدها أن هذا الفن أيضاً قد بلغ في عصر الأسر الأولى مبلغاً يدنيه من الكمال . فإذا انتقلنا إلى عهد الدولة الوسطى وجدنا رسوماً بالألوان المائية (**) في قبرى أمينى وخنومحوتب ببنى حسن ، وهى تزين القبرين زينة جميلة تبعث في الناظر إليها السرور والبهجة ، كما أن صورة « الظباء والزراع » (٢١١) وصورة « القطة ترقب فريستها » (٢١٢) لتعدان من أروع الأمثلة لهذا الفن . وقد تنبه الفنان في هاتين الصورتين أيضاً إلى العنصر الرئيسى في التصوير ، وهو أن يجعل من

(*) ونرى نموذجاً منقولا عن هذا النقش في الحجرة المصرية الثانية عشرة من حجرات متحف الفنون بمدينة نيويورك .

(**) وكانت الألوان التي ترسم بها هذه الصور تخطط بصغار البيض والفراء المخفف وبياض البيض .



شكل (٢٤) قطة ترقب فريستها
صورة ملونة على جدار قبر خنمحتب في بني حسن

رسومه كائنات حية تتحرك وتعيش . فلما كان عصر الإمبراطورية غصت القبور بالرسوم الملونة ، وكان الفنان المصرى قد توصل إلى صنع كل لون من ألوان الطيف ، وتاقت نفسه إلى أن يظهر للناس حذقه في استخدامها ، فأخذ يحاول تصوير الحياة النشيطة المنتعشة في الحقول المشمسة على جدران المنازل والهياكل والقصور والمقابر وعلى سقوفها كلها ، فصور عليها طيوراً تطير في الهواء ، وسمكا يسبح في الماء ، وحيواناً يعيش في الآجام ، وصورها كلها في بيئاتها التي تعيش فيها . ونقش الأرض لتبدو كأنها برك شفافة ، وحاول أن يجعل السقف تضارع في بهائها ورونقها كواكب السماء ، وأحاط هذه الصور كلها بأشكال هندسية وأخرى مركبة من أوراق الشجر تبتلع من أبسط الرسوم الهادئة إلى أعقدها وأكثرها فتنه^(٢١٣) . « فصورة الفتاة الراقصة »^(٢١٤) وفيها أكبر قسط من قوة.

الابتداع وروح الفن ، و « صيد الطيور في قارب »^(٢١٥) والصورة المرسومة بالمعرة والتي تمثل الفتاة الجميلة الهيفاء العارية بين الموسيقيين في قبر نحت بطيبة^(٢١٦) كل هذه نماذج متفرقة من سكان القبور المصورين . ونلاحظ في هذه الرسوم كما لا حظنا في النقوش الغائرة أن الخطوط جميلة ، ولكن التركيب ضعيف ؛ وأن المشتركين في عمل واحد يمثلون متفرقين^(٢١٧) واحداً بعد واحد وهم الذين يجب أن يمثلوا مختلطين . ونرى الرسام هنا يفضل أن يضع أجزاء الصورة بعضها على بعض بدل أن يراعى في وضعها قواعد المنظور ، على أن الجمود الناشئ عن المحافظة على القواعد الشكلية وعلى التقاليد في فن النحت المصرى كان هو السائد في ذلك الوقت ، ولذلك لا يكشف لنا هذا الفن عن الفكاكة الباعثة على البهجة ، أو عن الواقعية ، وهما الصفتان اللتان يمتاز بهما فن النحت فيما بعد ذلك العصر . ولكن الصور كلها تسرى فيها مع ذلك جدة في التفكير ، ويسر في رسم الخطوط وفي التنفيذ ، وإخلاص الحياة الكائنات الحية وحركاتها ، وغزارة في اللون والزينة تبعث في النفوس البهجة ، وتجعل الصور متعة للعين والروح . وملاك القول أن فن الرسم المصرى — رغم ما فيه من عيوب — لم يسبقه فن مثله في أية حضارة شرقية إلا في عصر الأسر الوسطى في بلاد الصين .

أما الفنون الصغرى فكانت أعظم الفنون في مصر . ذلك أن الخدق والجد اللذين شيدا الكرنك والأهرام ، واللذين ملأ الهياكل بتماثيل الحجارة ، قد انصرفا أيضا إلى تجميل المنازل من داخلها ، وتزيين الأجسام ، وابتكار جميع متع الحياة ونعمها . فالنساجون قد صنعوا الطنافس والقماش المزركش الذى يزين الجدران ، والوسائد الغنية بألوانها والرقيقة في نسجها رقة لا يكاد يصدقها العقل ، وانتقلت الرسوم التي ابتدعوها منهم إلى سوريا ولا تزال منتشرة فيها إلى هذه الأيام . ولقد كشفت مخلفات توت عنخ أمون عما كان عليه أثاث قدماء المصريين من ترف عجيب ، وعما بلغت كل قطعة وكل جزء من قطعه من صقل بديع ، سواء في ذلك

كراسيه المكسوة بالقفزة والذهب البراقين ، والسرر ذات الرسوم الفخمة
والصناعة الدقيقة ، وصناديق الجواهر وعلب المطور الدقيقة الصنع الجميلة النقش ،



شكل (٢٥) كرسي توت. منح آمون
في متحف القاهرة

(١٠ — قصة الحضارة — ج ٢)

والمزهريات التي لا تضارعها إلا مزهريات الصين . وكانت موائدهم تحمل آنية
ثمينة من الفضة والذهب والبرنز ، وكؤوساً من البللور ، وجفاناً براقه من حجر
الديوريت صقلت ورقت حتى كاد الضوء ينفذ من خلال جدرانها الحجرية .
وإن ما اشتملت عليه مخلفات توت عنخ آمون من آنية المرمر ، وما عثر عليه
المنقبون في خرائب بيت أمنحوتب الثالث في طيبة من أقداح على هيئة الإزورد
(اللوطس) ومن طاسات للشراب ، ليدل على ما بلغته صناعة الخزف من مستوى
رفيع . وآخر ما نذكره من هذا جواهر الدولة الوسطى والدولة الحديثة ، وقد كان
لهذين العهدين من الحلى الثمينة الكثيرة ما لا يكاد يفوقه شيء في جمال الشكل
ودقة الصنع . وتشمل الجميع الباقية من تلك الأيام قلائد ، وتيجانا ، وخواتم ،
وأساور ، ومرايا ، وحليات للصدر ، وسلاسل ، ورسائع ، صيغت من الذهب
والفضة والعقيق والفلسبار واللازورد والجست ، وكل ما نعرفه من الحجارة
الكريمة . وكان سراة المصريين كسرة اليابانيين يسرهم جمال ما يحيط بهم
من التحف الصغيرة ، فكان كل مربع صغير من العاج في علب حلهم ينقش
ويزين أجمل زينة وأدقها . لقد كانوا يلبسون أبسط الملابس ، ولكنهم كانوا
ينعمون بأحسن عيشة ، وكانوا إذا فرغوا من عملهم اليومي يتمتعون بأنفسهم بنغمات
الموسيقى الهادئة الشجية على العود^(*) والقيثارة والصلاصل والناي . وكان للهياكل
والقصور فرق من العازفين والمغنين ، وكان من موظفي قصر الملك « مشرف
على الغناء » يقوم بتنظيم العازفين والموسيقيين الذين يسلون الملك . وليس لدينا
ما يدل على وجود علامات موسيقية في مصر ، ولكن هذا قد يكون مجرد
نقص فيما كشف من آثار المصريين . وكان اسنفرو نفر ، ورعمرى بتاح
نابغتي الغناء في أيامهما ، وإنا لتستمتع من خلال القرون الطويلة صوتهما

(*) وكان العود يصنع من عدد قليل من الأوتار تمتد على لوحة ضيقة رنانة . أما
الصلاصل فكانت طائفة من الأقراص الصغيرة تهتز على أسلاك .

وهما يناديان بأنهما كانا « يجيبان كل رغبة من رغبات الملك بغنائهما الشجى » (٢١٨).



شكل (٢٦) رأس نفر تيتي
في متحف الدولة ببرلين

ومن الأمور الشاذة غير المألوفة أن يبقى اسما هذين الفنانين ، وذلك لأن الفنانين الذين خلدوا بجهودهم ذكريات الأمراء والقساوسة والملوك أو ملاحظهم لم يكن لديهم من الوسائل ما ينقلون به ذكرهم إلى من يحيى بعدهم ، وإن كنا نسمع بإمخوتب مهندس عهد زوسر ، وهو رجل يكاد أن يكون اسمه أسطورة من الأساطير القديمة ، ونسمع عن إنيني الذي أعد رسوم المباني العظيمة أمثال معبد الدير البحري لتحتمس الأول ؛ وعن بومير ، وحبوسنب ، وستموت الذين شادوا المباني العظيمة للملكة حتشبسوت^(*) ، وعن الفنان تحتمس الذي كشف في بقايا مرسومه كثير من روائع الفن ، وعن بك المثال الفخور الذي يقول لنا إنه لولاه لعفى على اسم إخناتون الزمان^(١٢٢) . وكان لأمنخوتب الثالث مهندس معمارى يسمى أيضاً أمنخوتب بن حابو . وكان الملك يضع تحت تصرف هذا المهندس الموهوب ثروة يخططها الحصر ، وذاع اسم هذا الفنان الشهير حتى عبدته مصر فيما بعد واتخذته إلهاً من آلهتها . لكن الفنانين على الرغم من هذا كانوا يعملون وهم فقراء مغمورون ، ولم تكن لهم عند القساوسة والكبراء الذين يستخدمونهم مكانة أسمى من مكانة الصانع أو أرباب الحرف العاديين .

وقد تعاون الدين المصرى مع الثروة المصرية على الإيحاد بالفن وإنمائه ، وتعاون مع غنى مصر وضياع إمبراطوريتها على إماتته . لقد كان الدين يقدم للفنانين الحوافز والأفكار ، ويوحى إليهم بروائع فتمهم ، ولكنه فرض عليهم من العرف والقيود ما شده إلى الكنيسة بأقوى الروابط . فلما أن مات بين الفنانين الدين الخالص ، ماتت بموته الفنون التى كانت تعيش على هذا الدين . تلك هى المأساة التى لا تكاد تنجو من شرها أية مدنية — وهى أن روحها فى عقيدتها ، وأن هذه الروح قلما تبقى بعد فناء فلسفتها .

(*) لقد كان ستموت يلقى من ملوكه من ضروب التعظيم ما أنطقه بقوله : « لقد كنت أعظم العظماء فى العالم كله » . وكانت هذه عقيدة شائعة ولكنها لم تكن دائماً ينطق بها .

١٠ — الفلسفة

« تعاليم بتاح حوتب » — « تحذيرات إنبور » —
« محاورات كاره المجتمع » — أسفار الحكمة المصرية

لقد اعتاد مؤرخو الفلسفة أن يبدؤوا قصتهم باليونان ، وإن الهنود الذين يعتقدون أنهم مخترعو الفلسفة ، والصينيين الذين يعتقدون أنهم بلغوا بها حد الكمال ، إن هؤلاء وأولئك يسخرون من ضيق عقولنا وتعصبنا . ولعلنا كلنا مخطئون في ظننا ، لأننا نجد بين أقدم القطع المتناثرة التي خلفها لنا المصريون الأقدمون كتابات تمت بصلة بعيدة إلى الفلسفة الأخلاقية . ولقد كانت حكمة المصريين مضرب المثل عند اليونان الذين كانوا يعتقدون أنهم أطفال بالقياس إلى هذا الشعب القديم^(٢٢٢) . وأقدم ما لدينا من المؤلفات الفلسفية « تعاليم بتاح حوتب » وتاريخه يرجع على ما يبدو لنا إلى عام ٢٨٠٠ ق . م أي إلى ما قبل كنفيووشيوس وسقراط وبوذا بألفي عام وثلاثمائة^(٢٢٣) . وكان بتاح حوتب هذا حاكما على منف وكبير وزراء الملك في أيام الأسرة الخامسة . فلما اعتزل منصبه قرر أن يترك لولده كتابا يحتوي على الحكمة الخالدة . ثم نقل بعض العلماء المصريين قبل عهد الأسرة الثامنة عشرة هذا الكتاب باعتباره من أمهات كتب القدماء . ويقول الوزير في كتابه :
« أي مولاي الأمير ، إن الحياة تقترب من آخرها ، ولقد حل بي الضعف وعدت إلى مرحلة الطفولة الثانية ؛ والمسئ يلاقى البؤس في كل يوم من أيامه . فعيناه صغيرتان ، وأذناه لا تستمعان ؛ ونشاطه يقل ، وقلبه لا يعرف الراحة . . . فمر خادمك إذن أن يخلع سلطاني الواسع على ولدي . واسمح لي أن أحدثه بالفاظ الذين يستمعون إلى رجال الأيام الغابرة ، أولئك الذين استمعوا إلى الآلهة في يوم من الأيام . أتوسل إليك أن تسمح بأن يفعل هذا » .

ويتفضل جلالة الملك فيأذن له ولكنه مع ذلك ينصحه بأن « يتحدث دون

أن يبعث الملل « في نفس سامعيه ، وهي نصيحة ليست إلى الآن عديمة النفع للفلاسفة . فلما أذن له أخذ بتأج حوتب ينصح ولده بقوله :

« لا تزه بنفسك لأنك عالم ، بل تحدث إلى الجاهل كما تتحدث إلى الحكيم ؛ لأن الخدق لا حد له ، كما أن الصانع لا يبلغ حد الكمال في خدق صناعته ؛ والكلام الجميل أندر من الزمرد الذي تعثر عليه بين الحصى ... فمش إذن في بيت اللطف يقبل عليك الناس طائعين ويقدموا لك الهدايا ... واحذر أن تخلق لنفسك الأعداء بأقوالك ... ولا تتخط الحق ، ولا تكرر ما قاله إنسان غيرك ، أميراً كان أو فلاحاً ، ليفتح به قلوب الناس له ، لأن ذلك بغيض إلى النفس ...

« وإذا أردت أن تكون حكيماً ، فليولد لك ولد لتسر بذلك الإله ... فإذا سار في سبيله مقتدياً بك ، وإذا نظم أمورك على أحسن وجه ، فقدم له كل الخير ... أما إذا كان عديم المبالاة ، وخالف قواعد السلوك الطيب ، وكان عنيفاً ؛ وإذا كان كل ما يخرج من فيه هو فحش القول ، فاضربه ، حتى يكون حديثه صالحاً ... وفضيلة الابن من أتمن الأشياء للأب ، وحسن الأخلاق شيء لا ينسى قط ...

« وحيثما ذهبت فاحذر الاتصال بالنساء ... وإذا شئت أن تكون حكيماً فممن بيتك وأحب زوجك التي بين ذراعيك ... واعلم أن السكوت أنفع لك من كثرة الكلام . وفكر في أنك قد يعارضك خبير ممن يتحدثون في المجلس ولذلك كان من السخف أن تتكلم في كل نوع من أنواع العمل ...

« وإذا كنت ذا سلطان فاسع لأن تنال الشرف عن طريق العلم ورقة الطباع ... واحذر أن تقاطع الناس ، وأن تجيب عن الأقوال بحرارة ، أبعد ذلك عنك ، وسيطر على نفسك » .

ويحتم بتأج حوتب نصائح بهذه العبارة المليئة بالفخر والإعجاب :

« لن يمحي من هذه البلاد إلى أبد الدهر لفظ من الألفاظ المدونة هنا ، ولكنها ستبخذ نماذج وسيحدث عنها الأمراء أحسن الحديث ... إن كلماتي ستعلم الرجل كيف يتحدث ؛ ... أجل إنه سيصبح إنساناً حاذقاً في الطاعة بارعاً في الحديث ؛ وسيصبيه الحظ الحسن ؛ ... وسيكون ظريفاً إلى آخر أيام حياته ، وسيكون راضياً على الدوام » (٢٢٤) .

ولكن هذه النعمة السارة المستبشرة لا تدوم في التفكير المصري ؛ بل تسرع إليها الشيخوخة فتداهمها وتحملها إلى نكد وكآبة . ويأتي حكيم آخر هو إيبور فيندب ما في البلاد من خلل واضطراب وعنف وقحط وانحلال يكتنف أخريات أيام الدولة القديمة ، ويتحدث عن المتشككين الذين « يقربون القرابين إذا عرفوا مكان الإله » ، ويعلق على ازدياد حوادث الانتحار ويقول كما قال شوبنهاور من بعده : « ألا ليت الناس يقضى عليهم حتى لا يكون في الأرض حمل ولا ولادة ؛ ألا ليت الأرض ينقطع منها الضجيج ويبطل منها النزاع » — ووضح من هذه الأقوال أن إيبور كان قد شاخ ومل الحياة ، وهو يحلم في آخر أيامه بملك — فيلسوف ينجي الناس من الفوضى والظلم :

« يُبَرِّد لبيب (الحريق الاجتماعي ؟) ويقال إنه راعى الناس جميعاً . قلبه خال من الشر ، فإذا كانت قطعانه قليلة العدد قضى يومه في جمعها ، لأن قلوبها محرومة . ألا ليتته قد تبين أخلاقهم منذ الجيل الأول . إذن لقضى على الشر ، ولد ذراعه لمقاومته ، ولسحق بذرتة وما يخرج منها ... أين هو اليوم ؟ هل هو نائم بالصدفة ؟ انظروا إن قوته لا ترى » (٢٢٥) .

هذه هي أصوات الأنبياء في العهد القديم ؛ وقد صيغت سطورها صياغة الأمثال والحكم ككتابات أنبياء اليهود ؛ ويقول برستد وقوله الحق « إن هذه التحذيرات هي أقدم ما ظهر في العالم من المثل العليا الاجتماعية التي يطلق عليها

عند الغبرانيين اسم المسيحية (٢٢٦) (*). وثمة ملف من أيام الدولة الوسطى يندد بما في ذلك العهد من فساد بعبارات يكاد الإنسان يسمعها في كل جيل :

لمن أتحدث اليوم ؟

الإخوة أشرار

وأصدقاء اليوم ليسوا أصدقاء حب .

لمن أتحدث اليوم ؟

القلوب قلوب لصوص

وكل رجل يقتصب ما عند جاره .

لمن أتحدث اليوم ؟

إن الرجل اللطيف يهلك

والصفيق الوجه يسير في كل مكان ...

لمن أتحدث اليوم ؟

إذا ما أثار الإنسان الغضب بسوء مسلكه

فإنه يدفع كل الناس إلى الضحك ، وإن كان إثمه خبيثاً ...

ثم ينطلق هذا الشاعر المصري الشبيه بالشاعر سونبرن الإنجليزي في مدح

الموت فيقول :

الموت أمانى اليوم

كشفاء الرجل المريض ،

كالخروج إلى حديقة بعد المرض .

الموت أمانى اليوم

كشذا المر ؛

(*) العقيدة القائلة بأن رسولا سيرسل إلى الأرض ليطهرها مما فيها من فساد وظلم .

أو كالجلوس تحت الشراع في يوم عاصف .

الموت أمامي اليوم

كرائحة أزهار الإزورد

كالجلوس على شواطئ الشكر .

الموت أمامي اليوم

كتدفق السيل الجارف ،

كرجوع الرجل من سفينة حربية إلى بيته ...

الموت أمامي اليوم

كاشتياق الرجل إلى رؤية موطنه

بعد أن قضى السنين في الأسر (٢٢٧) .

وأشد من هذا كآبة قصيدة منقوشة على لوحة محفوظة في متحف ليدن

يرجع تاريخها إلى ٢٢٠٠ ق.م ، وهي تضرب على النعمة المألوفة نعمة تمتع بيومك :

لقد سمعت ألفاظ أمحوتب وهارديف

وهي ألفاظ ذائعة الصيت نطقا بها .

انظر إلى مكانيهما

إن جدرانهما قد جردت

ومواضعهما قد اندثرت

كان لم تغن بالأمس .

إن أحدا لا يأتي من هناك

ليحدثنا عما حل بهما ...

حتى يرضى قلوبنا ،

إلى أن يحين وقت ارتحالنا

إلى المكان الذى ذهبنا إليه .
شجع قلبك على نسيانه
واجعل من أسباب سرورك أن تسير وراء رغباتك
ما دمت حياً ترزق .
وضع المر على رأسك ،
والبس على جسمك نسج التيل اللطيف ،
وانعم بوسائل الترف العجيبة
أشياء الآلهة الحقّة .

* * *

وزد فى مباهجتك أكثر من ذى قبل ،
ولا تترك قلبك يذبل ،
وسر وراء رغباتك وما فيه الخير لك ،
وهي "أمورك على ظهر الأرض
حسب ما يأمر به قلبك أنت ،
حتى يأتيك يوم النحيب .
حين لا يسمع ذرو القلوب الساكنة (الموتى) نحيبهم ،
وحين لا يصغى من فى القبور إلى حزنهم
واحتفل بيوم السرور
ولا تمل منه .

انظر ؛ ليس ثمة من يأخذ أمتعته معه .
أجل ، ولا من يعود ممن ذهبوا إلى هناك^(٢٨٢) .

ولعل هذا التشاؤم وهذا التشكك كانا نتيجة لتحطيم روح أمة أخضعها
الفزاة المكسوس وأذلوها ، وشأنهما فى مصر كشأن الرواقية والأبيقورية عند

اليونان المهزومين المستعبدين (*) . وهذه الكتابات تمثل فيما تمثل إحدى الفترات التي يغلب فيها التفكير زمنياً ما على العقيدة ، والتي لا يعرف فيها الناس كيف يعيشون ولم يعيشون ، وهي فترات تتوسط عندنا اليوم عهدين تسود كليهما مبادئ خلقية غير التي تسود العهد الآخر . وتلك الفترات الوسطى لا تدوم ، لأن الأمل سرعان ما يغلب على التفكير ، فتتحط القوة المفكرة إلى مكانها الوضع المألوف ، ويرتفع منار الدين فيوحى إلى الناس بذلك الباعث الخيالي الذي لا غنى لهم عنه في حياتهم وأعمالهم . وليس لنا أن نظن أن هذه القصائد تعبر عن آراء طائفة كبيرة من المصريين ، بل ينبغي أن نعتقد أنه كان من وراء الأقلية الصغيرة النشطة الحية التي كانت تفكر في مسائل الموت والحياة بعبارات دنيوية طبيعية ، نقول إنه كان من وراء هذه الأقلية ملايين من السذج ، رجلاً كانوا أو نساء ، ظلوا أوفياء مخلصين لألهتهم لا يشكون قط في أن الحق سوف يسود ، وأن ما يقاسونه على ظهر الأرض من آلام وأحزان سوف يعوضون عنه بسخاء يوم يستقرون في دار النعيم والسلام .

١١ — الدين

آلهة السماء — آلهة الشمس — آلهة الزرع — الآلهة الحيوانية — آلهة العلاقات الجنسية — الآلهة البشرية — أوزير — إيزيس وحورس — الآلهة الصغرى — الكهنة — عقيدة الخلود — « كتاب الموتى » — « الاعترافات السلبية » — السحر — الفساد .

لقد كان الدين في مصر من فوق كل شيء ومن أسفل منه . فنحن نراه فيها في كل مرحلة من مراحلها وفي كل شكل من أشكاله ، من الطواطم إلى علم اللاهوت . ونرى أثره في الأدب وفي نظام الحكم وفي الفن ، وفي كل شيء عدا الأخلاق . وليس هو مختلف الصور والأنواع فحسب ، بل هو أيضاً عزيز موفور .

(*) ويقول أپوور إن الحرب الأهلية لا تأتي بإيراد (٢٢٩) .

ولسنا نجد في بلد من البلاد ، إذا استثنينا بلاد الرومان والهند ، ما نجده من الآلهة الكثيرة في مصر ، وليس في وسعنا أن ندرس المصري — بل ليس في وسعنا أن ندرس الإنسان على الإطلاق — إلا إذا درسنا آلهته .

يقول المصري إن بداية الخلق هي السماء ؛ وقد ظلت هي والنيل أكبر أربابه إلى آخر أيامه . ولم تكن الأجرام السماوية العجيبة ، في اعتقاده ، مجرد أجرام ، بل كانت هي الصور الخارجية لأرواح عظيمة ، لآلهة ذوات إرادات — لم تكن متفقة على الدوام — توجه حركاتها المختلفة المعقدة^(٢٢٩) ، وكانت السماء قبة تقف في فضاءها الواسع بقرة عظيمة هي الإلهة حتحور والأرض من تحت أقدامها ، و بطنها يكسوه جمال عشرة آلاف نجم ، . وكانت للمصريين عقيدة أخرى (لأن الآلهة والأساطير كانت تختلف من إقليم إلى إقليم) تقول إن السماء هي الإله سيبو النائم في لطف على الأرض ، وهي الإلهة نويت ؛ ومن تزواج الربين المهولين ولدت كل الأشياء^(٢٣٠) . ومن عقائدهم أن الأبراج والنجوم قد تكون آلهة ، من ذلك أن ساحو وسيديت (أى كوكبتى الجبار والشعري) كانا إلهين مهولين ، وأن ساحو كان يأكل الآلهة ثلاث مرات في اليوم بانتظام . وكان يحدث في بعض الأحيان أن إلهًا من هذه الآلهة المهولة يأكل القمر ، ولكن ذلك لن يدوم إلا قليلا ، لأن دعاء الناس وغضب الآلهة الأخرى لا يلبثان أن يضطرا الخنزير النهم إلى أن يتقايأه مرة أخرى^(٢٣١) . وعلى هذا النحو كان عامة المصريين يفسرون خسوف القمر .

وكان القمر إلهًا ولعله كان أقدم ما عبد من الآلهة في مصر ، ولكن الشمس في الدين الرسمي كانت أعظم الآلهة . وكانت تعبد في بعض الأحيان على أنها الإله الأعلى رع أوري الأب اللامع الذي لقح الأم الأرض بأشعة الحرارة والنضوء النافذة . وكانت تصور أحيانا على أنها عجل مقدس يولد مرة في فجر كل يوم ، ويمخر عباب السماء في قارب سماوى ثم ينحدر إلى الغرب في كل مساء كما

ينحدر الشيخ المسن مترنحا إلى قبره ؛ أو أن الشمس كانت هي الإله حورس مصورا في صورة باشق رشيق يطير في عظمة وجلال في السماوات يوما بعد يوم كأنه يشرف من عليائه على مملكته . ولقد أصبح فيما بعد رمزا متواترا من الرموز الدينية والملكية . وكان رع أو الشمس هو الخالق على الدوام ؛ ولما أشرق أول مرة ورأى الأرض صحراء جرداء غمرها بأشعته فبعث فيها النشاط فخرجت من عيونه كل الكائنات الحية من نبات وحيوان وإنسان — مختلطة بعضها ببعض . ولما كان أول من خلق من الرجال والنساء أبناء رع الأدنين فقد كانوا مكملين سعداء . ولكن أبناءهم انحدروا شيئا فشيئا إلى طريق الضلال ، ففسدوا ما كانوا عليه من سعادة وكمال . وغضب رع من أجل ذلك على خلقه ، فأهلك عددا كبيرا من الجنس البشري . على أن العلماء المصريين كانوا يشكون في هذه العقائد الشعبية ويؤكدون (كما كان يؤكد بعض العلماء السومريين) أن الخلائق الأولين كانوا كالبهاثم لا يستطيعون النطق بألفاظ مفهومة ، ولا يعرفون شيئا من فنون الحياة^(٢٣٢) . وقصارى القول أن هذه الأساطير كانت في مجملها أساطير دالة على الذكاء تعبر في تقوى وصلاح عن اعتراف الإنسان بفضل الأرض والشمس . وكانت هذه الروح الدينية غزيرة خصبة بلغ من خصبها أن المصريين لم يعبدوا مصدر الحياة فحسب بل عبدوا مع هذا المصدر كل صورة من صور الحياة . فكانت بعض النباتات مقدسة لديهم ، فالنخلة التي تظلل الناس في قلب الصحراء ، وعين الماء التي تسقيهم في الواحة ، والغیضة التي يلتقون عندها ويستريحون ، والجميزة التي تترعرع ترعرعا عجيبا في الرمال ، كانت هذه عندهم ، لأسباب قوية لا يستطيع أحد أن ينكرها عليهم ، أشياء مقدسة . ولقد ظل المصري الساذج إلى آخر أيام حضارته يقرب إليها قرابين الخیار والعنب والتين^(٢٣٣) . ولم يكن هذا كل شيء بل إن الخضر الوضيعة قد وجدت لها من يعبدها ، حتى لقد أخذ تين Taine يلهو بالتدليل على أن البصل الذي أغضب

بوسويه Bossuet وأحفظه كان من المعبودات على ضفاف النيل^(٢٣٤) .
وكانت الآلهة من الحيوان أكثر ذيوهاً بين المصريين من آلهة النبات .
وكانت هذه الآلهة من الكثرة بحيث غصت بها هياكلها كأنها معرض حيوانات
صاخبة . وعبد المصريون في هذه المقاطعة أو تلك وفي هذا الوقت أو ذاك المعجل
والتمساح والصقر والبقرة والإوزة والغنزة والكبش والقط والكلب والدجاجة
والخطاف وابن آوى والأفعى ؛ وتركوا بعض هذه الدواب تجوس خلال الهياكل
ولها من الحرية ما للبقرة المقدسة في الهند حتى هذه الأيام^(٢٣٥) . ولما تحولت الآلهة
إلى آدميين ظلت محتفظة بصورتها الحيوانية المزدوجة وبرموزها ، فكان أمون
يمثل بإوزة أو بكبش ، ورع يرمز له بصرصور أو بعجل ، وأوزير بعجل أو كبش ،
وسبك بتمساح ، وحورس بصقر أو بازى ، وحتحور ببقرة ، وتحوت إله الحكمة
برباح^(٢٣٦) . وكانت النساء يقدمن أحياناً لهذه الآلهة ليكن زوجات لهن ، وكان
المعجل — وهو الذى يتقمصه أوزير — صاحب هذا الشرف العظيم بنوع
خاص . ويقول فلوتارخ إن أجمل النساء في منديس كنن يقدرن لمضاجعة التيس
المقدس^(٢٣٧) . وقد بقيت هذه الشعائر الدينية من بداية الأمر إلى نهايته عنصراً
أساسياً قومياً في الديانة المصرية . أما الآلهة من بنى الإنسان فقد جاءت إلى مصر
في وقت متأخر كثيراً ، ولعلها جاءت هدايا من غرب آسية^(٢٣٨) .

وكان المصريون يقدسون المعز والمعجل تقديساً خاصاً ويعدونهما رمز القدرة
الجنسية الخالقة . ولم يكونا مجرد رمزين لأوزير بل كانا تجسيدا له^(٢٣٩) . وكثيراً
ما كان أوزير يرسم وأعضاؤه التناسلية كبيرة بارزة دلالة على قوته العظمى ؛ وكان
المصريون في المواقب الدينية يحملون له نماذج بهذه الصورة ، أو أخرى ذات
ثلاثة قضبان . وكان النساء في بعض المناسبات يحملن مثل هذه الصور الذكورية
ويحركنها تحريكاً آلياً بالخيوط^(٢٤٠) . والعبادة الجنسية لا تظهر فقط في الرسوم
الكثيرة التى نراها في نقوش الهياكل ذات قضبان منتصبة ، بل إنا فضلاً عن هذا

نراها كثيراً في الرموز المصرية على هيئة صليب ذي مقبض كان يتخذ رمزاً للاتصال الجنسي وللحياة القوية^(٢٤١).

ثم صار الآلهة في آخر الأمر بشراً — أو بعبارة أصح أصبح البشر آلهة . ولم يكن آلهة مصر من الآدميين إلا رجالاً متفوقين أو نساء متفوقات خلقوا في صور عظيمة باسلة ، ولكنهم خلقوا من عظام وعضلات ولحم ودم ؛ يجمعون ويأكلون ، ويظلمون ويشربون ، ويحبون ويتزوجون ، ويكرهون ويقتلون ، ويشيخون ويموتون^(٢٤٢) ، شأنهم في هذا شأن آلهة اليونان سواء بسواء . من ذلك أن أوزير إله النيل المبارك كان يحتفل بموته ولقبه في كل عام ، وكان يرمز بموته وبعثه لانخفاض النيل وارتفاعه ، ولعلهما كانا يرمزان أيضاً لموات الأرض وحياتها . وكان في مقدور كل مصري في عهد الأسر المتأخرة أن يقص كيف غضب ست (أوسيت) إله الجفاف الخبيث الذي أيبس الزرع بأنفاسه الحارقة ، كيف غضب هذا الإله الخبيث من أوزير (النيل) لأنه يزيد (بفيضه) من خصوبة الأرض ؛ فقتله وحكم بجفافه الجبار في مملكة أوزير . (ويقصدون بهذا أن النهر لم يرتفع ماؤه في سنة من السنين) ، وظل الأمر كذلك حتى قام حورس الباسل ابن إيزيس فغلب ست ونفاه من الأرض . وعاد أوزير بعدئذ إلى الحياة بفضل ما في حب إيزيس من حرارة ، وحكم مصر حكماً صالحاً ، وحرم أكل لحم الآدميين ونشر لواء الحضارة ، ثم صعد إلى السماء ليحكم فيها ويكون إلهاً^(٢٤٣) . وكانت هذه أسطورة ذات معنى عميق ، ذلك بأن التاريخ — كدين الشرق — ثنائي ، فهو سجل للنزاع بين الخلق والدمار ، وبين الخصب والجفاف ، وبين الشباب المتجدد والفناء ، بين الخير والشر ، بين الحياة والموت .

ومن أعمق الأساطير أيضاً أسطورة إيزيس الأم العظمى . ولم تكن إيزيس أخت أوزير وزوجته الوفية فحسب ، بل كانت من بعض الوجوه أجل منه قدراً ، لأنها قهرت الموت بالحب شأنها في ذلك شأن النساء بوجه عام . كذلك لم يكن

فضلها مقصوراً على أرض النهر السوداء التي أخصبها مس أوزير — النيل فأغنت مصر كلها بإنتاجها — لم يكن فضلها مقصوراً على هذه الأرض ، بل كان لها فضل أعظم من هذا وأنفع ، لقد كانت رمز القوة الخالقة الخفية التي أوجدت الأرض وكل ما عليها من الكائنات الحية ، وأوجدت ذلك الحنو الأموى الذى يحيط بالحياة الجديدة حتى يتم نموها مهما كلفها من جهد وعناء . وكانت ترمز فى مصر — كما ترمز كالى ، وإستير ، وسبيل فى آسية ؛ وكما ترمز دمت فى بلاد اليونان ، وسيريز فى رومة — كما ترمز هذه كلها إلى ما للعنصر النسوى من أسبقية وأفضلية واستقلال فى الخلق ، وفى الميراث ، وإلى ما كان للمرأة أول الأمر من زعامة فى حرث الأرض ؛ ذلك أن إيزيس (كما تقول الأسطورة) هى التى عثرت على القمح والشعير حين كانا ينموان نمواً برياً فى أرض مصر ، وكشفت عنهما لأوزير^(٢٤٤) . وكان المصريون يعبدونها عبادة قائمة على الحب والإخلاص ، فصوروا لها صوراً من الجواهر لأنها فى اعتقادهم أم الإله . وكان كهنتها الحليقون ينشدون لها الأناشيد ويسبحون بحمدها فى العشى والإبكار . وكانت صورة قدسية لها تمثلها وهى ترضع فى ريبة طفلها الذى حملت فيه بمعجزة من المعجزات توضع فى معبد ابنها المقدس حورس (إله الشمس) فى منتصف فصل الشتاء من كل عام ، أى فى الوقت الذى يتفق ومولد الشمس السنوى فى أواخر شهر ديسمبر . ولقد كان لهذه الأساطير والرموز الشعرية الفلسفية أعمق الأثر فى الطقوس المسيحية وفى الدين المسيحى ، حتى أن المسيحيين الأولين كانوا أحياناً يصلون أمام تمثال إيزيس الذى يصورها وهى ترضع طفلها حورس ، وكانوا يرون فىهما صورة أخرى للأسطورة القديمة النبيلة أسطورة المرأة (أى العنصر النسوى) الخالقة لكل شئ ، والتى تصبح آخر الأمر أم الإله^(٢٤٥) .

وكانت هذه الآلهة — رع (أو أمون كما كان يسميه أهل الجنوب) وأوزير ، وإيزيس وحورس — أعظم أرباب مصر . ولما تقادم العهد امتزج رع

وآمون وإله آخر هو فتاح فأصبحت ثلاث صور أو مظاهر لإله واحد أعلى يجمعها هي الثلاثة^(٢٤٦). وكان للمصريين عدد لا يحصى من صغار الآلهة منها أنوبيس ابن آوى ، وشو ، وتفنوت ، ونفثيس ، وكث ، ووث ؛ ... ولكننا لا نريد أن نجعل من هذه الصحف متحفاً للآلهة الأموات . إن الملك نفسه كان إلهاً في مصر وكان على الدوام ابن آمون — رع لا يحكم مصر بحقه الإلهي فحسب بل يحكمها أيضاً بحق مولده الإلهي ، فهو إله رضى أن تكون الأرض موطناً له إلى حين .

وكان يرسم على رأسه الصقر رمز حورس وشعار القبيلة ، وتعلو جبهته الأفعى رمز الحكمة والحياة وواهبه القوى السحرية للبتاح^(٢٤٧) ، وكان الملك هو الرئيس الديني الأعلى يرأس الموابك والحفلات العظيمة التي تمجد أعياد الآلهة . وبفضل هذه الدعاوى ، دعاوى قدسية المولد وقدسية للسلطان ، استطاع الملوك أن يحكموا حكمهم الطويل غير مستندين فيه إلا إلى قوات ضئيلة .

ومن أجل هذا كان الكهنة في مصر دعامة العرش كما كانوا هم الشرطة السرية القوام على النظام الاجتماعي . وتطلب هذا الدين الكثير التبعيد أن تقوم عليه طبقة بارعة في فنون السحر والطقوس الدينية لا يمكن الاستغناء عن قدرتها وبراعتها في الوصول إلى الآلهة . وكان منصب الكاهن ينتقل في الواقع إن لم يكن بحكم القانون ، من الأب إلى الابن ، ومن ثم نشأت طبقة أصبحت على مر الزمن بفضل تقوى الشعب وكرم الملوك السياسي أعظم ثراء وأقوى سلطاناً من أمراء الإقطاع ومن الأسرة المالكة نفسها . وكان الكهنة يحصلون على طعامهم وشرابهم من القرابين التي تقدم للآلهة ، كما كانت لهم موارد عظيمة من إيرادات أطيان الهياكل ، ومن صلواتهم وخدماتهم الدينية . وإذا كانوا معفين من الضرائب التي تجبى من سائر الناس ومن السخرة والخدمة العسكرية فقد كان لهم

من المكانة والسلطان ما يحسدهم عليه سائر الطبقات . والحق أنهم كانوا جديرين بقسط وافر من هذا السلطان لأنهم هم الذين جمعوا علوم مصر واحتفظوا بها ، وهم الذين علموا الشعب وفرضوا على أنفسهم نظاماً دقيقاً قوامه القوة والغيرة . وقد وصفهم هيرودوت وصفاً يكاد يشعرنا بأنه كان يهابهم ويرهبهم قال :

« وهم أكثر الناس اهتماماً بعبادة الآلهة ، ولا يتحللون قط من المراسم الآتية ؛ .. يلبسون ثياباً من نسيج الكتان نظيفة حديثة الغسل على الدوام .. ويختتنون حرصاً منهم على النظافة لأنهم يعتقدون أن النظافة أفضل من الجمال ، ويحلقون شعر أجسامهم بأجمعه مرة في كل ثلاثة أيام ، حتى لا يجد القمل أو غيره من الأقدار مكاناً في أجسامهم .. وهم يغتسلون بالماء البارد مرتين في النهار ومرتين في الليل ^(٢٤٨) » . .

وكان أهم ما يميز هذا الدين توكيده فكرة الخلود . فالمصريون يعتقدون أنه إذا أمكن أن يحيا أوزير النيل ، ويحيا النبات كله ، بعد موتهما ، فإن في مقدور الإنسان أيضاً أن يعود إلى الحياة بعد موته ، وكان بقاء أجسام الموتى سليمة بصورة تسترعى النظر في أرض مصر الجافة مما ساعد على إثبات هذه العقيدة التي ظلت مهيمنة على الديانة المصرية آلاف السنين ، والتي انتقلت منهم إلى الدين المسيحي ^(٢٤٩) . لقد كان المصريون يعتقدون أن الجسم تسكنه صورة أخرى مصغرة منه تسمى القرينة — الكا — كما تسكنه أيضاً روح تقيم فيه إقامة الطائر الذي يرفرف بين الأشجار . وهذه الثلاثة مجتمعة — الجسم والقرينة والروح — تبقى بعد ظاهرة الموت ، وكان في استطاعتها أن تنجو منه وقتاً يطول أو يقصر بقدر ما يحتفظون بالجسم سليماً من البلى ؛ ولكنهم إذا جاءوا إلى أوزير مبرئين من جميع الذنوب سمح لهم أن يعيشوا مخلدين في « حقل الفيضان السعيد » — أى في الحدائق السماوية حيث توجد الوفرة والأمن على الدوام . وفي وسع الإنسان

أن يحكم على ما كان عليه من يعللون أنفسهم بهذه الآمال من فقر ونكد . إلا أن هذه الحقول الفردوسية لا يمكن الوصول إليها إلا باستخدام صاحب المعبر الذي كان المصريين كما كان شارون ؛ ولم يكن هذا الشيخ الطاعن في السن يقبل في قاربه إلا الرجال والنساء الذين لم يرتكبوا في حياتهم ذنباً ما ، وكان أوزير يحاسب الموتى ويزن قلب كل من يريد الركوب في كفة ميزان تقابله في الكفة الأخرى ريشة ليتأكد بذلك من صدق قوله . والذين لا ينجحون في هذا الاختبار في النهاية يحكم عليهم بأن يبقوا أبد الدهر في قبورهم يجوعون ويظمئون ، ويطعمون من التماسيح البشعة ، ولا يخرجون منها أبداً ليروا الشمس .

وكان الكهنة يقولون إن ثمة طرقاً ماهرة لاجتياز هذه الاختبارات ، وكانوا على استعداد لتعريف الناس بهذه الطرق نظير ثمن يؤدونه لهم . ومن هذه الطرق أن يهيا القبر بما يحتاجه الميت لغذائه من الطعام والشراب ، وبمن يستطيع الاستعانة بهم من الخدم . ومن تلك الطرق أيضاً أن يملأ القبر بالطلاسم التي تحبها الآلهة : من أسماك ، ونسور ، وأفاعي ، وبما هو خير من هذه كلها وهو الجعران — والجعارين ضرب من الخنافس كانت في رأيهم رمزاً لبعث الروح لأنها تقولد كما كان يبدو لهم بعملية التلقيح . فإذا ما بارك الكاهن هذه الأشياء حسب الطقوس الصحيحة أخافت كل معتد على الميت وقضت على كل شر . وكان خيراً من هذه وتلك أن يشتري كتاب الموتى (*) ، وهو قراطيس ملفوفة أودع فيها

(*) ذلك اسم حديث أطلقه ليسيوس على نحو ألني ملف من ورق البردي وجدت في عدة قبور ، وتمتاز عن غيرها من الأوراق باحتوائها صيغاً لإرشاد الموتى . واسمها المصري هو : الخروج (من الموت) بالنهار . ويرجع تاريخها إلى عهد الأهرام ، ولكن بعضها أقدم منها . ويعتقد المصريون الأقدمون أن هذه النصوص من تأليف تحوت إله الحكمة . وقد جاء في الفصل الرابع والخمسين منها أن هذا الكتاب قد عثر عليه في عين شمس وأنه كان « بخط الإله نفسه » (٢٥٠) . ولقد عثر يوشيا على ما يشبه هذا الكتاب بين اليهود (انظر الفصل الخامس من الباب الثاني عشر من هذا الكتاب) .

الكهنة أدعية وصلوات وصيغاً وتعاويز من شأنها أن تهدى من غضب أوزير ،
بل أن تخدعه . فإذا ما وصلت روح الميت إلى أوزير بعد أن تجتاز العدد الكبير
من الصعاب والأخطار ، خاطبت القاضي الأكبر بما يشبه هذه الأقوال :

أيا من يعجل سير جناح الزمان ،
يا من يسكن في كل خفايا الحياة ،
يا من يحصى كل كلمة أنطق بها —
انظر إنك تستحي مني ، وأنا ولدك ؛
وقلبك مغمم بالحزن والحجل ،
لأنني ارتكبت في العالم من الذنوب ما يفعم القلب حزناً ،
وقد تماديت في شروري واعتدائي .
ألا فسالني ، ألا فسالني ،
وحطم الحواجز القائمة بينك وبينى !
وسر بأن تمحى كل ذنوبي وتسقط
منسية عن يمينك وشمالك !
أجل امح كل شروري
وامح العار الذي يملأ قلبي
حتى نكون أنت وأنا من هذه اللحظة في سلام (٢٥١)

ومن الطرق الأخرى أن تعلن الروح براءتها من الذنوب الكبرى في صورة
« اعتراف سلبى » . وهذا الاعتراف من أقدم وأنبى ما عبر به الإنسان عن مبادئه
الأخلاقية :

« سلام عليك ، أيها الإله الأعظم ، رب الصدق والعدالة ! لقد وقفت
أمامك ، يارب ؛ وجيء بنى لى أشاهد ما لديك من جمال ... أحمل إليك

الصدق ... إني لم أظلم الناس ... لم أظلم الفقراء ... لم أفرض على رجل حر عملاً أكثر مما فرضه هو على نفسه ... لم أهمل ، ولم أرتكب ما تبغضه الآلهة ... ولم أكن سبباً في أن يسيء السيد معاملة عبده ؛ ولم أمت إنساناً من الجوع ؛ ولم أبك أحداً ولم أقتل إنساناً ... ولم أخن أحداً ... ولم أنقص شيئاً من مؤونة الهيكل ، ولم أتلف خبز الآلهة ... ولم أرتكب عملاً شهوانياً داخل أسوار المعبد المقدسة ... ولم أكفر بالآلهة ... ولم أغش في الميزان ... ولم أنتزع اللبن من أفواه الرضع ... ولم أصطد بالشباك طيور الآلهة ... أنا طاهر ، أنا طاهر ، أنا طاهر» (٢٥٢).

على أن الدين المصري لم يكن فيه ما يقوله عن الأخلاق إلا الشيء القليل ؛ ذلك أن الكهنة قد صرفوا كل همهم إلى بيع الرقي ، وغمغمة العزائم ، وأداء المراسم والطقوس السحرية ، فلم يجدوا متسعاً من الوقت لتعليم الناس المبادئ الخلقية . بل إن كتاب قصة الموتى نفسه ليعلم المؤمنين أن الرقي التي باركها الكهنة تتغلب على جميع ما عساه أن يعترض روح الميت من صعاب في طريقها إلى دار السلام ؛ وأهم ما يؤكد هذا الكتاب هو تلاوة الأدعية لا الحياة الطيبة الصالحة . وقد جاء في أحد هذه الملفات : « إذا ما عرف الميت هذا خرج في النهار » أي حيي الحياة الخالدة . ووضعت صيغ التماس والرقى وبيعت لتخلص الناس من كثير من الذنوب ، وتضمن للشيطان نفسه دخول الجنة . وكان من واجب المصري التقى أن يتلو في كل خطوة من خطواته صيغاً عجيبة يتقى بها الشر ويستنزل بها الخير . استمع مثلاً إلى ما تقوله أم والهة تريد أن تبعد « الشياطين » عن طفلها :

« أخرج يا من تأتي في الظلام ، وتدخل خلصة ... هل أتيت لتقبل هذا الطفل ؟ لن أسمح لك بتقبيله ... هل أتيت لتأخذه ؟ لن أسمح لك بأخذه مني . لقد حصنته منك بعشب — إفيت الذي يؤملك ؛ وبالبصل الذي يؤذك ؛ وبالشهد الذي هو حلو المذاق للأحياء ومر في فم الأموات ؛ وبالأجزاء الخبيثة من سمك الإيدو ، وبالسلسلة الفقيرية من سمك النهر» (٢٥٣) .

وكانت الآلهة نفسها تستخدم السحر والرقى ليؤذى بعضها بعضاً . وأدب
مصر القديم نفسه يفيض بذكر السحرة — السحرة الذين يحفون البحيرات بكلمة
ينطقون بها ، أو يجعلون الأطراف المقطوعة تقفز إلى أما كنها ، أو يحيون
الموتى^(٢٥٤) . وكان للملك سحرة يعينونه ويرشدونه ؛ وكان الاعتقاد السائد أن
له هو نفسه قوة سحرية ينزل بها المطر ، أو يرفع بها الماء في النهر^(٢٥٥) . وكانت
الحياة مملوءة بالطلاسم والعزائم ، والرجم بالغيب ؛ وكان لا بد لكل باب من إله
يخيف الأرواح الخبيثة ، أو يطرد ما عساه يقترب منه من أسباب الشؤم ؛ وكانوا
يعتقدون اعتقاداً ثابتاً أن الأطفال الذين يولدون في اليوم الثالث والعشرين من
شهر توت سيموتون لا محالة وهم صغار ، وأن الذين يولدون في اليوم العشرين من
شهر شرباخ سيفقدون أبصارهم في مستقبل أيامهم^(٢٥٦) . ويقول هيرودوت إن
كل يوم وكل شهر مخصص لإله من الآلهة ، وإن المصريين كانوا يعينون ما سوف
يقع لكل شخص منهم في حياته حسب اليوم الذي ولد فيه ، فيعرفون كيف
يموت ، وماذا سيكون في مستقبل أيامه^(٢٥٧) . ونسى الناس على مر الزمن ما بين
الدين والأخلاق من صلات فلم تكن الحياة الصالحة هي السبيل إلى السعادة
الأبدية ، بل كانت السبيل إليها هي السحر والطقوس وإكرام الكهنة . وإلى
القارى ما يقوله في هذا عالم كبير من علماء الآثار المصرية :

« ومن ثم تضاعفت الأخطار التي تكتنف الدار الآخرة ، وكان في وسع
الكاهن أن يمد الموتى في كل موقف من المواقف الخطرة برقية قوية تنقذه منه
لا محالة . وكان لديهم ، فضلاً عن الرقى الكثيرة التي يستطيع بها الموتى أن يصلوا
إلى الدار الآخرة ، رقى أخرى تمنع الميت أن يفقدفه أو رأسه أو قلبه ، ورقى غيرها
يستطيع بها أن يذكر اسمه ، وأن يتنفس ، ويأكل ويشرب ويتقي أكل
فضلاته ، ومنها ما يمنع الماء الذي يشربه أن يستحيل لهباً ، ومنها ما يحيل الظلام
نوراً ، ومنها ما يرد عنه الأفاعى وغيرها من الهولاء المعادية ، وما إلى ذلك ...

وهكذا فوجئنا بانقطاع أسباب التدرج في نمو المبادئ الأخلاقية التي نستطيع
تبينها في الشرق القديم أو على الأقل بوقف هذا النمو إلى حين . ويرجع هذا إلى
الأساليب البغيضة التي لجأت إليها طائفة فاسدة من الكهنة حريصة كل
الحرص على الكسب من أهون سبيل « (٢٥٨) .

تلك كانت حال الدين في مصر حين ارتقى العرش إخناتون الشاعر المارق
وأجج نار الثورة الدينية التي قضت على الإمبراطورية المصرية .

الفصل الرابع

الملك المارق

أخلاق إخناتون — الدين الجديد — ترنيمة الشمس — التوحيد —
المقيدة الجديدة — الفن الجديد — الارتكاس — نقرتيتي —
تفكك الإمبراطورية — موت إخناتون

في عام ١٣٨٠ ق . م مات أمنحوتب الثالث الذى خلف تحتمس الثالث على عرش مصر ، بعد حياة حافلة بالعظمة والنعم الدنيوى ، وخلفه ابنه أمنحوتب الرابع الذى شاءت الأقدار أن يعرف باسم إخناتون . ولدينا تمثال نصفى لهذا الملك واضح المعارف ، عثر عليه فى تل العمارنة ، ومنه نحكم بأنه كان شخصاً نحيل الجسم إلى حد لا يكاد يصدقه العقل ، ذا وجه نسائى فى رقبته ، شاعرى فى أحاسيسه . وكانت له جفون كبيرة كجفون الحالمين الخياليين ، وجمجمة طويلة شوهاء ، وجسم نحيل ضعيف . وملاك القول أنه كان شاعراً شاءت الأقدار أن يجعل منه ملكاً .

ولم يكد يتولى الملك حتى ثار على دين أمون وعلى الأساليب التى يتبعها كهنته . فقد كان فى الهيكل العظيم بالكرنك طاقة كبيرة من النساء يتخذن سرارى لأمون فى الظاهر ، وليستمتع بهن الكهنة فى الحقيقة^(٢٥٨) .

وكان الملك الشاب فى حياته الخاصة مثالا للطهر والأمانة ، فلم يرضه هذا العهر المقدس ؛ وكانت رائحة دم الكباش الذى يقدم قرباناً لأمون كريهة نتنة فى خياشيمه كما كان أتجار الكهنة فى السحر والرقى ، واستخدامهم نبوءات أمون للضغط على الأفكار باسم الدين ، ولنشر الفساد السياسى^(٢٥٩) ، مما تعافه نفسه ، فثار على ذلك كله ثورة عنيفة ، وقال فى هذا : « إن أقوال الكهنة لأشد إثمًا من

كل ما سمعت حتى السنة الرابعة (من حكمه) ؛ وهي أشد إثماً مما سمعه الملك
أمنحوتب الثالث^(٢٦٠) « ، وثارت روحه الفتيية على الفساد الذى تدهور إليه دين
شعبه ، وكره المال الحرام والمراسم المترفة التى كانت تملأ الهياكل ، وأحفظه ما كان
لطائفة الكهنة المرتزقة من سيطرة على حياة الأمة . ثار الرجل على هذا كله ثورة
الشعراء ، فلم يقبل تراضيا ولم يقنع بأنصاف الحلول ، وأعلن فى شجاعة أن هاتيك
الآلهة وجميع ما فى الدين من احتفالات وطقوس كلها وثنية منحطة ، وأن ليس
للعالم إلا إله واحد هو — آتون .

ورأى إخناتون — كما رأى أكبر فى الهند من بعده بثلاثين قرناً — أن
اللوهية أكبر ما تكون فى الشمس مصدر الضوء وكل ما على الأرض من حياة .
ولسنا نعلم هل أخذ نظريته هذه عن بلاد الشام ، أو ابتدعها من عنده وهل كان
آتون مجرد صورة أخرى لأدنيس . وأياً كان أصل هذا الإله فقد ملأ نفس الملك
بهجة وسروراً ، فاستبدل باسمه الأول أمنحوتب المحتوى على لفظ أمون اسم إخناتون
ومعناه « آتون راض » ، واستعان ببعض الترانيم القديمة ، وبعض
قصائد فى التوحيد — نشرت فى أيام سلفه^(*) — فألف أغاني حماسية فى مدح
أتون ، أحسنها وأطولها جميعاً القصيدة الآتية . وهى أجمل ما بقى لدينا من الأدب
المصرى القديم :

ما أجمل مطلعك فى أفق السماء !

أى آتون الحى ، مبدأ الحياة ؛

فإذا ما أشرقت فى الأفق الشرقى

ملأت الأرض كلها بمجالك .

(*) فى أيام أمنحوتب الثالث نقش المهندس سوتى وحوور نشيدا توحيديا للشمس على
لوحة محفوظة الآن فى المتحف البريطانى^(٢٦١) . وقد كانت العادة المتبعة فى مصر من زمن طويل
أن يخاطب إله الشمس أمون — رع باسم أعظم الآلهة^(٢٦٢) ، ولكنه لم يكن فى اعتقادهم
إلا إله مصر وحدها .

إنك جميل ، عظيم ، براق ، عال فوق كل الرؤوس ،
أشعتك تحيط بالأرض ، بل بكل ما صنعت ،
إنك أنت ربي ، وأنت تسوقها كلها أسيرة ؛
وإنك لتربطها جميعاً برباط حبك .
ومهما بعدت فإن أشعتك تغمر الأرض ؛
ومهما علوت ، فإن آثار قدميك هي النهار .
وإذا ما غربت في أفق السماء الغربي
خيم على الأرض ظلام كالموت ،
ونام الناس في حجراتهم ،
وعصبت رؤوسهم ،
وسدت خياشيمهم ،
ولم ير واحد منهم الآخر ،
وسُرق كل متاعهم ،
الذي تحت رؤوسهم ،
ولم يعرفوا هم هذا .
وخرج كل أسد من عرينه
ولدغت الأفاعي كلها ...
وسكن العالم بأجمعه
لأن الذي صنعها يستريح في أفق سمائه .
ما أبهى الأرض حين تشرق في الأفق ،
وحين تضيء يا أتون بالنهار
تدفع أمامك الظلام .
وإذا ما أرسلت أشعتك

أضحت الأرضان في أعياد يومية ،
واستيقظ كل من عليهما ووقفوا على أقدامهم
حين رفعتهم .
فإذا غسلوا أجسامهم ، لبسوا ملابسهم ،
ورفعوا أيديهم يمجدون طلوعك ،
وأخذوا في جميع أنحاء العالم يؤدون أعمالهم ،
واستراحت الأنعام كلها في مراعيها ،
وازدهر الشجر والنبات ،
ورفرت الطيور في مناقعها ،
وأجنتها مرفوعة تسبح بحمدك .
ورقصت كل الأغنام وهي واقفة على أرجلها ،
وطار كل ذى جناحين ،
كلها تحيا إذا ما أشرقت عليها ،
وأقلعت السفائن صاعدة ونازلة ،
وتفتحت كل الطرق لأنك قد طلعت .
وإن السمك في النهر ليقفز أمامك ،
وإن أشعتك لفي وسط البحر العظيم الأخضر ،
يا خالق الجرثومة في المرأة ،
ويا صانع النطفة في الرجل ،
ويا واهب الحياة للابن في جسم أمه ،
ويا من يهدئه فلا يبكي ،
ويا من يغذيه حتى وهو في الرحم ،
ويا واهب الأنفاس ، يا من ينعش كل من يصنعه !

وحين يخرج من الجسم ... في يوم مولده
تفتح أنت فاه لينطق ،
وتمده بحاجاته .

والفرخ حين يزقزق في البيضة
تهبه النفس فيها لتحفظ له حياته
فإذا ما وصلت به ،
إلى النقطة التي عندها تكسر البيضة
خرج من البيضة ،
ليغرد بكل ما فيه من قوة
ويمشي على قدميه
ساعة يخرج منها ،
ألا ما أكثر أعمالك
الخافية علينا .

أيها الإله الأوحد الذي ليس لغيره سلطان كسلطانه ،
يا من خلقت الأرض كما يهوى قلبك
حين كنت وحيدا :
إن الناس والأنعام كبيرها وصغيرها ،
وكل ما على الأرض من دابة ،
وكل ما يمشي على قدمين ،
وكل ما هو في العلا
ويطير بجناحيه ،

والبلاد الأجنبية من سوريا إلى كوش
وأرض مصر ،
إنك تضع كل إنسان في موضعه

وتقدم بحاجاتهم ...
أنت موجد النيل في العالم السفلى ،
وأنت تأتي به كما تحب
لتحفظ حياة الناس ...
ألا ما أعظم تدبيرك
يا رب الأبدية !
إن في السماء نيلاً للغرباء
ولما يمشى على قدميه من أنعام كل البلاد .
إن أشعته تغذى كل الحقائق ،
فإذا ما أشرقت سرت فيها الحياة ،
فأنت الذى تنميتها ،
أنت موجد الفصول
لكى تخلق كل أعمالك :
خلقت الشتاء لتأتى إليها بالبرد ،
وخلقت الحرارة لكى تتذوقك .
وأنشأت السماء البعيدة ، وأشرقت فيها
لتبصر كل ما صنعت ،
أنت وحدك تسطع فى صورة أتون الحى .
تطلع ، وتسطع ، وتبتعد ، وتعود ،
إنك تصنع آلاف الأشكال
منك أنت وحدك ؛
من مدائن ، وبلاد ، وقبائل ؛
وطرق كبرى وأنهار .

كل الأعين تراك أمامها ،
لأنك أنت أتون النهار فوق الأرض ...

* * *

إنك في قلبي
وما من أحد يعرفك
إلا ابنك إخناتون .
لقد جعلته حكيما
بتدبيرك وقوتك .
إن العالم في يدك
بالصورة التي خلقتة عليها ،
فإذا أشرقت دبت فيه الحياة
وإذا غربت مات ؛
لأنك أنت نفسك طول الحياة
والناس يستمدون الحياة منك ،
مادامت عيونهم تتطلع إلى سنائك
حتى تغيب .

فتتوقف كل الأعمال
حين تتوارى في المغرب ...

* * *

أنت أوجدت العالم ؛
وأقمت كل ما فيه لابنك ...
إخناتون ، ذى العمر المديد ؛
ولزوجه الملكية الكبرى ، محبوبته ،

سيدة القطرين

نفر — تفرو — أتون ، نفرتيتي ،

الباقية المزدهرة أبد الآبدين (٢٦٣) .

ولست هذه القصيدة من أولى قصائد التاريخ الكبرى فحسب ، بل هي فوق ذلك أول شرح بليغ لعقيدة التوحيد ، فقد قيلت قبل أن يجيء إشعيا بسبعائة عام (*) كاملة . ولعل عقيدة التوحيد هذه كانت صدى لوحدة عالم البحر الأبيض المتوسط تحت حكم مصر في عهد تحتمس الثالث ، كما يقول برستد (٢٦٥) . ويرى إخناتون أن إلهه رب الأمم كلها ، بل إنه في مديحه ليذكر قبل مصر غيرها من البلاد التي يوليها الإله عنايته . ألا ما أعظم الفرق بين هذا وبين العهد القديم عهد آلهة القبائل ! ثم انظر إلى ما في القصيدة من مذهب حيوى : إن أتون لا يوجد في الوقائع والانتصارات الحربية ، بل يوجد في الأزهار والأشجار وفي جميع صور الحياة والنماء ؛ وأتون هو الفرحة التي تجعل الخراف الصغرى « ترقص فوق أرجلها » والطير « ترفرف في مناقعها » .

وليس الإله إنساناً في صورة البشر دون غيرها من الصور ، بل إن هذا الإله المحو هو خالق حرارة الشمس ومغذيها ؛ وليس ما في الكرة المشرقة والآلة من مجد ملتهب إلا رمزاً للقدرة الغائية . على أن هذه الشمس نفسها تصبح في نظر إخناتون « رب الحب » لما لها من قدرة شاملة مخصبة مباركة ؛ وهي فوق ذلك المرضع الحنون التي « تخلق في المرأة الطفل — الرجل » والتي « تملأ قطري مصر بالحب » . وهكذا يصبح أتون آخر الأمر رمزاً للأبوة الجزعة القلقة الرحيمة الرقيقة القلب ؛ ولم يكن كيهوه ، رب الجيوش ، بل كان رب الرحمة والسلام (٢٦٦) .

(*) إن ما بين هذه القصيدة وبين الزمور الرابع بعد المائة من تشابه يغفل عنه الناس لا يترك مجالاً للشك فيما كان لمصر من أثر في الشاعر العبراني (٢٦٤)

ومن مآسى التاريخ أن إختاتون بعد أن حقق حلمه العظيم حلم الوحدةانية العامة التى سمت بالبشرية إلى الدرجات العلى لم يترك ما فى دينه الجديد من صفات نبيلة يسرى فى قلوب الناس ويستميلها إليه على مهل ، بل عجز عن أن يفكر فى الحقائق التى جاء بها تفكيراً يتناسب مع الواقع . لقد خال أن كل دين وكل عبادة عدا عقيدته وعبادته فحش وضلال لا يطاق . فأصدر أمره على حين غفلة بأن تمحى من جميع النقوش العامة أسماء الآلهة كلها إلا اسم أتون ، وشوه اسم أبيه بأن محا كلمة أمون من مئات الآثار ، وحرم كل دين غير دينه ، وأمر أن تغلق جميع الهياكل القديمة . وغادر طيبة لأنها مدينة نجسة ، وأنشأ له عاصمة جديدة جميلة فى إختاتون « مدينة أفق أتون » .

وما لبثت طيبة أن تدهورت بعد أن أخرجت منها دور الحكومة — وخسرت رواتب الموظفين ، وأضحت إختاتون حاضرة غنية أقيمت فيها المباني الجديدة — ونهض الفن بعد أن تحرر من أغلال الكهنة والتقاليد . ولقد كشف سيروليم فلندرز بىترى فى تل العمارنة — وهى قرية حديثة أنشئت فى موقع إختاتون القديمة — طواراً جميلاً تزيينه صور الطيور ، والسمك وغيرها من الحيوانات ، رسمت كلها أدق رسم وأجمله^(٢٦٧) . ولم يفرض إختاتون على الفن قيوداً بل كل ما فعله من هذا القبيل أن حرم على الفنانين أن يرسموا صوراً لأتون ، لأن الإله الحق فى اعتقاده لا صورة له ، وما أسمى هذه من عقيدة^(٢٦٨) . ثم ترك الفن بعدئذ حراً طليقاً ، عدا شيئاً واحداً آخر ، وهو أنه طلب إلى فنانيه : بك ، وأوتا ونتموز ، أن يمثلوا الأشياء كما يرونها ، وأن يغفلوا العرف الذى جرى عليه الكهنة . وصدع هؤلاء بأمره ، وصوروه هو نفسه فى صورة شاب ذى وجه ظريف رقيق رقة تكاد تبلغ حد الوجل ، ورأس مستطيل مسرف فى الطول . واسترشدوا فى تصويرهم بعقيدته الحيوية فى إلهه ، فصوروا كل الكائنات الحية نباتية كانت أو حيوانية فى تفصيل ينم عن حب وعطف عظيمين ، ودقة لا تسمو عليها دقة

في أى مكان أو زمان^(٣٦٩) . وكان من أثر هذا أن ازدهر الفن أعظم ازدهار لأن الفن في جميع العصور يحس بالآلام المسغبة والقتام .

ولو أن إخناتون كان ذا عقل ناضج لأدرك أن ما يريد من خروج على تعدد الآلهة القديم المتأصل في عادات الناس وحاجاتهم ، إلى واحدانية فطرية تخضع الخيال للعقل ، لأدرك أن هذا تغيير أكثر من أن يتم في زمن قصير ؛ وإذن لسار في عمله على مهل وخفف من حدة الانتقال بأن جعله على مراحل تدريجية . ولكنه كان شاعرا لا فيلسوفا ؛ فاستمسك بالحقيقة المطلقة فتصدع بذلك جميع بناء مصر وانهار على أم رأسه .

ذلك أنه ضرب ضربة واحدة جردتها طائفة غنية قوية من ثرائها فأغضبها عليه ، وحرّم عبادة الآلهة التي جعلتها العقيدة والتقاليد عزيزة على الناس . ولما أن محال لفظ أمون من اسم أبيه خيل إلى الناس أن هذا العمل زيغ وضلال ، إذ لم يكن شيء أعز عليهم من تعظيم الموتى من أسلافهم . وما من شك في أن إخناتون قد استخف بقوة الكهنة وعنادهم ، وتغالى في قدرة الشعب على فهم الدين الفطري . وقام الكهنة من وراء الستار يأمرون ويتأهبون ، وظل الناس في دورهم وعزلتهم يعبدون آلهتهم القديمة المتعددة . وزاد الطين بلة أن مئات الحرف التي لم تكن لها حياة إلا على حساب الهياكل أخذت تزجر في السر غضبا على الملك الزنديق ، بل إن وزراءه وقواده بين جدران قصوره كانوا يحقدون عليه ويتمنون موته . ألم يكن هو الرجل الذي ترك الدولة تنهار وتتقطع أوصالها يديه بين ؟ .

وكان الشاعر الفتى في هذه الأثناء يعيش عيشة البساطة والاطمئنان . وكانت له سبع بنات ، ولكنه لم يكن له ولد ذكر . ومع أن القانون كان يحيز له أن

يطلب له وارثاً ذكراً من زوجة ثانية ، فإنه لم يقدم على هذا الحل ، وآثر أن يظل وفياً لنفرتيتى . ولقد وصلت إلينا تحفة صغيرة من عهده تظهره يحتضن الملكة ؛ كما أجاز لمصوريه أن يرسموه في عربة يسير بها في الشوارع يلهو ويطرب مع زوجته وبناته . وكانت الملكة تجلس إلى جانبه في الاحتفالات وتمسك بيده كما كانت بناته يلعبن إلى جانب عرشه . وكان يصف زوجته بأنها : « سيدة سعادته » ويقول « إن الملك يتهيج قلبه حين يسمع صوتها » ؛ وكان في قسمه يقسم بهذه الصيغة : « بقدر ما تسعد قلبي الملكة وأطفالها »^(٢٧٠) . لقد كان حكم هذا الملك فترة من الحنو والعطف وسط ملحمة القوة والسلطان في تاريخ مصر .

وجاءت الرسائل المروعة من الشام^(*) تنقص على الملك هذه السعادة الساذجة البريئة ، فقد غزا الحثيون وغيرهم من القبائل المجاورة لهم البلاد التابعة لمصر في الشرق الأدنى . وأخذ الحكام المعينون من قبل مصر يلحون في طلب النجدة العاجلة . وتردد إخناتون في الأمر ؛ ذلك أنه لم يكن على ثقة من أن حق الفتح يبرر إخضاع هذه الولايات لحكم مصر ؛ وكان يكره أن يرسل المصريين ليهلكوا في ميادين القتال البعيدة دفاعاً عن قضية لا يثق بعادتها . ولما رأت الولايات أنها لا تطلب النجدة من ملك حاكم بل تطلبها من ولى صالح ، خلعت حكامها المصريين ، وامتنعت في غير جلبة عن أداء شيء من الخراج ، وأصبحت حرة مستقلة في جميع شؤونها . ولم يمض من الزمن إلا أقصره حتى خسرت مصر إمبراطوريتها الواسعة ، وانكشفت حتى عادت دولة صغيرة ضيقة الرقعة . وسرعان ما أقفرت الخزانة المصرية التي ظلت قرناً كاملاً تعتمد أكثر ما تعتمد على ما يأتيها من

(*) في عام ١٨٩٣ عثر سير فلندرز يترى في تل العمارنة على أكثر من ثلثمائة وخمسين لوحة هي رسائل مكتوبة بالخط المسماري معظمها طلبات ملحة للنجدة موجهة إلى إخناتون من بلاد الشرق .

الجزية الخارجية . ونقصت الضرائب المحلية إلى أقصى حد ، ووقف العمل في مناجم الذهب ، وعمت القوضى جميع فروع الإدارة الداخلية . وألغى إخناتون نفسه معداً فقيراً لا صديق له ولا معين في عالم كان يخيل إليه من قبل أنه كله ملك له . واندلع لهيب الثورة في جميع الولايات التي كانت تابعة لمصر وقامت جميع القوى الداخلية في وجهه تناوئه وتترقب سقوطه .

ولم يكد يتم الثلاثين من عمره حتى توفي في عام ١٣٦٢ ق . م محطماً القلب بعد أن أدرك عجزه عن أن يكون ملكاً ، وأيقن أن شعبه غير جدير به .

الفصل الخامس

اضمحلال مصر وسقوطها

توت عنخ آمون — جهود رمسيس الثانى — ثروة الكهنة —
فقر الشعب — فتح مصر — خلاصة فى فضل مصر على الحضارة

وبعد عامين من وفاته جلس على العرش توت عنخ آمون زوج ابنته وحبيب الكهنة . وما لبث أن بدل اسمه توت عنخ أتون الذى سماه به حموه ، وأعاد عاصمة الملك إلى طيبة ، وتصالح مع السلطات الكنسية ، وأعلن إلى الشعب المبتهج عودته إلى عبادة الآلهة القديمة . وأزيلت من جميع الآثار القديمة كلتا أتون وإخناتون ، وحرّم الكهنة على الشعب أن ينطقوا باسم الملك المارق . وكان الناس إذا تحدّثوا عنه سموه : « المجرم الأكبر » . ونقشت على الآثار الأسماء التى محّاه منها إخناتون ، وأعيدت أيام الأعياد التى ألغاه . وهكذا عاد كل شيء إلى ما كان عليه قبل .

وفى هذا حكم توت عنخ آمون حكماً لا ميزة له ولا فضل ، ولولا ما كشف فى قبره من كنوز لا عهد للناس بها من قبل لما سمع العالم به . وجاء من بعده قائد باسل يدعى حارحب سير جيوشه على طول الشاطئ وأعاد إلى مصر أملاً كها الخارجية وسلمها الداخلى . وجنى سببى الأول بحكمته ثمار عودة النظام والثروة ، وشيد بهو الأعمدة فى الكرنك^(٢٧٢) ، وشرع فى نحت هيكل عظيم فى صخور أبى سنبل ، وخلد عظمته فى الأعقاب بالنقوش الفخمة ، وكان له الحظ الأكبر فى أن رقد آلاف السنين فى قبر من أحسن قبور مصر زخرفاً وتنميقاً .

ثم ارتقى العرش رمسيس الثانى صاحب الشخصية الروائية العجيبة وآخر الفراعنة العظام . وقلما عرف التاريخ ملكاً أبهى منه منظراً ، فقد كان وسياً

شجاعاً ، أضاف إلى محاسنه إحساسه في شبابه بهذه المحاسن ، ولم تكن جهوده الموفقة في الحرب ليضارعها غير مغامراته في الحب . وبعد أن نحى رمسيس عن العرش أخأله ذا مطالب جاءت في غير وقتها المناسب ، سير حملة إلى بلاد النوبة ليفتح ما فيها من مناجم الذهب ، ويملاً به خزانة مصر ، واستخدم ما جاءته به هذه الحملة من أموال لإخضاع الولايات الآسيوية التي خرجت على مصر . وقضى ثلاث سنين في إخضاع فلسطين ؛ ثم واصل زحفه والتقى عند قادش (١٢٨٨ ق.م) بجيش عظيم جمعه الأحلاف الآسيويون . وبدل بشجاعته وبراعة قيادته هزيمة محدقة به نصراً مؤزراً . ولربما كان من نتائج هذه الحملات أن جيء إلى مصر بعدد كبير من اليهود عبيداً أو مهاجرين ؛ ويعتقد بعضهم أن رمسيس الثاني هو بعينه فرعون موسى الذي ورد ذكره في سفر الخروج^(٢٧٣) . وأمر أن تخلص انتمصاراته بغير قليل من المبالغة والتعيز على خمسين جداراً أو نحوها ، وكلف أحد الشعراء بأن يشيد بذكره في ملحمة شعرية ، وكافاً نفسه على أعماله ببضع مئات من الزوجات . وخلف بعد وفاته مائة ولد وخمسين بنتاً ليبرهن على رجولته بعدد هؤلاء الأبناء وبنسبة الذكور منهم إلى الإناث . وتزوج عدداً من بناته حتى يكون لهن أيضاً أبناء عظام . وكان أبنائه ومن تناسل منهم من الكثرة بحيث تألفت منهم طبقة خاصة في مصر بقيت على هذه الحال أربعة قرون ، وظل حكام مصر يختارون من هذه الطبقة أكثر من مائة عام .

والحق أنه كان جديراً بهذا كله ، فقد حكم مصر كما يلوح حكماً موفقاً . ولقد أسرف في البناء إسرافاً كان من نتائجه أن نصف ما بقي من العائر المصرية يعزى إلى أيام حكمه . وأتم بناء البهو الرئيسي في الكرنك ، وأضاف أبنية جديدة إلى معبد الأقصر ، وشاد ضريحه الكبير المعروف بالرمسيوم في غرب النهر ، وأتم الهيكل العظيم المنقور في الجبل عند أبي سنبل ، ونثر تماثيل له ضخمة في طول البلاد وعرضها . وراجت التجارة في عهده عن طريق برزخ السويس

والبحر الأبيض المتوسط ، واحتفر ترعة أخرى توصل النيل بالبحر الآخر ،
ولكن الرمال السافية طمرتها بعد وفاته بزمن قليل . وأسلم رمسيس الروح
في عام ١٢٢٥ ق . م وهو في التسعين من عمره ، بعد عهد يعد من أشهر العهود
في التاريخ .

ولم يكن في البلاد كلها سلطة بشرية تعلو فوق سلطته إلا سلطة الكهنة .
ثم قام النزاع في مصر كما قام في غيرها من البلاد خلال جميع العهود بين الدولة
والكنيسة . فقد كانت أسلاب كل حرب والجزء الأكبر من خراج البلاد
المفتوحة تتدفق في أثناء حكمه وحكم خلفائه الذين تولوا الملك بعده مباشرة في خزائن
الهياكل والكهنة . وبلغت هذه الثروة غايتها في عهد رمسيس الثالث . فكان
للمعابد من العبيد ١٠٧٠٠٠٠ وهم جزء من ثلاثين جزءاً من سكان مصر . وكان
لها من أرض مصر ٧٥٠٠٠٠٠ فدان أي سبع أرض مصر الصالحة للزراعة ،
وكانت تمتلك ٥٠٠٠٠٠ رأس من الماشية ، وتستحوذ على إيراد ١٦٩ مدينة
من مدن مصر والشام . وكانت هذه الثروة الضخمة كلها معفاة من الضرائب^(٢٧٤) .
وأغدق رمسيس الثالث الكريم ، وإن شئت فقل الوهاب ، من الهدايا على كهنة
آمون ما لم يسبق له في كثرته مثيل . وكان من هذه الهدايا ٣٢٠٠٠ كيلو جرام
من الذهب ، ومليون كيلو جرام من الفضة^(٢٧٥) . وكان يهبهم كل سنة
١٨٥٠٠٠ كيس من الحبوب . ولما حان الوقت لأداء أجور العمال الذين تستخدمهم
الدولة في مراقبتها وجد الخزانة مقفرة^(٢٧٦) . وجاع الشعب واشتد جوعه يوماً بعد
يوم لكي يتختم الآلهة .

وكان من شأن هذه السياسة أن يصبح الملوك خدام الآلهة عاجلاً كان ذلك
أو آجلاً . فلما أن جلس على العرش آخر الملوك الذين تسموا باسم رمسيس
اغتنصب الملك الكاهن الأكبر للإله آمون ، وحكم حكماً كان له فيه السلطان
الأعلى . وأمست الإمبراطورية المصرية حكومة دينية راكدة ازدهر فيها البناء

والتخريف ، واضمحل فيها كل ما عدا هذين من مقومات الحياة القومية .
ووضعت الرق لتصبغ كل قرار يصدره الكهنة بالصبغة المقدسة الإلهية . وامتص
الآلهة كل ما في مصر من مصادر الحياة حتى نضب معينها في الوقت الذي كان
فيه الغزاة الأجانب يعدون العدة للانقضاض على كل هذه الثروة المتجمعة .

وثار نفع الفتنة في جميع أطراف البلاد . وكان من أهم موارد مصر موقعها
الهام على الطريق الرئيسي لتجارة البحر الأبيض المتوسط ، وكانت معادنها وثروتها
قد جعلت لها السيادة على بلاد لوبيا في الغرب وعلى بلاد فينيقية وسوريا وفلسطين
في الشمال والشرق . لكن أما جديدة في بلاد آشور وبابل وفارس كانت آنئذ
تتمرد وتشتد ويقوى سلطانها في الطرف الآخر من طرفي هذا الطريق التجاري ،
وكانت تدعم قوتها بالمخترعات والمغامرات وتجرؤ على منافسة المصريين الأتقياء
الراضين عن أنفسهم في ميادين التجارة والصناعة . وكان الفينيقيون وقتئذ يقيمون
صنع السفائن ذات الثلاثة صفوف من المجاديف لكي يصلوا بها إلى ما يرغبون من
كمال ، وأخذوا بفضل هذه السفائن ينتزعون من مصر السيطرة على البحر شيئاً
فشيئاً . وكان الدوريون والآخيون قد استولوا على كريت وجزائر بحر إيجه
(حوالي ١٤٠٠ ق . م) وكانوا ينشئون لهم إمبراطورية تجارية . وأخذت التجارة
يقل سيرها شيئاً فشيئاً في قوافل بطيئة في طرق الشرق الأدنى الجبلية والصحراوية
المعرضة لهجمات اللصوص ، وبدأت تنقل بوسيلة أقل من هذه كلفة على ظهر
سفن تخترق البحر الأسود وبحر إيجه إلى طروادة وكريت وبلاد اليونان ، وأخيراً
إلى قرطاجة وإيطاليا وأسبانيا . وعلا نجم الأمم الواقعة على شواطئ البحر الأبيض
المتوسط الشمالية وازدهرت ، أما الأمم المقيمة على شواطئ الجنوبية فضعفت
واضمحلت . وفقدت مصر تجارتها وذهبها وسلطانها وفنونها ، ثم فقدت آخر
الأمر كبرياءها نفسه ، وزحفت على أرضها الأمم المنافسة لها واحدة بعد واحدة
وعدت عليها واجتاحت أرضها وخربتها .

فانقض عليها اللوبيون من الغرب في عام ٩٤٥ ق . م وعاثوا فيها فسادا
يخربون ويدسرون ، وفي عام ٧٢٢ ق . م غزاها الأحباش من الجنوب وثأروا
لعبوديتهم القديمة ؛ وفي عام ٦٧٤ اجتاحتها الآشوريون من الشمال وأخضعوا
لسلطانهم مصر التي كان يستبد بها الكهنة ، وألزموها بأداء الجزية لهم . واستطاع
أبسماتيك أمير ساو أن يرد الغزاة وقتل ما ويضم أجزاء مصر كلها تحت زعامته .
وحدثت في أثناء حكمه وحكم خلفائه نهضة في الفن ، وشرع مهندسو مصر
ومثالوها وشعراؤها يجمعون ما كان لمدارسهم من تقاليد في الفن والذوق ،
ويعيدونها ليلقوها فيما بعد تحت أقدام اليونان . لكن الفرس بقيادة قمبيز عبروا
برزخ السويس في عام ٥٢٥ ق . م وقضوا مرة أخرى على استقلال مصر . وفي
عام ٣٣٢ ق . م اجتاحتها الإسكندر من آسية وأخضعها لحكم مقدونية(*) . وأقبل
قيصر في عام ٤٨ ق . م . ليستولى على الإسكندرية عاصمة مصر الجديدة ، وليستولد
كليوباترة ابنا ووارثا كانا يأملان أملا لم يتحقق أن يتوجاه ملكا تخضع لسلطانة
أكبر الإمبراطوريات القديمة . وفي عام ٣٠ ق . م أمست مصر ولاية تابعة
لرومة واختفت من التاريخ القديم .

ونهضت البلاد مرة أخرى نهضة قصيرة الأجل حين عمر القديسون الصحراء
وجرسيرل هياشيا لتلقى حتفها في الشوارع (٤١٥ ب . م) ، وحين فتحها المسلمون
(حوالي ٦٥٠ ب . م) وبنوا القاهرة من أنقاض منفيس وملأوها بالقلاع والقباب
الزاهية الألوان . ولكن هذه الثقافة وتلك كانتا في واقع الأمر ثقافتين أجنبيتين
غير مصريتين ولم تلبثا أن زالتا .

... ..

واليوم يوجد مكان يسمى مصر ، ولكن المصريين ليسوا ساداته ؛ فلقد

(*) وتاريخ الحضارة المصرية القديمة في عهد البطالة والقيصرة من الموضوعات التي
سترد في مجلد تال .

حطمتهم الفتح من زمن بعيد ، واندمجوا عن طريق اللغة والزواج في الفاتحين العرب ، وأضحت مدنهم لا تعرف إلا المسلمين والإنجليز ، وأقدام السياح المتعبين ، الذين يأتون من أقاصى الأرض ليروا أهرامها فلا يجدونها إلا أكواماً من الحجارة . ولربما رجعت إلى مصر عظمتها إذا ما أثرت آسية مرة أخرى فأصبحت مصر مركز التجارة العالمية ومستودعها . ولكن أحداً لا يستطيع أن يتنبأ بما سيكون وهو واثق مما يتنبأ به ، وكل ما نعلمه علم اليقين أن آثار مصر القديمة قد خربت وتهدمت ؛ فالسائح أينما سار يجد خربات ضخمة ، وآثاراً وقبوراً تذكره بجهود عظيمة جبارة ، ومن حولها قفر ودمار ، ونضوب للدم القديم . ويحيط بهذا كله رمال سافية لا تنفك الرياح الحارة تحملها من كل جانب ، كأنها قد اعتزمت أن تغطي بها آخر الأمر كل شئ .(*)

لكن هذه الرمال لم تخرب من مصر القديمة إلا الجسد ، أما روحها فلا تزال باقية فيما ورثه الجنس البشرى من علم ومن ذكريات مجيدة .

وحسبنا أن نذكر من معالم حضارتها نهوضها بالزراعة والتعدين والصناعة والهندسة العملية ، وأنها في أغلب الظن هي التي اخترعت الزجاج ، ونسيج الكتان ، والورق ، والخبر ، والتقويم ، والساعة ، والهندسة النظرية ، والحروف الهجائية ؛ وأنها هي التي أحسنت صنع الملابس والحلى والأثاث والمساكن ، وأصلحت أحوال المجتمع وشئون الحياة ؛ وأن المصريين أول من أقام حكومة

(*) آثرنا أن ننقل هذا الجزء كما كتبه المؤلف حرصاً منا على الأمانة في النقل وإن كنا لا نوافق على الكثير منه ، ورغبة في أن يعرف المصريون كل ما يقال عنهم حقاً كان ذلك أو باطلاً . وقل أن يوجد في بلاد العالم شعب إلا وقد امتزج دمه بدم غيره من الشعوب . فسلمو مصر وأقباطها وإن اختلفوا في الدين يؤلفون مع أمة متجانسة ذات عادات وتقاليد وأمانى واحدة . ومن الخطأ أن يقال إن مدنهم لا تعرف إلا المسلمين والإنجليز . إنها تضم أبناء مصر من مسلمين وأقباط ، أما الإنجليز فإن الذى تعرفه عنهم أنهم احتلوا البلاد نصف قرن ولكنهم ظلوا فيها قوماً أجانب غرباء عن أهلها حتى أخرجتهم من أرضها .

منظمة نشرت لواء السلام والأمن في البلاد ، وأنهم أول من أنشأ نظام البريد والتعداد والتعليم الابتدائي والثانوي ؛ بل إنهم هم أول من أوجد نظام التعليم الفني لإعداد الموظفين ورجال الإدارة .

وهم الذين ارتقوا بالكتابة ، ونهضوا بالآداب والعلوم والطب ؛ والمصريون على ما نعرف أول من وضع دستوراً واضحاً للضمير الفردي ، والضمير العام ، وهم أول من نادى بالعدالة الاجتماعية ، وبالاقتصار على زوجة واحدة ، وأول من دعا إلى التوحيد في الدين ، وأول من كتب في الفلسفة ، وأول من نهض بفن العمارة والنحت ، وارتقى بالفنون الصغرى إلى درجة من الإتقان والقوة لم يصل إليها (على ما نعرف) أحد من قبلهم ، وقلما بارام فيها من جاء بعدهم . وهذا الفضل كله لم يذهب هباءً حتى في الوقت الذي كان خير ما فيه مطموراً تحت رمال الصحراء أو ملقى على الأرض بفعل الاضطرابات الأرضية(*) ، فقد انتقلت الحضارة المصرية على أيدي الفينيقيين والسوريين واليهود وأهل كريت واليونان والرومان ، حتى أضحت من التراث الثقافي للجنس البشري . وإن ما قامت به مصر من الأعمال في فجر التاريخ لا تزال آثاره أو ذكرياته مغلدة عند كل أمة وفي كل جيل ، « ولعل مصر » كما يقول فور « بفضل تماسكها ووحدتها ، وتنوع منتجاتها الفنية تنوعاً أساسه دقة التنسيق والتنظيم ، وبفضل ما بذلت من جهود جبارة دامت أطول العهود ، لعل مصر بهذا كله تعرض على العالم أعظم ما ظهر على الأرض من حضارات إلى يومنا هذا^(٢٧٧) » . وأن من الخير لنا أن نعمل نحن لكي نبليغ ما بلغت .

(*) لقد دمر طيبة عن آخرها زلزال حدث في عام ٢٧ ب . م .

الباب التاسع

بابل

الفصل الأول

من حمورابي إلى نبوخذ نصر

فضل بابل على المدينة الحديثة — أرض ما بين النهرين —
حمورابي — عاصمة ملكه — سيطرة الكاشيين — رسائل
تل العمارنة — فتح الآشوريين لبابل — نبوخذ نصر —
بابل في أيام مجدها

الحضارة كالحياة صراع دائم مع الموت ؛ وكما أن الحياة لا يتسنى لها أن تحتفظ بنفسها إلا إذا خرجت عن صورها البالية القديمة واتخذت لها صوراً أخرى فنية جديدة ، فكذلك الحضارة تستطيع البقاء مزعزعة الأركان بتغيير موطنها ودمها . ولقد انتقلت الحضارة من أور إلى بابل ويهوذا ، ومن بابل إلى نينوى ، ومن هذه كلها إلى بربوليس وسارديس وميليتس ، ومن هذه الثلاثة الأخيرة ومصر وكريت ، إلى بلاد اليونان وزومة .

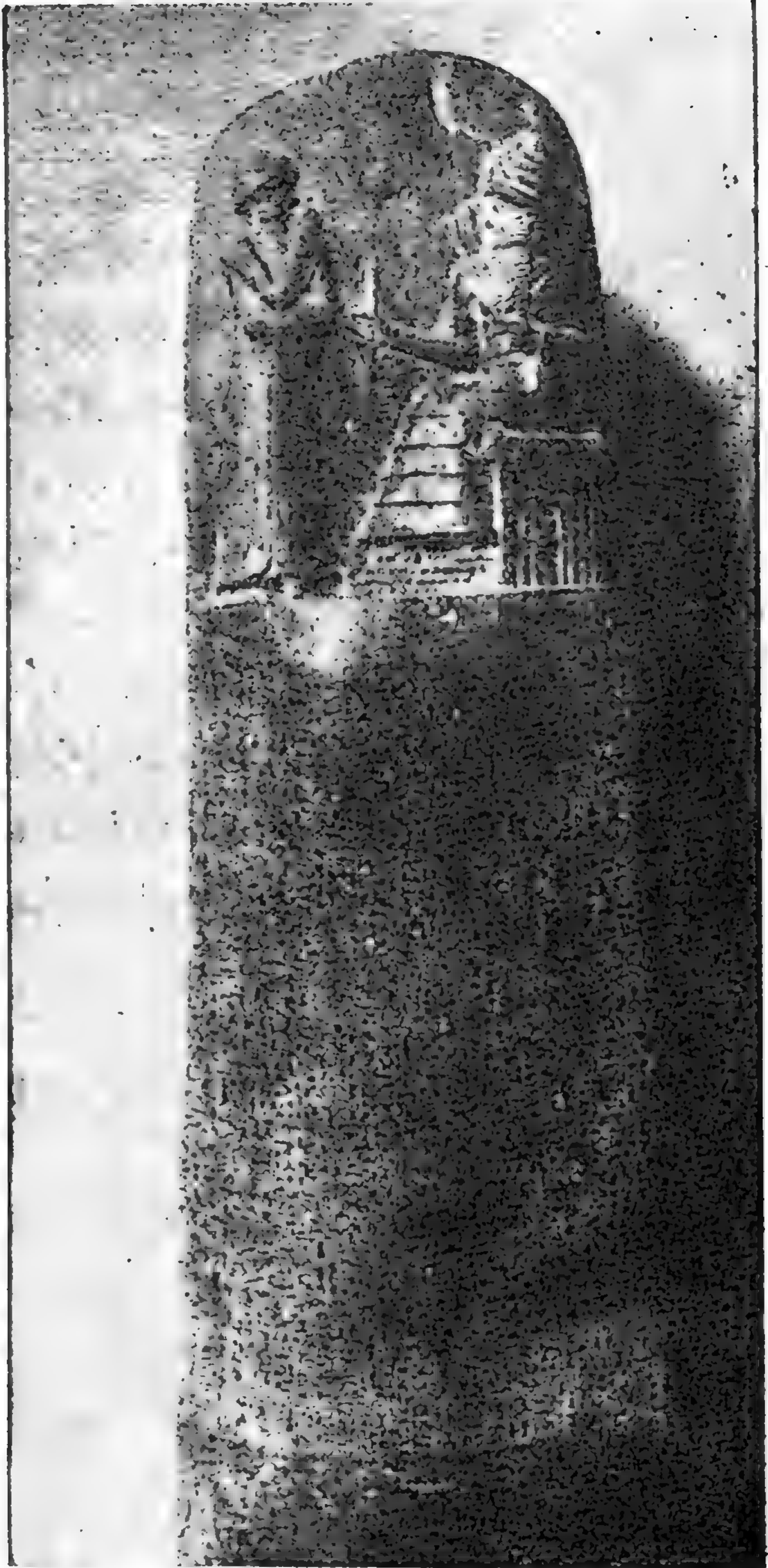
وما من أحد ينظر الآن إلى موقع مدينة بابل القديمة ثم يخطر بباله أن هذه البطاح الموحشة ذات الحر اللافت الممتدة على نهر الفرات كانت من قبل موطن حضارة غنية قوية كادت أن تكون هي الخالقة لعلم الفلك ، وكان لها فضل كبير في تقدم الطب ، وأنشأت علم اللغة وأعدت أول كتب القانون الكبرى ، وعلمت اليونان مبادئ الحساب ، وعلم الطبيعة والفلسفة ، وأمدت اليهود بالأساطير القديمة التي أورثوها العالم ، ونقلت إلى العرب بعض المعارف العلمية والمعمارية التي

أيقظوا بها روح أوربا من سباتها في العصر الوسيط . وإذا ما وقف الإنسان أمام دجلة والفرات الساكنين فإنه يتعذر عليه أن يعتقد أنهما النهران اللذان أرويا سومر وأكد وغذا حدائق بابل المعلقة .

والحق أنهما إلى حد ما ليسا هما النهرين القديمين ؛ وذلك لأن النهرين القديمين قد اختطأ لهما من زمن بعيد مجريين جديدين ^(٢) « وقطعنا مجريهما البيض شطآننا أخرى . وكان نهرا دجلة والفرات كما كان نهر النيل في مصر طريقا تجاريا عظيما يمتد آلاف الأميال ، وكانا في مجريهما الأدنى فيضان كما يفيض نهر النيل في فصل الربيع ويساعدان الزراع على إخصاب الأرض . ذلك أن المطر لا يسقط في بلاد بابل إلا في أشهر الشتاء ؛ أما فيما بين مايو ونوفمبر فإنه لا يسقط أبدا ؛ ولولا فيضان النهرين لكانت أرضهما جرداء كما كان الجزء الشمالى من أرض الجزيرة في الأيام القديمة وكما هو في هذه الأيام . ولكن بلاد بابل قد أضحت بفضل ماء النهرين الغزير ، وكذا الأهلين أجيالا طوالا ، جنة الساميين وحديقة بلاد آسية القديمة وهريها (*) .

وكانت بابل من حيث تاريخها وجنس أهلها نتيجة امتزاج الأكديين والسومريين . فقد نشأ الجنس البابلي من تزاوج هاتين السلالتين ؛ وكانت الغلبة في السلالة الجديدة للأصل السامى الأكدي ، فقد انتهت الحروب التي شبت بينهما بانتصار أكد وتأسيس مدينة بابل لتكون حاضرة أرض الجزيرة السفلى بأجمعها . وتطل علينا من بداية هذا التاريخ شخصية قوية هي شخصية حمورابى (٢١٢٣ — ٢٠٨١ ق . م) الفاتح المشرع الذى دام حكمه ثلاثا وأربعين سنة . وتصوره الأختام والنقوش البدائية بعض التصوير ، فنستطيع في ضوءها أن نتخيله شابا يفيض حماسة وعبقرية ، عاصفة هوجاء في الحرب ، يقلم أظفار الفتن ويقطع أوصال

(*) مما جاء في سفر التكوين أن الفرات واحد من أربعة أنهار تجري في الجنة (تكوين ٢ : ١٤) .



شكل (٣٢) الإله شمش ينزل بالقوانين على حورابى
عن نحت فى متحف اللوفر

الأعداء ، ويسير في شماب الجبال الوعرة ، ولا ينحسر في حياته واقعة ؛ وحد الدويلات المتحاربة المنتشرة في الوادي الأدنى ، ونشر لواء السلام على ربوعها وأقام فيها منار الأمن والنظام بفضل كتاب قوانينه التاريخي العظيم .

وقد كشف قانون حمورابي في أنقاض مدينة السوس في عام ١٩٠٢ . ووجد هذا القانون منقوشاً نقشاً جميلاً على أسطوانة من حجر الديوريت نقلت من بابل إلى عيلام (حوالي عام ١١٠٠ ق. م) فيما نقل من مغنم الحرب (*) ، وقيل عن هذه الشرائع إنها منزلة من السماء . فترى الملك على أحد أوجه الاسطوانة يتلقى القوانين من شمس إله الشمس نفسه . وتقول مقدمة القوانين :

ولما أن عهد أبو الأعلى ملك الأوناكي وبل رب السماء والأرض الذي يقرر مصير العالم ، لما أن عهدا حكم بني الإنسان كلهم إلى مردوك ؛ ... ولما أن نطقا باسم بابل الأعلى ، وأذاعا شهرتها في جميع أنحاء العالم ، وأقاما في وسطه مملكة خالدة أبد الدهر قواعد ثابتة ثبات السماء والأرض — في ذلك الوقت ناداني أنو وبل ، أنا حمورابي الأمير الأعلى ، عابد الآلهة ، لكي أنشر العدالة في العالم ، وأقضي على الأشرار والآثمين ؛ وأمنع الأقوياء أن يظلموا الضعفاء ... وأنشر النور في الأرض وأرعى مصالح الخلق . أنا حمورابي ، أنا الذي اختاره بل حاكماً ، والذي جاء بالخير والوفرة ، والذي أتم كل شيء لنپور ودُريلو ، ... والذي وهب الحياة لمدينة أرك ؛ والذي أمد سكانها بالماء الكثير ؛ ... والذي جعل مدينة بارسيا ؛ ... والذي خزن الحب لأوراش العظيم ؛ ... والذي أعان شعبه في وقت المحنة ؛ وأمن الناس على أملاكهم في بابل ؛ حاكم الشعب ، الخادم الذي تسر أعماله أنوتيت (٤) .

إن الألفاظ التي أكدناها نحن في هذه العبارة لذات نفعة حديثة ؛ وإن المرء ليتردد قبل أن يصدق أن قائلها حاكم شرقي « مستبد » عاش في عام ٢١٠٠

(*) وهي الآن في متحف اللوفر .

ق . م ، أو أن يتوهم أن القوانين التي تمهد لها استمدت أصولها من قوانين سومرية مضى عليها الآن ستة آلاف عام . وهذا الأصل القديم مضافاً إلى الظروف التي كانت تسود بابل وقتئذ هو الذي جعل قانون حمورابي شريعة مركبة غير متجانسة . فهي تفتتح بتحيةة الآلهة ، ولكنها لا تحفل بها بعدئذ في ذلك التشريع الدستوري البعيد كل البعد عن الصبغة الدينية . وهي تمزج أرق القوانين وأعظمها استنارة بأقسى العقوبات وأشدّها وحشية ، وتضع قانون النفس بالنفس والتحكيم الإلهي (*) إلى جانب الإجراءات القضائية المحكّمة والعمل الحصيف على الحد من استبداد الأزواج بزوجاتهم . على أن هذه القوانين البالغة عدتها ٢٨٥ قانوناً ، والتي رتبت ترتيباً يكاد يكون هو الترتيب العلمى الحديث ، فقسمت إلى قوانين خاصة بالأموال المنقولة ، وبالأموال العقارية ، وبالتجارة والصناعة ، وبالأسرة ، وبالأضرار الجسمية ، وبالعمل ، نقول إن هذه القوانين تكون في مجموعها شريعة أكثر رقياً وأكثر تمدّناً من شريعة أشور التي وضعت بعد أكثر من ألف عام من ذلك الوقت ، وهي من وجوه عدة « لا تقل رقياً عن شريعة أية دولة أوربية حديثة »^(٥)؛ وقل أن يجد الإنسان في تاريخ الشرائع كله ألفاظاً أرق وأجمل من الألفاظ التي يختم بها البابلي العظيم شريعته :

« إن الشرائع العادلة التي رفع منارها الملك الحكيم حمورابي والتي أقام بها في الأرض دعائم ثابتة وحكومة طاهرة صالحة ... أنا الحاكم الحفيظ الأمين عليها ، في قلبي حملت أهل أرض سومر وأكد ... وبحكمتي قيدتهم ، حتى لا يظلم الأقوياء الضعفاء ، وحتى ينال العدالة اليتيم والأرملة ... فليأت أى إنسان مظلوم له قضية أمام صورتي أنا ملك العدالة ، وليقرأ النقش الذي على أثرى ، وليلق

(*) قانون النفس بالنفس معروف ، وقد ورد مفصلاً في التوراة ، وأشارت إليه الآية القرآنية الكريمة : « وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس الخ » أما التحكيم الإلهي فقد كان من العادات الشائعة عند بعض الأمم وهو لإثبات الجريمة على المتهم أو نفيها عنه بإلقائه في الماء أو في النار لينجو منهما إن كان بريئاً فإن لم ينج فهو مذنب . (المترجم)

باله إلى كلماتي الخطيرة ! ولعل أترى هذا يكون هادياً له في قضيته ، ولعله يفهم منه حالته ! ولعله يريح قلبه (فينادى) : « حقا أن حمورابي حاكم كالوالد الحق لشعبه ... لقد جاء بالرخاء إلى شعبه مدى الدهر كله ، وأقام في الأرض حكومة طاهرة صالحة (*) ... »

« ولعل الملك الذي يكون في الأرض فيما بعد وفي المستقبل يرفع ألقاب العدالة التي نقشتها على أترى ! »^(٨) .

ولم يكن هذا التشريع الجامع إلا عملا واحداً من أعمال حمورابي الكثيرة . فلقد أمر بحفر قناة كبيرة بين كش والخليج الفارسي أروت مساحات واسعة من الأراضي ، ووقت المدن الجنوبية ما كان ينتابها بسبب فيضانات نهر دجلة الخربة . ولقد وصل إلينا من عهده نقش آخر يفخر فيه بأنه أجرى في البلاد الماء (تلك المادة القيمة التي لا تقدرها اليوم والتي كانت في الأيام الماضية إحدى مواد الترف) ، ونشر الأمن والحكم الصالح بين كثير من القبائل . وإنا لنستمع من ثنايا هذا النقش ومن بين عبارات الفخر (وهو خلة شريفة من خلال الشرقيين) صوت الحاكم الماهر والسياسي القدير .

« لما ذهب لي أنو ونليل (إلها أرك ونپور) بلاد سومر وأكد لأحكامها ، ووضعنا في يدي هذا الصولجان ، حفرنا قناة حمورابي — نخوش — نيشي (حمورابي المفيض — على — الشعب) التي تحمل الماء الغزير لأرض سومر وأكد . وحولت شاطئها الممتدين على كلا الجانبين إلى أراض زراعية ؛ وجمعت أكداً من الحب ، وسيرت الماء الذي لا ينضب إلى الأرضين ... وجمعت الأهاليين المشتتين ، وهيات لهم المرعى والماء وأمددتهم بالمراعى الوفيرة وأسكنتهم مساكن آمنة »^(٩) .

(*) يبدو أن « شرائع موسى » تستمد من هذه الشرائع أو تستمد هذه وتلك من مصدر مشترك . وترجع عادة بصم العقد القانوني بنحتم رسمي إلى زمن حمورابي (٧) .

وبلغ من حذق حمورابي أن خلع على سلطانه خلعة من رضاء الآلهة بالرغم من أن قوانينه كانت تمتاز بصبغتها الدينيوية غير الدينية . من ذلك أنه شاد المعابد كما شاد القلاع ، واسترضى الكهنة بأن أقام لمردوك وزوجته (إلهى البلد القوميين) فى مدينة بابل هيكلا ضخما ومخزناً واسعاً ليخزن فيه القمح للإلهين وللكهنة . وكانت هاتان الهديتان وأمثالهما فى واقع الأمر بمثابة مال يستثمر أربح استثمار ، جنى منه ربحاً وفيراً هو الطاعة الممزجة بالرهبة التى يقدمها إليه الشعب . واستخدم ما حصل عليه من الضرائب فى تدعيم سلطان القانون والنظام ، واستخدم ما تبقى بعد ذلك فى تجميل عاصمة ملكه ، فأنشئت القصور والهياكل فى جميع نواحيها ، وأقيم جسر على نهر الفرات حتى تمتد المدينة على كلتا ضفتيه ، وأخذت السفن التى لا يقل بحارتها عن تسعين رجلاً تمخر عباب النهر صاعدة فيه ونازلة ، وأضحت بابل قبل ميلاد المسيح بألفى عام من أغنى البلاد التى شهدتها تاريخ العالم قديمه وحديثه (*) .

وكان البابليون ساميين فى مظهرهم سود الشعر سمر البشرة ، رجالهم ملتحمون ، ويضعون على رؤوسهم أحياناً شعراً مستعاراً ، وكانوا رجالاً ونساء على السواء يطيلون شعر رؤوسهم ، وحتى الرجال كانوا أحياناً يرسلون شعرهم فى ضفائر تنوس على أكتافهم ، وكثيراً ما كان رجالهم ونساؤهم يتعطرون . وكان ثياب الجنسين المألوف مئزراً من نسيج الكتان الأبيض يغطى الجسم حتى القدمين ، ويترك إحدى كتفى المرأة عارية ، ويزيد عليه الرجال دثاراً وعباءة . ولما زادت ثروة

(*) لقد وصلت بابل من حيث المقومات الأساسية للحضارة فى عصر حمورابي بل فيما قبله إلى درجة من الحضارة المادية لم يصل إليها غيرها من مدن آسية إلى وقتنا هذا . من كتاب كرسنر دوسن « بحوث فى الدين والحضارة » Enquiries into Religion and Culture المطبوع فى نيويورك سنة ١٩٣٣ ص ١٠٧ . ولعل من الصواب أن نستثنى من هذا التعميم عصر خشيارشاى (١ كزركس) الأول فى فارس ، ومنج هوانج فى الصين ، وأكبر فى الهند .

السكان تذوقوا حب الألوان ، فصبغوا أثوابهم باللون الأزرق فوق الأحمر ، أو بالأحمر فوق الأزرق ، في صورة خطوط أو دوائر أو مربعات أو نقط . ولم يكونوا كالسومريين حفاة الأقدام بل اتخذوا لهم أخفافاً ذات أشكال حسنة ، وكان الذكور في عصر حمورابي يتعممون ، وكان النساء يتزين بالقلائد والأساور والتماثيم ، ويحلقن شعرهن المصفف بعقود من الخرز . وكان الرجال يمسكون في أيديهم عصياً ذات رؤوس منحوتة منقوشة ، ويحملون في مناطقهم الأختام الجميلة الشكل التي كانوا يبصمون بها رسائلهم ووثائقهم . وكان كهنتهم يلبسون فوق رؤوسهم قلانس طويلة مخروطية الشكل ليخفوا بها صفتهم الآدمية^(١٠) .

وزادت الثروة فأنتجت في بابل ما تنتجه في سائر بلاد العالم . ذلك أن من السنن التاريخية التي تكاد تنطبق على جميع العصور أن الثراء الذي يخلق المدنية هو نفسه الذي ينذر بانحلالها وسقوطها . فالثراء يبعث الفن كما يبعث الخمول ؛ وهو يرقق أجسام الناس وطبائعهم ، ويمهد لهم طريق الدعة والنعيم والترف ، ويغري أصحاب السواعد القوية والبطون الجائعة بغزو البلاد ذات الثراء^(*) . وكان على الحدود الشرقية لهذه الدولة الجديدة قبيلة قوية من أهل الجبال هي قبيلة الكاشيين تحسد البابليين على ما أوتوا من ثروة ونعيم . فلم يمض على موت حمورابي إلا ثمان سنين حتى اجتاحت رجالها دولته ، وعاثوا في أرضها فساداً يسلبون وينهبون ، ثم ارتدوا عنها ، ثم شنوا عليها الغارة تلو الغارة ، واستقروا آخر الأمر فيها فاتحين حاكمين ، وهذه هي الطريقة التي تنشأ بها عادة طبقة السراة في البلاد . ولم يكن هؤلاء الفاتحون من نسل الساميين ، ولعلمهم كانوا من نسل جماعة المهاجرين الأوربيين جاءوا إلى موطنهم الأول في العصر الحجري الحديث . ولم تكن غلبتهم على أهل بابل الساميين إلا حركة أخرى من حركات الهجوم والارتداد التي طالما حدثت في غرب آسية . وظلت بلاد بابل بعد هذا الغزو عدة قرون

(*) وازن بين هذا وبين ما جاء في مقدمة ابن خلدون في هذا المعنى (المترجم)

مسرحاً للاضطراب العنصرى والفوضى السياسية اللذين وقفا في سبيل كل تقدم في العلوم والفنون^(١١). ولدينا صورة واضحة من هذا الاضطراب الخائى في رسائل تل العمارنة التى يستقيث فيها أقيال بابل وسوريا بمصر التى كانوا يؤدون إليها خراجاً متواضعاً بعد انتصارات تحتمس الثالث ، ويتوسلون إليها أن تمد إليهم يدها لتعينهم على الثوار والغزاة . وفيها أيضاً يتجادلون في قيمة ما يتبادلونه من الهدايا مع أمنحيب الثالث الذى يترفع عليهم ، ومع إخناتون الذى أهملهم وانهمك في غير شئون الحكم^(*).

وأخرج الكاشيون من أرض بابل بعد أن حكموها ما يقرب من ستة قرون اضطربت فيها أحوال البلاد وتمزقت ، كما اضطربت أحوال مصر وتمزقت في عهد الهكسوس . ودام الاضطراب بعد خروجهم أربعمائة عام أخرى حكم بابل في أثنائها حكام خاملون ليس في أسمائهم الطويلة اسم واحد جدير بالذكر⁽⁺⁾. ودام عهدهم حتى قامت دولة آشور في الشمال فبسطت سيادتها على بابل وأخضعتها للملك نينوى . ولما ثارت بابل على هذا الحكم دمرها سنحريب تدميراً لم يكذبى منها على شيء . ولكن عسر هدون ، المستبد الرحيم أعاد إليها رخاءها وثقافتها . ولما قامت دولة الميديين⁽⁺⁺⁾ وضعف الآشوريون استعان نبوپولصر بالدولة الناشئة على تحرير

(*) رسائل تل العمارنة رسائل مملّة في صيغتها ملئت كلها ملقاً ودهانا ، وجدلا ، وتوسلا وشكاية . استمع مثلاً إلى ما كتبه بربورياش الثانى ملك كريدناش (في الجزيرة) إلى أمنحوب الثالث في موضوع تبادل بعض الهدايا الملكية التى غبن فيها بربورياش فيما يظهر « منذ اليوم الذى توطدت فيه أواصر الصداقة بين أمى وأبيك ، تبادل الاثنان الهدايا القيمة ، ولم يأت أحدهما على الآخر أحسن ما يرغب فيه . أما الآن فإن أخى (أمنحوب) قد أهدانى (فقط) منحى من الذهب . إن عليك أن ترسل لى من الذهب بقدر ما أرسله أبوك ؛ فإن كان لا بد أن يقل عنه ، فليكن نصف ما كان يرسله . لم لم ترسل إلى إلا منحى من الذهب ؟ » (١٢) (المنح قدر من الذهب)

(+) مردك — شبيك — زيرى ، تنورا — تدين — شام ، أنليل — تدين — أبلى ، مردك — شبيك — زرماتى ، الخ ، وما من شك في أن أسماءنا الكاملة إذا وصلت كما وصلت هذه الأسماء تبدو مثلها متنافرة النغمات في آذاننا .

(++) تكتب أحياناً الماديين وهكذا وردت في التوراة . (المترجم)

بابل من حكم الآشوريين ، وأقام فيها أسرة حاكمة مستقلة . ولما مات خلفه في حكم الدولة البابلية الثانية ابنه نبوخذ نصر الثاني الذي يسميه كتياب دانيال^(١٣) بالرجل الوغد حقداً عليه وانتقاماً منه . وفي وسع المرء أن يستشف من خطبة نبوخذ نصر الافتتاحية لمردك كبير آلهة بابل مراحمي الملك الشرقى وأخلاقه :
« إني أحب طلعتك السامية كما أحب حياتي الثمينة ! إني لم أختر لنفسي بيتاً في المواطن كلها الواقعة خارج مدينة بابل ... ليت البيت الذي شدته يدوم إلى الأبد بأمرك أيها الإله الرحيم . ولعل أشبع ببهائه وجلاله ، وأبلغ فيه الشيخوخة ، ويكثر ولدي ، وتأتي إليّ فيه الجزية من ملوك الأرض كلها ومن بني الإنسان أجمعين »^(١٤) .

وعاش هذا الملك حتى كاد يبلغ السن التي يطمع فيها ؛ وكان أقوى ملوك الشرق الأدنى في زمانه وأعظم المحاربين والبنائين والحكام السياسيين من ملوك بابل كلهم لا نستثنى منهم إلا حمورابي نفسه . هذا مع أنه كان أمياً ، ومع أن عقله لم يكن يخلو من خيال . ولما تأمرت مصر مع آشور لكي تخضع الثانية بابل إلى حكمها مرة أخرى ، التقى نبوخذ نصر بالجيوش المصرية عند قرقيش (على نهر الفرات الأعلى) وكاد يببدها عن آخرها . وسرعان ما وقعت فلسطين وسوريا في قبضته ، وسيطر التجار البابليون على جميع مسالك التجارة التي كانت تعبر غرب آسية من الخليج الفارسي إلى البحر الأبيض المتوسط .

وأنفق نبوخذ نصر ما كان يفرضه على هذه التجارة من مكوس وما كان يجبيه من خراج البلاد الخاضعة لحكمه ، وما كان يدخل خزائنه من الضرائب المفروضة على شعبه — أنفق هذا كله في تجميل عاصمته وفي تخفيف نهم الكهنة :
« أليست هذه بابل العظيمة التي بنيتها ؟ »^(١٥) وقاوم ما كان عساه أن تنزع إليه نفسه من أن يكون فاتحاً عظيماً فحسب . نعم إنه كان يخرج بين الفينة والفينة ليلقي على رعاياه درساً في فضائل الطاعة والخضوع ، ولكنه كان يصرف جل وقته في

قصبة ملكه حتى جعل بابل عاصمة الشرق الأدنى كله بلا منازع، وأكبر عواصم العالم القديم وأعظمها أبهة وفخامة^(١٦). وكان نبوخذ نصر قد وضع الخطط لإعادة بناء المدينة، فلما جاء نبوخذ نصر صرف سني حكمه الطويل التي بلغت ثلاثاً وأربعين في إتمام ما شرع فيه سلفه. وقد وصف هيرودوت بابل، وكان قد زارها بعد قرن ونصف من ذلك الوقت، بأنها «مقامة في سهل فسيح، يحيط بها سور طوله ستة وخمسون ميلاً^(١٧) ويبلغ عرضه حداً تستطيع معه عربة تجرها أربعة جياد أن تجرى في أعلاه، ويضم مساحة تقرب من مائتي ميل مربع»^(*) (١٨). وكان يجري في وسط المدينة نهر الفرات يحف بشاطئيه النخيل وتنتقل فيه المتاجر رائحة غادية بلا انقطاع، ويصل شطريها جسر جميل^(†) (١٩). وكانت المباني الكبيرة كلها تقريباً من الآجر، وذلك لندرة الحجر في أرض الجزيرة، ولكن هذا الآجر كان يغطي في كثير من الأحيان بالقرميد المنقوش البراق ذي اللون الأزرق أو الأصفر أو الأبيض المزيّن بصور الحيوان وغيره من الصور البارزة المصقولة اللامعة، ولا تزال تلك الصور حتى هذه الأيام من أحسن ما أخرجته الصناعة من نوعها. وكل آجرة من الآجر الذي استخرج من موقع بابل القديم تحمل هذا النقش الذي يتباهى به الملك الفخور: «أنا نبوخذ نصر ملك بابل»^(٢١).

وكان أول ما يشاهده القادم إلى المدينة — صرح شامخ كالجبل يعلوه برج عظيم مدرج من سبع طبقات، جدرانه من القرميد المنقوش البراق، يبلغ ارتفاعه ٦٥٠ قدماً، فوقه ضريح يحتوي على مائدة كبيرة من الذهب المصمت وعلى سرير

(*) وأكبر. ن هذه المساحة لم تكن تشمل مباني بابل نفسها فخب، بل كانت تشمل أيضاً في داخل هذا السور مساحة أخرى خلفها من الأراضي الزراعية يرادها أن تعد العاصمة الكثيرة السكان بما يلزمها من الزاد في أيام الحصار
(†) وإذا كان لنا أن نصدق ما قاله ديودور الصقلي فإن ثقتاً عرضه خمس عشرة قدماً وارتفاعه اثنتا عشرة كان يمتد بين الشاطئين^(٢٠)

مزخرف تنام عليه كل ليلة إحدى النساء في انتظار مشيئة الإله^(٢٢). وأكبرالظن أن هذا الصرح الشامخ الذي كان أعلى من أهرام مصر، وأعلى من جميع مباني العالم في كل العصور إلا أحدثها عهداً، هو « برج بابل » الذي ورد ذكره في القصص العبري، والذي أراد به أهل الأرض ممن لا يعرفون يهوه أن يظهروا به كبرياءهم، فلبيل رب الجيوش ألسنتهم^(*). وكان في أسفل الصرح هيكل عظيم لمردك رب بابل وحامياها. ومن أسفل هذا المبد تمتد للمدينة نفسها من حوله يخرقها عدد قليل من الطرق الواسعة النيرة، وكثير من القنوات والشوارع الضيقة الملتوية التي كانت بلا ريب تعج بالأسواق والحركة التجارية وبالغادين والرائحين. وكان يمتد بين الهياكل القائمة في المدينة طريق واسع مرصوف بالآجر المغطى بالأسفلت يعلوه بلاط من حجر الجير ومجمعات من الحجارة الحمراء تستطيع الآلهة أن تسير فيه دون أن تلوّث أقدامها. وكان على جانبي هذا الطريق الواسع جداران من القرميد الملون تبرز منهما تماثيل لمائة وعشرين أسداً مطلية بالألوان الزاهية تزجر لترهب الكفرة فلا يقتربون من هذا الطريق. وكان في أحد طرفيه مدخل فخم هو باب إستير، ذو فتحتين من القرميد الزاهي المتألق، تزينه نقوش تمثل أزهاراً وحيوانات جميلة الشكل زاهية اللون، ينحيل إلى الناظر أنها تسرى فيها الحياة^(**).

وكان على بعد ستمائة ياردة من برج بابل وإلى شماليه ربوة تسمى القصر شاد عليها نبوخذ نصر أروع بيت من بيوته. ويقوم في وسط هذا البناء مسكنه الرئيسي ذو الجدران الجميلة المشيدة من الآجر الأصفر، والأرض المفروشة بالخرسان الأبيض والمبرقش، تزين سطوحها نقوش بارزة واضحة زرقاء اللون، مصقولة

(*) ليس لفظ بابل مشتقاً من الببلّة أو الاضطراب كما تقول بعض الأساطير بل معناه كما في « بابلون » باب الإله^(٢٣)

(**) في متحف الفن الآسيوي في برلين نموذج لباب إستير بحجمه الطبيعي.

براقة ، وتحرس مدخله آساد ضخمة من حجر البازلت . وكان بالقرب من هذه الربوة حدائق بابل المعلقة الذائعة الصيت التي كان يعدها اليونان إحدى عجائب العالم السبع ، مقامة على أساطين مستديرة متتالية كل طبقة منها فوق طبقة . وكان سبب إنشائها أن نبوخذ نصر تزوج بابنة سياخار (سيكسارس) ملك الميديين ، ولم تكن هذه الأميرة قد اعتادت شمس بابل الحارة وثرها ، فعاودها الحنين إلى خضرة بلادها الجبلية ، ودفعت الشهامة والروءة نبوخذ نصر فأنشأ لها هذه الحدائق العجيبة ، وغطى سطحها الأعلى بطبقة من الغرين الخصب يبلغ سمكها جملة أقدام ، لا تتسع للأزهار والنباتات المختلفة ولا تسمح بتغذيتها فحسب ، بل تتسع أيضاً لأكبر الأشجار وأطولها جذوراً وتكفي تربتها لغذائها . وكانت المياه ترفع من نهر الفرات إلى أعلى طبقة في الحديقة بآلات مائية مخبأة في الأساطين تتناوب إدارتها طوائف من الرقيق^(٢٤) . وفوق هذا السطح الأعلى الذي يرتفع عن الأرض خمساً وسبعين قدماً كان نساء القصر يمشين غير محجبات آمناً من أعين السوق ، تحيط بهن النباتات الغريبة والأزهار العطرة ، ومن تحتهن في السهول وفي الشوارع كان السوق من رجال ونساء يحرثون وينسجون ، وبينون ، ويحملون الأثقال ، ويلدون أبناء وبنات يخلفونهم في عملهم بعد موتهم .

الفصل الثاني

الكادحون

الصيد — الحرث — الطعام — الصناعة — النقل — أخطار التجارة —
المرابون — الرقيق

كان بعض أجزاء البلاد لا يزال على حاله البرية الموحشة الخطرة ؛ فكانت
الأفاعى تهيم فى العشب الكثيف ، وكان ملوك بابل وأشوري يلهون بصيد الأساد التى
تجول فى الغابات والتى تقف هادئة للمصورين ، ولكنها تفر إذا اقترب منها
الصائدون . حقا أن المدنية ليست إلا فترة عارضة موقوتة تتخلل وحشية الغابات .
وكانت أكثر الأراضى الزراعية يفلحها المستأجرون أو الرقيق وأقلها يحرثها
ملاكها الفلاحون^(٢٥) . وكانت كلها فى العهود الأولى تفتتها معازق من الحجر
كما كان يفعل المزارعون فى العصر الحجري الحديث . وأقدم صورة لدينا تمثل
الحراث فى بابل هى الصورة المنقوشة على خاتم يرجع عهده إلى حوالى
عام ١٤٠٠ ق . م ؛ ولعل هذه الآلة الكريمة النافعة كان وراءها فى ذلك الوقت
تاريخ طويل فى أرض النهرين ، ومع هذا فإنها كانت من طراز حديث إلى
حد ما . فقد كانت تجرها الثيران كما كان يفعل آبائنا ، ولكنها كانت كمحراث
السومريين ذات أنبوبة متصلة بها يخرج منها الحب إلى الأرض كمحاريث
أبنائنا^(٢٦) . ولم يكن أهل بابل يتركون الماء يفيض على الأرض كما كان يتركه
أهل مصر ، بل كانت كل مزرعة تحميها من الفيضان جسور من التراب لا يزال
بعضها باقيا إلى اليوم . وكان الماء الزائد على حاجة الأرض ينصرف إلى شبكة
من المصارف أو يخزن فى خزانات لها فتحات يخرج منها إلى الحقول وقت الحاجة
أو يرفع فوق الحواجز بشواذيف . وقد امتاز حكم نبوخذ نصر بمحفر عدد كبير من

ترع الرى وبتخزين الزائد من الماء فى خزان كبير يبلغ محيطه مائة وأربعين ميلاً ،
تخرج منه قنوات تروى مساحات واسعة من الأرض^(٢٧) . ولا تزال بقايا هذه
القنوات فى أرض الجزيرة إلى اليوم . وكأما أرادت الأقدار أن تربط الأحياء
والأموات برباط آخر ، فأبقت إلى الآن على الشادوف البدائى فى وادى نهري
الفرات واللوار^(٢٨) .

وكانت الأرض التى تروى على هذا النحو تنبت أنواعاً مختلفة من الحبوب
والبقول ، كما كانت بها بساتين واسعة تنتج الفاكهة والنقل ، ولكن أكثر
ما كانت تنتجه البلح . وكان البابليون يستثمرون ما أنعمت عليهم به الطبيعة
من شمس ساطعة وأرض خصبة فى صنع الخبز وجمع العسل وعمل الكعك وغيره
من أطيب الطعام . وكانوا يصنعون من مزيج العسل والدقيق كثيراً من أشهى
الأطعمة . وكانوا يلحقون النخل بحمل الطلع من ذكورها إلى إناثها^(٢٩) . وانتقل
الكرم والزيتون من أرض الجزيرة إلى بلاد اليونان والرومان ، ثم انتقل منهما
إلى غرب أوربا . أما الخوخ فقد انتقل إلى أوربا من بلاد الفرس القريبة من
أرض الجزيرة ؛ وجاء لوكلس بشجر الكرز من شواطئ البحر الأسود إلى رومة ،
وأصبح اللبن ، وهو الذى كان نادراً فى بلاد الشرق ، من الأطعمة الرئيسية فى
بلاد الشرق الأدنى . وكان اللحم قليلاً غالى الثمن ، ولكن السمك كان يصاد
من الجارى المائية العظيمة ، ويصل إلى بطون أفقر الطبقات . فإذا أقبل المساء
وخشى الفلاح أن يقلق باله التفكير فى الحياة والموت ، عمد إلى تهدئة هذه
الأفكار بالنبيذ المعصور من البلح أو بالجمعة المتخذة من الحب .

وكان غير الفلاحين من الأهلين يحفرون الأرض ، ويعثرون فيها على الزيت ،
ويستخرجون من باطنها النحاس والرصاص والحديد والفضة والذهب . ويصف
لنا استرابون كيف كان ما يسميه « النفط أو الأسفلت السائل » يستخرج من

أرض الجزيرة كما يستخرج منها اليوم ، ويقولون إن الإسكندر حين سمع بأن السائل العجيب ماء يحترق أراد أن يتثبت من هذا القول الذي لم يكده يصدقه ، فطلى به جسد غلام وأوقد فيه النار بمشعل^(٣٠) . وفي مستهل الألف السنة الأولى قبل ميلاد المسيح بدأ الأهليون يصنعون الآلات من البرنز ثم من الحديد ، وكانت لا تزال تصنع من الحجر في أيام حمورابي ، كما بدأت أيضاً صناعة صهر المعادن وسبكها . وكانوا ينسجون القطن والصوف ، وكانت الأقمشة تصبغ وتطرز بمهارة جعلتها من أتمن السلع التي تصدرها بابل إلى خارج بلادها . والتي وصفها كتاب اليونان والرومان أحسن وصف وأثنوا عليها أجمل الثناء^(٣١) . كذلك نجد نول النسيج وعجلة الفخرا في أقدم عهود التاريخ البابلي ، ويكاد النول والعجلة أن يكونا الآلتين الوحيدتين عند البابليين . وكانت مبانيهم تقام من الطين المخلوط بالقش أو من اللبنة التي كانت توضع بعضها فوق بعض وهي طرية رطبة وتترك حتى تجف وتتماسك بفعل الشمس . ولما رأى القوم أن اللبنة إذا جففت في النار كانت أصلب وأبقى على الزمن منها إذا جففت في الشمس عمدوا إلى حرقها في قماثن ، ومن ثم انتشرت صناعة الآجر بفضل هذا التطور الطبيعي انتشاراً سريعاً . وكانت الصناعات والحرف كثيرة متباينة ، وكثر المهرة من الصانع ، وتألفت منهم من عهد حمورابي نقابات كانت (تسمى القبائل) يشترك فيها الصبيان والمعلمون^(٣٢) . وكانت تستخدم في النقل عربات تجرى على عجل تجرها الحمير^(٣٣) ، وأول ما ذكر الحصان في السجلات البابلية كان في عام ٢١٠٠ ق : م ، وورد ذكره باسم « الحمار القادم من الشرق » ، ويظهر أنه جاء من هضاب آسية الوسطى وأنه غزا بابل مع الكاشيين ، كما وصل إلى مصر مع الهكسوس^(٣٤) . ولما استخدمت هذه الوسيلة من وسائل الانتقال والحمل انتشرت التجارة وامتدت من داخل البلاد إلى خارجها ، وأثرت بفضلها بابل وأضحت مركز تجارة الشرق الأدنى ، وكان انتشارها سبباً في ارتباط أم البحر الأبيض المتوسط القديمة ارتباطاً

جنت من ورائه الخير والشر على السواء . وسهل نبوخذ نصر التجارة بإصلاح الطرق الرئيسية ؛ وقال في هذا يُذَكِّرُ المؤرِّخين بأعماله :

« لقد جعلت من الممرات الوعرة غير المطروقة طرقاً ممهدة صالحة^(٣٥) » . وكانت القوافل التجارية الكثيرة تحمل إلى أسواق بابل وحوافيتها غلات نصف العالم المعروف ، فكانت تأتيها من الهند مارة بكابل وهيرات وإكبتانا ؛ ومن مصر مارة ببلوزيم وفلسطين ؛ ومن آسية الصغرى عن طريق صور وصيدا وسارديس إلى قرقيش ، ثم تنحدر جنوباً مع نهر الفرات . وكان لهذه التجارة كلها أثر كبير في عظمة مدينة بابل ، فأضحت في أيام نبوخذ نصر سوقاً عظيماً يعج بالبضائع والتجار ، فخرج منها الأثرياء ينشدون الراحة في مساكن أقاموها في الضواحي . وجدير بالقارى أن يلاحظ تلك النعمة الحديثة المكتوبة بها الرسالة التي بعث بها أحد سكان الضواحي إلى قورش ملك الفرس (حوالى عام ٥٣٩ ق . م) : « لقد بدت لى ضيعتنا أجمل ضياع العالم ؛ ذلك أنها كانت قريبة من بابل قريباً يمكننا من أن نستمتع بمزايا المدن العظمى ، وكان فى وسعنا مع هذا أن نعود إلى بيتنا وننجو مما فيها من تراحم وقلق^(٣٦) » .

ولم تفاح الحكومة فى إقامة نظام اقتصادى فى أرض الجزيرة كالذى أقامه الفراعنة فى مصر . فقد كانت التجارة تصادف كثيراً من الأخطار وتفرض عليها شتى الإتاوات . ولم يكن التجار يعرفون أى الأمرين يخشونه أشد من الآخر — يخشون اللصوص الذين قد يهاجمونهم فى طريقهم ، أم يخشون المدن والإقطاعيات التى تفرض عليهم الإتاوات نظير السماح لهم باستخدام طرقها . وكان آمن لهم أن يسيروا كلما استطاعوا فى الطريق القومى العام ، طريق نهر الفرات نفسه ، وقد جعله نبوخذ نصر صالحاً للملاحة من مصبه فى الخليج الفارسى إلى ثيساكس^(٣٧) . وفتحت حروبه فى بلاد العرب وغلبته على صور بحار الهند والبحر الأبيض المتوسط إلى التجارة البابلية ، ولكن التجار البابليين لم ينتهزوا هذه القرص السانحة

لارتياح هذه البحار إلا ارتياداً جزئياً ، لأن التاجر كانت تكثفه الأخطار في كل ساعة من ساعات النهار والليل أينما سار في البحار الواسعة وفي ممرات الجبال وفيافي الصحراء . نعم إن السفائن كانت كبيرة تغالب الأمواج ، ولكن الحواجز والصخور كانت كثيرة في البحار ، ولم يكن فن الملاحة قد أصبح بعد علماً ذا قواعد وأصول ؛ هذا إلى أن لصوص البحار ، وسكان الشواطئ الطامعين قد يغيرون على السفن في أية ساعة ، وينهبون المتاجر ويأسرون بحارتها أو يقتلونهم^(٣٨) . وكان التجار يستعوضون عن هذه الخسائر بأن يقصروا أمانتهم على ما تفرضه عليهم الضرورات في كل حالة من الحالات .

لكن هذه الصعاب التجارية قد يسرها بعض التيسير ما كان في البلاد من نظام مالي راق محكم . نعم إن البابليين لم يسكوا النقود ، ولكنهم حتى قبل أيام حمورابي كانوا يستخدمون في المقايضة — فضلاً عن الشعير والقمح — سبائك الذهب والفضة وسيلة للتبادل ومعياراً لتقدير قيم الأشياء . ولم تكن السبائك المعدنية مختومة أو مطبوعة بل كانت توزن في كل مرة . وكانت أصغر وحدة في العملة هي الشاقل وهو نصف أوقية من الفضة تتراوح قيمته بين ريالين ونصف وخمسة ريالات من نقود هذه الأيام . وكانت ستون شاقلًا تكون ميناً وستون ميناً تكون تالنتاً وقيمته من ١٠٠٠٠ إلى ٢٠٠٠٠ ريال^(٣٨) . وكانت القروض تتخذ صورة بضائع أو عملة ، وكانت فوائدها عالية تحددها الحكومة بعشرين في المائة سنوياً إذا كانت نقوداً ، وبثلاثة وثلاثين في المائة إن كانت بضاعة . على أن التجار كانوا يتجاوزون هذين السعرين الرسميين ، ويستأجرون مهرة الكتاب ليخادعوا الموكلين بتنفيذ القانون^{(*) (٣٩)} . ولم يكن في البلاد مصارف مالية ،

(*) كما كان يحدث في هذه البلاد من عهد غير بعيد ، فقد كان المرابون يقرضون الفلاحين بفوائد تبلغ أحياناً ٢٥ ٪ في ثلاثة شهور وكانوا يحتالون على القانون بإضافة الفائدة لي رأس المال ويدعون أن مجموعهما قرض حسن بلا فائدة ! (المترجم)

ولكن بعض الأسر القوية كانت تقوم طيلة أجيال متعددة بعملية إقراض النقود ، كما كانت تتجر في العقارات وتمول المشروعات الصناعية^(٤٠) . وكان في وسع من لهم أموال مودعة بين هؤلاء أن يؤديوا التزاماتهم بتحويل مالية مكتوبة^(٤١) . وكان الكهنة أيضاً يقرضون ، وأخص ما كانوا يقرضون له من الأغراض هو الزرع والحصاد . وكانت الشرائع في بعض الأحيان تنصر المدين على الدائن . من ذلك أنه إذا رهن فلاح مزرعته ، ولم يحن من كدحه محصولا بسبب العواصف أو الشرقي أو غيرها من « أفعال الله » ، فإنه لا يؤدي فوائد على دينه في السنة التي يعجز فيها المحصول^(٤٢) . ولكن القانون كان في معظم الأحيان يحرص على حماية الملك وتجنيب صاحبه الخسائر ، وكان من المبادئ التي تقوم عليها الشرائع البابلية أن ليس من حق إنسان ما أن يقترض مالا إلا إذا رغب في أن يكون مسئولاً مسئولية كاملة عن رده إلى صاحبه ؛ ومن أجل هذا كان في وسع الدائن أن يقبض على عبد المدين أو ابنه يتخذه رهينة للدين الذي لم يؤديه ، على ألا يبقى في حوزته أكثر من ثلاث سنين . وكان الربا هو الكارثة التي رزئت بها بلاد بابل واليمن الذي أدته تجارتها ، كما تؤديه الآن تجارتنا نحن ، نظير ما كان يبعثه نظام الائتمان الواسع من نشاط تجاري عظيم^(٤٣) .

لقد كانت حضارة البابليين حضارة تجارية في جوهرها ، وأكثر ما وصل إلينا من وثائقهم ذو صبغة تجارية — تتصل بالبيع ، والقروض ، والعقود ، والمشاركة ، والسمسة ، والتبادل ، والوصايا ، والاتفاقات ، والسفاح ، وما إليها . ونجد في هذه الألواح شواهد كثيرة تنطق بما كان عليه القوم من ثراء عظيم ، وبما كان يسرى في نفوسهم من روح مادية استطاعت كما استطاعت في حضارات أخرى غير حضارتهم أن توفق بين التقوى والشره . فنحن نرى في آدابهم دلائل كثيرة على الحياة النشيطة الراضية المرضية ، ولكننا نجد أيضاً في كل ناحية من نواحيها ما يذكّرنا بما كان يسرى في الثقافات جميعها من استرقاق . وأكثر ما تلذ

لنا قراءته من عقود البيع التي وصلت إلينا من عهد نبوخذ نصر ، العقود المتصلة بالعبيد^(٤٤) . وكان مصدر هؤلاء العبيد أسرى الحروب ، والغارات التي يشنها البدو الرّحل على الولايات الأجنبية ، ونشاط العبيد أنفسهم في التناسل . وكان ثمن الأرقاء يختلف من عشرين ريالاً إلى خمسة وستين للمرأة ، ومن خمسين ريالاً إلى مائة ريال للرجل^(٤٥) . وكان هؤلاء العبيد هم الذين يؤدون معظم الأعمال العضلية في المدن ، وتدخل في هذه الأعمال الخدمات الشخصية .

وكانت الجوارى ملكاً خالصاً لمن يبتاعهن ، وكان ينتظر منهن أن يمهدين له فراشه ويهيئن له طعامه ، وكان المعروف أنه سيستولدهن عدداً كبيراً من الأبناء ، فإذا رأت بعضهن أنهن لم يعاملن هذه المعاملة شعرن بمضض الإهمال والإهانة^(٤٦) . وكان العبد وكل ما ملكت يداه ملكاً لسيده : من حقه أن يبيعه أو يرهنه وقاء لدين ؛ ومن حقه أن يقتله إذا ظن أن موته أعود عليه بالفائدة من حياته . وإذا أبق العبد فإن القانون لا يسمح لأحد أن يحميه ، وكانت تقدر جائزة لمن يقبض عليه . وكان من حق الدولة أن تجنده كما تجند الفلاح الحر للخدمة العسكرية أو تسخره للقيام ببعض الأعمال العامة كشق الطرق وحفر الترع . لكنه كان له على سيده أن يؤدي عنه أجر الطبيب ، وأن يقدم له كفايته من الطعام إذا مرض أو تعطل عن العمل أو بلغ سن الشيخوخة . وكان من حقه أن يتزوج بحرة فإذا رزق منها أبناء كانوا أحراراً ، فإذا مات من هذا شأنه كان نصف أملاكه من حق أسرته . وكان سيده أحياناً يكل إليه عملاً من الأعمال التجارية ، وكان من حقه في هذه الحال أن يحتفظ ببعض أرباح العمل وأن يبتاع بها حريقه ، وكان سيده يعتقد أحياناً إذا أدى له خدمة ممتازة ، أو خدمه زمناً طويلاً بأمانة وإخلاص . ولكن هذا النوع الأخير من الحرية لم ينله إلا القليلون من العبيد . أما كثرتهم فكانوا يقنعون من حياتهم بكثرة الأبناء ، حتى صاروا أكثر عدداً من الأحرار . فكانت طبقة الأرقاء الكبيرة تتحرك كأنها نهر تحت جيتاش يجري تحت قواعد الدولة البابلية .

الفصل الثالث

القانون

قانون حمورابي — سلطة الملك — تحكيم الآلهة — القصاص — أنواع العقاب —
قوانين الأجور والأثمان — رد البضائع المسروقة عن طريق الدولة

وطبيعي أن مجتمعاً كهذا لا تدور بخلده فكرة الديمقراطية ؛ ذلك أن نزعتة الاقتصادية تتطلب أن تكون له حكومة ملكية مطلقة تسند لها الثروة التجارية أو الامتيازات الإقطاعية ، ويحميها توزيع حكيم للعنف القانوني . وكان كبار الملوك ، ومن حل محلهم بالتدريج من التجار الأثرياء ، هم الذين أعانوا الدولة على الاحتفاظ بنظامها الاجتماعي ، كما كانوا هم الواسطة بين الشعب ومليكه . وكان الملك يورث عرشه لمن يختاره من أبنائه بلا تفريق بينهم ، ومن ثم كان كل واحد من هؤلاء الأبناء يعدّ نفسه ولياً للعهد ويجمع حوله عصبة تناصره ، وكثيراً ما كان يشن الحرب على إخوته إذا لم تحقق آماله^(٤٧) . وكان يدير دولاب الحكومة في نطاق هذه القواعد التعسفية عدد من كبار الموظفين الإداريين في العاصمة وفي الأقاليم ، يعيّنهم الملك . وكان إلى جانبهم جمعيات إقليمية أو بلدية مؤلفة من أعيان البلاد أو شيوخها يسدون النصيحة إلى هؤلاء الحكام ، ويقفونهم عند حدودهم إذا تجاوزوها . وقد استطاع هؤلاء أن يحتفظوا للولايات بقسط موفور من الحكم المحلي حتى في أيام سيطرة الآشوريين^(٤٨) .

وكان كل موظف إداري ، كما كان الملك نفسه في معظم الأحوال ، يعترف بسلطان كتاب القانون العظيم الذي تحدّد وضعه وصيغته في عهد حمورابي ، ويسترشد به . وقد ظل هذا القانون العظيم محتفظاً بجوهره خمسة عشر قرناً كاملاً رغم ما طرأ على أحوال البلاد من تغيير ، ورغم ما أدخل عليه من تفاصيل . وكان تطوره يهدف

إلى استبدال العقوبات الدنيوية بما كان فيه من عقوبات دينية ، كما يهدف إلى استبدال الرحمة بالقسوة والغرامات المالية بالعقوبات البدنية . مثال ذلك أن محاكمة المتهمين كانت في الأيام الأولى توكل إلى الآلهة . فإذا اتهم رجل بممارسة السحر ، أو اتهمت امرأة بالزنا ، طلب إليهما أن يقفزا على نهر الفرات ، وكانت الآلهة على الدوام في جانب أقدر المتهمين على السباحة ، فإذا نجت المرأة من الغرق كانت نجاتها برهاناً على براءتها ؛ وإذا غرق « الساحر » آلت أملاكه إلى من اتهمه ، أما إذا نجا من الغرق فإنه يستولى على أملاك متهمه^(٤٩) . وكان القضاة الأولون من الكهنة ، وظلت الهيكل^(٥٠) مقر معظم المحاكم إلى آخر تاريخ البابليين ، لكن محاكم غير دينية لا تسأل عن أحكامها إلا أمام الحكومة أخذت من أيام حمورابي نفسه نحل محل المراكز القضائية التي كان يرأسها الكهنة .

وقام العقاب في أول الأمر على مبدأ قانون القصاص « النفس بالنفس والعين بالعين » . فإذا كسر إنسان لرجل شريف سناً ، أو فقا له عيناً ، أو هشم له طرفاً من أطرافه ، حل به نفس الأذى الذي سببه لغيره^(٥١) . وإذا انهار بيت وقتل من اشتراه حكم بالموت على مهندسه أو بانيه ؛ وإذا تسبب عن سقوطه موت ابن الشاري حكم بالموت على ابن البائع أو الباني ؛ وإذا ضرب إنسان بنتاً وماتت لم يحكم بالموت على الضارب بل حكم به على ابنته^(٥٢) . ثم استبدل بهذه العقوبات النوعية شيئاً فشيئاً غرامات مالية ، وبدأ ذلك بأن أجيز دفع فدية مالية بدل العقوبة البدنية^(٥٣) ثم أصبحت الفدية بعدئذ العقوبة الوحيدة التي يجيزها القانون . فكان جزاء فقء عين السوق ستين شاقلاً من الفضة ، فإذا فقئت عين عبد كان جزاء فقئها ثلاثين^(٥٤) . ذلك أن العقوبة لم تكن تختلف باختلاف خطورة الجريمة وحسب ، بل كانت تختلف أيضاً باختلاف مركز الجاني واللجنى عليه . فإذا ارتكب أحد السراة جريمة كان عقابه أشد من عقاب السوق إذا ارتكب الجريمة نفسها ، أما الجريمة التي ترتكب ضد أحد الأشراف فقد كانت غالية

الثلث . وإذا ضرب أحد السوقه آخر من طبقته غرم عشرة شواقل أو ما يقرب من خمسين ريالاً ، فإذا ما ضرب شخصاً ذا لقب أو ذا مال غرم سبعة أضعاف هذا المبلغ^(٥٥) . وإلى هذه العقوبات الرادعة كانت هناك عقوبات همجية هي بتر الأعضاء أو الإعدام . فإذا ضرب رجل أباه جوزى بقطع يده^(٥٦) . وإذا تسبب طبيب أثناء عملية جراحية في موت مريض أو في فقد عين من عينيه قطعت أصابع الطبيب^(٥٧) . وإذا استبدلت قابلة طفلاً بآخر عن علم بفعلتها قطع ثدياها^(٥٨) . وكانت جرائم كثيرة يعاقب عليها بالموت ، منها هتك العرض ، وخطف الأطفال ، وقطع الطرق ، والسطو ، والفسق بالأهل ، وتسبب المرأة في قتل زوجها لتتزوج بغيره ، ودخول كاهنة خماراً أو فتحها إياها ، وإيواء عبد آبق ، والجن في ميدان القتال ، وسوء استعمال سلطة الوظيفة ، وإهمال الزوجة شئون بيتها أو سوء تدبيرها إياها^(٥٩) ، وغش الخمر^(٦٠) . بهذه الوسائل التي دامت آلاف السنين استقرت التقاليد والعادات التي أدت إلى حفظ النظام وضبط النفس ، والتي أضحت فيما بعد عن غير قصد جزءاً من الأسس التي قامت عليها الحضارة .

وكانت الدولة تحدد أثمان السلع والأجور والأتعاب داخل نطاق بعض الحدود . فأجر الجراح مثلاً كان يقرره القانون ، وحدد قانون حمورابي أجور البنائين ، وضاربي الطوب ، والخياطين ، والبنائين بالحجارة ، والنجارين ، والبحارة ، والرعاة ، والفعلة^(٦١) . وخص قانون الوراثة أبناء الرجل بتركته دون زوجته ، فجعلهم ورثته الطبيعيين الأقربين ؛ فإذا مات رجل عن زوجته كان لها الحق في مهرها وفي هدية عرسها ، وظلت ربة البيت مادامت على قيد الحياة . ولم يكن حق الميراث محصوراً في الابن الأكبر بل كان الأبناء كلهم سواسية في الميراث ، ومن ثم لم تلبث الثروات الكبرى أن تقسمت وتقسمت ، فامتنع بذلك تركزها في أيدي قلائل^(٦٢) . وكان القانون يعد الملكية الفردية للعقار والمنقولات أمراً مسلماً به لا جدال فيه .

ولم نجد في الوثائق ما يستدل منه على وجود المحامين في بابل إلا إذا اعتبرنا من المحامين القسيسين الذين كانوا يعملون موثقين للعقود ، والكتبة الذين كانوا يكتبون كل ما يطلب إليهم كتابته من الوصية إلى الأرجوزة نظير أجر يتقاضونه . وكان المدعى يترافع في قضيته بنفسه دون أن يستعين بترف الاصطلاحات القانونية . ولم يكن الناس يشجعون على التقاضي ، فقد كانت أول مادة في القانون تنص في بساطة تكاد تكون غير « قانونية ! » . على أنه « إذا اتهم رجل آخر بجريمة (يعاقب عليها بالإعدام) ثم عجز عن إثباتها حكم على المدعى نفسه بالإعدام »^(٦٣) . وثمة شواهد دالة على وجود الرشوة وإفساد الشهود^(٦٤) ، وكانت في مدينة بابل محكمة استئناف يحكم فيها « قضاة الملك » ، وكان في وسع المتقاضين أن يرفعوا استئنافاً نهائياً إلى الملك نفسه . وليس في شرائع بابل ما يفيد وجود حق للفرد قبل الدولة ؛ بل كان الفضل في وضع النص على هذا الحق فضل الأوربيين . غير أنه إذا لم يوفر القانون للأهلين الحماية السياسية فلا أقل من أنه قد وفر لهم في المواد ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ الحماية الاقتصادية : « إذا ارتكب رجل جريمة السطو وقبض عليه ، حكم على ذلك الرجل بالإعدام » . فإذا لم يقبض عليه كان على المسروق منه أن يدلى ، في مواجهة الإله ، ببيان مفصل عن خسائره ؛ وعلى المدينة التي ارتكبت السرقة في داخل حدودها والحاكم الذي ارتكبت في دائرة اختصاصه أن يعوّضاه عن كل ما فقده . فإذا أدى السطو إلى خسارة في الأرواح دفعت المدينة ودفع الحاكم مئبنا (٣٠٠ ريال) إلى ورثة القتيل » . فهل ثمة في هذه الأيام مدينة بلغ صلاح الحكم فيها درجة تجرؤ معها على أن تعرض على من تقع عليه جريمة بسبب إهمالها مثل هذا التعويض ؟ وهل ارتقت الشرائع حقا عما كانت عليه أيام حمورابي ، أو أن كل الذي حدث لها أن تعقدت وتضخمت ؟

الفصل الرابع

آلهة بابل

الدين والدولة — واجبات الكهنة وسلطانهم — الآلهة الصغار — مردك —
إشتار — القصص البابلية عن خلق العالم والطوفان — حب إشتار وتموز — نزول
إشتار إلى الجحيم — موت تموز وبعثه — الطقوس الدينية والصلوات — تسايح
التوبة — الخطيئة — السحر — الحرافات

لم تكن سلطة الملك يقيدها القانون وحده ولا الأعيان وحدهم ، بل كان يقيدها أيضاً الكهنة . ذلك أن الملك لم يكن من الوجهة القانونية إلا وكيلاً للإله المدينة ، ومن أجل هذا كانت الضرائب تفرض باسم الإله ، وكانت تتخذ سبيلها إلى خزائن الهياكل إما مباشرة أو بشتى الأساليب والحيل . ولم يكن الملك يُعدّ ملكاً بحق في أعين الشعب إلا إذا خلع عليه الكهنة سلطته الملكية ، و « أخذ بيد بل » ، واخترق شوارع المدينة في موكب مهيب ممسكاً بصورة مردك . وكان الملك في هذه الاحتفالات يلبس زى الكاهن ، وكان هذا رمزاً إلى اتحاد الدين والدولة ، ولعله كان أيضاً يرمز إلى أصل الملكية الكهنوتية . وكانت تحيط بعرشه جميع مظاهر خوارق الطبيعة ، ومن شأن هذه كلها أن تجعل الخروج عليه كفراً ليس كمثله كفر ، لا يجزى من يجزؤ عليه بضياح رقبته فحسب ، بل يجزى أيضاً بنحسران روحه . وحتى حمورابي العظيم نفسه تلقى قوانينه من الإله . ولقد ظلت بلاد بابل من أيام الباتيسيين أو القساوسة — الملوك السومريين إلى يوم تتويج نبوخذ نصر في واقع الأمر دولة دينية « خاضعة لأمر الكهنة » على الدوام^(٦٥) وزادت ثروة الهياكل جيلاً بعد جيل كلما اقتسم الأثرياء المذنبون أرباحهم مع الآلهة . وكان الملوك يشعرون بشدة حاجتهم إلى غفران الآلهة فشادوا لهم الهياكل ، وأمدوها بالآثاث والطعام والعبيد ، ووقفوا عليها مساحات واسعة من

الأرض ، وخصوها بقسط من إيراد الدولة يؤدونه إليها في كل عام . فإذا ما غنم الجيش واقعة حربية كان أول سهم من الغنائم ومن الأسرى من نصيب الهياكل ، وإذا أصاب الملك مغنا قدمت الهدايا العظيمة للآلهة . وكان يفرض على بعض الأراضى أن تؤدى للهياكل ضريبة سنوية من التمر والحب والفاكهة ؛ فإذا لم تؤدها نزع الهياكل ملكيتها ، وانتقلت هذه الملكية للكهنة أنفسهم في أغلب الأحوال . وكان الفقراء والأغنياء على السواء يخصصون للهياكل من مكاسبهم الدنيوية القدر الذى يظنون أنه يتفق ومصلحتهم الخاصة ، وبذلك تكس في خزائن الهياكل الذهب ، والفضة ، والنحاس ، واللآزورد ، والجواهر والأخشاب النفيسة .

وإذا لم يكن في مقدور الكهنة أن يستخدموا هذه الثروة كلها أو يستنفدوها فقد حولوها إلى رأس مال منتج أو مستثمر ، وأصبحوا بذلك أعظم القوامين على الشؤون الزراعية والصناعية والمالية في الأمة بأسرها . ولم يكونوا يملكون مساحات واسعة من الأرض فحسب ، بل كانوا يملكون فوق ذلك عدداً عظيماً من العبيد ، ويسيطرون على مئات من العمال ، يؤجرونهم لغيرهم من أصحاب الأعمال ، أو يسخرونهم لخدمة الهياكل بالعمل في حرف لا حصر لها ، تختلف ما بين عزف على الآلات الموسيقية إلى عصر الخمر^(٦٦) . كذلك كان الكهنة أعظم تجار بابل ورجال المال فيها ، وكانوا يبيعون ما في حوانيت المعابد من سلع مختلفة ، ويساهمون بقسط موفور في تجارة البلاد . وقد عرف عنهم أنهم من أحكم الأهلين في استثمار الأموال ، ولهذا عهد إليهم الكثيرون استثمار أموالهم المدخرة لوثوقهم من أنهم سيحصلون منها على أرباح مضمونة وإن لم تكن موفورة . وكانوا يقرضون المال بشروط أرحم من الشروط التى يقرضها بها غيرهم من الأفراد ؛ وكانوا في بعض الأحيان يقرضون المرضى والفقراء بغير فائدة ، لا يطلبون إلا رؤوس أموالهم حين يبسم مردك المقرض من جديد^(٦٧) . وكانوا

إلى هذا كله يؤدون بعض الأعمال العامة ، فكانوا يعملون في توثيق العقود ، ويشهدون عليها ، ويوقعونها بأسمائهم ، ويكتبون الوصايا ، ويستمعون إلى القضايا والمحاكمات ويفصلون فيها ، ويحفظون السجلات الرسمية ، ويسجلون الأعمال التجارية .

وكان الملك أحياناً يصادر بعض أموال الهياكل إذا واجه أزمة تتطلب المال الكثير . ولكن هذا كان عملاً نادراً شديداً الخطورة ، لأن الكهنة كانوا يصبون أشد اللعنات على كل من يمس أقل شيء من الأملاك الدينية بغير إذن منهم . هذا إلى أن نفوذهم لدى الأهلين كان أعظم من نفوذ الملك نفسه ، وكان في وسعهم في بعض الأحيان أن يخلعوه عن عرشه إذا أجمعوا أمرهم وسخروا ذكاءهم وقواهم لهذه الغاية . يضاف إلى هذا أنهم يمتازون بالدوام والخلود ؛ ذلك أن الملك يموت أما الإله فمخلد ، ومن أجل هذا كان جمع الكهنة الآمن من تقلبات الانتخاب ، وأخطار المرض ، والاغتيال والحرب ، هيئة دائمة في مقدورها أن تضع الخطط الطويلة الأجل ، وهي ميزة لا تزال تتمتع بها الهيئات الدينية الكبرى إلى هذا اليوم . كل هذه ظروف جعلت للكهنة سلطاناً فوق كل سلطان ، وكان الأقدار قد شاءت أن تقوم بابل على جهود التجار ، وأن يستمتع بخيراتها الكهنة .

ترى ما هي تلك الآلهة التي كانت الشرطة الخفية للدولة البابلية ؟ لقد كانت هذه الآلهة كثيرة العدد ، لأن الأهلين كان لهم في خلقها خيال واسع لا ينضب معينه ، ولم يكن ثمة حد للخدمات التي يمكن أن تؤديها لهم آلهتهم . وقد أحصى عدد الآلهة إحصاء رسمياً في القرن التاسع قبل الميلاد فكانوا حوالي ٦٥٠٠٠^(٦١) . ذلك أن كل مدينة كان لها رب يحميها ، وكان يحدث في بابل ودينها ما يحدث عندنا اليوم وفي ديننا نحن . فقد كان للمقاطعات والقرى آلهة صغرى تعبدوها وتخلص لها ، وإن كانت تخضع رسمياً للإله الأعظم . فقد أقيمت في لارسا الهياكل

الكثيرة لشمس ، ولاشتار في أروك ، ولننار في أور — ذلك أن الآلهة السومرية لم ينقض عهدها بانقضاء عهد دولة السومريين . ولم يكن الآلهة بمنأى عن الأهلين ، فقد كان معظمهم يعيشون على الأرض في الهياكل ، يأكلون الطعام بشهية قوية ، ويزورون الصالحات من النساء في أثناء الليل فيستولدونهن أطفالاً لم يكن أهل بابل العاملون المجدون يتوقعون أن يولدوا لهم^(٦٩) .

وأقدم الآلهة كلهم آلهة السماء وما فيها : أنوال السماء الثابتة ، وشمس الشمس ، وننار القمر ، وبل أو بعل الأرض التي يعود كل البابليين إلى صدرها بعد مماتهم^(٧٠) . وكان لكل أسرة آلهتها المنزلية تقام إليها الصلاة ، وتصب إليها الخمر في كل صباح ومساء ؛ وكان لكل فرد رب يحميه (أو ملك يجرسه كما نقول نحن بلغة هذه الأيام) ، يرد عنه الأذى والسرور ؛ وكان جن الخصب يحومون فوق الحقول ليباركوها . ونعل اليهود قد صاغوا ملائكتهم من هذا الحشد العظيم من الأرواح .

ولسنا نجد لدى البابليين شواهد على التوحيد كالتى ظهرت في عهد إخناتون وعهد إشعيا الثاني ؛ على أن قوتين من القوى قد قربتا من هذا التوحيد ، أولاهما اتساع رقعة دولتهم عقب الحروب ، وهذا الاتساع أخضع آلهتهم المحلية لسلطان إله واحد ؛ والقوة الثانية أن كثيراً من المدن كانت تخضع على إلهها الخاص الحبيب لها السلطان الأعلى والقدرة على كل شيء . من ذلك قول نبو مثلاً : « آمن بنبو ، ولا تؤامن بغيره من الآلهة^(٧١) » . ولا يختلف هذا القول كثيراً عن الوصية الأولى من وصايا اليهود . وقل عدد الآلهة شيئاً فشيئاً بعد أن فسرت الآلهة الصغرى بأنها صور أو صفات للآلهة الكبرى . وعلى هذا النحو أصبح مردك إله بابل — وكان في بادئ الأمر من آلهة الشمس — كبير الآلهة البابلية^(٧٢) . ومن ثم لقب بيل — مردك أى مردك الرب — وإليه وإلى إشتار كان البابليون يوجهون أحر صلواتهم وأبلغ دعواتهم .

وليست أهمية إشتار (وهي إشتارتى عند اليونان وعشتورت عند اليهود) لدينا مقصورة على أنها شبيهة بإيزيس إلهة المصريين ، وعلى أنها النموذج الذى صاغ اليونان على مثاله إلهتهم أفرديتى والرومان فينوس ، بل إنها تهمنا فوق ذلك لأنها تبارك عادة من أغرب العادات البابلية . فقد كانت هى دمترو وأفرديتى معا — أى أنها لم تكن إلهة جمال الجسم والحب فحسب ، بل كانت فوق هذا الإلهة الرحيمة التى تعطف على الأمومة الولود ، والموحية الخفية بخصب الأرض ، والعنصر الخلاق فى كل مكان . ويستحيل علينا ، إذا نظرنا إلى صفات إشتار ووظائفها بمنظار هذه الأيام ، أن نجد بينها كثيراً من التناقض ؛ فقد كانت مثلاً إلهة الحرب والحب ، وإلهة العاهرات والأمهات ؛ وكانت تسمى نفسها « المحظية الرحيمة »^(٧٣) . وكانت تصور أحياناً فى صورة إلهة ملتحمية تجمع بين صفات الذكران والإناث ؛ وأحياناً فى صورة امرأة عارية تقدم نديها للرضاع^(٧٤) . ومع أن عبادها كثيراً ما يخاطبونها بقولهم « العذراء » و « العذراء المقدسة » و « الأم العذراء » ، فإن كل ما تعنيه هذه الأقوال أن حبها كان مبرئاً من دنس الزواج . وقد رفض جلعيمش أن يتزوج بها حين عرضت عليه الزواج ، وحبته فى ذلك أنها لا يوثق بها ، ألم تحب فى يوم من الأيام أسداً وأغوته ، ثم قتلتها^(٧٥) ؟

وجلى أننا يجب أن نتغاضى عن قانوننا الأخلاقى إذا شئنا أن نفهم مقام هذه الإلهة على حقيقته . فليتأمل القارى تلك الحماسة القوية التى يرفع بها البابليون إلى مقامها العظيم تسابيح الحمد التى لا يكاد يفوقها فى روعتها إلا تلك التسابيح التى كان الأتقياء من المسيحيين يرفعونها فيما مضى لمريم أم المسيح :

أتوسل إليك يا سيدة السيدات ، يارية الربات ، يا إشتار ، يا ملكة المدائن كلها ، ويا هادية كل الرجال .

أنت نور الدنيا ، أنت نور السماء ، يا ابنة سن العظيم (إله القمر) ...
ألا ما أعظم قدرتك ، وما أعظم مقامك فوق الآلهة أجمعين .

أنت تحكمين وحكمك عدل .
وإليك تخضع قوانين الأرض وقوانين السماء .
وقوانين الهياكل والأضرحة ، وقوانين المساكن الخاصة والغرف الخفية .
أين المكان الذى لا يذكر فيه اسمك ، وأين البقعة التى لا تعرف
فيها أوامرك ؟

إذا ذكر اسمك اهتزت لذكره الأرض والسموات ، وارتجفت له الآلهة
إنك تنظرين إلى المظلومين ، وتنصفين فى كل يوم المهانين المحقرين
إلى متى يا ملكة السماء والأرض ، إلى متى ؟
إلى متى ياراعية الرجال الشاحبي الوجوه تتمهلين ؟
إلى متى ، أيتها الملكة التى لا تكل قدماها ، والتى تسرع ركبتها ؟
إلى متى يا سيدة الجيوش ، يا سيدة الوقائع الحربية ؟
يا عظيمة ، يا من تهابك كل أرواح السماح ويامن تخضعين كل الآلهة
الغضاب ، ويا قوية فوق كل الحكام ، ويامن تمسكين بأعنة الملوك ؟
يا فاتحة أرحام جميع الأمهات ، ما أجل سنائك !
يا نور السماء البراق ، يا نور العالم ، يا من تضيئين كل الأماكن التى
يسكنها بنو الإنسان ، يا من تجمعين جيوش الأمم
يا إلهة الرجال ، ويا ربة النساء ، إن مشورتك فوق متناول العقول .
حيث تبطلعين تعود الحياة إلى الموتى ، ويقوم المرضى ويمشون ، ويشفى
عقل المريض إذا نظر إلى وجهك
إلى متى ، أيتها السيدة ، ينتصر على عدوى ؟
فأمرى ، فمتى أمرت ارتد الإله الغضوب
إن إشتار عظيمة ! إشتار ملكة ! سيدتى ، جليلة القدر ، سيدتى ملكة ،
إنينى ، إبنة سن القوية . ليس لها مثيل (٧٦) .

وأتخذ البابليون هذه الآلهة شخصيات نسجوا حولها أساطيرهم التي وصل إلينا معظمها عن طريق اليهود ، وأضحت جزءاً من قصصنا الديني . وأول ما نذكره من قصصهم قصة الخلق . فقد كان في أول الأمر عماء « ففي الوقت الذي لم يكن فيه شيء عال يسمى السماء ، ولم يكن شيء وطىء يسمى الأرض ، جاء أبسو المحيط ، وكان أبا الأشياء أول الأمر ، وتيامات العماء ، التي ولدتها كلها ، وخلطاً ماءهما معا » ، وبدأت الأشياء تنمو على مهل وتتخذ لها أشكالاً ، ولكن تيامات الإلهة المهولة شرعت تبيد كل الآلهة الآخرين ، لتجعل نفسها — العماء — صاحبة المقام الأعلى . وأعقبت هذا ثورة عنيفة اضطرب منها كل نظام . ثم جاء إله آخر هو مردك وقتل تيامات بدوائها هي . وذلك بأن دفع في فمها ريحا عاصفة حين فتحت لتبتلعها . ثم طعنها برمح في بطنها الذي انتفخ بما دخله من الرياح ، فانفجرت إلهة العماء . وتقول القصة بعدئذ إن مردك « عاد إليه هذوؤه » فقسم تيامات الميتة قسمين مستطيلين ، كما يقسم الإنسان السمكة ليخففها ، « ورفع أحد النصفين إلى أعلى فكان هو السماء ، وبسط النصف الآخر تحت قدميه فكان الأرض ^(٧٧) .

هذا كل ما وصل إلى علمنا حتى الآن عن قصة الخلق عند البابليين . ولعل الشاعر القديم أراد أن يوحى إلينا بهذه القصة أننا لا نعرف عن بداية الخلق إلا أن النظام قد استبدل بالفوضى والعماء ، لأن هذا في آخر الأمر هو جوهر الفن والحضارة . على أننا يجب ألا يغرب عن بالنا أن هزيمة العماء ليست إلا أسطورة من الأساطير ^(*)

ولما أن فتق مردك السماء والأرض ووضعهما في مكانيهما ، شرع يعجن الأرض بدمائه ويصنع الناس لخدمة الآلهة . وتختلف القصص البابلية في وصف الطريقة

(*) وكتبت قصة الخلق البابلية على سبعة ألواح (كل يوم من أيام الخلق على لوح) وقد وجدت في خرائب مكتبة آشور بانيبال في قوينيچك (نينوى) في عام ١٨٥٤ . وهذه الألواح نسخة من قصة انحدرت إلى بابل وأشور من بلاد سومر ^(٧٨) والمؤلف يريد بقوله : « إن استبدال العماء بالفوضى أسطورة » أن الفوضى لا تزال تضرب أطنابها في الأرض وأنها لا تكاد تزول منها حتى تعود إليها (المترجم)

الدقيقة التي تم بها صنع الإنسان ، ولكنها تتفق كلها بوجه عام في القول بأن الإله صنع الإنسان من قطعة من الطين ، وهي لا تصفه بأنه كان يعيش في بادية* الأمر في جنة بل تقول إنه كان يعيش عيشة حيوانية في جهل وبسطة حتى جاءه وحش مهول يدعى أونس نصفه سمكة ونصفه فيلسوف ، وعلمه الفنون والعلوم وتخطيط المدن ومبادئ القانون ؛ ولما علمه إياها نزل إلى البحر وكتب كتاباً في تاريخ الحضارة^(٧٩) . غير أن الآلهة لم تلبث أن غضبت على الناس الذين خلقتهم ، فأرسلت عليهم طوفانا عارماً تهلكهم وتمحوبه مبي* أعمالهم . وأشفق إى إله الحكمة على البشر واعتزم أن ينجى منهم على الأقل رجلاً واحداً هو شمش — نيشتين وزوجته . « وظل الطوفان مهتاجاً ؛ وغص البحر بالخلق كأنهم سرء السمك » . ثم بكّت الآلهة على حين غفلة وعضت بنان الندم على غفلتها وسوء تدبيرها وتساءلت « عمن سيقرب لها القربان المعتاد ؟ » ، ولكن شمش — نيشتين كان قد بنى فلكا ونجا من الطوفان ، وحط على جبل نذير ، وأرسل يمامة تستطلع ؛ ثم قرر أن يقرب القربان للآلهة ، وقبّلت الآلهة قربانه وهي مندهشة شاكرة . « وشمّت الآلهة الرائحة ، شمّت الآلهة الرائحة الذكية ، واجتمعت كالذباب فوق القربان »^(٨٠)

وأجمل من هذه الذكرى الغامضة ، ذكرى الطوفان الخرب ، أسطورة إشتار وتموز . وكان تموز حسب نص القصة السومري أخا أصغر لإشتار ، أما في النص البابلي فهو أحياناً حبيبها وأحياناً ابنها . ويلوح أن كلا النصين قد سرى إلى أسطورة فينوس (الزهرة) وأدنيس ، وأسطورة دمتروپرستون ، وإلى عشرات العشرات من القصص الأخرى التي تتحدث عن الموت والبعث . وتموز هذا ، ابن الإله العظيم إى ، راع يرعى غنمه تحت إريد الشجرة العظيمة (التي تغطي الأرض كلها بظلها) ، وبينما هو يرعاها إذ شغفت بحبه إشتار ، وهي دوماً ظمأى إلى الحب ، واختارته زوجاً لها في شبابها . ولكن خنزيراً برياً يطعن تموز طعنة

قاتلة فيهوى كما يهوى جميع الموتى إلى الجحيم المظلم تحت الأرض ، واسمه أراو عند البابليين ، وكانت تحكمه إرشكجال أخت إشتار التي كانت تغار منها وتحسدها . وتحزن إشتار ويبرح بها الحزن ، فتعزم النزول إلى أراو لتعيد الحياة إلى تموز ، وذلك بأن تغسل جروحه في مياه إحدى العيون الشافية . وسرعان ما تظهر عند باب الجحيم في جمالها الرائع وتطلب أن يؤذن لها بالدخول . وتقص الألواح قصتها في صورة واضحة قوية :

فلما سمعت إرشكجال هذا

كانت كمن يقطع الطرفاء (ارتجفت ؟)

وكما يقطع الإنسان قصبة (اضطربت ؟)

« أى شيء حرك قلبها ، أى شيء (خفقت له) كبدها ؟

يا من هناك ، (هل) هذه (تريد أن تقيم) معي ؟

وأن تتخذ من الطين طعاما ، وأن تشرب (التراب) خمرًا ؛

إننى أبكى الرجال الذين فارقوا أزواجهم ،

وأبكى النساء اللاتي انتزعن من أحضان أزواجهن ؛

والصغار الذين (اختضروا قبل الأوان) ،

أذهب أيها الخازن ، وافتح لها الباب ،

وعاملها بمقتضى القرار القديم . »

وهذا القرار القديم يقضى ألا يدخل أراو إلا العراة . وعلى هذا فإن الخازن

يخلع عن إشتار ثوباً من ثيابها أو حلية من حلبيها عند كل باب يتمتم عليها أن

تجتازه : فيخلع عنها أولاً تاجها ، ثم قرطبيها ، ثم عقدها ، ثم حلية صدرها ،

ثم منطقتها ذات الجواهر الكثيرة ، ثم الزركشة البراقة التي في يديها وقدميها ،

ثم يخلع عنها آخر الأمر منطقة حقوبيها ؛ وتمانع إشتار في رقة ، ثم تخضع :

فلما نزلت إشتار إلى الأرض التي لا يعود منها من يدخلها

أبصرتها إرشكجال وأغضبها مجيؤها .
وألقت إشتار بنفسها عليها من غير تفكير ،
وفتحت إرشكجال فآها وتحدثت
إلى نمتار رسولها ...

« اذهب ، يا نمتار ، (واسجنها ؟) في قصرى ،
وسلط عليها ستين مرضا ،
مرض العيون على عينيها ،
ومرض الجنب على جنبها ،
ومرض الأقدام على قدميها ،
ومرض القلوب على قلبها ،
ومرض الرأس على رأسها ،
على جميع جسدها .

وبينا كانت إشتار حبيسة في الجحيم بما أرسلته عليها أختها ، شعرت
الأرض بأنها فقبت ما كان يوحى به إليها وجودها على ظهرها ، فنسيت جميع
الفنون وطرائق الحب ، فلم يعد النبت يلقيح النبت ، وذبلت الخضر ، ولم تشعر
الحيوانات بحرارة ، وامتنع الرجال عن الحنين :

ولما نزلت السيدة إشتار إلى الأرض التي لا يعود منها من يدخلها
لم يعمل الثور البقرة ، ولم يقرب الحمار الأتان
والفتاة في الطريق لم يقترب منها رجل ؛
ونام الرجل في حجرته
ونامت الفتاة وحدها .

وأخذ السكان يتناقصون ، وارتاعت الآلهة حين رأت نقص ما ترسله إليها
الأرض من القرابين ، واستولى عليها الذعر فأمرت إرشكجال أن تطلق سراح

إشتار؛ وتصعد إرشكجال بأمر الآلهة ، ولكن إشتار تأبى أن تعود إلى ظهر الأرض إلا إذا سمح لها أن تأخذ معها تموز. وتجاب إلى طلبها ، وتجتاز وهي ظافرة الأبواب السبعة ، وتتسلم منطقة حقوبها ثم الزركشة البراقة التي كانت على يديها وقدميها ، ثم منطقتها ، ثم حلى صدرها ، وعقدها ، وقرطبيها ، وتاجها . فلما ظهرت على الأرض نما النبات وأنبع من جديد ، وامتلات الأرض طعاماً ، وعاد كل حيوان يعمل للإكثار من نسله^(٨١) ، وعاد الحب — وهو أقوى من الموت — إلى مكانه الحق سيد الآلهة والأناسي . تلك قصة كل ما يراه فيها عالم اليوم أنها قصة رائعة خليقة بالإعجاب ، ترمز في صورة جميلة ممتعة إلى موات التربة وعودتها إلى الحياة في كل عام ، وإلى ما للحب من قدرة دونها كل قدرة ، وصفها الكريتنس في شعره القوى حين تحدث عن الزهرة (فينوس) . أما البابليون فكانت لهم تاريخاً مقدساً يؤمنون به أقوى إيمان ، ويحتفلون بذكرى وقائعه في يوم يحزنون فيه وينتحبون ويبكون تموز الميت ، يتلوه يوم ينتهبون فيه ويمرحون وهو يوم بعثه^(٨٢) .

بيد أن عقيدة الخلود لم يكن فيها ما تبتهج له نفس البابلي . ذلك أن دينه كان ديناً أرضياً عملياً . فإذا صلى لم يكن يطلب في صلاته ثواباً في الجنة بل كان يطلب متسعاً في الأرض^(٨٣) ، ولم يكن يثق بآلهته بعد أن يوارى في قبره . نعم إن نصاً من نصوصهم يصف مردك بأنه « الذي يحيى الموتى^(٨٤) » ، وأن قصة الطوفان تقول إن من نجوا منه قد عاشوا أبداً الدهر . ولكن فكرة البابليين عن الحياة الآخرة كانت في جملتها شبيهة بفكرة اليونان : فكرة أموات — فيهم قديسون وأنذال ، وفيهم عباقر وبلهاء ؛ يذهبون كلهم إلى مكان مظلم في جوف الأرض ولا يرى الضوء من بعد ذلك أحد منهم . وكانت هناك جنة ولكنها اختصت بالآلهة ، أما أروال التي يهبط إليها جميع الناس فكانت داراً للعقاب في معظم الأحوال ، ولم تكن قط دار نعيم ، تقيد فيها أيدي الموتى وأرجلهم أبداً الدهر ، وترتجف فيها

أجسامهم من البرد ، يجوعون فيها ويظماون إلا إذا وضع أبناؤهم لهم الطعام في قبورهم في أوقات معينة^(٨٥) . ومن كان منهم كثير الذنوب على ظهر الأرض لقي فيها أشد العذاب ؛ فسلط عليه الجذام يأكل جسمه أو غيره من الأمراض التي أعدها له ترجال وآلات سيد أراووسيتها ليتطهر بها من ذنوبه .

وكانت أكثر أجسام الموتى تدفن في قباب ؛ ومنها ما كان يحرق وهو قليل ، ثم تحفظ بقاياها في قوارير^(٨٦) ، ولم تكن الجثث تحنط ، ولكن ناديين محترفين كانوا يغسلون الجثة ، ويلبسونها ثياباً حسنة ، ويصبغون خديها ، ويسودون جفونها ، ويلبسونها خواتم في أصابعها ، ويضعون معها بديلاً من الملابس الداخلية التي تلبسها . وإذا كانت الجثة لامرأة وضعت معها قوارير العطور ، والأمشاط ، وأقلام الأدهان ، وكل للعينين ، وذلك لكي تحفظ بطيب رائحتها وجمال وجهها في الدار الآخرة^(٨٧) . وكانوا يعتقدون أن الميت إذا لم يدفن على خير وجه عذب الأحياء ؛ وإذا لم يدفن قط حامت روحه حول البالوعات والميازيب تطلب فيها الطعام ، وقد تصيب مدينة برمتها بالأوبئة الفتاكة^(٨٨) . هذا كله خليط من الأفكار ليست كلها منطقية متماسكة تماسك الهندسة الإقليدية ، ولكن فيها ما يكفي لحفز البابلي الساذج على أن يقدم لآلهته وقساوسته كفايتهم من الطعام والشراب .

وكان الطعام والشراب أكثر ما يقرب من القرايين ، وذلك لأن ما يتبقى منها لا يُتلف حتماً إذا لم يطعمه الآلهة . وكثيراً ما كان الضأن يضحي به على المذابح البابلية ، ولقد وصلت إلينا رقية بابلية هي سابقة عجيبة لكبش الفداء عند اليهود والمسيحيين : « الكبش فداء للإنسان ، الكبش الذي يفقدى به حياته^(٨٩) » . وكان تقرب القربان من الطقوس المعقدة التي تتطلب خدمات كاهن خبير بشئونها . وكانت التقاليد المتوارثة تقرر كل عمل يعمل ، وكل لفظ يقال ، فإذا أقدم على هذا العمل شخص هاو غير أخصائي فيه ، ثم حاد قيد شعرة عن المراسم

المقررة ، فقد يكون معنى هذا أن تأكل الآلهة الطعام ولا تصفى للدعاء . وكان الدين عند البابليين يُعنى بالمراسم الصحيحة أكثر مما يعنى بالحياة الصالحة . فإذا شاء الإنسان أن يؤدي ما يجب عليه نحو الآلهة كان عليه أن يقرب القربان اللائق للهيأكل ، ويتلو الصلوات والأدعية المناسبة^(٩٠) . أما فيما عدا هذا فقد كان في وسعه أن يفتأ عين عدوه المهزوم ، ويقطع أيدي الأسرى وأرجلهم ، ويشوى ما بقي من أجسامهم وهم أحياء^(٩١) ، دون أن يؤدي بذلك آلهة السماء . وكان أهم ما يجب أن يعمل البابلي التقي المستمسك بدينه أن يشترك في المواكب الطويلة المهيبة كالمواكب التي كان الكهنة ينقلون فيها صورة مردك من هيكل إلى هيكل ، ويمثلون فيها مسرحية موته وبعثه المقدسة ، أو أن يحضر هذه الاحتفالات وهو خاشع ، وأن يطل الأَصنام بالزيوت العطرة^(*) ، ويحرق البخور بين يديها ، ويلبسها أحسن الثياب وأغلاه ، أو يزينها بالجواهر ؛ وأن يقدم عرض ابنته العذراء في احتفال إشتار العظيم ، وأن يقدم الطعام والشراب للآلهة ، وأن يكون كريماً مضيافاً للكهنة^(٩٢) .

أولعلنا نظلمه كما سيظلمنا المستقبل بلاريب حين يحكم علينا بالقليل الذي سوف تبقيه المصادفات المحضة من آثارنا ، وتنجيه من عبث الزمان . استمع مثلاً إلى ما يقوله نبوخذ نصر الفخور مخاطباً مردك في تذلل وخضوع :

إذا لم تكن أنت ياربى فماذا يكون
للك الذي تحبه وتنادى باسمه ؟
وستبارك لقبه حسب مشيئتكَ ،
وتهديه صراطاً مستقيماً .
أنا الأمير الطائع لك ،
باق كما صنعتني يداك ؛

(*) ومن أجل هذا كان تموز يسمى بالمعطر^(٩٢)

إنك أنت خالق ،
وأنت الذى حَكَمْتَنى فى جيوش العباد
وبمقتضى رحمتك ، يا مولاي ، ...
بدّل قوتك الرهيبة حُبّاً ورحمة ،
وابعث فى قلبي الاحترام لربوبيتك
وهبني ما ترى فيه الخير لى^(٩٤) .

هذا وإن الآداب الباقية لنا من عهد البابليين لتكثر فيها الترانيم التى تفيض
بالتذلل الحار الذى يحاول السامى أن يسيطر به على كبريائه ويخفيه عن الأنظار .
وأكثر هذه الترانيم فى صورة « أناشيد توبة » وهى تهيننا لتلك المشاعر العاطفية
والصور الرائعة التى نراها فى « مزامير » داود . ومن يدرى لعل هذه كانت مثالا
احيذته تلك المزامير المتعددة النغمات .

أنا خادمك أضرع إليك وقلبي مفعم بالحسرات ،
إنك لتقبل الدعاء الحار الصادر ممن أثقلته الذنوب ،
إنك لتنظر إلى الرجل ، فيعيش ذلك الرجل ...
فانظر إلىَّ بعطف حق وتقبل دعائى

ثم يقول بعد ذلك وكأنه لا يعرف أذكر ذلك الإله أم أنتى :

متى يا إلهى ؛

متى يا إلهتى ، يتجه وجهك إلىَّ ؟

متى ، يا إلهى ، يامن أعرفه ، ولا أعرفه ، يهدأ غضب قلبك ؟

متى يا إلهتى ، يا من أعرفها ولا أعرفها ، يهدأ قلبك الغضوب ؟

لقد فسد الإنسان ، وساء حكمه ؛

ومن من الأحياء كلهم يعرف شيئا ؟

إنهم لا يعرفون أخيراً يفعلون أم شراً ،
أى إلهى لا تنبذ خادمك ،
لقد ألقى فى الوحل فخذ بيده !
والذنب الذى أذنبت بدله رحمة !
والظلم الذى ارتكبته ، مر الريح أن تحمله !
واخلع عنى ذنوبى الكثيرة كما يخلع المرء الثياب !
أى إلهى إن ذنوبى سبعة فى سبعة ؛ فاصفح عن ذنوبى !
أى إلهتى إن ذنوبى سبعة فى سبعة ؛ فاصفحى عن ذنوبى !
أصمحي عن ذنوبى ترينى ذليلاً أمامك
لعل قلبك يبتهج كما تبتهج الأم التى ولدت الأبناء ؛
لعله يبتهج كما تبتهج الأم التى ولدت الأبناء ، والأب الذى أنجب^(٩٥) !
وهذه الأناشيد والمزامير كان ينشدها الكهنة تارة ، والمصلون تارة ، وتارة
ينشدها هؤلاء وأولئك معاً ، وهم يتمايلون ذات الشمال وذات اليمين . ولعل أغرب
ما فى هذه الترانيم والأناشيد أنها — ككل آداب بابل الدينية — كتبت باللغة
السومرية القديمة . وكان شأن هذه اللغة فى الكنيستين البابلية والأشورية كشأن
اللغة اللاتينية فى الكنيسة الكاثوليكية لا تفتقر عنها فى شيء . وكما أن الترنيمة
الكاثوليكية قد تحمى بين سطورها اللاتينية ترجمتها بإحدى اللغات الحديثة ،
فكذلك نجد لبعض الترانيم التى وصلت إلينا من أرض الجزيرة ترجمة لها باللغة
البابلية أو الأشورية بين سطور اللغة السومرية الأصلية « الفصحى » ، على النحو
الذى نشأه فى كتب بعض تلاميذ المدارس فى هذه الأيام . وكما أن صيغة
الترانيم وطقوسها هى التى مهدت لمزامير اليهود وطقوس الكنيسة الكاثوليكية ،
فإن موضوعاتها تنذر بالترانيم اليهودية والمسيحية الأولى ، وترانيم المتطهرة
المحدثين ، تلك الترانيم المنشأمة التى يسرى فيها شعور بالذنب والخطيئة . ذلك أن

الشعور بالذنب ، وإن لم يكن له شأن كبير في حياة البابليين ، تفيض به ترانيمهم ، وتسرى فيها كلها نغمة لا تزال باقية في الطقوس السامية وما اشتق منها من ترانيم غير الساميين . وإلى القارئ مثلاً من هذه الترانيم : « رب إن ذنوبي عظيمة ، وأفعالي السيئة كثيرة ! ... إني أرزح تحت أثقال العذاب ، ولم يعد في وسعي أن أرفع رأسي ، إني أتوجه إلى إلهي الرحيم أنادي به ، وأنا أتوجع وأتألم ! ... رب لا ترد عنك خادك ! » (٩٦)

وكانت فكره الخطيئة عند البابليين مما جعل هذه البضاعات تصدر عن إخلاص حق شديد . ذلك أن الخطيئة لم تكن مجرد حالة معنوية من حالات النفس ؛ بل كانت كالمرض تنشأ من سيطرة شيطان على الجسم في مقدوره أن يهلكه . وكانت الصلاة عندهم بمثابة رقية تخرج العفريت الذي أقبل عليه من طوائف القوى السحرية التي كان الشرق القديم يعيش فيها ويخوض عباها . وكان البابليون يعتقدون أن هذه الشياطين المعادية للناس تترصده في كل مكان . فقد كانت تعيش في شقوق عجيبة وتتسلل إلى البيوت من خلال أبوابها ، أو من فتحات مزاجها أو أوقابها ، وتنقض على فريستها في صورة مرض أو جنة إذا ما ارتكب خطيئة أبعدت عنه إلى حين حماية الآلهة الخيرين . وكان للمردة ، والأقزام ، والمقعدن ، وللنساء بنوع خاص ، كان لهؤلاء كلهم في بعض الأحيان القدرة على إدخال الشياطين في أجسام من لا يحبون وذلك بنظرة من « عين حاسدة » . وكان من المستطاع اتقاء شر هؤلاء الشياطين إلى حد ما باستعمال التمايم والطلاسم وما إليها من الرقى والأحاجي . وكانت صور الآلهة إذا حملها الشخص معه تكفي في الغالب لإخافة الشيطان وإبعاده . وكان من أقوى التمايم أثراً قلادة من حجارة صغيرة تسلك في خيط أو سلك وتعلق في العنق ؛ على أن يراعى في الحجارة أن تكون من النوع الذي تربط الأقوال المأثورة بينه وبين الحظ الحسن ، وفي الخيط أن يكون أسود أو أبيض أو أحمر حسب الغرض الذي يريده منه

صاحبه . وكان من أشد الخيوط أثراً الخيط الذى يغزل من عنزة لم يقربها تيس^(٩٧) .
وكان من الحكمة أن يستعان فضلاً عن هذه الوسائل بالرقى الحارة والطقوس
السحرية لإخراج الشيطان من الجسم ، كرشه بالماء المحمول من أحد المجارى المقدسة
كدجلة والفرات . وكان من المستطاع عمل صورة للشيطان ، ووضعها فى قارب ،
وإلقاؤها فى الماء بعد أن تتلى عليها صيغة خاصة . وإذا أمكن صنع القارب بحيث
ينكفى كان ذلك أفضل . وكان من المستطاع إقناع الشيطان بالرقية الصحيحة
بترك ضحيته البشرية وتقمص جسم حيوان — كجسم طير أو خنزير أو حمل ،
والأخيراً كثراً شيوعاً^(٩٨) .

وكانت أكثر الكتابات البابلية التى وجدت فى مكتبة آشور بانيبال هى
الكتابات المحتوية على صيغ سحرية لطرد الشياطين وإتقاء أذاها ، والتنبؤ
بالغيب . ومن الألواح التى وجدت كتب فى التنجيم ، ومنها ما هو قوائم فى الفأل
السماوى منه والأرضى ، وإلى جانبها إرشادات شديدة تهدى إلى طريقة قراءتها ؛
ومنها بحوث فى تفسير الأحلام لا تقل براعة وبعداً عن المعقول عن أرقى ما أخرجته
بحوث علم النفس الحديث . ومنها إرشادات فى التنبؤ بالغيب ببحث أحشاء
الحيوانات أو بملاحظة مكان نقطة من الزيت وشكلها إذا أسقطت فى إبريق
ماء^(٩٩) . وكان من أساليب التنبؤ الشائعة عند البابليين ملاحظة كبد الحيوان ،
وقد أخذ ذلك عنهم من جاء بعدهم من الأمم القديمة . ذلك أن الاعتقاد السائد
عند هذه الأمم هو أن الكبد مركز العقل فى الحيوان والإنسان على السواء . ولم
يكن ملك يجرؤ على شن حرب أو الاشتباك فى واقعة ، ولم يكن بابلى يجرؤ على
البت فى أمر من الأمور ، أو الإقدام على مشروع خطير ، إلا إذا استعان بكاهن
أو عراف ليقرأ له طالعهُ بطريقة من الطرق الخفية السالفة الذكر .

وليس فى الحضارات كلها حضارة أغنى فى الخرافات من الحضارة البابلية ،
فكل حالة من الحالات وفاة كانت أو مولداً ، كان لها عند الشعب شرح

وتأويل . وكثيراً ما كان لها تفسير رسمي وديني يصاغ في عبارات سحرية أو خارجة على السنن الطبيعية . وكان في كل حركة من حركات النهرين ، وكل منظر من مناظر النجوم ، وكل حلم ، وكل عمل غير مألوف يأتيه إنسان أو حيوان ، شاهد يكشف عن المستقبل للبابل الخبير العارف ببواطن الأمور . فمصر المملكت يمكن التنبؤ به بملاحظة حركات كلب^(١٠٠) ، كما تنبأ نحن بطول الشتاء بالتجسس على المرموط^(*) . وقد تبدو خرافات البابليين سخيفة في نظرنا ، لأنها تختلف في ظاهرها عن خرافاتنا نحن ؛ والحق أنه لا تكاد توجد سخافة في الماضي إلا وهي منتشرة في مكان ما في الوقت الحاضر . وما من شك في أن تحت كل حضارة بحراً من السحر والتخريف والشعوذة ، ولعل هذه كلها ستظل باقية بعد أن يزول من العالم نتاج عقولنا وتفكيرنا .

(*) المرموط حيوان من ذوات الأربع في جرم الأرنب تقريباً ويشبهه في هيئته إلا أن ذنبه أقصر من ذنب الأرنب . (المترجم)

الفصل الخامس

أخلاق البابليين

انفصال الدين عن الاخلاق — العهر المقدس — الحب الحر —
الزواج — الزنا — الطلاق — مركز المرأة — انحلال الأخلاق

لعل هذا الدين رغم ما فيه من عيوب ، قد رقق من طباع البابلي العادى وجعله إنساناً مؤدباً سلس القياد إلى حد ما ؛ وإلا فكيف تفسر إكرام الملوك للكهنة . ولكن يلوح أنه لم يكن له فى تاريخ البلاد المتأخر أثر ما فى الطبقات العليا من الشعب ، وذلك لأن « بابل العاهرة » كما كان يراها ويصفها أعداؤها غير العدول كانت « مباءة للظلم » ، ومثلاً سيئاً فى الانحلال والترف للعالم القديم بأجمعه . وحتى الإسكندر نفسه وهو الذى لم يكن يتورع عن الشراب حتى الموت قد هاله ما رأى من أخلاق البابليين^(١٠١) .

وأهم ما يلفت نظر المراقب الأجنبى فى حياة البابليين تلك العادة التى تعرفها من وصف لها فى إحدى صفحات هيروdotus الذائعة الصيت : « ينبغى لكل امرأة بابلية أن تجلس فى هيكل الزهرة مرة فى حياتها ، وأن تضاجع رجلاً غريباً . ومنهن كثيرات يترفعن عن الاختلاط بسائر النساء ، لكبريائهن الناشئ من ثرائهن ، وهؤلاء يأتين فى عربات مقفلة ويجلسن فى الهيكل ومن حولهن عدد كبير من الحاشية والخدم . أما الكثرة الغالبة منهن فيتبعن الطريقة الآتية : تجلس الكثيرات منهن فى هيكل الزهرة وعلى رؤوسهن تيجان من الحبال ، بين الغاديات والرائحات اللاتى لا ينقطع دخولهن وخروجهن . وتخرق جميع النساء ممرات مستقيمة متجهة فى كل الجهات ، ثم يمر فيها الغرباء ليختاروا من النساء من يرتضون . فإذا جلست امرأة هذه الجلسة كان عليها ألا تعود إلى منزلها حتى يلقى أحد الغرباء

قطعة من الفضة في حجرها ويضاجعها في خارج المعبد . وعلى من يلقي القطعة الفضية أن يقول : أضرع إلى الإلهة ميلتا أن ترعاك ؛ ذلك بأن الآشوريين يطلقون على الزهرة اسم ميلتا (*) . ومهما يكن من صغر القطعة الفضية فإن المرأة لا يجوز لها أن ترفضها ، فهذا الرفض يحرمه القانون لما لها في نظرهم من قداسة . وتسير المرأة وراء أول رجل يلقيها إليها ، وليس من حقها أن ترفضه أيا كان . فإذا ما ضاجعته وتحللت مما عليها من واجب للإلهة ، عادت إلى منزلها . ومهما بذلت لها من المال بعدئذ لم يكن في وسعك أن تنالها . ومن كانت من النساء ذات جمال وتناسب في الأعضاء ، لا تلبث أن تعود إلى دارها ، أما المشوهات فيبقين في الهيكل زمناً طويلاً ، وذلك لعجزهن عن الوفاء بما يفرضه عليهن القانون ؛ ومنهن من ينتظرن ثلاث سنين أو أربعاً (١٠٢) .

تري ماذا كان منشأ هذه السنة العجيبة ؟ فهل كانت بقية من بقايا الشيوعية الجنسية ، أي رخصة يمنح بها عريس المستقبل « حق الليلة الأولى » للمجتمع الممثل في المواطن العارض غير المعروف (١٠٣) ؟ أو هل كان منشؤها خوف العريس من ارتكاب جريمة سفك الدماء التي تحرمها الشرائع (١٠٤) ؟ أو هل كانت استعداداً ضمنياً للزواج شبيها بالسنة التي لا يزال يسير عليها بعض القبائل في أستراليا إلى هذه الأيام (١٠٥) ؟ أو أنها لم تكن أكثر من قربان يقرب للآلهة — فتقدم لها باكورة الفاكهة (١٠٦) ؟ من يدري ؟

ولم تكن هذه النساء عاهرات بطبيعة الحال . لكن عاهرات من أصناف مختلفة كن يسكن في أرباض الهيكل ويمارسن حرقتهن فيها ، ومنهن من كن يجمعن من عملهن الأموال الطائلة . وكانت عاهرات الهياكل ككثيرات في غرب آسية : نجدهن عند بني إسرائيل (١٠٧) ، وفي فريجيا ، وفينيقية ، وسوريا وغيرها

(*) لقد كان اليونان يطلقون اسم الآشوريين على البابليين على السواء . وكانت « ميلتا » صورة أخرى من صور إشتار .

من الأقطار . وكانت البنات في ليديا وقبرص يحصلن على بائنة زواجهن بهذه الطريقة نفسها^(١٠٨) . وظلت « الدعارة المقدسة » عادة متبعة في بلاد بابل حتى ألغاهاقنسطنطين (حوالى عام ٣٢٥ ق . م)^(١٠٩) . وكان إلى جانبها عهر مدنى منتشر في حانات الشراب التى تديرها النساء^(١١٠) .

وكان يسمح للبابليين فى العادة بقسط كبير من العلاقات الجنسية قبل الزواج ، ولم يكن يُضن على الرجال والنساء أن يتصلوا اتصالا غير مرخص به « بزيجات تجريبية » تنتهى متى شاء أحد الطرفين أن ينهيا ؛ ولكن المرأة فى هذه الحالات كان من واجبها أن تلبس زيتونة — من حجر أو طين محروق — دلالة على أنها محظية^(١١١) . وتدل بعض الألواح على أن البابليين كانوا ينشئون القصائد الغزلية ويغنون الأغاني الغرامية ؛ ولكن هذه القصائد والأغاني لم يبق منها إلا سطر هنا وسطر هناك ، كانت تستهل به القصيدة أو الأغنية كقولهم : « إن حبيبى من نور » أو « إن قلبى ملىء بالمرح والغناء »^(١١٢) . ولدينا خطاب يرجع تاريخه إلى عام ٢١٠٠ ق . م ، وتشبه نغمته نغمة رسائل نابليون الأولى إلى جوزفين^(*) : « إلى بيبييا ... لعل شمس ومردك يهبانك صحة أبدية ... لقد أرسلت (أستفسر) عن صحتك ، فخبرينى كيف حالك ؛ لقد وصلت إلى بابل ، ولكنى لا أراك ؛ إنى فى أشد الحزن »^(١١٣) .

وكان الآباء هم الذين يهيئون الزواج الشرعى لأبنائهم ، وكان الطرفان يقرّانه بتبادل الهدايا ، ولعل هذه العادة كانت أثراً من نظام قديم هو نظام الزواج بالبيع والشراء . فكان الخطيب يتقدم إلى والد العروس بهدية قيمة ؛ ولكن الوالد كان ينتظر منه أن يهب ابنته بائنة أعظم قدراً من الهدية^(١١٤) ، حتى لقد كان يصعب على المرء أن يقول أيهما المشتري المرأة أم الرجل ؟ على أن بعض

(*) انظر ترجمة بعض هذه الرسائل (وخاصة الرسالة رقم ٢) فى الجزء الثانى من « أشهر الرسائل العالمية » للمترجم

الزيجات كانت بيعاً صريحاً ، من ذلك أن شمشيرز حصل على عشر شواقل (٥٠ ريالاً) ثمناً لابنته^(١١٥) . وإذا جاز لنا أن نصدق أبا التاريخ « فإن من كانت لهم بنات في سن الزواج يأتون بهن مرة في كل عام إلى مكان يجتمع فيه حولهن عدد كبير من الرجال ، ثم يصفهن دلال عام ويبيعهن جميعاً واحدة في إثر واحدة ، فينادى أولاً على أجملهن ، وبعد أن يقبض فيها ثمناً عالياً ينادى على من تليها في الجمال . ولكنه لم يكن يبيعهن إلا بشرط أن يتزوجهن المشترون ... وهذه العادة المستحبة لم يعد لها الآن بقاء »^(١١٦) .

ويلوح أن الزواج في بابل ، رغم هذه الأساليب الغريبة ، لم يكن يقل إخلاصاً واقتصاراً على واحدة عنه في العالم المسيحي في هذه الأيام . وكانت الحرية المباحة للأفراد قبل الزواج يتبعها إرغام شديد على الاستمسك بالوفاء الزوجي بعده ، وكان القانون ينص على إغراق الزوج الزانية ومن زنت معه إلا إذا أشفق الزوج على زوجته فأثر أن يستبدل بهذه العقوبة إخراجها إلى الطريق عارية إلا من القليل الذي لا يكاد يستر شيئاً من جسمها^(١١٧) . وقد برز حمورابي قيصر من هذه الناحية فقال في إحدى مواد قانونه : « إذا أشار الناس بإصبعهم إلى زوجة رجل لعلاقتها برجل غيره ، ولم تضبط وهي تضاجعه ، وجب أن تلقى بنفسها في النهر حفظاً لشرف زوجها »^(١١٨) . ولعل الذي كان يهدف إليه القانون بهذه العقوبة هو منع أحاديث الإفك . وكان في وسع الرجل أن يطلق زوجته ، ولا يتطلب منه هذا أكثر من رد بائنتها إليها وقوله لها : « لست زوجتي » ، أما إذا قالت هي له : « لست زوجي » ، فقد وجب قتلها غرقاً^(١١٩) . وكان عقم الزوجة ، وزناها ، وعدم اتفاقها مع زوجها ، وسوء تديرها لمنزلها ، كانت هذه في حكم القانون مما يجيز طلاقها^(١٢٠) . وفي ذلك يقول القانون : « إذا لم تكن سيدة حريصة على أداء واجبها ، بل كانت دوارة غير مستقرة في منزلها ، مهيمة لشئون بيتها ، مستخفة بأطفالها ، وجب أن تلقى في الماء »^(١٢١) . وفي مقابل هذه

القسوة غير المعقولة المنصوص عليها في القانون ، كان للمرأة من الوجهة العملية أن تفارق زوجها ، وإن لم يكن من حقها أن تطلقه ، إذا أثبتت قسوته عليها مع إخلاصها له ؛ وكان في وسعها في هذه الحال وأمثالها أن تعود إلى أهلها وأن تأخذ معها بائنتها وما عسى أن تكون قد حصلت عليه لنفسها بعدئذ من المتاع^(١٢٢) .
(ولم تستمتع نساء إنجلترا نفسها بهذه الحقوق إلا في أواخر القرن التاسع عشر) .
وإذا غاب الزوج عن زوجته في عمل أو حرب زمنًا ما ، ولم يترك لها ما تعيش منه ، كان لها أن تعيش مع رجل آخر ، دون أن يحول ذلك من الوجهة القانونية بينها وبين انضمامها مرة أخرى إلى زوجها بعد عودته من غيبته^(١٢٣) .

وفي وسعنا أن نقول بوجه عام إن مركز المرأة في بابل كان أقل منه في مصر وفي رومة ، ولكنه مع ذلك لم يكن أقل من مركزها عند اليونان الأقدمين أو عند الأوريين في العصور الوسطى . وكان لا بد لها لكي تؤدي أعمالها الكثيرة — من ولادة الأبناء وتربيتهم ، ونقل الماء من النهر أو الآبار العامة ، وطحن الحبوب ، والطهي ، وغزل الخيوط ونسجها ، وتنظيف دارها — أن لا بد لها لكي تؤدي هذه الأعمال أن تكون حرة في غدوها ورواحها بين الناس لا تكاد تفتقر من هذه الناحية عن الرجل في شيء^(١٢٤) . وكان من حقها أن تمتلك الثروة وتستمتع بدخلها ، وتبصرف فيها بالبيع والشراء ، وأن ترث وتورث^(١٢٥) . ومن النساء من كانت لهن حوانيت ، يتجرن فيها ، بل إن منهن من كن كاتبات ، وفي هذا دليل على أن البنات كن يتعلمن كالصبيان^(١٢٦) .
غير أن التقاليد السامية التي تمنح أكبر ذكور الأسرة سلطة لا تكاد تقف عند حد كانت تحول دون ما عساه أن يكون باقياً في أرض الجزيرة من أزمنة ما قبل التاريخ من نزعة لتغليب سلطان الأم . وكان من العادات المتبعة عند الطبقات العليا عادة — ولعلها هي التي أدت إلى عادة الحجاب عند المسلمين والهنود — أن يكون للنساء جناح خاص أو أجنحة خاصة في المنزل ؛ وكن إذا

خرجن صحبهن رقباء من الخصيان والخدم^(١٢٧) . أما الطبقات السفلى فلم تكن نساؤها أكثر من آلات لصنع الأطفال ، وإذا لم تكن هن بائنات كانت مكاتهن لا تكاد تفرق عن مكانة الإماء^(١٢٨) . وتشير عبادة إشتار إلى أن المرأة والأمومة كان لهما قسط من التبجيل في بلاد بابل ، كما تشير عبادة مريم العذراء في العصور الوسطى إلى ما كان لها من التبجيل وقتئذ ؛ ولكننا إذا أخذنا بقول هيرودوت إن البابليين إذا حوصروا « كانوا يخنقون زوجاتهم لكيلا يستهلكن ما عندهم من الطعام »^(١٢٩) ، لا نرى أن البابليين كانت لديهم كثير من صفات الشهامة والفروسية التي كانت لدى الأوربيين في تلك العصور .

لذلك ترانا نجد بعض العذر للمصريين إذا وصفوا البابليين بأنهم قوم لم يصلوا إلى درجة كبيرة في الحضارة . والحق أننا لا نجد عندهم ما تشهد به آداب المصريين وفنونهم من رقة أخلاقهم ومشاعرهم . ولما أن وصلت هذه الرقة إلى البابليين وصلت إليهم تحت ستار الانحلال الخنث : فكان الشبان يصبغون شعرهم ويعقصونه ، ويعطرون أجسامهم ، ويمحرون خدودهم ، ويزينون أنفسهم بالعقود والأساور ، والأقراط ، والقلائد . ولما فتح الفرس بلادهم وقضوا بذلك على عزتهم النفسية ، تحرروا أيضاً من جميع القيود الخلقية ، وسرت عادات العاهرات إلى جميع الأوساط ، وأضحت نساء الأسر الكبيرة يرين أن إظهار محاسنهن أيا كانت ليستمتع بها أعظم استمتاع أكبر عدد مستطاع ، أصبحن لا يرين في هذا شيئاً أكثر من مجاملة عادية^(١٣٠) . وإذا جاز لنا أن نصدق هيرودوت فإن « كل رجل من عامة الشعب إذا عضه الفقر ، عرض بناته للدعارة طلباً للمال »^(١٣١) . وكتب كوتنس كورتيس عام ٤٢ ب . م يقول : « ليس ثمة أغرب من أخلاق هذه المدنية . فلسنا نجد في أي مكان آخر ما نجد فيها من تهيئة كل شيء على خير وجه لإشباع الملذات الشهوانية »^(١٣٢) . لقد فسدت الأخلاق وانحلت حين أثرت الهياكل ، وانهمك أهل بابل في ملذاتهم فرضوا أن يخضع مدينتهم للكاشيين والآشوريين والفرس واليونان .

الفصل السادس

الكتابة والأدب

الكتابة المسمارية — حل رموزها — اللغة — الأدب — ملحمة جلجيش

ترى هل خلدت هذه الحياة ، حياة الشهوات والتقوى والتجارة ، في الأدب أو الفن تخليداً رائعاً نبيلاً ؟ لعل هذا قد كان ، لأننا لا نستطيع أن نحكم على مدينة ما من شذرات متفرقة من حطام بابل قذف بها بحر الزمان . إن هذه الشذرات تتصل معظمها بشئون الصلاة والسحر والتجارة ؛ وليس ما خلفته من تراث أدبي بالشيء الكثير إذا قيس إلى ما تركته مصر وفلسطين ، وكانت في هذه القلة شبيهة بأشور وفارس . ولسنا ندري أكان هذا من أثر الظروف والمصادفات أم كان من أثر فقرها الثقافي . أما فضلها على العالم ففي ميدان التجارة وفي القانون .

لكن الكتابة رغم هذا كانوا في مدينة بابل التي كان يسكنها خليط من جميع الأجناس لا يقلون عنهم في منف أو طيبة . ذلك أن فن الكتابة كان لا يزال في بداية عهده فنّاً ينال به من يجيده مركزاً عظيماً في المجتمع ، فقد كان الطريق الموصل إلى المناصب الحكومية والكهنوتية ؛ ولم يكن صاحبه يغفل قط عن الإشادة بفضله فيما يرويه من أعماله ، وكان من عادة الكاتب أن ينقش ما يفيد هذا على خاتمه الأسطوانى^(١٣٣) كما كان العلماء والمتعلمون في العالم المسيحي من وقت قريب يذكرون مؤهلاتهم العلمية على بطاقاتهم . وكان البابليون يكتبون بالخط المسماري على ألواح من الطين الرطب بقلم ذي طرف شبيه بالمنشور الثلاثي أو الإسفين . فإذا امتلأ اللوح كتابة جففوه أو حرقوه ، فكان بذلك مخطوطاً غريباً طويل البقاء . وإذا كان المكتوب رسالة نثر عليها التراب الناعم ، ووضعت في مظروف

من الطين ، وبصمت بخاتم مرسلها الأسطوانى . وكانت الألواح الطينية المحفوظة في جرار مصنفة ومرتبطة على رفوف تملأ عدداً كبيراً من المكتبات في هياكل الدولة البابلية وقصورها . ولقد ضاعت هذه المكتبات ، ولكن واحدة من أعظمها وهى مكتبة بارسا قد نسخت وحفظت في مكتبة آشوربانيبال . وكانت ألواحها البالغ عددها ٣٠٠٠٠ لوح أهم مصدر استقيناه منه معلوماتنا عن الحياة البابلية .

ولقد حيرت الكتابة البابلية العلماء فظلوا مئات السنين عاجزين عن حل رموزها ، وكان نجاحهم في حلها آخر الأمر عملاً من أجل الأعمال في تاريخ العلم . وتفصيل ذلك أن جورج جروتفند أستاذ اللغة اليونانية في جامعة جوتنجن أبلغ الجمع العلمى في تلك المدينة عام ١٨٠٢ أنه ظل عدة سنين يواصل البحث في بعض مخطوطات مسبارية وصلت إليه من بلاد الفرس القديمة ، وأنه استطاع آخر الأمر أن يتعرف على ثمانية من الاثنتين والأربعين حرفاً المستعملة في هذه النقوش ، وأنه ميز ثلاثة من أسماء الملوك المدونة فيها . وبقيت الحال كذلك ، أو ما يقرب من ذلك ، حتى عام ١٨٣٥ حين استطاع هنرى رولنسن أحد موظفى السلك السياسى البريطانيين في إيران ، على غير علم منه بما توصل إليه جروتفند ، أن يقرأ ثلاثة أسماء هى هستسبس ، ودارا ، وخشيارشاي (اكزركس) في نقش مكتوب بالخط الفارسى القديم وهو خط مسبارى مشتق من الكتابة البابلية ، وأمكنه بفضل هذه الأسماء أن يقرأ الوثيقة كلها في آخر الأمر . لكن هذه الكتابة وإن كانت مشتقة من الكتابة البابلية لم تكن هى البابلية نفسها ، وقد بقى على رولنسن أن يعثر على حجر رشيد بابلى كما عثر شمبليون على حجر رشيد مصر ، أى على نص واحد باللغتين الفارسية القديمة والبابلية . وهذا ما عثر عليه في مكان يعلو عن سطح الأرض نحو ثلثمائة قدم . وكان هذا النقش على صخرة يتعذر الوصول إليها عند بهستون في جبال ميديا ، حيث أمر دارا الأول الحفارين أن يسجلوا حروبه وانتصاراته بثلاث لغات : الفارسية القديمة ، والآشورية ، والبابلية . وظل

رولنسن يوماً بعد يوم يرقى هذه الصخرة معرضاً بذلك حياته لأشد الأخطار ،
وكثيراً ما كان يشد نفسه بجبل وهو ينسخ كل حرف من حروفها بعناية بالغة ،
حتى لقد كان أحياناً يطبع النقش كله على عجينة لينة . وبعد شهر راسم انتهى
مسيرة سنة طامدة نجح في ترجمة النصين البابلي والأشوري (١٨٤٧) . وأرادت
الجمعية الآسيوية الملكية أن تثبت مما وصل إليه رولنسن وغيره من العلماء في هذه
الوثيقة وفي غيرها من الوثائق فأرسلت إلى أربعة من علماء الآثار الآشورية أربع
صور من وثيقة مسبارية لم تكن قد نشرت وقتئذ ، وطلبت إلى كل منهم على
انفراد أن يترجمها مستقلاً عن الثلاثة الآخرين دون أن يتصل بهم أو يرسلهم .
فلما جاءت الردود وجدت كلها متفقة بعضها مع بعض اتفاقاً يكاد يكون تاماً .
وبفضل هذا الكفاح العلمى المنقطع النظير اتسعت دائرة البحوث التاريخية بما
ما دخل فيها من علم بهذه الحضارة ^(١٣٤) الجديدة .

واللغة البابلية القديمة لغة سامية نشأت من تطور لغتي سومر وأكد . وكانت
تكتب بحروف سومرية الأصل ، ولكن مفرداتها اختلفت عنها على مر الأيام
(كما اختلفت اللغة الفرنسية عن اللاتينية) ، حتى استلزم هذا الاختلاف بين
اللغتين السومرية والبابلية وضع معاجم وقواعد في النحو والصرف يستعين بها
العلماء والكهنة من الشبان على تفهم اللغة السومرية « الفصحى » والكتابات
السومرية الكهنوتية . ومن أجل هذا نرى نحو ربع الألواح التي عثر عليها المنقبون
في المكتبة الملكية ببنينوى معاجم في اللغات السومرية والبابلية والآشورية وكتباً
في نحوها وصرفها . وتقول الروايات التاريخية إن هذه المعاجم قد وضعت من عهد
موغل في القدم هو عهد مرجون ملك أكد . ألا ما أقدم عهد الدراسات العلمية !
والعلامات في اللغة البابلية كالعلامات في اللغة السومرية لا تدل على حروف وإنما
تدل على مقاطع . ذلك أن البابليين لم يضعوا لهم حروفاً هجائية مستقلة بل ظلوا

طوال عهدهم قانعين بطائفة من المقاطع يرمزون لها بنحو ثلثائة علامة من العلامات . وقد كان حفظ هذه الرموز المقطعية عن ظهر قلب ودراسة قواعد الحساب والتعاليم الدينية المنهج المقرر في مدارس الهيكل ، حيث كان الكهنة يلقنون الشبان ما هو خليق بالدرس والمعرفة . وقد كشفت بعض أعمال الحفر عن حجرة دراسية قديمة وجدت على أرضها ألواح طينية لبنين وبنات كتبت فيها حكم أخلاقية تحث على الفضيلة قبل مولد المسيح بنحو ألفي عام ، كأن كارثة مفاجئة نكاد نحن أن نحمد الله على وقوعها دهمت التلاميذ ، فقطعت عليهم دروسهم ، وحفظت لنا ألواحهم ، ومصائب قوم عند قوم فوائد^(١٢٥) .

وكان البابليون ، كالفينيقيين ، ينظرون إلى الكتابة على أنها مجرد وسيلة لتيسير الأعمال التجارية ، ولذلك لم يضيعوا كثيراً من طينهم في كتابة الأدب . ونجد في ألواحهم قصصاً منظومة على لسان الحيوان — وهي نوع من أنواع لاحصر لها من القصص الخرافية — كما نجد فيها ترانيم دقيقة الوزن ، مقسمة إلى سطور وإلى مقطوعات مفصول بعضها عن بعض^(١٢٦) ؛ لكننا لا نجد من الشعر غير الديني الذي يصف شئون الناس العادية إلا القليل الذي لا يستحق الذكر ؛ ونرى في المراسم الدينية ما يبشر بنشأة المسرحيات ، وإن لم تصل إلى مسرحيات بالفعل ، ونجد عندهم قناطير مقنطرة من كتب التاريخ . ذلك أن المؤرخين الرسميين كانوا يسجلون تقي الملوك وفتوحهم ، وما يصيب كل هيكل من الهيكل كل من عوادي الدهر ، وما يقع في كل مدينة من أحداث هامة . ويقص علينا بروسس أشهر المؤرخين البابليين وأنبههم ذكراً ، في اطمئنان العالم الوثائق من علمه ، تفاصيل وافية عن خلق العالم وتاريخ الإنسان في عهده الأول . ويقول إن الله قد اختار أول ملك من ملوك بابل ليتولى حكمها ، وإنه حكمها ستة وثلاثين ألف عام ، كما يقدر في دقة ، جديرة في حد ذاتها بالثناء ، وباعتدال ليس فيه ما في تقدير غيره من إسراف ، الزمن الذي مضى من خلق الأرض إلى أيام الطوفان

الأعظم بستمائة وواحد وتسعين ألفاً ومائتين من السنين^(١٣٧) .
ومن أروع الآثار الأدبية التي خلقتها أرض الجزيرة اثنا عشر لوحاً محطاً
وجدت في مكتبة آشور بانيبال ، وهي الآن في المتحف البريطاني . وقد كتبت
على هذه الألواح ملحمة جلجاميش^١ الدائمة الصيت ، وتتألف من طائفة من القصص
غير الوثيقة الاتصال ضمت بعضها إلى بعض في عهود مختلفة يرجع بعضها إلى أيام
السومريين أى إلى ما قبل المسيح بثلاثة آلاف عام . ومن هذه القصص النص
البابلي لقصة الطوفان . وكان جلجاميش بطل القصة السالفة الذكر حاكماً أسطورياً
لأرورك أو إرك وهو من نسل شمش — نيشتين الذى نجا من الطوفان ولم يمت قط .
ويدخل جلجاميش فى القصة فى صورة مركبة من صورتى أونيس وشمشون ،
فهو طويل القامة ، ضخيم الجسم ، مفتول العضلات ، جرىء مقدام ، جميل يفتن
الناس بجماله .

ثلثاه إله ،

وثلثه آدمى ،

لا يماثله أحد فى صورة جسمه ... ،

يرى جميع الأشياء ، ولو كانت فى أطراف العالم ،

كابد كل شئ ، وعرف كل شئ ،

واطلم على جميع الأسرار ،

واخترق ستار الحكمة الذى يحجب كل شئ ،

ورأى ما كان خافياً ،

وكشف الغطاء عما كان مغطى ،

وجاء بأخبار الأيام التى كانت قبل الطوفان ،

وسار فى طريق بعيد طويل ،

كابد فيه المشاق والآلام ،

ثم كتب على لوح حجري كل ما قام به من الأعمال (١٣٨) .

ويشكوه الآباء إلى إشتار قائلين إنه يخرج أبناءهم من دورهم ليكدحوا في « بناء الأسوار بالنهار وبالليل » ؛ ويقول الأزواج إنه « لا يترك زوجة لزوجها ، ولا عذراء واحدة لأُمها » ، وتذهب إشتار إلى أرورو عَرَّابة جلمجيش ترجوها أن تخلق ابناً آخر مساوياً لجلمجيش وقادراً على أن يشغله في نزاع بينهما ، حتى يستريح بال الأزواج في أروك ويأمنوا شره . وتعجن أرورو قطعة من الطين ، وتبصق عليها ، وتصور منها إنجيدو ، وهو رجل له بأس الخنزير ، ولبدة الأسد ، وسرعة الطير . ولا يعبأ إنجيدو هذا بصحبة الآدميين ، بل يعتزلم ويعيش مع الحيوانات ، « يرعى الأعشاب مع الأطباء ، ويلعب مع مخلوقات البحار ، ويروى ظمأه مع وحوش الحقول » . ويحاول أحد الصيادين أن يقتنصه بالشباك والفخاخ ولكنه يعجز عن اقتناصه ، فيذهب الصياد إلى جلمجيش ويرجوه أن يعيره كاهنة توقع إنجيدو في شرك حبها . فيقول له جلمجيش : « اذهب أيها الصياد ، وخذ لك كاهنة ، فإذا جاءت الوحوش إلى مورد الماء لتستقي فلتكشف عن جمالها ، فإذا رآها انفضت من حوله الوحوش » .

وينطلق الصياد والكاهنة ويلتقيان بإنجيدو .

« ها هو ذا ، أيتها المرأة !

فخلي أزرارك ،

وأسفرى عن مفاتنك ،

حتى ينال كفايته منك !

لا تحجى ، وأجيبه إلى ما يشتهي !

فإذا رآك فسوف يقترب منك .

وافتحى ثوبك ، حتى يرقد عليك !

وأثيرى شهوته ، كما تفعل النساء ،

وإذن فسيصبح غريباً عن وحوشه البرية ،
وهى التى درجت معه فوق السهوب ،
وسيلتصق صدره بصدرك .
وحلت الكاهنة أزرارها ،
وكشفت عن مفاتها ،
حتى ينال كفايته منها ،
ولم تحجم ، وأخذت شهوته ،
وفتحت ثوبها لى يرقد عليها ،
وأثارت نشوته كما تفعل النساء ،
والتصق صدره بصدرها .
ففسى إنجيدو أين ولد (١٣٩) .

ويبقى إنجيدو مع الكاهنة ستة أيام وسبع ليال ، يعب فيها السعادة عباً ؛ حتى
إذا مل هذه اللذة استيقظ فرأى أصدقاءه من الحيوانات قد فارقته فيغشى عليه من
شدة الحزن ، فتزجره الكاهنة بقولها : « أنت يامن بلغت عظمة الآلهة ، كيف
يطيب لك العيش بين وحوش الحقول ؟ تعال آخذك إلى أروك ، حيث يعيش
جلجميش الذى لا يدانيه أحد فى جبروته . ووقع إنجيدو فى شرك الكاهنة التى
خدعته بثنائها عليه ، فسار وراءها إلى أروك وهو يقول : « أرىنى المكان الذى
فيه جلجميش ، أقاتله وأظهر له قوتي » ، فتسر بذلك الآلهة والأزواج ؛ ولكن
جلجميش ينتصر عليه بقوته أول الأمر ثم بعطفه وشفقته عليه بعدئذ ، ويصبح
الاثنان صديقين وفين ؛ ويسيران جنباً إلى جنب يحميان أروك من عيلام ،
ويعودان ظافرين بعد أن يقوما بأجل الأعمال . « وخلع جلجميش عدته الحربية ،
ولبس ثيابه البيض ، وزين نفسه بالشارة الملكية ولبس التاج » . وسرعان ما تقع
إشتار الشرهة فى حبه وترنو إليه بعينها الكبيرتين ، وتقول :

« تعال يا جلعميش ، وكن لي زوجاً ! وقدم لي حبك هدية ، ستكون أنت ، زوجي ، وأكون زوجتك . وسأضعك في عربة من اللازورد والذهب ، لها دواليب ذهبية مطعمة بالعقيق ؛ وستجرها لك أساد عظيمة ، وستدخل بيتنا ومن حولك البخور المنطلق من خشب السدر ... وستحتضن قدميك كل الأراضي المجاورة للبحر ، وسيخر الملوك كلهم سجداً لك ، ويأتون بشمرات الجبال والسهول جزية يؤدونها لك عن يد . »

ويرفض جلعميش طلبها ويذكرها بما جنته على عشاقها الكثيرين ومنهم تموز ، ومنهم باشق ، وحصان ، وبستاني ، وأسد ، ويناديها قائلاً : « إنك تحمينني الآن ، ولكنك ستضربيني بعد كما ضربت هؤلاء جميعاً » . وتطلب إشتار وهي غضبي إلى أنو الإله الأعظم أن يخلق ريمًا مفترساً يقتل جلعميش . ويرفض أنو طلبها ويذكرها بقوله : « ألا تستطيعين السكوت وقد أذكرك جلعميش بغدرك وفضائحك ؟ » وتنذره بأنها سوف تعطل كل ما في الكون من غرائز الحب والشهوة ، حتى يهلك كل شيء حي . ويخضع أنو لإرادتها ، ويخلق الريم المفترس ، ولكن جلعميش يتغلب على هذا الوحش بمعونة إنجيدو ، وتصيب إشتار على البطل لعنتها فيلقى إنجيدو بأحد أطراف الريم في وجهها . ويتهيج لذلك جلعميش ويتيه عجباً ، ولكن إشتار تصرعه وهو في عنفوان مجده ، وذلك بأن تصيب إنجيدو بداء عضال .

ويحزن جلعميش ويبكي صديقه الذي كان أحب إليه من النساء ، ويفكر في أسرار الموت ، وهل ثمة وسيلة للفرار من هذا المصير المحتوم . إن رجلاً واحداً قد نجا منه وهو شمش — نيشتم فهو إذن يعرف سر الخلود . ويقرر جلعميش أن يذهب للبحث عن شمش — نيشتم ، ولو اضطره هذا البحث إلى الطواف في العالم كله . ويجتاز الطريق الموصل إليه جبلاً يحرسه ماردان جباران يلمس رأساهما قمة السماء ويصل ثدياهما إلى الجحيم . ولكنهما يأذنان له بالمرور ، ويسيران

عشر ميلاً في نفق مظلم ، يخرج بعده إلى شاطئ بحر عظيم ، ويرى من وراء مائه عرش سبيتو العذراء إلهة البحار . ويناديهما أن تعينه على عبور الماء ويقول : « إذا لم أفلح في هذا ، فسألقى بنفسى على الأرض وأقضى نحبي » . وتشفق عليه سبيتو وتسمح له أن يجتاز البحر في أربعين يوماً كلها عواصف وزعازع حتى يصل إلى الجزيرة السعيدة التي يسكن فيها شمس — نيشتم الخلد أبد الدهر . ويتوسل إليه جلعميش أن يفضى إليه بسر الخلود ويرد عليه شمس — نيشتم بأن يقص عليه قصة الطوفان ، وكيف ندمت الآلهة على ما سببته في سورة جنونها من دمار ، وكيف أبقت عليه هو وزوجته فخلدتهم لأنهما أنجيا النوع الإنساني من الفناء . ويقدم إلى جلعميش نبتة تجدد ثمارها شباب من يأكلها ؛ ويبدأ جلعميش رحلته الطويلة إلى بلده معتبطاً سعيداً ولكنه يقف في طريقه ليستحم ، وبينما هو يفعل هذا إذ تخرج إليه أفعى وتسرق النبتة (*) .

ويصل جلعميش إلى أروك يائساً حزيناً ، ويطوف بالهياكل هيكلاً بعد هيكلاً يصلى ويدعو الآلهة أن ترد الحياة إلى إنجيدو ولولم تطل حياته إلا ريثما يكلمه كلمة واحدة . ويظهر إنجيدو ويسأله جلعميش عن حال الموتى ، فيرد عليه إنجيدو بقوله : « لا أستطيع أن أجيبك لأنى لو فتحت الأرض أمامك ، ولو أخبرتك بما رأيت ، لقضيت من شدة الهول ، ولغشى عليك » . ولكن جلعميش رمز الفلسفة ، وهى تلك البلاهة الجريئة ، يصر على طلب الحقيقة ويقول : « سيقضى على الرعب ، وسيغشى على ، ولكن خبرنى عنه » . ويصف له إنجيدو أهوال الجحيم ، وبهذه النعمة الحزينة تختم الملحمة الناقصة (١٤٠) .

(*) كان كثيرون من الأقدمين يعبدون الأفعى ويتخذونها رمزاً للخلود ، وذلك لقدرتها الظاهرة على الفرار من الموت بتبديل جلدها .

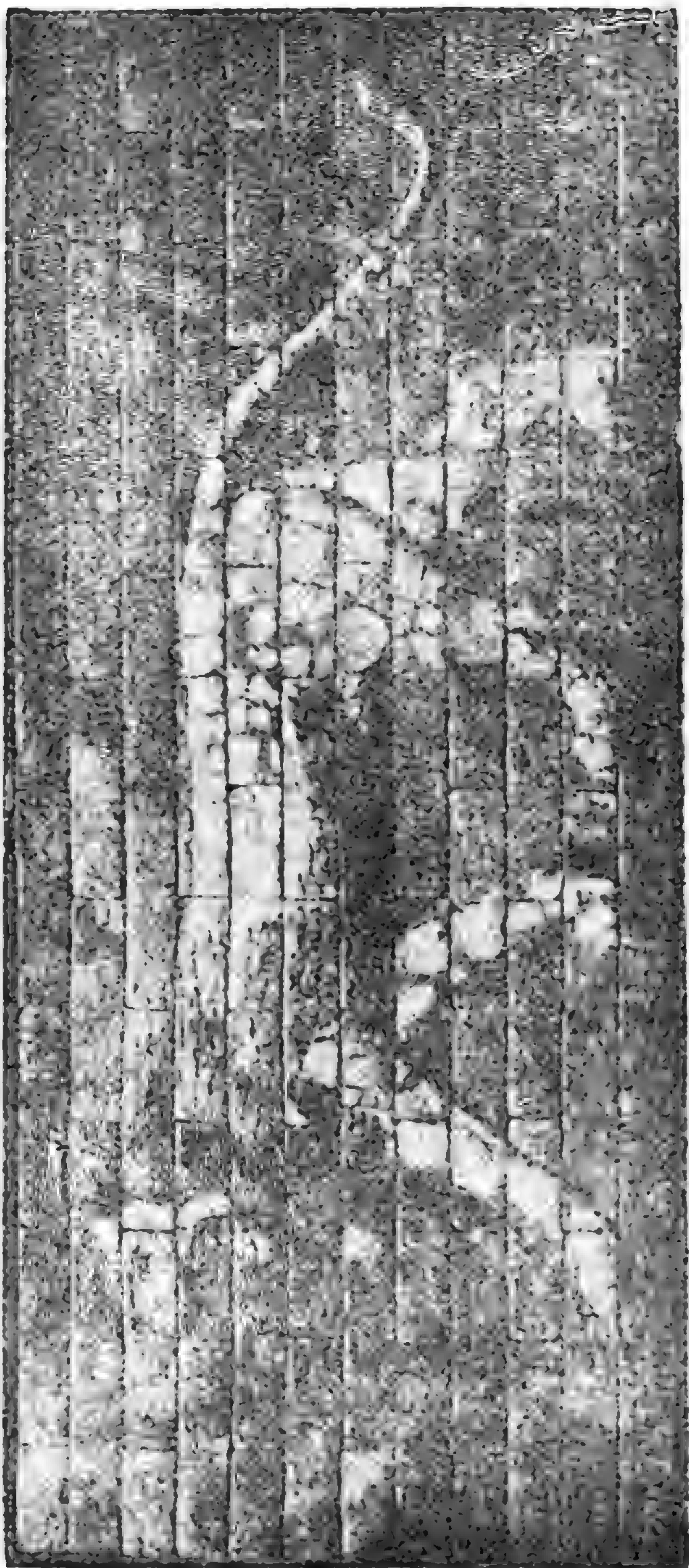
الفصل السابع

الفنانون

الفنون الصغرى — الموسيقى — التصوير — النحت — النحت الغائر — العمارة

تكاد تكون قصة جلبجيش المثل الوحيد الذى نستطيع أن نحكم به على أدب البابليين . أما الفنون الصغرى فإن ما أبقت عليه المصادقات من آثارها يدل على أنهم قد أوتوا قسطاً موفوراً من الإحساس بالجمال ، وإن لم يؤثروا روح الإبداع العميقة ، وعلى أن هذا الإحساس لم يقض عليه كله انهماكهم فى الأعمال التجارية ، وفى الملاذ الجسمية ، وفى تقوالم التى أرادوا أن يعوضوا بها هذه الناحية من حياتهم . وإن قطع القرميد التى طليت وصقلت بأعظم عناية ، والحجارة البراقة ، وأدوات البرنز الدقيقة الصنع ، والحديد ، والفضة ، والذهب ، والتطريز الجميل ، والسجاجيد الوثيرة ، والثياب ذات الصبغات الجميلة ، والأقشعة المزركشة المعلقة على الجدران ، والمناضد المرتكزة على القواعد والسرر والكراسى^(١٤١) ، إن هذه الخلفات كلها لتخلع على الحضارة البابلية ثوباً قشيباً من الجمال والرونق وإن لم تخلع عليها كثيراً من القيمة أو الجلال . والحلى التى عثر عليها كثيرة ، ولكنها تنقصها الدقة الفنية التى نشاهدها فى حلى المصريين الأقدمين ؛ وكان أكبر ما يقصد بها أن تعرض المعدن الأصفر أكثر مما تعرض الفن الجميل ، ويظن صانعوها أن من جمال الفن أن تصنع تماثيل كاملة من الذهب^(١٤٢) . وكان لدى البابليين آلات طرب كثيرة — ناي ، وقانون ، وقيثار ، ومزامير القرب ، وطبول وقرون ، ومزامير من الغاب ، وأبواق ، وصنوج ، ودفوف . وكان لهم فرق موسيقية ومغنون يعزفون ويغنون فرادى ومجتمعين فى الهياكل والقصور وفى حفلات الأثرياء^(١٤٣) .

شکل (۲۸) « اُسَد بابل » نقش ماون فی متحف برلین



وكان التصوير بالألوان من الفنون الثانوية عند البابليين ، يستخدمونه في تزيين الجدران والتماثيل ، ولم يحاولوا قط أن يجعلوا منه فناً مستقلاً بذاته^(١٤٤) .

ولسنا نجد في خرائب البابليين تلك النقوش الملونة التي تزدان بها قبور المصريين ، أو تلك المظلمات التي تجمل قصور كريت . كذلك لم يرق فن النحت عند البابليين ، ويلوح أن هذا الفن قد جمد وقضى عليه قبل أن يكتمل نموه ما ورثته بابل من القواعد التي جرى بها العرف عند السومريين ، وأرغمها الكهنة على اتباعها والجرى على سننها : فكل الوجوه المرسومة وجه واحد ، ولكل الملوك أجسام ممثلة قوية العضلات ، والأسرى كلهم كأن تماثيلهم صبت في قالب واحد . ولم يبق من تماثيل البابليين إلا القليل ، ولم يكن ثمة ما يوجب هذه القلة . والنقوش الفائرة أحسن حالا من التماثيل ولكنها هي الأخرى فجة خشنة يتحكم فيها العرف والتقاليد ؛ وثمة فارق كبير بينها وبين نقوش المصريين القوية التي حفروها من قبلهم بألف عام . ولا تصل هذه النقوش إلى غايتها إلا حين تمثل الحيوانات وهي هادئة ساكنة مهيبية في أرباضها الطبيعية ، أو مهتاجة أثارتها قسوة الإنسان^(١٤٥) .

وليس في وسعنا الآن أن نحكم حكماً عادلاً على فن العمارة البابلي لأننا لا نكاد نجد شيئاً من مخلفات هذا الفن يرتفع فوق الرمال أكثر من بضع أقدام ، وليس بين آثارهم صور لعمايرهم منحوتة أو مرسومة ، يستدل منها بوضوح على أشكال القصور والهياكل وهندسة بنائها . وكانت البيوت تبني من الطين ، أو من الآجر إن كانت للأغنياء منهم ، وقلما كانت لها نوافذ ، ولم تكن أبوابها تفتح على الشوارع الضيقة بل كانت تفتح على فناء داخلي مظلل من الشمس . وتصف الأخبار المتواترة بيوت الطبقات الراقية بأنها مكونة من ثلاث طبقات أو أربع^(١٤٦) . أما الهياكل فكانت تقوم على قواعد في مستوى سقف البيوت التي كانت تلك الهياكل تسيطر على حياة أهلها . وكان الهيكل في الغالب بناء ضخماً من القرميد مشيداً كالبيوت حول فناء تقام فيه معظم الحفلات الدينية .

ويقوم إلى جوار المعبد في أغلب الحالات برج عال يسمى بلغتهم زجورات (ومعناها « مكان عال ») يتكون من طبقات مكعبة الشكل بعضها فوق بعض ، وتتناقص كلما علت ، ويحيط بها سلم من خارجها . وكانت تستخدم إما في الأغراض الدينية — فقد كانت مزاراً عالياً للإله صاحب الهيكل ، — وإما في أغراض فلكية بأن تكون مرصداً يرقب منه الكهنة الكواكب التي تكشف عن كل شيء في حياة الناس .

وكان الزجورات العظيم الذي في برسبا يسمى « مراحل الأفلاك السبعة » ، وكانت كل طبقة من طبقاته مخصصة لكوكب من الكواكب السبعة المعروفة عند البابليين ، وملونة بلون يرمز إلى هذا الكوكب . فكانت الطبقة السفلى سوداء اللون كلون زحل ، والتي تليها بيضاء كلون الزهرة ، والتي فوقها أرجوانية المشتري ؛ والرابعة زرقاء لعطارد ؛ والخامسة قرمزية للمريخ ؛ والسادسة فضية للقمر ؛ والسابعة ذهبية للشمس . وكانت هذه الأفلاك والكواكب تشير إلى أيام الأسبوع السبعة مبتدئة من أعلاها (١٤٧) .

ولم يكن في هذه المباني — على قدر ما نستطيع أن نتبين من منظرها — شيء كثير من الذوق الفني ، فقد كانت كلها كتلا ضخمة من خطوط مستقيمة لا تتناول إلى شيء أكثر من مجد الضخامة ، وقد نجد في بقاع متفرقة بين الخرائب القديمة عقوداً وأقواساً ، وهي أشكال أخذت عن سومر ، واستخدمت في غير عناية ومن غير علم بمصيرها . وكان ما في المباني من زينات في داخلها وخارجها يكاد يقتصر على طلاء بعض أوجه الأجر ، بعد صقلها ، بالألوان الصفراء ، والزرقاء ، والبيضاء ، والحمراء ، وإقامة صُور من القرميد للحيوان والنبات في مواضع قليلة من الجدران . وهذا « التزجيج » ، الذي لم يكن يقصد به تجميل البناء فحسب بل كان يقصد به أيضاً وقاية المباني من الشمس والمطر ، قديم يرجع على الأقل إلى عهد نارام — سن ، وقد ظل شائعاً في أرض النهرين إلى أيام

الفتح الإسلامى . ولهذا السبب أضحت صناعة الخزف أخص فنون الشرق الأدنى القديم ، وإن لم تنتج من الأواى الخزفية ما هو جدير بالذكر . لكن فن العمارة البابلى ظل على الرغم من هذا العون فنا ثقيلا خاليا من الجمال والأناقة ، قضت عليه المواد التى استخدمت فيه ألا يرقى إلى ما فوق الدرجة الوسطى . وما أسرع ما كانت الهياكل تقوم من الطين الذى حوَّله العمال المسخرون إلى لبنات وملاط ، ولم تكن ثمة حاجة إلى قرون طوال كي تمتلئ بها البلاد كما اجتاحت المباني الكبيرة الباقية فى مصر وفى أوروبا العصور الوسطى . ولكنها تهدمت بنفس السرعة التى شيدت بها أو بما يقرب منها ، ولم يمض عليها إلا خمسون عاما حتى عادت كما بدأت ترابا^(١٤٨) . وكان رخص اللبن والآجر فى حد ذاته سببا فى فساد الهندسة البابلية . لقد كان يسهل أن تقام من هذه المواد المباني الضخمة ، أما الجمال فكان من الصعب أن يُنال باستخدامها . ذلك أن الآجر لا يعين على السمو والجلال ، والسمو والجلال هما روح العمارة .

الفصل الثامن

علوم البابليين

الرياضة — الفلك — التقويم — الجغرافية — الطب

كان البابليون تجاراً ، ومن أجل هذا كان نجاحهم في العلم أيسر من نجاحهم في الفن . لقد أوجدت التجارة علوم الرياضة ، وتعاونت مع الدين على إيجاد الفلك . وكانت الأعمال المتعددة التي يقوم بها كهنة أرض الجزيرة ، من قضاء بين الناس ، وهيمنة على المصالح الحكومية ، وزراعة وصناعة ، وعرافة وخبرة بالنظر في النجوم وفي أحشاء الحيوانات — كانت الأعمال التي يقوم بها هؤلاء الكهنة حافزاً لهم على أن يضعوا ، على غير علم منهم ، أسس العلوم التي كانت في أيدي اليونان الملحدون سبباً في إنزال الدين من مركز الزعامة والسيطرة على العالم .

وكانت علوم البابليين الرياضية تستند إلى تقسيم الدائرة إلى ٣٦٠ درجة ، وتقسيم السنة إلى ٣٦٠ يوماً . وعلى هذا الأساس وضعوا نظاماً ستينياً للعد والحساب بالسنين ، وهو النظام الذي نشأت منه فيما بعد النظم الاثنا عشرية ، التي تعد بالاثني عشرات . وكانوا لا يستخدمون في العد إلا ثلاثة أرقام — منها علامة للواحد تتكرر حتى تكون تسع علامات متماثلة للرقم ٩ ، وعلامة ثانية للرقم ١٠ تتكرر حتى تصل إلى ٥٠ ، وعلامة للرقم ١٠٠ ؛ وكان مما سهل لهم عملية العد والحساب أن وضعوا جداول لا تقتصر على ضرب الأعداد الصحيحة وقسمتها ، بل تشمل أيضاً أنصاف الأعداد الرئيسية وأثلثها ومربعاتها ومكعباتها . وتقدم علم الهندسة حتى كان في وسعهم أن يقدروا المساحات المعقدة ومساحات الأشكال غير المنتظمة . وكانوا يقدرون النسبة التقريبية (النسبة بين محيط الدائرة وقطرها) بثلاثة وهو عدد تقريبي لا يليق بأمة من الفلكيين .

وكان الفلك هو العلم الذي امتاز به البابليون ، وهو الذي اشتهروا به في العالم القديم كله . وهنا أيضا كان السحر منشأ العلم . فلم يدرس البابليون النجوم ليرسموا الخرائط التي تعين على مسير القوافل والسفن ، بل درسوها أكثر ما درسوها لتعينهم على التنبؤ بمستقبل الناس ومصائرهم ، وبذلك كانوا منجمين أكثر منهم فلكيين . وكان كل كوكب من الكواكب إلهاتهم شئون الناس ولا غنى عنه في تدبيرها . فكان المشتري مردك ، وعطارد نابو ، والمريخ نرجال ، والشمس شمش ، والقمر سن ، وزحل نبيب ، والزهرة إشتار . وكانت كل حركة من حركات كل نجم أو كوكب تدل على أن حادثاً وقع على الأرض أو تنبأ بوقوعه . فإذا كان القمر منخفضاً مثلاً ، كان معنى ذلك أن أمة بعيدة ستخضع للملك ، وإذا كان هلالاً كان معناه أن الملك سيظفر بأعدائه . وأضحت الجهود التي تبذل لاستخلاص العلم بالمستقبل من حركات النجوم شهوة من شهوات البابليين ، واستطاع بها الكهنة الخبيريون بالتنجيم أن يجنوا أطيب الثمرات من الملوك والشعب على السواء . وكان من هؤلاء الكهنة من هو مخلص لعله مؤمن به ، ينقب بغيرة وحماسة في المجلدات التي تبحث في التنجيم ، والتي وضعت ، حسب رواياتهم المأثورة ، في عهد سرجون ملك أكد . وكانوا يشكون من الدجالين الذين يسيرون بين الناس يقرءون لهم طوالعهم أو يتنبئون بما سيكون عليه الجو بعد عام شأن تقاويماناً في هذه الأيام ، كل هذا نظير أجور يتقاضونها وهم لم يدرسوا من التنجيم شيئاً^(١٤٩) .

ونشأ علم الفلك نشأة بطيئة من هذه الأرصاد ومن خرائط النجوم التي كانت تهدف إلى التنجيم والتنبؤ بالغيب . وقد استطاعوا منذ عام ٢٠٠٠ ق . م . أن يسجلوا بالدقة شروق الزهرة وغروبها بالنسبة إلى الشمس ، وحددوا مواضع عدة نجوم ، وأخذوا يصورون السماء على مهل^(١٥٠) . فلما فتح الكاشيون بلاد بابل توقف هذا التقدم نحو ألف عام . ثم واصلوه من جديد في عهد نبوخذ نصر ، فصور العلماء الكهنة مسارات الشمس والقمر ، ولاحظوا اقترانهما كما لاحظوا

الحسوف والكسوف ، وعينوا مسارات الكواكب ، وكانوا أول من ميز النجوم الثوابت من الكواكب السيارة تمييزاً دقيقاً^(١٥١) (*) ، وحددوا تاريخ الانقلابين الشتائي والصيفي ، وتاريخي الاعتدالين الربيعي والخريفي ؛ وساروا على النهج الذي سبقهم إليه السومريون فقسموا دائرة فلك البروج (أى مسار الأرض حول الشمس) إلى الأبراج الاثني عشر . وبعد أن قسموا الدائرة إلى ٣٦٠ درجة عادوا فقسموا الدرجة إلى ستين دقيقة والدقيقة إلى ستين ثانية^(١٥٢) . وكانوا يقدرون الزمن بالساعة المائية والمزولة ، وأكبر الظن أنهم لم يعملوا على ترقية هاتين الآلتين فحسب بل أنهم اخترعوها اختراعاً^(١٥٣) .

وقسموا السنة إلى اثني عشر شهراً قرياً ، منها ستة في كل منها ثلاثون يوماً والستة الأخرى في كل منها تسعة وعشرون . ولما كان مجموع أيامها على هذا الحساب لا يبلغ إلا ٣٥٤ يوماً فإنهم كانوا يضيفون في بعض السنين شهراً آخر لكي يتفق تقويمهم مع الفصول . وقسموا الشهر إلى أربعة أسابيع تتفق مع أوجه القمر الأربعة . وحاولوا أن يتخذوا لهم تقويماً أسهل من هذا بأن قسموا الشهر إلى ستة أسابيع كل منها خمسة أيام ؛ ولكن ثبت بعدئذ أن أوجه القمر أقوى أثراً من رغبات الناس ، وبقى التقسيم الأول كما كان . ولم يكونوا يحسبون اليوم من منتصف الليلة إلى منتصف الليلة التي تليها ، بل كان عندهم من شروق القمر^(**) إلى شروقه التالي^(١٥٤) ، وقسموا هذه المدة إلى اثنتي عشرة ساعة ، في كل ساعة منها ثلاثون دقيقة ، وبذلك كان طول الدقيقة البابلية أربعة أضعاف ما قد يوحى إلينا اسمها . وإذن فتقسم الشهر عندنا إلى أربعة أسابيع ، وتقسم أوجه ساعاتنا

(*) كان البابليون يفرقون بين الكوكب والنجم « الثابت » برصد حركات الكوكب و « تجواله » . ويعرف علم الفلك الحديث الكوكب بأنه جرم سماوي يدور بانتظام حول الشمس . (***) هكذا في الأصل ولعل المؤلف يريد من شروق الشمس إلى شروقها ، وذلك لأن شروق القمر يتأخر في كل ليلة عن سابقتها بنحو ٥٢ دقيقة ويجعل طول الساعة مختلفاً في كل ليلة عنه في الأخرى . (المترجم)

إلى اثنتي عشرة ساعة (لا إلى أربع وعشرين) وتقسم الساعة إلى ستين دقيقة ، والدقيقة إلى ستين ثانية ، كل هذه آثار بابلية لاشك فيها باقية من أيامهم إلى عهدنا الحاضر (*) ، وإن كان هذا لا يخطر لنا على بال .

وكان اعتماد العلوم البابلية على الدين وارتباطها به أقوى أثراً في ركود الطب منه في ركود الفلك : على أن أساليب الكهنة الخفية لم تحل دون تقدم العلوم بقدر ما حال دونه تخريف الشعب . ذلك أن علاج المرضى قد خرج إلى حد ما عن اختصاص الكهنة وسيطرتهم من أيام حمورابي ، ونشأت مهنة منتظمة للأطباء ذات أجور وعقوبات يحددها القانون ، فكان المريض الذي يستدعي طبيباً لزيارته يعرف مقدماً كم من المال يجب عليه أن يؤديه نظير هذا العلاج أو ذاك ونظير هذه الجراحة أو تلك ؛ وإذا كان هذا المريض من الطبقات الفقيرة نقص الأجر لكي يتناسب مع فقره (١٥٧) . وإذا أخطأ الطبيب أو أساء العمل كان عليه أن يؤدي للمريض تعويضاً . بل لقد بلغ الأمر في بعض الحالات التي يكون فيها الخطأ شنيعاً أن تقطع أصابع الطبيب كما سبق القول ، حتى لا يمارس صناعته عقب هذا الخطأ مباشرة (١٥٨) .

ولكن هذا العلم الذي تحرر من سلطان الدين تحرراً يكاد يكون تاماً كان عاجزاً بسبب حرص الشعب على التشخيص القائم على الخرافات والأوهام ، وعلى العلاج بالأساليب السحرية . ومن أجل هذا كان السحرة والعرافون أحب إلى الشعب

(*) وانتقل البابليون من رسم السماء إلى رسم الأرض . وأقدم ما نعرف من الخرائط هي التي خطط فيها الكهنة طرق إمبراطورية نبوخذ نصر ومدنها (١٥٥) . ولقد عثر المنقبون في خرائب جاسور (التي تبعد عن بابل مائتي ميل شمالها) على لوح من الطين يرجع تاريخه إلى عام ١٦٠٠ ق . م ويحتوى ، في مساحة لا تكاد تبلغ بوصة واحدة ، على خريطة لمقاطعة شط — أزلا ، وقد مثلت فيها الجبال بخطوط دائرية ، والمياه بخطوط مائلة ، والأنهار بخطوط متوازية . وكتبت عليها أسماء عدد من المدن ، وبين في هامشها اتجاه الشمال والجنوب (١٥٦) .

من الأطباء ؛ وقد فرضوا على الناس ، بفضل نفوذهم عندهم ، طرقاً للعلاج أبعد ما تكون عن العقل . فكان منشأ المرض في رأيهم تقمص الشيطان جسم المريض لذنوب ارتكبه ، وكان أكثر ما يعالج به لهذا السبب تلاوة العزائم وأعمال السحر والصلوات . فإذا ما استخدمت العقاقير الطبية ، فإنها لم تكن تستخدم لتطهير جسم المريض ، بل كان استخدامها لإرهاب الشيطان وإخراجه من الجسم . وكان أكثر الأدوية شيوعاً عقاراً مكوناً من خليط من العناصر التي تعافها النفس اختيرت لهذا السبب عن قصد ؛ ولعلمهم كانوا يفترضون أن معدة المريض أقوى من معدة الشيطان الذي يتقمصه . وكانت العناصر المألوفة لديهم هي اللحم النيئ ، ولحم الثعابين ، ونشارة الخشب المزوجة بالنبيذ والزيت ؛ أو الطعام الفاسد ، ومسحوق العظام ، أو الشحم والأقذار ، ممزوجة ببول الحيوان أو الإنسان أو برازه^(١٥٩) . وفي بعض الحالات كان يستبدل بهذا العلاج بالأقذار لبن وعسل وزبد وأعشاب عطرة يحاولون بها استرضاء الشيطان . فإذا لم يفلح مع المريض كل علاج ، نُحْمَل في بعض الحالات إلى السوق لكي يتمكن جيرانه من أن يشبعوا رغبتهم القديمة فيصفوا له العلاج الفعال الذي لا يخطئ^(١٦١) .

على أن من واجبنا أن نقول إن الثمانمائة لوح التي بقيت لدينا لتحدثنا عن طب البابليين لا تحتوى على كل ما كان لديهم منه ، ولعلنا نظلمهم إذا حكمنا عليهم بما نجده فيها وحدها . ذلك أن استعادة الكل الضائع من جزء صغير عثر عليه منه من أشد الأعمال خطورة في التاريخ ، وليت كتابة التاريخ إلا إعادة الكل من جزئه . وليس ببعيد ألا يكون العلاج بالسحر إلا استخداماً لقوة الإيحاء باستخداماً ينطوى على كثير من الدقة ؛ ولعل هذه المركبات الكريهة كان يقصد

بها أن تكون مقيئات . ولعل البابليين حين يقولون إن المرض ينشأ من غزو الشياطين جسم المريض عقابا له على ما يرتكبه من الذنوب ، لا يقصدون بقولهم هذا شيئا أبعد عن المعقول من قولنا نحن إن المرض ينشأ من غزو البكتريا لجسم المريض بسبب إهماله الإجمالى أو عدم نظافته أو نهمة . وقصارى القول أن من واجبنا ألا نكون واثقين كل الثقة من جهل أسلافنا .

الفصل التاسع

الفلاسفة

الدين والفلسفة — أيوب البابليين — كحيلت البابليين — رجل يقاوم الكهنة

إن الأمم تولد رواقية وتموت أبيقورية ، يقوم الدين إلى جانب مهبها (كما يقول المثل القديم) ، وتصحبها الفلسفة إلى قبرها . ففي بداية الثقافات كلها ترى عقيدة دينية قوية تخفى عن أعين القوم كنه الأشياء وترقى من طبائعها ، وتبث في قلوبهم من الشجاعة ما يستطيعون به أن يتحملوا الآلام ويقاسوا الصعاب وهم صابرون ، تقف الآلهة إلى جانبهم في كل خطوة يخطونها ، ولا تتركهم يهلكون إلا حين يهلكون ؛ وحتى في هذه الحال يحملهم إيمانهم القوي على الاعتقاد بأن خطاياهم هي التي أغضبت الآلهة فانتقموا منهم . ذلك أن ما يصيب الناس من شر لا يفقدهم إيمانهم ، بل يقويه في قلوبهم ؛ فإذا جاء النصر ، وإذا نسوا الحرب لطول ما ألقوه من الأمن والسلام ، ازدادت ثروتهم ؛ واستبدلت الطبقات المسيطرة بحياة الجسم حياة الحواس والعقل ، وحلت اللذة والراحة محل الكدح والمتاعب ؛ وأضعف العلم الدين بينما يضعف التفكير والدعة ما في الناس من رجولة وصبر على المكاره . وأخيراً يبدأ الناس يرتابون في آلهتهم ، ويندبون مأساة المعرفة ، ويلجئون إلى كل لذة عاجلة زائلة يعتصمون بها من سوء مصيرهم . فهم في البداية كأشيل ، وفي النهاية كأبيقور ؛ وبعد داود يأتي أيوب ، وبعد أيوب يأتي سفر الجامعة .

وإذ كنا لا نستدل على تفكير البابليين إلا من أيام ملوكهم المتأخرين ، فإن من الطبيعي أن نجد هذا التفكير تسرى فيه حكمة الكلالاة الصادرة من أفواه الفلاسفة المتعبين الذين يستمتعون بالملاذ كما يستمتع بها الإنجليز . فترى على أحد

الألواح مثلاً بلطا — أرتوا يشكو من أنه التزم أوامر الآلهة أشد مما التزمها جميع الناس . ولكنه مع هذا قد أصابته طائفة من البلايا ، فقد أبويه ، وخسر ماله ، وحتى القليل الذى بقى له منه سرق فى الطريق . ويحييه أصدقاؤه — كما يجيب أيوب أصدقاؤه — بأن ما حل به من البلاء ليس إلا عقاباً له على خطايا خافية عنه — وربما كان جزاء له على صلفه العاتى المنبعث من طول عهده بالرخاء ، وهو أشد ما يثير غضب الآلهة وحسدها . ويؤكدون له أن الشر ليس إلا خيراً مقنعاً ، وأنه جزء من السنن الإلهية ينظر إليه المرء نظرة جد ضيقة بعقله الضعيف ، وهو غافل عن هذه السنن فى مجموعها ، وأنه إذا ما استمسك بإيمانه وشجاعته فإنه سيجزى فى آخر الأمر خير الجزاء ؛ وسينال ما هو خير من هذا وهو أن أعداءه سيلقون عقابهم . وينادى بلطا — أرتوا الآلهة يطلب إليها العون — ثم تختتم القطعة الباقية من اللوح ختاماً مفاجئاً^(١٦٢) .

وتعرض قصيدة أخرى وجدت ضمن بقايا مجموعة الآداب البابلية التى خلفها آشور بانيبال هذه المشكلة بعينها عرضاً أدق حين يتحدث تاي — أتول — أنليل ، وهو كما يلوح أحد حكام نپور ، عن نفسه فيقول فى وصف ما لاقاه من الصعاب^(*) :

(طمس على مقلنى كأنما أغلقهما) بقفل ؛
 (ووقر أذنى) كأذنى الشخص الأصم .
 وكنت ملكاً فصرت عبداً ؛
 وأساء رفاة (ى) معاملتى كأن بى جنة .
 ابعث إلى العون ونجنى من الوهدة التى احتفرت (لى) ! ...
 بالنهار حسرات عميقة ، وبالليل بكاء ؛
 وطول الشهر — صراخ ؛ وطول العام — شقاء ...

(*) الألفاظ الموضوعية بين قوسين ألفاظ ظنية .

ثم يواصل قوله فيخبرنا كيف كان طول حياته إنساناً تقياً ، وكيف كان آخر
شخص في العالم يصح أن يكون مصيره هذا المصير القاسى :
كأنى لم أخصص للإله نصيبه على الدوام ؛
ولم أبتهل إلى الآلهة وقت الطعام ؛
ولم أعن بوجهى وآتى بخراجى ؛
وكأنى إنسان لم يكن التضرع والدعاء دائمين على لسانه .
لقد علمت بلدى الاحتفاظ باسم الإله ؛
وعودت شعبي أن يُعظم اسم الإلهة ...
وكنت أظن أن هذه الأشياء مما يسر أى إله .

ولما أصابه المرض على الرغم من كل هذا التقى الشكلى ، أخذ يفكر فى
استحالة الوقوف على تدبير الآلهة ، وفى تقلبات شئون البشر .

من ذا الذى يدرك إرادة آلهة السماء !

إن تصاريف الإله كلها غموض — فمن ذا الذى يدركها ؟ ...

إن من كان بالأمس حياً أصبح اليوم ميتاً ،

وما هى إلا لحظة حتى تنقسمه الغيوم ، ويتحطم قلبه فجأة ،

فهو يغنى ويلعب لحظة ؛

وما هى إلا طرفة عين حتى يندب حظه كالحزون ...

لقد لفنى الهم كأنه شبكة ،

تتطلع عيناي ولكنهما لا تبصران ...

وأذناى مفتوحتان ولكنهما لا تسمعان ، ...

وقد سقط الدنس على عورتى ،

وهاجم الغدد التى فى أحشائى ...

وأظلم من الموت جسمى كله ...

يطاردنى المطارد طوال النهار؛
ولا يترك لى بالليل لحظة أتتفس فيها ...
لقد تفككت أطرافى ، فلم تعد تمشى مؤتلفة ،
وأقضى الليل بين أقذارى كما يقضيه الثور ؛
وأختلط ببرازى كما يختلط الضأن .
ثم يعود فيجهر بإيمانه كما فعل أيوب فيقول :
ولكنى أرى اليوم الذى تحف فيه دموعى ،
اليوم الذى يدركنى فيه لطف الأرواح الواقية ،
ويومئذ تكون الآلهة رحيمة بى^(١٦٣) .

ثم تنقلب الأحوال كلها سعادة وهناءة ، فيظهر أحد الأرواح الطيبة ، ويشفى
تأبى من جميع أمراضه ؛ وتهب عاصفة هوجاء فتطرد شياطين المرض كلها من
جسمه . ويسبح بحمد مردك ، ويقرب له القرابين النفيسة ، ويهيب بالناس جميعاً
ألا يقنطوا من رحمة الآلهة^(*) .

وليس بين هذا وبين ما ورد فى سفر أيوب إلا خطوة واحدة ؛ كذلك نرى
فى الآداب البابلية أمثلة سابقة لا يمكن الخطأ فيها مما ورد فى سفر الجامعة من
الكتاب المقدس . من ذلك ما ورد فى ملحمة جلجميش من نصيح الإلهة سبيتو
لهذا البطل بأن يكف عن شوقه إلى الحياة بعد الموت ، وأن يأكل ويشرب ،
ويستمتع على ظهر الأرض :

أى جلجميش ، لم هذا الجرى فى جميع الجهات ؟
إن الحياة التى تسعى لها لن تجدها أبداً .

إن الآلهة حين خلقت بنى الإنسان قدرت الموت على بنى الإنسان ؛

(*) وأكبر الظن أن هذه الأقوال ، التى نجد سوابق مثلها فى الأدب السومرى ، كان
لها أثر فى واضع سفر أيوب^(١٦٤) .

واحتفظت بالحياة في أيديها .
أى جلعميش ، املاً بطنك ؛
وكن مرحاً بالنهار وبالليل ؛ ...
بالنهار وبالليل كن مبتهجا راضيا !
وطهر ثيابك .
واغسل رأسك ؛ اغتسل بالماء !
وألُقْ بالك إلى الصغير الذى يمسك بيدك ؛
واستمع بالزوجة التى تضمها إلى صدرك (١٦٥) (*) .

وتستمع فى لوحة أخرى إلى نعمة أشد من هذه حزناً تختم بالكفر
والتجديف . ذلك أن جبارو وهو عند البابليين كالسبيديس عند اليونان ، يسأل
إنساناً يكبره أسئلة ملؤها الشك فيقول :

أيها العاقل الحكيم ، يا صاحب الذكاء ، تأوه من صميم قلبك !
إن قلب الإله بعيد بعد أطباق السماوات الداخلية ،
والحكمة صعبة ، والناس لا يفهمونها .
ويجيبه الشيخ متشامماً تشاؤم عاموس وإشعيا :
استمع ، يا صديقى ، وافهم أفكارى .
إن الناس يجدون عمل الرجل العظيم الذى يبرع فى القتل ،
ويحقدون الرجل الفقير الذى لم يرتكب ذنباً .

(*) وازت بين هذه الأقوال وبين ما ورد فى الآيات السابعة والثامنة والتاسعة من
الإصحاح التاسع من سفر الجامعة : ٧ — اذهب كل خبزك بفرح ، واشرب خمر بقلب طيب ،
لأن الله منذ زمان قد رضى عمالك . ٨ — لتكن ثيابك فى كل حين بيضاء ولا يعوز رأسك
الدهن . ٩ — التذ عيشاً مع المرأة التى أحببتها كل أيام حياة باطلك التى أعطاك إياها تحت
الشمس ، كل أيام باطلك لأن ذلك نصيبك فى الحياة وفى تعبك الذى تتبعه تحت الشمس .

ويبررون أعمال الرجل الآثم الذى يقترف أشنع الأخطاء ،

ويردون الرجل العادل الذى يسعى لما يريد الله .

وهم يسلطون القوى ليغتال طعام الضعيف ؛

ويقوون القوى ؛

ويهلكون الرجل الضعيف ، ويطرده الرجل الغنى .

وينصح جبارو مع هذا أن يفعل ما تريده الآلهة . ولكن جبارو يقطع

صلاته بها وبالكهنة الذين ينصرون على الدوام أكبر الناس ثراء :

إنهم لم ينقطعوا عن عرض الأكاذيب والأضاليل .

يقولون باللفظ الشريف ما كان فى صالح الرجل الغنى .

هل نقصت ثروته ؟ إنهم يبادرون إلى معونته .

وهم يسيئون معاملة الضعيف كأنه لص ،

وهم يهلكونه فى خلجة عين ، ويطفئونه كما يطفئون اللهب (١٦٦) .

وايس لنا مع ذلك أن نبالغ فى شأن ما نجده عند البابليين من مزاج سوداوى ،

وما من شك فى أن الناس كانوا يصغون فى رضا ومحبة إلى ما يقوله كهانهم ،

ويزدحمون فى الهياكل يطلبون رضا الآلهة . لكن الذى يدهشنا بحق هو طول

إيمانهم بدينهم الذى لا يعرض عليهم إلا القليل من أسباب المواساة والسلوى ؛

وهل ثمة شىء من هذين فى قول الكهنة أن لا شىء يمكن أن يعرف إلا بالوحى

الإلهى ؛ وإن هذا الوحى لا يصل إلى الناس إلا عن طريقهم هم ؟ ويحدثنا الفصل

الأخير من هذا الوحى عن هبوط الروح الميئة صالحة كانت أو طالحة إلى أرواح

الجحيم لتبقى فيها أبداً الدهر فى ظلام وعذاب مقيم . فلا عجب والحالة هذه إذا

انصرف البابليون للقصف والمرح فى الوقت الذى جُن فيه نبوخذ نصر بعد أن

ملك كل شىء ولم يدرك أى شىء ، وأمسى يرهب كل شىء .

الفصل العاشر

قبرية (*)

تحدثنا الروايات المتواترة كما يحدثنا سفر دانيال — الذى لم تؤيده أية وثيقة معروفة — أن نبوخذ نصر بعد أن حكم زمنا طويلا ، حالفه فيه النصر والرخاء على الدوام ، وبعد أن جعل مدينته بما شقه فيها من الطرق وما شاده من القصور ، وبعد أن بنى للآلهة أربعة وخمسين هيكلًا ، بعد أن فعل هذا كله انتابته نوبة غريبة من الجنون ، فظن نفسه حيوانًا ومشى على أربع ، واقتات بالكل^(١٦٧) . ويختفى اسمه أربع سنين كاملة من التاريخ ومن سجلات بابل الحكومية^(١٦٨) . ثم يعود فيظهر لحظة قصيرة ثم ينتقل إلى الدار الآخرة فى عام ٥٦٢ ق . م . ولا تكاد تمضى على وفاته ثلاثون عامًا حتى تتصدع إمبراطوريته وتمزق شر ممزق . وحكم بعده نابونيدس وجلس على العرش سبعة عشر عامًا آثر فيها أعمال الحفر على مهام الحكم ، وصرف وقته وجهده فى التنقيب عن عادات سومر وترك مملكته تتداعى^(١٦٩) . فاضطربت أحوال الجيش ، وانهمك رجال الأعمال فى شئون المال العليا الدولية ، فنسوا حبهم لبلادهم ، وغفل الناس عن فنون الحرب لاشتغالهم بشئون التجارة وانغماسهم فى الملذات . واغضب الكهنة سلطان الملوك شيئًا فشيئًا ، وملأوا خزائهم بالأموال التى أغرت الدول الأجنبية بغزو البلاد وفتحها . ولما أن وقف قورش وجيوش الفرس النظامية المدربة على أبواب بابل رضيت الطائفة المعادية للكهنة من البابليين أن تفتح له هذه الأبواب ، ورضيت بسيطرته المستنيرة^(١٧٠) .

(*) القبرية العبارة المكتوبة على القبر Epitaph (المترجم)

وحكم الفرس بابل قرنين من الزمان كانت في خلالها شطراً من أعظم
إمبراطورية عرفها التاريخ حتى ذلك الوقت ؛ ثم أقبل الإسكندر بجبروته وافتتح
المدينة دون أن يجد منها أية مقاومة ، وظل يشرب الخمر في قصر نبوخذ نصر
حتى مات (١٧١) .

ولم تفد البشرية من الحضارة البابلية ما أفادته من حضارة المصريين ، ولم
يكن فيها من التنوع والعمق ما في حضارة الهند ، كما لم يكن فيها من الدقة
والنضوج ما في حضارة الصين . على أن بابل هي التي أنشأت ذلك القصص
الساحر الجميل الذي أصبح بفضل براعة اليهود الأدبية الفنية جزءاً لا يتجزأ من
قصص أوروبا الديني . ومن بابل لا من مصر جاء اليونان الجوالون إلى دويلات
مدنهم بالقواعد الأساسية لعلوم الرياضة ، والفلك ، والطب ، والنحو ، وفقه اللغة ،
وعلم الآثار ، والتاريخ ، والفلسفة . ومن دويلات المدن اليونانية انتقلت هذه
العلوم إلى رومة ومنها إلى الأوربيين والأمريكيين . وليست الأسماء التي وضعها
اليونان للمعادن ، وأبراج النجوم ، والموازين والمقاييس ، وللآلات الموسيقية ،
ولكثير من العقاقير ، ليست هذه كلها إلا تراجم لأسمائها البابلية ، بل إنها في
بعض الأحيان لا تعدو أن تكون تبديلاً لحروفها من الأحرف البابلية إلى
اليونانية (١٧٢) . وبينما استمد فن العمارة اليونانية أشكاله وإلهامه من مصر
وكريت ، فإن العمارة البابلية هي التي أوحى عن طريق الزجورات بقباب
المساجد الإسلامية ، وبالمنازل والأبراج في العصر الوسيط ، وبطراز المياني
المرتدة في أمريكا في هذه الأيام . وأضحت قوانين حمورابي تراثاً للمجتمعات
القديمة كلها لا يقل في شأنه عما ورثه العالم من رومة من نظام الحكم
وأساليبه . ولقد انتقلت حضارة أرض النهرين من مهدها وأضحت عنصراً من
التراث الثقافي للجنس البشري بفضل سلسلة طويلة من الأحداث التاريخية
الخطيرة . فقد فتحت آشور بابل واستحوذت على تراث هذه المدينة القديمة ،

ونشرته في جميع أنحاء إمبراطوريتها الواسعة ؛ وتلا ذلك أسر اليهود الطويل
وما كان للحياة وللأفكار البابلية فيهم من أثر عظيم ؛ وأعقب هذا وذاك الفتحان
الفارسي واليوناني اللذان فتحا جميع طرق التجارة والمواصلات بين بابل والمدن
الناشئة في أيونيا وآسية الصغرى واليونان ، فتحالم يشهد العالم من قبل له نظيراً
في كماله وحرية .

إن شيئاً ما لا يضيع من العالم آخر الأمر ، بل إن كل حادثة تترك فيه أثرها
خالداً إلى أبد الدهر ، خيراً كان ذلك الأثر أو شراً .

الباب العاشر

أشور

الفصل الأول

أخبارها

بداية تاريخها — مدنها — أصل سكانها — الفاتحون — سنحريب
وعسرهدون — « سردنابالوس »

في أثناء الأحداث التاريخية السالفة الذكر ظهرت حضارة جديدة إلى شمالى بابل وعلى بعد ثلثمائة ميل منها . واضطر أهل البلاد التى نشأت فيها هذه الحضارة أن يحيا حياة عسكرية شاقة أرغمتهم عليها القبائل الجبلية التى كانت لا تنفك تهددهم من جميع الجهات . وما لبثوا أن غلبوا هؤلاء المهاجمين واستولوا على المدن التى كانت مهدم الأول فى عيلام وسومر وأكد وبابل ؛ وتغلبوا على فينيقية ومصر ، وظلوا مائتى عام كائلة يسيطرون بقوتهم الوحشية على بلاد الشرق الأدنى . وكان موقف سومر من بابل ، وموقف بابل من آشور كموقف كريت من بلاد اليونان وموقف بلاد اليونان من رومة . فقد أنشأت المدينة الأولى حضارة ، وتعهدتها الثانية وأتمتها حتى بلغت ذروتها ، وورثتها الثالثة ، وأضافت إليها من عندها ، وحقها ، وأسلمتها وهى تحتضر هدية منها إلى البرابرة الظافرين الذين كانوا يحيطون بها . ذلك أن البربرية تحيط على الدوام بالحضارة ، وتستقر فى وسطها ومن تحتها ، متحفزة لأن تهاجما بقوة السلاح ، أو بالهجرة الجماعية ، أو بالتوالد غير المحدود . وما أشبه البربرية بالغابة المتلبدة فى البلاد الاستوائية تحاول أشجارها على الدوام

أن تقضى على معالم الإنسان المتحضر وتقاوم جهوده ، ولا تعترف قط بهزيمتها ، بل تظل قروناً طويلاً صابرة تتقرب حتى تتاح لها الفرصة لاستعادة ما فقدته من أرضين بفعل الإنسان المتحضر .

ونشأت الدولة الجديدة حول أربع مدائن ترويه مياه نهر دجلة وروافده ، وهى أشور ومحلبا الآن قلعة شرغات ، وأربلا وهى إربل الحالية ، والكلخ وهى الآن نمرود ونينوى وهى قوينجك ، على الضفة المقابلة لمدينة موصل مدينة الزيت . وقد عثر المنقبون فى أطلال أشور على شظايا من السبج — الحجر الزجاجى الأسود — وعلى سكاكين وقطع من الفخار الأسود عليها رسوم هندسية توحى بأنها من أصل أسيوى^(١) ، وكل هذه من مخلفات عصر ما قبل التاريخ . وكشفت بعثة أثرية حديثة فى تبي جورا ، بالقرب من موقع نينوى عن بلدة يرد كاشفوها الفخورون تاريخها إلى عام ٣٧٠٠ ق . م رغم ما فيها من هياكل وقبور كثيرة ، وأختام أسطوانية متقنة النقش ، وأمشاط وحلى ، ورغم ما عثروا عليه فيها من نرد هو أقدم نرد عُرف فى التاريخ^(٢) . وتلك مسألة جديرة بتفكير المصلحين فى هذه الأيام . وخلع الإله أشور اسمه على مدينة من مدنها (ثم على القطر كله آخر الأمر) ؛ وفى هذه المدينة كان يسكن أقدم ملوك هذه الأمة ، وظلوا يقيمون بها حتى اضطروا بسبب تعرضها لحر الصحراء اللافح ولهجات جيرانهم البابليين إلى إنشاء عاصمة ثانية لهم فى مكان أقل من العاصمة الأولى حرارة . وكانت هذه العاصمة الثانية هى نينوى ؛ واسمها هى أيضاً مأخوذ من اسم إله من آلهتهم هو الإله نينا إشتار الآشوريين . وكان ثلثمائة ألف من الأهلين يسكنون فى نينوى أيام مجدها فى عهد أشور بانيبال كما كان ملوكها — ملوك الأرض عامة — يتلقون الجزية من جميع بلاد الشرق القريبة .

وكان الأهلون خليطاً من الساميين الذين وفدوا إليها من بلاد الجنوب المتحضرة (أمثال بابل وأكد) ؛ ومن قبائل غير سامية جاءت من الغرب

(واملهم من الحثيين أو من قبائل تمت بصلة إلى قبائل ميثاني) ؛ ومن الكرد سكان الجبال الآتين من القفقاس^(٣) . وأخذ هؤلاء كلهم لغتهم المشتركة وفنونهم من سومر ، ولكنهم صاغوها فيما بعد صياغة جديدة جعلتها لا تكاد تفرق في شيء عن لغة أرض بابل وفنونها . بيد أن ظروفهم الخاصة باعدت بينهم وبين النعيم الخنث الذي انمحر إليه البابليون^(٤) ؛ ولذلك ظلوا طوال عهدهم شعباً محارباً مفتول العضلات ، ثابت الجنان ، غزير الشعر ، كث اللحي ، معتدل القامة ، يبدو رجاله في آثارهم عابسين ، ثقيلي الظل ، يطئون بأقدامهم الضخمة عالم البحر الأبيض المتوسط الشرقي . وتاريخهم هو تاريخ الملوك والرقيق ، والحروب والفتوح ، والانتصارات الدموية والمهزائم المفاجئة . واغتنم ملوكهم — الكهنة الأوائل — وكانوا أقبالا خاضعين لأهل الجنوب — سيطرة الكاشيين على بابل فاستقلوا عنها ؛ ولم يمض إلا القليل حتى ازدان أحدهم باللقب الذي ظل ملوك آشور يتباهون به طوال عهدهم وهو « الملك صاحب الحكم الشامل » . ويبرز أمامنا من بين هؤلاء الأقبال الخامل الذي ذكر أفراد تهدينا أعمالهم إلى معرفة السبيل التي سلكتها بلادهم في نمائها وتطورها^(*) .

فبينما كانت بلاد بابل تتعبط في ظلمات حكم الكاشيين ضم سلما نصر الأول دويلات المدن الشمالية تحت حكمه ، واتخذ الكلخ عاصمة له . على أن أول الأسماء العظيمة في تاريخ آشور هو اسم تغلث فلاصر الأول . كان هذا الملك صياداً ماهراً ؛ وإذا كان من الحكمة أن نصدق أقوال الملوك فإنه قد قتل وهو راجل مائة وعشرين أسداً ، وقتل وهو في عربته ثمانمائة^(٥) ، وجاء في نقش خطه كاتب أكثر ملكية من الملك نفسه — أنه كان يصيد الأمم والحيوانات على

(*) وقد وجدت من عهد قريب في خرائب مكتبة سرجون الثاني لوحة تحتوي ثبنا متصلاً لا نفرة فيه بأسماء الملوك الآشوريين من الأسرة الثالثة والعشرين قبل الميلاد إلى آشور نيرارى (٧٥٣ — ٧٤٦ ق . م (١٤))

السواء . « وسرت في بأسى الشديد على شعب قموه ، وفتحت مدائنهم ، وسقت منها الغنائم ، واستوليت على ما لا حصر له من بضائعهم وأملاكهم ، وحرقت مدنهم بالنار ، ودمرتها وخربتها ... وخرج أهل أدنش من جبالهم واحتضنوا قدمي ، وفرضت عليهم الجزية^(٦) » . وقد ساق هذا الملك جيوشه في كل اتجاه ، فأخضع الحثيين والأرمن وأربعين أمة غيرها ، واستولى على بابل ، وأرهب مصر فأرسلت له الهدايا وهي قلقة ورجلة ، (وكان منها تمساح لأنه كثيراً وخفف من غضبه) . وبنى من الخراج الذي دخل خزائنه هياكل لآلهة الآشوريين وإلهاتهم ؛ ولم تسأله هذه الآلهة عن مصدر هذه الثروة كلها كأنما كان همها كله أن تكون لها هياكل تقرب فيها القرابين . ثم خرجت بابل عليه ، وهزمت جيوشه ، ونهبت هياكله ، وعادت إلى بابل تحمل معها آلهته أسرى . ومات تغلث فلاصر خزيًا وغماً^(٧) .

وكان حكمه رمزاً للتاريخ الآشوري كله وصورة مصغرة منه : موت وجزية فرضهما على جيران آشور ثم فرضاً على آشور نفسها . واستولى آشور ناصر بال على اثني عشر دولة صغيرة ، وعاد من حروبه بمغانم كثيرة ، وسمل بيده عيون خمسين من أمراء الأسرى ، واستمتع بنسائه ، ومات ميتة شريفة^(٨) . ومد سلمانصر الثالث هذه الفتوح حتى دمشق ، وحارب عدة وقائع تكبد فيها خسائر فادحة ، وقتل في واقعة واحدة ستة عشر ألفاً من السوريين ، وشيد الهياكل ، وفرض الجزية على المغلوبين . ثم ثار عليه ابنه ثورة عنيفة وخلعه^(٩) . وحكمت سمورامات أم الملك ثلاث سنين ، وكان حكمها هو الأساس التاريخي الراهن لأسطورة سميراميس اليونانية ، التي تجعل منها نصف إلهة ونصف ملكة ، وقائدة بأسلة ، ومهندسة بارعة ، وحاكمة مخنكة مدبرة . وتلك الأسطورة هي كل ما نعرفه عن هذه الملكة . وقد وصفها ديودور الصقلي وصفاً مفصلاً بديعاً^(١٠) . وجيش تغلث فلاصر الثالث جيوشاً جديدة ، واستعاد أرمينية ، واجتاح سوريا

وبابل ، وأخضع لحكمه دمشق والسامرة ، وبابل ، ومد ملك آشور من جبال القفقاس إلى مصر ، ولما مل الحرب وجه همه إلى شئون الحكم ، فأثبت أنه إداري عظيم ، وشاد كثيراً من الهياكل والقصور ، وساس إمبراطوريته الواسعة سياسة قوية حازمة ، وأسلم روحه وهو في فراشه . وجلس على العرش سرجون الثاني ، وهو ضابط من ضباط الجيش ، على أثر انقلاب سياسي نابليونى ، وقاد جيوشه بنفسه ، وكان في كل واقعة يتخذ لنفسه أشد المواقف خطورة^(١١) ، وهزم عيلام ومصر ، واسترد بابل ، وخضع له اليهود والفلسطينيون بل واليونان سكان قبرص ، وحكم دولته حكماً صالحاً ، وناصر الفنون والآداب ، والصناعة والتجارة ، ومات في واقعة نال فيها النصر على أعدائه ، ورد فيها عن آشور غارات الجحافل الكهرية المتوحشة التي كانت تهددها بالغزو .

وقضى ابنه سنحريب على الفتن التي ثار عجاجها في الولايات المجاورة للخليج الفارسي ، وهاجم أورشليم ومصر دون أن يلقى نجاحاً^(*) ، ونهب تسعاً وثمانين مدينة ، وثمانمائة وعشرين قرية ، وغنم سبعة آلاف ومائتى جواد ، وأحد عشر ألف حمار ، وثمانين ألف ثور ، وثمانمائة ألف رأس من الغنم ، ومائتين وثمانية آلاف من الأسرى^(١٢) . وهى أرقام لم يستخف بها الكاتب الرسمي الذى كتب سيرته . ثم غضب على بابل لنزعتها إلى الحرية فحاصرها ، واستولى عليها ، وأشعل فيها النار فدمرتها تدميراً ، ولم يكذب على أحد من أهلها رجلاً كان أو امرأة ، صغيراً كان أو كبيراً ، بل قتلهم عن آخرهم تقريباً ، حتى سدت جثثهم مسالك المدينة ، ونهبت المعابد حتى لم يبق فيها شاقل واحد ، وحطمت آلهة بابل صاحبة السلطان الأعظم القديم ، وسيقت أسيرة ذليلة إلى نينوى . وأصبح مردك الإله الأكبر

(*) وتغزو الرواية المصرية نجاة مصر إلى فعل جماعة من جرذان الحقول الفطنة قرضت كنانن الجيوش الآشورية العسكرية أمام بلوزيوم ؛ وأوتار قسيهم ، وأربطة دروعهم ، فاستطاع المصريون بذلك أن يهزموا الآشوريين في اليوم الثانى دون عناء كبير^(١٢) .

خادماً ذليلاً للرب آشور . ولم ير من بقي حياً من البابليين أنهم كانوا مبالغين في تقدير قوة مردك وعظمته ؛ بل قالوا لأنفسهم ما قاله الأسرى اليهود بعد مائة عام من ذلك الوقت ، قالوا إن إلههم قد شاء له تواضعه أن ينهزم ليعاقب بذلك شعبه . واستخدم سنحريب غنائم نصره وما انتهبه من البلاد المفتوحة في إعادة بناء نينوى ، وحول مجرى النهرين لحمايتها من الاعتداء ، وبذل في إصلاح الأرض البور من القوة والنشاط ما تبذله الدول التي تشكو عدم وجود فائض لديها من غلاتها الزراعية ، ثم قتله أبناؤه وهو يتلو الصلوات^(١٤) .

وقام ابن له من غير القتلة وهو عسرهدون وانتزع العرش من إخوته السفاحين ، وغزا مصر ليعاقبها على ما قدمته من المعونة للشوار السوريين ، وضمها إلى أملاكه ، وأدهش غرب آسية بسيره المظفر من منف إلى نينوى ومن خلفه ما لا يحصى من المغانم ؛ وجعل آشور سيدة بلاد الشرق الأدنى بأجمعها ، وأفاء عليها من الرخاء ما لم يكن لها به عهد من قبل ، واسترضى البابليين بإطلاق أهلكهم الأسيرة وتكريمها وإعادة بناء عاصمتهم المحرقة ، كما استرضى عيلام بتقديم الطعام إلى أهلها الجياع . وكان ما قدمه من الإغاثة على هذا النحو عملاً لا يكاد يوجد له مثيل في التاريخ القديم كله . ومات عسرهدون وهو سائر إلى مصر ليخمد فيها ثورة بعد أن حكم إمبراطوريته حكماً لم تر له في تاريخها شبه الهمجي مثيلاً في عدله ورحمته .

وجنى خلفه آشوربانيبال (وهو الذي يسميه اليونان سردناپالوس) ثمرة هذه الأعمال ، فوصلت آشور في خلال حكمه الطويل إلى ذروة مجدها وثروتها . ولكن بلاده بعد وفاته فقدت هذا العز ، فوهنت قوتها وفسدت أمورها لطول عهدها بالحروب المتقطعة التي خاضت غمارها أربعين عاماً ، وأدركها القضاء ، ولما يمض على موت آشوربانيبال عشر سنين . وقد احتفظ لنا أحد الكتاب بسجل سنوى لأعماله^(١٥) . وهو سجل ممل ينتقل فيه من حرب إلى حرب ، ومن حصار إلى حصار ، ثم إلى مدن جائعة وأسرى تسليخ جلودهم وهم أحياء . ويُنطق هذا الكاتب نفسه

أشور بانيبال فيحدثنا عما خربه من بلاد عيلام ويقول : « لقد خربت من بلاد عيلام ما طوله مسير شهر وخمسة وعشرين يوماً . ونشرت هناك الملح والحسك (لأجذب الأرض) وسقت من المغام إلى آشور أبناء الملوك ، وأخوات الملوك ، وأعضاء الأسرة المالكة في عيلام صغيرهم وكبيرهم ، كما سقت منها كل من كان فيها من الولاة والحكام ، والأشراف والصناع ، وجميع أهلها الذكور والإناث كبارا كانوا أو صغارا ، وما كان فيها من خيل وبغال وحمير وضأن وماشية تفوق في كثرتها أسراب الجراد ، ونقلت إلى آشور تراب السوس ، ومدكتو ، وهلمناش وغيرها من مدائنهم . وأخضعت في مدة شهر من الأيام بلاد عيلام بأجمعها ؛ وأخذت في حقولها صوت الآدميين ، ووقع أقدام الضأن والماشية ، وصراخ الفرح المنبعث من الأهلين . وتركت هذه الحقول مرتعا للحمير والغزلان والحيوانات البرية على اختلاف أنواعها^(١٦) . »

وحجى برأس ملك عيلام القتييل إلى آشور بانيبال وهو في ولية مع زوجته في حديقة القصر ، فأمر بأن يرفع الرأس على عمود بين الضيوف ، وظل المرح يجري في مجراه ؛ وعلق الرأس فيما بعد على باب نينوى ، وظل معلقا عليه حتى تعفن وتفتت . أما دنانو القائد العيلامي فقد سلخ جلده حيا ، ثم ذبح كما يذبح الجمل ، وضرب عنق أخيه ، وقطع جسمه إربا ، ووزع هدايا على أهل البلاد تذكارا لهذا النصر المجيد^(١٧) .

ولم يخطر قط ببال آشور بانيبال أنه ورجاله وحوش كاسرة أو أشد قسوة من الوحوش ؛ بل كانت جرائم التقتيل والتعذيب هذه في نظرهم عمليات جراحية لا بد منها لمنع الثورات وتثبيت دعائم الأمن والنظام بين الشعوب المختلفة المشاكسة المنتشرة من حدود الحبشة إلى أرمينية ، ومن سوريا إلى ميديا ، والتي أخضعها أسلافه لحكم آشور . لقد كانت هذه الوحشية في رأيه واجبا يفرضه عليه حرصه على أن يبقى التراث سليما . وكان يتباهى بما وطده في ربوع إمبراطوريته من أمن

وسلام ، وبما ساد مدنها من نظام . والحق أن هذا القباهى لم يكن على غير أساس .
على أن هذا الملك لم يكن مجرد ملك فاتح أسكره سفك الدماء ، وشاهد ذلك
ما شاده من المباني وما بذله في تشجيع الفنون والآداب . فقد بعث الملك إلى جميع
أنحاء دولته يدعو المثالين والمهندسين ليضعوا له رسوم الهياكل والقصور وزينوها
كما فعل بعض الحكام الرومان بعد أن استولت رومة على بلاد اليونان . وأمر
عدداً كبيراً من الكتبة أن يجمعوا وينسخوا كل ما خلفه السومريون والبابليون
من آداب ، ووضع ما نسخوه وما جمعوه كله في مكتبته العظيمة في نينوى ، وهناك
وجدوها علماء هذه الأيام سليمة أو تكاد بعد أن مرت عليها خمسة وعشرون قرناً
من الزمان .

وكان مثل فردرك الأكبر يفخر بملكاته الأدبية كما يفخر بانتصاراته في
الحرب والصيد^(١٨) . ويصفه ديودور الصقلي بأنه طاغية فاسق خنثى^(١٩) ، ولكننا
لا نجد في جميع الوثائق التي وصلت إلينا على كثرتها ما يؤيد هذا القول . وكان
أشور بانيبال إذا فرغ من تأليف ألواح الأدبية خرج إلى الصيد في اطمئنان الملوك
وثقتهم بأنفسهم وليس معه من السلاح إلا سكين وحرية ، فقابل الآساد
وجهاً لوجه . وإذا جاز لنا أن نصدق ما كتبه عنه معاصروه فإنه لم يكن يتردد قط
في أن يتولى قيادة الهجوم عليها بنفسه ، وكثيراً ما سدّد الضربة القاضية بيده^(٢٠) .
فلا عجب والحالة هذه إذا افتتن به الشاعر بيرن Byron ونسج حول اسمه مسرحية
نصفها أسطوري والنصف تاريخي ، صور فيها ما بلغته أشور في أيامه من الثروة
والجد ، وما داهمها بعدئذ من خراب شامل ، وما حل بملكها من قنوط .

الفصل الثانی

الحكومة الأشورية

الزعة الاستعمارية — الحروب الأشورية — الآلهة المجندة — القانون .
لذة الانتقام والتعذيب — الإدارة — عنف ملوك الشرق .

إذا جاز لنا أن نأخذ بالمبدأ الاستعماري القائل إن سيادة حكم القانون ، ونشر الأمن ، والتجارة ، والسلم في العالم تبرر إخضاع كثير من الدول طوعاً أو كرهاً لسلطان حكومة واحدة ، إذا جاز لنا أن نأخذ بهذا المبدأ كان علينا أن نقر لأشور بذلك الفضل الكبير ، وهو أنها أقامت في غرب آسية حكماً كفلاً لهذا الإقليم قسطاً من النظام والرخاء أكبر مما استمتع به هذا الجزء من الأرض فيما نعلم قبل ذلك العهد . ذلك أن حكومة آشور بانيبال التي كانت تضم تحت جناحيها بلاد آشور ، وبابل ، وأرمينية ، وميديا ، وفلسطين ، وسوريا ، وفينيقية ، وسومر ، وعيلام ، ومصر كانت بلا جدال أوسع نظام إداري شهده عالم البحر الأبيض المتوسط أو عالم الشرق الأدنى حتى ذلك العهد ؛ ولم يدان آشور بانيبال فيه إلا حمورابي أو تحتمس الثالث ، ولم يضارعه قبل عهد الإسكندر إلا الفرس وحدهم . وكانت هذه الإمبراطورية تستمتع بقسط من الحرية ، فقد احتفظت مدنها الكبرى بحظ موفور من الحكم الذاتي المحلي ، كما احتفظت كل أمة فيها بدينها ، وقوانينها وحكامها ، ما دامت لا تتوانى عن أداء الجزية المفروضة عليها^(٢١) .

ومن شأن هذا النظام المفكك أن يؤدي كل تراخ في سلطته المركزية إلى الثورات الشعبية أو في القليل إلى بعض التراخي في أداء الجزية ، وكان لابد والحالة هذه من إعادة فتح البلاد المرة بعد المرة . وأراد تغلث فلاصر أن يتحاشى خطر

هذه الثورات المتكررة فوضع تلك السياسة التي تمتاز بها آشور على غيرها من الأمم وهي نقل أهل البلاد المفتوحة إلى بلاد أخرى بعيدة ، يمتزجون فيها بسكانها الأصليين امتزاجاً قد يفقدهم وحدتهم وكيانهم ، ويقلل الفرص السانحة لهم للعصيان . على أن هذه الخطة لم تمنع اندلاع لهيب الثورات ، فاضطرت آشور بسببها إلى أن تكون مستعدة على الدوام لامتشاق الحسام .

من أجل هذا كان الجيش أقوى دعامة للدولة وأهم مقوماتها ، وكانت آشور تعترف اعترافاً صريحاً بأن الحكم هو تأمين القوة ، ولذلك فإن مالها من فضل على قضية التقدم إنما كان في فن الحرب . فهي التي نظمت فرق المركبات ، والفرسان ، والمشاة ، والمهندسين الذين يقوّضون الأبنية ؛ وقد وضع الآشوريون لهذه الفرق نظاماً يسهل معه تحريكها وتوجيهها من ناحية إلى أخرى في ميدان القتال وكانت لهم آلات للحصار لا تقل في قوتها عما كان منها عند الرومان ، وكانوا يجيدون فهم الفنون الحربية الخاصة بتعبئة الجنود وحركاتهم^(٢٢) . وكانت القاعدة الأساسية التي تقوم عليها حركاتهم العسكرية هي السرعة التي تمكنهم من مهاجمة كل قسم من أقسام الجيوش المعادية على انفراد — ألا ما أقدم هذا السر الذي أفاد منه نابليون أعظم الفائدة ! وتقدمت صناعة الحديد عندهم إلى حد أمكنهم أن يلبسوا الجنود حُللاً حديدية سائغة كحلل فرسان العصور الوسطى . وحتى الرماة وحملات الرماح كانوا يلبسون على رؤوسهم خوذة من النحاس أو الحديد ، وأرهماطاً محشوة حول الحقوين ، ومجنات ضخمة ، ونطاقات من الجلد المغطى بأسفاط معدنية . وكانت أسلحتهم السهام والرماح ، والسيوف القصار ، والصوارج والهراوات المنتفخة الرؤوس ، والمقاذيف والباط الحربية . وكان أكبر القوم يحاربون في عربات في طليعة الجيش ، يقودهم في العادة ملكهم بنفسه وهو راكب في عربة ملكية ؛ ولم يكن القواد قد تعلموا وقتئذ أن يموتوا في فراشهم^(*) .

(*) انظر قول العرب في هذا المعنى : وما مات منا سيد في فراشه ...

وأدخل آشور بانيبال نظام استخدام الفرسان لمعاونة المركبات ، وكانت هذه البدعة ذات أثر حاسم في كثير من الوقائع^(٢٣) . وكانت أهم أدوات الحصار هي الكباش المسلحة بمقدماتها بالحديد . وكانت أحياناً تعلق بالحبال في محاول ، وتطوح إلى وراء لتزيد بذلك قوتها ، وأحياناً أخرى كانت تجري على عجلات . أما المحاصرون فكانوا يحاربون من وراء الأسوار بالقذائف والمشاعل ، والغاز الملتهب ، والسلاسل التي يراد بها عرقلة الكباش ، وأوعية من غازات نفة تذهب بعقول الأعداء^(٢٤) — وما أشبه اليوم مرة أخرى بالبارحة . وكانت العادة المألوفة أن تدمر المدينة المغلوبة وتُحرق عن آخرها ؛ وكان المنتصرون يبالغون في محو معالمها بتقطيع أشجارها^(٢٥) . وكان الملوك يكسبون ولاء جنودهم بتقسيم جزء كبير من الغنائم بينهم . وكانوا يضمنون شجاعتهم باتباع العادة المألوفة في الشرق الأدنى وهي اتخاذ جميع أسرى الحرب عبيداً أو قتلهم عن آخرهم . وكان الجنود يكافأون على كل رأس مقطوع يحملونه من ميدان القتال ، ولهذا كانت تعقب المعركة في أغلب الأحيان مجزرة تقطع فيها رؤوس الأعداء^(٢٦) . وكثيراً ما كان الأسرى يقتلون عن آخرهم بعد الواقعة حتى لا يستهلكوا الكثير من الطعام ، وحتى لا يكونوا خطراً على مؤخرة الجيش أو مصدر متاعب له . وكانت طريقة التخلص منهم أن يركعوا متجهين بظهورهم إلى من أسروهم ، ثم يضرب الآسرون رؤوسهم بالهراوات ، أو يقطعونها بسيفهم القصيرة . وكان الكتبة يقفون إلى جانبهم ليحسوا عدد من يأسرهم كل جندي ويقتلهم ، ويقسمون النفي بينهم بنسبة قتلاهم ؛ وكان الملك إذا سمح له وقته يرأس هذه المجزرة . أما الأشراف المغلوبون فكانوا يلقون شيئاً من المعاملة الخاصة ، فكانت تصلم آذانهم ، وتجذع أنوفهم ، وتقطع أيديهم وأرجلهم ، أو يقذف بهم إلى الأرض من أبراج عالية ، أو تقطع رؤوسهم ورؤوس أبنائهم ، أو تسليخ جلودهم وهم أحياء ، أو تشوى أجسامهم فوق نار هادئة . ويلوح أن القوم لم يكونوا يشعرون بشيء من وخز

الضمير وهم يسرفون في إتلاف الحياة البشرية بهذه الطرق الجهنمية . ذلك أن نسبة المواليد العالية تعوّض عليهم هذا التقتيل ؛ أو أن هذه الوسيلة تقلل من تزاخم الأهلين على موارد العيش إلى أن يتناسلوا ويتكاثروا^(٢٧) . ولعل ما أشيع من حسن معاملة الإسكندر وقيصر للأسرى ورحمتها بهم كانا من أسباب قضائهما على روح أعدائهما المعنوية وسرعة استيلائهما على بلاد البحر الأبيض المتوسط .

وكانت القوة الثانية التي يعتمد عليها الملك هي قوة الدين ، ولكنه لم يكن ينال معونة السكينة إلا بأغلى الأثمان . فقد كان إجماع القوم منعقداً على أن رأس الدولة من الوجهة الرسمية هو الإله آشور . وكانت الأوامر الرسمية تصدر باسمه ، وكل القوانين قرارات تملّحها إرادته الإلهية ، وكل الضرائب تجمع لخزائنه ، وكل الحروب تشن لقائى له (أو لإله غيره أحياناً) بالمغانم والمجد . وكان الملك يحمل الناس على أن يصفوه بأنه إله ، وكان في العادة هو الإله شمش (الشمس) مجسماً . وقد أخذ الآشوريون دينهم عن سومر وبابل كما أخذوا عنهما علومهما وفنونهما ، وكانت هذه كلها تكثيف أحياناً بما يتفق مع مطالب الدولة العسكرية .

وأظهر ما كان هذا التكييف في القانون ، فقد كان يمتاز بالقسوة العسكرية وكانت العقوبات تتراوح بين العرض على الجماهير ، والأشغال الشاقة ، والجلد بالسياط من عشرين إلى مائة جلدة ، وجدع الأنف ، وصلم الأذنين ، والإخضاء وقطع اللسان ، وسمل العينين ، والخزق ، وقطع الرأس^(٢٨) . وتصف قوانين مرجون الثاني بعض المتع الأخرى كشرب السم ، وحرق ابن المذنب أو ابنته حيين على مذبح الإله^(٢٩) . ولكننا لا نجد شواهد على أن هذه القوانين كانت نافذة في الألف سنة الأولى قبل مولد المسيح . وكان الزنا ، وهتك العرض ، وبعض أنواع من السرقة تعدّ من الجرائم التي يعاقب عليها بالإعدام^(٣٠) . وكانوا يلجئون أحياناً إلى طريقة تحكيم الآلهة ؛ فكان المتهم يلقي في النهر وهو مقيد القدمين في بعض الأحيان ، ويترك الحكم عليه لمشية الماء . وكانت القوانين

الأشورية في العادة أبعد عن الطابع الديوى ، وأكثر بدائية من قوانين حورابى البابلية التى كانت على ما يبدو لنا أقدم منها عهداً (*) .

وكانت الحكومة المحلية في بداية الأمر يقوم بها أمراء الإقطاع ، ثم آلت على توالى الزمن إلى ولاية الأقاليم ومديريها المعيّنين من قبل الملك . وأخذ الفُرس عن الآشوريين هذا الضرب من الحكم الإمبراطورى ومنهم انتقل إلى رومة . وكان يعهد إلى الولاية بجمع الضرائب وتنظيم العمال المسخرين في الأعمال العامة ، كأعمال الري ، التى لم يكن في الإمكان تركها للجهود الفردية ؛ وأهم ما كان يطلب إليهم هو تجنيد العساكر ، وقيادتهم في الحروب الملكية . وكان للملك جواسيس (أو رجال قلم الخبائر بلغة هذه الأيام) يراقبون هؤلاء الولاة وأعوانهم وينقلون إلى الملك أخبار أفعالتهم .

وكانت الحكومة الآشورية بقضها وقضيضها أداة حرب قبل كل شيء . ذلك أن الحرب كثيراً ما كانت أنفع لها من السلم ، فقد كانت تثبت النظام ، وتقوى روح الوطنية ، وتزيد سلطان الملوك ، وتأتى بالمغامم الكثيرة لتغنى بها العاصمة ، وبالعبيد لخدمتها . ومن ثم كان تاريخ الآشوريين يدور معظمه حول مدن تنهب ، وقرى وحقول تخرب . ولما أن قمع آشوربانيبال ثورة أخيه شمش — شم — أوكين واستولى على بابل بعد حصار طويل مرير :

« كان للمدينة منظر رهيب تنقرز منه نفوس الآشوريين أنفسهم ... فقد كان معظم من قضت عليهم الأوبئة والقحط ملقين في الطرقات أو في الميادين العامة ، فريسة للكلاب والخنازير . وحاول من كانت لهم بقية من القوة من الأهلين أو الجنود أن يفرّوا إلى الريف ، ولم يبق في المدينة إلا من كان ضعيفاً لا يستطيع أن يجر قدميه إلى أبعد من أسوارها . وطارد آشوربانيبال هؤلاء

(*) وأقدم القوانين الآشورية التى بقيت إلى هذه الأيام قانون مؤلف من تسعين مادة مكتوبة على ثلاثة ألواح وجدت في خرائب آشور ، ويرجع عهدها إلى حوالى عام ١٣٠٠ ق . م (٣١) .

المشردين ، ولما أن قبض عليهم كلهم تقريباً ، صب عليهم جام غضبه ونقمته ، فأمر بأن تقتلع السنة الجنود ، وأن يضربوا بعد ذلك بالهراوات حتى يموتوا . أما الأهالي فقد أمر بذبحهم أمام العجول المجنحة العظيمة ، التي شهدت منذ خمسين عاماً مجزرة أخرى شبيهة بهذه المجزرة في عهد جده سنحريب . وظلت جيف هؤلاء الضحايا في العراء زمناً طويلاً تفترسها الوحوش القذرة والطيور^(٣٢) .

لقد كان هذا الإسراف في العنف من أكبر أسباب ضعف الممالك الشرقية . ذلك أن الثورات المتكررة لم تكن مقصورة على أهل الولايات ، بل إن قصور الملوك وأسرهم كثيراً ما كانت تهب لتقلب بالعنف ذلك النظام الذي قام على العنف ، والذي يستند إلى العنف . وكثيراً ما كان تقع الفتنة يثور بين المطالبين بالعرش في أواخر أيام كل ملك ، أو حين وفاته ، فكان الملك المعمر يرى المؤامرات تحاك من حوله ، وكثيراً ما كان يُسرع بموته بقتله . وكانت أمم الشرق الأدنى تؤثر الثورات العنيفة على الانتخابات الفاسدة الزائفة ، وكانت الوسيلة التي يتبعونها لسحب ثقتهم من حاكمهم هي القضاء على حياته . وما من شك في أن بعض حروب الآشوريين كانت أمراً محتوماً لا مفر منه . فقد كان البرابرة يحيطون بتخوم البلاد كلها ، فإذا ما جلس على العرش ملك ضعيف انقض السكوديون والكمريون أو غيرهم من الهمج على المدن الآشورية الغنية يقتلون وينهبون . ولعلنا نبالغ في كثرة الحروب والثورات العنيفة التي تأججت نيرانها في هذه الدول الشرقية ، لأن من نقشوا الآثار من الأقدمين ، ومن أرخوا تلك الحوادث من الكتاب المحدثين ، قد عنوا بالتسجيل المسرحي للوقائع الحربية ، وغفلوا عن انتصارات السلم . إن المؤرخين طالما تميزوا إلى سفك الدماء ، ذلك بأنهم قد وجدوه ، أو ظنوا أن قراءهم سيجدونه ، أكثر لذة لهم من أعمال العقل الهادئة . ونحن نظن أن الحروب في هذه الأيام أقل عدداً منها في الأيام الحالية لأننا نحس بفترات السلم الصافية المتألقة ، على حين أن التاريخ لا يُحس ، كما يبدو لنا ، إلا بأزمات الحرب المحمومة .

الفصل الثالث

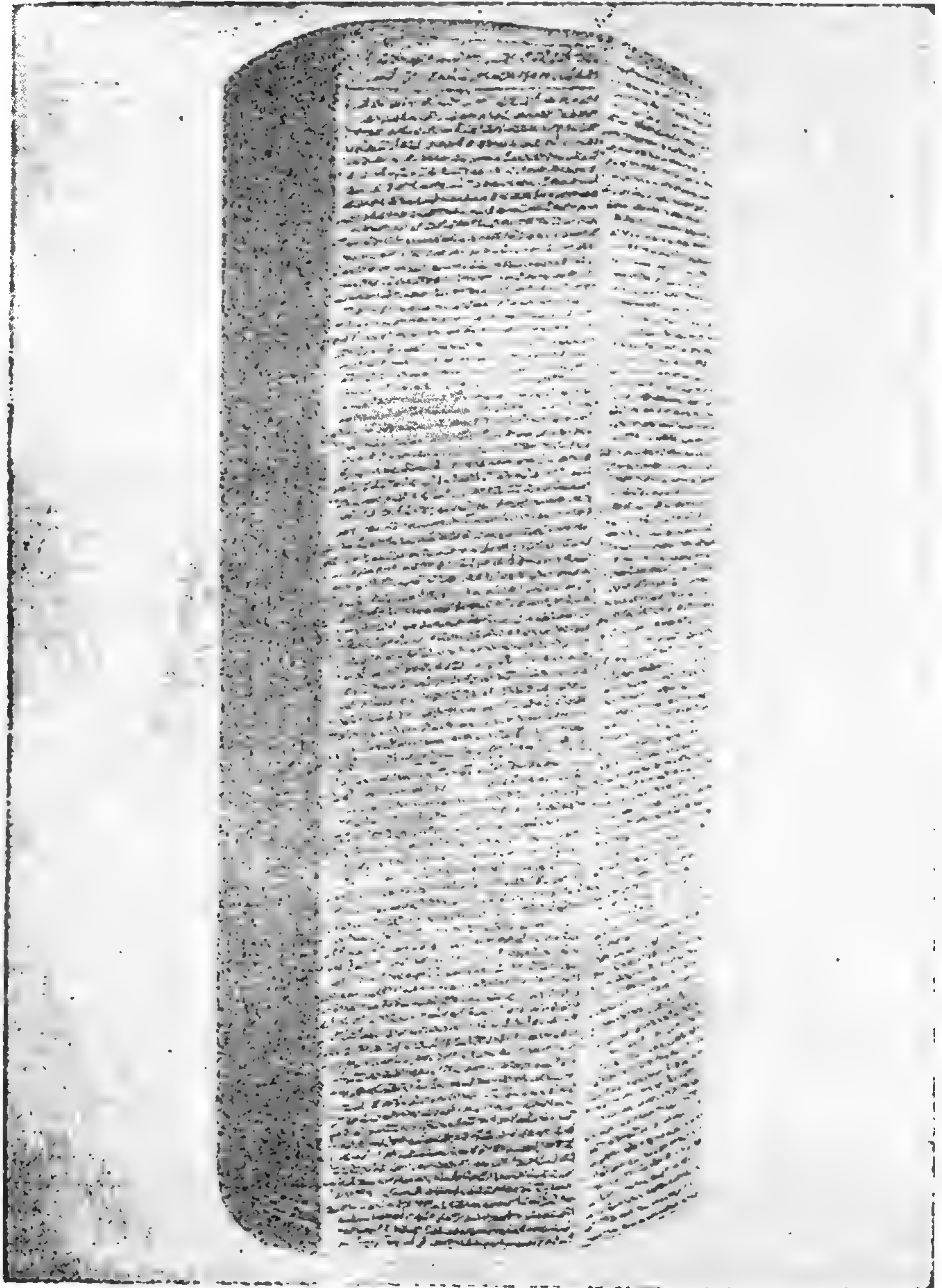
الحياة في آشور

الصناعة والتجارة — الزواج والآداب العامة — الدين والعلم —
الكتابة ودور الكتب — المثل الأعلى للرجل الكامل عند الآشوريين

لم تكن الحياة الاقتصادية عند الآشوريين تختلف كثيراً عنها عند البابليين ؛ وذلك لأن هؤلاء وأولئك لم يكونوا في كثير من الأحوال إلا أبناء الشمال وأبناء الجنوب من حضارة واحدة . وأهم ما كان بين البلدين من فروق أن المملكة الجنوبية كانت أكثر اشتغالا بالتجارة على حين أن الشمالية كانت أكثر اشتغالا بالزراعة ؛ فكان أثرياء البابليين تجاراً في الغالب ، أما أثرياء الآشوريين فكانوا عادة من كبار الملاك ، يشرفون بأنفسهم على ضياعهم الواسعة ، ويزدرون ازدياد الرومان من بعدهم أولئك الذين كانوا يكسبون المال بشراء البضائع رخيصة وبيعها غالية^(٣٣) . بيد أن النهرين نفسيهما كانا يفيضان على أرض المملكتين ويفذيانهما ، ونظام الجسور والقنوات بعينه كان يسيطر فيهما على ما زاد من مياه النهرين ، والشواذيف ذاتها كانت ترفع المياه من المجارى المنخفضة لتروى الحقول التي تزرع نفس القمح والشعير والذرة الرفيعة والسمسم^(*) . وكانت الصناعات التي تعتمد عليها حياة أهل المدن واحدة ؛ وكان للمملكتين نظام واحد الموازين والمكاييل والمقاييس تتبادل بمقتضاه البضائع . وامتلات نينوى وغيرها من الحواضر بالحرف والصناعات بفضل ما جلبه لها ملوكها من ثراء عظيم ، وإن كان موقع هذه المدن

(*) ومن الغلات الآشورية غير ما ذكرنا هنا الزيتون ، والعنب ، والثوم ، والبصل ، والحنس ، والجرجير ، والبنجر ، واللفت ، والفجل ، والخيار ، والبرسيم الحجازي ، والعرقسوس . وقلما كان غير الموسرين يأكلون اللحم^(٣٤) ، فقد كانت هذه الأمة الحربية أمة نباتية يوجه عام ، لذا استثنينا من ذلك لحم السمك .

في الطرف الشمالي من هذا الإقليم قد حال بينها وبين أن تكون مراکز تجارية
كبيرة . وكانت المعادن تستخرج من أرض البلاد أو تستورد بكثرة من خارجها



شكل (٢٩) منشور سنحريب — في متحف بغداد

وفي عام ٧٠٠ ق . م أو حواليه أصبح الحديد بدل البرنز المعدن الأساسي في الصناعة والتسليح^(٣٥) . وكانت المعادن تصهر ، والزجاج يصنع ، والمنسوجات تصبغ^(*) ، والخزف يطلى ؛ وكانت البيوت في نينوى تجهز وتؤثث كما كانت تجهز وتؤثث في أوروبا قبل الانقلاب الصناعي^(٣٦) . وأنشئ في عهد سنحريب مجرى مائى فوق قناطر ينقل الماء إلى نينوى من مكان يبعد عنها ثلاثين ميلا ؛ وقد كشفت منذ عهد قريب مائة قدم من هذا المجرى^(**) فكانت أقدم مجرى مائى فوق قناطر عرف في التاريخ . وكانت مصارف الأفراد الخاصة تمول بعض التجارة والصناعة وتتقاضى فوائد على قروضها تبلغ ٢٥ ٪ . وكانوا يتعاملون بالرصاص والنحاس والذهب والفضة ؛ وحوالى عام ٧٠٠ ق . م سلك سنحريب قطعاً من الفضة قيمة الواحدة منها نصف شاقل - وهذه القطع من أقدم ما عرف من المسكوكات الرسمية^(٣٧) .

وكان الأهليون مقسمين إلى خمس طبقات : الأعيان ؛ ورجال الصناعة المنتظمون في نقابات ، والطبقة الثالثة تشمل أرباب المهن والحرف والعمال غير المهرة وهم الأحرار من صنّاع المدن وزراع الريف ؛ وتشمل الرابعة الأتقان المرتبطين بأرض المزارع الكبرى ، كما كان أمثالهم مرتبطين بها في أوروبا في العصور الوسطى ، وتضم الخامسة الأرقاء أسرى الحروب أو سجناء الديون ، وكان هؤلاء يلزمون بالإعلان عن مركزهم الاجتماعى بخرق آذانهم ، وحلق رؤوسهم ، وهم الذين كانوا يقومون بالأعمال الوضيعة في كل مكان . ونرى في نقش من عهد سنحريب حراساً بأيديهم سياط يشرفون على هؤلاء الأرقاء المنتظمين في صفين طويلين متوازيين يحرون قطعة ثقيلة من تمثال على نقالات من الخشب^(٣٨) .

(*) ويحتوى لوح من عهد سنحريب (حوالى عام ٧٠٠ ق . م) على أقدم إشارة للقطن فقد ورد فيه : « الشجرة التى ثمر الصوف قطعوها واستخرجوا منها القطن الشعر (٣٥) » ؛ وأكبر الظن أنهم نقلوها من الهند .

(**) كشفت هذا المجرى البعثة العراقية التابعة للمعهد الشرقى بجامعة تشكاجو .

وكانت آشور تشجع الإكثار من النسل بقوانينها الأخلاقية وبما تسنه من الشرائع ، شأنها في هذا شأن جميع الدول العسكرية ، فكان الإجهاض عندهم جريمة يعاقب عليها بالإعدام ، وكانت المرأة التي تجهض نفسها ، وحتى المرأة التي تموت وهي تحاول إجهاض نفسها ، تخزق بعد موتها^(٣٩) . وكانت منزلة النساء في آشور أقل منها في بابل ، وإن كان منهن من بلغت منزلة سامية بالزواج والدسائس . وكانت تفرض عليهن عقوبات صارمة إذا ضربن أزواجهن ، ولم يكن يسمح للمتزوجات أن يخرجن إلى الطريق العام بغير حجاب ، وكان يطلب إليهن أن يكن جد أمينات على أعراضهن — وإن كان يسمح لأزواجهن بأن يتخذوا لهن ما يشاءون من السراري^(٤٠) . وكانت البغاء يُعبد في عرفهم أمراً لا بد منه وتنظمه القوانين^(٤١) . وكان للملك عدد من النساء يعشن معيشة العزلة ويقضين أوقاتهم في الرقص والغناء والنزاع والتطريز والتأمر^(٤٢) . وإذا قتل الذي يزني بامرأته الزاني وهو متلبس بجريمته عُد ذلك من حقه ، وقد بقيت هذه العادة بعد أن زالت كثير من الشرائع التي كانت تبيعها . أما فيما عدا هذا فقد كانت قوانين الزواج في آشور مثلها في بابل خلاً أمراً واحداً وهو أن الزواج كان في كثير من الأحيان شراء بسيطاً ، وأن الزوجة كثيراً ما كانت تعيش في منزل أبيها ويزورها فيه زوجها من حين إلى حين^(٤٣) .

ونشهد في كثير من نواحي الحياة الآشورية صرامة أبوية نراها طبيعية في شعب يعيش من فتوحه ، ويعيش على حدود الهمجية ، بكل ما يشمله هذا اللفظ من معان . وكما أن الرومان كانوا يتخذون آلاف الأسرى بعد انتصارهم في الحروب عبيداً لهم يقضون في الرق كل حياتهم ، ويرسلون آلافاً آخرين إلى الحلبة الكبرى لتنهشها السباع الجياع ، كذلك يبدو أن الآشوريين كانوا يجدون متعة — أو تدريباً ضرورياً لأبنائهم — في تعذيب الأسرى ، وسمل عيون الأبناء أمام آبائهم ، وسلخ جلود الناس أحياء ، وثنى أجسامهم في الأفران ، وربطهم

بالسلاسل في الأقفاص ليستمتع العامة برؤيتهم ، ثم إرسال من يبقى منهم حيا إلى نطع الجلال^(٤٣) . وفي هذا يحدثنا آشور بانيبال بقوله : « لقد سلخت جلود كل من خرج على من الزعماء ، وغطيت بجلودهم العمود ، وسمرت بعضهم من وسطهم في الجدران ، وأعدمت بعضهم خزقا ، وصفت بعضهم حول العمود على الخوازيق ... أما الزعماء والضباط الذين ثاروا فقد قطعت أطرافهم^(٤٤) » .

ويفخر آشور بانيبال بأنه « حرق بالنار ثلاثة آلاف أسير ، ولم يبق على واحد منهم حيا ليتخذه رهينة »^(٤٥) . ويقول نقش آخر من نقوشه « أما أولئك المحاربون الذين أذنبوا في حق آشور واثتمروا بالشر على ... فقد انتزعت ألسنتهم من أفواههم المعادية وأهلكتهم ، ومن بقى منهم على قيد الحياة قدمتهم قرايين جنازية ؛ وأطعمت بأشلائهم المقطعة الكلاب والخنازير والذئاب ... وبهذه الأعمال أدخلت السرور على قلوب الآلهة العظام »^(٤٦) . وأمر ملك آخر من ملوكهم الصنّاع أن ينقشوا على الآجر هذه العبارات التي يرى أن من حقه على الخلف أن يعجبوا بها : « إن عجلائي الحربية تهلك الإنسان والحيوان ... إن الآثار التي أشيدها قد أقيمت من الجثث الآدمية التي قطعت منها الرؤوس والأطراف ، وأقدت قطعت أيدي كل من أسرتهم أحياء »^(٤٧) . وتصور النقوش التي كشفت في نينوى الرجال يحزقون أو يسلخون أو تقطع ألسنتهم ؛ ويصور نقش منها ملكا من الملوك يقرأ عين الأسرى برمح ، ورؤوسهم مثبتة في أما كتبها بحبل يخرق شفاههم^(٤٨) . ولا يسعنا ونحن نقرأ هذه الصحف إلا أن نحمد الله على مركزنا للتواضع .

ويبدو أن الدين لم يكن له أثر قط في تخفيف هذا العنف وهذه الوحشية . ذلك أن الدين لم يكن له من السلطان على الحكومة بقدر ما كان له في بابل ، وأنه كان يكتف نفسه حسب حاجات الملوك وأذواقهم . وكان آشور إلههم القومي من آلهة الشمس ، ذا روح حربية ، لا يشفق على أعدائه . وكان عباده يعتقدون

أنه يغتبط برؤية الأسرى يقتلون أمام مزاره^(٤٩). وكان العمل الجوهري الذي تؤديه الديانة الآشورية هو تدريب مواطن المستقبل على الطاعة التي تتطلبها منه وطنيته ، وأن تعلمه مداهنة الآلهة لكسب ودّهم ورضاهم بضروب السحر والقرايين . ومن أجل هذا كان كل ما وصل إلينا من النصوص الدينية الآشورية لا يخرج عن الرقى والفأل والطيرة . ولدينا من هذين كشوف طويلة حدّدت فيها لكل حادثة نتائجها المحتومة ، ووصفت فيها الوسائل التي يجب اتباعها لتجنب هذه النتائج^(٥٠) . وكانوا يصوِّرون العالم على أنه مليء بالشياطين التي يجب اتقاء شرها بالتأتم المعلقة في الرقاب ، أو الرقى الطويلة التي تجب تلاوتها بدقة وعناية .

وذلك جو لا يزدهر فيه من العلوم إلا علم الحروب ، فقد كان الطب الآشوري هو الطب البابلي لم يزدوا عليه شيئاً ، ولم يكن علم الفلك الآشوري إلا التنجيم البابلي ، فكان أهم غرض تدرس من أجله النجوم هو التنبؤ بالغيب^(٥١) . ولأسنا نجد عندهم شواهد على البحوث الفلسفية ، ولم نعث على ما يثبت أنهم حاولوا أن يفسروا العالم من غير طريق الدين . وقد وضع علماء اللغة الآشوريون قوائم بأسماء النباتات ، ولعلهم وضعوها ليستعينوا بها في صناعة الطب ، وبذلك قدّموا بعض العون لعلم النباتات ؛ ووضع غير هؤلاء من الكتبة قوائم تكاد تحتوي على كل ما كان على الأرض من أشياء ، وكان فيما حاولوه من تصنيفها بعض العون لعلماء التاريخ الطبيعي من اليونان . وأخذت اللغة الإنجليزية من هذه الكشوف ، عن طريق اللغة اليونانية في الغالب ، الألفاظ الإنجليزية الآتية :

hangar, gypsum, camel, plinth, rose, ammonia, jasper, cane, cherry, Laudanum, naphtha, sesame, hyssop and myrrh.⁽⁵²⁾ (*)

ومن واجبنا أن نقر للألواح التي تسجل أعمال الملوك الآشوريين بذلك الفضل

(*) ويقابلها في العربية الحظيرة ، والجبس ، والجمل ، وسفل الحائط (البنت) ، والورد والنشادر ، واليشب ، والقصب ، والكرز ، وصبغة الأفيون (اللودنوم) والنقط ، والسسم والجلب (الثغام) ، والمر .

العظيم وهي أنها أقدم ما بقي لدينا من الكتب في علم التاريخ ، رغم ما تتصف به من الملل والسآمة ، وما تسجله من الأعمال الوحشية الدموية . وكانت هذه الألواح في السنين الأولى مجرد أخبار تروى ، كل ما تحتويه سجلات لا تقتصر الملوك ، لا تترف لهم بأية هزيمة . ثم أصبحت فيما بعد وصفاً أدبيا منمقاً لما وقع من الأحداث الهامة في عهد كل واحد منهم . وأهم ما يخلد ذكر أشور في تاريخ الحضارة هو مكتباتها ، فقد كانت مكتبة أشور بانيبال تحتوي ثلاثين ألف لوح من الطين مصنفة ومفهرسة ، وعلى كل واحد منها رقعة يسهل الاستدلال بها عليه . وكان على كثير منها تلك العبارة التي كانت من شارات الملك الخاصة : « فليحل غضب أشور وبليت ... على كل من ينقل هذا اللوح من مكانه ... وليمحوا اسمه واسم أبنائه من على ظهر الأرض »^(٥٣) . وكثير من هذه الألواح منسوخة من أخرى أقدم منها لم يبين تاريخها ، تكشف أعمال الحفر عنها في كل يوم . وقد أعلن أشور بانيبال أنه أنشأ مكتبة ليمنع الآداب البابلية أن يجر عليها النسيان ذيله .

ولكن الألواح التي يصح أن تسمى الآن أدباً لا تتجاوز عدداً قليلاً منها ، أما معظمها فسجلات رسمية وأرصاء يقصد بها التنجيم والفأل والطيرة والتنبؤ بالمستقبل ، ووصفات طبية ، وتقارير ورقى سحرية ، وترانيم وصلوات وأنساب الملوك والآلهة^(٥٤) . وأقل هذه الألواح مدعاة إلى الملل لوحان يعترف فيهما أشور بانيبال بحب الكتب والمعرفة ، وهو اعتراف يزرى به في أعين مواطنيه ، والغريب أنه يكرر فيهما هذا الاعتراف ويصرّ عليه إصراراً :

« أنا ، أشور بانيبال ، فهمت حكمة نابو^(*) ، ووصلت إلى فهم جميع فنون كتابة الألواح . وعرفت كيف أضرب بالقوس وأركب الخيل والعربات ، وأمسك أعنتها .. وحباني مردك ، حكيم الآلهة ، بالعلم والفهم هدية منه ... ووهب لي

(*) إله الحكمة المقابل لتحتوت ، وهرميز ، وعطارد في البلاد الأخرى .

إتورت وشرجال الرجولة والقوة ، والبأس الذى لا نظير له . وعرفت صنعة أديبا
الحكيم ، وما فى فن الكتبة كله من أسرار خفية ؛ وقرأت فى بناء الأرض والسموات
وتدبرته ؛ وشهدت اجتماعات الكتبة وراقبت البشائر والنذر ؛ وشرحت السموات
مع الكهنة العلماء ؛ وسمعت عمليات الضرب والقسم المعقدة ، التى لا تتضح لأول
وهلة . وكان من أسباب سرورى أن أكرّر الكتابات الجميلة الغامضة المدونة
باللغة السومرية ، والكتابات الأكدية التى تصعب قراءتها ... وامتطيت الأمهار ؛
ركبتها بحكمة حتى لا تجمع ، وشددت القوس ، وأطلقت السهم ، وتلك سمة
المحارب ، ورميت الحراب المرتجفة كأنها رماح قصيرة ... وأمسكت بالأعنة
كسائق المركبات ... ووجهت ناسجى دروع الغاب ومجناته كما يفعل الرائد ،
وعرفت العلوم التى يعرفها الكتبة على اختلاف أصنافهم حينما يحين وقت نضجهم ،
وتعلمت فى الوقت نفسه ما يتفق مع السيطرة والسيادة ، وسرت فى طرائق
الملكية» (٥٥) .

الفصل الرابع

الفن الآشوري

الفنون الصغرى — النقش الغائر — التماثيل — البناء — صفحة من « سردناپاس »

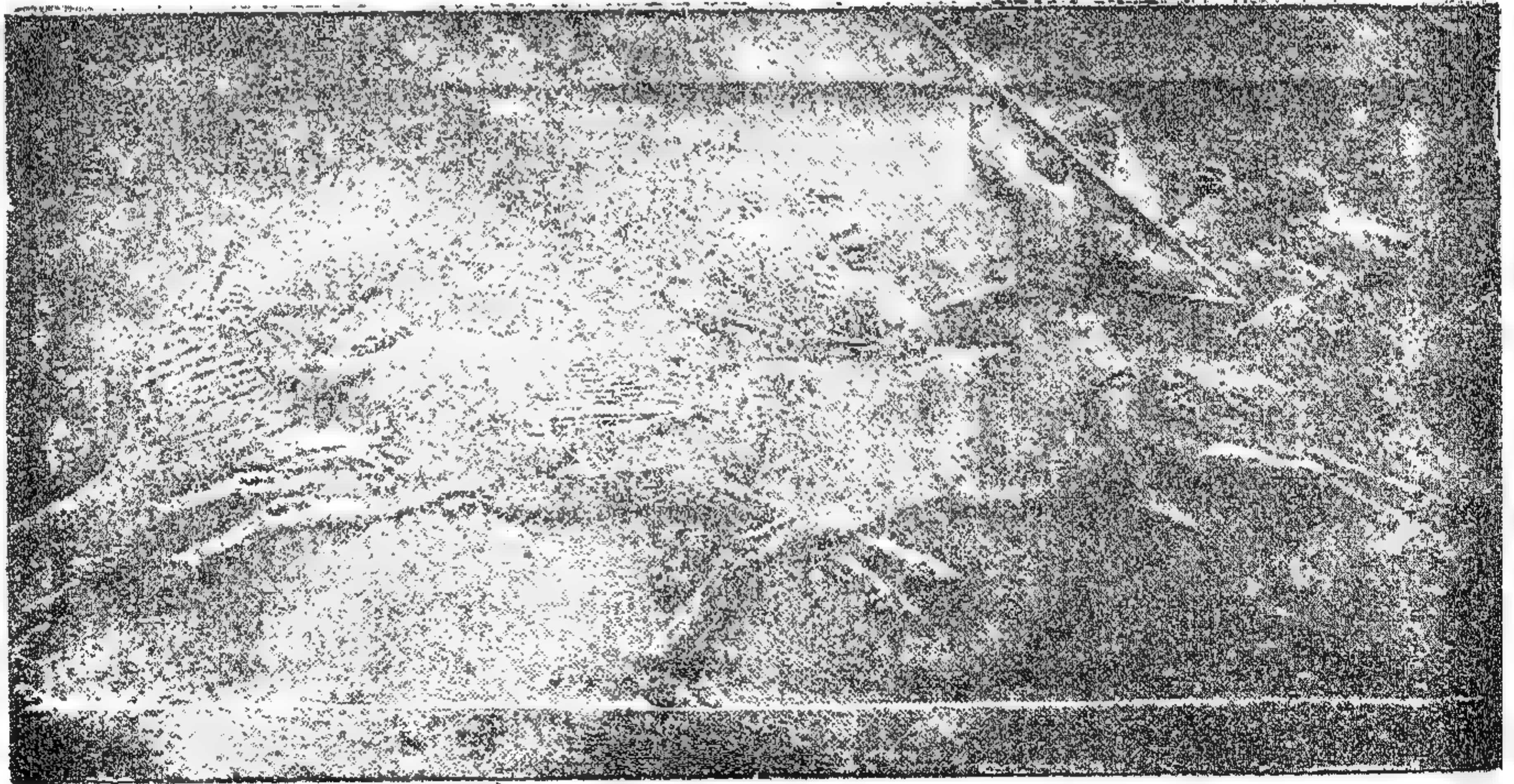
بلغت آشور في آخر عهدها ما بلغتته معلمتها بابل في الفنون ، وبزتها في النقوش الغائرة . فقد حفزت الثروة العظيمة التي تدفقت على آشور وكلخ ونينوى الفنانين والصناع الآشوريين إلى أن يخرجوا للأشراف ونساء الأشراف ، والملوك وقصور الملوك ، وللكهنة والهيكل ، حلياً مختلفة الأشكال ، فصهروا المعادن وبرعوا في تشكيلها وصناعتها كما شاهد ذلك في أبواب بلاوات العظيمة ،



شكل (٣٠) نقش آشوري يمثل مردك يقاتل تيامات
وجد في كلخ ومحفوظ في المتحف البريطاني

وفي الأثاث الفخيم الجميل الشكل الدقيق الصنع المتخذ من أئمن الأخشاب ، والمقوى بالمعادن ، والمرصع بالذهب والفضة والبرنز والأحجار الكريمة^(٥٦). وكانت صناعة الفخار عندهم منحطة ، وفي الموسيقى لم يزدوا على ما أخذوه منها عن البابليين ، ولكن التصوير بالطلاء الممزوج بالغراء وصفار البيض الزاهى الألوان أصبح من الفنون الآشورية الخاصة التى انتقلت إلى بلاد الفرس فبلغت فيها حد الكمال . وكان التصوير فى آشور كما كان على الدوام فى بلاد الشرق القديم فناً ثانوياً تابعاً للحرب يسير فى ركابها .

وأخرج فن النقش الغائر فى أيام المجد أيام سرجون الثانى وسنحريب وعسرهدن وأشوربانيبال وبتشجيع هؤلاء الملوك روائع هى الآن فى المتحف البريطانى . على أن من أجمل آياته تحفة يرجع عهدها إلى أيام آشوربانيبال الثانى . وهى من المرمر النقى وتمثل مردك إله الخير يهزم تيامات الخبيث إله القوضى^(٥٧) ، أما صور الآدميين المحفورة فهى جامدة خشنة وكلها متماثلة لا فرق بين الواحدة



شكل (٣١) صيد الأسد

نقش على المرمر من نينوى — محفوظ فى المتحف البريطانى

منها والأخرى ، كأنما قد وضع لها نموذج واحد كامل وفرض عليها أن تحاكيه .



نمط (٢٢) البزوة المنخفضة في بنوي — في المنجب البريطاني

في جميع المهود . ذلك أن للرجال جميعهم رؤوساً ضخمة وشوارب غزيرة ، و بطوناً كبيرة ، وأعناقاً لا تكاد تراها العين . وحتى الآلهة نفسها قد صورت بهذه الصور الأشورية لا تستر إلا قليلاً . ولا تظهر حيوية الرجال في صورهم إلا في أحوال



شكل (٣٣) الثور المجنح

وجد في قصر آشور باننبال الثاني في كلخ — وهو الآن في متحف نيويورك

(١٩ — قصة الحضارة — ج ٢)

جد نادرة ، منها قطعة المرمز المنقوشة التي تمثل الأرواح تتعبد أمام نخلة هندية^(٥٨) .
وفي اللوحة الجيرية التي تمثل شمس أداد السابع والتي عثر عليها في كلخ^(٥٩) .
أما النقوش التي تثير إعجابنا بحق فهي نقوش الحيوانات ، وما من شك في أن الفن
قديمه وحديثه لم ينجح في نحت الحيوانات نجاح الفن الآشوري . إن الألواح
تكرر أمام العين مناظر ممتدة تمثل الحرب والصيد ، ولكن العين لا تمل قط من
النظر إلى حركات الحيوانات القوية ونفورها الطبيعي ، وتصويرها البسيط الذي
لا تكلف فيه ، كأنما الفنان الذي حرم عليه أن يصور سادته في حقيقتهم وفرديتهم
قد وهب كل علمه وحذقه لتصوير الحيوانات . وهو يصور منها أنواعاً جمة
لا عديد لها — يصور أساداً ، وخيلاً ، وحيراً ، ومعزاً ، وكلاباً ، ودببة ، وظباء ،
وطيوراً ، وجنادب ، ويصورها في كل وضع من أوضاعها ما عدا سكونها . وما
أكثر ما يمثلها وهي تعاني سكرات الموت ، ولكنه حتى في هذه الحال يجعلها
مركز الحياة في صورته وفنه .

وهل هناك ما هو أروع من خيل سرجون الثاني في نقوش خراساباد^(٦٠) ،
أو اللبوة الجريئة التي عثر عليها المتقنون في قصر سنحريب^(٦١) في نينوى ،
أو اللبوة المحتضرة المنقوشة على حجر المرمز والتي استخرجت من قصر آشور بانينال^(٦٢) ،
أو مناظر صيد آشور ناصر بال الثاني وأشور بانينال للأساد^(٦٣) ، أو منظر اللبوة
المستريحة^(٦٤) ، أو الأسد الذي أطلق من الشرك^(٦٥) ، أو القطعة التي نقش عليها
أسد ولبوة يستظلان تحت الأشجار^(٦٦) . كل هذه من أجمل روائع هذا الفن
في العالم كله . ولنا نذكر أن تمثيل الأشياء الطبيعية عن طريق الحفر كان عند
الآشوريين فناً فجاً خشناً يجري على سنن جامدة محددة ، وأن أشكاله ثقيلة غير
ظريفة ، وأن خطوطه قاسية عسرة ، وأن العضلات مبالغ فيها كثيراً ، وأن كل
ما روعى فيها من قواعد المنظور لا يعدو وضع الشيء البعيد في النصف الأعلى من
الصورة بنفس الأبعاد التي رسم بها ما هو أقرب منه إلى الراسم ، وما وضع من

تحتة في الصورة؛ على أن المثاليين في عهد سنحريب عرفوا كيف يعوضون هذه العيوب بما أخرجوه من صور واقعية قوية ، مصقولة حسب الأصول الفنية ، مثل فيها الفنانون حركاتها أوضح تمثيل . وليس ثمة فيما نقش من الحيوانات شيء .



شكل (٣٤) رأس عصر هدن — في متحف برلين

يفوقها حتى اليوم . لقد كان فن النقش الغائر للأشوريين ما كان فن النحت لليونان ، أو التصوير الزيتي للإيطاليين في أيام النهضة ، كان فناً محبباً إليهم ، يعبر تعبيراً فذاً عن مثلهم الأعلى القومى في الشكل وفي الصفات .

هذا ما نقوله عن النقش عند الأشوريين ، أما النحت فكان أقل منه شأنًا وأحط منزلة . ويخيل إلينا أن الحفارين في نينوى وفي كلخ كانوا يفضلون النقش عن التصوير المجسم ؛ ولذلك لم يصل إلينا من خرائب الأشوريين إلا قليل من التماثيل الكاملة . وليس فيما وصل إلينا منها ما هو ذو قيمة كبيرة . نرى تماثيل الحيوانات مليئة بالحياة والجلال ، كأنها لا تشعر بأنها أعظم من الإنسان قوة فحسب بل تشعر فوق هذا بأنها أرقى منه خلقاً — وحسبنا أن نذكر منها الثورين اللذين كانا يحرسان مدخل خراساباد^(٦٧) ؛ وأما تماثيل الأنامى والأرباب فهى خشنة ثقيلة بدائية ، مزينة ولكنها لا فروق بينها ، منتصبة ولكنها ميتة . ولعل من الجائز أن نستثنى من هذا الوصف تماشال أشورناصر پال الثانى الضخم المحفوظ فى المتحف البريطانى الآن . ذلك أن فى وسع الناظر إليه أن يرى فيه من خلال خطوطه الثقيلة ملكا فى كل شبر من جسمه ! يرى الصولجان الملكى وقد قبض عليه قبضة قوية ، والشفنتين الغليظتين تمان عن قوة العزيمة ، والعينين القاسيتين اليقظتين ، ويرى عنقاً كعنق الثور ينذر الأعداء والمزورين فى أخبار الضرائب بالشهر المستطير ، ويرى قدمين ضخمتين متزنتين على ظهر الأرض أكمل اتزان . على أننا يجب ألا نقسو فى حكمنا على فن النحت الأشورى ؛ فأكبر الظن أن الأشوريين كانوا كلفين بالعضلات المفتولة والرقاب القصيرة ، وأنهم لو رأوا نحافة أجسامنا التى تكاد تشبه نحافة أجسام النساء أورشاقة هرميز الناعمة الشهوانية كما صورها بر كستليز أو عُلِّيَّة أبلون لسخروا من هذا كله أشد السخرية . أما من حيث العمارة الأشورية فكيف نستطيع أن نقدر قيمتها إذا كان كل ما بقى منها أنقاضاً وخرابات لا تكاد تعلو عما يحيط بها من رمال ، ولا تفيد فى شيء إلا أن

تكون مشجباً يعلق عليه علماء الآثار البواسل ما « يستعيدونه » بخيالهم من أشكال تلك المائر القديمة . لقد كان الآشوريون كالبابليين الأقدمين والأمريكيين المحدثين لا ينشدون الجمال في مبانيهم بل كانوا ينشدون العظمة والفخامة وينشدونها في ضخامة الأشكال . وجرى الآشوريون في عمائرهم على سنن الفن في أرض الجزيرة فاتخذوا اللبن مادة أساسية لمبانيهم ، ولكنهم اختطوا لأنفسهم طريقة خاصة بهم ، بأن اتخذوا واجهاتها من الحجارة أكثر مما فعل البابليون . وورث الآشوريون الأقواس والعقود من أهل الجنوب ، ولكنهم أدخلوا عليها كثيراً من التعديل ، وأجروا بعض التجارب على إقامة العمود ، مهدوا بها السبيل للعمود التي في شكل النساء وللتيجان « الأيونية » اللولبية التي نشاهدها عند الفرس واليونان^(٦٨) . ولقد أقاموا قصورهم على مساحات واسعة من الأرض ، وكانوا حكاماً إذ لم يعملوا بها أكثر من طبقتين أو ثلاث طبقات^(٦٩) . وكان القصر يتألف عادة من عدد من الردهات والغرف تحيط بفناء هادئ ظليل . وكان يحرس مداخل القصور الملكية حيوانات مهولة من الحجارة ، وتصف حول جدران الردهة القريبة من مدخل القصر وتعلق عليها نقوش غائرة وتماثيل تاريخية ، وكانت تلبط بالواح المرمر ، وتعلق على جدرانها أقمشة ثمينة مطرزة مزركشة ، أو تكسى بالأخشاب النادرة الغالية وتحف بها حليات جميلة . أما السقوف فكانت تقوى بكتل خشبية ضخمة ، تغطي في بعض الأحيان برقائق من الفضة أو الذهب وتصور عليها من أسفلها بعض المناظر الطبيعية^(٧٠) .

وكان أعظم المحاربين الستة من ملوك آشور هم أيضاً أعظم البنائين منهم ، فقد أعاد تغلث فلاصر الأول بناء هياكل آشور بالحجارة ، وقال عن واحد منها إنه « جعل داخله متلاًئلاً كقبة السماء ، وزين جدرانها حتى كانت في لآلاء النجوم المشرقة ، وجعله فخماً ذا سناء وبريق »^(٧١) . وكان الملوك الذين جاءوا من بعده أسخياء فيما وهبوه للمعابد ، ولكنهم كانوا كسليان يفضلون عليها قصورهم .

فقد شاد آشور ناصر پال الثانى فى كلخ قصرأ عظيما من الآجر المبطن بالحجارة ، وزينه بالنقوش التى تمتدح التقوى والحروب . وقد كشف راسام عند بلاوات بالقرب من هذا الموضع عن بقايا بناء آخر عثر فيه على باين كبيرين عظيمين من البرنز دقيقى الصنع^(٧٢) . وخذل سرجون الثانى ذكره بأن أقام قصرأ فسيحأ عند دور — شروكين (أى حصن سرجون) فى موضع خراساباد الحالية . وكان على جانبي مدخله أنوار مجنحة ، وعلى جدرانها نقوش وقرميد براق ، وكانت حجراته الواسعة ذات أثاث بديع النقش والصنع ، كما كانت تزينا تماثيل تبعث فى النفس الروعة والمهابة . وكان سرجون كلما انتصر فى واقعة جاء بالأمرى ليعملوا فى هذا الصرح العظيم ، وجاء بالرخام واللازورد ، والبرنز ، والفضة ، والذهب ليجمله بها . وشاد حوله طائفة من الهياكل ، وأقام من خلفه زجورات من سبع طبقات غطيت قمة أعلاها بالفضة والذهب . وشاد سنحريب فى نينوى قصرأ ملكياً سماه « المنقطع النظر » يفوق فى ضخامته كل القصور القديمة^(٧٣) . وكانت جدرانها وأرضه تتلأأ فيها نفائس المعادن والأخشاب والحجارة ، وكانت قراميده تنافس فى بريقها آيتى النهار والليل ؛ وصب له صناع المعادن آسادأ وأنوارأ ضخمة من النحاس ، ونحت له المثلون أنوارأ مجنحة من حجر الجير والمرمر ، ونقشوا على جدرانها الأغاني الريفية . وواصل عسرهدن توسيع نينوى وإعادة ما تهدم من عمارتها ، وفاقت مبانيه مباني من سبقوه جميعهم فى روعتها وفى أثاثها وأدواتها المترفة الثينة . فقد كانت اثنتا عشرة ولاية تقدم إليه حاجته من المواد والرجال ؛ ونقل إلى بلاده آراء جديدة عن العمد والنقوش عرفها أثناء إقامته فى مصر ؛ ولما أتم بناء قصوره وهياكله ملأها بالتحف التى غنمها من جميع بلاد الشرق الأدنى وبما رآه فيها من روائع الفن^(٧٤) .

وأسوأ ما يمكن أن يقال عن فن العمارة الآشورية أن قصر عسرهدن قد

نهار كله وأصبح أطلالا بعد ستين سنة من بنائه^(٧٥) . ويحدثنا آشور بانينال أنه أعاد تشييده ؛ ويخيل إلينا ونحن نقرأ نقشه أن القرون التي تفصل ما بيننا وبين هذا العصر قد انطوت ، وأتينا نخترق بأبصارنا قلب ذلك الملك :

« وفي ذلك الوقت تقادم عهد الحرم ، مكان الراحة في القصر ... الذي شاده جدى سنحريب ليقيم فيه ، وذلك لطول ما استمتع فيه من بهجة وصرور ، وتداغت جدرانها . وإذ كنت أنا آشور بانينال ، الملك العظيم ، الملك القادر ، ملك العالم ، ملك آشور ، ... قد نشأت في ذلك الحرم وحفظني فيه آشور ، وسن ، وشمش ، ورامان ، وبل ، ونابو ، وإشتار ، ... وأنا ولي للعهد ، وبسطوا على حمايتهم الطيبة وملاذم الرضى ؛ ... ولم ينفكوا يبعثون إلى فيه أنباء سارة عن ظفرنا بأعدائنا ، وإذ كانت أحلامي وأنا على سريري في الليل أحلاماً سارة ، كما كانت خيالاتي في الصباح مبهجة جميلة ، ... فقد مرقت خرباته ؛ وأردت أن أوسع رقعته فمزقتها جميعاً . وشدت بناء مساحة أرضه خمسون تبكى . وبنيت ربوة ولكنني وقفت خائفاً أمام مزارات أربابي الآلهة العظام ، فلم أعل بهذا البناء كثيراً . وفي شهر طيب ، ويوم موات ، وضعت أساسه فوق تلك الربوة ، وأقمت البناء ؛ وصببت نبيذ السمسم ونبيذ العنب على قباء مؤنه ، كما صببتهما على جداره الطيني^١ . ولكي أشيد هذا الحرم كان أهل بلادى ينقلون اللبئات في عربات عيلام التي غنمتها منهم بأمر الآلهة . وسخرت ملوك بلاد العرب الذين نقضوا الهدنة معي ، والذين أسرتهم في الحرب بيدي وهم أحياء ، يحملون الأسفاط و (يلبسون) قلانس الفعلة ليشتيدوا ذلك الحرم ... وكانوا يقضون نهارهم في صنع اللبئات ، ويرغمون على العمل فيه أثناء عزف الموسيقى . وشدت بناءه من قواعده حتى سقفه وأنا مغتبط مسرور ، وأنشأت فيه من الحجرات أكثر مما

كان به قبلا ؛ وجعلت العمل فيه فخا ، ووضعت فوقه كتلا طويلة من أشجار
الأرز التي تنمو على سِرارِا ولبنان ، وغطيت الأبواب المصنوعة من خشب اللبناو
ذى الرائحة الذكية ، بطبقة من النحاس وعلقتها في مداخله ... وزرعت حوله
أيكه حوت جميع أنواع الأشجار ، والفاكهة ... على اختلاف أصنافها ...
ولما فرغت من أعمال بنائه قربت القرايين العظيمة للآلهة أربابى ، ودشنته وأنا
مغتبط منشرح الصدر ، ودخلته تحت ظلة فخمة^(٧٦) .

الفصل الخامس

خاتمة أشور

آخر أيام ملك — أسباب انحلال أشور — سقوط نينوى

بيد أن « الملك العظيم ، الملك القادر ، ملك العالم ، ملك أشور » أخذ في آخر أيامه يندب سوء حظه . وآخر ما خلفه لنا من الألواح يثير مرة أخرى مسألتى سفر الجامعة وسفر أيوب :

« لقد فعلت الخير لله والناس ، للموتى والأحياء ؛ فلم إذن أصابنى المرض وحلّ بى الشقاء ؟ إني عاجز عن إخماد القنن التى فى بلدى ، وعن حسم النزاع القائم فى أسرتى ، وإن الفضائح المزججة لتضايقنى على الدوام ، وأمراض العقل والجسم تطأطئ من إشرافى ، وهأنذا أقضى آخر أيامى أصرخ من شدة الويل ؛ بأنساً فى يوم إله المدينة ، يوم العيد . إن المنية تنشب فى أظفارها ، وتتحدر بى نحو آخرتى . أندب حظى ليلاً ونهاراً ، وأنوح وأعول وأتوجع : « أى إلهى ! هب الرحمة لإنسان وإن كان عاقاً حتى يرى نورك ! » (٧٧) (*) .

(*) ويصور ديودور هذا الملك فى صورة من أخذ يقضى عمره فى إشباع شهواته النسائية والفجور والفسق الخنث . ولسنا نعرف على أى شيء استند ديودور فى هذا الاتهام . ثم إنه يعزو إليه أنه هو واضع هذه العبارة التى كتبت على قبره :

إنك تعلم حق العلم أنك قد ولدت للفناء

فاطرب ، وابتهج فى الأعياد .

وإذا مت فلن يبق لك بعدئذ ما يسرك ،

ومن أجل هذا فإنى ،

وقد حكمت من قبل نينس العظيمة ،

لست الآن إلا تراباً .

ولكن قد بقيت لى هذه الأشياء التى ابتهجت بها

فى حياتى — الطعام الذى أكلته ، واللهو الذى

استمتعت به ، وملاذ الحرب ومسراتها .

أما ما عدا هذا من الأشياء التى يراها الناس نعماً فقد تركتها خلفى (٧٨)

ولعلنا لا نجد شيئاً من التناقض بين هذا المزاج وبين المزاج الذى تصوره نصوص هذا الكتاب ؛ فقد يكون أحدهما تمهيداً طيباً للآخر .

ولسنا نعرف كيف قضى آشور بانيبال نحبه . فأما القصة التي وضعها يبرُن في قالب مسرحية ، والتي تقول إنه أشعل النار في قصره فهلك وسط اللهب ، فإن مردّها إلى كتسياس^(٧٩) وهو مؤرّخ مولع بإيراد كل ما هو غريب ، وقد لا تكون إلا أسطورة من الأساطير . ومهما تكن ميته فقد كانت نذيراً بما سيؤول إليه أمر بلاده ورمزاً لآخرتها ؛ لقد كانت هي الأخرى مقبلة على الفناء لأسباب بعضها من صنع يده . ذلك أن حياة آشور الاقتصادية كان جُلّ اعتمادها على ما يصل إليها من خارجها ، وقد أسرف ملوكها في الجرى على هذه السياسة الحمقاء ، فكان مصدر حياة البلاد هو الفتوح الخارجية التي تأتيها بالمال الوفير من الغنائم والمتاجر . وتلك سياسة تعرضها للخراب في أية لحظة إذا ما هزمت جيوشها في واقعة حاسمة . وسرعان ما أخذت الصفات الجسمية والخلقية ، التي جعلت الجيوش الآشورية رهبة لا تقهر في ميدان القتال ، تضعف بتأثير الانتصارات التي نالها هؤلاء الجنود ؛ ذلك أن كل واقعة تنتصر فيها آشور كان يهلك فيها أقوى جنودها وأبسلمهم ، فلا ينجو من القتل إلا الضعاف والمترددون والحذرون يعودون إلى بلادهم ليكثرُوا من نسلهم ، وتلك خطة مآلها إضعاف النسل ، ولعلها كانت من أسباب ارتقاء الحضارة لأنها انتزعت من البلاد أشد الناس وحشية ، ولكنها قوّضت الأساس الحيوي الذي شادت عليه آشور قوتها . وكان اتساع فتوحها سبباً آخر من أسباب ضعفها ، ولم يكن إقفار الحقول من زراعتها لإطعام إله الحرب النهم هو السبب الوحيد في هذا الضعف ، بل كان له سبب آخر وهو أن فتوحها جاءت إليها بالأسرى وبملايين من الأجانب المملّقين الذين تناسلوا كما يتناسل المدمون البائسون ، فلم يبقوا على شيء من الوحدة القومية في الجسم والخلق ، وكانوا لكثرتهم المطردة قوّة معادية تعمل على الضعف والانحلال بين الفاتحين أنفسهم . وأخذ هؤلاء الرجال القادمون من البلاد الأجنبية يزداد عددهم في الجيش نفسه ، بينما كان الغزاة أنصاف الهمج يهاجمون البلاد من جميع أطرافها ،

ويستنزفون مواردها في سلسلة لا آخر لها من الحروب للدفاع عن تخومها غير الطبيعية .
ومات آشور بانيبال في عام ٦٢٦ ق . م ، وبعد أربعة عشر عاما من موته
اجتاح البلاد جيش من البابليين بقيادة نبوخذ نصر ومعه جيش من الميديين
بقيادة سياخار وجحافل أخرى غير نظامية من السكوثيين أهل القفقاس .
ومصرعان ما استولت هذه الجيوش على القلاع الشمالية بسهولة عجيبة . وخربت
نينوى تخريباً لا يقل في قسوته وشموله عما فعله ملوكها من قبل بالسوس وبابل ،
فأشعلت النار في المدينة ، وذبح أهلها أو سيقوا أسرى ، ونهب القصر الذي شاده
آشور بانيبال من عهد قصير ثم دُمّر أشنع تدمير . وهكذا اختفت آشور من التاريخ ،
ولم يبق منها إلا بعض أفانين الحرب وأسلحتها ، وتيجان لولبية لبعض عمدتها
النصف « الأيونية » ، وبعض النظم الإدارية لحكم الولايات انتقلت منها إلى
الفرس ومقدونية ورومة . وظل الشرق الأدنى بعض الوقت يذكر لها قسوتها في
توحيد نحو اثنتي عشرة دولة صغيرة تحت سلطانها ؛ وتحدث اليهود عن نينوى
حديثاً ينطوي على الحقد والضعينة ووصفوها بأنها : « المدينة الدموية » التي
تفيض بالكذب واللصوصية »^(٨٥) . وما هي إلا فترة قصيرة حتى نسي الناس
أسماء ملوكها العظام ما عدا أعظمهم قوة وبطشاً ، وأصبحت قصورهم خربات
دارسة تحت الرمال السافية . وبعد مائتي عام من الاستيلاء على نينوى وطئت
جيوش زتوفون التي تبلغ عدتها عشرة آلاف مقاتل الأكوام التي كانت من قبل
نينوى ، ولم يدر بخلاها قط أن هذه الأكوام بعينها هي موضع الحاضرة القديمة
التي كانت تحكم نصف العالم . ولم تقع أعين هذه الجيوش على حجر واحد من
حجارة الهيكل التي حاول جنود آشور الأتقياء أن يحملوا بها أعظم عواصمهم .
وحتى آشور نفسه إلهها أمسي في عداد الموتى .

ملحوظة : استعنا في تحقيق أسماء الأماكن الواردة في هذا الباب وفي الباين
السابقين بالخرائط الجغرافية والتاريخية التي تفضلت بإعارتنا إياها المفوضية العراقية بالقاهرة
ووزارة الخارجية العراقية . (المترجم)

الباب الحادى عشر

خليط من الأمم

الفصل الاول

الشعوب الهندورية

مصرح الأجناس — الميتانيون — الحثيون — الأرمن — السكوثيون —
الفريجيون — الأم المقدسة — الليديون — كروسس —
العملة — سولون وقورش

كان الشرق الأدنى فى عهد نبوخذ نصر يبدو للعين البعيدة الفاحصة كأنه بحر خضم يتلاطم فيه خليط من الآدميين ، يأترفون ثم يتفرقون ، يستعبدون ثم يُستعبدون ، يأكلون ويؤكلون ، ويقتلون ويُقتلون إلى غير نهاية . وكان من وراء الإمبراطوريات الكبرى ومن حولها — مصر وبابل وأشور والفرس — يضطرب هذا الخليط من الشعوب نصف البدوية نصف المستقرة : الكريين ، والقلبيين ، والقبادوشيين ، والبثونيين ، والأشكانيين ، والميزيين ، والميونيين ، والكريين ، والپفيليين ، والپزيديين ، واللوكوانيين ، والفلسطينيين ، والعموريين ، والكنعانيين ، والإدَميين ، والعمونيين ، والمؤابيين وعشرات العشرات من الشعوب الأخرى التى كان كل شعب منها يظن نفسه مركز الأرض ومحور التاريخ ، ويعجب من جهل المؤرخين وتحيزهم إذ لم يخصصوه إلا بفقرة أو فقرتين فى كتبهم .

وكان هؤلاء البدو طوال تاريخ الشرق الأدنى خطراً يهدد الممالك التى كانت

أكثر منهم استقراراً ، والتي كانوا يحيطون بها من كل الجهات تقريباً . وكان الجذب يدفع بهم من حين إلى حين إلى هذه الأصقاع الغنية ، فتشب بينها وبينهم الحرب ، أو يتطلب منها ذلك الاستعداد الدائم للحرب^(١) . وكان الذي يحدث عادة أن تموت المملكة المستقرة وتحيا من بعدها القبيلة البدوية التي اجتاحت أراضيها في آخر الأمر . والعالم مليء بالأصقاع التي ازدهرت فيها الحضارة في يوم من الأيام والتي عاد البدو يحوسون خلالها من جديد .

وفي بحر الأجناس المتلاطم أخذت بعض الدول الصغرى تتشكل ، ويكون لها نصيب صغير في تراث الجنس البشري ، وإن لم يزد نصيبها هذا على أن تكون ناقلة وموصلة . ويهمننا من هذه الشعوب الميتانيون ، وليس ذلك لأنهم أعداء مصر الأقدمون في الشرق الأدنى ، بل لأنهم أول الشعوب الهندورية التي عرفناها في آسية ، ولأنهم أول عبدة الآلهة — منرا ، وإندرا ، وفرونا — التي انتقلت منهم إلى فارس والهند ، فأعانتنا بانتقالها على تتبع حركات الجنس الذي كان يطلق عليه من قبيل التيسير الجنس « الآري »^(*) .

وكان الحثيون من أقوى الشعوب الهندورية القديمة ومن أكثرها حضارة ؛ وأكبر الظن أنهم جاءوا عن طريق البسفور والهلسينت (الدردنيل) وبحر إيجه ، أو عن طريق القفقاس ، واستقروا طبقة عسكرية حاكمة تسيطر على الزراع سكان البلاد الأصليين في شبه الجزيرة الجبلية الواقعة جنوبي البحر الأسود والمعروفة الآن باسم آسية الصغرى . ونراهم حوالي عام ١٨٠٠ ق . م مستقرين قرب منابع دجلة والفرات ، ثم نشروا بعدئذ جيوشهم وبسطوا نفوذهم في سوريا ، وأقلقوا بال

(*) كان أول ظهور لفظ الآريين عند الحرى إحدى قبائل أمة الميتاني . وكان هذا اللفظ اسماً أطلقته على نفسها مجموعة الشعوب الضاربة بقرب شواطئ بحر قزوين أو التي كان أصلها ممن يضربون بالقرب من هذه الشواطئ . أما اليوم فإن هذا اللفظ يطلق بنوع خاص على الميتانيين والحثيين ، والميديين ، والفرس ، والهنود القدا — أي على الشعبة الشرقية من الشعوب الهندورية التي عمرت شعبتها الغربية بلاد أوروبا^(٢) .

مصر القوية حيناً من الزمان . ولقد رأينا كيف اضطر رمسيس الثانى أن يعقد الصلح معهم ، وأن يقر ملك الحثيين بأنه نده . واتخذ الحثيون عاصمتهم عند بوغاز كوى (*) وجعلوا أساس حضارتهم فى أول الأمر الحديد الذى استخرجوه من الجبال المتاخمة لأرمينية ، ثم الشرائع التى تأثرت كثيراً بشرائع حمورابى ، ثم ما طبعوا عليه من إدراك ساذج للجمال حفزهم إلى نحت تماثيل مجسمة ضخمة سمجة أو نقرها فى صخور الجبال (**). وكانت لغتهم تنتمى فى أكثر ألفاظها إلى أسرة اللغات الهندوربية ؛ وقد حل رتznى رموزها من عهد قريب بدراسة الاثنى عشر ألف لوح التى عثر عليها هيوجو ونكلر فى بوغاز كوى ، وهى فى اشتقاقها وتصريفها شديدة الشبه باللغتين اللاتينية واليونانية ، ومن كلماتها البسيطة ما هو ظاهر القرابة للكلمات الإنجليزية (+). وكان للحثيين خط تصويرى يكتبونه بطريقتهم الخاصة العجيبة . إذ كانوا يكتبون سطرأ من الشمال إلى اليمين ، ثم يكتبون السطر الذى يليه من اليمين إلى الشمال ، ثم من الشمال إلى اليمين وهكذا دواليك . وأخذوا الخط المسمى عن البابليين ، وعلمو أهل كريت صنع الألواح الطينية ليكتبوا عليها ؛ ويظهر

(*) فى شرق نهرها ليس . وبالقرب منها على الضفة الأخرى من النهر تقع مدينة أنقرة عاصمة تركيا الحديثة ، وهى ابنة أقورة التى كانت فى الأيام القديمة حاضرة فريجيا . وقد يكون مما يعيننا على رسم صورة ثقافية متناسبة الأبعاد أن ندرك أن الأتراك الذين نسميهم «مرعبين» يفخرون بقدم عاصمتهم ويرثون لحال أوروبا التى يسيطر عليها البرابرة الكفرة . إن كل بقعة فى العالم لتعد بلا جدال مركزاً له

(**) وقد كشف البارون ثون أوبنهايم عند تل حلف وغيره من الأماكن كثيراً من تحف الحثيين الفنية ، وجمعها فى متحفه ، وهو مصنع مهجور فى برلين . ويرجع كاشف هذه الآثار تاريخ معظمها إلى حوالى ١٢٠٠ ق . م ، ويرجع بعضها إلى الألف الرابع قبل الميلاد . وتحتوى هذه المجموعة طائفة من الآساد منحوتة فى الحجر نحتاً ساذجاً ولكنه قوى ، وتماثيل لثالوث الآلهة الحثية — إله الشمس ، وإله الجو ، وهبات إشتار الحثيين . وأعظم ما يروىنا من هذه التماثيل تمثال لأبى الهول قبيح المنظر ، وضع أمامه وعاء من الحجر ليقرب فيه القران (+) انظر مثلاً فادار Water إزا Eat ، أوجا أنا I (وباللاتينية Ego) توج thee ، فش we ، مو me ، كوش who (وباللاتينية quis) ، كوت what (باللاتينية quid) وغيرها (٣) .

أنهم اختلطوا بالبرانيين الأقدمين اختلاطاً شديداً أكسب هؤلاء أنفسهم الألفى الشديد القنا . ومن ثم فإن من واجبنا أن نعد هذه الخاصة العبرية « آرية » حقة^(٤) . ومن الألواح التي بقيت إلى هذه الأيام ما يحتوى على مفردات حشية وما يقابلها باللغتين السومرية والبابلية ؛ ومنها ما هو أوامر إدارية تكشف عن دولة عسكرية ملكية متماسكة ؛ ومنها حطام ألواح تبلغ عدتها مائتين تحتوى على طائفة من القوانين من بينها قواعد لتحديد أثمان السلع^(٥) . ولقد اختلف الحثيون من صفحة التاريخ اختفاء يكاد يشبه في غرابته وغموضه ظهورهم فيها ، فقد اندثرت عواصمهم واحدة بعد واحدة — ولعل سبب اندثارها أن ميزتهم العظيمة التي فاقوا بها غيرهم من الشعوب ، وهى معرفة الحديد ، أضحت في متناول منافسيهم . وسقطت قرقميش آخر عواصمهم فى يد الآشوريين عام ٧١٧ ق . م .

وكان إلى شمال بلاد آشور أمة مستقرة إذا قيست إلى غيرها من الأمم ، يعرفها الآشوريون باسم أراتو ، والبرانيون باسم أارات ، ومن جاء بعدهم من الأمم باسم الأرمن . واحتفظ الأرمن بحكومتهم المستقلة ، وعاداتهم وفنونهم الخاصة ، قروناً كثيرة تبدأ قبل فجر التاريخ المدون ، وتستمر إلى أن بسط الفرس سلطانهم على آسية الغربية بأجمعها . وأثروا فى أيام أرجستس الثانى أعظم ملوكهم (حوالى ٧٠٨ ق . م) من تعدين الحديد وبيعه فى بلاد آسية واليونان ، وبلغوا درجة عظيمة من الرخاء وسهولة العيش والحضارة والآداب العامة ، وشادوا المباني العظيمة من الحجارة ، وصنعوا الزهريات والتماثيل الصغيرة الجميلة الدقيقة . ولكنهم أضاعوا ثروتهم فى الحروب الهجومية الكثيرة النفقات ، وفى صد غارات الآشوريين عن بلادهم . ثم بسط عليهم الفرس سلطانهم فى أيام قورش الفاتح .

وإلى شمال الأرمن ، وعلى ضفاف البحر الأسود ، كان يتجول السكوثيون وهم عشائر حربية تتألف من خليط من المغول والأوربيين ، جبابرة متوحشون ملتحمون ، يقيمون فى عربات ، ويبقون نساءهم فى عزلة شديدة^(٦) ، ويركبون

الخييل البرية عارية ، يحاربون ليعيشوا ، ويعيشون ليحاربوا ، ويشربون دماء أعدائهم ، ويتخذون جلود رؤوس هؤلاء الأعداء قطائل لهم^(٧) . أضعفوا أشور بغاراتهم الدائمة عليها ، واجتاحوا غرب آسية (حوالي عام ٦٣٠ — ٦١٠ ق . م) وأخذوا يدمرون في طريقهم كل شيء ويقتلون كل إنسان ، وتقدموا إلى مدن دال النيل نفسها ، ثم فشا فيهم وباء غريب مجهول قضي على عدد كبير منهم ، وغلبهم آخر الأمر الميديون ، وردوهم على أعقابهم إلى مساكنهم في الشمال^{(٨) (*)} . وإنا لنلمح في هذه القصة ومضة أخرى من المأساة التي تتكرر على الدوام في جميع العصور ، وهي ما تفعله القبائل الهمجية الرابضة وراء الأمم القديمة جميعها والمحيط بها .

وظهرت في أواخر القرن التاسع قبل الميلاد قوة جديدة في آسية الصغرى ، ورثت بقايا الحضارة الحثية ، وكانت حلقة اتصال بينها وبين ليديا وبلاد اليونان . وكانت الأساطير التي حاول بها الفريجيون أن يفسروا للمؤرخين المتشوفين قيام دولتهم قصة رمزية لقيام الأمم وسقوطها . فهم يقولون إن جورديوس أول ملوكهم كان فلاحاً بسيطاً لم يرث من أبويه إلا ثورين اثنين^{(**) (*)} ، وإن ابنه ميداس ثانی أولئك الملوك كان رجلاً متلافاً أضعف الدولة بشراسته وإسرافه

(*) يحدثنا أبقراط أن « نساءهم ، طالما كن عذارى ، يركبن الخيل ، ويصدن ، ويرمين بالحرايب وهن على ظهور الخيل ؛ ويحاربن أعداءهن . ولا يسمحن بكارتهن إلا إذا قتلن ثلاثة من هؤلاء الأعداء ... والمرأة التي تتخذ لها زوجاً لا تقايل قط بعد الزواج ، إلا إذا أرغمت على هذا العمل بالاشتراك في حملة عامة . وليس لهؤلاء النساء ثدى أيمن ، وذلك لأن أمهاتهن يأتين بأداة من البرنز متوهجة من شدة حرارتها تصنع لهذا الغرض خاصة ويكوينهن بها وهن في سن الرضاع في مكان ثديهن الأيمن ، فيقف بذلك نموه وتتحول كل قوته ونمائه إلى الكتف اليميني والذراع اليميني »^(٩) .

(**) وأمر الهاتف زيوس الفريجيون أن يختاروا ملكاً عليهم أول رجل يدخل الهيكل في عربة ؛ وكان هذا الداخل هو جورديوس . ووهب الملك الجديد الإله عربته . وتنبأ هاتف جديد بأن من يفلح في حل العقدة المشكلة التي تربط النير بعريش العربة يحكم جميع بلاد آسية . فجاء الإسكندر — على ما ترويه القصة — وقطع العقدة الجوردية بضربة سيفه .

الذين مثلهما الخلف بالأسطورة الماثورة التي تقول إنه طلب إلى الآلهة أن تهبه القدرة على تحويل كل ما يمسه إلى ذهب . وأجابت الآلهة طلبه فكان كل ما يمس جسمه يستحيل ذهباً حتى الطعام الذي تلمسه شفته . وأوشك الرجل أن يموت جوعاً ، لكن الآلهة سمحت له أن يطهر نفسه من هذه النقمة بأن يفتسل في نهر بكتولس — وهو النهر الذي ظل بعدئذ يخرج حبوباً من الذهب .

واتخذ الفريجيون طريقهم من آسية إلى أوربة ، وشادوا لهم عاصمة في أنقورة ، وظلوا وقتاً ما ينازعون آشور ومصر السيادة على الشرق الأدنى ، واتخذوا لهم إلهة — أمّا تدعى ما ، ثم عادوا فسموها قييل ، واشتقوا هذا الاسم من الجبال (قييلا) التي كانت تعيش فيها ، وعبدوها على أنها روح الأرض غير المنزرعة ، ورمز جميع قوى الطبيعة المنتجة . وأخذوا عن أهل البلاد الأصليين طريقة خدمة الإلهة بالدعارة المقدسة ، ورضوا بأن يضموا إلى أساطيرهم الشعبية القصة التي تقول إن قييل أحببت الإله الشاب أرتيس (*) وأرغمته على أن يخصى نفسه تكريماً لها . ومن ثم كان كهنة الأم العظيمة يضعون لها برجولتهم حين يدخلون في خدمة هياكلها (١١) . وقد سحرت هذه الخرافات الوحشية لب اليونان وتغلغلّت في أساطيرهم وأدبهم . وأدخل الرومان الإلهة قييل رسمياً في دينهم ، وكانت بعض الطقوس الخالية التي تحدث في حفلات المساخر الرومانية مأخوذة عن الطقوس الوحشية التي كان الفريجيون يقبلونها في احتفالهم بموت أرتيس الجميل وبعثه (١٢) .

وانتهى سلطان الفريجين في آسية الصغرى بقيام مملكة ليديا الجديدة التي أسسها الملك جييجيس واتخذ سارديس عاصمة لها . ثم حكمها أليئيس أربعين سنة بلغت في خلالها درجة عظيمة من الرخاء والقوة ثم ورثها كروسس (٥٧٠ — ٥٤٦ ق . م) واستمتع بها أيما استمتاع ، ووسع رقعتها بما فتحه من أقاليم جديدة شملت

(*) وتحدثنا الأساطير بأن أرتيس ولدت نانا الإلهة العذراء بمعجزة من المعجزات ، وبأنها حملت فيه بوضع رمانة بين ثدييها (١٠) .

آسية الصغرى جميعها تقريباً ، ثم أسلمها آخر الأمر إلى الفُرس واستطاع بفضل
الرشى السخية التي كان يقدمها للساسة المحليين أن يخضع إلى ليديا الدويلات
التي كانت تحيط بأملاكه واحدة بعد واحدة ، كما استطاع بضحاياه المنقطعة النظير
والتي كان يقدمها قرباناً إلى الآلهة المحلية أن يهدئ من غضب شعوب تلك
الدويلات ، وأن يقنعها بأنه حبيب آلهتهم . وامتاز كروسس عن غيره من الملوك
بسكّ نقود ذهبية وفضية ذات شكل بديع تضربها الدولة وتضمن قيمتها الاسمية .
وليست هذه هي أولى المسكوكات الرسمية التاريخية كما اعتقد المؤرخون زمناً
طويلاً ؛ وليست هي بلا جدال بداية اختراع المسكوكات (*) ، ولكنها مع هذا
كانت مثلاً يحذى ساعد على انتشار التجارة في بلاد البحر الأبيض المتوسط .
لقد ظل الناس قرونًا طويلة يستخدمون معادن مختلفة لتقدير قيم البضائع وتسجيل
تبادلها ، ولكنها سواء كانت من النحاس أو البرنز أو الحديد أو الفضة أو الذهب
كانت في أغلب البلاد تقدر قيمتها في كل عمل تجارى حسب وزنها أو حسب
غيره من الاعتبارات . لهذا كان استبدال عملة قومية معترف بها رسمياً بهذه الوسائل
المتعبة إصلاحاً عظيم القيمة في عالم التجارة ؛ فقد يسرت هذه الوسيلة الجديدة
انتقال السلع ممن يحسنون إنتاجها إلى من هم في أشد الحاجة إليها ، فزاد ذلك من
ثروة العالم ، ومهد السبيل لقيام المدن التجارية كمدنات الأيونيين واليونان ،
حيث استخدمت الثروة التي جاءت من طريق التجارة لتمويل الأعمال الأدبية
والفنية .

ولم يصل إلينا شيء من الأدب الليدى ؛ كذلك لم يبق قط شيء من
المزهريات الجميلة القيمة المصنوعة من الذهب والحديد والفضة والتي تقرب بها
كروسس للآلهة التي غلبها . وتدل المزهريات التي وجدت في مقابر الليديين والتي

(*) وجدت مسكوكات أقدم من هذه عهداً عند موهنجو — دارو في الهند
(٢٩٠٠ ق . م) ، ولقد رأينا من قبل كيف سك سنحريب (حوالى عام ٧٠٠ ق . م)
قطعاً من النقود قيمتها نصف شاقل .

يحتويها الآن متحف اللوفر ، على أن ما كان لمصر وبابل من زعامة على الفن في
ليديا أيام كروسس قد أخذ يحل محله نفوذ اليونان المتزايد ؛ وكان لهذه المزهريات
من دقة الصنع ما يعادل أماتها وإخلاصها للطبيعة . ولما زار هيرودوت ليديا
وجد أن عادات أهلها لا تكاد تنماز عن عادات اليونان أهل بلاده ؛ ويقول
إن ما كان باقياً لديهم من هذه العادات التي تميزهم عن اليونان هو أن بنات العامة
منهم كن يكسبن بائناًتهن من الدعارة^(١٣) . وهذا المؤرخ الثرثار نفسه هو أهم
ما نعتمد عليه من المراجع في القصة التي تروى عن كيفية سقوط كروسس . فهو
يقص علينا كيف عرض كروسس ثروته على صولون ، ثم سأله عن يراد أسعد
الناس . وبعد أن ذكر صولون أسماء أشخاص ثلاثة كلهم من الموتى أبى أن
يقول إن كروسس سعيد ، وحبته في هذا أنه لا يعرف أى المصائب قد يأتى بها
الغد . وأخرج كروسس المشرع العظيم من عنده معتقداً أنه إنسان أبه . ثم أخذ
بعدئذ ياتمر ببلاد الفرس ، وما لبث أن رأى جحافل قورش على أبوابه . وانتصر
عليه الفرس بفضل ما كان لجمالهم من رائحة نفاثة قوية — كما يقول هذا المؤرخ
نفسه — لم تطفها جياد الليديين ؛ فجمحت ودحر الليديون ، وسقطت سرديس .
وتقول الرواية القديمة إن كروسس أعد كومة كبيرة من الحطب ، واتخذ مكانه
عليها ومن حوله أزواجه وبناته ومن بقى على قيد الحياة من أبناء بلاده ، ثم أمر
خصيانه أن يحرقوهم جميعاً . وذكر في اللحظات الأخيرة من حياته قول صولون ،
فأسف على جهله وقلة تبصره ، وأخذ يلوم الآلهة التي تقبلت جميع قرابينه وجازته
عليها بالخراب والهلاك . وأشفق عليه قورش — إذا جاز لنا أن نأخذ برواية
هيرودوت^(١٤) — وأمر بالنار أن تطفأ ، وأخذ كروسس معه إلى فارس ، وجعله
من أقرب مستشاريه ومن أكثرهم جدارة بثقته .

الفصل الثاني

الأقوام الساميون

قدم العرب — الفينيقيون — تجارتهم العالمية — طوافهم حول إفريقيا —
مستعمراتهم — صور وصيدا — آلهتهم — نشر الحروف
الهجائية — سوريا — عشتورت — موت أدنيس
وبعته — التضحية بالأطفال

إذا حاولنا أن نقلل من اضطراب اللغات وتباينها في الشرق الأدنى بقولنا إن معظم الشعوب التي كانت تسكن في الأجزاء الشمالية من هذا الإقليم شعوب هندورية وإن التي تقطن الأجزاء الوسطى والجنوبية منه والممتدة من آشور إلى جزيرة العرب شعوب سامية(*)، إذا حاولنا هذا فإن من واجبنا في الوقت نفسه أن نذكر أن الحقائق ليست واضحة المعالم إلى هذا الحد، وأن الفوارق بين الأجناس ليست بهذه الصورة التي نرسمها للتفرقة بينها تيسيراً للبحث. لسنا ننكر أن بلاد الشرق الأدنى تقسمها الجبال والصحارى إلى بيئات مختلفة منعزلة بعضها عن بعض بطبيعتها، وأنها لذلك تختلف في لغاتها وتقاليدها. ولكن التجارة قد عملت على مزج لغات هؤلاء الأقوام وعاداتهم وفنونهم في طرقها الرئيسية (كالطريق الممتد على شواطئ النهرين الكبيرين من نينوى وقرقيش إلى الخليج الفارسي). هذا إلى أن هجرة الشعوب ونقل جماعات كبيرة منها قسراً لأغراض استعمارية قد مزجا الأجناس واللغات المختلفة مزجاً كان من آثاره أن سحب اختلافها في الدم بعض التجانس في الثقافة. ومن ثم فإننا إذا سمينا بعض الشعوب هندورية فإنما نقصد بهذه التسمية أن هذه هي الصفة الغالبة عليها؛ وإذا قلنا إن شعباً ما « سامياً » فإن

(*) لفظة سامية مشتقة من سام الذي يقال إنه أبو الشعوب السامية كلها.

كل ما نعنيه أن السامية غالبية فيه . ولكن الحقيقة أنه لا توجد سلالة صافية ولم توجد قط ثقافة لم تتأثر بثقافة جيرانها أو ثقافة أعدائها . ومن واجبنا أن ننظر إلى هذه الرقعة الواسعة على أنها بيئة تدفقت على أجناسها المختلفة طوائف من هذا الجنس أو ذاك ؛ فغلب عليها الجنس الهندوربي تارة وغلب عليها السامي تارة أخرى ؛ ولكن غلبة هذا الجنس أو ذاك لم تثمر من الناحية الثقافية إلا اضطباع هؤلاء الغالبين بالصفات الثقافية العامة في مجموع هذه الأجناس . فقد كان بين همورابي ودارا الأول مثلاً اختلاف كبير في الدم والدين ، وكان يفصل بينهما من القرون ما يكاد يفصل منها بيننا وبين المسيح ؛ ولكننا إذا درسنا هذين العاهلين العظيمين دراسة دقيقة ، أدركنا أن من وراء هذا الاختلاف قرابة جوهرية بعيدة القرار .

ومهد الجنس السامي وصرباه جزيرة العرب ، فمن هذا الصقع الجذب حيث ينمو « الإنسان شديداً عنيفاً ، وحيث لا يكاد ينمو نبات على الإطلاق » ، تدفقت موجة في إثر موجة في هجرات متتالية من خلائق أقوىاء شديدي البأس لا يهابون الردى ، بعد أن وجدوا أن الصحراء والواحات لا تكفيهم ، فكان لا بد لهم أن يفتتحوا بسواعدهم مكاناً خصباً ظليلاً يعولهم ويقوم بأودهم . فأما من بقى منهم في بلادهم فقد أوجدوا حضارة العرب والبدو ، وأنشؤا الأسرة الأبوية وما تتطلبه من طاعة وصرامة خلقية ، وتخلقوا بالجبرية وليدة البيئة الشاقة الضئيلة ، والشجاعة العمياء التي تدفع أصحابها إلى وأد بناتهم وتقديمهن قرباناً للآلهة . على أن الدين لم يكن أمراً جدياً بين هؤلاء الأقوام حتى جاءهم محمد بالإسلام ؛ ولم يعنوا بالفنون وملاذ الحياة لأنهم كانوا يرونها خليفة بالنساء ومن أسباب الضعف والانحلال . وظلوا وقتاً ما يسيطرون على التجارة مع الشرق الأقصى ، تتكدس في ثغورهم مثل غلات جزائر الهند ، وتحمل قوافلهم تلك الغلات وتنقلها في الطرق البرية غير الآمنة إلى فينيقية وبابل . وشادوا في قلب جزيرتهم العريضة المدن والقصور

والهيا كل ، ولكنهم لم يكونوا يشجعون الأجانب على المجيء إليها ورؤيتها .
ولقد بقي هؤلاء الأقوام آلاف السنين يحيون حياتهم الخاصة بهم ، محافظين على
عاداتهم وأخلاقهم ، متمسكين بآرائهم ، ولا يزالون إلى اليوم كما كانوا في أيام
كيوبس وجوديا . وقد شهدوا مئات الممالك تقوم وتفتي من حولهم ، ولا تزال
أرضهم ملكا لهم يعضون عليها بالنواجذ ، ويحمونها من أن تطأها الأقدام الدنسة
أو تنظر إليها الأعين الغريبة .

والآن يحق للقارئ أن يسأل من هم أولئك الفينيقيون الذين تردد ذكرهم في
هذه الصحف ، والذين مخرت سفنهم عباب البحار كلها فلم يكن يخلو ثغر من
تجارهم يساومون فيه ويبيعون ويشتررون ؟ إن المؤرخ يستحي إذا سئل عن أصلهم
فهو لا يرى بدا من الاعتراف بأنه لا يكاد يعرف شيئا من التاريخ الباكر
أو التاريخ المتأخر لهذا الشعب الذي نراه في كل مكان ، ولكنه يقلت مت إذا أردنا
أن نتمسك به لنخبره وندرسه^(١٥) . فلما نعرف من أين جاء الفينيقيون ، أو متى
جاءوا ؛ ولما واثقين من أنهم ساميون^(*) . أما تاريخ قدومهم إلى شاطئ البحر
الأبيض فليس في وسعنا أن نكذب ما قاله علماء صور لهيرودوت ، وهو أن أجدادهم
قدموا إلى بلادهم هذا من شواطئ الخليج الفارسي ، وأنهم شادوا تلك المدينة في
العهد الذي نسميه نحن القرن الثامن والعشرين قبل ميلاد المسيح^(١٦) . بل إن
اسمهم نفسه لمن المشا كل العسيرة الحل . فقد يكون معنى لفظ القوانكس الذي
اشتق منه اليونان هذا الاسم هو الصبغة الحمراء التي كان يبيعها تجار صور ، وقد
يكون معناه الفخلة التي تترعرع على الشواطئ الفينيقية^(**) . وكان ذلك الشاطئ ،
وهو شريط ضيق من الأرض يبلغ طوله مائة ميل ولا يزيد عرضه على عشرة

(*) يقول أوتران إنهم كانوا فرعاً من فروع الأقوم الذين أنشؤا الحضارة الكريتية^(١٦) .

(**) يكتب هذا الاسم أحيانا بالواو بدل الياء فيقال فونيقية وفونيق ولعل هذا أصوب وإن لم
يكن مؤكداً كل التأكيد ، ولكننا أثبتنا اللفظ القديم المؤلف لأنه لم يثبت خطأه . (المترجم)

أميال ، محصوراً بين البحر من جهة وسوريا من الجهة الأخرى ، وكان هو كل ما يطلق عليه اسم بلاد فينيقية . ولم ير أهله أن استيطان جبال لبنان القائمة في شرق بلادهم أو إخضاع هذا الإقليم لحكمهم عملاً خليفاً باهتمامهم ؛ بل كانوا يقنعون بأن يظل هذا الحاجز المبارك قائماً شرق بلادهم يحميهم من الأمم ذات النزعة الحربية التي كانوا يحملون بضائعها إلى خلجان البحار .

وقد اضطرتهم هذه الجبال إلى العيش على ظهر البحار ، وظلوا من عهد الأسرة السادسة المصرية إلى ما بعدها أنشط تجار العالم القديم ؛ ولما تحرروا من حكم مصر (حوالى ١٢٠٠ ق . م) أصبحوا سادة البحر الأبيض المتوسط ، ولم يكتفوا بنقل التجارة ، بل كانت لهم مصنوعات عدة من الزجاج والمعادن ، والمزهرات المنقوشة المطلية ، والأسلحة والحلي والجواهر . وقد احتكروا لأنفسهم صنع الصبغة الأرجوانية التي استخرجوا مادتها من حيوان بحري رخوى يكثر بالقرب من شواطئهم^(١٨) ؛ ومن ثم اشتهرت نساء صور باستخدام الألوان الزاهية الجميلة التي كن يصبغن بها ما برعن في تطويره من الأقمشة . وكانوا ينقلون هذه المصنوعات والفائض الذي يمكن نقله من غلات الهند والشرق الأقصى — من حموب ، وخنزور ، ومنسوجات ، وحجارة كريمة — إلى موانئ البحر الأبيض قربية كانت منهم أو بعيدة عنهم . وكانت سفنهم تعود من هذه الموانئ مثقلة بالرصاص ، والذهب ، والحديد من شواطئ البحر الأسود الجنوبية ؛ وبالنحاس ، وخشب السرو ، والغلال من قبرص^(*) ، وبالعاج من إفريقية ؛ والفضة من أسبانيا ؛ والقصدير من بريطانيا ؛ وبالعبيد من كل مكان . وكانوا تجاراً دهاة ؛ أغروا في مرة من المرات أهل أسبانيا بأن يعطوهم نظير شحنة من الزيت مقداراً من الفضة لم تنسح له سفائنهم ؛ فما كان من الساميين

(*) إن الاسمين الإنجليزيين للنحاس والسرو Copper & Cypress مشتقان من

لفظ قبرص .

المساكين إلا أن استبدلوا الفضة بما كان في مراسي سفنهم من حديد وحجارة وأقلموا بها مغتبطين^(١٩). على أن هذا لم يكفهم ، فأسروا الأهليين وسخروهم في العمل في المناجم ساعات طويلاً نظير أجور لا تكاد تكفي لا بتياع أقواتهم^(*). ذلك أن الفينيقيين ، ككل التجار الأقدمين ، لم يكونوا يفرقون كثيراً في أعمالهم ولا في لغاتهم بين التجارة والغدر ، أو بينها وبين اللصوصية ، فكانوا يسرقون الضعيف ، ويبتزون مال الغني ، أما من عداهذين الصنفين فكانوا يراعون معهم ما يقضى به الشرف . وكانوا أحياناً يستولون على السفن في عرض البحار ، ويصادرون ما فيها من بضاعة ، ويأسرون من فيها من الملاحين ؛ وكثيراً ما كانوا يخذعون الأهليين المشوقين إلى الاستطلاع فيفرونهم بزيارة سفنهم ثم يبحرون بهم ويبيعونهم عبيداً^(٢١). وكان لهم أكبر الفضل في تسوية سمعة التجار الساميين الأقدمين وبخاصة عند اليونان الأولين ، الذين كانوا يفعلون فعلهم^(†).

وكانت سفائنهم المنخفضة الضيقة البالغ طولها نحو سبعين قدماً طرازاً جديداً في بناء السفن ؛ ذلك بأنهم لم يحتدوا فيها حذو السفن المصرية المنحني مقدماً إلى الداخل ، بل جعلوه ينحني إلى خارجها وينتهي بطرف رفيع يشق الريح أو الماء أو مراكب الأعداء . وكان للسفينة شراع واحد كبير مستطيل الشكل مرفوع على سارية مثبتة في قاعها ، وكان هذا الشراع يساعد العبيد الذين كانوا يدفعونها بصفين من المجاذيف . وكان الجند يقفون على سطح السفينة فوق

(*) انظر ما يقوله جين : « لقد شاعت الأقدار أن تكون أسبانيا في العالم القديم كما كانت بيرو والمكسيك في العالم الحديث . فلقد كان كشف تلك البلاد الغربية الغنية (يريد أسبانيا) على يد الفينيقيين ، وظلم أهلها السذج وتسخيرهم للعمل في مناجمهم لفائدة الأجانب القادمين إلى بلادهم ، كان هذا كله سابقة لا تفرق في شيء عما فعلته أسبانيا نفسها بأمرريكا في العصر الوسيط » (٢٠).

(†) وأطلق اليونان — وقد ظلوا خمسمائة عام لا يتقطعون عن القرصنة وشن الغارات — اسم فينيقي على كل من كان دأبه الختل والتلصص^(٢٢).

المجذفين يحرسوها وهم متأهبون للإبحار أو للحرب على السواء . وكانت هذه السفن الضعيفة لا تسترشد ببیت الإبرة ولا يزيد غاطسها في الماء على خمس أقدام . ومن أجل ذلك كانت تخشى أن تبتعد عن شاطئ البحر ، وظنت زماناً طويلاً لا تجرؤ على السفر بالليل ؛ ثم ارتقى فن الملاحة شيئاً فشيئاً حتى استطاع أدلاء السفائن الفينيقيون أن يسترشدوا بالنجم القطبي (أو النجم الفينيقي كما كان يسميه اليونان) ويتوغلوا في المحيطات ، ويطوفوا آخر الأمر حول إفريقيا ، فساروا أولاً بإزاء الساحل الشرقي متجهين نحو الجنوب و « كشفوا » رأس الرجاء الصالح قبل أن يكشفه فاسكوداجاما بنحو ألفي عام . وفي ذلك يقول هيرودوت : « ولما أقبل الخريف ، نزلوا إلى البر ، وزرعوا الأرض ، وانتظروا الحصاد ، فلما أن حصدوا الحَب ، أقلموا بسفائنهم مرة أخرى . ولما أن مرت عليهم في عملهم هذا سنتان وصلوا في السنة الثالثة إلى مصر بعد أن طافوا بأعمدة هرقل (جبل طارق) »^(٢٣) . ألا ما أعظم ما تقدّمنا عن أولئك الأقوام !

وأقاموا لهم حاميات في نقط منيعة على ساحل البحر الأبيض المتوسط ما زالت تكبر حتى أضحت مستعمرات أو مدناً غاصة بالسكان ، أقاموها في قاذز وقرطاجة ، ومرسيلية ، ومالطة ، وصقلية ، وسردانية ، وقورسقة ، بل وفي إنجلترا البعيدة . واحتلوا قبرص ، وميلوس ، وروُدس^(٢٤) ، ونقلوا الفنون والعلوم من مصر ، وكريت ، والشرق الأدنى ، ونشروها في اليونان ، وفي إفريقيا ، وإيطاليا ، وأسبانيا ؛ وربطوا الشرق بالغرب بشبكة من الروابط التجارية والثقافية ، وشرعوا ينتشلون أوربا من براثن الهمجية .

وازدهرت المدن الفينيقية التي كانت تغذيها هذه التجارة الواسعة ، والتي كانت تحكمها طبقة من التجار الأثرياء حذقت فنون السياسة الخارجية والمالية ، وضنت بثروة البلاد أن تبدد في الحروب الخارجية . وأصبحت هذه المدن على مدى الأيام من أغنى مدن العالم وأقواها . ومن هذه المدن مدينة بيلوس التي كانت

تظن نفسها أقدم مدن العالم كلها ، وأنها أنشأها الإله إل في بداية الزمان . وظلت هذه المدينة إلى آخر أيامها القصبة الدينية لفينيقيًا . وكان البردي من أهم سلعها التجارية فاشتق اليونان من اسمها اسم الكتاب في لغتهم بيلوس — Biblos — ومن هذه الكلمة نفسها اشتقت كلمة Bible الإنجليزية اسماً للكتاب المقدس .

وكان إلى جنوبي بيلوس وعلى بعد نحو خمسين ميلاً منها مدينة صيدا ؛ ولم تكن في بداية أمرها إلا حصناً من الحصون ، ولكنها نمت نمواً سريعاً فكانت قرية ، ثم بلدة ، ثم مدينة مزدهرة غنية ، أمدت خشيارشاه بأحسن المراكب في أسطوله . ولما أن حاصرها الفرس فيما بعد واستولوا عليها أبت عليهم أنفتهم وعزة نفوسهم أن يسلموها طائعين إلى أعدائهم فأضرموا النار في مبانيها ودمروها عن آخرها ، وهلك في حريقها أربعون ألفاً من سكانها^(٢٥) . ثم أعيد بناؤها بعدئذ حتى إذا جاءها الإسكندر وجدها مدينة مزدهرة ، وسار بعض تجارها المغامرين في مؤخرة جيشه إلى بلاد الهند بقصد « الاتجار »^(٢٦) .

وكانت أعظم المدن الفينيقية كلها مدينة صور — أى الصخرة — ؛ وقد أنشئت على جزيرة تبعد عدة أميال عن البر . وبدأت هي أيضاً حصناً ، ولكن ميناءها الأمين وسلامتها من الغزو سرعان ما جعلها حاضرة البلاد الفينيقية كلها ، ومأوى خليط من التجار والعبيد جاءوها من جميع بلاد البحر الأبيض المتوسط . وما أن حل القرن التاسع قبل الميلاد حتى كانت صور مدينة غنية في عهد ملكها حيرام صديق الملك سليمان ؛ وفي أيام زكريا (حوالي ٥٢٠ ق . م) كانت الفضة التي تجمعت فيها كأنها التراب ، وكان الذهب كأنه « وحل الطرقات »^(٢٧) ، ويقول عنها سترابون : « إن بيوتها من طبقات كثيرة ، بل إنها أكثر طبقات من بيوت رومة »^(٢٨) ، وقد ظلت بفضل ثروتها وبسالة أهلها مستقلة إلى أيام الإسكندر . ورأى هذا الشاب المتعطر في هذا الاستقلال تحدياً لعظمته فأخضعها بأن بنى طريقاً لها في البحر جعل منها شبه جزيرة . ثم قضى

عليها القضاء الأخير ازدهار مدينة الإسكندرية .

وكان للفينيقيين آلهة كثيرة شأنهم في ذلك شأن كل أمة تشعر بالتيارات العالمية الممقدة . فكان لكل مدينة بعلمها (أى سيدها) أو إلهها الخاص ، وهو في اعتقاد أهلها جد ملوكها ، ومُخصب أرضها ؛ فكانت الحبوب ، والخبز ، والتين والكتان كلها من عمل بعل المقدس . وكان بعل صور يسمى ما كراث ؛ وكان كهرقول — الذى قال اليونان إنه صورة أخرى منه — إله القوة والبطولة قام بأعمال شبيهة بأعمال منشهوزن . وكانت عشتورت (أستارتى) الاسم الفينيقي لإشتار . ومن خصائصها أنها كانت تُعبد في بعض الأماكن على أنها إلهة الطهر ، وفي أماكن أخرى على أنها إلهة الفجور والحب الشهوانى ؛ وقد جعلها اليونان في هذه الصفة الأخيرة صورة من إلهتهم أفروديت . وكما كانت إشتار — ميلتا تتقبل بكارى عابداتها من البنات في بابل ، كذلك كانت النساء اللاتى يعبدن عشتورت في بيلوس يقدمن لها غداثرهن أو يستسلمن لأول غريب يعرض عليهن حبه في جوار الهياكل . وكما أُحببت إشتار تموز ، كذلك أُحببت عشتورت أدنى (أى الرب) ؛ وكان يحتفل في بيلوس ، وباثوس (في قبرص) كل عام بمقتله على أنياب خنزير برى بالنحيب وضرب الصدور . وكان من حسن حظ أدنى أنه يقوم من بين الأموات كلما فارق الحياة ، ويصعد إلى السماء على مشهد من عباده^(٢٩) . وكان من آلهتهم أيضاً مولوخ (أى الملك) ، وهو الإله الرهيب ، وكان الفينيقيون يتقربون له بأطفالهم ويحرقونهم أحياء أمام ضريحه . وقد حدث في قرطاجة أثناء حصارها (٣٠٧ ق . م) أن أُحرق على مذبح هذا الإله الغاضب مائتا غلام من أبناء أرقى أسرها^(٣٠) .

ولكن الفينيقيين رغم هذا جديرون بأن تكون لهم مشكاة صغيرة في محراب الأمم المتحضرة ، ذلك أن تجارهم في أغلب الظن هم الذين علموا الأمم القديمة الحروف الهجائية المصرية ، وإن لم يكن الهيام بالأدب هو الذى وحد شعوب

البحر الأبيض المتوسط بل كان سبب وحدتهم الشؤون التجارية ومطالبتها . واسنا نجد خيراً من هذه المطالب مثلاً يوضح ما بين التجارة والثقافة من رابطة منتجة مثمرة . كما أننا لا نعلم علم اليقين أن الفينيقيين هم الذين أدخلوا هذه الحروف الهجائية إلى بلاد اليونان ، وإن كانت الرواية اليونانية تؤكد هذا بالإجماع^(٢١) ؛ وليس بعيد أن تكون كريت هي التي أمدت الفينيقيين واليونان^(٢٢) كليهما بالحروف الهجائية ، ولكن المرجح أن الفينيقيين أخذوا الحروف الهجائية من حيث أخذوا البردي . وإنا لنجدهم في عام ١١٠٠ ق . م يستوردون البردي من مصر^(٢٣) . وكان هذا النبات ذا فائدة لا تقدر للأمة التي تعنى بحفظ السجلات الحسابية وتقنها من مكان إلى مكان . وذلك لما فيه من اليسر إذا ووزن بالألواح الطينية الثقيلة التي كانت تستخدم في أرض الجزيرة . كذلك كانت الحروف الهجائية المصرية أرق كثيراً من المقاطع السمجة المستخدمة في غير مصر من بلاد الشرق الأدنى . وحسبنا أن نذكر عن هذه الحروف أن حيرام ملك صور وهب أحد آلهته في عام ٩٦٠ ق . م كوباً من البرنز عليه نقش بالحروف الهجائية^(٢٤) ، وأن ميثا ملك مؤاب أراد في عام ٤٨٠ ق . م أن يخلد مجده فتمش على حجر في متحف اللوفر الآن نقشاً بإحدى اللهجات السامية مكتوب من اليمين إلى اليسار بحروف شبيهة بالحروف الفينيقية . وقد قلب اليونان اتجاه بعض الحروف لأنهم كانوا يكتبون من اليسار إلى اليمين ، ولكن حروفهم في جوهرها هي الحروف التي علمهم إياها الفينيقيون ، والتي علموها هم أوربا . وهذه الرموز العجيبة هي بلا جدال أثمن ما ورثته الحضارة عن الأمم القديمة .

على أن أقدم ما كشف من كتابات بالحروف الهجائية لم يكشف في فينيقية بل في سيناء . فقد عثر سيروليم فلندرز بيتري في سرابة الخادم — وهي قرية صغيرة في موضع كان المصريون الأقدمون يستخرجون منه الفيروز — على نقوش بلغة عجيبة يرجع عهدها إلى تاريخ غير معروف على وجه التحقيق ، ولعله يرجع إلى

عام ٢٥٠٠ ق . م . ولم تحل رموز هذه النقوش بعد ، ولكن من الجلى أنها ليست مكتوبة بالخط الهيروغليفي ولا بالكتابة المسارية المقطعية ، بل مكتوبة بحروف هجائية^(٣٥) . كذلك وجد علماء الآثار الفرنسيون في زاپونا بسوريا مكتبة كاملة من الألواح الطينية بعضها مكتوب بالهيروغليفية وبعضها بحروف هجائية سامية . ولما كانت زاپونا قد دمرت حوالى عام ١٢٠٠ ق . م قبل أن تستكمل نموها ، فأكبر الظن أن هذه الألواح يرجع تاريخها إلى القرن الثالث عشر قبل الميلاد^(٣٦) ، وهى توحى إلينا مرة أخرى بما كانت عليه الحضارة من القدم فى القرون التى يحملنا فرط جهلنا على أن نعزو إليها بدايتها .

وكانت سوريا تمتد خلف فينيقية فى حِجْرٍ تلال لبنان ، وتتجمع فيها قبائلها تحت حكم تلك الحاضرة التى لا تزال تفخر على العالم بأنها أقدم مدنه ، والتى لا تزال تأوى السوريين المتعطشين إلى الحرية . وظل ملوك دمشق زمنًا ما يسيطرون على اثنتى عشرة أمة صغيرة من حولهم ، وأفلحوا فى مقاومة ما كان يبذله الآشوريون من جهود لإخضاع سوريا لحكمهم . وكان أهل هذه المدينة من التجار الساميين الذين استطاعوا أن يجمعوا ثروة طائلة من تجارة القوافل التى كانت تجتاز جبال سوريا وسهولها . وكانوا يستخدمون فى أعمالهم الصناعات والعبيد ، ولم يكن هؤلاء سعداء أو راضين . فنحن نسمع أن البنائين نظموا لهم اتحادات عظيمة ، وتحذثنا النقوش عن إضراب الخبازين فى مجنيزيا ؛ ونشعر من خلال القرون الطوال بما كان فى إحدى المدن السورية القديمة من نزاع ، وما كانت تضطرب به من حركة تجارية كبيرة^(٣٧) . وقد حذق هؤلاء الصناعات تشكيل الفخار الجميل ، ونحت العاج والخشب ، وصقل الحجارة الكريمة ، ونسج الأقمشة ذات الألوان الزاهية لتزين بها نسائهم^(٣٨) .

وكانت أزياء الأهلين فى دمشق وعاداتهم وأخلاقهم شديدة الشبه بنظائرها فى بابل ، بارسن الشرق القديم المتحكمة فى أذواقه . وكانت الدعارة الدينية منتشرة

في البلاد : فكان خصب التربة يرمز له في سوريا كما كان يرمز له في بلاد
آسية الغربية كلها بأُم عزيمة أو إلهة اتصالها الجنسي بعشيقها هو الذي يوحى إلى
جميع جهود الطبيعة وعمليتها الإنتاجية . ولم تكن التضحية بالمكارة في الهياكل
عملاً يتقرب به إلى عشتورت وحسب ، بل كان فوق ذلك مشاركة لها في التهلكة
الذي يرجي منه أن يوحى إلى الأرض بإحياء قويا لا تستطيع مقاومته ، وأن يضمن
تكاثر النبات والحيوان والإنسان^(٣٩) . وكان عيد عشتورت السورية كعيد
قيليل في فريجيا يحتفل به في هيراپوليس حوالى الاعتدال الربيعي بحرارة تكاد
تبلغ حد الجنون . فكانت نغمات الناي ودق الطبول تمتزج بعويل النساء على
أدنى سيد عشتورت الميت . وكان الكهنة الخصيان يرقصون رقصاً عاصفاً عجائبا
ويضربون أجسامهم بالسكاكين . وفي آخر الأمر كانت الحماسة تغلب الكثيرين
من الرجال الذين لم يأتوا إلى الحفل إلا ليشاهدوه ، فيخلعون ثيابهم ويخصون
أنفسهم ليهبوا أنفسهم طول حياتهم لخدمة الإلهة ، فإذا جن الليل جاء الكهنة
إلى المكان بنور خفي مجهول ، وفتحوا قبر الإله الشاب ونادوا نداء الظافرين أن
أدنى — الإله — قد قام من بين الأموات ، ثم مسا شفاء عباده بيلم في
أيديهم وأسرؤا إليهم وعدهم بأنهم هم أيضاً سيقومون من قبورهم في يوم من
الأيام^(٤٠) .

ولم يكن آلهة سوريا الآخرون أقل تعطشا للدماء من عشتورت . نعم إن
الكهنة كانوا يمتدحون بإله عام يضم في شخصه جميع الآلهة ويسمونه إل أو إلو
كالوهيم اليهود ، ولكن الشعب لم يكن يلتقي بالآلهة إلى هذا المتجر يد المعنوي
الهادئ ، وكان معبوده بعلاً . وقد جرت عادتهم على أن يوحّدوا بين إله المدينة
هذا وبين الشمس ، كما كانوا يوحّدون بين عشتورت والقمر ؛ وكانوا إذا حزبتهم
أمر جلت يضحون بأطفالهم قرباناً له ، كما كان يفعل الفينيقيون ؛ فكان الآباء
يأتون إلى الحفل وقد أخذوا زيتهم كأنهم في يوم عيد ، وكانت دقات الطبول

وأصوات الزمامير تطفئ على صراخ أطفالهم وهم يحترقون في حجر الإله . على أنهم كانوا عادة يكتبون بتضحيات أقل من هذه وحشية ، فكان القساوسة يضربون أنفسهم حتى تلتطخ المذبح دماؤهم ؛ أو تقتدى حياة الطفل بغفته ؛ أو ينزل القساوسة من عليائهم فيقبلون مبلغاً من المال يقدمونه للإله بدل الغلقة . لقد كان من الواجب أن يسترضى الإله بطريقة ما حتى يرضى ، لأن عباده قد جعلوه صورة من أنفسهم ، وحلماً من أحلامهم ، ولم يكن يعنى بحياة البشر أو يأبه بعويل النساء^(٤١) .

وكانت القبائل السامية الضاربة في جنوب سوريا ، والتي كانت تملأ الأرض باضطرابها ولغاتها ، تمارس عادات شبيهة بهذه العادات نفسها ، ولا تختلف عنها إلا في أسمائها وتفاصيلها . لقد حرم على اليهود أن « يجعلوا أطفالهم يمرون من خلال النار » ، ولكنهم كانوا رغم هذا يفعلون هذه الفعلة^(٤٢) ، ولم يكن إبراهيم وهو يوشك أن يضحي بإسحق^(*) أو أجنون وهو يضحي بإفجينيا إلا متبعين سنة قديمة كان أصحابها يحاولون بها أن يسترضوا الآلهة بالدماء البشرية . وقد ضحى ميشا ملك مؤاب بابنه الأكبر فخرقه بالنار ليفك عن مدينته الحصار ؛ ولما أجاب ربه دعاءه وقبل دماء ابنه ، ذبح سبعة آلاف من بني إسرائيل شكراً لله على نعمته^(٤٣) . وظل وادى نهر الأردن الذي يحترق هذا الإقليم مذ كان العموريون في عهد السومريين يجوبون سهول أمرو (حوالي عام ٢٨٠٠ ق . م) إلى أيام اليهود حين صبوا جام غضبهم المقدس على الكنعانيين ، وحين استولى سرجون ملك آشور على السامرة ، ونبوخذ نصر على أورشليم (في عام ٥٩٧ ق . م) ، نقول ظل وادى نهر الأردن ترويه دماء الضحايا البشرية التي تبتهج لها قلوب كثيرين من الأرباب . وليس من اليسير أن ندخل هؤلاء المؤايين ، والكنعانيين ، والعموريين ، والإدوميين ، والفلسطينيين ، والآراميين في سجل البشرية الثقافي .

(*) الذى يؤمن به السامون أن الدييج لإسماعيل لا إسحق . (المترجم)

لسنا ننكر أن الآراميين الكثيرى النسل قد انتشروا فى كل مكان ، وجعلوا لغتهم اللهجة العامة التى يتخاطب بها أهل الشرق الأدنى ، كما أن حروفهم الهجائية التى أخذوها عن المصريين أو الفينيقيين قد حلت محل كتابة أرض الجزيرة المسماة المقطعية ، فكانت أولاً واسطة التبادل التجارى ثم أضحت وسيلة نقل الآداب ، وأمست آخر الأمر لغة المسيح وحروف العرب الهجائية فى هذه الأيام^(٤٤) . ولكن الدهر لا يحتفظ بأسماء هذه الشعوب لما قامت به هى نفسها من الأعمال الجليلة بقدر ما يحتفظ بها لأن أصحابها مثلوا دوراً ما على مسرح فلسطين الفاجع . وعلينا الآن أن ندرس شعباً آخر بتفصيل أوفى وأدق من دراستنا لجيرانه ، ونعنى به اليهود وهم قوم إذا نظرنا إلى قلة عددهم وضيق بلادهم لا نكاد نراهم جديرين بهذه الدراسة ، ولكنهم أورثوا العالم أدباً من أعظم آدابه ، ودينين من أقوى أديانه ، وعدداً عظيماً من أذكى رجاله وأعظم تفكيراً .

الباب الثاني عشر

اليهود

الفصل الأول

الأرض الموعودة

فلسطين — مناخها — عهد ما قبل التاريخ — شعب إبراهيم —
اليهود في مصر — الخروج — فتح كنعان

في وسع كاتب مثل Buckle أو منتسكيو يريد أن يفسر تاريخ الأمة بالرجوع إلى موقع بلادها أن يجد ما يؤيد أقواله في فلسطين . إن بلاداً يبلغ طولها من دّان في الشمال إلى بير سبع في الجنوب نحو مائة وخمسين ميلاً ، ويتراوح عرضها من مساكن الفلسطينيين في الغرب ومساكن السوريين والآراميين والعمونيين ، والمؤابيين والإدوميين في الشرق خمسة وعشرين وثمانين ميلاً — إن بلاداً ضيقة الرقعة إلى هذا الحد لا يتوقع الإنسان أن يكون لها شأن في التاريخ ، أو أن تخلف وراءها أثراً أعظم مما خلفته بلاد بابل أو آشور أو فارس ، بل لعله أعظم مما خلفته مصر أو بلاد اليونان . ولكن كان من حسن حظ فلسطين أو من سوء حظها أن تقع بين عواصم النيل وعواصم دجلة والفرات . وهذا الموقع قد جاء إلى بلاد اليهود بالتجارة كما جاءها بالحرب ؛ وكم من مرة ضيق على اليهود فلم يجدوا مخرجاً لهم من ضيقهم إلا بالانضمام إلى أحد الطرفين في الصراع القائم بين الإمبراطوريات الكبرى ، أو بأداء الجزية عن يد وهم صاغرون ؛ وكم من مرة اجتاحت المصطرعون بلادهم ، وكان من وراء التوراة ، ومن وراء صراخ أصحاب الزامير والأنبياء وعويلهم وطلبهم الغوث من

رب السماء ، كان من وراء هذا كله موقع اليهود الذي تهدده الأخطار ، بين شقي
الرحى ، من فوقهم دول أرض الجزيرة ومن تحتهم مصر .

ويحدثنا تاريخ الأرض المناخى مرة أخرى أن صرح الحضارة صرح مزعزع ،
وأن عدوئها الألدن — الممجية والجذب — يترصدانها ليقضيا عليها . لقد
كانت فلسطين في يوم من الأيام « أرضاً تفيض لبناً وعسلاً » كما تصفها كثير
من الفقرات في أسفار موسى الخمسة^(١) ؛ وكان يوسفوس في القرن الأول بعد
المسيح لا يزال يقول عن فلسطين وأهلها إن بها من « الأمطار ما يكفي حاجة
الزراعة ، وإنها جميلة ، وإن بها كثيراً من الأشجار ، وإنها مملوءة بفواكهة الخريف
البرى منها والمزروع ... » ، وإن هذه الأشجار لا تروى بالأنهار ورياً طبيعياً ،
ولكنها تنال معظم ما تحتاج إليه من الرطوبة من ماء المطر الذى لا ينقطع عنها
قط^(٢) . وكانت أمطار الربيع التى تسقى الأرض تخزن في الأيام الخالية في
صهاريج أو ترفع إلى سطح الأرض مرة أخرى من آبار كثيرة العدد ، وتوزع في
أنحاء البلاد في شبكة من القنوات ؛ وكان ذلك هو الأساس المادى للحضارة
اليهودية . وكانت الأرض التى تروى بهذه الطريقة تنتج الشعير والقمح والذرة ،
وتجود فيها الكروم ، وتثمر أشجارها الزيتون والتين والبالح وغيرها من الفواكه
على منحدرات الجبال جميعها ؛ فإذا داهمتها الحروب وخربت حقولها التى أخصبتها
الصناعة ، أو جاءها فاتح فأخرج منها إلى بلاد نائية الأمر التى كانت تعنى بهذه
الحقول ، زحفت الصحراء عليها فأفسدت في بضع سنين ما أصلحته الأيدي
العاملة في أجيال . وليس لنا أن نحكم على جذب أرض فلسطين بما نشاهده فيها
الآن من فياف مقفرة ، وواحات قليلة ضئيلة ، تواجه اليهود الذين عادوا الآن إلى
تلك البلاد بعد ثمانية عشر قرناً من النفي والعذاب والتشريد .

والتاريخ في فلسطين أقدم مما كان يظنه الأسقف أسشر Ussher ، فقد

كشفت بقايا نيندرتالية قرب بحر الجليل ، كما كشفت خمسة هياكل عظمية نيندرتالية في كهف قرب حيفا . وليس بعيد أن تكون الثقافة المُستيرية التي ازدهرت في أوربا حوالي عام ٤٠٠٠٠ قبل الميلاد قد امتدت إلى فلسطين . فقد كشفت في أريحا (*) أرض حجرات ومواقد من مخلفات العصر الحجري الجديد ، وهي ترجع بتاريخ هذا الإقليم إلى عصر برنزي متوسط (٢٠٠٠ — ١٦٠٠ ق . م) جمعت فيه مدن فلسطين وسوريا من الثروة ما أغرى مصر بفتحها . وكانت أريحا في إبان القرن العشرين قبل الميلاد مدينة مسورة يحكمها ملوك يعترفون بسيادة مصر عليها . وقد وجدت في قبور هؤلاء الملوك التي كشفتها بعثة جارستانج Garstang مئات من المزهريات والهدايا الجنازية وغيرها من الأدوات التي تدل على وجود حياة مستقرة في تلك المدينة وقت سيطرة الهكسوس على مصر ، وعلى وجود حضارة لا بأس بها في أيام حتشيسوت وتحتمس الثالث (٣) .

ويبدو من هذا الكشف وأمثاله أن الأزمنة المختلفة التي تبدأ بها تواريخ الشعوب في ظننا إن دلت على شيء فإنما تدل على جهلنا ؛ وتدل ألواح تل العمارنة على أن الحياة في فلسطين وسوريا بالصورة التي تطالعنا في بداية تاريخ اليهود ترجع إلى قرب دخولهم في وادي النيل . ومن المرجح — وإن لم يكن من المؤكد — أن « الخبيرو » الذين تتحدث عنهم هذه الألواح كانوا عبرانيين (**)(٤) .

(*) Jericho

(**) لقد أعادت الكشف التي ذكرناها في هذا الفصل كثيراً من الثقة إلى فصول سفر التكوين التي تقص تاريخ اليهود القديم . وإذا ما استثنينا من قصة اليهود ، كما تعبط عنها اللثام أسفار العهد القديم ، حوادث المعجزات وخوارق العادات وأشباهها ، رأينا أن هذه القصة قد صمدت للنقد وللبحوث التاريخية . وكل عام يمر يكشف فيه من الوثائق والآثار ما يؤيد أقوال العهد القديم . من ذلك أن القطع الخزفية التي استخرجت من تل الدوير في عام ١٩٣٥ تحمل من النقوش العبرية ما يؤيد أجزاء من قصة سفر الملوك (٤) (١) . وعلى هذا فإن من حقنا أن نقبل قصص التوراة مؤقتاً حتى نجد ما ينقضها . انظر كتاب بيتري « مصر وإسرائيل Egypt & Israel » طبعة لندن ١٩٢٥ ص ١٠٨ .

ويعتقد اليهود أن شعب إبراهيم (أو أبراهام) جاءوا من أور في بلاد سومر^(٥) واستقروا في فلسطين (حوالي ٢٢٠٠ ق. م) أي قبل موسى بنحو ألف عام أو أكثر ؛ وأن انتصارهم على الكنعانيين لم يكن إلا استيلاء العبرانيين على الأرض التي وعدهم بها الله . والراجح أن أرافل الذي يقول عنه سفر التكوين (١٤ : ١) إنه « ملك شنعار في تلك الأيام » كان هو أمر يال والد حمورابي الذي كان يجلس قبله على عرش بابل^(٦) . ولم تصل إلينا من مصادر معاصرة إشارات مباشرة إلى خروج بني إسرائيل من مصر أو إلى هزيمة الكنعانيين^(٧) . وكل ما وصلنا من إشارات غير مباشرة هو ما كتب على اللوحة التي أقامها منفتح (حوالي ١٢٢٥ ق. م) والتي وردت فيها هذه العبارة :

لقد غلب الملوك وقالوا « سلاما ! »

وخربت تحينو .

وهدئت أرض الحثيين ،

وانتهبت كنعان ، وحلّت بها كل الشرور ، ...

وخربت إسرائيل ، ولم يعد لأبنائها وجود ؛

وأضحت فلسطين أرملة لمصر ،

وضمّت كل البلاد . وهدئت ؛

وكل من كان ثائراً قيّده الملك منفتح .

وليس في هذه الأقوال ما يدل على أن منفتح هو فرعون الذي خرج بنو إسرائيل من مصر في عهده ؛ وكل ما تثبته أن الجيوش المصرية اجتاحت فلسطين مرة أخرى . ولسنا ندرى متى دخل اليهود مصر ، وهل دخلوها أحراراً أو عبيداً^(*) (٨) . ولربما كان من حقنا أن نرجح أن من هاجروا منهم إلى مصر

(*) لعلمهم جاءوا مصر في أثر المكسوس ، ولعل سيطرة هؤلاء الساميين على مصر قد أتاحت لهم بعض الحماية^(٩) . ويرجع بيتري تاريخ دخولهم مصر إلى عام ١٦٥٠ ق. م ، =

كانوا في بداية الأمر قليلي العدد^(١١) ، وأن وجود الآلاف المؤلفة منهم في مصر أيام موسى كان نتيجة لكثرة تناسلهم ، وأن شأنهم في ذلك الوقت كان كشأنهم في جميع العصور ، فقد كانت « عددهم يتضاعف وينمو كلما زاد اضطهادهم وتعذيبهم »^(١٢) . وإن قصة « استعباد » اليهود في مصر ، وتسخيرهم في أعمال البناء الضخمة ، وتمردهم ، وهربهم — أو هجرتهم — إلى آسية لتحمل في ثناياها أدلة كثيرة على صدقها ، وإن اختلط بها بطبيعة الحال كثير من الأقوال الغريبة



شكل (٣٥) شارع في القدس الحديثة

وخوارق العادات كما يحدث عادة في جميع الكتابات التاريخية في الشرق القديم .

== وتاريخ خروجهم منها إلى عام ١٢٢٠ ق.م (١٠) ، وهو يعتمد في ذلك على ماورد في التوراة من أن اليهود أقاموا في أرض مصر أربعائة وثلاثين عاما .
تنبيه : رأينا في هذا الباب أن تنقل العبارات المقتبسة من الكتاب المقدس بنصها لا أن نترجمها عن الأصل الإنجليزي . (المترجم)

وحتى قصة موسى نفسها يجب ألا نتعجل فنرفضها من غير بحث وتحقيق ، وإن كان من المعجيب حقاً أنه لم يرد له ذكر على لسان عاموس أو إشعيا ، وهما اللذان سبقتا خطبهما تأليف أسفار موسى الخمسة بنحو قرن من الزمان (*) .

ولما سار موسى باليهود إلى جبل سيناء ، لم يكن في سيره هذا إلا متبعاً نفس الطريق الذي كانت تسلكه البعثات المصرية التي تبحث عن الفيروز منذ ألف عام وتبدو الآن قصة الأربعين عاماً التي تاهوا فيها في الصحراء ، والتي كان يظن من قبل أنها قصة غير معقولة ، تبدو الآن من الأمور التي يقيلمها العقل ، لأنها تصف مسير قوم من البدو الذين كانوا طوال عهدهم قوماً رحلاً ، كما أن هزيمتهم للكنعانيين ليست إلا مثلاً آخر لانقضاء جموع جياع على جماعة مستقرين آمنين . وقتل المهاجمون من الكنعانيين أكثر من استطاعوا قتلهم منهم وسبوا من بقي من نسائهم ، وجرت دماء القتلى أنهاراً ، وكان هذا القتل كما تقول نصوص الكتاب المقدس « فريضة الشريعة التي أمر بها الرب موسى » .

(*) ينقل يوسفوس عن ما نيتون — وهو مؤرخ مصرى عاش في القرن الثالث قبل الميلاد — قوله إن سبب خروج بني إسرائيل من مصر هو رغبة المصريين في أن يتقوا شر وباء فشا بين اليهود المستعبدين المملكين ، وقوله إن موسى نفسه كان كاهناً مصرياً خرج للتبشير بين اليهود « المجذومين » ، وأنه علمهم قواعد للنظافة على نسق القواعد المتبعة عند كهنة المصريين (١٣) . ويفسر المؤرخون اليونان والرومان قصة الخروج هذا التفسير (١٤) ، ولكن نزعتهم المعادية للسامية تجعلنا قليلي الثقة بأقوالهم . وفي التوراة آية تؤيد قول وارد Ward إن الخروج لم يكن إلا إضراباً عن العمل . وهذه هي الآية المشار إليها : « فقال لهما ملك مصر لماذا يا موسى وهرون تبطلان الشعب من أعماله إذ هما إلى أشغالهما » (١٥) .

وموسى اسم مصرى لا اسم يهودى ؛ ولعله اختصار للفظ أحوس (١٦) . ويقول الأستاذ جارستانج عضو بعثة مارستن Marston التابعة لجامعة ليربول إنه كشف في مقابر أريحا الملكية أدلة تثبت أن موسى قد أنجته (في عام ١٥٢٧ ق . م بالتحقيق) الأميرة حتشبسوت (الملكة حتشبسوت فيما بعد) وأنه تربى في بلاطها بين حاشيتها ، وأنه فر من مصر حين جلس على العرش عدوها تحتمس الثالث (١٧) . وهو يعتقد كذلك أن الخلفات التي وجدت في هذه القبور تؤيد قصة سقوط أريحا (يشوع ٦) . ويرجع سقوطها إلى حوالي عام ١٤٠٠ ق . م كما يرجع الخروج إلى عام ١٤٤٧ ق . م (١٨) . ولما كانت هذه التواريخ لا تعتمد إلا على ما ورد منقوشاً على الجملان والخزف ، فإن من واجبنا أن نأخذها بالشك الموقوف بالاهتمام .

و « زكاة للرب »^(١٩) . ولما استولوا على مدينتين من المدن قتلوا من أهلها ١٢٠٠٠ رجل . ولسنا نعرف في تاريخ الحروب مثل هذا الإسراف في القتل والاستمئاع به ، ومثل هذه السهولة في تعداد القتلى إلا في تاريخ الآشوريين . ويقال لنا إن « الأرض استراحت من الحروب أحياناً »^(٢٠) فقد كان موسى من رجال السياسة المتصنفين بالصبر والأناة ، أما يشوع فلم يكن إلا جندياً فظاً ؛ وقد حكم موسى حكماً سلمياً لم تسفك فيه دماء ، وذلك بما كان يفضي به من أحاديث جرت بينه وبين الإله ، أما يشوع فقد أقام حكمه على قانون الطبيعة الثاني ، وهو أن أكثر الناس قتلاً هو الذي يبقى حياً . وبهذه الطريقة الواقعية التي لا أثر فيها للمواطف استولى اليهود على الأرض الموعودة .

الفصل الثامن

سليمان في ذروة مجده

أصل اليهود — مظهرهم — لغتهم — نظامهم — القضاة والملوك —
شاؤل — داود — سليمان — ثروته — الهيكل —
نشأة المشكلة الاجتماعية في إسرائيل

كل ما نستطيع أن نقوله عن أصل اليهود من ناحية جنسهم هو ذلك القول الغامض ، وهو أنهم ساميون لا يتميزون تميزاً واضحاً ولا يختلفون اختلافاً كبيراً عن غيرهم من الساميين سكان آسية الغربية ، وأنهم لم يوجدوا تاريخهم ، بل إن تاريخهم هو الذي أوجدهم . وإنا لنراهم من بداية ظهورهم خليطاً من سلالات كثيرة — والحق أن وجود جنس « نقي » في الشرق الأوسط بين الآلاف من تياراته الجنسية التي تتلاطم فيه أمر يتطلب مستوى من الفضيحة لا يحق له عاقل . على أن اليهود كانوا أنقى أجناس الشرق الأدنى غير النقية ، لأنهم لم يتزوجوا بغيرهم من الأجناس إلا كرهين . ومن أجل هذا حافظوا على جنسهم ، واستمسكوا به استمسكاً عجيباً . فالأسرى العبرانيون الذين نرى صورهم في النقوش المصرية والأشورية يشبهون كل الشبه يهود هذه الأيام رغم تحامل الفنانين وتخيفهم . ففي هذه النقوش نرى الأنف الحثي الطويل الأفتى^(*) ، والوجنتين البارزتين ، وشعر الرأس واللحية المتلوى ، وإن كنا لا نرى في الرسوم المصرية الهزلية الأجسام الضامرة القوية ، والأرواح الخبيثة العنيدة التي انماز بها الساميون من عهد أتباع موسى « صلب الرقاب » إلى بدو هذه الأيام وتجارها الذين لا يسبر لهم غور . وكانوا في أيام فتوحهم الأولى يرتدون جلابيب بسيطة ، وقبعات وطيئة

(*) انظر ص ٣٠٣ من هذا الكتاب

أو قلائس شبيهة بالعمائم ، ويحتذون أخفافاً سهلة الخلع . ولما أن زادت ثروتهم استبدلوا بالأخفاف أحذية من الجلد وارتدوا فوق الجلابيب قفاطين ذات أهداب . أما نساؤهم — وهن من أجل نساء الأم القديمة — فكن يصبغن خدودهن ويكتحلن ويتحلين بكل ما يجدن من الحلى ، ويلبسن أحسن الأزياء وأحدثها في بابل ونيينوى ودمشق وصور^(٢١) .

وكانت اللغة العبرية أعظم اللغات الطنانة الرنانة على ظهر الأرض ، ألفاظها مليئة بالألغام الموسيقية القوية رغم ما فيها من حروف حلقية . وقد وصفها رينان بقوله : إنها « كنانة مليئة بالسهم ، وأبواق نحاسية تدوى في الهواء »^(٢٢) . ولم تكن تختلف كثيراً عن لغة الفينيقيين أو المؤابيين . وكان اليهود يكتبون بحروف هجائية وثيقة الصلة بالحروف الفينيقية^(٢٣) ، ويعتقد بعض العلماء أنها أقدم ما عرف من الحروف^(٢٣) . ولم يشغلوا أنفسهم بإضافة الحركات إلى الحروف ، بل تركوها للقارئ يستخرجها من معنى العبارة ، ولا تزال الحركات العبرية إلى اليوم مجرد علامات تزدان بها الحروف .

ولم تتألف من الغزاة في يوم من الأيام أمة موحدة متماسكة ، بل ظلوا زمنًا طويلاً يؤلفون اثني عشر سبطاً مستقلين استقلالاً واسعاً أو ضيقاً ، نظامهم وحكمهم لا يقومان على أساس الدولة ، بل على أساس الحكم الأبوي في الأسرة . فكان شيوخ العشائر يجتمعون في مجلس من الكبراء هو الحكم الفصل في شئون القبيلة ، وهو الذي يتعاون مع زعماء القبائل الأخرى إذا ألجأتهم إلى هذا التعاون الظروف . القاهرة التي لا مفر من التعاون فيها . وكانت الأسرة هي الوحدة الاقتصادية التي يقوم عليها زرع الأرض ورعى قطعان الضأن . وكانت مكانتها هذه مصدر قوتها ونفاذ كلمتها ، وسلطانها السياسي . وكان في الأسرة قسط من الشيوعية يخفف بعض الشيء من صرامة النظام الأبوي ، وهو الذي أوحى إلى الشعب بذكريات . كان الأنبياء يرجعون إليها وهم محزونون حين غلبت على البلاد النزعة الفردية .

وذلك أنه حين دخلت الصناعة مدن اليهود وجعلت الفرد هو الوحدة الاقتصادية في الإنتاج ، ضعف سلطان الأسرة كما ضعف في هذه الأيام ، واضمححل النظام الفطري الذي كانت تقوم عليه الحياة اليهودية .

ولم يكن « القضاة » ، وهم الذين كانت القبائل جمعاء تطيعهم في بعض الحالات ، موظفين عموميين ، بل كانوا زعماء عشائر أو رجال حرب — حتى إذا كانوا من الكهنة^(٢٤) . « ولم يكن في إسرائيل ملوك في تلك الأيام ، بل كان كل إنسان يفعل ما يراه هو حقاً »^(٢٥) . غير أن هذا النظام « الجفرسونى »^(*) غير المعقول — إن صح أنه كان قائماً بالفعل — قد انهار أمام مطالب الحرب الملحة ، وكان خطر سيطرة الفلسطينيين على اليهود عاملاً هاماً في جمع الأسباط كلهم في وحدة شاملة مؤقتة ، وحملهم على تعيين ملك ذي سلطان دائم عليهم . وقد حذرهم النبي صمويل من بعض الأضرار التي تنجم عن خضوعهم لحكم رجل واحد فقال :

وقال هذا يكون قضاء الملك الذي يحكم عليكم يأخذ بتيكم ويجعلهم لنفسه لمراكبه وفرسانه ، فيركضون أمام مراكبه ؛ ويجعل لنفسه رؤساء ألوف ورؤساء خماسين فيحرقون حرثته ويحصدون حصاده ويعملون عدة حربية وأدوات مراكبه ، ويأخذ بمنتجاتكم عطارات وطباخات وخبازات ، ويأخذ حقولكم وكرومكم وزيتكم أجودها ويعطيها لعبيده ، ويعشر زرعكم وكرومكم ويعطي لخصيانه وعبيده . ويأخذ عبيدكم وجواريتكم وشياتكم الحسان وحميركم ويستعملها لشغله ، ويعشر غنمكم وأنتم تكونون له عبيداً . فتصرخون في ذلك اليوم من وجه ملككم الذي اخترتموه لأنفسكم ، فلا يستجيب لكم الرب في ذلك اليوم . فأبى الشعب أن يسمعوا لصوت صمويل وقالوا لا بل يكون علينا ملك ، فنكون نحن

(*) أى الشبيه بالنظام الذي كان يدعو إليه تومس جفرسن رئيس جمهورية الولايات المتحدة ١٧٤٨ — ١٨٢٦ (المترجم) .

أيضاً مثل سائر الشعوب ويقضى لنا ملكنا ويحارب حروبنا^(٢٦) .
وعلمهم ملكهم الأول شاول الخير والشر بأعماله ؛ فخارب حروبهم بشجاعة ،
وعاش عيشة بسيطة من موارد مزرعته في جلعاد ، وأخذ يطارد الشاب داود
ليقتله ، وقُطِع رأسه في أثناء فراره من الفلسطينيين . وسرعان ما عرف اليهود من
بداية الأمر أن حروب الوراثة من مستلزمات الملكية . وإذا لم تكن ملحمة
شاول ويوناثان وداود الصغيرة قصة موضوعة من روائع الأدب^(*) (لأننا لا نجد
ذكراً لهذه الشخصيات في غير التوراة) فإن مليكهم الأول هذا قد خلفه ، بعد
فترة من الاضطرابات الدموية ، داود الشجاع قاتل جالوت ، وحبیب یوناثان
وكثير من الفتيات الذي يرقص بكل قوته وهو نصف عار^(٢٨) ، ويحمي الضرب
على القيثار ، ويغني أغانيه العجيبة بصوته الرخيم ، ملك اليهود القدير الذي سامهم
نحو أربعين عاماً . وقد استطاع الأدب في هذا العصر البعيد أن يرسم له صورة
كاملة ، صورة واقعية فيها كل ما في النفس الحية من عواطف وانفعالات
متعارضة : فهو قاس غليظ القلب كما كان الناس في وقته ، وكما كانت قبيلته ،
وكما كانت الصفات التي خلغها على إلهه ، ولكنه مع هذا كان مستعداً لأن
يعفو عن أعدائه كما كان يعفو عنهم قيصر والمسيح ، يقتل الأسرى جملة كانه
ملك من ملوك الآشوريين ، ويأمر ابنه سليمان أن « يحد بالدم إلى الهاوية »
شعبة شمي بن جيرا الذي لعنه منذ سنين كثيرة^(٢٩) ، يأخذ امرأة أوروية الحثي
بين نسائه في غير حياء ، ويرسل أوروية إلى الصف الأول في ميدان القتال
ليتخلص منه^(٣٠) ، ويقبل زجرناثان له في ذلة ، ولكنه مع ذلك يحتفظ يديشبع
الجميلة ، ويعفو عن صمويل مرات تكاد تبلغ أربعائة وتسعين ، ولا يسلبه
إلادرع حين كان في مقدوره أن يسلبه حياته ، وينجي مغيبوش^(**) ويعينه ،

(*) كقصص شمشون الظريقة الذي حرق حاصلات الفلسطينيين بأن أطلق عليهم ثلاثمائة
تعلب ربطت المشاعل في أذيالها ، والذي قتل ألف رجل بعظم من فك حمار^(٢٧)
(**) انظر صمويل الثاني ٤ : ٤

وهو الذى قد يكون من المطالبين فى العرش ، ويعفو عن ابنه العاق أبشالوم بعد أن قد قبض عليه فى ثورة مسلحة ، ويحزن أشد الحزن على موت ابنه هذا فى واقعة حربية حارب فيها جيوش أبيه : « يا ابنى أبشالوم ، يا ابنى أبشالوم ، يا ليتنى مت عوضاً عنك يا أبشالوم ابنى ، يا ابنى »^(٣١) . ذلك وصف رجل حقيقى لا رجل خيالى ، اكتملت فيه عناصر الرجولة المختلفة ، ينطوى على جميع بقايا الحمجية ، وعلى كل مقومات الحضارة .

ولما ورث سليمان العرش قتل جميع منافسيه فى الملك ليستريح من متاعبهم ، ولكن عمله هذا لم يغضب يهوه الذى أحب الملك الشاب فوهبه حكمة لم يهبها أحداً من قبله ولا من بعده^(٣٢) . ولعل سليمان خليق بما نال من شهرة ؛ ذلك أنه لم يكفه أن يستمتع فى حياته بكل نعيم ولذة وأن يقوم بجميع ما يفرضه عليه الملك من واجبات ، بل إنه علم شعبه فضل القانون والنظام^(*) ، وما زال بهم حتى أقنعهم بنبذ الشقاق والحرب والالتفات إلى الصناعة والسلم . وكان عهد سليمان عهد سلام بحق^(**) . ففى حكمه الطويل أفادت أورشليم ، التى اتخذها داود عاصمة له ، من هذا السلم الذى لم تألفه من قبل ، فزادت ثروتها وضاعفتها . وكانت المدينة⁽⁺⁾ قد أقيمت فى بادئ الأمر حول بئر ، ثم حولت إلى حصن لأنها كانت على ربوة فوق السهل . وأصبحت فى أيام سليمان من أنشط الأسواق التجارية فى الشرق الأدنى ، وإن لم تكن على الطرق التجارية الكبرى . وحافظ سليمان على ما أنشأه داود من صلات ودية مع حيرام ملك صور ، وشجع التجار الفينيقيين على أن يسيروا قوافلهم التجارية داخل أرض فلسطين ، وازدهرت فى أيامه تجارة رابحة قواحبها استبدال مصنوعات صور وصيدا بغلات إسرائيل الزراعية . وأنشأ أسطولاً تجارياً فى البحر

(*) « وتكلم بثلاثة آلاف مثل ، وكانت نشأته ألفاً وخمسة » (٣٣) .

(**) اسمه مشتق من شالوم ومعناه السلم .

(+) سميت فى الواح تل العمارنة باسم أورسامو أو أروسالم

الأحمر، وأغرى حيرام على أن يستخدم هذا الطريق الجديد بدل طريق مصر في تجارته مع بلاد العرب وإفريقية^(٣٤). والراجح أن جزيرة العرب هي التي استخرج سليمان منها الذهب وحجارة « أوفير » الكريمة^(٣٥)، ومن بلاد العرب جاءت إليه ملكة « سبأ » تخطب وده، ولعلها جاءت أيضاً لتطلب معونته^(٣٦). وكان « وزن الذهب الذي أتى سليمان في سنة واحدة ستمائة وستين وزنة ذهباً »^(٣٧) ومع أنه لا وجه للموازنة بين هذا القدر وبين موارد بابل أو نينوى أو صور فإنه جعل سليمان من أغنى ملوك زمانه^(*).

واستخدم بعض هذه الثروة في ملاذه الشخصية، وأخص ما استخدمها فيه إشباع شهوته في جمع السراري — وإن كان المؤرخون ينقصون « زوجاته السبعائة وسراريه الثمائة إلى ستين وثمانين على التوالي »^(٣٩). ولعله أراد ببعض هذه الزيجات أن يوطد صلاته بمصر وفينيقية، أو لعل الباعث له عليها هو نفس الباعث الذي حمل رمسيس الثاني على هذا العمل بعينه، وهو رغبته في أن يترك وراءه طائفة من الأبناء لهم من القوة الجنسية العظيمة ما كان له هو. على أن سليمان قد استخدم معظم موارده في تقوية دعائم حكومته وتجميل عاصمته. ومن أعماله فيها ترميم الحصن الذي أقيمت حوله. وقد أقام فيها كثيراً من الحصون، ووضع حاميات في المواضع ذات الأهمية العسكرية في مملكته، ليرهب بها الغازين والثائرين على السواء. وقسم بلاده إلى اثني عشر قسماً إدارياً، وتعهد أن تكون

(*) انظر ما قلناه قبل في ص ٢٠٤ لمعرفة قيمة الوزنة في الشرق الأدنى. على أن هذه القيمة كانت تختلف من وقت إلى آخر، ولسكننا لا نكون مغالين إذا قلنا إن الوزنة في أيام سليمان كانت لها قيمة شرائية تعادل قيمة ١٠٠٠٠ ريال أمريكي من نقود هذه الأيام. وأكبر الظن أن السكاتب العبري كان وهو يكتب هذا أديباً، لا مؤرخاً يتوخى الحقائق الدقيقة، ولذلك فإن من واجبنا ألا نأخذ أقواله على علاتها. وإذا شاء القارئ أن يعرف شيئاً عن تقلبات العملة اليهودية في تلك الأيام الحالية، فليقرأ « دائرة المعارف اليهودية » في موضوعات « المسكوكات » و« الشاقل ». ولا تظهر النقود الحقيقية — لا الخلفات، والسبائك الذهبية والفضية — في فلسطين إلا حوالي عام ٦٥٠ ق. م^(٣٨).

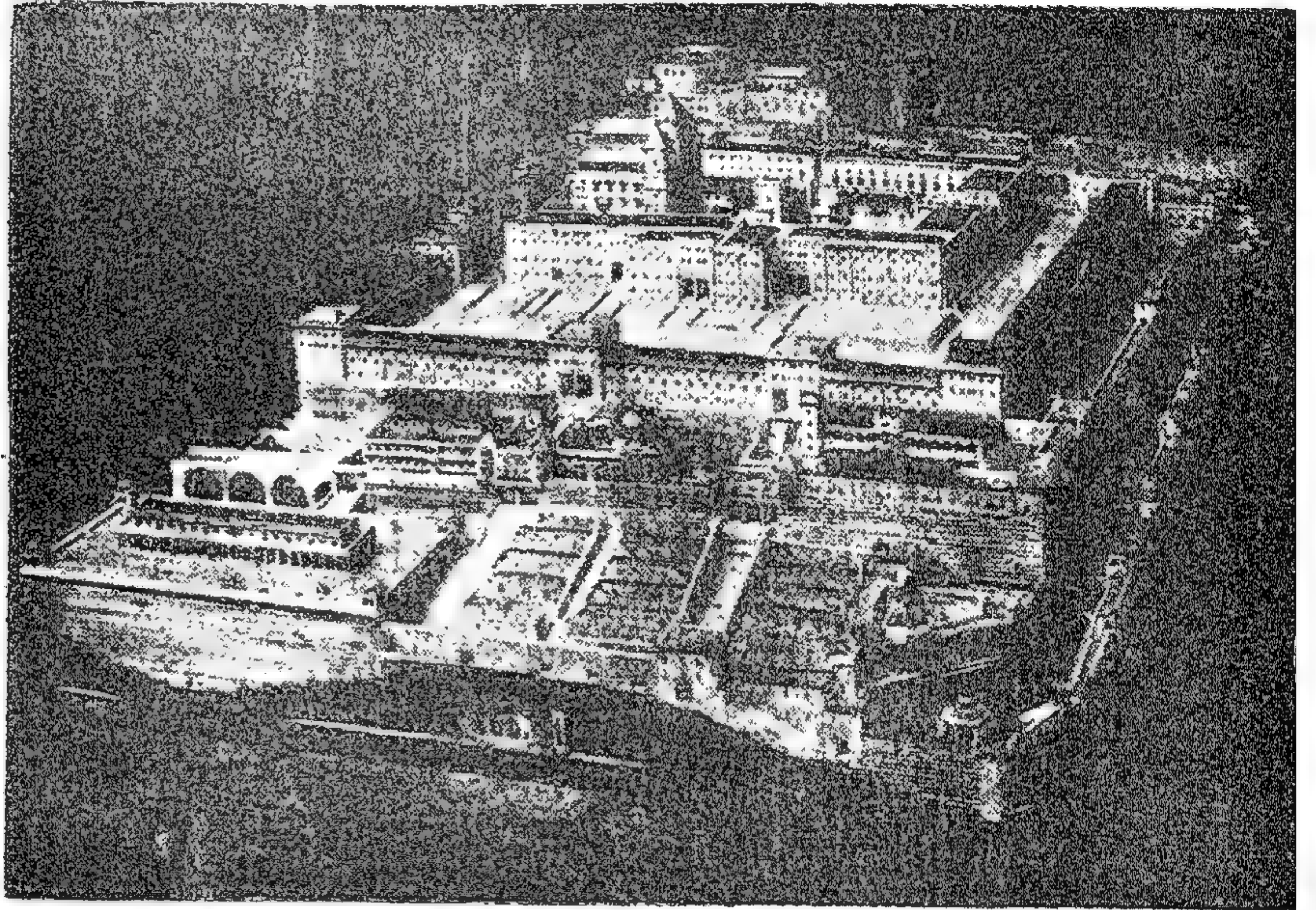
حدودها متفقة مع حدود منازل الأسباط الاثني عشر، وكان يرجو من وراء هذا أن يضعف النزعة الانفصالية بينهم، وأن يؤاف منهم شعباً واحداً. ولكنه أفلس في هذا وأفلست بلاد اليهود معه. ومن الوسائل التي استخدمها لتمويل حكومته إعداد البعثات لاستخراج المعادن الثمينة، ولاستيراد مواد الترف والسلع القيمة النادرة، ومن بينها «العاج والقردة والطواويس»^(٤٠) — وهذه كان يمكن بيعها للأثرياء المحدثين بأثمان غالية. وكان يفرض الإتاوات على جميع القوافل المارة بفلسطين. وقد فرض جزية الرؤوس على جميع رعاياه، وطالب كل قسم من أقسام دولته ما عدا قسمه الخاص بقدر من المال، وأعاد للدولة احتكارها القديم لتجارة الخيوط والخيل والمركبات^(٤١). ويؤكد لنا يوسفوس أن سليمان جعل الفضة في أورشليم كحجارة الشوارع في كثيرتها^(٤٢)، واعتزم أخيراً أن يزين المدينة بمعبد جديد ليهوه، وبقصر جديد له هو نفسه.

وفي وسعنا أن نستشف ما كان في الحياة اليهودية من اضطراب حين نذكر أن بلاد اليهود كلها حتى أورشليم نفسها لم يكن فيها قبل أيام سليمان هيكل كبير واحد على ما يظهر. وكان الأهليون يقربون القرابين ليهوه في هياكل محلية أو في هياكل ساذجة فوق التلال^(٤٣). ثم جمع سليمان ذوى الثراء من أهل المدن وأعلن إليهم عزمه على تشييد هيكل وخصه بكميات كبيرة من الذهب والفضة والشبة والحديد والخشب والحجارة الكريمة من مخازنه الخاصة، وأوحى إلى الناس في رفق أن الهيكل يرحب بتبرعات المواطنين. وإذا جاز لنا أن نصدق أقوال ناقل الرواية فإنهم تبرعوا له بخمسة آلاف وزنة من الذهب، وبضعفيها من الفضة، وبكل ما يحتاج إليه من الحديد والشبه. ومن وجد عنده حجارة أعطاها لخزينة بيت الرب^(٤٤). واختير لتشييده مكان فوق ديرة، وقامت جدران الهيكل كأنها امتداد للمنحدرات الصخرية^(*). وكان طرازه هو الطراز

(*) ليس بعيد أن يكون مكان الهيكل هو المكان الذي يشغله الآن الحرم الشريف =

الذى أخذه الفينيقيون عن مصر ، وأضافوا إليه ما أخذوه عن الآشوريين والبابليين من ضروب التزيين . ولم يكن هذا الهيكل كنيسة بالمعنى الصحيح ، بل كان سياجاً مربعاً يضم عدة أجنحة . ولم يكن بناؤه الرئيسى كبير الحجم — فقد كان طوله حوالى مائة وأربع وعشرين قدماً ، وعرضه حوالى خمس وخمسين ، وارتفاعه اثنتين وخمسين ، أى أنه كان فى نصف طول البارثنون^(٤٦) .

وكان العبرانيون الذين أقبلوا من جميع أنحاء البلاد اليهودية ليعملوا فى إقامة



شكل (٣٦) صورة مستعادة لهيكل سليمان

الهيكل ، ولما تعبدوا بعدئذ فيه -- كان هؤلاء العبرانيون يعتقدون أنه إحدى عجائب العالم . ومن حقهم علينا ألا نلومهم على هذا الاعتقاد ، لأنهم لم يروا هياكل طيبة وبابل ونيينوى التى لا يعد هيكلهم إلى جانبها شيئاً مذكوراً .

= فى المسجد الأقصى ، ولكن سائر أجزاء الهيكل لم يبق منها شيء على الإطلاق^(٤٥) .

وكان في صدر البناء الرئيسي « مدخل » كبير يبلغ ارتفاعه مائة وثمانين قدماً ، مرصع بالذهب . وكان الذهب فضلاً عن هذا يغشى كثيراً من أجزاء الهيكل — إذا جاز لنا أن نصدق المصدر الوحيد الذي نعتمد عليه في هذا الوصف — على سقف البناء الرئيسي ، والأعمدة ، والأبواب والجدران ، والثريبيات ، والمصابيح ، ومقصات الفتائل ، والملاعق ، والمباخر ؛ وكان فيه « مائة حوض من الذهب » . وكانت الحجارة الكريمة ترصع أجزاء متفرقة منه ، كما كان ملكان مغطيان بصفائح الذهب يحرسان تابوت العهد^(٤٧) . وشيدت الجدران من حجارة كبيرة مربعة ، أما السقف والأعمدة والأبواب فكانت من خشب الأرز والزيتون المنقوش . وجيء بمعظم مواد البناء من فينيقية ، وكان يقوم بمعظم الأعمال الفنية صناع من صيدا وصور^(٤٨) . أما الأعمال التي لا تحتاج إلى شيء من المهارة فقد حشد لها ١٥٠٠٠٠٠ عامل سخرُوا فيها تسخييراً بلا شفقة ولا رحمة ، كما كانت العادة المألوفة في تلك الأيام^(٤٩) .

« ومضت سبع سنين والعمل في تشييد البناء قائم على قدم وساق ، ليكون مقراً فخاً ليهوه مدى أربعة قرون . ثم واصل مهرة الصناع والفحلة الحمل ثلاثة عشر عاماً أخرى ليُشيدوا صرحاً أكبر من الهيكل يسكن فيه سليمان ونساؤه . وكان جناح واحد من أجنحته وهو — « بيت وعربان » — أربعة أضعاف مساحة الهيكل كله^(٥٠) . وكانت جدران البناء الرئيسي في القصر مقامة من كتل من الحجارة الضخمة طول الواحدة منها خمس عشرة قدماً ، وكانت تزينة التماثيل المنحوتة ، والنقوش المحفورة ، والصور المرسومة على الطراز الآشوري . وكان القصر يحتوى على أبهاء يستقبل فيها الملك كبار زائريه ، وعلى أجنحة للملك نفسه ، ومساكن المحظوظات من زوجاته ، ومستودع للسلاح كان هو العماد الأخير لحكومته . على أن هذا الصرح الضخم لم يبق منه حجر واحد ، بل إن موضعه نفسه لا يعرفه أحد على وجه التحقيق^(٥١) .

ولما فرغ سليمان من إقامة ملكه شرع يستمتع به ، وأخذت عنايته بالدين
نقل على مر الأيام ، كما أخذ يتردد على حريمه أكثر مما يتردد على الهيكل .
إشداً ما يلومه كتاب أسفار التوراة على شهامته إذ أقام مذابح للآلهة الخارجية
لتي كانت تعبدتها زوجاته الأجنبية ، ولا تطاوعهم أنفسهم على أن يصفحوا
منه لعدله الفلسفي — أولعله السياسي — بين مختلف الآلهة . وأعجب الشعب بحكمته ،
لكنه شعر بما في حكمه من مركزية شديدة . وكان بناء الهيكل والقصر
د كلف الناس كثيراً من الذهب والدماء ، ولم يكن جهم لهما أكثر من حب
مال مصر لأهرامها . هذا إلى أن الإنفاق على الهيكل والقصر كان يتطلب فرض
نرائب باهظة ، ولم نعهد قط أن حكومة من الحكومات استطاعت أن تجعل
لضرائب من الواجبات المحببة إلى الشعب . فلما مات سليمان كانت موارد إسرائيل
د نضبت ، ونشأت فيها طائفة من العمال الصعاليك لا يجدون عملاً دائماً يرتزقون
به ، فكان ما قاسوه من العذاب هو الذي حول دين يهوه الحربي إلى دين أنبيائهم
ذي لا يكاد يفترق عن الاشتراكية في كثير أو قليل .

الفصل الثالث

رب الجنود

تعدد الآلهة — يهوه — عقيدة الإله الأعظم — خصائص الدين — اليهودى
فكرة الخطيئة — القربان — الختان — الكهنوت — آلهة عجبية

كان بناء الهيكل أهم الحوادث الكبرى في ملحمة اليهود ، بعد نشر كتاب القانون ؛ ذلك أن هذا الهيكل لم يكن بيتاً ليهوه **فحسب** بل كان أيضاً مركزاً روحياً لليهود ، وعاصمة لملكهم ، ووسيلة لنقل تراثهم ، وذكراً لهم ، كأنه علم من نار يتراءى لهم طوال تجوالهم الطويل المدى على ظهر الأرض . ولقد كان له فوق ذلك شأن في رفع الدين اليهودى من دين يدائى متعدد الآلهة إلى عقيدة راسخة غير متسامحة ، ولكنها مع ذلك إحدى العقائد المبدعة في تاريخ البشر .

وكان اليهود في أول ظهورهم على مسرح التاريخ بدوا رحلاً يخافون شياطين الهواء ، ويعبدون الصخور والماشية والضأن وأرواح الكهوف والجبال^(٥٢) . ولم يتخلوا قط عن عبادة العجل والكبش والحمل ؛ ذلك أن موسى لم يستطع منع قطيعه من عبادة العجل الذهبى لأن عبادة العجل كانت لا تزال حية في ذاكرتهم منذ كانوا في مصر ، وظلوا زمناً طويلاً يتخذون هذا الحيوان القوى **آكل** كل العشب رمزاً لإلههم . وإنا لنقرأ في سفر الخروج (الأصحاح ٣٢ الآيات ٢٥ — ٢٨) كيف أخذ اليهود يرقصون وهم عمرة أمام العجل الذهبى ، وكيف أعدم موسى واللاويون ثلاثة آلاف منهم عقاباً لهم على عبادة هذا الوثن^(*) . وفي تاريخ اليهود

(*) ونجد آثاراً أخرى من عبادة الحيوان بين اليهود الأقدمين في سقمر الملوك الأول في الأصحاح الثانى عشر الآية الثامنة والعشرين ، وفي حزقيال ٨ : ١٠ ، وقد عبيد أهاب ملك إسرائيل الأبقار بعد سليمان بقرن واحد .

الباكر شواهد كثيرة تدل على أنهم عبدوا الأفعى : ومن هذه الشواهد صورة الأفعى التي وجدت في أقدم آثارهم^(٥٤) ، ومنها الأفعى النحاسية التي صنعها موسى والتي عبدها اليهود في الهيكل إلى أيام حزقيا (حوالي ٧٢٠ ق . م)^(٥٥) . وكانت الأفعى تبدو حيوانا مقدسا لليهود كما كانت تبدو لشعوب كثيرة عداها ، وذلك لأنها رمز للذكورة المخصصة من جهة ، ولأنها من جهة أخرى تمثل الحكمة والدهاء والخلود — فضلا عن أنها تستطيع أن تجعل طرفيها يلتقيان^(٥٦) .

وكان بعض اليهود يعظمون بعقل ، الذي كان يرمز إليه بحجارة مخروطية قائمة كثيرة الشبه بلنجا إله الهندوس ، وذلك لأنه في رأيهم الجوهر الذكر في التناسل ، وزوج الأرض الذي يخصبها^(٥٧) .

وكما أن آثار عبادة الآلهة الكثيرة البدائية قد بقيت في عبادة الملائكة والقديسين ، وفي الأصنام الصغيرة المتقلة التي كانوا يتخذونها آلهة لبيوتهم^(٥٨) ، كذلك ظلت المعتقدات السحرية التي كانت منتشرة في العبادات القديمة ، باقية عند اليهود إلى عهود متأخرة رغم احتجاج الأنبياء والكهنة . ويبدو أن الناس كانوا ينظرون إلى موسى وهرون على أنهما ساحران ، وأنهم كانوا يناصرون السحرة والعرافين . وكان استطلاع المستقبل يحدث أحيانا برمي النرد (أريم وتميم) من صندوق (إفود) — وهي طريقة لا تزال تستخدم لمعرفة ما يريده الآلهة . وما يذكر بالحمد لكهنة اليهود أنهم قاوموا هذه العادات ، ودعوا الناس ألا يعتمدوا إلا على قوة سحرية واحدة هي قوة القربان والصلوات والتبرعات .

وما لبثت فكرة اتخاذ يهوه إله اليهود القومي الأوحدا أن تبلورت وأكسبت الديانة اليهودية وحدة وبساطة كانتا سببا في انتشارها من فوضى الشرك التي كانت تسود أرض الجزيرة . ويبدو أن اليهود القاطنين عمدوا إلى أحد آلهة

كنعان (*) فضاغوه في الصورة التي كانوا هم عليها ، وجعلوا منه إلها ، صارماً ، ذا نزعة حربية ، صعب المراس ، ثم جعلوا لهذه الصفات حدوداً تكاد تبعث الحب في القلوب . ذلك أن هذا الإله لا يطالب الناس بأن يمتدوا أنه عالم بكل شيء ؛ وشاهد ذلك أنه يطلب إلى اليهود أن يميزوا بيوتهم بأن يرشوها بدماء الكباش المضحاة لئلا يهلك أبناءهم على غير علم منه مع من يهلكهم من أبناء المصريين (٦١) . كذلك لا يرى أنه معصوم من الخطأ ، ويرى أن أشنع ما وقع فيه من الأخطاء هو خلق الإنسان ؛ ولذلك تراه يندم بعد فوات الفرصة على خلق آدم وعلى ارتضائه أن يكون شاول ملكاً . وتراه من حين إلى حين شرهاً ، غضوباً ، متعطشاً للدماء ، متقلب الأطوار ، نزقاً نكداً : « أترأف على من أترأف ، وأرحم من أرحم » (٦٢) . وهو يرضى عما استخدمه يعقوب من ختل وخداع في الانتقام من لابان (٦٣) ؛ وضميره لا يقل مرونة عن ضمير الأسقف الذي يندفع في تيار السياسة . وهو كثير الكلام ، يحب إلقاء الخطب الطوال ؛ وهو حي لا يسمح للناس أن يروا منه إلا ظهره (٦٤) . وقصارى القول أنه لم يكن للأمم القديمة إله آدمى في كل شيء كإله اليهود هذا .

ويلوح أنه كان في بداية الأمر إلها للرعدي يسكن الجبال (٦٥) ، ويعبده الناس للسبب الذي كان جوركي الشاب يؤمن من أجله بالله إذا أرعدت السماء . وحوّل كاتبو أسفار موسى الخمسة ، وهم الذين كانوا يتخذون الدين أداة للسياسة ، إله الرعد هذا إلى إله للحرب ، فأصبح يهوه في أيديهم القوية إلها للجيش يدعو للفتح والاستعمار ، يحارب من أجل شعبه بنفس القوة التي كان يحارب بها آلهة الإيالة . وفي ذلك يقول موسى : « الرب رجل حرب » (٦٦) . ويردّد داود صدى هذا القول نفسه فيقول : « الذي يعلم يدي القتال » (٦٧) . ويعدّ يهوه أن

(*) من بين الآثار التي وجدت في كنعان (عام ١٩٣١) قطع من الخزف من بقايا عصر البرنز (٣٠٠٠ ق . م) عليها اسم إله كنعاني يسمى ياه أو ياهو (٦٠) .

« يزعج جميع الشعوب الذين تأتي عليهم ، وأعطيك جميع أعدائك مدبرين » ،
 « يطرد الحويين والكنعانيين والحثيين » يطردهم : « قليلا ، قليلا »^(٦٨) .
 ويقول إن الأرض التي فتحها اليهود ملك له وحده^(٦٩) . وهو لا يقطع معهم ولا
 مع أعدائهم عهداً سخيلاً ؛ ويعرف أن الأرض ، حتى الأرض الموعودة نفسها ،
 لا تنال إلا بحمد السيف ولا يحتفظ بها إلا بالسيف ؛ وهو إله حرب لأنه لا بد
 أن يكون إله حرب ؛ وتمر عدة قرون من الهزائم العسكرية والخضوع السياسي ،
 والتطور الأخلاقي ، حتى يستحيل هذا الإله إلى والد همل وإلى المسيح . وهو
 فخور معجب بنفسه كالجندي ؛ يتقبل الثناء ويشتهيه ، ويحرص على أن يتباهى
 بقدرته على إغراق المصريين في البحر : « فيعرف المصريون أنني أنا الرب حين
 أنمجد بفرعون ومركباته وفرسانه »^(٧٠) . وهو يرتكب في سبيل انتصار شعبه من
 ضروب الوحشية ما تشمئز منه نفوسنا شمئزاً لا يعادله إلا رضاء أخلاق ذلك
 العصر عنها ، ويأمر شعبه بأن يرتكبوا هم هذه الوحشية ؛ فهو يذبح أمما بأكملها
 راضياً مسروراً من عمله رضاء جلفر Gulliver وهو يقاتل من أجل للبيت Lilliput
 ولما بدأ اليهود يزنون مع بنات موآب قال لموسى : « خذ جميع رؤوس
 الشعب وعلقهم للرب مقابل الشمس »^(٧١) ، وتلك هي أخلاق أشور بانيبال
 وأشور . وهو يعرض رحمته على الذين يحبونه ويتبعون أوامره ، ولكنه يفعل
 ما تفعله جرائم الأوبئة الفتاكة : « أنا الرب إلهك إله غيور أفتقد ذنوب الآباء
 في الأبناء في الجيل الثالث والرابع من مبغضى »^(٧٢) ؛ وهو إله جبار يفكر في
 إهلاك اليهود على بكرة أبيهم لأنهم عبدوا العجل الذهبي^(*) ؛ ويضطر موسى إلى
 أن يراجعهم حتى يتملك عواطفه . فيقول الرجل لربه : « ارجع عن حمو غضبك
 واندم على الشر بشعبك » ، « فندم الرب على الشر الذي قال إنه يفعله

(*) نكرر هنا ما قلناه من قبل وهو أننا ننقل أقوال المؤلف كما هي وأن ذلك لا يدل

على أننا نؤمن بها (المترجم)

بشعبه» (*) (٧٣). ثم يريد يهوه أن يفنى اليهود أصلاً وفرعاً لأنهم عصوا موسى ولكن موسى يستثير فيه عواطفه الطيبة ، ويأمره أن يفكر فيما يقوله الناس عنه إذا سمعوا بفعلته (٧٤) ، وهو يختبر قومه اختباراً قاسياً فيطلب إلى إبراهيم تضحية يالها من تضحية . ويعلم إبراهيم يهوه ، كما يعلمه موسى ، مبادئ الأخلاق السامية وينصحه ألا يهلك سدوم وعموره ، إذا وُجد فيهما من الرجال خسون ، أو أربعون ، أو ثلاثون ، أو عشرون ، أو عشرة صالحون (٧٥) . ولا يزال يغري إلهه بالرحمة ، ويشرح له كيف يضطر الإنسان إلى أن يعيد تصوير أربابه ليتفق مع تطورات أخلاقه . وإن اللعنات التي يهدد بها يهوه شعبه المختار إذا ما عصاه لجديرة بأن تكون نماذج في القدح والسب ، ولعلها هي التي أوحى إلى الذين حرقوا الكفرة في محاكم التفتيش الأسبانية أو حكموا على اسبنوزا بالحرمان أن يفعلوا ما فعلوا :

« ملعوناً تكون في المدينة وملكاً تكون في الحقل ... ملعونة تكون ثمرة بطنك وثمرات أرضك ... ملعوناً تكون في دخولك وملكاً تكون في خروجك ، يرسل الرب عليك اللعن والاضطراب والزجر في كل ما تمتد إليه يدك لتعمله حتى تهلك وتفنى سريعاً من أجل سوء أفعالك إذ تركتني ؛ يلصق بك الرب الوباء حتى يببذك عن الأرض التي أنت داخل إليها لكي تملكها . يضربك الرب بالسل والحمى والبرداء والالتهاب والجفاف واللفح والذبول فتتبعك حتى تفنيك ... الخ يضربك الرب بقرحة مصر وبالبواسير والجرب والحكة حتى لا تستطيع الشفاء ، يضربك الرب بجنون وعشى وحيرة قلب ... أيضاً كل مرض وكل ضربة لم تكتب في سفر الناموس هذا يسلطه الرب عليك حتى تهلك (٧٦) » .

ولم يكن يهوه الإله الوحيد الذي يعترف اليهود بوجوده ، أو يعترف هو نفسه بوجوده ؛ وشاهد ذلك أن كل ما يطلبه في الوصية الأولى من الوصايا العشر

(*) هكذا تصور التوراة إله إسرائيل .

هو أن يكون مقامه فوق مقام سائر الأرباب : وهو يقر بأنه « إله غيور » ،
ويأمر أتباعه بهدم مذابحهم ، وتكسير أنصابهم^(٧٧) وإبادتهم . ولما كان اليهود
قبل إشعيا يفكرون في أن يهوه إله الأسباط جميعاً ، أوحى إله العبرانيين جميعاً ،
فقد كان للموآبيين إلههم شمس ، وكان نعوى يظن أن لا ضير من أن يظل
راعوث على ولائه له^(٧٨) . وكان بلزبوب إله عكرون ، وملكوم إله عمون :
ذلك أن النزعة الانفصالية التي كانت تتملك نفوس أولئك القوم من الناحيتين
الاقتصادية والسياسية قد أدت بطبيعة الحال إلى ما تستطيع أن تسميه استقلالاً
دينياً . ويقول موسى في أغنيته الشهيرة : « من مثلك بين الآلهة يارب^(٧٩) »
ويقول سليمان ! « إلهنا أعظم من جميع الآلهة » .

ولم يكن جميع اليهود ، اللهم إلا أعظمهم علماً ، يعدون تموز إلهاً حقاً فحسب ،
بل إن عبادته فضلاً عن هذا كانت في وقت من الأوقات منتشرة في بلاد اليهود
حتى لقد شكوا حزقيال من أن البكاء حزناً على تموز كان يسمع في الهيكل^(٨١) .
لقد كان ما بين اليهود من فوارق وما كان لهم من استقلال كافيين لأن تبقى
لطوائفهم آلهتهم الخاصة حتى في زمن إرميا : « على عدد مدنك صارت آلهتك
يا يهوذا » ، ثم يظهر النبي الحزين غضبه على بني وطنه لأنهم يعبدون بعلا
ومولك^(٨٢) . فلما أن نشأت الوحدة السياسية في أيام داود وسليمان ، وتركزت
العبادة في الهيكل بأورشليم ، أخذ الدين يردد أصداء التاريخ والسياسة ، وأمسى
يهوه إله اليهود الأوحده . ولم يخط اليهود نحو التوحيد خطوة غير هذه الخطوة ،
وهي أن لليهود إلهاً واحداً يعلو على آلهة غيرهم من البشر ، حتى كان زمن
الأنبياء^(*) . على أن الديانة العبرانية حتى في هذه المرحلة اليهودية كانت أقرب

(*) لقد جهر الإشع في القرن التاسع قبل الميلاد بوجود إله واحد : « هوذا قد عرفت
أنه ليس إله في كل الأرض إلا في إسرائيل^(٨٣) » . وجدير بنا أن نذكر أن التوحيد حتى في
يومنا هذا إنما هو توحيد نسبي ناقص ، فكما كان اليهود يعبدون إلهاً قليلاً ، فإننا نحن أيضاً =

إلى التوحيد من كل دين آخر قبل عصر الأنبياء إذا استثنينا عبادة الشمس القصيرة الأجل في عهد إخناتون . لقد كانت اليهودية تسمو كثيراً على غيرها من أديان ذلك الوقت في عظمتها وسلطانها ، وفي وحدتها الفلسفية ، وفيها تنطوى عليه من حماسة أخلاقية ومن أثر في نفوس أهلها ؛ وكانت تضارع في عواطفها وشعريتها شرك البابليين واليونان إن لم تفقه من هاتين الناحيتين .

وهذا الدين القاسى المكتئب لم يتخذ له شيئاً من الطقوس المنمقة والاحتفالات المرحية التي كانت شائعة في عبادة الآلهة المصرية والبابلية . وكان يغشى التفكير اليهودى بأجمعه شعور بضالة شأن الإنسان أمام رب قادر يسيره طوع أمره . وبقيت عبادة يهوه قرونًا كثيرة ديناً قوامه الخوف لا الحب ، والرغبة لا الرغبة ، رغم ما بذله سليمان من جهود لكي يجمل باللون والنغم عبادة هذا الإله الرهيب . ولسنا ندرى ، إذا رجعنا بذاكرتنا إلى هذا الدين وأمثاله ، هل عادت هذه الأديان على الإنسانية بالسلوى بقدر ما عادت عليها بالفزع . إن الأديان التي تبعث في النفوس الأمل والحب لا تكون إلا متعة من متع الأمن والنظام ، ولم يكن الأمن والنظام من الصفات التي سادت طويلاً بلاد اليهود . أما الحاجة إلى قذف الرعب في قلوب الشعب ، أو التأثيرين من الأجانب الخاضعين لسلطانه ، فقد جعلت معظم الأديان البدائية عبادات قوامها الخفاء والرعب .

ولقد كان تابوت العهد المحتوى على ملفات السنن والذي لم يكن يسمح لأحد بأن يمسه ، كان هذا التابوت رمزاً لطبيعة العقائد اليهودية . ولما مد عزة الصالح يديه إلى التابوت لينعه أن يسقط على الأرض وأمسكه لحظة قصيرة « حمى غضب الرب على عزة وضربه الرب هناك لأجل أنه مد يده إلى التابوت فمات هناك أمام الله » (٨٤)

= نعبد إلهاً أورياً — أو إلهاً إنجليزياً أو ألمانيا أو إيطاليا . ولا تمر بنا لحظة واحدة نتواضع فيها قليلاً فنذكر أن الملايين الذين يسكنون الهند والصين واليابان — بله سكان الغابات المتفهمين في دينهم — لا يعترفون بدين آبائنا نحن . ولن يكون للعالم كله إله واحد حتى تربط الآلات الأرض وتؤلف بينها ، وتجعلها وحدة اقتصادية ، وتجمع الأمم كلها في حكومة واحدة .

وكانت الخطيئة هي الفكرة الأساسية في الدين اليهودي . ولم ير العالم شعبا آخر أوقع بالفضيلة ولع اليهود — إلا إذا استثنينا طائفة المتطهرين الذين يخيل إلينا أنهم خرجوا من بين أسفار العهد القديم دون أن تمسهم الكثرة الطويلة العهد بسوء . ولما كانت الطبيعة البشرية ضعيفة و « السنن » معقدة صعبة فلم يكن ثمة مفر من الوقوع في الخطيئة ، وكثيرا ما كانت الروح اليهودية تتلبد بالنيوم لما ينجم عن الخطيئة من سيئ العواقب ، بحبس المطر أو تدمير إسرائيل بقضها وقضيضها . ولم يكن في هذا الدين جحيم يخصص لعقاب المذنبين ، ولكن شيول أو « أرض الظلام » التي تحت الأرض لم تكن تقل هولا عن هذا الجحيم . وكان يلقي فيها الموتى جميعهم الطيب منهم والخبث ، لا يستثنى منهم إلا المقربون إلى الله كموسى وإنوك وإيليا . على أن اليهود قلما كانوا يشيرون إلى حياة أخرى بعد الموت ، ولم يرد في دينهم شيء عن الخلود ؛ وكان ثوابهم وعقابهم مقصورين على الحياة الدنيا . ولم تدر فكرة البعث في خلد اليهود إلا بعد أن فقدوا الرجاء في أن يكون لهم سلطان في هذه الأرض ، ولعلمهم أخذوا هذه الفكرة عن الفرس ، أو لعلمهم أخذوا شيئا منها عن المصريين . ومن هذه الخاتمة الروحية ولدت المسيحية .

وكان يمكن اتقاء الخطيئة ونتائجها بالصلاة والتضحية . وبدأت التضحية عند الساميين كما بدأت عند « الآريين » بالضحايا البشرية^(٨٥) ثم حل الحيوان محل الإنسان فصار يضحي « بأولى ثمرات القطعان » وبأكورة الطعام الذي تنتجه الحقول ؛ ثم انتهى الأمر أخيرا بالاكتفاء بالتسبيح والثناء على الله . وكان الاعتقاد السائد في أول الأمر ألا يؤكل لحم حيوان إلا إذا ذبحه كاهن وباركه ، وعُرض وقتا ما على الإله^(٨٦) . وكانت عملية الختان نفسها من أعمال التضحية ، ولربما كانت فدية لتضحية أخرى أشد منها قسوة يكتفى فيها الإله بأخذ جزء

من كل . وكان الحيض والولادة ، كالخطيئة ، يندسان المرأة ، ويتطلبان تطهيراً
ذا مراسم وتقاليد ، وتضحية وصلاة ، على يد الكهنة . وكانت المحرمات تحيط
بالمؤمنين من كل جهاتهم ، كما كانت الخطيئة كامنة في كل شهوة من الشهوات ،
وكان لا بد من المحبات للتكفير عن هذه الخطايا ، ولما كانت هناك خطيئة لا يمكن
التكفير عنها بهذه الوسيلة .

ولم يكن أحد غير الكهنة يستطيع أن يقرب القرابين بالطريقة الصحيحة
أو يفسر الطقوس أو الأسرار الدينية تفسيراً آمناً من الخطأ . وكان هؤلاء طبقة
مغلقة لا يستطيع أحد أن ينتمى إليها إلا أبناء ليفي^(*) . ولم يكن من حقهم أن
يرثوا مالا^(٨٧) ، ولكنهم كانوا معفين من الضرائب وفرضة الرؤوس وسائر
الإنذابات على اختلاف أنواعها^(٨٨) . وكانوا يأخذون العشور على نتاج الضأن ،
وينتفعون بما يبقى في الهيكل من القرابين التي لم تستنفدها الآلهة^(٨٩) . ونمت
ثروة الكهنة بعد نفي اليهود بنمو المجتمع اليهودي الجديد ؛ وإذا كانت هذه
الثروة المقدسة قد أحسن القيام عليها ، فقد جعلت كهنة الهيكل الثاني في دمشق ،
كما كان أمثالهم في طيبة وبابل ، أقوى من الملوك أنفسهم .

على أن نمو سلطان الكهنة وانتشار التربية الدينية لم يكفيا لتحرير عقول
العبرانيين من الخرافات والأوهام ومن عبادة الأوثان ؛ بل ظلت قلة القلال ،
والحراج مأوى للآلهة الأجنبية ومشهداً للطقوس الخفية ، وظلت أقلية كبيرة من
الشعب تسجد للحجارة المقدسة ، أو تعبد بعل وعشتروت ، أو تقنياً بالغيب على
الطريقة البابلية ، أو تقيم الأنصاب وتحرق لها البخور ، أو تركع أمام الحية
النحاسية أو العجل الذهبي ، أو تملأ الهيكل بضجيج الحفلات الوثنية^(٩٠) ،
أو ترغم أطفالها على أن « يجوزوا في النار » من قبيل التضحية^(٩١) ؛ بل إن بعض
الملوك أنفسهم مثل سليمان وأهاب كانوا « يتملقون » الآلهة الأجانب . وقام

(*) أحد أبناء يعقوب .

رجال صالحون كإيليا وإليشع ينادون بإبطال هذه العادات ، وإن لم يصبحوا بعد كهنة ، وحاولوا أن يهدوا الناس إلى طريق الحق باستقامتهم وحثهم على الاقتداء بهم . ونشأ من هذه الأحوال والبدايات ، ومن انتشار الفاقة واستغلال الأهلين في إسرائيل ، عظماء الرجال في الديانة اليهودية ؛ نشأت طائفة الأنبياء المتحمسين ، الذين طهروا الدين اليهودي ، ورفعوا مقامه ، وهياؤه للعلبة على أديان العالم الغربي .

الفصل الرابع

المتطرفون الأولون

حرب الطبقات — أصل الأنبياء — عاموس وأورشليم — إشعيا —
تنديده بالأغنياء — عقيدة المسيح المنقذ — أثر الأنبياء

لما كان الفقر ينشأ من الغنى ، ولما كان الفقراء لا يعرفون أنهم فقراء إلا حين يبصرون الأغنياء بعيونهم ، فإن حرب الطبقات لم يندلع لهيبها في إسرائيل إلا بعد أن رأى الناس بأعينهم ثروة سليمان الطائلة .
لقد تعجل سليمان ، كما تعجل بطرس الأكبر ولينين ، حينما أراد أن يحوّل البلاد من دولة زراعية إلى أخرى صناعية . وقد تطلبت هذه المشروعات الضخمة كثيراً من الكدح ، وفرضت على الشعب أبهظ الضرائب ؛ ولما أن تمت بعد عشرين عاماً من العمل المتواصل ، وُجدت في أورشليم طبقة من العمال المتعطلين كانوا من عوامل الشقاق السياسى والفساد الاجتماعى في فلسطين ، كما كان أمثالهم في رومة فيما بعد . وكانت الأحياء القذرة تزداد شيئاً فشيئاً كلما تمت ثروة الأفراد وزاد ترف الحاشية ، وأصبح استغلال الشعب والربا عادة مألوفة بين أصحاب الضياع الكبرى والتجار والمرايين الذين أحاطوا بالهيكل حتى قال عاموس إن الملاك « باعوا البار بالفضة والبائس لأجل نعلين »^(٩٣) .

وكانت الثغرة الآخذة في الاتساع بين ذوى الحاجة وذوى اليسار ، وكان النزاع الشديد بين المدن والريف وهو النزاع الذى يصحب على الدوام قيام المدن الصناعية ، من العوامل التى أدت إلى انقسام فلسطين بعد موت سليمان إلى مملكتين متعاديتين مملكة إفرائم^(*) الشمالية وعاصمتها السامرة ، ومملكة يهوذا

(*) كثيراً ما كان أهل هذه المملكة يسمونها مملكة « إسرائيل » ، ولكننا في هذا الكتاب سنطلق هذا اللفظ الأخير على اليهود جميعهم لا على هذه المملكة وحدها .

الجنوبية وعاصمتها اورشليم . وأخذ الضعف من ذلك الحين يدب بين اليهود لما سرى في قلوبهم من أحقاد ، وما قام بينهم من نزاع كانت تشتعل بينهم بسببه نيران الحرب العوان . ولم يمض على موت سليمان إلا زمن قليل حتى استولى شيشنق ملك مصر على اورشليم ، وحتى سلمت له كل ما جمعه سليمان من ذهب بالضرائب التي فرضها على الشعب في أثناء حكمه الطويل .

وكان هذا الجو المشحون بموامل التفكك السياسى ، والحرب الاقتصادية ، والانحلال الدينى ، هو الذى ظهر فيه الأنبياء . ولم يكن أولئك الذين أطلق عليهم هذا اللفظ العبرى (نبي) أول الأمر من طبقة عاموس وإشعيا الجديرة باحترامنا ؛ بل كان بعضهم من المتنبيين الذين يستطيعون قراءة قلوب الناس وماضيهم ويخبرونهم بمستقبلهم حسبما يتقاضون منهم من أجور . ومنهم متعصبون متهوسون يستثيرون مشاعرهم بالأصوات الموسيقية الغريبة ، أو المشروبات القوية ، أو الرقص الشبيه برقص الدراويش ، وينطقون في أثناء غيوبتهم بعبارات يراها أصحابهم وحياً أوحى إليهم : أى بثتها فيهم روح غير روحهم^(٩٤) . وقد سخر إرميا سخرية لاذعة من « كل رجل مجنون ومتبنى »^(٩٥) . وكان منهم من هو ناسك نكد كاييليا ؛ ومنهم كثيرون يعيشون في مدارس أو أديرة مجاورة للهيكل ، ولكن معظمهم كانت لهم أملاك خاصة وزوجات^(٩٦) . ومن هذا الحشد الكبير من الناساك خرج أنبياء بنى إسرائيل وأصبحوا على مر الزمن نقدة لعصرهم وشعبهم ثابتين على تقدمهم ، عارفين بالتبعة الملقاة عليهم ؛ وسياسيين ممقازين يسوسون بلادهم في الخفاء « أشد الناس معارضة للكهنة »^(٩٧) و « ألد هم عداة للسامية »^(٩٨) وكانوا مزيجاً من العرافين والاشتراكيين . ونحطى أشد الخطأ إذا عدناهم أنبياء بالمعنى المألوف لهذا اللفظ ؛ لقد كانت نبوءاتهم ، إن صح أن نسميها نبوءات ، مزيجاً من الوعد والوعيد ، أو عبارات دالة على التيقن والصلاح ، يحشرونها في

أقوالهم حشراً^(٩٩) ، أو إشارات إلى حوادث بعد وقوعها^(١٠٠) . ولم يكن الأنبياء أنفسهم يدعون أنهم يعلمون من الغيب ما يستطيعون أن ينطقوا به ؛ بل كانوا أشبه الناس بالمعارضين البلغاء في إحدى الحكومات الدستورية الحديثة . وكانوا من بعض نواحيهم تلسطويين^(*) ، تأثيرين على الاستغلال الصناعي والخداع الكهنوتي ؛ خرجوا من أحضان الريف الساذج يصبون اللعنات على ثراء الحواضر الفاسدة .

وقد قال عاموس عن نفسه إنه لم يكن نبيا وإنما كان راعيا ريفيا ساذجا . فلما أن ترك قطيعه ليشهد بيت إل ، هاله ما شاهده فيه من تعقد الحياة تعقدا غير طبيعي ، ومن الفروق الواسعة بين الثروات ، ومن منافسة مريرة قاتلة ، وقسوة في استغلال الناس . فلما رأى هذا « وقف بالبواب » وأخذ يصب غضبه على ذوى الثراء المنغمسين في الترف الذين لا يراعون في الناس عهدا ولا ذمة .

« من أجل أنكم تدوسون المسكين ، وتأخذون منه هدية قمح ، بنيتم بيوتنا من حجارة منحوتة ولا تسكنون فيها ، وغرستم كروما شهية ولا تشربون خمرها ... ويل للمستريحين في صهيون ، ... أنتم ... المضطجعون على أسرة من العاج والمتمددون على فرشهم والآكلون خرافا من الغنم ، وعجولا من وسط الصيرة ، المهاذرون مع صوت الرباب ، المخترعون لأنفسهم آلات الغناء كداود ، الشاربون من كؤوس الخمر ، والذين يدّهنون بأفضل الأدهان ... »

« كرهت أعيادكم ... إنى إذا قدمتم لى محرقاتكم وتقدماتكم لا أرتضى ... أبعد عني ضجة أغانيك ونعمة ربابك لا أسمع ، وليجر الحق كالسيار ، والبر كنهر دائم^(١٠١) . »

تلك نعمة جديدة في آداب العالم . نعم إن عاموس يشلم حد مثاليته ، بما يُنطق به إلهه من وعيد كالتيار الجارف لا يستطيع القارى لكثرة شدته أن يحاجز نفسه

(*) أى أشبه بتولستوى الفيلسوف الروسى . (المترجم)

عن العطف في بعض اللحظات على شاربى الخمر ومستمعى الموسيقى . ولكننا هنا نرى الضمير الاجتماعى لأول مرة في آداب آسية يتخذ صورة محددة واضحة ويفيض على الدين بما يرفعه من دين حفلات وملق إلى دعوة للنبل وحث على مكارم الأخلاق ، وما من شك في أن إنجيل المسيح يبدأ في الحقيقة بظهور عاموس (*) .

ويبدو أن نبوءة من أشد نبوآته إيلاما تحققت وهو لا يزال حيا : « هكذا قال الرب . كما ينزع الراعى من فم الأسد كراعين أو قطعة أذن ، هكذا ينزع بنو إسرائيل الجالسون في السامرة في زاوية السرير وعلى دمقس الفراش ... فتبديد بيوت العاج وتضمحل البيوت العظيمة » (١٠٢) . (**) وقام نبى آخر حوالى ذلك الوقت نفسه يهدد السامرة بالخراب في عبارة من تلك العبارات الواضحة المأثورة التى صاغها المترجمون في عهد الملك جيمس من كنوز التوراة ليرردها الناس في حديثهم كل يوم . قال هوشع : « إن عجل السامرة يصير كسراء ، إنهم يزرعون الرياح ويحصدون الزوبعة » (١٠٤) . وفي عام ٧٣٣ هددت إفرائيم وحليفاتها سوريا ، مملكة يهوذا الناشئة ، فاستغاثت هذه بأشور . فأغاثتها واستولت على دمشق ، وأخضعت سوريا وصور وفلسطين وأرغمتها على دفع الجزية ، وعرفت ما يبذله اليهود من جهود للحصول على معونة مصر ، فغزت البلاد مرة أخرى واستولت على السامرة ، ودخلت في مفاوضات سياسية مع ملك يهوذا (١٠٥) ، وعجزت عن الاستيلاء على أورشليم ، ثم عادت جيوشها إلى نينوى مثقلة بالغنائم ومعها ٢٠٠.٠٠٠ من أسرى اليهود ليكونوا عبيداً للأشوريين (١٠٦) .

(*) يجدر بالقارى أن يرجع إلى كتاب « فجر الضمير » لبرستد ليوازن بين ما فيه وبين ما ورد في هذه الأقوال فإن برستد يرجع بداية هذه الدعوة إلى المصريين الأقدمين . (المترجم) (***) واضح أنه يشير هنا إلى الهجرة التى بنيت كلها من العاج في قصر السامرة الذى كان يقيم فيه الملك أهاب مع ملكته إيزابل (حوالى ٨٧٥ — ٨٥٠ ق . م) ، وقد عثرت بعثة مكتبة هارفرد في خرائب قصر يقال إنه قصر أهاب على عدد من قطع العاج (١٠٣) .

وفي أثناء حصار أورشليم أصبح النبي إشعيا من أعظم شخصيات التاريخ العبري (*). وكان إشعيا أوسع أفقاً من عاموس ، ولذلك كانت آراء أولهما أبقى أثراً في السياسة من آراء الثاني . ولم يكن يشك في أن يهوذا الصغيرة لا تستطيع الوقوف في وجه أشور الجبارة ذات السلطان الواسع ولو أعانتها مصر البعيدة — تلك القصبية المرضوضة التي تدمى يد من يحاول أن يمسكها ليدفع بها عن نفسه — فأخذ يتوسل إلى الملك أهاز ثم إلى الملك حزقيا أن يظلا على الحياد في الحرب القائمة بين أشور وأفرايم . ذلك أنه لم يكن يشك — كما لم يكن عاموس وهوشع يشكان — في أن السامرة^(١٠٨) لا بد ساقطة ، وأن المملكة الشمالية مقبلة على آخر أيامها . فلما أن حاصر الآشوريون أورشليم أشار إشعيا على حزقيا ألا يسلم المدينة . وبدأ أن انسحاب جيوش سنحريب المفاجي مبرر قوى لهذه النصيحة . ومن أجل ذلك علا شأنه زمنًا ما لدى الملك والشعب على السواء . وكان ينصح على الدوام بأن يعامل الناس بالعدل ، وأن يترك أمرهم بعد ذلك إلى يهوه ، فيستخدم أشور أداة له يؤدبهم بها ، ولكنه سيهلكها هي نفسها في آخر الأمر . وكان من أقواله أن يهوه سيقضى على جميع الأمم المعروفة له ، وهو يقول في بعض فصول سفره (من الأصحاح السادس عشر إلى الثالث والعشرين) إن موآب وسوريا وإثيوبيا ومصر سيكون مصيرها الدمار و « كلها يولول »^(١٠٩) . وهذا الدعاء بالخراب وهذه اللعنات المتكررة تفسد ما في سفر إشعيا من جمال ، كما تفسد كل ما في التوراة كلها من نبوءات ، ولولاها لكانت من أجمل ما كتب في الأدب .

على أن تشهيره هذا إنما ينصب على ما يجب أن ينصب عليه — على الاستغلال الاقتصادي والشراسة ، فهو إذا تحدث عنهما سما في حديثه إلى أرقى

(*) يتكون الكتاب الذي يحمل اسمه من مجموعة من « التنبؤات » (أى المواعظ) كتبها مؤلفان أو أكثر من مؤلفين عاشا في الفترة المحصورة بين ٧١٠ ، ٣٠٠ ق . م (١٠٧) وتغزى الفصول من ١ إلى ٣٩ عادة إلى « إشعيا الأول » الذي نتحدث عنه في هذه الصفحات .

ما وصل إليه الأدب في أسفار العهد القديم ، في فقرات تعد من أروع ما كتب من النثر في أدب العالم كله :

« الرب يدخل في المحاكمة مع شيوخ شعبه ورؤسائهم ، وأنتم قد أكلتم الكرم . سلب البائس في بيوتكم . ما لكم تسحقون شعبي وتطحنون وجوه البائسين ؟ ... ويل للذين يصلون بيتاً بيتاً ، ويقرنون حقلاً بحقل حتى لم يبق موضع ، فصرتم تسكنون وحدكم في وسط الأرض ! ... ويل للذين يقضون أفضية البطل ، وللكتبة الذين يسجلون زوراً ليصدوا الضعفاء عن الحكم ، ويسلبوا حق بائس شعبي لتكون الأرامل غنيمتهم ، وينهبوا الأيتام . وماذا تفعلون في يوم العقاب حين تأتي التهلكة من بعيد ؟ إلى من تهربون للمعونة ؟ وأين تتركون مجدكم ؟ » (١١٠).

وهو يزدري أشد الازدراء من يتظاهرون في العالم بالتقوى وهم يبتزون أموال الفقراء :

« لماذا لي كثرة ذبائحكم ؟ يقول الرب اتخمت من محرقات كباش وشحم مسمنات ... رؤوس شهوركم وأعيادكم بغضتها نفسي . صارت عليّ ثقلاً . ملئت حملها . فحين تبسطون أيديكم أستر عيني عنكم ، وإن كثرت الصلاة لا أسمع . أيديكم ملآنة دماً . اغتسلوا تنقوا . أعزلوا شر أفعالكم من أمام عيني ، كفوا عن فعل الشر . تعلموا فعل الخير . اطلبوا الحق . أنصفوا المظلوم . اقضوا لليتم . حاموا عن الأرملة » (١١١).

وهو ممتلئ القلب حقداً ، ولكنه غير يائس من شعبه ؛ وكما أن عاموس قد ختم مواعظه بنبوذة ، يحاول اليهود الآن تحقيقها وهي عودتهم إلى بلادهم (١١٢) ، كذلك يختتم إشعيا مواعظه بترديد أمل اليهود في ظهور من يقضي على ما بينهم من انقسام سياسي ، وخضوع للأجنبي ، وما هم فيه من بؤس وشقاء ، ومن يعيد إلى الأرض الإخاء والسلام :

« ها ! العذراء تحبل وتلد ابناً وتدعو اسمه عمانوئيل ... لأنه يولد لنا ولد ونعطى ابناً ، وتكون الرياسة على كتفه ، ويدعى اسمه عجيباً مشيراً ، إلهاً قديراً ، أباً أبدياً ، رئيس السلام ... ويخرج قضيب من جذع يسي ... ويحل عليه روح للرب ، روح الحكمة والفهم ، روح المشورة والقوة ، روح المعرفة وخفاة الرب ... يقضى بالعدل للمساكين ، ويحكم بالإنصاف لبائسي الأرض ، ويضرب الأرض بقضيب فيه ، ويميت المنافق بنفخة شفّتيه ، ويكون البر منطقة مثنييه ، والأمانة منطقة حقويه ، ويسكن الذئب مع الخروف ، ويربض النمر مع الجدى ، والعجل والشبل والمسنن معاً ، وصبي صغير يسوقها ... فيطبعون سيوفهم سككاً ، ورماحهم مناجل ، لا ترفع أمة على أمة سيفاً ، ولا يتعلمون الحرب فيما بعد » (١١٣)

ذلك إلهام جد عجيب ؛ ولكنه إلهام لن يعبر عن مزاج اليهود حتى تمر بهم أجيال كثيرة . وكان كهنة الهيكل ينصتون بعطف مكظوم إلى هذه الدعوة النافعة التي تحت الناس على التقى والصلاح ؛ وكانت شيع من اليهود تتطلع إلى هؤلاء الأنبياء تتلقى عنهم هذه الدعوة الملهمة ؛ ولعل هذه الأقوال التي تدعوم إلى نبذ الشهوات الجسمية كان لها بعض الأثر في تقوية ما أوجدته الصحراء في اليهود من نزعة إلى التزمت في الدين . غير أن حياة القصور والخيام ، والأسواق والحقول ، ظلت في أغلب الأحيان تجري على سننها القديم ؛ فكانت الحرب تقضى على من تصطفي من كل جيل ، وظل الاسترقاق مصير الغريب ، وظل التاجر يطفف السكيل ويغش في الميزان ، ثم يحاول التكفير عن ذنبه بالتضحية والصلاة (١١٤) .

وترك الأنبياء أعمق آثارهم في يهودية ما بعد النفي ، ثم في العالم كله عن طريق اليهودية والمسيحية . وفي أسفار عاموس وإشعيا نرى بداية المسيحية والاشتراكية والمعين الذي فاضت منه الدعوات إلى إقامة عالم مطهر من الشرور لا يطوف به طائف الفقر أو الحرب فيكدر ما فيه من أخوة وسلام .

وهذه الأسفار هي منشأ العقيدة اليهودية الأولى التي تقول بمجيء مسيح

يقبض على زمام الحكم ، ويميد إلى اليهود سلطانهم الديوى ، ويجعل الصعاليك المملقين الحاكمين بأمرهم فى العالم كله . وكان إشعيا وعاموس هما اللذان بدأ فى عصر الحروب يمجدان فضائل البساطة والرحمة والتعاون بين الناس والإخاء ، وهى الفضائل التى جعلها عيسى أساساً جوهرى لدينه . وكانا أول من اضطع بذلك العبء الثقيل عبء تحويل رب الجنود إلى إله حب ، وهما اللذان جنداً يهوه واستعاناه على نشر المبادئ الإنسانية ، كما جنّد المسيح متطرفو الاشتراكيين فى القرن التاسع عشر لىستعيناه على نشر المبادئ الاشتراكية . وهما اللذان بشا فى عقول الألمان — بعد أن طبعت التوراة فى أوربا — الإيمان بمسيحية جديدة وأوقدا شعلة الإصلاح الدينى ، وكانت فضائلهم القوية غير المتساحمة هى التى أخرجت طائفة المتطهرين المسيحيين . وكانت فلسفتهم الأخلاقية تقوم على نظرية أجدر من غيرها بالتسجيل — وهى أن الطيب سوف يوفق وينجح ، وأن الخبيث سوف يصرع ؛ وقد تكون هذه نظرية مخادعة ، ولكن مافيهما من خداع — إن كان فيها خداع — هو خداع العقل النبيل . ولئن كان هؤلاء الأنبياء لا يتصورون الحرية أو يفكرون فيها ، فإنهم كانوا يحبون العدالة ويدعون إلى القضاء على ما كان يضعه الأسباط من قيود على الأخلاق الطيبة . ولقد أقاموا أمام البائسين فى العالم أملاً فى التآخى كان ترائفاً غالباً ، ظلوا يتوارثونه على مدى الأجيال .

الفصل الخامس

موت أورشليم وبعثها

مولد التوراة — تدمير أورشليم — الأسر البابلي — إرميا —
حزقيال — إشعيا الثاني — تحرير اليهود — الهيكل الثاني .

كان أهم أثر للأنبياء في معاصريهم هو كتابة التوراة . وكان سبب كتابتها أن الشعب شرع يتردد عن عبادة يهوه إلى عبادة الآلهة الأجنبية ، فأخذ الكهنة يتساءلون ألم يأن لهم أن يقفوا وقفة قوية يمنعون بها تدهور العقيدة القومية . ورأوا الأنبياء يعززون إلى يهوه ما يجيش في صدورهم من عواطف يؤمنون بها ويعتقدونها ، فاعتزموا أن يبلغوا الناس رسالة من الله نفسه في صورة سنن إلهية تبعث النشاط والقوة في حياة الأمة الخلقية ، ويضمنون بها معونة الأنبياء ، وذلك بما تتضمنه من آرائهم القليلة التطرف . وسرعان ما ضموا إلى جانبهم الملك يوشيا . فلما كانت السنة الثامنة عشرة أو نحوها من حكمه أبلغ الكاهن حلقيا الملك أنه « وجد » في سجلات الهيكل ملفاً عجيباً قضى فيه موسى نفسه في جميع المشكلات التاريخية والخلقية التي كانت مثار الجدل العنيف بين الأنبياء والكهنة . وكان لهذا الكشف أثر عظيم في نفوس القوم ، ندعا يوشيا كبارهم إلى الهيكل وتلا عليهم فيه « سفر الشريعة » في حضرة آلاف من الشعب (حسبما تقول الرواية) ، ثم أقسم ليطيعن من ذلك الوقت ما جاء في هذا السفر « وأوقف كل الموجودين في أورشليم وبنيامين فعمل سكان أورشليم حسب عهد الله » (١١٥) .

ولسنا نعلم علم اليقين ماذا كان « سفر الشريعة » هذا . فقد يكون سفر الخروج من الأصحاح العشرين إلى الثالث والعشرين ، وقد يكون سفر تثنية (١١٦) . وليس ثمة ما يضطرنا إلى أن نفترض أنه قد وضع في تلك

الساعة ؛ فكل ما فيه أنه يقن ويسجل أوامر ومطالب ونصائح نطق بها خلال عدة قرون أنبياء بنى إسرائيل وكهنة المعبد . ومهما يكن مصدرها فإن الذين استمعوا لها وهي تقرأ عليهم ، أو سمعوا بها ولم يكونوا حاضرين وقت قراءتها ، قد تأثروا بها أشد التأثير . واغتنم الملك يوشيا هذه الفرصة السانحة فاستعان هذه العواطف الجياشة على تحطيم مذابح الآلهة المنافسين ليهوه في يهوذا . وأخرج « من هيكل الرب جميع الأنية المصنوعة للبعل » ، « ولاشي كهنة الأصنام . . . » والذين يوقدون للبعل ، للشمس والقمر والمنازل ولكل أجناد السماء » و « نجس توفة . . . لكيلا يُعَبَّرَ أحد ابنه أو ابنته في النار لمولك . وحطم المذابح التي بناها سليمان لكموش ، وللملكوم ، وامشتورت » (١١٧) .

ويبدو أن هذه الإصلاحات لم ترض يهوه فتحمله على أن يقدم المعونة لشعبه . نعم إن نينوى قد سقطت كما قال الأنبياء ، ولكن سقوطها لم يكن له من أثر إلا أن ترك يهوذا خاضعة لحكم مصر أولا ثم لحكم بابل فيما بعد . ولما أن حاول نخاو ملك مصر أن يمر بفلسطين في زحفه على سوريا وقف يوشيا في وجهه عند مجدو حيث كانت الواقعة القديمة الشهيرة ظناً منه أن إلهه سيعينه على خصمه ، ولكنه هُزم وقتل . وبعد بضع سنين من ذلك الوقت انتصر نبوخذ نصر على نخاو في قرقيش واستولى على يهوذا وجعلها ولاية تابعة لبابل . وحاول خلفاء يوشيا بالوسائل الدبلوماسية السرية أن يلقوا عن كاهلهم نير بابل ، وأرادوا أن يستعينوا في سعيهم هذا بمصر . ولكن نبوخذ نصر علم بالأمر ، فزحف بجيوشه على فلسطين ، واستولى على اورشليم ، وأسر الملك يهوياقيم ، ورفع صدقيا على عرش يهوذا ، ثم عاد إلى بلاده ومعه عشرة آلاف أسير من اليهود . ولكن صدقيا كان أيضاً محباً للحرية أو للسلطان فخرج على بابل ، فعاد إليه نبوخذ نصر معتزماً أن يحل المشكلة اليهودية حلاً نهائياً كما يظن ، فاستولى مرة أخرى على اورشليم وحرقها عن آخرها وهدم هيكل سليمان وقتل أبناء صدقيا أمام عينيه ،

ثم سمل عينيه هو نفسه وأسر جميع سكان المدينة تقريباً وساقهم أمامه إلى بابل^(١١٨).
وقد خلد أحد شعراء اليهود فيما بعد ذكرى هذه القافلة البائسة في أغنية من أروع
أغاني العالم قال :

على أنهار بابل جلسنا وبكىنا على ذكرى صهيون
وفي وسط الصفصاف علقنا أعوادنا

لأن من سبونا طلبوا إلينا أن نغنيهم ، والذين عذبونا
أرادوا أن نطربهم ، ونادونا هلا أنشدتمونا أحد أناشيد صهيون ؟

وهل نستطيع أن نشد نشيد الله في بلد غريب ؟
ولئن نسيك يا أورشليم فلتنس يميني حذقها
وليلتصق لساني بسقف حلقى إن لم أذكرك يا أورشليم
وإن لم تكوني لدى خيرا من أفراحي^(١١٩)

وفي هذه الأزمة كلها ظل إرميا أفصح الأنبياء وأشدهم حقدا على قومه
يدافع عن بابل ويعلن في الملأ أنها سوط عذاب في يد الله ، ويتهم حكام يهوذا
بأنهم بلهاء معاندون وينصحهم بأن يسلموا أسرهم كله إلى نبوخذ نصر ؛ حتى
ليكاد من يقرأ أقواله في تلك الأيام أن يظن أنه من صنائع بابل المأجورين . انظر
إلى قول إرميا على لسان ربه :

« إني أنا صنعت الأرض والإنسان والحيوان الذي على وجه الأرض بقوتي
العظيمة وبذراعي الممدودة وأعطيته لمن حسن في عيني ، والآن قد وقعت كل
هذه الأراضي بيد نبوخذ نصر ملك بابل عبيدي . . . فتخدمه كل الشعوب . . .
ويكون أن الأمة أو المملكة التي لا تخدم نبوخذ نصر ملك بابل ، والتي
لا تجعل عنقها تحت نير ملك بابل إني أعاقب تلك الأمة بالسيف والجوع
والوباء — يقول الرب — حتى أفنيها بيده^(١٢٠) » .

قد يكون هذا الرجل خائفاً أولاً يكون ، أما من الناحية الأدبية فإن كتاب
نبوءاته التي يقال إنه تلقاها عنه تلميذه باروخ ليعد من أبلغ ما كتب في

الآداب كلها ومن أعظمها قوة ؛ وذلك لما فيه من تصوير حي واضح وتأنيب شديد لا رحمة فيه ولا هوادة . وفيه فوق ذلك إخلاص يبدأ بسؤال الرجل نفسه ثم يختتم بارتياح شريف في خطته وفي حياته كلها من بدايتها إلى نهايتها : « ويل لي يا أمي لأنك ولدتي إنسان خصام وإنسان نزاع لكل الأرض ، لم أقرض ولا أقرضوني ، وكل واحد يلعنني ... ملعون اليوم الذي ولدته فيه » (١٢١) واشتعلت في صدره نيران الغضب حين رأى ما عليه قومه وزعمائهم من انحطاط في الأخلاق وحق في السياسة . ورأى فرضا عليه أن يدعو بني إسرائيل إلى التوبة والندم . وخيل إلى إرميا أن كل ما يشهده من انحلال قومي ، وضعف سياسي ، وخضوع للأجنبي ، قد أنزله يهوه باليهود عقابا لهم على ما ارتكبوا من الذنوب . « طوفوا في شوارع أورشليم ، وانظروا ، وأعرفوا ، وفتشوا في ساحاتها ، هل تجدون إنسانا ، أو يوجد عامل بالعدل طالب الحق فأصفح عنها » (١٢٢) . لقد ساد الظلم في كل مكان وعم الفسق والفجور : « ولما أشبعتم زنوا ، وفي بيت زانية تزاخوا ، صاروا حصنا ملعونة سائبة ، صهلوا كل واحد على امرأة صاحبه » (١٢٣) . ولما حاصر البابليون أورشليم أراد سرقة المدينة أن يسترضوا يهوه فأطلقوا من كان عندهم من عبيد عبرانيين ، فلما أن رفع الحصار فترة قصيرة من الوقت ، وخيل إليهم أن الخطر قد زال ، قبض هؤلاء السراة على عبيدهم السابقين وأرغموهم على عبوديتهم القديمة . لقد كانت هذه فترة جمعت من تاريخ الإنسانية ما لم يستطع إرميا أن يقف أمامه صامتا ساكنا لا يبدي حراكا (١٢٤) ، فأخذ كغيره من الأنبياء يتوعد المنافقين الذين يجيئون إلى الهيكل متظاهرين بالتقى والصلاح يحملون بعض ما جمعوا من كدح الفقراء وطحن عظامهم ، ويدكرهم بأن الله لا يطلب إلى الناس أن يقربوا له القرابين بل يطلب إليهم أن يكونوا منصفين عادلين (١٢٥) . وهو يرى أن الكهنة والأنبياء لا يكادون يقولون فسادا عن التجار ؛ وأنهم كالشعب نفسه في حاجة إلى أن تطهر أخلاقهم أو تصاغ من

جديد ، وأن يختتنوا في أرواحهم كما يختتنون في أجسامهم كما يقول إرميا بعبارته العجيبة : « اختتنوا للرب وأنزعوا غُرل قلوبكم ^(١٢٦) » .

وكان هذا النبي يخطب قومه منددا بما كان منتشرا بينهم من فساد بألفاظ من نار لا يعادلها في شدتها إلا خطب القديسين في جنيفا واسكتلندة وإنجلترا في عهد الإصلاح الديني . فكان يسب اليهود أقذع سباب ويصور لهم وهو جذلان ما سيحل بمن لا يستمعون إليه من هلاك ^(١٢٧) . وكم من مرة تنبأ لهم بتخريب أورشليم وسبيهم على يد البابليين ، ورثى لما سيحقيق بالمدينة (التي يسميها بنت صهيون) من قضاء محتوم بعبارات ما أشبهها بعبارات المسيح : « يا ليت رأسي ماء وعيني ينبوع دموع ، فأبكي ليلا ونهارا قتلى بنت شعبي ^(١٢٨) »

وخيل إلى الأمراء في حاشية صدقيا أن هذا كله غدر بالوطن وخيانة له وتفريق لآراء اليهود وأرواحهم في ساعة الخنة . ولكن إرميا لم يعبا بأقوالهم وأخذ يسخر منهم فحمل نيرا خشبيا فوق عنقه ، وأخذ يقول إن يهوذا كلها يجب أن تخضع لنير البابليين ، وإن من الخير لها أن يكون خضوعها هذا خضوعا سلميا بلا حرب ولا قتال . ولما انتزع منه ضائيا نيره صاح قائلا إن يهوذا سيصب لكل يهودي نيرا من حديد . وحاول الكهنة أن يثنوه عن عمله هذا بوضع رأسه في الدهق ، ولكنه وهو في هذا الوضع ظل يشهر بهم ، فما كان منهم إلا أن استدعوه إلى الهيكل وأرادوا أن يقتلوه ، غير أنه استطاع أن يفلت منهم بمعونة صديق له بين الكهنة . ثم قبض عليه الأمراء وربطوه في حبال وأنزلوه بها في بئر مملوءة بالوحل ، ولكن صدقيا خفف هذا العقاب بأن سجنه في فناء القصر وفيه وجده البابليون حين سقطت أورشليم في أيديهم . وأمر نبوخذ نصر رجاله أن يحسنوا معاملته ، وأن يغفوه من قرار النفي العام . وتقول إحدى الروايات الموثوق بها إنه كتب « مراثيه » في آخر أيامه ^(١٢٨) ! وهذه المراثي هي أبلغ أسفار العهد القديم بأجمعها

وفيهما أخذ يندب نصره الكامل وما حل بأورشليم من دمار، ورفع إلى السماء ذلك السؤال الذى سألَهُ أيوب ولم يجد له جواباً :

« كيف جلست وحدها المدينة الكثيرة الشعب ! كيف صارت كأرملة العظيمة فى الأمم ! السيدة فى البلدان صارت تحت الجزية ! ... أما إليكم يا جميع عابري الطريق ، تطلعوا وانظروا إن كان حزن مثل حزنى ... أنت يارب أبرّ من أن أخاصمك ، لكن أكلك من جهة أحكامك . لماذا تنجح طريق الأشرار ؟ اطمأن كل الغادرين غداً » (١٢٩) .

وفى هذه الأثناء كان خطيب آخر فى بابل يحتمل عن إرميا عبء التنبؤ ، وهذا الخطيب هو حزقيال . وكان حزقيال هذا رجلاً من أسرة من الكهنة سبقت إلى بابل فى أيام السبي الأول من أورشليم . وبدأ خطبه كما بدأها إشعيا الأول وإرميا مندداً أشد التنديد بما شاع فى أورشليم من وثنية فى الدين وانحلال فى الأخلاق . وشبهه أورشليم بالزانية ، وأخذ يُبدى فى ذلك ويُعيد ، لأنها باعت عبادتها للآلهة الغرباء (١٣٠) ؛ وشبه السامرة وأورشليم بزانيتين توأمين . وكانت هذه الكلمة تجرى على لسانه كما كانت تجرى على ألسنة الكتّاب المسرحيين أيام عودة آل استيورت إلى عرش إنجلترا . ووضع ثبناً طويلاً بذنوب أورشليم ثم قضى عليها بالتخريب والسقوط فى أيدي الأعداء . وفعل ما فعله إشعيا ، فأدان الأمم كلها من غير تمييز بينها وشهر بخطأ موآب وصور ومصر وأشور وأندرها بالهلاك والسقوط . وحتى أمة ماجوج العجيبة لم تنج من هذا التشهير (١٣١) . ولكنه لم يكن فى قلبه من الحقد عليها ما كان فى قلب إرميا ، فقد رق قلبه لها فى آخر الأمر وأعلن أن الله سينجى « بقية » من اليهود ، وتنبأ بأن المدينة ستبعث حية (١٣٢) . وأخذ يصف ما يراه بعين الخيال من بناء المعبد الجديد فيها ، وتصوّر قيام مدينة فاضلة للكهنة فيها الكلمة العليا والمقام الأعظم ، يقيم فيها يهو مع شعبه أبد الدهر .

وكان يرجو أن يُبقى بهذه الخاتمة السعيدة على نفسية بنى وطنه المنفيين
و يؤخر اندماجهم فى الثقافة البابلية وفى الدم البابلى . فقد خيل إليه كما يخيل إلى
غيره فى هذه الأيام أن هذا الاندماج سيقضى على وحدة اليهود وعلى كياناتهم أيضاً ؛
ذلك أنهم قد أثروا وحسنت حالهم فى أرض الجزيرة الغنية ، حيث كانوا يتمتعون
بقسط موفور من الحرية فى عاداتهم وفى عبادتهم ؛ وسرعان ما زاد عديدهم ونمت
ثروتهم ، وأيسروا فيما عاد به عليهم خضوعهم من هدوء ووافق لم يتعودوها من
قبل . وأخذت طائفة منهم مطردة الزيادة تعبد الآلهة البابلية ، وتآلف الأساليب
الشهوانية الشائعة فى العاصمة القديمة ، حتى إذا كان الجيل الثانى من أبناء المنفيين
كانت ذكرى أورشليم قد محيت أو كادت تمحى من أذهانهم .

وقد رأى المؤلف الجاهل ، الذى أخذ على عاتقه أن يكمل سفر إشعيا ، أن
يعيد ذلك الجيل المرتد إلى دين إسرائيل . وكان مما يمتاز به هذا المؤلف وهو يعمل
على إعادتهم إلى دينهم القديم أن يرقى بهذا الدين إلى مستوى رفيع لم يرق إليه
دين من الأديان التى ظهرت فى الشرق الأدنى حتى ذلك الوقت* ؛ فبينما كان بوذا
فى الهند ينادى بقمع الشهوات ، وبينما كان كنفوشيوس فى الصين يصوغ
الحكمة لشعبه ، كان «إشعيا الثانى» هذا يعلن لليهود المنفيين فى نثر جزل مشرق
مبادئ التوحيد ، ويعرض عليهم إلهاً جديداً شقيقاً عليهم رحماً بهم ، يفوق فى
شفقته ورحمته ما كان عليه يهوه الغضوب كما صورده إشعيا الأول نفسه . وشرع
هذا النبي العظيم يعلن فى الناس رسالته بعبارات اختارها أحد الأناجيل المتأخرة
ليستحث بها المسيح الشاب على أن يؤدى هو الآخر رسالته . ولم تكن هذه

(*) ولسنا نعرف شيئاً من تاريخ هذا الكاتب الذى اختار أن يتحدث على لسان
إشعيا ، وهى طريقة أدبية كانت شائعة فى ذلك الوقت . وكل ما نستطيع أن نمحّره من أمره
أنه كتب قبيل تحرير اليهود على يد قورش أو بعيد هذا التحرير . ويمزج دارسو التوراة إلى
هذا الكاتب الأصحاحات من ٤٩ إلى ٥٥ كما يعزّون إلى كاتب آخر مجهول أو كتاب مجهولين
الأصحاحات من ٥٦ إلى ٦٦ (١٣٢) .

الرسالة الجديدة هي صب اللعنات على الشعب لما ارتكب من الذنوب ، بل كانت تهدف إلى بث الأمل في قلوبهم أيام استعبادهم . « روح السيد الرب على لأن الرب مسحني لأبشر المساكين ، أرسلني لأعصب مكسوري القلب ، لأنادي بالمسبيين بالعتق والمأسورين بالإطلاق^(١٣٣) » ؛ فقد وجد هذا الكاتب أن يهوه ليس إله حرب وانتقام بل أبا محبا ؛ وملاء هذا الكشف الجديد سعادة ، وأوحى إليه أناشيد فخمة . فأخذ يبشر بالإله الجديد منقذ شعبه .

« صوت صارخ في البرية أعدوا طريق الرب ، قوموا في القفر سبيلا لإلهنا ، كل وطاء يرتفع ، وكل جبل وأكمة ينخفض ، ويصير المعوج مستقيما ، والعراقيب سهلا^(*) ، ... هوذا الرب بقوة يأتي ، وذراعه تحكم له ... كراع يرعى قطيعه ، بذراعه يجمع الحملان ، وفي حضنه يحملها ، ويقود المرضعات » .

ثم يبشر هذا النبي بالمسيح المنقذ ويرفع من شأن هذه البشرية حتى تصير من الآراء السائدة بين شعبه ، ويصف « الخادم » الذي سينجى إسرائيل بالتضحية الألفية :

« محقر ومخذول من الناس ، رجل أوجاع ومختبر الحزن ... محقر فلم نعتد به . لسكن أحزاننا حملها ، وأوجاعنا تحملها ، ونحن حسبناه مصابا مضروبا من الله ومذلولا . وهو مجروح لأجل معاصينا ، مسحوق لأجل آثامنا ، تأديب سلامنا عليه ويجبره شفيئا ... والرب وضع عليه إثم جميعنا^{(**)(١٣٤)} » .

ويتنبأ إشعيا الثاني بأن بلاد الفرس ستكون أداة هذا التحرير . وينادي بأن قورش رجل لا يقهر وأنه سيفتح بابل وينقذ اليهود من الأسر فيعودون إلى أورشليم ويشيدون هيكلًا جديدًا ومدينة جديدة تكون جنة بحق . « الذئب والحمل يرعيان معا ، والأسد يأكل التين كالبقرة ، أما الحية فالتراب طعامها ،

(*) لعله يشير بهذا القول إلى الطريق الممتد من بابل إلى أورشليم .

(**) لا ترى البحوث الحديثة أن لفظ « الخادم » هنا نبوءة بالمسيح^(١٣٤) .

لا يؤذون ولا يُهـايـكون ، في كل جبل قدسى يقول الرب (١٣٥) « . ولعل الذى أوحى إلى هذا النـبى فكرة وجود إله واحد للكون كله هونـهضة الفرس وانتشار قوتهم ، وإخضاعهم دول الشرق الأدنى كلها ، وجمعها فى وحدة إمبراطورية أوسع رقعة وأحسن حكما من أى نظام اجتماعى عرفه الناس من قبل . وهذا الإله لا يقول كما كان يقول يهوه :

« أنا الرب إلهك ... لن تكون لك آلهة غريبة أمامى » بل يقول الآن :
« أنا الرب وليس آخر لا إله سواى » (١٣٥) ، ويصف النـبى الشاعر هذا الإله العالمى فى فقرة من أروع فقرات التوراة :

« من كال بكفه المياه ، وقاس السموات بالشبر ، وكال بالكيل تراب الأرض ، ووزن الجبال بالقيبان ، والآكام بالميزان ... هوذا الأمم كنقطة من دلو وكغبار الميزان ... هوذا الجزائر يرفعها كدقة ... كل الأمم كلا شىء قدامه من العدم والباطل تحسب عنده . فبمن تشبهون الله ؟ وأى شبه تعادلون به ؟ ... الجالس على كرة الأرض وسكانها كالجنـدب ، الذى ينشر السموات كسرادق ويبسطها كخيمة للسكن ... ارفعوا إلى العلاء عيونكم ، وانظروا من خلق هذه » (١٣٧) .

وكانت ساعة من أروع الساعات فى تاريخ إسرائيل حين دخل قورش بابل فاتحاً عالميا بعد طول انتظار ، وأباح لليهود أن يعودوا إلى أورشليم بكامل حريتهم . ولكنه خيب رجاء بعض الأنبياء وأظهر ما كان فى طباعه من حضارة أرقى من حضارتهم ، إذ ترك بابل وشأنها ولم يمس أهلها بسوء ، وأظهر خضوعه لآلهتها وإن كان فى الواقع خضوعاً مشكوكاً فيه . كذلك أعاد قورش لليهود ما كان باقياً فى خزائن الدولة البابلية من الذهب والفضة اللذين اغتصبهما نبوخذ نصر من الهيكل ، وأمر الجماعات التى كان اليهود المنفيون يعيشون بينها أن تعينهم بالمال الذى يحتاجونه فى أثناء رحلتهم الطويلة إلى وطنهم . ولم يتحمس شباب اليهود

لهذا التحرير لأن الكثيرين منهم قد تأقلموا في التربة البابلية وامتدت أصولهم فيها ، فترددوا طويلاً في ترك حقوقهم الخصبية وتجارتهم الرائجة ليعودوا إلى القفار الخربة في المدينة المقدسة . ومرت سنتان بعد مجيء قورش قبل أن تبدأ الفصيلة الأولى من اليهود المتحمسين رحلاتها الطويلة التي دامت ثلاثة شهور إلى الأرض التي خرج منها آباؤها قبل ذلك الوقت بمائة عام^(١٣٨) .

ولم يجد هؤلاء العائدون ترحيباً كبيراً في وطنهم القديم ، كما لا يجد العائدون إليه في هذه الأيام . ذلك أن أقواماً آخرين من الساميين قد استقروا في تلك البلاد ، وتملكوا الأرض بحق احتلالها والعمل فيها ، وأخذت هذه القبائل تنظر بعين المقت إلى أولئك الذين خالوهم مغيرين على بلادهم وحقوقهم ، ولولا تلك الدولة القوية الصديقة التي كانت تحمي اليهود العائدين لما استطاعوا أن يستقروا في فلسطين . وأذن دارا الأول ملك الفرس الأمير زراً بابل أن يعيد بناء الهيكل ، واستطاع هو وشيعته أن يتموا بناءه بعد اثنتي عشرة سنة من عودة اليهود ، رغم قلة عدد أولئك المهاجرين وضآلة مواردهم ، ورغم ما كانوا يصادفونه من عقبات في كل خطوة يخطونها بسبب هجمات الأهليين المعادين لهم وتأمرهم عليهم ، وعادت أورشليم كما كانت مدينة يهودية شيئاً فشيئاً ، وترددت في الهيكل أصدااء الأناشيد التي كانت تغنى بها بقية منهم آلت على نفسها أن تعيد اليهودية إلى سابق قوتها . وكانت عودتهم هذه نصراً عظيماً لا يفوقه إلا ذلك النصر الذي شهدناه في هذه الأيام^(*) .

(*) لعله يقصد « بالنصر الذي شهدناه في هذه الأيام » عودة اليهود إلى فلسطين وقيام دولة إسرائيل المزعومة (المترجم)

الفصل السادس

أهل الكتاب

سفر الشريعة — تأليف الأسفار الخمسة — أساطير « التكوين » — الشريعة
الموسوية — الوصايا العشر — فكرة الله — السبت — الأسرة اليهودية
قيمة الشرائع الموسوية

لم يكن في وسع اليهود بعد عودتهم أن يقيموا لهم دولة حربية ؛ ذلك أنهم لم يكن لهم من العدد ومن الثروة ما يمكنهم من إقامة هذه الدولة . ولما كانوا في حاجة إلى نوع من الإدارة يعترفون فيه بسيادة الفرس عليهم ويهيئ لهم في الوقت نفسه سبيل الوحدة القومية والنظام ، فقد شرع الكهنة في وضع قواعد حكم ديني يقوم كما كان يقوم حكم يوشيا على المأثور من أقوال الكهنة وتقاليدهم ، وعلى أوامر الله . وفي عام ٤٤٤ ق . م دعا عزرا ، وهو كاهن عالم ، اليهود إلى اجتماع عام خطير ، وشرع يقرأ عليهم من مطلع النهار إلى منتصفه « سفر شريعة موسى » . وظل هو وزملاؤه اللاويون سبعة أيام كاملة يقرءون عليهم ما تحتويه ملفات هذا السفر . ولما فرغوا من قراءتها أقسم الكهنة والزعماء والشعب على أن يطيعوا هذه الشرائع ويتخذوها دستوراً لهم يتبعونه ومبادئ خلقية يسيرون على هديها ويطيعونها إلى أبد الآبدين^(١٣٩) . وظلت هذه الشرائع من تلك الأيام النكدة إلى يومنا هذا المحور الذي تدور عليه حياة اليهود ، ولا يزال تقييدهم بها طوال تجوالهم ومحنهم من أهم الظواهر في تاريخ العالم .

تُرى ماذا كان « كتاب شريعة موسى » هذا ؟ لم يكن هذا الكتاب هو بعينه « كتاب العهد » الذي قرأه يوشيا من قبل ؛ لأن هذا العهد قد جاء فيه بصريح العبارة أنه قرئ على اليهود مرتين كاملتين في يوم واحد ، على حين أن قراءة الكتاب الآخر قد احتاجت إلى أسبوع^(١٤٠) كامل . وكل ما في وسعنا

أن نفعه هو أن نحزر أن الكتاب الكبير كان يحتوى على جزء هام من أسفار العهد القديم الخمسة التي يسميها اليهود «تورة» ويسميها غيرهم البنتاتوش أو الأسفار الخمسة (*) (١٤١).

كيف كتبت هذه الأسفار؟ ومتى كتبت؟ وأين كتبت؟ ذلك سؤال برىء لا ضير منه ولكنه سؤال كتب فيه خمسون ألف مجلد ، ويجب أن تفرغ منه هنا في فقرة واحدة تتركه بعدها من غير جواب .

إن العلماء مجمعون على أن أقدم ما كتب من أسفار التوراة هما القصتان المتشابهتان المنفصلتان كليهما عن الأخرى في سفر التكوين ، تتحدث إحداهما عن الخالق باسم « يهوه » على حين تتحدث الأخرى عنه باسم إلهيم . ويعتقد هؤلاء العلماء أن القصص الخاصة بيهوه كتبت في يهوذا ، وأن القصص الخاصة بإلهيم (**) كتبت في إفرايم ، وأن هذه وتلك قد امتزجتا في قصة واحدة بعد سقوط السامرة . وفي هذه الشرائع عنصر ثالث يعرف بالثنية أكبر الظن أن

(*) التورة : لفظ عبري معناه الهدى أو الإرشاد ، والبنتاتوش كلمة يونانية معناها الملفات الخمسة . (المترجم)

(**) وهي تفرقة كان أول من أشار إليها جان أستروك Jean Astruc في عام ١٧٠٣ . ومن الفقرات التي تعزى إلى كاتب قصص يهوه في سفر التكوين الفقرات المحصورة بين الآية الرابعة من الأصحاح الأول والرابعة والعشرين من الأصحاح الثالث ، وكذلك الأصحاحات ٤ ، ٦ — ٨ ، ١١ من ١ إلى ٩ ، والأصحاحين ١٢ ، ١٣ ، ١٨ — ١٩ ، ٢٤ ، ٢٧ الآيات ١ — ٤٥ ، والأصحاحات ٣٢ ، ٤٣ — ٤٤ ؛ وفي سفر الخروج الأصحاحات ٤ — ٥ ، الآيات المحصورة بين الآية رقم ٢٠ في الأصحاح الثامن إلى الآية رقم ٧ في الأصحاح التاسع ، والأصحاحان ١٠ ، ١١ ، والآيات المحصورة بين الآية رقم ١٢ من الأصحاح الثالث والثلاثين إلى الآية رقم ٢٦ من الأصحاح الرابع والثلاثين ؛ وفي سفر العدد الآيات من ٢٩ إلى ٣٦ من الأصحاح الحادى عشر الخ ؛ أما الفقرات الإلهية التي لاشك فيها فهي التي في سفر التكوين في الأصحاح الحادى عشر من ١٠ إلى ٣٢ ، وفي الأصحاح العشرين ١ — ١٧ ، والحادى والعشرين ٨ — ٣٢ والثانى والعشرين ١ — ١٤ والأصحاحات ٤٠ — ٤٢ ؛ و ٤٥ وفي سفر الخروج الآيات من ٢٠ إلى ٢٣ من الأصحاح الثامن عشر والأصحاحات ٢٠ — ٢٢ ، والآيات من ٧ إلى ١١ في الأصحاح الثالث والثلاثين ؛ وفي سفر العدد الأصحاحات ١٢ — ٢٢ — ٢٤ الخ (١٤٢) .

كاتبه أو كتابه غير كتاب الأسفار السالفة الذكر . وثمة عنصر رابع يتألف من فصول أضافها الكهنة فيما بعد . والرأى الغالب أن هذه الفصول تكون الجزء الأكبر من « سفر الشريعة » الذى أذاعه عزرا^(١٤٢) ، ويبدو أن هذه الأجزاء الأربعة قد اتخذت صورتها الحاضرة حوالى عام ٣٠٠ ق . م^(١٤٣) .

وكانت أساطير الجزيرة هى المعين الغزير الذى أخذت منه قصص الخلق والعواية والطوفان التى يرجع عهداها فى تلك البلاد إلى ثلاثة آلاف سنة أو نحوها قبل الميلاد . ولقد رأينا صورا قديمة من هذه القصص فيما مر بنا من صفحات هذا الكتاب ، ولعل اليهود قد أخذوا بعضها من الأدب البابلى فى أثناء أسرهم^(١٤٤) . ولكن أرجح من هذا أنهم أخذوها قبل ذلك العهد بزمان طويل من مصادر سامية وسومرية قديمة كانت منتشرة فى جميع بلاد الشرق الأدنى . وتقول القصص الفارسية وقصص التلمود الخاصة بالخلق إن الله خلق فى بادئ الأمر إنسانا مكونا من ذكر وأنثى متصلين من الخلف كالتوأمين السياميين ، ثم رأى فيما بعد أن يفصل أحدهما عن الآخر . وتحضرنا فى هذه المناسبة جملة غريبة وردت فى سفر التكوين (الآية الثانية من الأصحاح الخامس) :

« يوم خلق الله الإنسان على شبه الله عمله ذكرا وأنثى ، خلقه وباركه ودعا اسمه آدم » ؛ ومعنى هذا أن أبانا الأول كان ذكرا وأنثى معا — ويبدو أن أحدا من رجال الدين إذا استثنينا أرسطو فانيز لم يفتن إلى هذه العبارة^(*) .

أما قصة الجنة فتظهر فى جميع القصص الشعبية فى العالم كله — فى مصر ، والهند ، والتبت ، وبابل ، وبلاد الفرس واليونان^(**) وپولينيزيا والمكسيك

(*) قارن هذا « بمائدة » أفلاطون .

(**) قارن هذا بما كتبه الشاعر اليونانى هنريود (حوالى ٧٥٠ ق . م) فى العمل والأيام « كان الناس يعيشون كآلهة مبرئين من الرذائل والشهوات والغضب والنسب ، يقضون أيامهم هذين مسرورين سعداء فى رفقة الكائنات الإلهية ... وكانت الأرض فى تلك الأيام أجمل مما هى الآن ، وكانت تخرج من نفسها مقدارا عظيما من الفاكهة المختلفة الأنواع ... وكان الرجال وهم فى سن المائة يعدون غلمانا لا أكثر » (١٤٦) .

وغيرها من البلاد^(١٤٥). وفي معظم هذه الجنان أشجار محرمة وفيها كذلك أفاع وهولات سلبت الناس الخلود أو نفتت السم في الجنة^(١٤٦). وأكبر الظن أن الحية والقينة كانتا رمزين للشهوات الجنسية.

وتشير هذه القصة إلى أن الشهوة الجنسية والمعرفة تقضيان على الطُّر والسعادة، وأنهما مصدر كل الشرور. وترى هذه الفكرة بعينها في آخر «العهد القديم» في سفر الجامعة، كما تراها هنا في بدايته.

والمرأة في معظم هذه القصص هي الأداة التي تتخذها الحية أو يتخذها الشيطان وسيلة لإيقاع الإنسان في الشر — الجميل، سواء كانت هذه المرأة هي حواء، أو پندورا، أو پوسى الواردة في الأساطير الصينية. فقد جاء في قصص شى جنج أن «كل الأشياء كانت في بداية الأمر خاضعة للإنسان، ولكن امرأة ألفت بنا في ذل الاستعباد، فشقاؤنا إذن لم يأتنا من السماء بل جاءت به المرأة، لأنها هي التي أضاعت الجنس البشرى. «آه! ما أشقاك يا پوسى! لقد أشعلت النار التي أحرقتنا والتي تزداد كل يوم ضراماً... لقد ضاع العالم، وطغت الرذيلة على كل شيء».

وقصة الطوفان أكثر انتشاراً من قصة الخلق نفسها، فلا يكاد يوجد في الأمم القديمة أمة لم تعرفها، ولما يوجد جبل في آسية لم يرس عليه نوح أو شمش — نيشتم بعد أن أضناه التعب من ضربات المياه^(١٤٨). ولقد كانت هذه القصص في العادة هي الوسيلة الشعبية أو الطريقة المجازية التي عبر بها القدماء عن قضاء فلسفى أو موقف أخلاقى لخصوا فيه بإيجاز تجارب طويلة مرت بالجنس البشرى — وهى أن الشهوة الجنسية والمعرفة تُنتجان من الآلام أكثر مما تنتجان من اللذة، وأن الحياة البشرية تتعرض من حين إلى حين لأخطار الفيضانات أى لطغيان الأنهار العظيمة التي كان ماؤها سبباً في قيام الحضارات القديمة. وإن الذين يسألون هل هذه القصص صحيحة أو غير صحيحة ليسألون في الواقع أتفه الأسئلة

وأبعدها عن المقصود منها ، ذلك أن أهميتها ليست فيما تقصه من قصص ، بل فيما تعرضه من أحكام . ومع ذلك فليس من العقل في شيء ألا يستمتع الإنسان ببساطتها التي تخلص القلب وبقصصها الواضح وأحداثها السريعة .

وكانت الأسفار التي تألفت على الشعب بأمر يوشيا وعزرا هي التي صيغت منها القوانين « الموسوية » التي قامت عليها الحياة اليهودية كلها فيما بعد . ويقول سارتن Sarton ، وهو المعروف بشدة حرصه فيما يكتب ، معلقاً على هذه الشرائع : « إن أهميتها في تاريخ الأنظمة والقوانين تفوق كل تقدير ^(١٤٩) » . لقد كانت أكبر محاولة في التاريخ لاتخاذ الدين قاعدة لسياسة الأمم وأداة لتنظيم كل صغيرة وكبيرة في الحياة كلها . وفي ذلك يقول رينان Renan : « لقد صارت تلك الشريعة أضيق رداء شد على جسم الحياة الإنسانية ^(١٥٠) » ، فقد جمعت الطعام ^(*) ، والدواء ، والشئون الصحية الفردية ، وشئون الحيض والولادة ، والشئون الصحية العامة ، والانحراف الجنسي والشهوات البهيمية ^(١٥٢) ، كل هذه جعلتها من موضوعات الفروض والهداية الإلهية . وفيها نشهد مرة أخرى كيف أخذ الطبيب يفترق افتراقاً بطيئاً عن الكاهن ^(١٥٣) — ليصبح فيما بعد ألد أعدائه . فترى سفر اللاويين يحرص أشد الحرص على وضع القوانين الخاصة لعلاج الأمراض التناسلية ، ويعنى بها أشد العناية ، فينص على عزل المصابين وما يتطلبه علاجهم من تطهير وتبخير بل وحرق المنزل الذي فشا فيه المرض عن آخره إذا دعت الحال ^{(**) (١٥٤)} . وكان اليهود الأقدمون هم الذين وضعوا قواعد الوقاية من

(*) انظر الأصحاح الرابع عشر من سفر التثنية . ويعزو ريناخ Reinach ، وبررتسن اسمث Robertson Smith وسير جيمس فريزر Sir James Frazer تحريم لحم الخنزير إلى عبادة أسلاف اليهود الطوطمية للخنزير (أو للخنزير البري) لا إلى ما كان لديهم من معلومات صحية أو رغبتهم في انتفاء الأمراض ^(١٥١) . على أن عبادة الخنزير البري قد لا تكون إلا وسيلة لجأ إليها الكهنة للنهي عن أكل لحم الخنزير « انجاسته » في اعتقادهم . وإن ما في الشريعة الموسوية من قواعد صحية حكيمة ليبر الشك فيما فسر به ريناخ هذا التحريم .

(**) وظلت الطرق التي يشير بها سفر اللاويين (في الأصحاحات ١٣ ، ١٤) لعلاج الجذام متبعة في أوروبا حتى آخر العصور الوسطى ^(١٥٥) .

المرض^(١٥٦)، ولكن يلوح أنهم لم يكونوا يعرفون من الجراحة غير عملية الختان، ولم تكن هذه السنة الدينية — الشائعة بين المصريين الأقدمين، وبين الساميين المحدثين — مجرد تضحية لله وفريضة يفرضها الولاء للجنس^(*)، بل كانت فوق هذا وقاية صحية من الأقدار التي تتعرض لها الأعضاء التناسلية^(١٥٨). ولعل ما في الشريعة من قواعد خاصة بالنظافة هو الذي أبقى على اليهود خلال تجوالهم الطويل وتشتتهم ومخنتهم.

أما ما بقي من شريعة موسى فيدور كله حول الوصايا العشر (سفر الخروج الآيات ١ — ١٧ من الأصحاح العشرين) التي قدر لها أن يرددها نصف سكان العالم^(**). وتضع الوصية الأولى أساس المجتمع الديني الجديد، وهو المجتمع الذي لا يقوم على أي شريعة مدنية بل على فكرة الله وهو الملك القدوس الذي لا تدركه الأبصار، والذي أنزل كل قانون، وفرض كل عقوبة، والذي سُمي شعبه بعدئذ شعب إسرائيل أي المدافعين عن الله.

لقد مانت الدولة العبرية ولكن الهيكل ظل باقيا، وشرع كهنة يهوذا

(*) وذلك لأن هذه العادة تجعل من المستحيل على اليهودي أن يخفي عن الناس حقيقة أمره. ويقول برفول Briffault: «إن هذه السنة اليهودية لم تتخذ صورتها التي هي عليها الآن إلا في عهد متأخر كثيراً هو عهد المكابيين (١٦٧ ق. م). وفي ذلك الوقت كانت العملية تجري بطريقة تجعل في مقدور اليهوديات أن يتقين استهزاء غير اليهوديات. منهن إذا كانت هذه العملية تعمل بحيث لا يدرك الإنسان أنها عملت، ولهذا أمر الكهنة الوطنيون أن تزال الغلقة عن آخرها^(١٥٧)».

(**) كان من المؤلف في الأزمان القديمة أن تعزى كتب القوانين إلى الوحي الإلهي. ولقد رأينا من قبل كيف كانت قوانين مصر القديمة تعزى إلى الإله تحوت، وكيف أنزل شمس إله الشمس قانون حورابي. كذلك أعطى أحد الأرباب الملك مينوس على جبل دكتا القوانين التي حكمت بمقتضاها جزيرة كريت. وكان اليونان يمثلون ديونيسس الذي يسمونه أيضاً «المشرع» وأمامه منضدتان حجرتان نقش عليهما القوانين. ويقول أثينا الفرس إن زردشت كان في يوم من الأيام يصلي على جبل عال فتبدى إليه أهورا — مزدا بين الرعود والبروق، وأنزل عليه «كتاب القانون»^(١٥٩): وفي هذا يقول ديودور الصقلي: «لقد فعلوا كل هذا لأن الفكرة التي تسمو بالبشرية فكرة رائعة قدسية؛ أولاً لأن السوق تكون أكثر طاعة للقوانين إذا حولت أبصارها إلى ما يتمتع به من تعزى إليهم من جلال وسلطان»^(١٦٠).

يحاولون كما يحاول بابوات رومة أن يعيدوا ما عجز الكهنة عن إنفاذه . ومن ثم كان وضوح الوصية الأولى وما فيها من تكرار ونصها على أن الكفر وذكر الله بما لا يليق يعاقب عليهما بالإعدام ولو كان الكافر أقرب أقرباء الإنسان^(١٦١) . ذلك أن الكهنة الذين وضعوا القانون كانوا يعتقدون كما يعتقد رجال محاكم التفتيش الأتقياء أن الوحدة الدينية شرط أساسى لقيام النظام والتضامن الاجتماعيين . وكان هذا التمسك الدينى منضما إلى الكبرياء الجنسى هو الذى أبقى على اليهود وأوقعهم فى كثير من المشاكل .

وسمت الوصية الثانية بفكرة الله بقدر ما حطت من شأن الفن ، إذ حرمت أن تصور له أية صورة منحوتة . وقد افترضت هذه الوصية وجود مستوى عقلى راق لدى اليهود ، لأنها نبذت كل الخرافات كما نبذت فكرة تجسد الإله ، وحاولت أن تصور الله منزها عن جميع الأشكال والصور بالرغم من الصورة البشرية المحضة التى رسمها ليهوه أسفار موسى الخمسة . وهى تخص الدين بكل ما تنطوى عليه قلوب العبرانيين من إخلاص وولاء ، ولا تترك فيهما — فى الأيام القديمة — مكانا للعلم والفن . وحتى علم الفلك نفسه قد أهمل أمره لكىلا يزداد عدد الآلهة الزائغين أو تعبد النجوم وتتخذ آلهة من دون الله . وكان فى هيكمل سليمان قبل ذلك العهد عدد من الصور والتماثيل يكاد يحل عن الحصر^(١٦٢) ؛ أما الهيكل الجديد فلم يكن فيه شيء منها . ذلك أن التماثيل والصور القديمة قد نقلت من قبل إلى بابل ، ويبدو أنها لم تعد مع ما أعيد من آنية الفضة والذهب^(١٦٣) . ومن أجل هذا لا نجد نحتا ولا تصويرا ولا نقشا بعد الأسر البابلى ، كما لا نجد إلا القليل منها قبل الأسر إذا استثنينا عهد سليمان الذى يكاد أن يكون عهدا أجنبيا عن العبرانيين . وكل ما كان الكهنة يميزونه من الفنون فنا العارة والموسيقى ؛ وكانت الأغاني والراسم التى تقام فى الهيكل هى التى تخفف من أكدار حياة الشعب وشقاءه ، فكانت فرقة موسيقية معها مختلف الآلات تنضم

إلى جوقة المغنين في ترتيل المزامير ، فتبدو « صوتا واحدا لتسبيح الرب وحده »
وتمجيد الهيكل^(١٦٥) : « وداود وكل بيت إسرائيل يلعبون أمام الرب بكل أنواع
الآلات من خشب السرو بالميدان ، وبالرباب ، وبالدفوف ، وبالجنوك ،
وبالصنوج^(١٦٦) » .

وتنطق الوصية الثالثة بما كان يستمسك به اليهودى من تقى وتدين . فهو
لا يحرم عليه أن ينطق باسم الله عبثا فحسب ، بل يحرم عليه أن ينطق باسم الله
تحريرا مطلقا ، فإذا ورد اسم يهوه فى صلاته وجب عليه أن يستبدل به اسم
أدنيه — الرب . ولن نجد لهذه التقوى نظيرا إلا بين الهندوس .

وقدست الوصية الرابعة يوم الراحة الأسبوعى — السبت — وصار هذا
التقديس سنة من أرسخ السنن البشرية . وهذه التسمية — ولعل هذه العادة
نفسها — قد جاءتهم من البابليين . فقد كان هؤلاء يطلقون على الأيام « الحرم »
أيام الصوم والدعاء اسم شبتو^(١٦٨) . وكان لديهم فضلا عن هذه العطلة الأسبوعية
أعياد أخرى عظيمة منها مواسم كنعانية قديمة للزرع والحصاد ، ومنها أعياد دورية
للقمر والشمس : فكان مزوث فى بادئ الأمر عيد بداية حصاد الشعير ،
وشباووث الذى سمي فيما بعد بنتكست عيد ختام حصاد القمح ؛ وسكوث
عيد الكروم ، وبساتش أو عيد الفصح عيد بداية نتاج قطعان الضأن ؛ وكان
رش — ها — شناه عيد رأس السنة . ولم تعدل هذه الأعياد لتخلد بها حوادث
هامة فى تاريخ اليهود إلا بعد ذلك الوقت^(١٦٨) . وكانوا فى أول يوم من أيام عيد
الفصح اليهودى يذبحون حملا أو جديا ويأكلونه ويرشون دمه على الأبواب
إشارة إلى أن هذا الدم هو نصيب الإله ، ثم ربط الكهنة فيما بعد هذه العادة
بعادة قتل يهوه لأبناء المصريين البكر . وكان الحمل فى أول الأمر طوطما لإحدى
القبائل الكنعانية . وكان عيد الفصح عند الكنعانيين عيد تقرب حمل لأحد

الآلهة المحليين^(*) . ونحن حين نقرأ الآن (في الأصحاح الثاني عشر من سفر الخروج^(**)) قصة هذا العيد ، ثم نرى اليهود في هذه الأيام يحتفلون به على النحو الذى كانوا يحتفلون به قديما ، ندرك قدم هذه العبادة وقوة استمساك هذا الشعب بطقوسه القديمة .

والوصية الخامسة تقدر الأسرة وتضعها من حيث بناء المجتمع في منزلة لا تفوقها إلا منزلة الهيكل . وظلت المثل العليا التى طبع بها نظام الأسرة باقية في أوربا طوال تاريخها المتوسط والحديث حتى جاء الانقلاب الصناعى وأدى إلى انحلالها . لقد كانت الأسرة العبرانية الأبوية نظاما اقتصاديا وسياسيا ضخما يتألف من أكبر رجل متزوج فيها ، ومن أزواجه ، وأبنائه غير المتزوجين ، وأبنائه المتزوجين وأزواجهم وأبنائهم ، ومن عبيدهم إن كان لهم عبيد . وكان الأساس الاقتصادى الذى تقوم عليه هذه الجماعة هو قدرتها على زراعة الأرض ؛ أما قيمتها السياسية فتتجسد في أنها كانت تهيب للبلد نظاما اجتماعيا بلغ من القوة حدا تكاد الدولة أن تصبح معه لا ضرورة لها إلا في زمن الحرب . وكان للأب على أفراد أسرته سلطان لا يكاد يُحد ؛ فكانت الأرض ملكا له ، ولم يكن في وسع أبنائه أن يبقوا على قيد الحياة إلا إذا أطاعوا أمره ؛ فقد كان هو الدولة ، وكان في وسعه إن كان فقيرا أن يبيع ابنته قبل أن تبلغ الحلم لتكون جارية ؛ كما كان له الحق المطلق في أن يزوجه بمن يشاء وإن كان في بعض الأحيان ينزل عن بعض حقه فيطلب إليها أن ترضى بهذا الزواج^(١٧٠) . وكانت الفكرة الشائعة أن الأولاد من نتاج الخصية اليمنى ، وأن البنات من نتاج الخصية اليسرى ، وكانت هذه في اعتقادهم أصغر وأضعف من اليمنى^(١٧١) . وكان الزواج في أول الأمر

(*) وأصبح هذا الطوطم فيما بعد حمل يسكال في الدين المسيحى ، وقيل إنه هو نفسه تخليد ذكرى موت المسيح .

(**) في الأصل الإنجليزى الحادى عشر وهو خطأ مطبعى (المترجم)

يستتبع انتقال الزوج إلى دار زوجته ، فقد كان عليه أن « يترك أباه وأمه وينضم إلى زوجته في عشيرتها » ؛ لكن هذه العادة أخذت تزول شيئاً فشيئاً بعد تأسيس الملكية . وكانت أوامريهوه إلى الزوجة هي : « ستكون رغبتك لزوجك ، وسيكون له الحكم عليك » .

ومع أن المرأة كانت من الوجهة الرسمية خاضعة للزوج ، فإنها كانت في الواقع ذات كرامة وذات سلطان كبير ؛ وقد اشتهرت في تاريخ اليهود أسماء سيدات مثل سارة ، وراحيل ، ومريم ، وإستر ؛ وكانت دبورة إحدى قضاة إسرائيل^(١٧٢) . وكانت النبية خلدة هي التي استشارها يوشيا في أمر الكتاب الذي وجدته الكهنة في الهيكل^(١٧٣) . وكانت الأم الولود تضمن لنفسها الطمأنينة والكرامة ، ذلك بأن هذه الأمة الصغيرة كانت تتوق إلى زيادة عددها ، لأنها تشعر كما تشعر اليوم في فلسطين بما يتهدهدها من الخطر وسط الأقوام المحيطين بها . ومن أجل هذا كانت تعلى من شأن الأمومة ، وترى العزوبة خطيئة وجريمة ، وتجعل الزواج إجبارياً بعد سن العشرين ، لا تستثنى من ذلك الكهنة أنفسهم ، وتزدرى العذارى اللاتي في سن الزواج ، والنساء العاقرات ، وتنظر إلى الإجهاض وقتل الأطفال وغيرها من وسائل تحديد النسل على أنها من أعمال الكفرة البغيضة التي تؤذى خياشيم الرب^(١٧٤) : « فلما رأت راحيل أنها لم تلد ليعقوب غارت راحيل من أختها وقالت ليعقوب هب لي بنين وإلا فأنا أموت^(١٧٥) » . وكانت الزوجة الكاملة هي التي لا تنقطع عن الكد في بيتها وحوله ، ولا تفكر إلا في زوجها وأطفالها . وفي الأصحاح الأخير من سفر الأمثال وصف للمرأة المثالية كما يراها الرجل :

« امرأة فاضلة من يجدها لأن ثمنها يفوق اللآلى ، بها يثق قلب زوجها فلا يحتاج إلى غنيمة ، تصنع له خيراً لا شراً كل أيام حياتها ، تطلب صوفاً وكتانا ، وتشغل بيدين راضيتين ، هي كسفن التاجر تجلب طعامها من بعيد ،

وتقوم إذ الليل بعد ، وتعطى أكلا لأهل بيتها وفريضة لفتياتها ، تتأمل حقلا فتأخذه وبشر يديها تفرس كرما ؛ تنطق حقويها بالقوة وتشدد ذراعيها ، تشعر أن تجارتها جيدة ، سراجها لا ينطفئ في الليل ، تمتد يديها إلى المغزل وتمسك كفاها بالفلسكة ، تبسط كفيها للفقير وتمتد يديها إلى المسكين ، لا تخشى على بيتها من الثلج لأن كل أهل بيتها لا يسون حلالا ، تعمل لنفسها موشيات ، لبسها البز وأرجوان ، زوجها معروف في الأبواب حين يجلس بين مشايخ الأرض ، تصنع قمصانا وتبيعهما ، وتعرض مناطق على الكنعاني ، العز والبهاء لباسها ، وتضحك على الزمن الآتي ، تفتح فيها بالحكمة وفي لسانها سنة المعروف ، تراقب طرق أهل بيتها ولا تأكل خبز الكسل ، يقوم أولادها ويطوبونها ، زوجها أيضا فيمدحها ، بنات كثيرات عملن فضلا ، أما أنت ففقت عليهن جميعا ، الحسن غش والجمال باطل ؛ أما المرأة المتقيمة الرب فهي تمدح ، اعطوها من ثمر يديها ، ولتمدحها أعمالها في الأبواب (*) .

والوصية السادسة مبدأ مثالي صعب المنال . ذلك أننا لا نرى في كتاب ما نراه في أسفار العهد القديم من حديث عن التقتيل والتدمير ، ففصوله كلها ما بين وصف لمذابح وتناسل لتعويض آثارها . لقد كان النزاع بين الأسباط ، والانقسامات الحزبية ، وعادة الأخذ بالثأر المتوارثة ، كل هذه كانت لا تبقى على فترات السلم المتقطعة المملة إلا قليلا . ولم يكن أنبياء إسرائيل من دعاة السلم رغم ما جاء في بعض أقوالهم من تمجيد للمحارث ومناجل التشذيب . وكان الكهنة أنفسهم — إذا جاز لنا أن نحكم عليهم من خطبهم التي يُنطقون بها يهوه —

(*) هذه هي المرأة المثالية في عين الرجل ؛ وإذا جاز لنا أن نصدق إشعيا (١٦: ٣ — ٢٣) فإن نساء أورشليم كن في الواقع كنساء العالم كله ، يحبن الملابس الجميلة والزينة ويفررن الرجال يطاردهن : « من أجل أن بنات صهيون يتشاخن ويمشين ممدودات الأعناق ، وغامرات بعيونهن ، وخطرات في مشيهن ، ويخشخشن بأرجلهن » الخ ؛ ولعل المؤرخين كانوا يندعوتنا على الدوام فيما يقولونه عن النساء !

مولعين بالحروب ولعهم بالمواظ. ولقد قتل ثمانية من ملوك إسرائيل التسعة عشر^(١٧٧). وكانت العادة المتبعة أن تدمر المدن التي يستولون عليها في حروبهم ، وأن تقطع بحد السيف رقاب جميع الذكور من سكانها ، وأن تقتل الأرض حتى لا تصلح للزراعة إلا بعد زمن طويل ، شأنهم في هذا شأن الناس في تلك الأيام^(١٧٨). ولعل أعداد القتلى الواردة في أقوالهم كان يبالغ فيها كثيراً . فليس من المعقول مثلاً أن « يقتل بنو إسرائيل من الأراميين^(*) مائة ألف راجل في يوم واحد^(١٧٩) » بغير آلات الحرب الحديثة . وكان اعتقادهم أنهم شعب الله المختار^(١٨٠) سبباً في ازدياد الكبرياء الطبيعي في أمة تشعر بما لها من مواهب متفوقة ، كما كان سبباً في تقوية ما لديهم من نزعة إلى اعتزال غيرهم من الشعوب من الوجهتين العقلية والروحية ، وفي حرمانهم من أن ينظروا إلى الأمور نظرة أممية كان أبناؤهم جديرين بأن يصلوا إليها . لكنهم مع ذلك بلغوا درجة عظيمة من الفضائل المتصلة بصفاتهم هم أنفسهم ، وكان منشأ عنفهم هو ما كانوا يتصفون به من حيوية عارمة جامحة ؛ وكانت عزلتهم ناشئة من تقواهم ، كما كان ميلهم إلى الخصام والتدمير ناشئاً من حساسيتهم القوية التي أمكنتهم من إنتاج أعظم آداب الشرق الأدنى ؛ وكان كبرياؤهم العنصري أقوى سنداً لشجاعتهم في خلال قرون التعذيب الطوال . ذلك أن الناس يكونون كما تضطرب الظروف أن يكونوا .

والوصية السابعة تعترف بأن الزواج هو الأساس الذي تقوم عليه الأسرة ، كما تعترف الخامسة بأن الأسرة هي أساس المجتمع ، وهي تضيف على الزواج كل ما يستطيع الدين أن يضيف عليه من عون . ولا تذكر شيئاً عن العلاقات الجنسية قبل الزواج ، ولكن ثمة أنظمة أخرى تحتم على الفتاة أن تثبت أنها عذراء

(*) في الأصل الإنجليزى « من السورين » ، ولكن الذى تذكره الآية أنهم من الأراميين (المترجم)

في يوم زواجها وإلا رجعت حتى تموت^(١٨١). ولكن الزنا كان رغم هذا منتشراً بين اليهود، ويلوح أن اللواط لم ينقطع بعد تدمير سدوم وعمورة^(١٨٢). ولما كان القانون فيما يلوح لم يحرم الاتصال بالعاشرات الأجنبية، فإن السوريات، والمؤابيات والأذنيات وغيرهن من « النساء العزبات » انتشرن في الطرق العامة، حيث كن يعشن في مواخير وخيام، ويجمعن بين الدعارة وبيع مختلف السلع الصغيرة. ولما كان سليمان لا يتشدد كثيراً في هذه الأمور، فإنه قد تساهل في تطبيق القانون الذي كان يحرم على تلك النساء السكنى في أورشليم؛ وسرعان ما تضاعف عددهن حتى كان الهيكل نفسه في أيام المكابيين مأخوذة للزنا والفجور كما وصفه مصلح غضوب^(١٨٣).

ويلوح أن الحب كان له عندهم نصيب، فقد « خدم يعقوب براحيل سبع سنين، وكانت في عينيه كأيام قليلة بسبب محبته لها^(١٨٤) »، ولكن الحب لم يكن له إلا شأن قليل في اختيار الأزواج. وكان هذا الزواج قبل نفي بني إسرائيل من الأمور المدنية المحضة، يعقده أبوا الزوجين أو يعقده الخطيب وأبو العروس. وفي أسفار العهد القديم شواهد على زواج السبايا؛ ويحيز يهوه الزواج من سبايا الحروب^(١٨٥)، ولما نقص عدد النساء أوصى الكبار « بني بنيامين قائلين امضوا واكنوا في الكروم، وانظروا فإذا خرجت بنات شيلوه ليذرن في الرقص فاخرجوا أتم من الكروم واخطفوا لأنفسكم كل واحد امرأته من بنات شيلوه واذهبوا إلى أرض بنيامين^(١٨٦) ». ولكن هذه الخطة كانت من الخطط النادرة، أما السنة المألوفة فكانت سنة الزواج بطريق الشراء، فقد ابتاع يعقوب ليثة وراحيل بعمله. واشترى بوعز راعوث اللطيفة شراء سافرا. وكان من أشد ما ندم عليه النبي هوشع أنه ابتاع زوجته بخمسين شاقلاً^(١٨٧). وكان الاسم الذي يطلقه العبرانيون على الزوجة وهو « بولة^(*) » يعني « المملوكة^(١٨٧) ». وكان

(*) لعل هذا المعنى ذو صلة بكلمة « بولة » العربية بمعنى بنت الرجل (المتزجم)

والد الزوجة يعطيها في مقابل ما يتقاضاه ثمنًا لها بائنة — وهو نظام يفيد أعظم فائدة في تضيق الثغرة الفاصلة بين نضج الأبناء الجنسي ونضجهم الاقتصادي في حضارة المدن ، وهي ثغرة مفككة للمجتمع .

وإذا كان الرجل ثريا أبيح له أن يتزوج بأكثر من واحدة ؛ وإذا كانت الزوجة عاقرا ، مثل سارة ، أشارت على زوجها بأن يتخذ له خلية . وكان الهدف الذي ترمى إليه هذه السنن هو تكثير النسل . وكان طبيعيا لديهم أن تقدم راحيل وليثة خادماتهما إلى يعقوب بعد أن ولدتا له كل ما تستطيعان أن تلدا من الأبناء ، لكي يلدن له هن أيضا أبناء^(١٨٨) . ولم يكن يسمح للمرأة بأن تظل عقيا ؛ ومن أجل ذلك فإن الأخ إذا مات أخوه كان يحتم عليه أن يتزوج أرملته مهما كان عدد زوجاته ؛ فإذا لم يكن للميت أخ فرض هذا الواجب على أقرب الأحياء من أسرته^(١٨٩) . ولما كانت الملكية الفردية أساس النظام الاقتصادي اليهودي فقد كان لكل من الرجل والمرأة معيار خلفي خاص . فللرجل أن يتزوج بأكثر من واحدة ، أما المرأة فكانت تختص برجل واحد . وكان معنى الزنى عندهم اتصال رجل بامرأة ابتاعها رجل آخر بماله ؛ ومن أجل ذلك كان اتصاله بها اعتداء على قانون الملكية تعاقب عليه المرأة والرجل بالإعدام^(١٩٠) . وكان الفسق محرما على المرأة غير المتزوجة ، أما الرجل غير المتزوج فقد كان عمله هذا ذنبا يغتفر له^(١٩١) . وكان الطلاق مباحا للرجل ، ولكنه كان قبل أيام التلمود من أشق الأمور على المرأة^(١٩٢) . ويلوح أن الزوج لم يسرف في إساءة استعمال ماله من ميزة على المرأة في هذه الناحية ، فهو يصور لنا على أنه في الجملة إنسان مخلص لزوجته وأبنائه ، غيور عليهم ، وكثيرا ما كان الزواج يشمر حبًا وإن لم يكن الحب هو الذي يقرر الزواج . « وأخذ اسحق رفقة فصارت له زوجة وأحبها ، فتعزى إسحق بعد موت أمه »^(١٩٤) . ولعل الحياة في الأسرة لم تصل في أي شعب آخر — إذا استثنينا شعوب الشرق الأدنى — إلى ذلك المستوى الراقى الذي وصلت إليه عند اليهود .

والوصية العاشرة تقدر الملكية الفردية^(*)، وكانت هي والدين والأسرة الأسس الثلاثة التي قام عليها المجتمع العبري . وتكاد الملكية كلها تنحصر في ملكية الأرض ، ذلك أن اليهود قبل أيام سليمان قلما كان لديهم شيء من الصناعات غير صناعتي الخبز والحديد . وحتى الزراعة نفسها لم ترق رقيا كبيرا ، وكانت الكثرة العظمى من الشعب منصرفة إلى تربية الضأن والماشية ، وزراعة الكروم والزيتون والتين . وكانت أغلب معيشتهم في الخيام لا في البيوت المبنية ، حتى لا يجدوا صعوبة في انتجاع مراعى جديدة . ولما نمت ثروتهم وزاد ما ينتجون على حاجتهم بدءوا يتجرون ، وأخذت السلع اليهودية تروج في دمشق وصور وصيدا وحول الهيكل نفسه بفضل ما اتصف به التجار اليهود من مهارة وصبر على المشاق . وظلوا إلى ما قبل أيام الأسر لا يستخدمون نقودا ، وكان الذهب والفضة أساس التبادل عندهم وكانا يوزنان في كل عملية تجارية . وقامت بينهم مصارف كثيرة العدد لتمويل التجارة والمشروعات الاقتصادية . ولم يكن غريبا أن يتخذ هؤلاء « المقرضون » ساحات الهيكل موضعا لعملهم ، فقد كانت هذه عادة شائعة في الشرق الأدنى ، ولا تزال باقية في كثير من أقطاره إلى هذا اليوم^(١٩٦) . وكان يهوه يطل من عليائه مغتبطا بسلطان رجال المال المتزايد ، ومن أقواله في هذا المعنى : « فتقرض أمما كثيرة وأنت لا تقترض^(١٩٧) » وهي فلسفة كريمة جمعت لليهود ثروة طائلة ، وإن لم يبد في هذا القرن أنها من وحي الدين .

وكان اليهود يتخذون أمري الحروب والمذنبين عبيدا لهم ، وشأنهم في هذا شأن غيرهم من أمم الشرق الأدنى ؛ ويستخدمون مئات الآلاف منهم في قطع الأخشاب ونقل مواد البناء للمنشآت العامة كهيكل سليمان وقصره . ولكن السيد

(*) لقد كانت الأرض من الوجهة النظرية ملكا ليهوه^(١٩٥) .

لم يكن له على عبده حق الحياة والموت ، كما كان من حق العبد أن يمتلك المال ويبتاع به حريته^(١٩٨) . وكان يباح بيع الرجال المدينين ليكونوا خدماً أرقاء إذا عجزوا عن أداء ديونهم ، وكان في وسعهم أن يبيعوا أبناءهم بدلاً منهم . وقد بقيت هذه العادة إلى أيام المسيح^(١٩٩) ، غير أن الصدقات السخية وما كان يقوم به الكهنة والأنبياء من حملات عنيفة على استغلال هؤلاء الأرقاء قد خففت في بلاد اليهود من آثار هذه النظم التي كانت منتشرة في بلاد الشرق الأدنى . وكان من القواعد الواردة في شريعة موسى : « ألا يفبن أحدكم أخاه^(٢٠٠) » ، كما أنها كانت تطلب إليهم أن يطلقوا سراح الأرقاء من العبرانيين وأن يلغوا ما عليهم من الديون كل سبع سنين^(٢٠١) . ولما تبين أن هذا الأمر أكثر مما يطيقه سادة هؤلاء الأرقاء جاء القانون بسنة العيد الخمسين ، فكان كل العبيد والمدينين يعتقون كل خمسين سنة : « وتقدسون السنة الخمسين وتنادون بالعتق في الأرض لجميع سكانها . تكون لهم يوبيلاً وترجعون كل إلى ملكه وتعودون كل إلى عشيرته^(٢٠٢) » .

وليس لدينا ما يدل على أن هذه الوصية الجميلة قد أطيغت ، وسواء كان ذلك أو لم يكن فإننا يجب أن نقر بالفضل للكهنة الذين لم يتركوا درساً في الإحسان إلا علموه : « إن كان فيك فقير أحد من إخوتك ... فلا تقس قلبك ولا تقبض يدك عن أخيك الفقير ، بل افتح يدك له ، وأقرضه مقدار ما يحتاج إليه » ، « لا تأخذ منه رباً ولا مرابحة^(٢٠٣) » . ويجب أن تشمل عطلة السبت كل العاملين ، بل يجب أن تشمل الحيوانات نفسها فتترك ما عساه أن يكون على الأرض من النبات المقطوع والفاكهة الساقطة من الأشجار في الحقول والبساتين يجمعها الفقراء لأنفسهم^(٢٠٤) . ومع أن اليهود هم الذين كانوا مقصودين بهذه الصدقات فإن الفقير الذي عند الأبواب يجب أن يعامل هو الآخر معاملة طيبة

رجيمة ، وأن يؤوى الغريب ويطعم ويعامل معاملة كريمة . وكان اليهود يؤمرون في كل حين بأن يذكروا أنهم هم أيضاً كانوا في وقت من الأوقات لا مأوى لهم بل أنهم كانوا غنيداً أرقاء في أرض غير أرضهم .

وكانت الوصية التاسعة تطلب أن يكون الشهود شرفاء أمناء إلى أقصى حد ، وبذلك جعلت الدين عماداً للشرعية اليهودية بقضها وقضيضها . لقد كان الشاهد يقسم اليمين في حفل ديني ، ولم يكن يكتفى بأن يضع القسم يده على عورة من يقسم له كما كانت العادة قديماً^(٢٠٥) ، بل كان يطلب إليه الآن أن يشهد الله نفسه على صدقه ، وأن يحكمه في أمره . وكان القانون ينص على أن يعاقب شاهد الزور بنفس العقاب الذي كان يراد توقيعه على المتهم بالاستناد إلى شهادته^(٢٠٦) . لقد كانت شريعة إسرائيل كلها هي الشريعة الدينية وحدها ، وكان الكهنة هم القضاة والهيأكل هي المحاكم ، وكان يحكم بالإعدام على من لا يخضعون لأحكام الكهنة^(٢٠٧) . وكانت هناك حالات خاصة يترك الحكم فيها لله ، وذلك بأن يشرب المتهم ماء ساماً إذا كانت جريمته مشكوكاً فيها^(٢٠٨) . ولم تكن لديهم أداة لتنفيذ القانون سوى الأداة الدينية وحدها ؛ فكان تنفيذه يترك إلى ضمير المتهم وإلى سلطان الرأي العام ، وكانت بعض الجرائم الصغرى يكفر عنها بالاعتراف والفداء^(٢٠٩) . وكانت جرائم القتل وخطف الأدميين ؛ وعبادة الأوثان ، والزنا ، وضرب أحد الوالدين أو سبهما ، وسرقة العبيد ، أو « مضاجعة بهيمة » ، يحكم فيها بالإعدام بأمر يهوه ، وأما قتل الخادم فلا يعاقب عليه بالإعدام^(٢١٠) ؛ كذلك كان الإعدام عقاباً على السحر : « لا تدع ساحرة تعيش »^(٢١١) . وكان يرضى يهوه أن يقوم الأفراد أنفسهم بتنفيذ القانون في حالة القتل : « ولي الدم يقتل القاتل ، حين يصادفه يقتله »^(٢١٢) . على أنهم كانوا يفردون بعض المدن يستطيع

المجرم أن يفر إليها ، فإذا فعل كان على ولي الدم أن يؤجل ثأره (٢١٣) .

وفي وسعنا أن نقول بوجه عام إن المبدأ الذي كان يقوم عليه العقاب هو قانون القصاص : « وإن حصلت أذية تُعطى نفساً بنفس ، وعيناً بعين ، وسناً بسن ، ويداً بيد ، ورجلاً برجل ، وكيّاً بكى ، وجرحاً بجرح ورضاً برض (٢١٤) » . وما من شك في أن هذه المبادئ كانت مثلاً علياً لم تتحقق كلها على الوجه الأكمل ، وإذا شئنا أن نقول كلمة عامة عن قانون اليهود الجنائي ، قلنا إن هذا الجزء من القانون لا يفضل قانون حمورابي ، وإن كان قد كُتب بعده بألف وخمسمائة سنة على الأقل . أما من حيث تنظيم القضاء نفسه فإن فيه رجوعاً كثيراً إلى الوراء ، لأنه يعود بهذا التنظيم إلى السيطرة الكهنوتية البدائية .

ويتضح لنا من الوصية العاشرة كيف كانوا ينظرون إلى المرأة على أنها جزء من متاع الرجل : « لا تشته امرأة قريبك ، ولا عبده ولا أمته ، ولا ثوره ولا حماره ، ولا شيئاً مما لقريبك (٢١٥) » . ولكنها مع هذا كانت تحوى مبادئ قيمة عظيمة ، لو تقيد الناس بها لنجا العالم من نصف ما فيه من قلق واضطراب . ومن أعجب الأمور أن أفضل الوصايا كلها لم تكن بين هذه الوصايا العشر ، وإن كانت جزءاً من « الشريعة » الموسوية . ونقصد بذلك ما ورد في الآية الثامنة عشرة من الأصحاح التاسع عشر من سفر اللاويين تأهلاً بين « طائفة من القوانين المتكررة المختلفة الأنواع » ولا يزيد نصها على هذه العبارة : « تحب قريبك كنفسك » .

وقصارى القول أن الوصايا العشر شريعة سامية ، فيها من العيوب ما لا يزيد على عيوب العصر الذي وضعت فيه ، ولكن فيها من الفضائل ما لا يوجد في غيرها من الشرائع . ومن واجبنا أن نذكر على الدوام أنها كانت قانوناً لا أكثر ، بل أن نذكر فوق هذا أنها كانت : « طوبى كهنوتية (٢١٦) » ، ولم تكن وصفاً صادقاً للحياة اليهودية . وكانت ككل القوانين تعظم في عين أصحابها حين

يُحرقونها ، ويمتدحونها كلما اعتدوا عليها ، ولكن أثرها في سلوك أصحابها لم يكن يقل عن أثر معظم الشرائع القضائية أو الأخلاقية . وكان من أهم آثارها أنها جعلت لليهود في خلال تجوالهم الذي بدأ عقب وضعها بزمان قليل ، والذي دام ألفي عام ، « وطناً يحملونه معهم » كما سماه هين Heine فيما بعد ، ودولة روحية لا تراها العين ولا تلمسها اليد ، وضمت شملهم رغم تشتتهم ، وأبقت لهم كبرياءهم رغم هزائمهم ، وأوصلتهم خلال القرون الطوال إلى وقتنا هذا وهم شعب قوى يبدو لنا أنه لن يبيد أبدا .

الفصل السابع

أدب التوراة وفلسفتها

التاريخ — القصص — الشعر — المزامير — نشيد الأنشاد — الأمثال —
أيوب — فكرة الخلود — تشاؤم سفر الجامعة — مجيء الإسكندر

ليس العهد القديم شريعة فحسب ، بل هو فوق ذلك تاريخ ، وشعر ، وفلسفة من الطراز الأول . وإذا ما أنقصنا من قيمة الكتاب ما فيه من أساطير بدائية ، ومن أغلاط مبعثها صلاح الكتابين وتقواهم ، وأقررنا أن ما فيه من أسفار تاريخية لا تبلغ من الدقة أو من القدم ما كان أجدادنا السابقون يفترضونه فيها ، إذا ما فعلنا هذا كله فإننا لا نجد في الكتاب طائفة من أقدم الكتابات التاريخية فحسب ، بل نجد فيه كذلك طائفة من أجل تلك الكتابات . ولربما كانت أسفار القضاة وصموئيل والملوك قد وضعت على عجل ، كما يعتقد بعض العلماء^(٢١٧) ، في أثناء السبي أو بعده بقليل ليجمع فيها واضعوها التقاليد القومية لشعب مشنت كبير ، ويحفظوا بها على مدى القرون ؛ ولكن قصة شاؤل وداود وسليمان تفوق في جمال مبناها وأسلوبها غيرها من الكتابات التاريخية في الشرق الأدنى القديم . بل إن سفر التكوين نفسه — إذا استثنينا منه ما فيه من سلاسل الأنساب ، وقرأناه ونحن ندرك الهدف الذي ترمى إليه الأفاضل — إن هذا السفر نفسه هو قصة ممثلة عظيمة ، قصت علينا من غير حواش ولا زينة في بساطة ووضوح وقوة . ولسنا نجد فيها تاريخاً فحسب ، بل نجد فيها نوعاً من فلسفة التاريخ . ذلك أنها أول مادون من الجهود التي بذلها الإنسان ليؤلف من الحوادث الماضية التي لا عداد لها وحدة متناسقة بالبحث عما يسرى فيها من وحدة في الغرض ، ومن مغزى ، ومن تتابع العلة والمعلول على نحو ما ، ومن إيضاح لحاضر

الأشياء ومستقبلها . ولقد بقيت فكرة التاريخ — كما تصورها الأنبياء والكهنة واضعوا أسفار موسى الخمسة — ألف عام بعد اليونان والرومان ، وأصبحت آراء عالمية يعتنقها المفكرون الأوروبيون من بوثيوس Boëthius إلى بوسويه Bossuet والقصص الغرامية الساحرة الواردة في التوراة وسط بين التاريخ والشعر . وليس في المنشور من الكتابة ما هو أدنى إلى الكمال من قصة راعوث ؛ ولا تقل عنها كثيراً قصة إسحق ورققة ، ويعقوب وراحيل ، ويوسف وبنيامين ، وشمشون ودليلة وإستر ، ويهوديت ودانيال . ويبدأ الأدب الشعري « بنشيد موسى » (سفر الخروج الفصل الخامس عشر) و « نشيد دبورة » (القضاة الفصل الخامس عشر) ويبلغ ذروته في المزامير . وكانت ترانيم « التوبة » البابلية هي التي مهدت السبيل إلى هذه الأناشيد ، ولعل أناشيد اليهود قد أخذت منها مادتها كما أخذت عنها صورتها . ويخيل إلينا أن قصيدة إخناتون في الشمس كانت ذات أثر في المزمور الخامس والخمسين بعد المائة . وأكبر الظن أن المزامير ليست كلها من وضع داود وحده بل من وضع طائفة من الشعراء كتبوها بعد الأسر اليهودي بزمان طويل ، ويغلب أن يكون ذلك في القرن الثالث قبل المسيح^(٢١٨) .

على أن هذا البحث التاريخي كله لا يعنيننا كما لا يعنيننا اشتقاق اسم شيكسبير أو المصادر التي استمد منها مسرحياته ؛ إنما الذي يعنيننا هو أن المزامير تحتل المكان الأول في شعر العالم الغنائي . ولم يكن يقصد بها أن يطالعها الإنسان في جلسة واحدة ، أو أن يطالعها مطالعة الناقد المدقق ؛ بل إن أجمل ما فيها أنها تصف لحظات من نشوة التقى والهيام الروحي والإيمان القوي المحرك للعواطف . ولكنها يفسدها علينا ما فيها من لعنات مريرة ، و « تأوهات » وشكايات مملّة ، وملق لا ينتهي ليهوه الذي يصب الدخان صبا من خياشيمه والنار من فمه (المزمور الثامن) ، ويتوعد الأشرار بالحرق في نار الجحيم (المزمور التاسع) . يتقبل الملق ويهدد « بقطع جميع الشفاء الملقة » (المزمور الثاني عشر) . والمزامير مليئة بالحماسة

الحريية البعيدة كل البعد عن الروح المسيحية ، ولكنها مع ذلك تسرى فيها روح الحجيج المجاهدين . على أن من الزامير ما يفيض رحمة وحناناً وما يعد مثلاً في الخضوع والتذلل : « إنا تراب نحن ... الإنسان مثل العشب أيامه ، كزهرة الحقل كذلك يزهر ، لأن ريحاً تعبر عليه فلا يكون ولا يعرفه موضعه بعد » (المزموران ٢٩ ، ١٠٣) . ونحس في هذه الأناشيد بأوزان الشعر الشرقي القديم ونكاد نسمع فيها أصوات المرنمين وهم يردون على المنشدين . وليس في الشعر كله ما يفوقه في تشبيهاته وتصويره ، وليس ثمة ما يضارعه في قوة تعبيراته ووضوحها . ولهذا القصائد في نفوسنا من الأثر ما يفوق أثر أية أغنية من أغاني الحب ، فهي تحرك أقسى العواطف وأكثر النفوس شكا ، لأنها تعبر في صورة عاطفية قوية عما في العقل الناضج من شوق إلى نوع من الكمال يهب له كل جهوده . وتقابلنا في أما كن متفرقة من الترجمة الإنجليزية التي صدرت في عهد الملك جيمس عبارات بليغة جرت على لسان جميع الناطقين باللغة الإنجليزية كقولهم : Aut of the Mouths of babes (من أفواه الأطفال والرضع في المزمور الثامن) ، The apple of the eye (حذقة العين في المزمور السابع عشر) ، Trust not in princes (لا تتكلوا على الرؤساء — المزمور السادس والأربعون بعد المائة) . وفي الأصل العبراني تشبيهات واستعارات لم تفقها تشبيهات واستعارات في أية لغة من اللغات . انظر إلى قوله في المزمور التاسع عشر ، إن الشمس المشرقة : « مثل العروس الخارج من حجلمته يتهيج مثل الجبار للسباق » . ولا يسعنا إلا أن نتصور ما لهذه الأناشيد من جلال وجمال في لغتها الأصلية الطنانة الرنانة (*) .

وإذا ما وضعنا إلى جانب هذه الزامير « نشيد سليمان » لاح لنا ما في الحياة

(*) ولو أننا طلب إلينا أن نختار من هذه الزامير أحسنها لوقع اختيارنا في أكبر ظننا على الزامير رقم ٨ ، ٢٣ ، ٥١ ، ١٠٤ ، ١٣٧ ، ١٣٩ . وبين المزمور الأخير وبين نشيد هوتمان Whitman « للنشوء والارتقاء » شبه عجيب (٢١٩) .

اليهودية من عنصر شهوانى دنيوى ، لعل كُتَّاب العهد القديم — وهم الذين يكادون كلهم أن يكونوا من الأنبياء والكهنة — قد أخفوه عنا ، كما يكشف سفر الجامعة عن تشكك لا تبينه فيما عني الكتاب باختياره ونشره من أدب اليهود الأقدمين . وفي هذه الكتابات الغرامية العجيبة مجال واسع للحدس والتخمين . فقد تكون مجموعة من الأغاني البابلية الأصل ، تشيد بذكر إشتار وتموز ، وقد تكون من وضع جماعة من شعراء الغزل العبرانيين تأثروا بالروح الهيلينية التي دخلت إلى بلاد اليهود مع الإسكندر الأكبر (لأن في هذه الأغاني ألفاظ مأخوذة من اللغة اليونانية) ، أو قد تكون زهرة يهودية ترعرعت في الإسكندرية وقطعتها نفس محررة من ضفاف النيل (وذلك لأن العاشقين يخاطب أحدهما الآخر بقوله أخى أو أختى كما يفعل المصريون الأقدمون) . ومهما يكن أصلها فإن وجودها في التوراة سر خفى ولكنه سر ساحر جميل . ولسنا ندرى كيف غفل — أو تغافل — رجال الدين عما في هذه الأغاني من عواطف شهوانية فأجازوا وضعها بين أقوال إشعيا والخطباء :

صرة المر حبيبي لى ، بين ثديي بيت

طاقة فاغبة حبيبي لى فى كروم عين جدى (Engadi)

ها أنت جميلة يا حبيبتي ، ها أنت جميلة ، عيناك حمامتان

ها أنت جميل يا حبيبي وحلو وسريرنا أخضر ...

أنا نرجس شارون سوسنة الأودية ...

أسندوني بأقراص الزيب ، أنعشوني بالتفاح فإني مريضة جدا .

أحلفكن يا بنات أورشليم بالطباء وبأيائل الحقول ألا تيقظن ولا تنهين الحبيب حتى يشاء ...

حبيبي لى وأنا له الراعى بين السوسن

إلى أن يفيح النهار وتنهزم الظلال . ارجع وأشبه يا حبيبي الظبي
أو غفر الأيائل على الجبال المشعبة ...

تعال يا حبيبي لنخرج إلى الحقل ولنبت في القرى
لنبكرن إلى الكروم لننظر هل أزهر الكرم ؟ هل تفتح القفال ؟ هل
نور الرمان ؟ هنالك أعطيك حبي (٢٢٠) .

هذا هو صوت الشباب أما الأمثال فصوت الشيوخ . إن الناس يتطلبون
كل شيء من الحب والحياة ؛ وهم ينالون ما يتطلبون إلا قليلا ، ولكنهم يظنون
أنهم لم ينالوا شيئا ؛ وتلك هي المراحل الثلاث التي ينتقل فيها الإنسان المتشائم .
وهكذا ترى هذا السليمان الأسطوري (*) يحذر الشباب من شر المرأة . « لأنها
طرحت كثيرين جرحى ، وكل قتلها أقوياء ... أما الزانى بامرأة فمديم العقل ...
ثلاثة عجيبه فوق وأربعة لا أعرفها : طريق نسر في السموات ، وطريق حية على
صخر ، وطريق سفينة في قلب البحر ، وطريق رجل بفتاة (٢٢١) » . وهو يتفق
مع القديس بولس في أن أفضل للإنسان أن يتزوج من أن يحترق ! « أفرح
بامرأة شبابك ، الطيبة المحبوبة ، والوعلة الزهية ، ليروك ثدياها في كل وقت ،
وبمحبتها اسكر دائما ... أكلة من البقول حيث تكون المحبة خير من ثور
معلوف ومعه بغضة (٢٢٢) » . بحقك هل هذه الفاظ من كانت له سبعة زوجة ؟
ويلى الكسل الدنس في البعد عن الحكمة : « اذهب إلى النملة أيها
الكسلان ... إلى متى تنام أيها الكسلان ؟ (٢٢٣) »
« رأيت رجلا مجتهدا في عمله ؟ — أمام الملوك يقف (٢٢٤) » . ولكن

(*) لا يقصد الكاتب أن سليمان شخص أسطوري ، فقد تحدث عنه قبل حديث من
يعتقد أنه شخصية تاريخية ، بل يقصد كما يقول هو نفسه أن الأمثال ليست من وضع سليمان وإن
كان بعضها قد قالها هو نفسه ثم كتبت فيما بعد . إن على هذه الأمثال مسحة من الأدب المصري
والفلسفة اليونانية ، ولعلها جمعت في القرن الثالث أو الثاني قبل الميلاد ، ولعل جامعها يهودي
تأغرق من أهل الإسكندرية .

هذا الفيلسوف لا يطيق الإسراف في الطمع : « المستعجل إلى الغنى لا يبرأ ، »
و « راحة الجاهل^(٢٢٥) تبيدهم » والعمل هو الحكمة ، أما الكلام فحمق وسخف :
« في كل تعب منفعة ، وكلام الشفتين إنما هو إلى الفقر » ... « الجاهل يظهر كل
عبطه ، والحكيم يسكنه أخيراً » « ذو المعرفة يبقى كلامه وذو الفهم وقور الروح ،
بل الأحق إذا سكت بحسب حكيم ومن ضم شفتيه فهيم^(٢٢٦) » .

ومن النصائح التي لا ينفك ذلك الحكيم يرددها حكمة تكاد تنطبق ألفاظها
على وصف سقراط للفضيلة والحكمة ، تفوح بعطر مدارس الإسكندرية حيث
كان علم اللاهوت العبري يمتزج بالفلسفة اليونانية لتخرج لنا من مزيجهما العقلية
الأوربية : « الفطنة ينبوع حياة لصاحبها ، وتأديب الحق حماة ... طوبى
للإنسان الذي يجد الحكمة وللرجل الذي ينال الفهم ، لأن تجارتها خير من تجارة
الفضة ، وربحها خير من الذهب الخالص ، هي أثمن من اللآلى وكل جواهر ك
لا تساويها ، في يمينها طول أيامك وفي يسارها الغنى والمجد ، طرقها طرق نعم ،
وكل مسالكها سلام^(٢٢٧) » .

وسفر أيوب أسهل من سفر الأمثال ؛ ولعل ذلك السفر قد كتب في أيام
السبي ، ولعله يصف بطريق القياس الأسر البابلي^(*) ويقول فيه كارليل وهو

(*) ويظن العلماء أن هذا السفر قد كتب في القرن الخامس قبل الميلاد^(٢٢٨) .
ونصوصه أكثر تهويشا حتى من الكتب المقدسة في أية أمة من الأمم القديمة . ويرفض
چاسترو هذه النصوص كلها ما عدا الفصول ٣ — ٣١ ، ويرى أن ما بقي من الفصول
تعديلات أدخلت عليها لتدعيمها ، وحتى الفصول التي قبلها يظن أن فيها عبارات ليست منها
قد أقيمت فيها إقحاماً ، وأن بعض العبارات الأصلية قد أسيئت ترجمتها . من ذلك ما جاء في
الآية الخامسة من الفصل الثالث عشر : « هوذا يقتلني فهذا يعود إلى خلاصى » (الأصحاح ١٣ : ١٥)
فهذه الآية يجب أن تترجم هكذا : « ولكنى لا أرتجف » أو « ولكنى لا أرجو شيئاً »^(٢٢٩)
[ونص الآيات كاملاً هو : « هوذا يقتلني ، لا أنتظر شيئاً ، فقط أركب طريق قدامه ، فهذا
يعود إلى خلاصى » (الترجم)] .

ويرى كلن وغيره في هذا السفر ما يشبه إحدى المآسى اليونانية التي كتبت على نمط مآسى
يورپديز^(٢٣٠) . والفصول المحصورة بين ٣ ، ٤١ مصوغة على أوزان الشعر العبرى .

من أشد الناس تحمسا له : « وأنا أقول عنه إنه من أعظم ما خط بالقلم ... فهو كتاب نبيل ؛ وهو كتاب الناس أجمعين ! وهو أول وأقدم شرح لتلك المشكلة التي لا آخر لها — مشكلة مصير الإنسان وتصرف الله معه على ظهر هذه الأرض ... واعتقادي أن لا شيء في التوراة أو في غير التوراة يضارعه في قيمته الأدبية^(٢٣٠) » وقد قامت هذه المشكلة بسبب اهتمام العبرانيين بأمور هذه الدنيا . ذلك أنه لما كانت الجنة لا وجود لها في الديانة اليهودية القديمة^(٢٣١) فقد كان من الواجب المحتم أن تنال الفضيلة ثوابها في هذا العالم ، وإلا لم يكن لها ثواب على الإطلاق . ولكنهم كثيراً ما كان يبدو لهم أن الأشرار ينجحون ويفوزون ، وأن أشد الآلام قد اختص بها خيار الناس ، فلم إذن كما يقول كاتب المزامير : « هؤلاء هم الأشرار يكثر ثروتهم^(٢٣٢) » ؟ ولم يخفى الله نفسه ولا يعاقب الأشرار ويثيب الأخيار ؟^(٢٣٣) ، وها هو ذا مؤلف سفر أيوب يسأل هذه الأسئلة وهو أكثر ممن سبقه عزما وثباتاً ولعله يعرض بطله أمام الناس رمزاً لعقيدته . ولقد كان بنو إسرائيل كلهم يعبدون يهوه (في فترات متقطعة) كما كان يعبد يهوه ، وكانت بابل تجرده وتكفر به ؛ ومع ذلك فقد ازدهرت بابل ، وتمرغ بنو إسرائيل في الوحل ، ولبسوا الخيش حين أسروا وشردوا . فماذا يقول الإنسان في هذا الإله ؟ وجاء في مقدمة لهذا السفر ، لعل كاتباً أريباً قد دسها فيه ليمحو منه تلك الوصمة ، أن الشيطان قال ليهوه إن أيوب إنسان « كامل مستقيم » لأنه رجل محظوظ ، فهل يستمسك بتقواه إذا أصابه الضر ؟ فيسمح يهوه للشيطان بأن يصب ألواناً من المصائب على رأس أيوب . ويظل البطل وقتاً ما صابراً « صبر أيوب » ولكن صبره هذا يفارقه في آخر الأمر ، ويفكر في الانتحار ، ويلوم ربه أشد اللوم لأنه نبذه وتخلي عنه . ويصر صوفراً — وقد خرج ليستمتع بالآلام صديقه — على أن الله عادل وأنه سيثيب الإنسان الصالح في هذه الدنيا نفسها ؛ ولكن أيوب يقطع عليه حديثه محتداً :

« إنكم أنتم شعب ومعكم تموت الحكمة ، غير أنه لي فهم مثلكم ، لست أنا دونكم ، ومن ليس عنده مثل هذه ! ... خيام المخربين مستريحة والذين يغيظون الله مطمئنون ؛ الذين يأتون بإلههم في يدهم ... هذا كله رأته عيني ، سمعته أذني وفطنت به ... أما أنتم فملفقو كذب أطباء بطلون كلكم . ليتكم تصمتون صمتاً ، يكون ذلك لكم حكمة^(٢٣٤) » .

ثم يفكر في قصر الحياة وطول الموت فيقول :

« الإنسان مولود المرأة قليل الأيام وشبعان تعباً ، يخرج كالزهر ثم ينفحسم ، ويرح كالظل ولا يقف ، ... لأن للشجرة رجاء إن قطعت تحلف ولا تعدم حراً عيبها ... أما الرجل فيموت ويبلئ ؛ الإنسان يسلم الروح فأين هو ؟ قد تنفذ المياه من البحر ، والنهر ينشف ويجف ، والإنسان يضطجع ولا يقوم ... إن مات رجل أفيحيا ؟ »^(٢٣٥) .

ويظل الجدل قائماً بشدة ، ويزداد شك أيوب في ربه ، حتى يدعو خصيمه ، ويتمنى أن يهلك خصمه هذا نفسه بكتاب يكتبه — على نمط فلسفة ليبنتز Leibnitz وأقواله في العدالة الإلهية . وتوحى العبارة التي جاءت في ختام هذا الفصل « تمت أقوال أيوب » — بأن هذا كان في الأصل ختام حديث يمثل كما يمثل سفر الجامعة آراء أقلية جاحدة بين اليهود^(*) . ولكن فيلسوفاً آخر — إلهو — يبدأ الكلام من هذه النقطة ويشرح في مائة وخمس وستين آية عدالة الله في خلقه . وأخيراً يُسمع صوت من بين السحاب يتحدث حديثاً هو أجل ما في التوراة كلها .

(*) يقول رينان وهو الفيلسوف المشكك : « إن المشكك لا يكتب إلا قليلاً ، ثم إن كتاباته نفسها كثيرة التعرض للضياح . ولما كانت مصائر اليهود مرتبطة كل الارتباط بالدين فقد كان لابد من التضحية بالنفس الديني من أديهم »^(٢٣٦) . وإن في تكرار هذه العبارة : « قال الجاهل في قلبه ليس إله » في المزمورين (١٤ : ١ ، ٥٣ : ١) ليدل على أن هؤلاء الجاهل كانوا من السكرة بين بني إسرائيل بحيث يشيرون بعض المتعاب . ويلوح أن ثمة إشارة إلى هذه الأقلية في صفنيا ١ : ١٢ .

فأجاب الرب أيوب من العاصفة وقال :

« من هذا الذى يظلم القضاء بكلام بلا معرفة . اشدد الآن حقويك كرجل
فإني أسألك فتعلمنى . أين كنت حين أسست الأرض . أخبر إن كان عندك فهم
من وضع قياسها ، لأنك تعلم ؟ أو من مد عليها مطارا ؟ على أى شيء قرت
قواعدها ؟ أو من وضع حجر زاويتها ، عندما ترنمت كواكب الصبح معا وهتف
جميع بنى الله ؟ ومن حجز البحر بمصاريح حين اندفق فخرج من الرحم ، إذ جعلت
السحاب لباسه والضباب قماطه وضربت عليه حدى ، وأقمت له مغاليق ومصاريح
وقلت إلى هنا تأتى ولا تتعدى وهنا تتخمد كبرياء لججك ؟ هل فى أيامك أمرت
الصبح ؟ هل عرفت الفجر موضعه ؟ ... هل انتهيت إلى ينابيع البحر أو فى
مقصورة القمر تمشيت ؟ هل انكشفت لك أبواب الموت أو عاينت أبواب ظل
الموت ؟ هل أدركت عرض الأرض ؟ أخبر إن عرفته كله ؟ ... أدخلت إلى
خزان الثلج أم أبصرت مخازن البرد ؟ ... هل تربط أنت عقد الثريا أو تفك
رُبط الجبار ؟ هل عرفت سنن السموات أو جعلت تسلطها على الأرض ؟ ... من
وضع فى الضحاء حكمة أو من أظهر فى الشهب فطنة ؟

« هل يخاصم القدير موبخه ، أم الحاج الله يجاوبه ؟ أسألك فتعلمنى » (٢٣٧) .

ويذل أيوب نفسه لهول ما يرى ؛ ويرضى يهوه بهذا فيعفو عنه ، ويقبل
تضحيته ، ويتوعد أصدقاء أيوب لما نطقوا به من حجج واهية (٢٣٨) ، ويهب
أيوب نفسه أربعة عشر ألفاً من الغنم ، وستة آلاف من الإبل ، وألف فدان
من الثيران ، وألف أتان ، وسبعة بنين ، وثلاث بنات ، وعاش بعد هذا مائة
وأربعين سنة . وتلك خاتمة عرجاء ولكنها خاتمة سعيدة ؛ لأن أيوب يحصل
على كل شيء إلا جواب أسئلته ؛ فالمشكلة تظل باقية ؛ وسوف تكون لها
آثار بعيدة فى تفكير اليهود فيما بعد . وفى أيام دانيال (حوالى ١٦٧ ق . م)
سكت اليهود عن هذه المشكلة وعدوها من المشاكل التى شرحها بعبارات

تدركها العقول في هذه الحياة الدنيوية ، ولا يستطيع الإجابة عنها — كما يقول دانيال وأخنوخ (وكانت Kant) إلا إذا آمن الإنسان بحياة بعد المات ، ترفع فيها كل المظالم ، وتصحح كل الأخطاء ، يعاقب فيها المسيء ، ويثاب المحسن أجزل الثواب . وكانت هذه إحدى الأفكار المختلفة التي سرت في المسيحية ، وكانت من أكبر أسباب انتصارها على غيرها من الأديان المعاصرة لها .

ويجب سفر الجامعة عن هذه المسألة جواباً متشائماً ، فيقول إن الهناء والشقاء في هذا العالم لا شأن لهما بالفضيلة والرذيلة (*) :

« قد رأيت الكل في أيام بطلى ، قد يكون بارٌّ يبید في برّه ، وقد يكون شرير يطول في شره ... ثم رجعت ورأيت كل المظالم التي تجري تحت الشمس : فهو ذا دموع المظلومين ولا مقرر لهم ، ومن يد ظالمهم قهر ... إن رأيت ظلم الفقير وتزع الحق والعدل في البلاد فلا ترتع من الأمر ... لأن فوق العالی عالیاً^(٢٤١) »

وليست الفضيلة والرذيلة هما اللتين تقوم عليهما سعادة الإنسان وشقاؤه ، وإنما تقوم السعادة والشقاء على المصادفة العمياء : « فعدت ورأيت تحت الشمس أن السعى ليس للخفيف ، ولا الحرب للأقوياء ، ولا الخبز للحكماء ، ولا الغنى للفهماء ، ولا النعمة لذوى المعرفة ، لأن الوقت والفرص يلاقيانهم كافة^(٢٤٢) » . وحتى الثروة نفسها لا بقاء لها ولا تسعد صاحبها طويلاً : « من يحب الفضة لا يشبع من الفضة ، ومن يحب الثروة لا يشبع من دخل . هذا أيضاً باطل ... نوم المشتغل حلواً إن أكل قليلاً أو كثيراً . ووفر الغنى لا يربحه حتى ينام^(٢٤٣) » . ويذكر الكاتب أهله فيجمع مبادئ مالتس Maltus في سطر واحد : « إذا كثرت الخيرات كثرت الذين يأكلونها^(٢٤٤) » . كذلك لا يخفف من آلامه ما يقال

(*) لا يعرف مؤلف هذا السفر ولا وقت تأليفه . ويرجمه سارتن إلى الفترة الواقعة ما بين عامي ٢٥٠ ، ١٦٨ ق . م^(٢٣٩) . ويطلق المؤلف على نفسه اسمين أديين مستعارين مخلط بينهما وحا « كحيلة » و « ابن داود ملك أورشليم » أي سليمان^(٢٤٠) .

له عن ماض ذهبي أو مستقبل هنيء ، فهو يرى أن الأمور جميعها كانت في ماضيتها كما هي في حاضرها وكما ستكون في مستقبلها على الدوام : « لا تقل لماذا كانت الأيام الأولى خيراً من هذه ؟ لأنه ليس عن حكمة تسأل عن هذا ^(٢٤٥) » ؛ ومن واجب الإنسان أن يعنى باختيار مؤرخيه : « ما كان فهو ما يكون ، والذي صُنِعَ فهو الذي يُصنع ، فليس تحت الشمس جديد . إن وجد شيء يقال له انظر : هذا جديد ، فهو منذ زمان كان في الدهور التي قبلنا ^(٢٤٦) » . وهو يظن أن الرقي وهم باطل فالمدنيات القديمة قد نسيت وستنسى أيضاً المدنيات القائمة ^(٢٤٧) .

وهو يرى أن الحياة بوجه عام عمل محزن ، وأن لا ضير من التخلص منها ، فهي حركة دائرية لا غاية لها ولا هدف ولا نتيجة باقية ، تنتهى حيث تبدأ ؛ وهي صراع عقيم باطل ليس فيه شيء يحقق إلا الهزيمة :

« باطل الأباطيل قال الجامعة ؛ باطل الأباطيل الكل باطل . ما الفائدة للإنسان من كل تعب الذي يتعبه تحت الشمس ، دور يمضى ودور يجىء ، والأرض قائمة إلى الأبد ، والشمس تشرق ، والشمس تغرب ، وتسرع إلى موضعها حيث تشرق . الريح تذهب إلى الجنوب وتدور إلى الشمال ، تذهب دائرة دورانا ، وإلى مداراتها ترجع الريح . كل الأنهار تجري إلى البحر ، والبحر ليس بملاّن . إلى المكان الذي جرت منه الأنهار ، إلى هناك تذهب راجعة ... فغبطت أنا الأموات الذين قد ماتوا منذ زمان أكثر من الأحياء الذين هم عاشون بعد . وخير من كليهما الذي لم يولد بعد ، الذي لم ير العمل الردىء الذي عمل تحت الشمس ... الصيت خير من الدهن الطيب ، ويوم المات خير من يوم الولادة ^(٢٤٨) » .

وهو يقضى بعض الوقت يبحث عن حل للغز الحياة في الانغماس في المذات . « فمدحت الفرح لأنه ليس للإنسان خير تحت الشمس إلا أن يأكل ويشرب ويفرح » . ولكن « هذا أيضاً باطل » . والصعوبة التي تواجهنا في مسراتنا هي المرأة ، ويلوح أن الواعظ قد لاقى منها شراً لم يستطع نسيانه . « رجلاً واحداً

بين ألف وجدت ، أما امرأة فبين كل أولئك لم أجد ... فوجدت أمر من الموت المرأة التي هي شباك ، وقلبها أشراك ويدها قيود ، الصالح قدام الله ينجو منها^(٢٥١) . وهو يختم استطراده في دنيا الفلسفة الغامضة بالعودة إلى نصيحة سليمان وقلتير ، وهي النصيحة التي لم يعمل بها كلاهما : « التذعش مع المرأة التي أحبتها كل أيام حياة باطلك التي أعطاك إياها تحت الشمس^(٢٥٢) » .

وحق الحكمة نفسها مسألة مشكوك فيها ؛ فهو يكيل لها المدح جزافا ، ولكنه يظن أن العلم إذا لم يكن بالقدر القليل كان بالغ الخطورة ، فهو يقول في غير حذر : « لعمل كتب كثيرة لا نهاية ، والدرس الكثير تعب للجسد^(٢٥٣) » . وفي رأيه أنه قد يكون من الحكمة أن يسعى الإنسان للحكمة لو أن الله قد جعلها تثمر مالا أكثر مما تثمره فعلا : « الحكمة صالحة مثل الميراث بل أفضل لناظري الشمس^(*) . فإذا لم يصحبها المال كانت شركا يقضى على طلابها^(٢٥٤) . (إن الحكمة شبيهة بيهوه الذي قال لموسى : « لا تقدر أن ترى وجهي لأن الإنسان لا يراني ويعيش^{(**)(٢٥٥)} ») . والحكيم يموت آخر الأمر كما يموت الأبله وكلاهما ينتهي إلى جيفة نتنه .

« ووجهت قلبي للسؤال والتفتيش بالحكمة عن كل ما عمل تحت السموات . هو عناء ردىء جعلها الله لبنى البشر ليعنوا فيه . رأيت كل الأعمال التي عملت تحت الشمس فإذا الكل باطل وقبض الريح ... أنا ناجيت قلبي قائلا هأنذا قد عظمت وازددت حكمة أكثر من كل من كان قبلي على أورشليم ؛ وقد رأى قلبي كثيراً من الحكمة والمعرفة ؛ ووجهت قلبي لمعرفة الحكمة ولمعرفة الحماقة والجهل ،

(*) هذا هو النص في الترجمة العربية للكتاب المقدس ، ولكن معنى النص الإنجليزى الذى أورده المؤلف : « الحكمة صالحة مع الميراث » . (المترجم)

(**) « رب أرني أنظر إليك قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني » قرآن كريم .

فعرفت أن هذا أيضا قبض الريح ، لأن في كثرة الحكمة كثرة الغم ، والذي يزيد علما يزيد حزنا^(٢٥٦) .

ولو أنه كان من مبادئ هذا الدين أن الرجل العادل يستطيع أن يتطلع إلى شيء من السعادة بعد الموت لكان في مقدوره أن يتحمل سهام مصائب الدهر وقلبه عامر بالأمل والشجاعة ؛ ولكن كاتب سفر الجامعة « يحس » بأن هذا أيضا وهم باطل ، فالإنسان حيوان يموت كما يموت غيره من الحيوانات :

« لأن ما يحدث لبني البشر يحدث للبهيمة ، وحادثة واحدة لهم ، موت هذا كموت ذاك ، ونسمة واحدة لكل ، فليس للإنسان مزية على البهيمة لأن كليهما باطل . يذهب كلاهما إلى مكان واحد . كان كلاهما من التراب وإلى التراب يعود كلاهما ... فرأيت أنه لا شيء خير من أن يفرح الإنسان بأعماله لأن ذلك نصيبه ، لأنه من يأتي به ليرى ما سيكون بعده ؟ ... كل ما تجده يدك ليفعله فافعله بقوتك لأنه ليس من عمل ولا اختراع ولا معرفة ولا حكمة في الهاوية التي أنت ذاهب إليها^(٢٥٧) . »

ألا ما أغرب هذا تعليقا على الحكمة التي يسبِّح بحمدها سفر الأمثال ! ولا شك في أن هذه الأقوال إنما تعبر عن الحضارة التي بلغت آخر مراحلها ، فلقد نضب معين شباب إسرائيل في الكفاح المرير الذي قام بينها وبين الإمبراطوريات المحيطة بها ، والتي لم ينقذها منها يهوذا الذي كانت تعتمد على معونته ، فلما تأزمت أمورها وافتقرت وتشقت رفعت إلى السماء في آدابها هذا الصوت وهو أشد الأصوات مرارة لتعبر به عن أعماق الشكوك التي طافت في يوم من الأيام بالنفس البشرية .

نعم إن أورشليم قد أعيد بناؤها ، ولكنها لم تعد لتكون حصنا للإله لا يقهر ، بل عادت لتكون مدينة تخضع للفرس حيناً واليونان حيناً آخر . فقد وقف الإسكندر الشاب على أبوابها في عام ٣٣٤ ق . م ، وطلب إلى تلك العاصمة أن

تستسلم له . وأبى الكاهن الأكبر في أول الأمر أن يجيبه إلى ما طلب ، ولكنه صدع بالأمر في صباح اليوم الثاني على أثر حلم رآه في نومه ، فأمر الكهنة أن يرتدوا من ملابسهم أعظمها روعة وأشدّها وقعا في النفوس ، كما أمر الأهلين أن يلبسوا ثياباً بيضاً لاشية فيها ، ثم سار على رأس الشعب إلى خارج أبواب المدينة في هدوء وسلام ليعرضوا الصلح على الغازين . وانحنى الإسكندر تعظيماً للكاهن الأكبر وأظهر له إعجابه ببني إسرائيل وبإلههم وتقبل منهم أورشليم^(٢٥٨) .

على أن هذا لم يكن آخر حياة بلاد اليهود ، بل كان هو الفصل الأول من هذه المسرحية العجيبة التي تمتد فصولها المختلفة طوال أربعين قرناً من الزمان ، والتي تدور حوادث فصلها الثاني حول المسيح ، وحوادث الفصل الثالث حول أحاسوروس . واليوم يمثل من هذه المسرحية فصل آخر ولكنه ليس آخر فصولها . لقد خربت أورشليم وأعيد بناؤها ، ثم خربت وأعيد بناؤها ، وهامى ذى اليوم قائمة مرة أخرى شاهدة على ما لهذا الشعب من حيوية وصلابة وبطولة . إن اليهود القدامى قدم التاريخ قد يبقون ما بقيت الحضارة .

الباب الثالث عشر

فارس

الفصل الأول

قيام دولة الميديين وسقوطها (*)

أصولهم — حكامهم — معاهدة سرديس الدموية — انحطاطهم

ترى من هم الميديون الذين كان لهم شأن أعظم شأن في تحطيم دولة آشور ؟
أما معرفة أصلهم فأمر معجز الدرك عزيز المطلب ، ذلك أن التاريخ كتاب يجب أن يبدأ الإنسان من وسطه . وأول ما وصل إلينا من أخبارهم في لوحة تسجل حملة بعث بها شلما نصر الثالث إلى بلد يسمى يارسوا في جبال كردستان (٨٣٧ ق . م) .
ويلوح أنه كان في ذلك البلد سبعة وعشرون من الرؤساء — الملوك ، يحكمون سبعة وعشرين ولاية قليلة السكان يسمى أهلها أماداي أو ماداي أو ميديين .
وهم أقوام من الجنس الهندو ربي يرجح أنهم جاءوا من شواطئ بحر الخزر إلى غرب آسية قبل المسيح بنحو ألف عام ، ويشيد الزند — أوستاق وهو كتاب الفرس المقدس بذكر هذا الموطن القديم ويصفه بأنه جنة من الجنان .

ذلك أن الأرض التي نقضى فيها شبابنا ، وأيام هذا الشباب نفسه ، جميلة على الدوام على شريطة ألا نضطر إلى الحياة من جديد في تلك الأرض أو في تلك الأيام .

(*) تسمى أحياناً دولة الماديين وقد ذكرت في التوراة بهذا الاسم . (الترجم)

ويلوح أن الميديين كانوا يضربون في إقليم بخارى وسمرقند ، وأنهم توغلوا منه نحو الجنوب شيئاً فشيئاً ، حتى وصلوا آخر الأمر إلى بلاد فارس^(١) ، فوجدوا النحاس والحديد والرصاص والذهب والفضة والرخام والحجارة الكريمة في الجبال التي اتخذوها موطناً لهم جديداً^(٢) ، ولما كانوا قوماً أشداء بسطاء في معيشتهم ، فقد أخذوا يفلحون أرض السهول وسفوح التلال وعاشوا منها عيشة رخيّة .

وفي إكباتانا(*) أى « ملتقى الطرق الكثيرة » الواقعة في واد جميل المنظر أخصبته المياه الذائبة من الثلوج المغطية لقلل الجبال أنشأ ديوسيس أول ملوكهم عاصمته الأولى ، وزينها بقصر ملكي يشرف عليها ويغطى ثلثي ميل مربع من الأرض . ويقول هيرودوت في فقرة من كتابه لم نجد ما يؤيدها : إن ديوسيس هذا قد وصل إلى ما وصل إليه من القوة بما اشتهر به من العدالة . فلما أن بلغ ما بلغ طغى وتجبر وأصدر أوامر تقضى : « بأن لا يسمح للإنسان بالثول بين يديه ، بل عليه أن يعرض أمره على يد رسله ، وأن يعد من سوء الأدب أن يضحك إنسان أو يبصق أمامه . وقد أراد بهذه المراسم التي فرضها حوله ... أن يبدو لمن لا يرونه أنه من طبيعة غير طبيعتهم^(٣) » . واشتد ساعد الميديين في أيامه بفضل حياتهم الطبيعية الاقتصادية ، وأصبحوا بتأثير عاداتهم وبيئتهم ذوى جلد وصبر على ضرورات الحروب ، فكانوا بزعامته خطراً يهدد آشور ، فأغارت هذه على بلاد ميديا مرة بعد مرة ، وظنت أنها قد هزمتها هزيمة منكرة لا تجرؤ معها على مناوأتها ، ولكنها وجدت أنها لا تمل الكفاح لنيل حريتها . واستطاع سياخار (سياكزارس) أعظم ملوك الميديين أن يحسم هذا النزاع بتدمير نينوى . وأوحى هذا النصر آمالاً كباراً فاجتاحت جيوشه بلاد آسية الغربية حتى وصلت إلى أبواب سرديس ، ولم يرد هذه الجيوش عنها إلا كسوف الشمس . فقد ارتاع القائدان المتقاتلان لهذا الذي ظناه نذيراً لهما من السماء ، فوقعوا معاهدة للصلح أبرماها بأن شرب كل منهما

(*) والراجع أنها مدينة همدان الحالية .

جرعة من دماء عدوّه^(٤) . ومات كيخسرو في السنة التالية بعد أن وسع رقعة دولته في خلال حكمه وحده فأصبحت إمبراطورية تشمل آشور وميديا وفارس بعد أن كانت ولاية خاضعة لسلطان غيرها . لكن هذه الإمبراطورية قضى عليها ولما يمض على وفاة هذا الملك جيل واحد .

وقد كانت هذه الدولة قصيرة الأجل ، فلم تستطع لهذا السبب أن تساهم في الحضارة بقسط كبير ، إذا استثنينا ما قامت به من تمهيد السبيل إلى ثقافة بلاد الفرس . فقد أخذ الفرس عن الميديين لغتهم الآرية ، وحروفهم الهجائية التي تبلغ عدتها ستة وثلاثين ، وهم الذين جعلوا الفرس يستبدلون في الكتابة الرق والأقلام بالواح الطين^(٥) ، ويستخدمون في العمارة العمد على نطاق واسع . وعندهم أخذوا قانونهم الأخلاقي الذي يوصيهم بالاقتصاد وحسن التدبير ما أمكنهم ، في وقت السلم ، وبالشجاعة التي لاحد لها في زمن الحرب ؛ ودين زردشت وإلهيه : أهورا — مزدا ، وأهرمان ، ونظام الأسرة الأبوي ، وتعدد الزوجات ، وطائفة من القوانين بينها وبين قوانينهم في عهد إمبراطوريتهم المتأخر من التماثل ما جعل دانيال يجمع بينهما في قوله المأثور عن « شريعة ميدي وفارس التي لا تنسخ^(٦) » . أما أدبهم وفنهم فلم يبق منهما لا حرف ولا حجر .

على أن انحطاط الميديين كان أسرع من نهضتهم نفسها . فقد أثبت استياجس ، الذي خلف أباه سياخار ، ما أثبتته التاريخ من قبل ، وهو أن الملكية مغامرة لا تؤمن مغبتها ، وأن الذكاء المفرط والجنون يتقاربان كل القرب في وراثة الملك .

لقد ورث الملك وهو مطمئن القلب هادئ البال ، وأخذ يستمتع بما ورث ، وحذت الأمة حذو مليكها فنسيت أخلاقها الجافة الشديدة وأساليب حياتها الخشنة الصارمة ؛ ذلك أن الثروة قد أسرع إلى إسراعها لم يستطع أهلها معه أن يحسنوا استخدامهما ، وأصبحت الطبقات العليا أسيرة الأنماط الحديثة والحياة المترفة ،

فلبس الرجال السراويل المطرزة الموشاة ، وتجملت النساء بالأصباغ والحلى ، بل إن الخيل نفسها كثيراً ما كانت تزين بالذهب^(٧) . وبعد أن كان هؤلاء الرعاة البسطاء يجدون السرور كل السرور في أن تحملهم مركبات بدائية ذات دواليب خشنة غليظة قطعت من سوق الأشجار^(٨) ، أصبحوا الآن يركبون عربات فاخرة عظيمة الكلفة ينتقلون بها من ولية إلى ولية .

وبعد أن كان الملوك الأولون يفخرون بعداتهم جاء استياجس ففضب يوماً على هر باجس فقدم له أشلاء ابنه بعد أن قطع رأسه وأرغمه على أن يأكل لحمه^(٩) ، فأكله هر باجس وهو يقول إن كل ما يفعله المليك يسره ، ولكنه انتقم لنفسه بأن أعان قورش على خلع استياجس ؛ ذلك أن قورش الشاب النابه حاكم ولاية أنشان الفارسية التي كانت تابعة للميديين خرج على طاغية إكتابانا المنحث ، وابتهج الميديون أنفسهم بانتصاره على ذلك الطاغية وارتضوه ملكاً عليهم ، ولم يكذب يرفع من بينهم صوت واحد بالاحتجاج عليه . وما هي إلا واقعة واحدة حتى انقلبت الآية فلم تعد ميديا سيدة فارس بل أصبحت فارس سيدة ميديا وأخذت تعد العدة لتكون سيدة عالم الشرق الأدنى كله .

الفصل الثمانى

عظماء الملوك

قورش صاحب الشخصية الروائية — خطته السياسية المستنيرة —
قبيز — دارا الأكبر — غزو بلاد اليونان

وكان قورش من الحكام الذين خُلِقُوا ليكونوا حكاماً والذين يقول فيهم
إمرسن إن الناس كلهم يبتهجون حين يتوَجَّون . فلقد كان ملكاً بحق في روحه
وأعماله ، قديراً في الأعمال الإدارية والفتوح الخاطفة المسرحية ، كريماً في معاملة
المغلوبين ، محبوباً من أعدائه السابقين — فلا عجب والحالة هذه أن يتخذ
اليونان منه موضوعاً لعدة روايات ، وأن يصفوه بأنه أكبر أبطال العالم قبل
الإسكندر .

ومما يؤسفنا أننا لا نستطيع أن نرسم له صورة موثوقاً بصحتها مما نقرؤه عنه
في هيرودوت أو زينوفون . ذلك بأن أول الرجلين قد خلط تاريخه بكثير من
القصص الخرافية^(١٠) ، وأن الثانى قد جعل السيروبيديا (سيرته) مقالة عن
فنون الحرب تتخللها في بعض المواضع محاضرات في التربية والفلسفة ؛ ونرى
زينوفون أحياناً يخلط بين قورش وسقراط . فإذا ما أخرجنا هذه الأفاصيص
لم يبق لنا من شخصية قورش إلا أنه طيف خيال ممتع جذاب . وكل ما نستطيع
أن نقوله عنه واثقين أنه كان وسيماً بهى الطلعة — لأن الفرس اتخذوه نموذجاً
لجمال الجسم حتى آخر أيام فهم القديم^(١١) ؛ وأنه أسس الأسرة الأكمينية أسرة
« الملوك العظام » التى حكمت بلاد الفرس فى أزهى أيامها وأعظمها شهرة ، وأنه
نظم قوات ميديا وفارس الحربية فجعل منها جيشاً قوياً لا يقهر ، وأنه استولى على
سرديس وبابل ، وقضى على حكم الساميين فى غرب آسية فلم تقم له بعدئذ قائمة

مدى ألف عام كاملة ، وضم إلى الدولة الفارسية كل البلاد التي كانت من قبل تحت سلطان آشور ، وبابل ، وليديا ، وآسية الصغرى ، حتى أصبحت تلك الإمبراطورية أوسع المنظمات السياسية في العالم القديم قبل الدولة الرومانية ، ومن أحسنها حكماً في جميع عصور التاريخ .

ويبدو — على ما نستطيع أن نتصوره فيما يحيط به من سُدُم الأساطير والأوهام — أنه كان أحب الفاتحين إلى النفوس ، وأنه أقام دولته على قواعد من النبيل وكريم السجايا ؛ وأن أعداءه كانوا يعرفون عنه لين الجانب فلم يحاربوه بتلك القوة المستيئة التي يحارب بها الرجال حين لا يجدون بداً من أن يقتلوا أو يُقتلوا . ولقد مر بنا من قبل — على ما يرويه هيرودوت — كيف أنجى كروسس من الخطب المحرق الذي وضع عليه في سرديس ، وكيف أكرمه وجعله من أعظم مستشاريه ، ومر بنا كذلك كرمه وحسن معاملته اليهود . وكانت أولى القواعد السياسية التي تقوم عليها دولته أن يترك للشعوب المختلفة التي تتألف منها حرية العبادة والعقيدة الدينية ، لأنه كان عليماً كل العلم بالمبدأ الأول الذي يبني عليه حكم الشعوب ، وهو أن الدين أقوى من الدولة ؛ ومن أجل ذلك لا نراه ينهب المدن ويخرب المعابد ، بل يراه يمدى كثيراً من الإكبار والجمالة لآلهة الشعوب المغلوبة ، ويساهم بماله في المحافظة على أضرحتها ؛ بل إن البابليين أنفسهم ، وهم الذين قاوموه طويلاً ، قد التفوا حوله وتحمسوا له حين رآوه يحافظ على هياكلهم ويعظم آلهتهم . وكان أينما سار في فتوحه التي لم يسبقه إليها فاتح من قبله قرب القرابين إلى الآلهة المحلية في تقى وورع . وكان كنياسيون يعترف بالأديان كلها على السواء ، ويفوقه فيما يظهره من بشاشة وكماسة وهو يكرم جميع الآلهة

وهو يشبه ناپليون من ناحية أخرى ، وهي أنه مات ضحية الإسراف في المطامع . ذلك أنه لما فرغ من فتح الشرق الأدنى بأجمعه وضمه إلى ملكه ،

أراد أن يحرر ميديا وفارس من غزو البدو الهمج الضاربين في أواسط آسية . ويلوح أنه أوغل في حملاته حتى وصل إلى ضفاف نهر جيحون شمالا وإلى الهند شرقا ؛ فلما وصل إلى ذروة مجده قتل فجأة وهو يحارب المسيحية إحدى القبائل المجهولة التي كانت نازلة على السواحل الجنوبية لبحر الخزر ، فكان كالايسكندر افتتح إمبراطورية متسعة الرقعة ولكن المنية عاجلته قبل أن ينظمها . لكن أخلاق قورش قد شابتها شائبة كبيرة ، تلك هي قسوته المفرطة في بعض الأحيان .

وجاء بعده ابنه قمبيز وكان به شبه جنة فورث عن أبيه قوته وإن لم يرث عنه شيئا من كرمه . وبدأ قمبيز حكمه بأن قتل أخاه سمرديس منافسه في الملك ، ثم أغوته ثروة مصر الطائلة فزحف عليها ليمد حدود الإمبراطورية الفارسية إلى نهر النيل . وأفلاح فيما كان يبتغيه ، ولكنه على ما يظهر أضاع في سبيل ذلك رشده . ولم يكلفه الاستيلاء على منف كبير مشقة ، ولكن الجيش الذي أرسله للاستيلاء على واحة أمون هلك في الصحراء ، كما أخفقت حملة سيرها إلى قرطاجة لأن بحارة الأسطول الفارسي الفينيقيين أبوا أن يهاجموا مستعمرة فينيقية ؛ وجن جنون قمبيز ، فذهبت عنه حكمة أبيه ، وما كان يتصف به من رحمة وتسامح ، فأخذ يسخر من دين المصريين ، وطعن بخنجره العجل أيبس معبودهم وموضع إجلالهم وتقديسهم وهو يستهزئ به . ولم يكفه هذا ، بل أخرج الجثث المحنطة من مدافنها ونش قبور الملوك ولم يبال في ذلك بما كان عليها من لعنات قديمة ، ودنس الهياكل وأمر بإحراق ما فيها من الأصنام ، ظنا منه أن عمله هذا سوف يشفي المصريين من خرافاتهم وأوهامهم ، فلما انتابه المرض — ويلوح أن مرضه كان نوبات صرع تشنجية — لم يبق لدى المصريين شك في أن مرضه إنما هو عقاب حل به من قبل آلهتهم وأن دينهم لم يبق فيه بعدئذ ريبة لمرتاب . وكان قمبيز قد أراد أن يبرهن مرة أخرى على مساوئ الملكية المطلقة ، ففعل ما فعله

نابليون في بعض ساعات امتعاضه ، إذ أعدم ركسانا أخته وزوجته ، وقتل ابنه
بركسيسيس بسهم من قوسه ، ودفن اثني عشر من أعيان الفرس أحياء ، وقضى
بإعدام كروسس ، ثم ندم على ما فعل ، وسر حين علم أن حكمه لم ينفذ ، ثم عاقب
الموظفين الذين تأخروا عن تنفيذه^(١٢) . وعلم وهو عائد إلى بلاده أن مقتصبا قد
استولى على عرش فارس وأن ثورة صماء اندلعت لهيبتها في طول البلاد وعرضها
لتأييده . ومن هذه اللحظة يخفى قبيز من التاريخ ، وفي بعض الروايات أنه
انتحر^(١٣) .

وكان المقتصب قد ادعى أنه سمرديس وأنه نجا بإحدى المعجزات من حسد
أخيه قبيز واعتزاه قتلته . أما الحقيقة فإنه كان أحد رجال الدين المقتصبين من
أتباع المذهب المجوسي القديم ، وكان يعمل جاهدا للقضاء على الزردشتية دين الدولة
الفارسية الرسمي . ثم شبت في البلاد ثورة أخرى أطاحت بعرشه ، وكان الذين
نظموها سبعة من أشرف البلاد اختاروا بعدئذ واحدا منهم هو دارا بن هشتسپس
ورفعوه على العرش . وبهذه الوسيلة الدموية بدأ أعظم ملوك الفرس حكمه .

وكانت وراثة العرش في الممالك الشرقية تقتن بالفتن في القصور الملكية تقوم
بين المتنازعين على أزمة الحكم ، كما تقتن بالثورات في المستعمرات الخاضعة
لحكمها ، فقد كانت هذه المستعمرات تنتهز فرصة ما ينشأ عن الفتن الداخلية من
فوضى واضطراب ، أو عن تولى الملك حاكم غير مجرب فتعمل لاسترداد حريتها .
وكان اغتصاب الملك في هذه المرة واغتيال « سمرديس » فرصة ثمينة انتهزتها
الولايات الخاضعة لفارس ، فخرج عليها حكام مصر وليديا ، وثارت عليها في
وقت واحد سوزانه ، وبابل ، وميديا ، وأشور ، وأرمينية ، وساكيا ، وغيرها من
الولايات . ولكن دارا أخضعها جميعا واستخدم في إخضاعها منتهى القسوة .
من ذلك أنه لما استولى على مدينة بابل بعد حصار طويل أمر بصلب ثلاثة
آلاف من أعيانها ليرهب بذلك بقية الأهلين ويرغمهم على طاعته ، ثم أتبع

ذلك بسلسلة من الوقائع الحربية السريعة « هداً » بها الولايات النائرة واحدة بعد واحدة .

ولما رأى أن هذه الإمبراطورية الواسعة قد تنقطع أوصالها إذا حلت بها أزمة من الأزمات ، خلع دروع الحرب ، وأصبح من أعظم الحكام الإداريين وأعلام كعباً في التاريخ كله ، وأخذ يعيد تنظيم ملكه على نسق أصبح مثلاً يحتذى في جميع الإمبراطوريات القديمة إلى سقوط الدولة الرومانية . وبفضل هذا النظام نعمت بلاد غرب آسية بفترة من الطمأنينة والرخاء لم ينعم هذا الصقع المضطرب بمثلها من قبل .

وكان يرجو بعدئذ أن يحكم بلاده في ظل السلام ، ولكن سنة الأقدار قد جرت على ألا تنقطع الحروب في الإمبراطوريات ، ذلك بأن الشعوب المقهورة يجب أن يعاد قهرها من آن إلى آن ، وأن الغالبين يجب أن يحافظوا في شعوبهم على فنون الحرب وعادات المسكرات وميادين القتال ، وأن الأقدار التي لا تترك شيئاً على حاله قد تتمخض عن إمبراطورية جديدة تتحدى الإمبراطورية القديمة ؛ وتلك ظروف تحتم خلق الحروب إن لم تشتعل نارها من تلقاء نفسها ؛ ولا بد إذن من أن يعود كل جيل على احتمال مشاق القتال ، وأن يعلم بالمران كيف يستسيع الموت في سبيل الأوطان .

ولعل هذا كان من الأسباب التي حدثت باداراً إلى أن يزحف بجيوشه إلى جنوب روسيا مجتازاً مضيق البسفور ونهر الدانوب إلى القلجاء ليؤدب السكوذيين الذين كانوا لا ينفكون يغيرون على أطراف الإمبراطورية الفارسية ، وأن يقودها مرة أخرى مخترقاً أفغانستان ، ويجتاز العشرات من سلاسل الجبال حتى يصل إلى وادي نهر السند ، وأن يضم بذلك إلى مملكته أقاليم واسعة الرقعة وآلاف الآلاف من الأنفس والكثير من الأموال . أما حملته على بلاد اليونان فيجب أن نبحث لها عن سبب أقوى من هذا . ويريد هيرودوت أن يحملنا على الاعتقاد

بأنه خطأ هذه الخطوة التاريخية الموفقة لأن أتوسا إحدى زوجاته كایدته بها في فراشه^(١٤). لكن أكرم من هذا أن نعتقد أن الملك أدرك ما قد تتمخض عنه دويلات المدن اليونانية ومستعمراتها من إمبراطورية أو من حلف يهدد سيادة الفرس على غرب آسية . فلما ثارت أيونا وتلقت العون من اسبارطة وأثينا رضى دارا أن يخوض غمار الحرب وهو كاره لها . والعالم كله يعرف قصة اجتيازه بحر إيجه ، وهزيمة جيشه في سهل مراثون ، وعودته كسير القلب إلى فارس . وهناك أخذ يستعد استعداداً عظيماً لمحاول ضرب اليونان ضربة أخرى ، ولكنه أصيب في هذه الأثناء بمرض مفاجئ أضعفه وقضى على حياته .

الفصل الثالث

الحياة الفارسية والصناعات

الإمبراطورية — الشعب — اللغة — الزراعة —

الطرق الإمبراطورية — التجارة والشئون المالية

كانت الدولة الفارسية حين بلغت أعظم اتساعها في أيام دارا تشمل عشرين ولاية أو « إمارة » (ستيرية) تضم مصر ، وفلسطين ، وسوريا ، وفينيقية ، وليديا ، وفريجية ، وأيونيا ، وقبادوش ، وقيليقية ، وأرمينية ، وأشور ، وقفقاسية ، وبابل ، وميديا ، وقارس ، والبلاد المعروفة في هذه الأيام باسم أفغانستان ، وبلوخستان ، والقسم المتقدم من الهند غرب نهر السند ، وسيمديانا ، وبكتريا ، وأقاليم المسيحية وغيرهم من قبائل آسية الوسطى . ولم يسجل التاريخ قبل هذه الإمبراطورية أن حكومة واحدة حكمت مثل هذه الرقعة الواسعة من البلاد .

ولم تكن بلاد الفرس في تلك الأيام ، وهي البلاد التي قدر لها أن تحكم هذه الأربعين مليوناً من الأنفس مدى مائتي عام ، هي بعينها البلاد المعروفة لنا الآن باسم بلاد فارس ، والتي يسميها أهلها بلاد إيران ، بل كانت هي الإقليم الأصغر المصاحب للخليج الفارسي مباشرة من جهة الشرق ، والمعروفة لدى الفرس الأقدمين باسم پارس والفرس المحدثين باسم فارس أو فارسستان^(١٥) . وهذا الإقليم يكاد يكون كله صحراوات وجبالا ، أنهاره قليلة ، معرض للبرد القارس والحر الجاف اللافتح^(*) ، ولذلك فإنه لم يكن فيه من الخيرات ما يكفي سكانه البالغ عددهم مليونين من الأنفس^(١٦) ، إلا إذا استعانوا بما قد يأتيهم من خارج

(*) يقول استرابون إن حرارة الصيف في السوس تبلغ من الشدة درجة لا تستطيع معها الأفاعي والسحالي أن تعبر شوارع المدينة بالسرعة التي تكفي لنجاتها من الاحتراق بحرارة الشمس^(١٦) .

بلادهم عن طريق التجارة والفتح . وأهل البلاد الجبليون الأشداء ينتمون كما ينتمى الميديون إلى الجنس الهندوربى ، ولعلهم جاءوا إلى تلك البلاد من جنوب روسيا ؛ وتكشف لغتهم وديانتهم المبكرة عن صلة نسب وثيقة بينهم وبين الآريين الذين عبروا أفغانستان ، وأصبحوا الطبقة الحاكمة في شمال الهند . ولقد وصف دارا الأول نفسه في نقش نقشى — رستم بأنه : « فارسى ابن فارسى ، آرى من سلالة آرية » . ويسمى الزردشتيون وطنهم الأول : إيريانا فيجواى « موطن الآريين » (*) ، ويطلق استرابون لفظ آريانا على البلاد التى يطلق عليها الآن هذا اللفظ الذى لا يكاد يختلف عن اللفظ الأول وهو إيران^(١٨) .

ويلوح أن الفرس كانوا أجمل شعوب الشرق الأدنى في الزمن القديم . فالآثار الباقية من عهدهم تصورهم شعباً معتدل القامات ، قوى الأجسام ، قد وهبتهم حياة الجبال شدة وصلابة ، ولكن ثروتهم الطائلة رقت طباعهم ، ذوى ملامح متناسبة متناسقة ، شم الأنوف لا يكادون يفترون في ذلك عن اليونان ، تبدو على وجوههم سمات النبيل والروعة ؛ ولبس معظمهم الملابس الميديية ثم تحولوا فيما بعد بالحلل الميديية . وكانوا يعدون من سوء الأدب كشف أى جزء من أجزاء الجسم خلا الوجه ، ولذلك كان كل جسمهم مغطى من عمامة الرأس أو عصابتة أو قلنسوته إلى خفي القدمين أو حذاءيهما . فكان لباسهم سروالا مثلث الطيات ، وقميصاً أبيض من التيل ، ومئزرًا من طبقتين ، ذا كمين يغطيان اليدين ، ومنطقة في وسط الجسم . وكانت هذه الملابس تحفظ أجسامهم ، دفئة في الشتاء ، حارة في الصيف . أما الملك فكان يمتاز بلبس سروال مطرز قرمزى ، وحذاءين ذوى أزهار زعفرانية اللون . ولم تكن ملابس النساء تختلف عن ملابس الرجال إلا بفتحة عند الصدر . وكان الرجال يطيلون لحاهم ويتركون شعر رأسهم ينساب في غداثر ، ثم استبدلوا بها فيما بعد شعراً مستعاراً^(١٩) . ولما زادت الثروة

(*) والاعتقاد السائد أن هذا الإقليم هو بعينه إقليم أران الواقع على نهر الأراك .

في عهد الإمبراطورية أكثر الأهلون رجالهم ونسائهم من استعمال أدوات التجميل ، فاستعملوا الأدهان لتجميل الوجه ، والأصباغ الملونة لدهن الجفون ، لكي يزدوا بذلك من سعة العينين ويريقيهما في الظاهر . ومن ثم نشأت عندهم طبقة خاصة من « المزيفين » سماهم اليونان « الكزمتاي » كانوا خبراء في فن التجميل ، وعملهم تجميل الأثرياء . وكان الفرس خبراء في عمل الروائح العطرية ، وكان القدماء يعتقدون أنهم هم الذين اخترعوا أدهان التجميل . ولم يكن ملكهم يخرج إلى الحرب إلا ومعه علبة ثمينة من الزيوت العطرية ، يتعطر بها في حالتي النصر والهزيمة^(٢٠) .

وتكلم الفرس عدة لغات في أثناء تاريخهم الطويل . فكانت الفارسية القديمة لغة البلاط وأعيان البلاد في عهد دارا الأول ، وهذه اللغة وثيقة الارتباط باللغة السنسكريتية حتى يبدو لنا جلياً أن اللغتين كانتا في وقت من الأوقات لهجتين من لغة أقدم منهما عهداً ، وأنهما هما واللغة الإنجليزية فروع من أصل واحد^(*) . وتطورت اللغة الفارسية القديمة وتفرعت إلى فرعين هما الزندية — لغة الزند — أبستاق . والبهلوية وهي لغة هندية اشتقت منها اللغة الفارسية الحالية^(٢٢) . ولما مارس الفرس الكتابة استخدموا في نقوشهم الخط المسماري واستخدموا الحروف الهجائية الآرامية لكتابة وثائقهم^(٢٣) . وبسطوا مقاطع اللغة البابلية الثقيلة الصعبة ، فأقصوها من ثلثائة رمز إلى ست وثلاثين علامة ،

(*) وهاهي ذى بعض أمثلة تثبت هذه الصلة :

الفارسية القديمة	السنسكريتية	اليونانية	اللاتينية	الألمانية	الإنجليزية
Pitar	Pitar	Pater	Pater	Vater	Pather
Nama	Nama	Anoma	Nomen	Nahme	Name
Napat	Napat	Anepsios	Nepos	Neffe	Nephew
Bar	Bhri	Perein	Ferre	Führen	Bear
Matar	Matar	Meter	Mater	Mutter	Mother
Bratar	Bhratar	Phrater	Frater	Bruder	Brother
Çta	Stha	Istemi	Sto	Steben	Stand ^(٢١)

تبدلت شيئاً فشيئاً من مقاطع إلى حروف حتى صارت حروفاً هجائية مسمارية^(٢٤).
على أن الكتابة كانت تبدو للفرس لهواً خليقاً بالنساء لا يكادون يقطعون له
وقتاً من بين مشاغلهم الكثيرة في الحب والحرب والصيد ، ولم ينزلوا من عليائهم
فينشئوا أدباً .

وكان الرجل العادي أُمياً راضياً عن أميته ، يبذل جهده كله في فلاحه
الأرض . ومجدت الزند — أبستاق الأعمال الزراعية وعدتها أهم أعمال الجنس
البشرى وأشرفها ، يتهج لها أهورا — مزدا الإله الأعلى أكثر مما يتهج
بغيرها من الأعمال . وكانت بعض الأراضي يزرعها ملاكها المزارعون .
وكان هؤلاء الملاك في بعض الأحيان يؤلفون جماعات زراعية تعاونية مكونة من
عدة أسر لتزرع مجتمعة مساحات واسعة من الأراضي^(٢٥) . والبعض يمتلكه
الأشراف الإقطاعيون ويزرعونه مستأجروه نظير جزء من غلته ؛ وبعضها الآخر
يزرعها الأرقاء الأجانب (ولم يكونوا قط فرسا) . وكانوا يستخدمون محارث من
الخشب ذات أطراف من الحديد تجرها الثيران . وكانوا يجرون الماء من الجبال إلى
الحقول بطرق الري الصناعية . وكان الشعير والقمح أهم محاصيل الأرض وأهم مواد
الغذاء ، ولكنهم كانوا يأكلون كثيراً من اللحم ويتجرعون كثيراً من الخمر .
وقد أمر قورش بتقديم الخمر لجيوشه^(٢٦) . ولم تكن مناقشة جدية في الشؤون
السياسية تدور في مجالس الفرس إلا وهم سكارى^(*) — وإن كانوا يحرصون
على أن يعيدوا النظر في قراراتهم في صباح اليوم التالي . وكان من مشروباتهم
مشروب مسكر يسمى الهوما يقدمونه قربانا محبباً لأهلهم ؛ وكانوا يعتقدون أنه
لا يبعث في مدمغه الهياج والغضب ، بل يبعث فيه التقى والاستقامة^(٢٨) .

(*) وفي ذلك يقول استرابون : « وهم يعضون في أهم مناقشاتهم وهم يحتسون الخمر ،
ويرون أن ما يصدرونه من قرارات وهم على هذه الحال أتق مما يصدرونه منها وهم غير
سكارى » (٢٧) .

ولم يكن للصناعة شأن في فارس ؛ فقد رضيت أن تترك لأهم الشرق الأدنى ممارسة الحرف والصناعات اليدوية ، واكتفت بأن تحمل هذه الأمم إليها منتجاتها مع ما يأتيها من الخراج . أما في شئون النقل والاتصال فكانت أكثر ابتكاراً منها في شئون الصناعة . فقد أنشأ المهندسون إطاعة لأمر دارا الأول طرقاً عظيمة تربط حواضر الدولة بعضها ببعض . وكان طول إحدى هذه الطرق وهي الممتدة من السوس إلى سرديس ألفاً وخمسمائة ميل . وكان طولها يقدر تقديراً دقيقاً بالفراسخ (وكان الفراسخ ٣٤٤ ميل) ويقول هيرودوت : « إنه كان عند نهاية كل أربعة فراسخ محاط ملكية ونزل فخمة ، وكان الطريق كله يخترق أقاليم آمنة عامرة بالسكان ^(٢٩) » . وكان في كل محطة خيول بديلة منأهبة لمواصلة السير بالبريد ، ولهذا فإن البريد الملكي كان يجتاز المسافة من السوس إلى سرديس بالسرعة التي يجتازها بها الآن رتل من السيارات الحديثة ، أى في أقل قليلاً من أسبوع ، مع أن المسافر العادي في تلك الأيام الغابرة كان يجتاز تلك المسافة في تسعين يوماً . وكانوا يعبرون الأنهار الكبيرة في قوارب ، ولكن المهندسين كانوا يستطيعون متى شاءوا أن يقيموا على الفرات أو على الدردنيل نفسه قناطر متينة تمر عليها مئات القيلة الوجلة وهي آمنة . وكان ثمة طرق تصل فارس بالهند مجتازة عمرات جبال أفغانستان ، وقد جعلت هذه الطرق مدينة السوس مستودعاً وسطاً لثروة الشرق التي كانت حتى في ذلك العهد البعيد ثروة عظيمة لا يكاد يصدقها العقل . وقد أنشئت هذه الطرق في الأصل لأغراض حربية وحكومية ، وذلك لتيسير سيطرة الحكومة المركزية وأعمالها الإدارية ؛ ولكنها أفادت أيضاً في تنشيط التجارة وانتقال العادات والأفكار ، كما أفادت في تبادل خرافات الجنس البشري وهي من مستلزماته التي لا غنى له عنها . من ذلك أن الملائكة والشياطين قد انتقلت على هذه الطرق من الأساطير الفارسية إلى الأساطير اليهودية والمسيحية .

ولم تبلغ الملاحة في فارس ما بلغه النقل البرى من رقى عظيم . فلم يكن للفرس أسطول خاص بهم ، بل كانوا يكتفون باستئجار سفن الفينيقيين أو الاستيلاء عليها لاستخدامها في الأغراض الحربية ، وقد احتفر دارا الأول قناة عظيمة تصل فارس بالبحر الأبيض المتوسط عن طريق البحر الأحمر والنيل ، ولكن إهمال خلفائه ترك هذا العمل العظيم به تعبث الرمال السافية .

وأصدر خشيارشاي أمره الملكى إلى قسم من قواته البحرية بأن يطوف حول إفريقيا ، ولكنه لم يكد يمتاز أعمدة هرقل (مضيق جبل طارق الحالى) حتى عاد من رحلته مجلله الخزى والعار^(٣٠) . وكانت الأعمال التجارية تترك في الغالب لغير أبناء البلاد — للبابليين والفينيقيين واليهود ؛ ذلك أن الفرس كانوا يحتقرون التجارة ويرون أن الأسواق بؤرة للكذب والخداع . وكانت الطبقات الموسرة تفخر باستطاعتها الحصول على معظم حاجاتها من حقولها وحوانيتها بغير واسطة ، دون أن تدنس أصابعها بأعمال البيع والشراء^(٣١) . وكانت الأجور والقروض وفوائد الأموال تؤدي في بادئ الأمر سلعاً ، وأكثر ما كانت تؤدي به الماشية والحبوب ؛ ثم جاءتهم النقود من ليديا ، وسك دارا « الداريق » من الذهب والفضة وطبع عليه صورته^(*) ، وكانت نسبة قيمة الدريق الذهبى إلى الدريق الفضى كنسبة ١٣,٥ إلى ١ . وكان هذا بداية وضع نسبة بين النقدين في الوقت الحاضر^(٣٢) .

(*) ليس لهذا اللفظ صلة ما باسم دارا ، بل إن لفظ دريق مشتق من كلمة دريق الفارسية وهى القطعة من الذهب . وكانت قيمة الدريق الذهبى الاسمية ٥ ريالات أمريكية . وكانت ثلاثة آلاف دريق ذهبى تعدل منا فارسيا^(٣٣) .

الفصل الرابع

تجربة في نظام الحكم

الملك — الأشراف — الجيش — القانون — عقاب وحش —
الحواضر — الولايات — عمل جليل في الإدارة

كانت حياة فارس حياة سياسية وحربية أكثر منها اقتصادية ؛ عماد ثروتها القوة لا الصناعة ؛ ومن أجل ذلك كانت مزرعة الكيان أشبه ما تكون بجزيرة حاكمة وسط بحر واسع خاضع لسلطانها خضوعاً غير قائم على أساس طبيعي . وكان النظام الإمبراطوري الذي يمسك هذا الكيان المصطنع من أقدر الأنظمة ولا يكاد يوجد له شبيه ؛ فقد كان على رأسه الملك أو خسترا أى المحارب (*) ، وهو لقب يدل على منشأ الملكية الفارسية العسكرية وصبغتها العسكرية . وإذا كان تحت سلطانه ملوك يأتمرون بأمره فقد كان الفرس يلقبونه « ملك الملوك » ولم يعترض العالم القديم على هذه الدعوة ، غير أن اليونان لم يكونوا يسمونه بأكثر من باسيليوس أى الملك (٣٤) .

وكان له من الوجهة النظرية سلطة مطلقة ؛ فكانت كلمة تصدر من فمه تكفي لإعدام من يشاء من غير محاكمة ولا بيان للأسباب ، على الطريقة التي يتبعها أحد الحكام الطغاة في هذه الأيام . وكان في بعض الأحيان يمنح أمه أو كبيرة زوجاته حق القتل القائم على النزعات والأهواء (٣٥) . ولما كان أحد من الأهلين ، ومن بينهم كبار الأعيان ، يجرؤ على انتقاد الملك أو لومه ، كما كان

(*) ولا يزال هذا اللفظ باقياً حتى الآن في اسم ملك الفرس (الشاه) وكذلك لا يزال أصله باقياً في لفظ سترپ ، الذي يسمى به حكام الأقاليم في فارس وفي لفظ كشاتريا أو الطبقة الحاكمة في الهند .

الرأى العام ضعيفا عاجزا عجزا مصدره الحيلة والحذر ، فكان كل ما يفعله الذى يرى الملك يقتل ابنه البرئ أمام عينيه رميا بالسهم أن يثنى على مهارة الملك العظيمة فى الرماية ؛ وكان المذنبون الذين تلهب الشياط أجسادهم بأمر الملك يشكرون له تفضله بأنه لم يفعل عن ذكركم^(٣٦) . ولو أن ملوك الفرس كان لهم من النشاط ما لقورش ودارا الأول لكان لهم أن يملكوا ويحكموا ؛ ولكن الملوك المتأخرين كانوا يعهدون بأكثر شئون الحكم إلى الأشراف الخاضعين لسلطانهم ، أو إلى خصيان قصورهم . أما هم فكانوا يقضون أوقاتهم فى الحب أو لعب النرد أو الصيد^(٣٧) . وكان القصر يروج بالخصيان يسرحون فيه ويمرحون ، يحرسون النساء ويعلمون الأمراء ، وقد استخدموا ما تخولهم هذه الأعمال من ميزة وسلطان فى حبك الدسائس وتدير المؤامرات فى عهد كل ملك من الملوك^(*) . وكان من حق الملك أن يختار خلفه من بين أبنائه ، ولكن وراثة العرش كانت تقرر فى العادة بالاغتياى والثورة .

غير أن سلطة الملك كانت تقيدها من الوجهة العملية قوة الأعيان ، وكانوا هم الوساطة بين الشعب والعرش . وقد جرت العادة أن يكون لأسر الرجال الستة الذين تعرضوا مع دارا الأول لأخطار الثورة التى قامت على سمرديس الزائف ميزات استثنائية ، وأن يستشاروا فى مهام الدولة الحيوية . وكان كثير من الأشراف يحضرون إلى القصر ويؤانون مجلساً يولى الملك مشورته فى أكثر الأحيان أعظم رعاية . وكان يربط معظم أفراد الطبقة الموسرة بالعرش أن الملك هو الذى يهبهم ضياعهم ؛ وكانوا فى مقابل هذا يمدونه بالرجال والعتاد إذا نقر إلى القتال . وكان لهؤلاء الأشراف فى إقطاعاتهم سلطان لا يكاد يحده شىء — فكانوا يجبون الضرائب ، ويسنون القوانين ، وينفذون أحكام القضاء وحتفظون بقوامى الأسلحة .

(*) كان خمسة من الغلمان الخصيان يرسلون من بابل فى كل عام ليكونوا « حفظة على النساء » فى القصور الإيرانية .

وكان الجيش العماد الحقيقي لسلطان الملك والحكومة الإمبراطورية ؛ ذلك أن الإمبراطوريات إنما تدوم ما دامت محتفظة بقدرتها على التقليل .

وكان يفرض على كل رجل صحيح الجسم بين الخامسة عشرة والخمسين من عمره أن ينضم إلى القوات العسكرية كلما أعلنت الحرب^(٤١) . وحدث مرة أن طلب والد ثلاثة أبناء أن يعفى واحد منهم من الخدمة العسكرية فما كان من الملك إلا أن أمر بقتلهم هم الثلاثة ؛ وأرسل والد آخر أربعة من أبنائه إلى ميدان القتال ، ثم رجا خشيارشاي أن يسمح ببقاء أخيهما الخامس ليشرف على ضيعة الأسرة ، فقطع جسم هذا الابن نصفين بأمر من الملك ، ووضع كل نصف على أحد جانبي الطريق الذي سيمر منه الجيش^(٤٢) . وكان الجنود يسرون إلى الحرب وسط دوى الموسيقى العسكرية وهتاف الجماهير التي تجاوزت سن التجنيد .

وكانت أهم فرق الجيش فرقة الحرس الملكي المؤلفة من ألفين من القوارس وألفين من المشاة كلهم من الأشراف ، وكانت مهمتهم حراسة الملك .

وكان الجيش العامل كله بلا استثناء من الفرس والميديين ، وكان يؤخذ من هذه القوات الدائمة معظم الحاميات القائمة في النقاط العسكرية الهامة في الإمبراطورية لترهب من تحدته نفسه بالخروج عليها .

أما القوات الحربية الكاملة فكانت تتألف من فرق تجند من جميع الأمم الخاضعة لسلطان الفرس ، وكانت كل فرقة تتكلم بلغتها ، وتقاتل بأسلحتها ، وتتبع أساليبها الحربية الخاصة ؛ ولم يكن عتادها وأتباعها أقل اختلافاً من أصولها : فهناك القسي والسهام ، والسيوف والحراب ، والخناجر والرماح ، والمقاييع والمدى ، والتروس والخوذ ، والجنات المتخذة من الجلد ، والزرد . وكانوا يركبون الجياد والفيلة ، ويصحبهم المنادون ، والكتبة ، والخصيان ، والعاهرات ، والسراري ، ومعهم العربات التي سلح كل جزء من مجلاتها بمناجل الصلب الكبيرة . وهذه الجحافل الجرارة التي بلغت عدتها في حملة خشيارشاي ٨٠٠.٠٠٠

مقاتل لم تتألف منها قط وحدة كاملة ، ومن أجل ذلك فإن أول بادرة من بوادر الهزيمة كانت تحميلها إلى جموع من الغوغاء العديمة النظام . وكانت تهزم أعداءها بقوة عددها لا غير ، وبمقدرتها على استيعاب قتلاها ، فإذا ما لاقاها جيش حسن التنظيم يتكلم أفراده لغة واحدة ويخضعون لنظام واحد حاقت بها الهزيمة . وهذا هو السر فيما أصابها عند مرثون وبلائية .

ولم يكن يوجد في مثل هذه الدولة قانون غير إرادة الملك وقوة الجيش . ولم تكن فيها حقوق مقدسة تستطيع الوقوف أمام هاتين القوتين ، كما أن التقاليد والسوابق لم تجد نفعا إلا إذا كانت مستمدة من أمر منكمي سابق ؛ ذلك أن الفرس كانوا يفخرون بأن قوانينهم لا تبدل لها ، وأن الوعد أو المرسوم الملكي لا ينقض بحال من الأحوال ، فقد كان اعتقادهم أن قرارات الملك وأحكامه إنما يوحىها إليه الإله أهورا — مزدا نفسه .

وعلى هذا الأساس كان قانون المملكة مستمداً من الإرادة الإلهية ، وكان كل خروج على هذا القانون يعد خروجاً على إرادة الإله . فكان الملك صاحب السلطة القضائية العليا ، ولكنه كان في العادة يعهد هذا العمل إلى أحد العلماء الشيوخ من أتباعه . ثم تأتي من بعده المحكمة العليا المؤلفة من سبعة قضاة ، ومن تحتها محاكم محلية منتشرة في أنحاء المملكة . وكان الكهنة هم الذين يضعون القوانين ، وظلوا زمناً طويلاً ينظرون في المظالم ، ثم كان ينظر فيها في العهود المتأخرة رجال بل ونساء من غير رجال الدين ونسائه . وكانت الكفالة تقبل من المتهم في جميع القضايا إلا ما كان منها خطير الشأن ، وكانوا يتبعون في المحاكمات إجراءات منتظمة . وكانت المحاكم تأمر أحياناً بمنح المكافآت كما كانت تأمر بتوقيع العقوبات ، وكانت وهي تنظر في الجرائم تقدر ما للمتهم من حسنات وما أداه من خدمات . ولكي يحولوا بين إطالة الإجراءات القضائية كانوا يحددون

زمنًا معينًا تنتهى فيه كل قضية ، ويعرضون على الخصوم أن يختاروا لهم حكمًا يحاول فض ما بينهم من نزاع بالطرق السلمية .

ولما تكاثرت السوابق القانونية وتعقدت القوانين نشأت طائفة من الناس يسمون « المتحدثين فى القانون » كانوا يعرضون على المتخاصمين أن يفسروا لهم القانون ويساعدوهم على السير فى قضاياهم^(٤٣) . وكان يطلب إلى المتقاضين أن يقسموا الأيمان ، وكانوا فى بعض الأحيان يلجأون إلى الحكم الإلهى^(٤٤) (فيفوضون أمر المتهم إلى الآلهة تقضى له أو عليه بوسائلها الخاصة ، بأن تنجيه من النار أو الفرق إن كان بريئًا وتقضى عليه بهما إن كان مذنبًا)^(*) ، وكانوا يقاومون الرشوة بجمل عرضها أو قبولها جريمة كبرى يعاقب مرتكبها بالإعدام . وكان مما عمله قميز لضمان نزاهة القضاة أن أمر بأن يسالخ جلد القاضى الظالم حيًا وأن يستخدم جلده لتنفيذ مقاعد القضاة ، ثم كان يعين ابن القاضى القليل بدلًا منه^(٤٥) .

وكانت الجرائم الصغرى يعاقب عليها بالجلد — من خمس جلدات إلى مائتى جلدة — بسوط من سياط الخيل ، وكان عقاب من يسم كلب راع مائتى جلدة ، ومن يقتل آخر خطأ كان عقابه تسعين جلدة^(٤٦) . وكانت الدولة تحصل على بعض المال اللازم للشئون القضائية من استبدال الغرامة بالجلد باحتساب كل ست روبيات للجلدة الواحدة^(٤٧) . أما الجرائم التى هى أشد من هذه فكان يعاقب عليها بالوسم بالنار أو بتشويه الأعضاء أو بتر بعض الأطراف ، أو سمل العين أو السجن أو الإعدام . وكان نص القانون يحرم على أى إنسان حتى الملك نفسه أن يحكم على إنسان بالقتل عقابًا على جريمة صغرى ، ولكنه يحل القتل عقابًا على خيانة الوطن ، أو هتك العرض ، أو اللواط ، أو القتل ، أو الاستمناء ، أو حرق الموتى ، أو دفنهم سرا ، أو الاعتداء على حرمة القصر الملكى ، أو الاتصال

(*) هذا الشرح لنا وضعناه لإيضاح معنى عبارة « الحكم الإلهى » .

بأحدى سراريه ، أو الجلوس مصادفة على عرشه ، أو الإساءة إلى أحد أفراد البيت المالكة^(٤٨) .

وكان المذنب في هذه الحالات يعدم إما بإرغامه على تجرع السم ، أو خرقه أو صلبه ، أو شنقه (وكان المجرم يشنق ورأسه عادة إلى أسفل) ، أو رجمه بالحجارة أو دفن الجسم إلى ما دون الرأس ، أو تهشيم رأسه بين حجرتين كبيرين ، أو خنقه في رماد ساخن ، أو بتوقيع ذلك العقاب الذي لا يصدق العقل والمعروف باسم عقاب « الزورقين »^(*) . وقد ورث الأتراك الذين أغاروا على البلاد فيما بعد بعض هذه العقوبات الممجيّة ، وأورثوها العالم من بعدهم .

واستعان الملك هذه القوانين وهذا الجيش على حكم الولايات العشرين التابعة لدولته من عواصمه الكثيرة . وكانت العاصمة الأصلية بزارجاده ، ولكنه كان ينتقل منها أحياناً إلى برسبوليس ، وكانت إكباتانا عاصمته الصيفيّة . أما معظم إقامته فكانت في مدينة السوس عاصمة عيلام القديمة التي يجتمع فيها

(*) يقول بلوتارخ إن الجندي مثرداتس قال ساخراً وهو يحتسى الخمر أن ليس الفضل في قتل قورش الأصغر في واقعة كونا كسا للملك ، بل الفضل فضله هو — فأمر أرت خستر الثاني أن يعدم مثرداتس بطريقة القاريين — على النمط الآتي : يؤخذ قاريان صنعا بحيث ينطبق أحدهما على الآخر تمام الانطباق . ثم يوضع المذنب الذي يراد تعذيبه على ظهره في أحدهما ، ويفطى بالقارب الثاني بحيث يترك رأسه ويداه وقدماه في خارج القاريين ، أما سائر جسمه فيكون بينهما . ثم يقدم له الطعام فإذا أبت أن يطعمه أرغموه على ذلك بوخز عينيه . وبعد تناوله يسقونه مزيجاً من اللبن والعسل يصبونه في فيه وعلى وجهه بأكله . ويظل وجهه في هذه الأثناء موجهاً نحو الشمس على الدوام ، فلا يلبث أن تغطيه عن آخره أسراب الذباب الذي يحيط عليه . ولما كان وهو في القارب يفعل ما لا بد أن يفعله كل من يأكلون ويشربون ، فإن الحشرات والديدان تتولد من البراز والأقذار ، وتتسرب إلى أمعائه فيتآكل جسمه . فإذا اتضح لهم أن الرجل قد مات بلا ريب ، ورفع أعلى القاريين ، ظهر جسمه وقد تأكل لحمه ، وشوهدت هذه الحشرات الكريهة تنهشه ، كأنها قد توالدت في أحشائه . وبهذه الطريقة قضى مثرداتس في آخر الأمر نجبه بعد عذاب دام سبعة عشر يوماً^(٥٠) .

ملحوظة : ورد اسم Artaxerxes, Xerxes بصيغ مختلفة فسمى أولها خشيرشا وأخشويرش وسمى الثاني أردشير وأرت خستر أو أرتخستر وأرتخشيرشا . ويسميه المسعودي أرتطخشت ، ويقول البيروني إن بهمن أردشير هو ابن أخشويرش .

تاريخ الشرق القديم برمته ويرتبط أوله بآخره . وكان من مميزات هذه المدينة صعوبة الوصول إليها ، كما كان من عيوبها بعدها عن سائر عواصم الإمبراطورية ، فلما أراد الإسكندر أن يستولى عليها كان لابد له أن يجتاز لها طريقاً طوله ألفا ميل ؛ ولكنها كان عليها أن ترسل جيوشها ألفاً وخمسمائة ميل لتخضع الثورات التي تقوم في ليديا أو مصر . ولما أنشئت الطرق العظيمة في آخر الأمر كانت كل فائدتها أن مهدت السبل لليونان والرومان الذين غزوا بجيوشهم غرب آسية ، كما ساعدت غرب آسية على أن يغزو اليونان ورومة بعقائده الدينية .

وكانت الإمبراطورية مقسمة إلى ستريات أو ولايات لتسهيل بذلك إدارتها وجباية خراجها . وكان في كل ولاية نائب « ملك الملوك » قد يكون أحياناً أميراً خاضعاً لسلطانها ، ولكنه في العادة « سترب » (حاكم) يعينه الملك ويبقى في منصبه ما دام حائزاً لرضا البلاط الملكي .

وأراد دارا أن يضمن خضوع الوالى لسلطانها فبعث إلى كل ولاية بقائد من قواد جيشه ليشرف على ما فيها من قوى مسلحة مستقلا عن الوالى ؛ ولكي يضمن خضوع هذا وذاك عين لكل ولاية أميناً من قبله مستقلا عن الوالى والقائد جميعاً ، مهمته أن يبلغ الملك عن مسلكهما . وزيادة في الاحتياط كان للملك إدارة للمخابرات السرية تعرف باسم « عيون الملك وآذانه » يفاجئ موظفوها الولايات ليفحصوا عن سجلاتها وشئونها الإدارية والمالية . وكان الوالى يعزل أحياناً بلا محاكمة ، وأحياناً يتخلص منه في هدوء ، وذلك بأن يسمه خدمه بأمر الملك نفسه . وكان تحت إمرة الوالى والأمين حشد من الكتبة يصرفون من شئون الحكم ما ليس في حاجة مباشرة إلى القوة . وكان هؤلاء يستمرون في عملهم وإن تغيرت الإدارات ، بل وإن تغير الملوك ، فالملك يموت ولكن البيروقراطية الحكومية باقية مخلدة .

ولم يكن موظفو الولايات يتناولون رواتبهم من الملك ، بل كانوا يتناولونها

من أهل الولاية التي يحكمونها . وكانت هذه الرواتب عالية تكفى لأن يكون لهؤلاء الولاة قصور وحريم ، وبساتين للصيد ، كان الفرس يسمونها بذلك الاسم التاريخي المأثور وهو « الفردوس » أى « الجنة » . وكان على كل وال فضلا عن هذا أن يبعث إلى الملك فى كل عام قدرا معلوما من المال والبضائع ضريبة مقررة على ولايته . فكانت الهند ترسل ٤٦٨٠ تالنتا ، وأشور وبابل ألفا ، ومصر سبعمائة ، وولايات آسية الصغرى الأربع ترسل مجتمعة ١٧٦٠ الخ . فكان مجموع ما ترسله الولايات كلها ١٤٥٦٠ فى السنة ، قدرت قيمتها تقديراً يختلف من ١٦٠.٠٠٠.٠٠٠ ريال أمريكى إلى ٢١٨.٠٠٠.٠٠٠ ريال ؛ وفوق هذا فقد كان ينتظر من كل ولاية أن تمد الملك بحاجته من السلع والمؤن : فقد كان على مصر مثلا أن تمده فى كل عام بما يحتاجه ١٢٠.٠٠٠ رجل من الغلال ، وكان الميديون يمدونه بمائة ألف من الضأن ، والأرمن بثلاثين ألفا من الأمهار ، والبابليون بخمسمائة من الغلمان الحصيان . وكانت هناك مصادر أخرى تستمد منها الخزانة المركزية الأموال الطائلة . وحسبنا دليلا على مقدار هذه الثروة أن الإسكندر حين استولى على عاصمة الفرس وجد فى الخزائن الملكية ١٨٠.٠٠٠ تالنت تبلغ قيمتها بحساب هذه الأيام ٢.٧٠٠.٠٠٠.٠٠٠ ريال أمريكى ، وذلك بعد مائة وخمسين عاما من إسراف الفرس وتبديدهم ، وبعد مائة حرب وثورة باهظة النفقات ، وبعد أن حمل دارا الثالث معه فى فراره ٨٠٠٠ تالنت^(٥١) .

ومع هذا كله فقد كانت الإمبراطورية الفارسية على الرغم من نفقاتها الإدارية الطائلة أنجح تجربة فى نظام الحكم الإمبراطورى شهدتها بلاد البحر الأبيض المتوسط قبل الإمبراطورية الرومانية التى قدر لها أن ترث قسما كبيرا من النظم السياسية والإدارية لتلك الإمبراطورية القديمة . وإذا كانت هذه الإمبراطورية قد شهدت ما كان عليه ملوكها المتأخرون من قسوة وبذخ ، وما كان فى بعض شرائعها من همجية ، وما كان ينوء به كامل الأهلى من ضرائب فادحة ، فقد

كان يقابل هذه المساوى ما كان يسود البلاد بفضل حكومتها من نظام وأمن أثرت في ظله الولايات على الرغم من هذه الأكلاف الباهظة ، وما كانت تستمتع به تلك الولايات من حرية لم تستمتع بها الولايات الخاضعة لكثير الإمبراطوريات رقيقا واستنارة . ذلك أن كل إقليم كان يحتفظ ببلقبه وشرائعه ، وعاداته ، وأخلاقه ودينه ، وعملته ، كما كان يحتفظ في بعض الأحيان بالأسرة الحاكمة من أهله . وكانت بعض الأمم التي تؤدي إليها الجزية كبابل وفينيقية وفلسطين راضية كل الرضا بالوضع الذي وضعت فيه ، ظنا منها أن قوادها وجباتها من أهلها لو وكل إليهم أمرها لكانوا أكثر من حكامها الفرس قسوة وأشد بطشا . وقد بلغت الإمبراطورية الفارسية في عهد دارا الأول من حيث النظام السياسي مبلغا لم يصل إليه غيرها من الإمبراطوريات إذا استثنينا الإمبراطورية الرومانية في عهد تراجان ، وهديران ، والأنطونيين .

الفصل الخامس

زردشت

رسالة النبي — الديانة الفارسية قبل زردشت — كتاب
الفرس المقدس — أهورا مزدا — الأرواح الطيبة
والخبثة — كفاحها للاستيلاء على العالم

تروى الأباقيص الفارسية أن نبيا عظيما ظهر في إيريانا — فيجو ،
« موطن الآريين » القديم قبل ظهور المسيح بمئات السنين ، وكان شعبه يسميه
زرتسترا . ولكن اليونان الذين لم يكونوا يطيقون هجاء « البرابرة » أسموه
زروسترز . وقد حملت به أمه حملا إلهيا قدسيا : ذلك أن الملك الذي كان يرعاه
تسرب إلى نبات الهوْمَا ، وانتقل مع عصارته إلى جسم كاهن حين كان يقرب
القرايين المقدسة . وفي ذلك الوقت نفسه دخل شعاع من أشعة العظمة السماوية
إلى صدر فتاة راسخة النسب متناسقة في الشرف . وتزوج الكاهن بالفتاة ،
وامتزج الحبسان الملك والشعاع ، فنشأ زرتسترا من هذا المزيج^(٥٣) . فلما ولد
قهقه عاليا من أول يوم ولد فيه ، ففرت من حوله الأرواح الخبيثة التي تجتمع حول
كل كائن ، وهي مضطربة وجلة^(٥٤) . وأحب الوليد الحكمة والصلاح فاعتزل الناس
وآثروا أن يعيش في برية جبلية^{٥٥} ، وأن يكون طعامه الجبن وثمار الأرض . وأراد
الشیطان أن يغويه ولكنه أخفق . وشق صدره بطعنة سيف وملئت أحشاؤه
بالرصاص المنصر ، فلم يشك أو يتململ بل ظل مستمسكا بإيمانه بأهورا
— مزدا (رب النور) الإله الأعظم . وتجلى له أهورا — مزدا ووضع في
يديه الأستاق أى كتاب العلم والحكمة ، وأمره أن يعظ الناس بما جاء فيه .
وظل العالم كله زمنا طويلا يسخر منه ويضطهده ، حتى سمعه أخيرا أمير إيراني

عظيم يدعى فشتسيا أو هستسبس ، فأعجبه ما سمع ، ووعدته أن ينشر الدين الجديد بين شعبه ، وهكذا ولد الدين الزردشتي . وعمر زرثسترا نفسه طويلا ، حتى أحرقه وميض برق وصعد إلى السماء^(٥٥) .

ولسنا نعرف مافي هذه القصة من حق وما فيها من باطل . ولعل يوشع كيوشع بنى إسرائيل هو الذي كشف هذا النبي ، ولكن اليونان صدقوا أن زرثسترا هذا كان شخصية تاريخية حقة وشرفوه بأن حددوا له تاريخا يسبق تاريخهم بخمسة آلاف وخمسمائة عام^(٥٦) . ويقرب بروسس البابلي هذا التاريخ إلى عام ٢٠٠٠ ق.م^(٥٧) . أما من يؤمن بوجوده من المؤرخين المحدثين فيحددون تاريخه فيما بين القرن العاشر والقرن السادس قبل الميلاد^(*)(٥٨) . ولما ظهر بين أسلاف الميديين والفرس ، وجد بنى وطنه يعبدون الحيوانات كما يعبدون أسلافهم^(٦٠) ، ويعبدون الأرض والشمس ، وأن لهم ديناً يتفق في كثير من عناصره وآلهته مع دين الهندوس في العهد الفيدى .

وكان أكبر الآلهة في الدين السابق للدين الزردشتي ميثرا إله الشمس ، وأنيتا إلهة الخصب والأرض ، وهوما الثور المقدس الذي مات ثم بُعث حيا ، ووهب الجنس البشرى دمه شراباً ليسبغ عليه نعمة الخلود . وكان الإيرانيون الأولون يعبدونه بشرب عصير الهوما المسكر وهي عشب ينمو على سفوح جبالهم^(٦١) . وهال زردشت ما رأى من هذه الآلهة البدائية ، وهذه الطقوس الخمرية ، فثار على « المجوس » أى الكهنة الذين كانوا يصلون لتلك الآلهة ويقربون لها القرابين ، وأعلن في شجاعة لا تقل عن شجاعة معاصريه عاموس وإشعيا أن ليس في العالم إلا إله واحد هو في بلاده أهورا — مزدا إله النور والسماء ، وأن غيره من الآلهة ليست إلا مظاهر له وصفات من صفاته . ولعل دارا الأول حينما

(*) وإذا ثبت أن فشتسيا الذي نشر هذا الدين كان والد دارا الأول كان آخر هذه التواريخ في ظننا أرجحها .

اعتنق الدين الجديد رأى فيه ديناً ملهماً لشعبه ، ودعامة لحكومته ، فشرع
مذ تولى الملك يثير حرباً شعواء على العبادات القديمة وعلى الكهنة المجوس ،
وجعل الزردشتية دين الدولة .

وكان الكتاب المقدس للدين الجديد هو مجموعة الكتب التي جمع فيها
أصحاب النبي ومريدوه أقواله وأدعيته . وسمى أتباعه المتأخرون هذه الكتب
الأبستاق (الأبستاق) ، وهي المعروفة عند العالم الغربي باسم الزند — أبستاق ، بناء
على خطأ وقع فيه أحد العلماء المحدثين (*) . ومما يروع القارئ غير الفارسي في
هذه الأيام أن يعرف أن المجلدات الضخمة الباقية — وإن كانت أقل كثيراً من
كتاب التوراة — ليست إلا جزءاً صغيراً مما أوحاه إلى زرتشترا إلهه (**).

(*) لقد أضاف أنكتيل — دوپرون (حوالى ١٧٧١ ب . م) زند إلى هذا اللفظ .
ولست هذه إلا كاسعة كان الفرس يضعونها قبله للدلالة على أن ما يليها ليس إلا ترجمة أو تفسيراً
للأبستاق . أما لفظ أبستاق نفسه فأصله غير معروف على وجه التحقيق ، والراجح أنه مشتق من
غيد وهو الأصل الآرى الذى اشتق منه « فيدا » ومعناه المعرفة (٦٢) .
(**) وتروى الرواية الفارسية قصة أبستاق أخرى أكبر من هذه في واحد وعشرين
كتاباً يسمى واحداً « الفسك » وتقول إن هذه الكتب الأخيرة نفسها ليست إلا جزءاً
صغيراً من الكتاب المقدس الأصلي ، وإن كتاباً من هذه الكتب وهو الونداد قد بقي سليماً .
أما الكتب الأخرى فلم تبق منها إلا أجزاء مبعثرة في مؤلفات متأخرة كالدنكرد والبنديهش .
ويروى مؤرخو العرب أن النص الكامل للكتاب الفارسي المقدس كان يشتمل على ١٢٠٠٠
جلد من جلود البقر . وتقول إحدى الروايات الدينية أن الأمير قشتسبا كتب من هذا الكتاب
نسختين ، التهمت إحداها النار حين أحرق الإسكندر القصر الملكي في برسوبوليس ، أما الأخرى
فقد أخذها اليونان المنتصرون معهم إلى بلادهم ، فلما ترجموها كانت هي المصدر الذى أخذوا
عنه كل معلوماتهم العلمية (كما يقول الثقات من الفرس) . فلما كان القرن الثالث بعد الميلاد
أمر قليجيس الخامس أحد الملوك البارثيين من الأسرة الأرساسية أن يجمع كل ما بقى من أجزاء
الكتاب المنفرقة المكتوب منه والباقي في صدور المؤمنين . فأتخذ الكتاب من ذلك الوقت
صورته الباقية إلى هذا اليوم ، وكان قانون الزردشتية في القرن الرابع الميلادى ، وأساس
الدين الرسمي للدولة الفارسية . ثم عبثت الأيدي مرة أخرى بهذا الكتاب لما فتح المسلمون
بلاد الفرس في القرن السابع بعد الميلاد (٦٣) .

ويمكن تقسيم القطع الصغيرة الباقية من هذا الكتاب إلى خمسة أجزاء :

١ — اليزنا : وتتألف من خمسة وأربعين فصلاً من الطقوس الدينية التى كان الكهنة
الزردشتيون يترغنون بها ، ومن سبعة وعشرين فصلاً (من الفصل الثامن والعشرين =

وهذا الجزء الباقي يبدو للأجنبي الضيق الفكر كأنه خليط مهوش من الأدعية والأشيد ، والأقاصيص ، والوصفات ، والطقوس الدينية ، والقواعد الخلقية ، تجلوها في بعض المواضع لغة ذات روعة ، وإخلاص حار ، وسمو خلقى ، أو أغان تتم عن تقى وصلاح . وهى تشبه العهد القديم من الكتاب المقدس فيما تثيره في النفس من نشوة قوية . وفى وسع الدارس أن يجد في بعض أجزائها ما يجده في الرج — قدا من آلهة وآراء ، ومن كلمات وتراكيب في بعض الأحيان . وتبلغ هذه من الكثرة حداً جعل بعض علماء الهنود يعتقدون أن الأستاق ليست وحياً من عند أهورا — مزدا ، بل هى مأخوذة من كتب الفيدا . ويعثر الإنسان في مواضع أخرى منها على فقرات من أصل بابلى قديم ، كالفقرات التى تصف خلق الدنيا على ست مراحل (السموات ، فالماء ، فالأرض ، فالنبات ، فالحيوان ، فالإنسان) ، وتسلسل الناس جميعاً من أبوين أولين ، وإنشاء جنة على ظهر الأرض^(٦٦) ، وغضب الخالق على خلقه ، واعتزامه أن يسلط عليهم طوفاناً يهلكهم جميعاً إلا قلة صغيرة منهم^(٦٧) . لكن ما فيها من عناصر إيرانية خالصة يشتمل على كثير من الشواهد التى تكفى لصبغ الكتاب كله بالصبغة الفارسية العامة . فالفكرة السائدة فيه هى ثنائية العالم الذى يقوم على مسرحه صراع يدوم اثنى عشر ألف عام بين الإله أهورا — مزدا والشیطان أهرمان ؛

= (إلى الرابع والخمسين) وتسمى الجتها ، وتشتمل على أحاديث النبی وما أوحى إليه مصوغه فى عبارات موزونة كما يظهر .

- ٢ — الوسپرد : ويشتمل على أربعة وعشرين فصلاً أخرى من الطقوس الدينية .
- ٣ — الوندیداد : ويشتمل على اثنين وعشرين فصلاً أو فرجودا ، وهى تشرح فقه الزردشتيين وقوانينهم الأخلاقية ، وهى التى تتألف منها الآن شريعة البارسيين الكهنوتية (فى الهند) .
- ٤ — اليشت : أى التسيبجات الفنائية ، وهى واحد وعشرون نشيداً فى الثناء على الملائكة تغزلها أقاصيص تاريخية ونبوءة عن آخر العالم .
- ٥ — وآخرها الحرد أبستاق : أى الأستاق الصغيرة وهى صلوات تتلى فى مناسبات فى الحياة مختلفة .

وأن أفضل الفضائل هما الطهر والأمانة وهما يؤديان إلى الحياة الخالدة ؛ وأن الموتى يجب ألا يدفنوا أو يحرقوا ، كما كان يفعل اليونان أو الهنود القديرون ، بل يجب أن تلقى أجسامهم إلى الكلاب أو الطيور الجارحة^(٦٨)

وكان إله زردشت في بادئ الأمر هو : « دائرة السماوات كلها » نفسها . فأهورا مزدا « يكتسى بقبة السماوات الصلبة يتخذها لباساً له ؛ ... وجسمه هو الضوء والمجد الأعلى ، وعيناه هما الشمس والقمر » . ولما أن انتقل الدين في الأيام الأخيرة من الأنبياء إلى الساسة صور الإله الأعظم في صورة ملك ضخم ذي جلال مهيب . وكان بوصفه خالق العالم وحاكمه يستعين بطائفة من الأرباب الصغار ، كانت تصور أولاً كأنها أشكال وقوى من أشكال الطبيعة وقواها — كالنار ، والماء ، والشمس ، والقمر ، والرياح ، والمطر . ولكن أكبر فخر لزردشت أن الصورة التي تصورها لإلهه هي أنه يسمو على كل شيء . وأنه عبر عن هذه الفكرة بعبارات لا تقل جلالاً عما جاء في سفر أيوب :

هذا ما أسألك عنه فأصدقني الخبر يا أهورا مزدا : منذ الذي رسم مسار الشمس والنجوم ؟ — ومنذا الذي يجعل القمر يتزايد ويتضاءل ؟ ... ومنذا الذي رفع الأرض والسماء من تحتها وأمسك السماء أن تقع ؟ — منذ الذي حفظ المياه والنباتات — ومنذا الذي سخر للرياح والسحب سرعتها — ومنذا الذي أخرج العقل الخير يا أهورا مزدا ؟^(٦٩)

وليس المقصود « بالعقل الخير » عقلاً إنسانياً ما ، بل المقصود به حكمة إلهية لا تكاد تفترق في شيء عن « كلمة الله »^(*) يستخدمها أهورا مزدا واسطة لخلق الكائنات . وكان لأهورا مزدا كما وصفه زردشت سبعة مظاهر أو سبع صفات

(*) يعتقد دارمستر أن فكرة « العقل الطيب » إن هي إلا تطبيق — شبه بتطبيق الأوربيين — لفكرة الكلمة الإلهية عند فيلو . وهو لهذا يرجع تاريخ الزنا إلى القرن الأول قبل الميلاد^(٧٠) .

هى : النور ، والعقل الطيب ، والحق ، والسلطان ، والتقوى ، والخير ، والخلود .
ولما كان أتباعه قد اعتادوا أن يعبدوا أربابا متعددة فقد فسروا هذه الصفات
على أنها أشخاص (سموهم أميشا اسبنتا أو القديسين الخالدين) الذين خلقوا
العالم ويسيطرون عليه بإشراف أهورا مزدا وإرشاده . وبذلك حدث فى هذا
الدين ما حدث فى المسيحية فانقلبت الوجدانية الرائعة التى جاء بها مؤسسه
شركا لدى عامة الشعب . وكان لديهم فضلا عن هذه الأرواح المقدسة كائنات
أخرى هى الملائكة الحراس . وقد اختص كل رجل وكل امرأة وكل طفل
— حسب أصول اللاهوت الفارسى — بواحد منها ، وكان الفارسي التقي يعتقد
(ولعله كان فى هذا الاعتقاد متأثراً بعقيدة البابليين فى الشياطين) أنه يوجد
إلى جانب هؤلاء الملائكة والقديسين الخالدين الذين يعينون الناس على التحلى
بالفضيلة سبعة شياطين (ديو) أو أرواح خبيثة تحوم فى الهواء ، وتغوى الناس
على الدوام بارتكاب الجرائم والخطايا ، وتشترك أبد الدهر فى حرب مع
أهورا — مزدا ومع كل مظهر من مظاهر الحق والصلاح . وكان كبير
هذه الزمرة من الشياطين أنكرا — مينبوما أو أهرمان أمير الظلمة وحاكم العالم
السفلى . وهو الطراز الأسبق للشيطان الذى لا ينقطع عن فعل الشر ، والذى
يلوح أن اليهود أخذوا فكرته عن الفرس ثم أخذتها عنهم المسيحية . مثال ذلك
أن أهرمان هو الذى خلق الأفاعى ، والحشرات المؤذية ، والجراد ، والنمل ،
والشتاء ، والظلمة ، والجريمة ، والخطيئة ، واللواط ، والحيف ، وغيرها من
مصائب الحياة . وهذه الآثام التى أوجدها الشيطان هى التى خربت الجنة حيث
وضع أهورا مزدا الجدين الأعلى للجنس البشرى ^(٧١) .

ويبدو أن زردشت كان يعد هذه الأرواح الخبيثة آلهة زائفة ، وأنها تجسيد
خرافى من فعل العامة للقوى المعنوية المجردة التى تعترض رقى الإنسان . ولكن
أتباعه رأوا أنه أيسر لهم أن يتصوروها كائنات حية ففسدوها وجعلوا لها صورا

ما زالوا يضاعفونها حتى بلغت جملة الشياطين في الديانة الفارسية عدة ملايين^(٧٢). ولقد كانت هذه العقائد وقت أن جاء بها زردشت قريبة كل القرب من عقيدة التوحيد، بل إنها حتى بعد أن أقحموا فيها أهرمان والأرواح ظل فيها من التوحيد بقدر ما في المسيحية بإبليسها وشياطينها وملائكتها. والحق أن الإنسان ليسمع في الديانة المسيحية الأولى أصداء كثيرة للثنائية الفارسية، لا تقل عما يسمع فيها من أصداء التزمت العبراني، أو الفلسفة اليونانية. ولعل الفكرة الزردشتية عن الإله كانت ترضى عقلا يهتم بدقائق الأشياء وتفاصيلها كمقل ماثيو آرنلد. ذلك أن أهورا مزدا، كان جماع قوى العالم التي تعمل للحق؛ والأخلاق الفاضلة لا تكون إلا بالتعاون مع هذه القوى. هذا إلى أن في فكرة الثنائية بعض ما يبرر ما تراه في العالم من تناقض والتواء وانحراف عن طريق الحق لم تفسره قط فكرة التوحيد. وإذا كان رجال الدين الزردشتيون يحتاجون أحياناً، كما يحتاج متصوفة الهندو والفلاسفة المدرسيون، بأن الشر لا وجود له في حقيقة الأمر^(٧٣)، فإنهم في الواقع يعرضون على الناس ديناً يصلح كل الصلاحية لأن يمثل لأوساط الناس ما يصادفهم في الحياة من مشا كل خلقية تمثيلاً يقربها إلى عقولهم وتنطبع فيها انطباع الرواية المسرحية، وقد وعدوا أتباعهم بأن آخر فصل من هذه المسرحية سيكون خاتمة سعيدة — للرجل العادل. ذلك أن قوى الشر ستُغلب آخر الأمر ويكون مصيرها الفناء بعد أن يمر العالم بأربعة عهود طول كل منها ثلاثة آلاف عام يسيطر عليه فيها على التوالي أهورا مزدا وأهرمان. ويومئذ ينتصر الحق في كل مكان، وينعدم الشر فلا يكون له من بعد وجود. ثم ينضم الصالحون إلى أهورا مزدا في الجنة ويسقط الخبيثون في هوة من الظلمة في خارجها يطعمون فيها أبد الدهر سُماً زعافاً^(٧٤).

الفصل السادس

الفلسفة الأخلاقية في الديانة الزردشتية

الإنسان ميدان قتال — النار الخلدة — الجحيم والمطهر والجنة —
عبادة مترا — المجوس — البارسيين

لما صور الزردشتيون العالم في صورة ميدان يصطارع فيه الخير والشر ، أيقظوا بعملهم هذا في خيال الشعب حافزاً قوياً مبعثه قوة خارجة عن القوى البشرية ، يحض على الأخلاق الفاضلة ويصونها . وكانوا يمثلون النفس البشرية ، كما يمثلون الكون ، في صورة ميدان كفاح بين الأرواح الخيرة والأرواح الشريرة ؛ وبذلك كان كل إنسان مقاتلاً ، أراد ذلك أو لم يردده ، في جيش الله أو في جيش الشيطان ، وكان كل عمل يقوم به أو يغفله يرجح قضية أهورا مزدا أو قضية أهرمان . وتلك فلسفة فيها من المبادئ الأخلاقية ما يعجب به المرء أكثر مما يعجب بما فيها من مبادئ الدين — إذا سلمنا بأن الناس في حاجة إلى قوة غير القوى الطبيعية تهديهم إلى طريق الخلق الكريم . فهي فلسفة تضيف على الحياة الإنسانية من المعنى ومن الكرامة ما لا تضيفه عليه النظرة العالمية القائلة بأن الإنسان ليس إلا حشرة دنيئة لا حول لها ولا طول (كما كان يقول أهل العصور الوسطى) ، أو آلة تتحرك بنفسها كما يقول أهل هذه الأيام . ذلك أن بنى الإنسان حسب تعاليم زردشت ليسوا مجرد بيادق تتحرك بغير إرادتها في هذه الحرب العالمية ؛ بل كانت لهم إرادة حرة ، لأن أهورا مزدا ، كان يريد هم شخصيات تتمتع بكامل حقوقها ، وفي مقدورهم أن يختاروا طريق النور أو طريق الكذب . فقد كان أهرمان هو الكذبة الخلدة ، وكان كل كذاب خادماً له .

ونشأ من هذه الفكرة قانون أخلاقي مفصل رغم بساطته ، يدور كله حول القاعدة الذهبية وهي أن « الطبيعة لا تكون خيرة إلا إذا منعت صاحبها أن يفعل بغيره ما ليس خيراً له هو نفسه » (*) (٧٥). وتقول الأستاق إن على الإنسان واجبات ثلاثة . « أن يجعل العدو صديقاً ، وأن يجعل الخبيث طيباً ، وأن يجعل الجاهل علماً » (٧٦). وأعظم الفضائل عنده هي التقوى ، ويأتي بعدها مباشرة الشرف والأمانة عملاً وقولاً. وحرم أخذ الربا من الفرس ، ولكنه جعل الوفاء بالدين واجباً يكاد أن يكون مقدساً (٧٧). ورأس الخطايا كلها (في الشريعة الأستاقية كما هي في الشريعة الموسوية) هو الكفر . ولنا أن نحكم من العقوبات الصارمة التي كانت توقع على الملحدين بأن الإلحاد كان له وجود بين الفرس ، وكان المرتدون عن الدين يعاقبون بالإعدام من غير توان (٧٨). لكن ما أمر به السيد من إكرام ورحمة لم يكن يطبق من الوجهة العملية على الكفار ، أى على الأجانب ، لأن هؤلاء كانوا صنفاً منحطاً من الناس أضلهم أهورا — مزدا فلم يحبوا إلا بلادهم وحدها لكيلا يغزوا بلاد الفرس ، ويقول هيروودوت إن الفرس : « يرون أنهم خير الناس جميعاً من جميع الوجوه » . وهم يعتقدون أن غيرهم من الأمم تدنو من الكمال بقدر ما يقرب موقعها الجغرافي من بلاد فارس ، وأن « شر الناس أبعدهم عنها » (٧٩). إن لهذه الألفاظ نعمة حديثة وإنها لتنطبق على جميع الأمم في هذه الأيام .

ولما كانت التقوى أعظم الفضائل على الإطلاق فإن أول ما يجب على الإنسان في هذه الحياة أن يعبد الله بالطهر والتضحية والصلاة . ولم تك فارس الزردشتية تسمح بإقامة الهياكل أو الأصنام ، بل كانوا ينشئون المذابح المقدسة على قمم الجبال ، وفي القصور ، أو في قلب المدن ، وكانوا يوقدون النار فوقها تكريماً لأهورا — مزدا

(*) ولكن جاء في الآية السادسة من الفصل السادس والأربعين من كتاب يزنا : « خبيث من يسدى الخير للخبيث » إن الكتب الموحى بها قلما تتفق نصوصها .

أو غيره من صفار الآلهة . وكانوا يتخذون النار نفسها إلهاً يعبدونه ويسمونهم أنار ، ويعتقدون أنها ابن إله النور . وكانت كل أسرة تجتمع حول موقدها ، تعمل على أن تظل نار بيتها متقدة لا تنطفئ أبداً ، لأن ذلك من الطقوس المقررة في الدين . وكانت الشمس نار السموات الخالدة تعبد بوصفها أقصى ما يتصل فيها أهورا — مزدا أو مثرا كما عبدها إخناتون في مصر . وقد جاء في كتابهم المقدس : « يجب أن تعظم شمس الصباح إلى وقت الظهيرة ، وشمس الظهيرة يجب أن تعظم إلى العصر ، وشمس العصر يجب أن تعظم حتى المساء ... والذين لا يعظمون الشمس لا تحسب لهم أعمالهم الطيبة في ذلك اليوم ^(٨٠) » ، وكانوا يقربون إلى الشمس ، وإلى النار ، وإلى أهورا — مزدا القرايين من الأزهار ، والخبز ، والفاكهة ، والعطور ، والثيران ، والضأن ، والجمال ، والخيول ، والحمر ، وذكور الوعول . وكانوا في أقدم الأزمنة يقربون إليها الضحايا البشرية شأن غيرهم من الأمم ^(٨١) . ولم يكن ينال الآلهة من هذه القرايين إلا رائحتها ، أما ما يؤكل منها فقد كان يبقى للكهنة والمتعبدين ، لأن الآلهة — على حد قول الكهنة — ليست في حاجة إلى أكثر من روح الضحية ^(٨٢) . وظلت العادة الآرية القديمة عادة تقديم عصير الهوما المسكر قرباناً إلى الآلهة باقية بعد انتشار الدين الزردشتي بزمان طويل ، وإن كان زردشت نفسه جهر بسخطه على هذه العادة ، وإن لم يرد لها ذكر في الأوستا . وكان الكهنة يحتسون بعض هذا العصير المقدس ، ويوزعون ما بقي منه على المؤمنين المجتمعين للصلاة ^(٨٣) . فإذا حال الفقر بين الناس وبين تقديم هذه القرايين الشهية ، استعاضوا عنها بالزلفى إلى الآلهة بالأدعية والصلوات . وكان أهورا مزدا كما كان يهوه يجب الثناء ويتقبله ، ومن ثم فقد وضع للمتقين من عباده طائفة رائعة من صفاته أضحت من الأوراد المحببة عند الفرس ^(٨٤) .

فإذا ما وهب الفارسي حياة التقى والصدق كان في وسعه أن يلقي الموت في

غير خوف ؛ ومهما يكن من الأغراض التي يهدف إليها الدين فإن هذا المطلب كان أحد مطالبه الخفية . وكان من العقائد المقررة أن أستواء إله الموت يعثر على كل إنسان أيا كان مقره ؛ فهو الباحث الواثق ، الذي لا يستطيع الإفلات منه آدمي ولو كان من أولئك الذين يغوصون في باطن الأرض ، كما فعل أفرسياب التركي الذي شاد له تحت أطباق الثرى قصرًا من الحديد يبلغ ارتفاعه قدر قامة الإنسان ألف مرة ، وأقام فيه مائة من الأعمدة ، تدور في سمائه النجوم والقمر والشمس تغمره بأشعة النهار . وكان في هذا القصر يفعل كل ما يحلوه ويحيا أسعد حياة . ولكنه لم يستطع رغم قوته وسحره أن يفر من أستواء ... كذلك لم يستطع النجاة منه من حفر الأرض الواسعة المستديرة التي تمتد أطرافها إلى أبعد الحدود كما فعل دهاق إذ طاف بالأرض شرقًا وغربًا يبحث عن الخلود فلم يعثر عليه . ولم يفده بأسه وقوته في النجاة من أستواء ... ذلك أن أستواء الخائل يأتي متخفيا إلى كل إنسان ، لا يعظم شخصًا ، ولا يتقبل الثناء ولا الارتشاء ، بل يهلك الناس بلا رحمة^(٨٥) .

ولما كان من طبيعة الأديان أن ترهب وتندر ، كما تأسو وتبشر ، فإن الفارسي رغم هذا كله لم يكن ينظر إلى الموت في غير رهبة إلا إذا كان جنديًا أمينًا يدافع عن قضية أهورا — مزدا . فقد كان من وراء الموت ، وهو أشد الخفايا كلها رهبة ، جحيم ، وأعراف ، وجنة . وكان لا بد لأرواح الموتى بأجمعها أن تجتاز قنطرة تصفى فيها ، تجتازها الأرواح الطيبة فتصل في جانبها الثاني إلى « مسكن الفناء » حيث تلقاها وترحب بها « فتاة عذراء ، ذات قوة وبهاء ، وصدر ناهد مليء » ؛ وهناك تعيش مع أهورا — مزدا سعيدة منعمة إلى أبد الدهر .

أما الروح الخبيثة فلا تستطيع أن تجتاز القنطرة فتتردى في درك من الجحيم يتناسب عمقه مع ما اقترفت من ذنوب^(٨٦) . ولم يكن هذا الجحيم مجرد دار سفلى تذهب إليها كل الأرواح طيبة كانت أو خبيثة كما تصفها الأديان الأقدم عهداً

من الدين الزردشتي ، بل كانت هاوية مظلمة مرعبة تعذب فيها الأرواح المذنبة أبد الآبدين^(٨٧) . فإذا كانت حسنات الإنسان ترجح على سيئاته قاسى عذاباً مؤقتاً يطهره من الذنوب ، وإذا كان قد ارتكب كثيراً من الخطايا ولكنه فعل بعض الخير ، لم يلبث في العذاب إلا اثني عشر ألف عام يرفع بعدها إلى السماء^(٨٨) . ويحدثنا الزردشتيون الصالحون بأن العالم يقترب من نهايته المحتومة ؛ ذلك بأن مولد زردشت كان بداية الحقبة العالمية التي طولها ثلاثة آلاف سنة ، وبعد أن يخرج من صلبه في فترات مختلفة ثلاثة من النبيين ينشرون تعاليمه في أطراف العالم ، يحلّ يوم الحساب الأخير ، وتقوم مملكة أهورا — مزداً ، ويهلك أهرمان هو وجميع قوى الشر هلاكاً لا قيام لها بعده . ويومئذ تبدأ الأرواح الطيبة جميعها حياة جديدة في عالم خال من الشرور والظلام والآلام^(٨٩) : « فيُبعث الموتى ، وتعود الحياة إلى الأجسام ، وتتردد فيها الأنفاس ... ويخلو العالم المادى كله إلى أبد الدهر من الشيخوخة والموت والفساد والانحلال^(٩٠) » .

وهنا أيضاً نستمع ، كما نستمع في كتاب الموتى المصرى ، إلى التهديد بيوم الحساب الرهيب ، وهو تهديد يلوح أنه انتقل من فلسفة الحشر الفارسية إلى الفلسفة اليهودية أيام أن كانت للفرس السيادة على فلسطين — ألا ما أروعها من وصف خليق بأن يهرب الأطفال فيصدعوا بأوامر آبائهم !

ولما كان من أغراض الدين أن ييسر ذلك الواجب الصعب الضروري ، واجب تذليل الصغار على يد الكبار ، فإن من حق الكهنة الزردشتيين أن تقرّ لهم بما كانوا عليه من مهارة في وضع قواعد الدين . وإذا ما نظرنا إلى هذا الدين في مجموعه ألقيناه ديناً رائعاً أقلّ وحشية ونزعة حربية ، وأقلّ وثنية وتخريفاً من الأديان المعاصرة له ، وكان خليقاً بالآلة يقضى عليه هذا القضاء العاجل .

وأتى على هذا الدين حين من الدهر في عهد دارا الأول كان فيه المظهر الروحي لأمة في أوج عزها . لكن بنى الإنسان يولعون بالشعراً أكثر من ولعهم

بالمنطق ، والناس يهلكون إذا خلت عقائدهم من بعض الأساطير . ومن أجل هذا ظلت عبادة ميثرا وأنيثا — إله الشمس وإلهة الإنبات والخصب والتوالد والأنوثة — ظلت هذه العبادة قائمة إلى جانب دين أهورا — مزدا الرسمي تجد لها أتباعاً مخلصين ، وعاد اسمها إلى الظهور من جديد في النقوش الملكية أيام أرت خستر الثاني ، وأخذ اسم ميثرا بعدئذ يعظم ويقوى ، كما أخذ أهورا — مزدا يضمحل . وما أن وافت القرون الأولى من التاريخ الميلادي حتى انتشرت عبادة ميثرا الإله الشاب ذى الوجه الوسيم — الذى تعلو وجهه هالة من نور ترمز إلى الوحدة القديمة بينه وبين الشمس — فى جميع أنحاء الدولة الرومانية ، وكان انتشارها هذا من أسباب الاحتفال بعيد الميلاد عند المسيحيين (*) . ولو أن زردشت كان من المخلدين لتوارى خجلاً حين يرى تماثيل أنيثا أفرديتى القرس ، تقام فى كثير من مدن الإمبراطورية الفارسية بعد بضعة قرون من وفاته^(٩١) . وما من شك فى أنه كان يسوءه أن يجد صحفاً كثيرة من صحف وحيه قد خصها المجوس بطلاسم لشفاء المرضى والتنبؤ بالغيب والسحر^(٩٢) وذلك أن « الرجال العقلاء » أى كهنة المجوس قد غلبوا زردشت على أمره ، كما يغلب الكهنة فى آخر الأمر كل عات عاصياً كان أو زنديقاً ، وذلك بأن يضموه إلى دينهم أو يستوعبوه فيه ؛ فسلكوه أولاً فى عداد المجوس ، ثم لم يلبثوا أن نسوا ذكره^(٩٣) . وما لبث هؤلاء المجوس بزهدهم وتقشفهم ، واقتصارهم على زوجة واحدة ، ومراعاتهم لمئين من الطقوس المقدسة ، ومن تطهرهم بمئات الأساليب اتباعاً لأوامر الدين وطقوسه ، وبامتناعهم عن أكل اللحوم ، وبملبسهم البسيط الذى لا تكلف ولا تظاهر فيه ، مالبث هؤلاء أن اشتهروا بالحكمة بين الشعوب الأجنبية ، ومنهم اليونان أنفسهم ،

(*) كان عيد الميلاد فى بداية الأمر عيداً شمسياً يحتفل به وقت الانقلاب الشتئى (حوالى ٢٢ ديسمبر) ببداية طول النهار وابتصار الشمس على أعدائها ، وأصبح فيما بعد عيداً لميثرا ، ثم صار من الأيام المقدسة عند المسيحيين .

كما أصبح لهم على مواطنيهم سلطان لا تكاد تعرف له حدود . لقد أصبح ملوك
الفرس أنفسهم من تلاميذهم ، لا يقدمون على أمر ذي بال إلا بعد استشارتهم
فيه ، فقد كانت الطبقات العليا منهم حكماء ، والسفلى متنبئين وسحرة ، ينظرون
في النجوم ويفسرون الأحلام^(٩٤) ؛ وهل ثمة شاهد على علو كعبهم أكبر من أن
اللفظ الإنجليزي المقابل لكلمة « السحر » Magic مشتق من اسمهم . وأخذت
العناصر الزردشتية في الديانة الفارسية تتضاءل عاماً بعد عام ؛ نعم إنها انتعشت
وقتاً ما أيام الأسرة الساسانية (٢٢٦ — ٦٥١ م) ، ولكن الفتح الإسلامي
وغزو التتار قضيا عليها القضاء الأخير . ولا يوجد أثر للديانة الزردشتية في هذه
الأيام إلا بين عشائر قليلة العدد في ولاية فارس ، وبين الإرسيين من الهنود
الذين يبلغ عددهم تسعين ألفاً .

ولا تزال هذه الجماعة حفيظة على كتبها المقدسة ، تخلص لها وتدرسها ،
وتعبد النار والتراب ، والأرض والماء ، وتقدسها ، وتعرض موتاهها في « أبراج
الصمت » للطيور الجارحة كيلا تدنس العناصر المقدسة بدفنها في الأرض أو حرقها
في الهواء . وهم قوم ذوو أخلاق سامية وآداب رفيعة ، وهم شاهد حي على فضل
الدين الزردشتي وما له من أثر عظيم في تهذيب بني الإنسان وتمدينهم .

الفصل السابع

آداب الفرس وأخلاقهم

العنف والشرف — قانون النظافة — خطايا الجسد —
العذارى والأعزاب — الزواج — النساء — الأطفال —
آراء الفرس في التربية والتعليم

إن الذي يدهشنا بحق هو ما بقي لدى الميديين والفرس من وحشية رغم دينهم هذا . انظر إلى ما كُتبه دارا الأول أعظم ملوكهم في نقش بهستون : « وقبض على فراقارتش وجيء به إلى . فجذعت أنفه ، وصلمت أذنيه ، وقطعت لسانه ، وفقت عينيه ، وأبقيته في بلاطى مقيداً بالأغلال يراه كل الناس . ثم صلبته بعدئذ في إكباتانا ... وكان أهورا — مزدا أكبر معين لى ، فقد بطش جيشي برعاية أهورا — مزدا بالجيش الثائر ، وقبضوا على سترنكخارا وجاءوا به إلى ، فجذعت أنفه ، وصلمت أذنيه ، وفقت عينيه . وبقى مقيداً بالأغلال في بلاطى يراه الناس جميعاً ، ثم صلبته^(٩٥) . وإن في حوادث الإعدام التي يقصها بلوتارخ في سيرة أرت خستر لصورة مروعة لما كانت عليه أخلاق ملوك الفرس في العهد الأخير . لقد كان الخونة يقضى عليهم بلا شفقة ولا رحمة : فكانوا يصلبونهم وزعمائهم ، ثم يباع أتباعهم بيع الرقيق ، وتنهب مدنهم ، ويخصى غلمانهم ، وتسبي بناتهم^(٩٦) ويبعن . ولكن ليس من العدالة في شيء أن يحكم الإنسان على شعب بأمره من سيرة ملوكه . ذلك أن الفضيلة لا تروىها الأخبار ، وأفاضل الناس لا تاريخ لهم ، شأنهم في هذا شأن الأمم الهنيئة السعيدة . بل إن الملوك أنفسهم كانوا يبدون في بعض المناسبات شيئاً من مكارم الأخلاق ، وكانوا يشتهرون بين اليونان الغادرين بوفائهم . فإذا عاهدوا أوفوا بعهدهم ، وكان من دواعي فخرهم

أنهم لا ينقضون كلمتهم^(٩٧). ومما يجب أن نذكره للفرس مقرونا بالثناء والتقدير، أن من العسير علينا أن نجد في تاريخهم فارسياً قد استؤجر ليحارب الفرس، على حين أن أى إنسان كان يسعه أن يستأجر اليونان ليحاربوا اليونان^(*).

وخلق بنا أن نذكر أن أخلافهم لم تبلغ من القسوة ذلك الحد الذى يتبادر إلى أذهاننا من قراءة تاريخهم الحافل بالدم والحديد. لقد كان الفرس يتحلون بالصراحة والكرم وحفظ الود وسخاء اليد^(٩٨)، يراعون آداب المجالس ويحرصون عليها حرصاً لا يكاد يقل عن حرص الصينيين. وكانوا إذا تقابل منهم شخصان متساويان فى المرتبة تعانقا وقبل كل منهما الآخر فى شفتيه؛ فإذا قابل الواحد منهم من هو أعلى منه منزلة انحنى له انحناءة كبيرة تشعر بالخضوع والاحترام، وإذا التقى بمن هو أقل منه قدم له خده ليقبله، فإذا قابل أحد السوق اكتفى بإحناء رأسه^(٩٩). وكانوا يستنكرون تناول شيء من الطعام أو الشراب على قارعة الطريق، كما يسوءهم أن يبصق الإنسان أو يتمخط أمام الناس^(١٠٠). وقد ظلوا إلى أيام خشيرشا مقتصدين فى مأكلهم ومشربهم، لا يطعمون إلا وجبة واحدة فى اليوم، ولا يشربون إلا الماء القراح^(١٠١). وكانوا يعدون النظافة أكبر النعم لا تفضلها إلا الحياة نفسها، وأن الأعمال الطيبة إذا صدرت عن أيد قذرة كانت لا قيمة لها، « لأن الإنسان إذا لم يقض على الفساد (ولعله يريد « الجرائم ») فإن الملائكة لا تسكن فى جسمه^(١٠٢) ». وكانوا يفرضون أشد العقوبات على من يتسببون فى نشر الأمراض المعدية. وكان الأهلون يجتمعون فى الأعياد وكلهم يرتدون الملابس البيضاء^(١٠٣). وكانت الشريعة الأبستاقية كالشريعتين البرهمية والموسوية مليئة بمرامم التطهير والحذر من القذارة. وفى كتاب الزردشتيين المقدس فقرات

(*) لما حارب الفرس الإسكندر عند نهر غرانيقوس كانت فرق المشاة الفارسية كلها تقريباً من مرتزقة اليونان. وفى موقعة إسوس كان قلب الجيش الفارسى مؤلفاً من ثلاثين ألفاً من مرتزقة اليونان^(٩٨).

طويلة مملّة خست كلها بشرح القواعد الواجب اتباعها لطهارة الجسد والروح^(١٠٥).
وقد جاء فيها أن قلامة الأظفار، وقصاصات الشعر، وإخراج النفس من الفم كلها
أقذار يجب على الفارسي العاقل أن يتجنبها إلا إذا كانت قد طهرت من قبل^(١٠٦).
كذلك كانت الشرائع الفارسية صارمة في عقاب خطايا الجسد صرامة
الشرائع اليهودية، فكان الاستمناء باليد يعاقب عليه بالجلد، وكان عقاب من
يرتكب جريمة الزنا واللواط والسحاق من الرجال والنساء « أن يقتلوا لأنهم
أحق بالقتل من الأفاعى الزاحفة والذئاب الماوية^(١٠٧) ». لكن في مقدورنا أن
نستدل من الفقرة الآتية التي أوردها هيروdot على وجود الخلف المعتقد بين
القول والعمل : « يرى الفرس أن خطف النساء قوة واقتداراً عمل لا يأتيه
إلا الأشرار، ولكن اشتغال الإنسان بالثأر لهن إذا اختطفن من أعمال الحمقى ؛
أما إهملن إذا اختطفن فمن أعمال الحكماء ؛ فغير خاف أنهن لو لم يكن راغبات
لما اختطفن^(١٠٨) ». ويقول في موضع آخر إن الفرس « قد أخذوا عن اليونان
اشتراء العلمان^(١٠٩) » ، وإنا وإن كنا لا نستطيع أن نثق بكل ما يقوله هذا الراوية
العظيم لنستشف ما يؤيد قوله هذا في العبارات القاسية التي تشنع بها الأستاق
على اللواط . فهي تقول في مواضع كثيرة إن هذا الذنب لا يغتفر وإنه « لا شيء
يمحوه قط »^(١١٠).

ولم يكن القانون يشجع البنات على أن يظللن عذارى ولا العزّاب على أن
يبقوا بلا زواج، ولكنه كان يبيح التسرى وتعدد الزوجات، ذلك بأن
المجتمعات الحربية في حاجة ماسة إلى كثرة الأبناء . وفي ذلك تقول الأستاق :
« إن الرجل الذي له زوجة يفضل كثيراً من لا زوجة له ، والرجل الذي يعول
أسرة يفضل كثيراً من لا أسرة له ، والذي له أبناء يفضل كثيراً من لا أبناء له ،
والرجل ذو الثراء أفضل كثيراً من لا ثروة له^(١١١) » ، وتلك كلها معايير للمركز
الاجتماعي شائعة بين مختلف الأمم ، وكانت الأسرة لديهم أقدس النظم الاجتماعية .

وكان من الأسئلة التي ألقاها زردشت على أهورا — مزدا : « أى إلهى خالق العالم المادى — إلهى القدوس ! ما هو المكان الثانى الذى تحس الأرض فيه أنها أسعد ما تكون ؟ » . ويجيبه أهورا — مزدا عن سؤاله هذا بقوله : « إنه المكان الذى يشيد فيه أجد المؤمنين بيتاً فى داخله كاهن ، وفيه ماشية ، وفيه زوجة ، وفيه أطفال ، وفيه أنعام طيبة ، والذى تكثر فيه الماشية بعدئذ من النجاج ، وتكثر فيه الزوجة من الأبناء ، وينمو فيه الطفل ، وتشتعل فيه النار ، وترداد فيه جميع نعم الحياة ^(١١٢) » .

وكان الحيوان — وخاصة الكلب — جزءاً أساسياً من الأسرة ، كما كان شأنه فى الوصية الأخيرة التى أنزلت على موسى ، وكان واجبا مفروضاً على أقرب الأسر إلى أنثى الحيوان الحامل الضالة أن تعنى بها ^(١١٣) ، وفرضت أشد العقوبات على من يطعمون الكلاب طعاماً فاسداً ، أو طعاماً شديد الحرارة ؛ وكان عقاب من « يضرب كلبة علتها ثلاثة كلاب » أن يُجلد أربعاً وألف جلدة ^(١١٤) . وكانوا يعظمون الثور لما له من قدرة عظيمة على الإخصاب . كما كانوا يصلون للبقرة ويقرّبون لها قربان ^(١١٥) .

وكان الآباء ينظمون شئون الزواج لمن يبلغ الحلم من أبنائهم . وكان مجال الاختيار لديهم واسعاً ، فقد قيل لنا إن الأخ كان يتزوج أخته ، والأب ابنته ، والأم ولدها ^(١١٦) . وكان التسرى من المتع التى اختص بها الأغنياء ، ولم يكن الأشراف يخرجون للحرب إلا ومعهم سراريهم ^(١١٧) . وكان عدد السراى فى قصر الملك فى العصور المتأخرة من تاريخ الإمبراطورية يتراوح بين ٣٢٩ ، ٣٦٠ ، فقد أصبحت العادة فى تلك الأيام ألا يضاجع الملك امرأة مرتين إلا إذا كانت رائعة الجمال ^(١١٨) .

وكان للمرأة فى بلاد الفرس مقام سام فى أيام زردشت كما هى عادة القدماء ؛

فقد كانت تسير بين الناس بكامل حريتها سافرة الوجه ، وكانت تمتلك العقار وتصرف شئونه ، وكان في وسعها أن تدير شئون زوجها باسمه أو بتوكيل منه . ثم انحطت منزلتها بعد دارا ، وخاصة بين الأغنياء ، فأما المرأة الفقيرة فقد احتفظت بحريتها في التنقل لاضطرارها إلى العمل ، وأما غير الفقيرات فقد كانت العزلة المفروضة عليهن في أيام حيضهن على الدوام تمتد حتى تشمل جميع حياتهن الاجتماعية ، وكان ذلك أساس نظام البردة عند المسلمين . ولم تكن نساء الطبقات العليا يجروئن على الخروج من بيوتهن إلا في هودج مسجفة ، ولم يكن يسمح لهن بالاختلاط بالرجال علناً . وحرم على المتزوجات منهن أن يرين أحداً من الرجال ولو كانوا أقرب الناس إليهن كآبائهن أو إخوتهن . ولم تذكر النساء قط أو يرسمن في النقوش أو التماثيل العامة في بلاد الفرس القديمة . أما السراري فكان أكثر من غيرهن حرية ، إذ كان يستعان بهن على تسلية ضيوف أسيادهن . وقد كان للنساء في جميع الأوقات سلطان قوى في بلاط الملوك حتى في العهود الأخيرة ، وكن ينافسن الخصيان في تدبير المؤامرات ، والملوك في تمحيص وسائل التعذيب (١١٩) (*)

وكان الأبناء كما كان الزواج من الشروط الأساسية للإجلال والإكبار . فالدكور منهم ذوو فائدة اقتصادية لآبائهم وحرية للملوكهم ؛ أما البنات فلم يكن يرغب فيهن ، لأنهن كن ينشأن لغير بيوتهن ، وليستفيد منهن غير آبائهن . ومن أقوال الفرس في هذا المعنى : « إن الرجال لا يدعون الله أن يرزقهم بنات ، والملائكة لا تحسبن من النعم التي أنعم بها على بني الإنسان » (١٢٠) .

(*) كانت استائيرا زوجة أرت خشت الثانية مثلاً صالحاً للأزواج ، ولكن أمه باريسا قتلها مسمومة غيرة منها وحسداً ، وشجعت الملك على أن يتزوج ابنته أتوسا ، وحدث أن أخذت تلعب الزرد معه وتراهنه على حياة أحد خصيائه ، فلما كسبت الرهان أمرت بسلخه حياً . وأمر أرت خشت مرة بإعدام جندي كاري ، فلما كان من باريسا إلا أن هذبت أمره . فاستبدلت بهذا الإعدام شدة على عذراء عشرة أيام كاملة وصبل عينيها ، وصب مصهور الرصاص في أذنيه حتى يموت ، (١١٩) .

(العذراء شيء من حديد يعذب به الإنسان لإقرار بأمر أو نحوه — المحيط)

وكان الملك في كل عام يرسل الهدايا إلى الآباء الكثيرى الأبناء ، كأن هذه الهدايا ثمناً لدمايتهم يدفع مقدماً (١٢١) .

وكان الحمل سفاحاً سواء ممن لم يتزوجن من البنات أو ممن تزوجن منهن يغتفر أحياناً إذا لم تجهض الحامل ، ذلك أن الإجهاض كان في تقديرهم أشد جرماً من سائر الجرائم ، وكان عقابه الإعدام (١٢٢) .

وقد ورد في أحد الشروح القديمة المسماة بالبندھش وصف لجملة وسائل لمنع الحمل ، ولكنها تحذر الناس من الالتجاء إليها .

ومما جاء فيها : « وفيما يختص بالتناسل قيل في الكتاب المنزل إن المرأة إذا خرجت من الحيض تظل عشر ليال وعشرة أيام عرضة للحمل إذا اقترب منها الرجال » (١٢٣) .

وكان الوليد يبقى في حضانة أمه حتى السنة الخامسة من عمره ثم يحتضنه أبوه حتى السابعة ، وفي هذه السن يدخل المدرسة . وكان التعليم يقصر في الغالب على أبناء الأغنياء ويتولاه الكهنة عادة . فكان التلاميذ يجتمعون في الهيكل أو في بيت الكاهن ؛ وكان من المبادئ المقررة ألا تقوم مدرسة بالقرب من السوق حتى لا يكون ما يسودها من كذب وسباب وغش سبباً في إفساد الصغار (١٢٤) . وكانت الكتب الدراسية هي الأستاق وشروحها ، وكانت مواد الدراسة تشمل الدين ، والطب أو القانون ، أما طريقة الدرس فكانت الحفظ عن ظهر قلب ، وتكرار الفقرات الطويلة غيباً (١٢٥) . أما أبناء الطبقات غير الموسرة فلم يكونوا يفسدون بقلقى ذلك النوع من التعليم ، بل كان تعليمهم مقصوراً على ثلاثة أشياء — ركوب الخيل ، والرمي بالقوس ، وقول الحق (١٢٦) . وكان التعليم العالي عند أبناء الأثرياء يمتد إلى السنة العشرين أو الرابعة والعشرين ، وكان منهم من يعد إعداداً خاصاً ليتولى المناصب العامة أو حكم الولايات ؛ وكانوا كلهم بلا استثناء يدرّبون على القتال . وكانت حياة الطلاب في هذه المدارس العليا

حياة شاقة . فكان التلاميذ يستيقظون مبكرين ، ويدربون على الجري مسافات طويلة ، وعلى ركوب الخيل الجامحة وهي تركض بأقصى سرعتها ، والسباحة ، وصيد الحيوان ، ومطاردة اللصوص ، وفلاحة الأرض ، وغرس الأشجار ، والمشي مسافات طويلة في حر الشمس اللافتح أو البرد القارس ؛ وكانوا يدربون على تحمل جميع تقلبات الجو القاسية ، وأن يعيشوا على الطعام الخشن البسيط ، وأن يعبروا الأنهار دون أن تثقل ملابسهم أو دروعهم^(١٢٧) .

لقد كان هذا في الحق تعليما ينشرح له صدر فردرك نشة في اللحظات التي يستطيع فيها نسيان ثقافة اليونان الأقدمين وما فيها من تنوع وبريق .

الفصل الثامن

العلوم والفنون

الطب — الفنون الصغرى — قبرا قورش ودارا —
قصور برسبوليس — نقش الرماة — قيمة الفن الفارسي

يلوح أن الفرس قد تعمدوا ألا يعلموا أبناءهم أى فن من الفنون عدا فن الحياة . فأما الأدب فقد كان فى رأيهم ترفاً قل أن يحتاجوا إليه ، وأما العلوم فقد كانت سلعاً يستطيعون أن يستوردوها من بابل . نعم إنهم كانوا يستسيغون بعض الاستساغة الشعر والروايات الخيالية ، ولكنهم تركوا هذين الفنين المستأجرين وذوى المنزلة الدنيا منهم ، وآثروا متعة الحديث الفكه على لذة السكون والوحدة فى البحث والقراءة .

وكان الشعر عندهم يعنى أكثر مما يقرأ ، فلما مات المغنون مات الشعر معهم . وكان الطب فى بادئ الأمر من أعمال الكهنة ، وكانوا يمارسونه على أساس أن الشيطان خلق ٩٩,٩٩٩ مرضاً يجب أن تعالج بمزيج من السحر ومراعاة قواعد الصحة العامة . وكانوا يعتمدون فى علاج المرضى على الرقى أكثر من اعتمادهم على العقاقير ، وحجتهم فى هذا أن الرقى ، إن لم تشف من المرض ، لا تقتل المريض ، وهو ما لا يستطيع قوله عن العقاقير^(١٢٨) . إلا أن الطب مع ذلك قد نشأ بين غير رجال الدين حينما زادت ثروة الفرس زيادة مطردة ، حتى إذا كان عهد أرت خسترالثانى تكونت فى البلاد نقابة للأطباء والجراحين وحدد القانون أجورهم — كما حددها قانون حمورابى — وفقاً لمنزلة المريض الاجتماعية^(١٢٩) .

وقد نص القانون على أن يعالج الكهنة من غير أجر ، وكان يطلب إلى الطبيب الناشئ عند الفرس أن يبدأ حياته الطبية بعلاج الكفرة والأجانب ،

كما نفعل نحن في هذه الأيام ، إذ يقضى الطبيب المقيم سنة أو سنتين في المران على أجسام المهاجرين والفقراء . بذلك قضى ربُّ النور نفسه إذ قال :

« يا خالق الكون يا قدوس ، إذا شاء عبد من عباد الله أن يمارس فن العلاج ، فأى الناس يجب أن يجرب فيهم حذقه ؟ أيجربه في عباد أهورا — مزدا أم في عبدة الشياطين ؟ . فأجاب أهورا — مزدا بقوله : يجب أن يجرب نفسه في عبدة الشياطين لا في عباد الله ؛ فإذا عالج بالمبضع عبداً من عبدة الشياطين فمات ؛ وإذا عالج بالمبضع عبداً ثانياً من عبدة الشياطين فمات ؛ وإذا عالج بالمبضع عبداً ثالثاً من عبدة الشياطين فمات ، كان غير صالح أبداً الدهر ؛ ويجب أن يمتنع عن علاج أى عبد من عباد الله ... وإذا عالج بالمبضع عبداً من عبدة الشياطين وشفى ؛ وإذا عالج بالمبضع عبداً ثانياً من عبدة الشياطين وشفى ؛ وإذا عالج بالمبضع عبداً ثالثاً من عبدة الشياطين وشفى ، كان صالحاً أبداً الدهر ؛ وكان له إذا أراد أن يعالج عباد الله ، ويشفيهم من أمراضهم بالمبضع^(١٣٠) . »

ولما كان الفرس قد وهبوا أنفسهم لإقامة صرح الإمبراطورية ، فإن وقتهم لم يتسع لغير الحرب والقتال ، ولذلك كان جل اعتمادهم في الفنون على ما يأتيهم من البلاد الأجنبية ، شأنهم في هذا شأن الرومان سواء بسواء . نعم إنهم كانوا يتذوقون جمال الأشياء ، ولكنهم كانوا يكلون إلى الفنانين الأجانب أو إلى من في بلادهم من الفنانين أبناء الأجانب صنع هذه الأشياء ، ويحصلون من الولايات التابعة لهم على المال الذي يؤدون منه أجور أولئك الفنانين . وكانت لهم بيوت جميلة وحدائق غناء ، تستحيل في بعض الأحيان بساتين للصيد ومسارح للحيوان ؛ وكان لهم أثاث قيم غالى الثمن : من نضد مصفحة برقائق الفضة والذهب أو مطعمة بها ، ومرر فرشت عليها أغطية جاءوا بها من غير بلادهم ، وطنافس لينة جمعت كل ألوان الأرض والسماء يفرشون بها أرض حجراتهم^(١٣١) . وكانوا يشربون في كؤوس من الذهب ، ويزينون نضدهم ورفوفهم بمزهريات

من صنع الأجانب (*) . وكانوا مولعين بالعزف والغناء وبأنغام الناي والقيثار والنقر على الطبول والدفوف .

وكانت الجواهر كثيرة لديهم من تيجان وأقراط ، إلى خلاخيل وأحذية مذهبة . وحتى الرجال أنفسهم كانوا يتباهون بحليهم يزينون بها أعناقهم وآذانهم وأذرعهم . وكانوا يستوردون اللؤلؤ ، والياقوت ، والزمرد واللازورد من خارج بلادهم ؛ أما الفيروز فكانوا يستخرجونه من المناجم الفارسية ، وكان هو المادة التي تصنع منها الطبقة الموسرة أختامها . وكانت لهم حلي ذات أشكال رهيبة غريبة تمثل في ظنهم ملامح الشياطين المعروفة لديهم . وكان ملكهم يجلس على عرش من ذهب تغطيه أكنان ذهبية مرفوعة على قوائم من الذهب (١٣٣) .

ولم يكن للفرس طراز فني خاص إلا في العمارة . فقد شادوا في أيام قورش ، ودارا الأول ، وخشيارشاي الأول مقابر وقصورا ، كشف علماء الآثار القليل منها ، وقد يستطيع المعول والجرف — وهما المؤرخان اللذان لا ينقطعان عن البحث والتنقيب — أن يكشفنا في المستقبل القريب ما يعلى من تقديرنا للفن الفارسي (**). ولقد أبقى لنا الإسكندر بفضل ما أثر عنه من كريم الشيم قبر قورش في بازارجادة ، فأصبح طريق القوافل في هذه الأيام يمر بالطوار العاري الذي كان يقوم عليه من قبل قصر قورش وقصر ابنه الخبول . ولم يبق الآن من هذين القصرين غير عمد قليلة محطمة في مواضع متفرقة ، أو كتف باب أو نافذة عليها نقوش تمثل ملامح قورش . وعلى مقربة من هذا الطوار في السهل المجاور له يشاهد القبر وقد

(*) وقد عرضت إحدى هذه المزهريات في المعرض الدولي للفن الفارسي الذي أقيم في لندن عام ١٩٣١ . وكان عليها نقش يثبت أنها من مزهريات أرت خستر الثاني (١٣٢) .

(**) تعمل الآن بعثة من بعثات معهد الشرق التابع لجامعة تشكاجو في التنقيب في أنقاض پرسپوليس بإشراف الدكتور جيمس . ه . برستد . ولقد كشفت هذه البعثة في عام ١٩٣١ عن طائفة من التماثيل لا يقل عددها عن كل ما كان معروفا قبلها من التماثيل الفارسية (كتب هذا قبل وفاة الدكتور برستد المترجم)

عدا عليه الزمان في خلال القرون الأربعة والعشرين ، التي مرت به ؛ فهو الآن ضريح حجري بسيط ، يوناني في شكله وتخرج صانعه ، يرتفع إلى ما يقرب من خمس وثلاثين قدما فوق قاعدة مدرجة . وما من شك في أن هذا الأثر كان أعلى مما هو الآن ، وأنه كانت له قاعدة تتناسب مع ضخامته . أما الآن فإنه يبدو عاريا عطلا من الزينة مهجورا ، توحى صورته بالجمال الذي لا يكاد يبقى منه أثر فيه ؛ وكل ما يبعثه في النفس هو الأسى والحزن ، لأن الجماد أبقى على الزمان من سواه . وإلى أقصى الجنوب عند نقش رستم غير بعيد من پرسپولیس يقوم قبر دار الأول منحوتا في واجهة صخرة في الجبل كأنه ضريح هندوسي ، وقد نقش مدخله ليمثل لمن يراه واجهة قصر لا قبر ، وأقيمت عند هذا المدخل أربعة عمد دقيقة حول باب غير شامخ . ومن فوق هذا الباب شخوص قائمة كأنها فوق سقف تمثل أهل البلاد الخاضعة للفرس تحمل منصة رسم عليها الملك كأنه يعبد أهورا — مزدا والقمر . والفكرة التي أوحى بهذا الرسم وطريقة تنفيذها تسرى فيهما روح البساطة والرقّة الأرستقراطية .

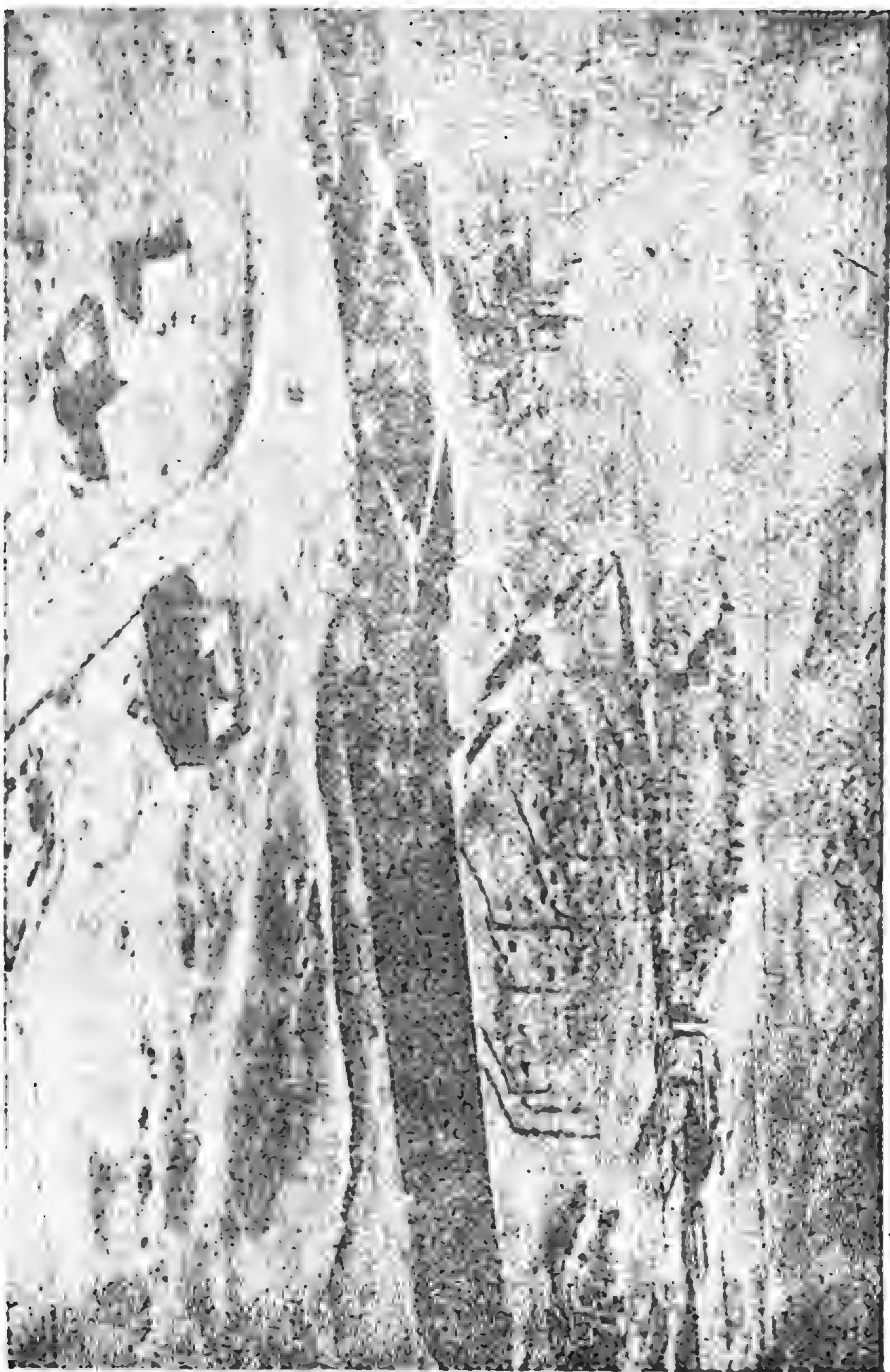
والمباني الفارسية الأخرى التي نجت من الحروب والغارات والسرقات وفعل الجواء مدى ألفين من الأعوام ، هي خرائب القصور . فقد شاد ملوك الفرس الأولون في إكباتانا مسكناتهم من خشب الأرز والسرو المصنح بالمعادن ، كان لا يزال قائما في أيام يوليبيس (حوالي ١٥٠ ق . م) ، أما الآن فلم يبق له أثر . أما أروع الآثار الفارسية القديمة التي تنفجر عنها الأرض القابضة السكتوم يوما بعد يوم فهي الدرج الحجرية والأرصفة والأعمدة التي كشفت في پرسپولیس . ذلك أن دارا ومن جاء بعده من ملوك الفرس قد أقاموا لهم فيها قصورا يحاولون بها أن يرجثوا الوقت الذي تنسى فيه أسماؤهم . ولسنا نجد في تاريخ العماثر كلها ما يشبه الدرج الخارجية العظيمة التي كان القادم من السهل يرقاها إلى الربوة التي شيدت عليها القصور .

وأكبر الظن أن الفرس أخذوا هذا الطراز عن الدرج التي كانت توصل إلى الزجورات ، أى أبراج أرض الجزيرة ، وتلتف حولها ، ولكنها كان لها مع ذلك خصائص لا يشاركها فيها غيرها من المباني . ذلك أنها كانت مهلة المرتقى واسعة يستطيع عشرة من ركاب الخيل أن يصعدوها جنباً إلى جنب (١٣٥) (*) . وما من شك في أن هذه الدرج كانت مدخلا بديعاً إلى الطوار الفسيح الذي يعلو عن الأرض المجاورة له علواً يتراوح بين عشرين وخمسين قدماً ، والذي يبلغ طوله خمسمائة وألف قدم ، وعرضه ألفاً ، والذي شيدت عليه القصور الملكية (**).

وكان عند ملتقى الدرج الصاعدة من الجانبين مدخل أمامي كبير نصبت على جانبيه تماثيل ثيران مجنحة ذات رؤوس بشرية كأشع ما خلفه الفن الأشوري . وكانت في الجهة اليمنى بعد هذا المدخل آية العماثر الفارسية على الإطلاق ، ونعني بها الجبل — منار أو الردهة العظمى التي شادها خشيارشاي الأول ، والتي كانت هي وغرفات الانتظار المتصلة بها تشغل رقعة من الأرض تربي مساحتها على مائة ألف قدم مربعة ، فهي أوسع — إذا كان للسعة قيمة — من معبد الكرنك الفسيح ومن آية كنيسة أوربية عدا كنيسة ميلان (١٣٨) .

وكانت هناك مجموعة أخرى من الدرج تؤدي إلى هذه الردهة الكبرى ، وتحف بها من كلا الجانبين جدر لزيبتها قليلة الارتفاع ، وعلى جوانبها نقوش بارزة قليلاً هي أجمل ما كشف من النقوش الفارسية القليلة البروز إلى هذا اليوم (١٣٩) . ولا يزال ثلاثة عشر عموداً من الاثنين والسبعين التي كانت قائمة في قصر خشيارشاي باقية إلى اليوم بين خرائب القصر ، كأنها جذوع نخل في واحة مقفرة موحشة . وتعد هذه الأعمدة المبتورة من الأعمال البشرية القريبة من الكمال ، وهي أرفع من

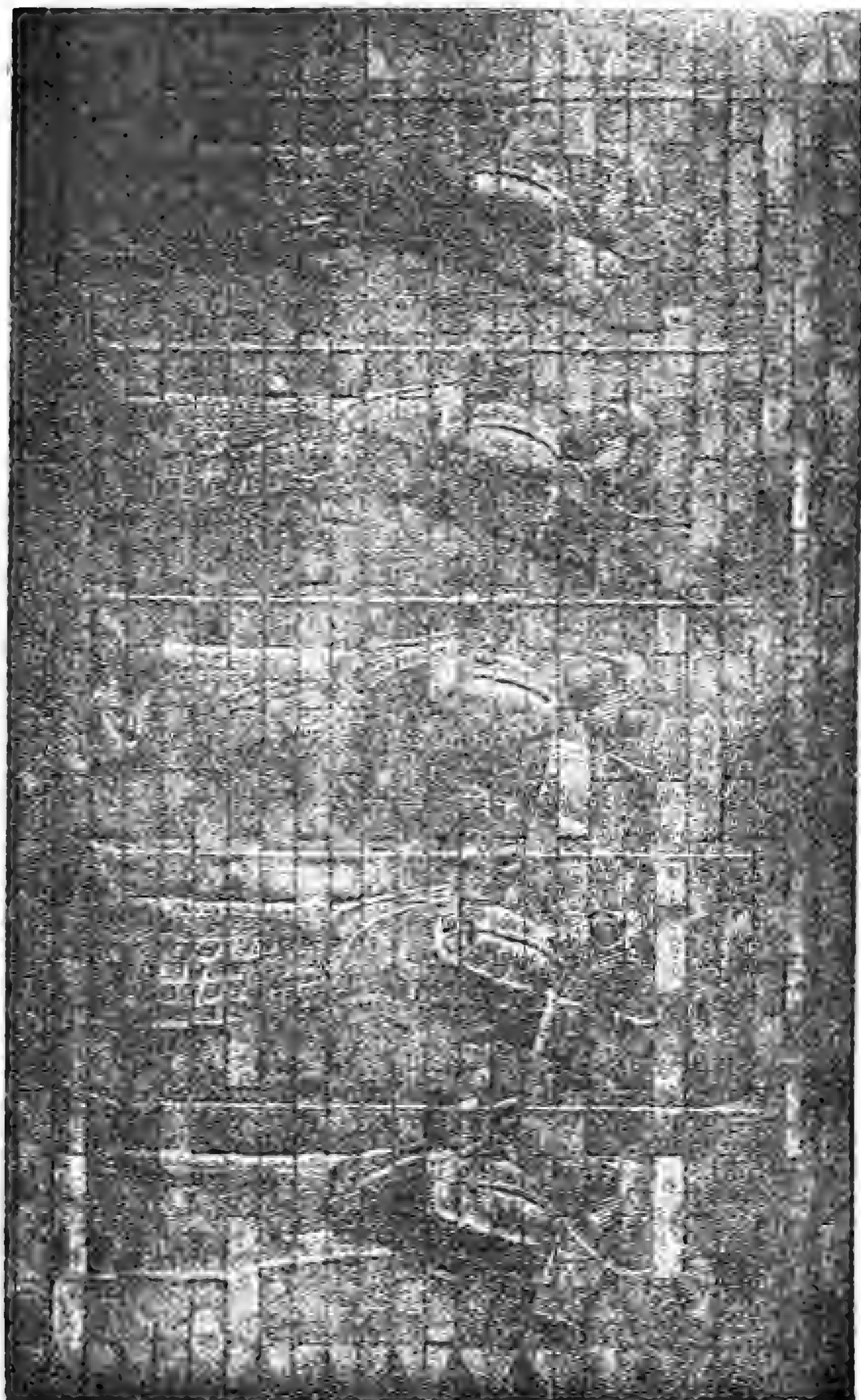
(*) وصفها فرجسون بأنها «أروع مثل للدرج وجدت في أية بقعة من بقاع العالم» (١٣٦)
 (**) وكانت تجري تحت هذا الطوار سلسلة معقدة من القنوات لتصريف الماء يبلغ قطر الواحدة منها ست أقدام ، نحت الكثير منها في الصخر الأصم (١٣٧) .



شکل (۳۷) خراب رسپولیس

مثيالاتها في مصر القديمة أو اليونان ، وتعلو في الجو علواً لاتصل إليه معظم الأعمدة الأخرى ، إذ يبلغ ارتفاعها أربعاً وستين قدماً ، وقد خُطت في جذوعها ستة وأربعون محزاً ، وتشبه قواعدها أجراساً تغطيها أوراق أشجار مقلوبة الوضع ، ومعظم تيجانها في صورة لفائف من الأزهار تكاد تشبه اللفائف « الأيونية » ، يعلوها صدرا ثورين أو حصانين مقرنين يتصل عنقاهما من الخلف وترتكز عليهما عوارض السقف . وأسفنا نشك في أن هذه العوارض كانت من الخشب ، لأن أمثال هذه العمد المتباعدة السريعة العطب لا تقوى على تحمل الدعامات الحجرية الثقيلة . وكانت أكتاف الأبواب وكفافات النوافذ من حجارة سود مزخرفة بتراقية كالأبنوس . أما الجدران فكانت من الآجر يغطيها القرميد المصقول رسمت عليه صور زاهية تمثل حيوانات وأزهاراً . وكانت العمد والفصوص والدرج من حجر الجير الجميل أو الرخام الأزرق الصلد . وقام من خلف الجبل — منار ، أى من شرقها « بهو العمد المائة » . ولم يبق من هذا البهو سوى عمود واحد والحدود الخارجية لتصميمه العام . ولعل هذين القصرين كانا أجمل ما شاهده الإنسان في العالم القديم والحديث على السواء .

وأقام أرت خستر الأول والثاني في مدينة السوس قصرين لم يبق منهما إلا أسامهما . ذلك أنهما شيدا من الآجر المكسو بأجمل ما عرف من القرميد ذى الطلاء الزجاجي . وفي السوس عثر المنقبون على « نقش الرماة » وهم في أكبر الظن « الخلدون » الأمناء حراس الملك . ويبدو للناظر إلى هؤلاء الرماة ذوى الطلعة المهيبة أنهم قد ازينوا لحضور حفلة في القصر وليسوا خارجين لقتال أو حرب . فجلايديهم تخطف الأبصار بألوانها الزاهية ، وشعورهم ولحاهم مجمدة تجميداً عجيباً ، وهم يمسكون بأيديهم في قوة وخيلاء رماحهم رمز مناصبهم الرسمية . ولم يكن التصوير والنحت في السوس وفي غيرها من العواصم فنين مستقلين ، بل كانا تابعين لفن العمارة ، كذلك كانت الكثرة الغالبة من التماثيل من صنع



شکل (٣٨) نقش و الرماة
نقش ملون على القرميد وجد في السوس — محفوظ في متحف اللوفر

فنانين جيء بهم من آشور وبابل وبلاد اليونان^(١٤٠).

وفى وسع الإنسان أن يقول عن الفن الفارسى ما يستطيع أن يقوله عن الفنون كلها تقريباً ، وهو أن عناصره كلها مستعارة من خارج البلاد . فقبر قورش استعير شكله الخارجى من ليديا ، وعمده الحجرية الرفيعة منقولة عن مثيلاتها من العمدة الآشورية مع شئ من التحسين ، وبهوالأعمدة الضخمة والنقوش القليلة البروز تشهد بأنها قد أوحى بها أبهاء مصر ونقوشها ، وتيجان الأعمدة التى على صورة الحيوان عدوى تسربت إليهم من نينوى وبابل . أما الذى جعل فن العمارة الفارسى فنا قائماً بذاته مختلفاً عن غيره من فنون العمارة فهو اجتماع هذه العناصر كلها والمواءمة بينها ، وهو الذوق الأرستقراطى الذى رقق العمدة المصرية المهولة وكتل أرض الجزيرة الثقيلة فأحالتها بريقاً ورشاقة ، وتناسباً وتناغماً ، يطاعنا فى برسيبوليس .

وكان اليونان يستمعون إلى وصف هذه الأبهاء والقصور وهم أشد ما يكونون دهشة منها وإعجاباً بها ، لأن تجارهم المجددين العاملين وساستهم المطلعين كانوا يحذثونهم عن فنون الفرس وترفهم بما يثير عواطفهم ويحفزهم إلى منافستهم . وسرعان ما استبدلوا برؤوس العمدة المزدوجة وبالحيوانات ذوات الأعنق الجمادة المتصلبة القائمة فوق العمدة الرشيقة ، نقول سرعان ما استبدلوا بها الفصوص الملساء التى نراها فى تيجان العمدة الأيونية ؛ ثم قصرها سوقها ، وزادوها قوة لىكى تتحمل أية عارضة ترتكز عليها سواء أكانت من الخشب أم من الحجر . والحق أنه لم يكن بين فنى العمارة فى برسيبوليس وأثينا إلا خطوة واحدة ، فقد كان عالم الشرق الأدنى على بكرة أبيه ، وقد أوشك أن يستغرق فى سمات عميق كأنه الموت إلا أنه موت لا يدوم إلا ألف عام ، كان عالم الشرق يتأهب ليستودع اليونان تراثه القديم .

الفصل التاسع

الانحطاط

- كيف تموت الأمم — خشيارشاي — فقرة عن التقتيل —
- أرت خستر الثاني — قورش الأصغر — دارا الصغير —
- أسباب الانحطاط السياسية والحربية والحلقية —
- الإسكندر — فتح فارس والزحف على الهند

لم تكد الإمبراطورية التي أقامها دارا تعمر إلا قرناً من الزمان . ذلك أن قواها الطبيعية المادية والأدبية قد تصدعت على أثر الهزائم التي منيت بها في مراثون ، وسلاميس ، وبلاطية . وأهل الأباطرة شئون الحرب ، وانغمسوا في الشهوات ، وتردت الأمة في مهاوى الجلود والفساد . ويكاد اضمحلال فارس أن يكون في جملته وتفصيله صورة معجلة من سقوط رومة ؛ فقد اقترن فيه عنف الأباطرة وإهمالهم بفساد أخلاق الشعب وانحلالها ، وحل بالفرس ماحل بالميديين قبلهم ، إذ استحال ما كانوا يتصفون به من تقشف وزهد منذ أجيال قليلة إلى استمتاع طليق ، وأصبح أكبر ما تهتم به الطبقات الأرستقراطية ملء بطونها بلذيد المأكول والمشرب ؛ وشرع هؤلاء الرجال الذين فرضوا على أنفسهم من قبل ألا يتناولوا إلا وجبة واحدة من الطعام في اليوم يفسرون معنى الوجبة الواحدة بأنها وجبة تمتد من الظهر إلى غسق الليل ، فامتلات مخازن مؤنهم بكل ما لذ وطاب ، وكثيراً ما كانوا يقدمون الذبائح كاملة لضيوفهم ، وملاؤا بطونهم باللحوم السمينة النادرة ، وتفننوا في ابتكار أنواع المشهيات والحلوى^(١٤٠) . وغصت بيوت الأثرياء بالخدم الفاسدين المفسدين ، وأصبح السكر رذيلة شائعة بين كل الطبقات^(١٤٠ب) . وملاك القول أن قورش ودارا قد خلقا بلاد الفرس وأن خشيارشاي ورثها عنهما ثم جاء من خلفهم من الملوك فدمروها تدميراً .

وكان خشيارشاي الأول ملكا اجتمعت فيه كل صفات الملوك — الجسمية — ؛ كان طويل القامة ، قوى الجسم ، يقر له الملوك بأنه أجمل إنسان في الإمبراطورية كلها^(١٤١) . ولكن الرجل الوسيم غير المغتر لم يخلق بعد في هذا العالم ، كما لم يخلق فيه بعد الرجل المغتر بقوته الذي لم تقده امرأة من أنفه . لقد كان خشيارشاي نهبا لسراريه ، وما كان أكثرهن ، وضرب أسوأ الأمثال لشعبه في الفسق والفجور . ولقد كانت هزيمته في سلاميس هزيمة طبيعية متوقعة ؛ ذلك أن كل ما كان له من أسباب العظمة هو حب التعاضم لا قدرته على مغالبة الخطوب ، والتحلل بصفات الملوك الحققة إذا دعا الداعي وتأزمت الأمور . وبعد أن قضى هذا الملك عشرين عاماً في غمرة الدسائس الشهوانية ، والتراخي والإهمال في شئون الحكم ، اغتاله أرتبان^(*) أحد رجال حاشيته ، وورى في قبره باحتفال ملكي مهيب واغتيباً شامل .

وليس في التاريخ كله ما يماثل المجازر المروعة والدم المراق اللذين تطالعنا بهما سجلات الفرس الملكية لإسجلات رومة بعد تبير يوس . لقد اغتال أرت خستر الأول مقتال خشيارشاي ، وبعد أن حكم أرت خستر حكماً طويلاً خلفه خشيارشاي الثاني ، ثم اغتاله بعد بضعة أسابيع من حكمه أخ له غير شقيق يدعى سجد يانوس ، ثم قتله دارا الثاني بعد ستة أشهر كما أمر بقتل تريئتشميس فأخذ بقتله فتنة أثار عجاجها في البلاد ، ثم أمر بتقطيع زوجته إربا ودفن أمه وإخوته وأخواته أحياء . وخلف دارا الثاني على العرش ابنه أرت خستر الثاني ، واضطر هذا الملك أن يقاتل في واقعة كونكسا أخاه قورش الأصغر قتلاً مريعاً ، لأن هذا الشاب حاول أن يغتصب الملك . وحكم أرت خستر حكماً طويلاً ، وقتل ابنه دارا لأنه ائتمر به ، ثم مات بائساً حزيناً إذ وجد أن ابناً آخر له يدعى أوكوس ياتمر به ليقته . وحكم أوكوس عشرين سنة ثم مات مسموماً على يد

(*) يكتب أحياناً أردوان ويسميه اليونان أرتبانوس .

قائده بجواس ، وأجلس هذا القائد السفاح « صانع الملوك » ابناً لأ كوس يسمى أرسيس على العرش ، واغتال أخاً لأرسيس ليثبت بذلك مركز صنيعته ، ثم اغتال أرسيس وأبناءه الصفار ، ورفع على العرش كودومانوس ، وهو صديق له مخنث مطواع . وحكم كودومانوس ثمانى سنين ، وتسمى باسم دارا الثالث ثم مات وهو يحارب الإسكندر فى واقعة إربل حين كانت بلاده تلفظ آخر أنفاسها . ولسنا نعرف فى دولة من الدول حتى الدول الديمقراطية فى هذه الأيام قائداً أقل كفاية وجدارة بقيادة الجيوش من هذا القائد .

إن الإمبراطوريات بطبيعة تكوينها سريعة الانحلال ، وإن الذين يرثونها تعوزهم جهود الذين ينشئونهم ، وذلك فى الوقت الذى تهب فيه الشعوب الخاضعة لسلطانها وتستجمع قواها لتناضل فى سبيل ما فقدته من حريتها . كذلك ليس من طبيعة الأشياء أن تبقى الأمم التى تختلف لغاتها وأديانها وأخلاقها وتقاليدها متحدة متماسكة زمناً طويلاً . ذلك أن هذه الوحدة لا تقوم على أساس متماسك يحفظها من التصدع ، ولا بد من الالتجاء إلى القوة مرة بعد مرة للاحتفاظ بهذه الرابطة المصطنعة . ولم يعمل الفرس فى عهد إمبراطوريتهم الذى دام مائتى عام شيئاً يخفف ما بين الشعوب الخاضعة لحكمهم من تباين ، أو يضعف من أثر القوى الطاردة التى تعمل على تفكك دولتهم ، بل قنعت هذه الإمبراطورية بأن تحكم خليطاً من الأمم ، ولم تفكر فى يوم من الأيام فى أن تنشئ منها دولة حقيقية . لذلك أخذ الاحتفاظ بوحدة الإمبراطورية يزداد صعوبة عاماً بعد عام ، وكلما تراخى عزم الأباطرة قويت أطماع الولاة وزادوا جرأة ، وأخذوا يرهبون أو يبتاعون بالمال قواد الجيش وأمناء الإمبراطور الذين أرسلوا إلى الولايات ليشاركوا مع الولاة فى الحكم ويحدوا من سلطانهم . ثم أخذ الولاة يقودون جيوشهم ويزيدون مواردهم كما يحلو لهم ، ويأتمرون بالملك المرة بعد المرة . وأوهنت الثورات والحروب المتكررة حيوية فارس الصغيرة ، ذلك أن الحروب قد قضت على زهرة شبابها القوى حتى لم يبق من

أبنائها إلا كل حذر محتاط . فلما أن جند هؤلاء لمواجهة الإسكندر تبين أنهم لا يكاد يوجد فيهم إلا كل منخوب القلب جبان . ولم يكن شيء من التحسين قد أدخل على تدريب الجنود أو على عتادهم الحربى ، ولم يكن قوادهم على علم بما يستجد من فنون القتال . فلما دارت رحى الحرب ارتكب هؤلاء القواد أشنع الأغلاط ، وكانت عساكرهم المختلة النظام ، والتي كان معظمها مسلحاً بالسهم ، أهدافاً صالحة لرمح المقدونيين الطويلة وفيالقمهم المتراصة^(١٤٢) . لقد كان الإسكندر يلهو ويعبث ، ولكنه لم يكن يفعل ذلك إلا بعد أن يتم له النصر ، أما قواد الفرس فقد جاءوا معهم بسراريهم ، ولم يكن منهم من هو راغب فى القتال ، ولم يكن فى الجيش الفارسى جنود جديرون بهذا الاسم إلا مرتزقة اليونان .

ولقد تبين منذ اليوم الذى فر فيه خشيارشائى بعد هزيمته فى سلاميس أن اليونان سيتحدون الدولة الفارسية فى يوم من الأيام . ذلك أن فارس كانت تسيطر على أحد طرفى الطريق التجارى العظيم الذى يربط غرب آسية بالبحر الأبيض المتوسط ، وأن بلاد اليونان تسيطر على طرفه الثانى ، وكان ما ركب فى طباع الناس من أقدم الأزمنة من طمع وحرص على الكسب مما يجعل هذه الحال مثاراً للحرب بين الأمتين ، ولم يكن اليونان ينتظرون لبدء الهجوم إلا أن يقوم بينهم سيد منهم يضم شقاتهم و يؤلف بين قلوبهم .

واجتاز الإسكندر مضيق الدردنيل دون أن يلقى مقاومة ، ومعه قوة من رجاله ، خالها الأسيويون ضئيلة ، إذ كانت مؤلفة من ثلاثين ألفاً من المشاة وخمسة آلاف من الفرسان^(*) . وحاول جيش فارسى مؤلف من أربعين ألف مقاتل أن يصد جيش الإسكندر عند نهر غرانيقوس ، فخسر الفرس فى الواقعة عشرين ألف مقاتل ، ولم يخسر الجيش اليونانى إلا ١١٥ رجلاً^(١٤٤) . واتجه

(*) ويقول يوسيفوس « إن كل من كان فى آسية كان مقتنعاً بأن اليونان لن يجرؤوا على الاشتباك فى حرب مع الفرس لكثرتهم » (١٤٣) .

الإسكندر جنوباً وشرقاً، يخضع بعض المدائن، ويستسلم له البعض الآخر؛ ودام على ذلك عاماً كاملاً. وجمع دارا الثالث في هذه الأثناء خليطاً من ٦٠٠.٠٠٠ رجل بين جندي ومغامر. وتطلب عبورهم نهر الفرات على جسر من القوارب خمسة أيام، كما تطلب حمل أموال الملك ستمائة بغل وثلثمائة جمل^(١٤٥). ولما تقابل الجيشان عند إسوس، لم يكن مع الإسكندر إلا ثلاثون ألفاً من رجاله، ولكن دارا كان يتصف بكل ما تتطلبه تصارييف الأقدار من غباء، فاقتار للقتال ميداناً لا يتسع إلا لجزء صغير من جيشه أن يقاتل اليونان على حين يبقى سائره معطلاً. فلما انتهت المجزرة وجد أن اليونان قد خسروا نحو ٤٥٠ رجلاً، وخسر الفرس ١١٠.٠٠٠ رجل، قتل معظمهم وهم يفرون مذعورين. وطارد الإسكندر الجيوش المهزومة مطاردة طائشة عبر في أنشائها مجرى مائياً على جسر من جثث الفرس^(١٤٦). وفر دارا من الميدان فرار الأنذال، وترك فيه أمه وزوجة من أزواجه وابنتين وعربة وخيمة مترفة. وعامل الإسكندر السيدات الفارسيات بشهامة أدهشت المؤرخين اليونان، واكتفى بأن تزوج إحدى ابنتي دارا. وإذا جاز لنا أن نصدق ما قاله كونتس كورتيس، فإن أم دارا أحبت الإسكندر حباً لم تر معه بدءاً من أن تقضى على حياتها بالامتناع عن الطعام حين علمت بوفاة^(١٤٧).

وواصل الشاب الفاتح بعدئذ سيره في بطاء، يخيل إلى الإنسان أنه بطاء المستهتر، يريد أن يبسط سلطانه على غرب آسية بأجمعه. غير أن بطاء هذا لم يكن إلا ناشئاً من رغبته في ألا يتقدم قبل أن ينظم فتوحه، ويؤمن مواصلاته. وخرج سكان مدينة بابل على بكرة أبيهم، كما خرج أهل بيت المقدس من قبل، للترحيب به، وقدموا له مدينتهم وما فيها من ذهب؛ فقبل منهم ما عرضوه في لطف وبشاشة، وسرهم بأن أمر بإصلاح هياكلهم التي هدمها خشيارشاي من قبل دون تدبير وروية. وأرسل إليه دارا يعرض عليه الصلح، وكان مما عرضه أن يقدم للإسكندر

عشرة آلاف تالنت من الذهب^(*) ، إذا رد إليه أمه وزوجته وابنتيه ، وأن يزوجه ابنته ، وأن يعترف له بالسيادة على جميع بلاد آسية الواقعة في غرب الفرات ، وأنه لا يطلب إليه في نظير هذا كله إلا أن يأمر الإسكندر بوقف القتال وأن يتخذ صديقا له . وقال پارمنيو القائد الثاني لجيوش اليونان إنه لو كان الإسكندر لقبيل هذه العروض الطيبة مسرورا فينجو بشرفه من شر هزيمة قد تكون ساحقة . فما كان جواب الإسكندر إلا أن قال إنه لو كان هو پارمنيو لقبيل هذه العروض ، أما وهو الإسكندر فقد رد على دارا بأن عروضه لا معنى لها ، لأنه (أى الإسكندر) يمتلك بالفعل ما يعرضه عليه من بلاد آسية ، ولأنه في وسعه أن يتزوج ابنة الإمبراطور متى شاء . ووجد دارا أن لا أمل له في عقد الصلح مع هذا المنطيق المستهتر ، فوجه همه على كره منه لجمع جيش آخر أكبر من جيشه الأول .

وكان الإسكندر في أثناء ذلك قد استولى على صور ، وضم مصر إلى أملاكه ، ثم اخترق إمبراطوريته العظيمة متجها نحو حواضرها النائية . وبعد مسيرة عشرين يوما بعد بابل وصل جيشه إلى مدينة السوس ، واستولى عليها دون أن يلقي مقاومة ، ثم تقدم إلى پرسپوليس بسرعة لم تمكن حراس الخزائن الملكية من إخفاء ما فيها من أموال . وفيها أتى الإسكندر عملا يعد وصمة عار في حياته الحافلة بجلال الأعمال ، أتاه رغم نصيحة پارمنيو ليكسب بذلك — كما يقول مؤرخوه — رضا تيبس إحدى سراريه^(**) . ذلك أنه أحرق قصور پرسپوليس عن آخرها ، وأباح لجنوده نهب المدينة . فلما أن رفع روح جنوده المعنوية بما

(*) تفدر قيمتها على الأرجح بنحو ٦٠,٠٠٠,٠٠٠ ريال أمريكي من نقود هذه الأيام

(**) يتفق بلورتاخ ، وكونتس كورتيس وديودور فيا يروونه عن هذه القصة ، وهي لا تتعارض مع ما عرف عن الإسكندر من تهور واندفاع ، ولكن من واجبا مع ذلك أن نقابل هذه الرواية بشيء من الشك .

أباح لهم من السلب ، وبما أغدقه عليهم من العطايا ، اتجه نحو الشمال ليلقى دارا
لآخر مرة .

وكان دارا قد جمع من الولايات الفارسية — وخاصة من ولاياته الشرقية —
جيشاً جديداً عدته ألف ألف مقاتل^(١٤٨) — يتألف من فرس ، وميديين ،
وبابليين ، وسوريين ، وأرمن ، وكبادوشيين ، وبلخيين ، وصغد ، وأرخزيان ،
وساكي ، وهنود . ولم يسلمهم بالقسي والسهم ، بل جهزهم بالحرب ، والرمح ،
والدروع ، وأركبهم الخيل والفيلة والعربات ذات الدواليب التي ركبت فيها
المناجل لكي يحصد بها أعداءه حصد الحنطة في الحقول .

حشدت آسية المعجوز هذه القوة الهائلة لتحاول بها مرة أخرى أن تدفع عن
نفسها أوربا الناهضة الفتية . والتقى الإسكندر ومعه سبعة آلاف من الفرسان ،
وأربعون ألفاً من المشاة بهذا الخليط المختل النظام غير المتجانس ، ودارت رحى القتال
عند كواكميلا^(*) . واستطاع بتفوق أسلحته وحسن قيادته وشجاعته أن يبدد شمله
في يوم واحد — واختار دارا مرة أخرى أن يفر من الميدان ، ولكن قواده
سأهم هذا الفرار المزرى للمرة الثانية ، فقتلوه غيلة في خيمته . وأعدم الاسكندر من
استطاع أن يقبض عليهم من قاتليه ، وأرسل جثة دارا مكربة إلى پرسبوليس
في موكب حافل ، وأمر أن تدفن كما تدفن أجسام الملوك الأكمنيين وسرعان
ما انضوى الشعب الفارسي تحت راية الإسكندر إعجاباً منه بكرم أخلاقه ونضرة
شبابه . ونظم شئون فارس وجعلها ولاية من ولايات الدولة المقدونية ، وترك
فيها حامية قوية لحراستها ، ثم واصل زحفه إلى الهند .

(*) وهي مدينة تبعد ستين ميلاً عن إربل ، وقد سميت هذه الواقعة باسمها .

المراجع[†]

الباب السابع

1. Cambridge Ancient History, i, 86, 361; Childe, *The Most Ancient East*, 126; Keith in *N.Y. Times*, April 3, 1932.
2. Breasted, J. H., *Oriental Institute*, 8.
3. Childe, 128, 146.
4. De Morgan, 208; CAH, i, 362, 578.
5. Moret, 199; CAH, i, 361, 579.
6. Woolley, C. L., *The Sumerians*, 189.
7. Jastrow, Morris, *The Civilization of Babylonia and Assyria*, 101.
8. CAH, i, 127.
9. Pijoan, i, 104; Ball, C. J., in Parmelee, M., *Oriental and Occidental Culture*, 18.
10. Childe, 160, 173; Maspero, G., *Dawn of Civilization*, 718-20; CAH, i, 364; Woolley, 13.
11. CAH, i, 456.
12. Berosus in CAH, i, 150.
13. Maspero, *Struggle of the Nations*, iv.
14. Woolley, 69; CAH, i, 387.
15. Ibid., 388.
16. Woolley, 73; CAH, i, 403.
17. Harper, R. F., ed., *Assyrian and Babylonian Literature*, 1.
18. CAH, i, 405.
19. Woolley, 140; Maspero, *Dawn*, 637; CAH, i, 427.
20. Ibid., i, 435.
21. Ibid., i, 472.
23. Jastrow, 7; Maspero, *Dawn*, 554; Childe, *Ancient East*, 124; CAH, i, 463.
24. Woolley, 112-4.
25. Childe, 170.
26. Woolley, 13.
27. Delaporte, L., *Mesopotamia*, 112.
28. Woolley, 13; Delaporte, 172; CAH, i, 507; *N.Y. Times*, Aug. 2, 1932.
29. Childe, 147.
30. Ibid., 169; *Encyc. Brit.*, ii, 845; Delaporte, 106.
31. Ibid.; Woolley, 117-8; CAH, i, 427.
32. Woolley, 92; Delaporte, 101.
33. Woolley, 126; CAH, i, 461.
34. Maspero, *Dawn*, 709f.
35. Ibid., 606-7, 722; Woolley, 79; CAH, i, 540.
36. Maspero, *Dawn*, 721-3.
37. CAH, i, 461.
38. Woolley, 93.
39. Maspero, 655.
40. CAH, i, 443-4, 448.
41. Jastrow, 277.
42. Woolley, 126.
43. Jastrow, 130.
44. Woolley, 13.
45. Ibid., 120.
46. CAH, i, 400.
47. Langdon, S., *Babylonian Wisdom*, 18-21.
48. Woolley, 108-9.
49. Ibid., 13.
50. Jastrow, 466.

(†) سنثبت اسم الكتاب كاملاً عند أول وروده في هذا التبت ثم نكتفي بعد ذلك بذكره مختصراً.

51. Woolley, 106.
52. CAH, i, 370-1 ; Woolley, 40, 43, 54.
53. Ibid., 92, 101.
54. CAH, i, 376.
55. Maspero, *Dawn*, 723-8 ; CAH, i, 371-2.
56. Maspero, *Struggle*, iv.
57. CAH, i, 550 ; iii, 226.
58. Woolley, 37.
59. Delaporte, 172.
60. Woolley, 37, 191.
61. Maspero, *Dawn*, 709-18.
62. Jastrow, 106 ; Woolley, 40, 144 ; Maspero, 630.
63. Ibid., 601.
64. Schäfer, H., and Andrae, W., *Die Kunst des Alten Orients*, 469 ; Woolley, 66.
65. CAH, i, 400.
66. Woolley, 46 ; N. Y. *Times*, April 13, 1934.
67. Schäfer, 482.
68. Ibid., 485.
69. Woolley, 188 ; CAH, i, 463.
70. Moret, 164 ; Childe, *Ancient East*, 216.
71. Hall, H. R., in *Encyc. Brit.*, viii, 45.
72. Maspero, *Dawn*, 46 ; CAH, i, 255.
73. Ibid., 372.
74. Ibid., 255, 263, 581 ; De Morgan, 102 ; Hall, H. R., l.c.
75. Ibid., CAH, i, 579.
76. CAH, i, 263, 581.
77. CAH, i, 252, 581 ; Hall, l.c., 44-5.
78. De Morgan, 102.
79. Hall, l.c. ; CAH, i, 581.
80. Such objects are pictured for comparison in De Morgan, 102.
81. Woolley, 187 ; Hall, l.c., 45.
82. Smith, G. Elliot, *The Ancient Egyptians and the Origin of Civilization*, xii.

الباب التاسع

1. Strabo, *Geography*, I, iii, 4.
2. Maspero, *Dawn*, 24.
3. Erman, A., *Life in Ancient Egypt*, 13 ; CAH, i, 317.
4. Erman, 29.
5. Diodorus Siculus, I, lxiv, 3. The face value of the talent in the time of Diodorus was \$ 1,000 in gold, worth in purchasing power some \$ 10,000 today.
6. *Encyc. Brit.*, viii, 42.
7. In Capart, J., *Thebes*, 40.
8. The Harris Papyrus in Capart, 237.
9. Capart, 27 ; Breasted, J. H., *Ancient Records of Egypt*, ii, 131.
10. CAH, i, 116 ; ii, 100.
11. Breasted, *Ancient Times*, 97, 455 ; CAH, i, 117.
12. Ibid., 116.
13. De Morgan, 25 ; CAH, i, 33-6 ; Keith in N. Y. *Times*, Oct. 12, 1930 ; Moret, 117f.
14. Breasted in CAH, i, 86.
15. *Encyc. Brit.*, viii, 42 ; Moret, 119 ; De Morgan, 92.
16. Moret, 119 ; CAH, i, 270-1.
17. Smith, G. Elliot, *Human History*, 264 ; Childe, *Ancient East*, 38.
18. Pittard, 419 ; CAH, i, 270-1 ; Smith, G. Elliot, *Ancient Egyptians*, 50.
19. CAH, i, 372, 255, 263 ; De Morgan, 102.
20. Maspero, *Dawn*, 45 ; CAH, i, 244-5, 254-6 ; Pittard, 413 ; Moret, 158 ; Smith, *Ancient Egyptians*, 24.
21. Maspero, *Passing of the Empires*, viii ; De Morgan, 101.
22. Diodorus, I, xciv, 2. Diodorus adds, by way of comparison : "Among the Jews Moyses referred his laws to the god who is invoked as Iao."

23. Ibid., I, xlv, 1.
24. *Encyc Brit.*, viii, 45.
25. Schäfer, 209.
26. Ibid., 247.
27. Ibid., 211.
28. Ibid., 228-9.
29. Herodotus, II, 124.
30. Capart, J., *Lectures on Egyptian Art*, 98.
31. CAH, i, 335.
32. Maspero, *Art in Egypt*, 15.
33. Schäfer, 248.
34. Herodotus, II, 86.
35. In Cottrell, *History of Art*, i, 10.
36. Breasted, J. H., *Development of Religion and Thought in Ancient Egypt*, 203.
37. CAH, i, 308.
38. Beasted, J. H., *History of Egypt*, 266-7.
39. Breasted, *Ancient Records*, ii, 78-121; Maspero, *The Struggle of the nations*, 236-7.
40. Ibid., 237-9; Breasted, *History*, 273; White, E. M., 49.
41. CAH, ii, 65.
42. Ibid., ch. iv.
43. Ibid., 79.
- 43a. Breasted, *History*, 320.
44. Weigall, A., *Life and Times of Akhnaton*, 8.
45. Erman, 20.
46. So a stele of Amenhotep III expresses it in Capart, *Thebes*, 182.
47. Ibid., 182, 197.
48. Diodorus, I, xxxi, 8.
49. Herodotus, II, 14.
50. Eman, 199.
51. Herodotus, II, 95.
52. Maspero, *Dawn*, 330.
53. Genesis, xlvii, 26.
54. Erman, 441.
55. Erman, A., *Literature of the Ancient Egyptians*, 187.
56. Maspero, *Dawn*, 65; Lippert, 197.
57. Maspero, *Dawn*, 331-2.
58. Moret, 357.
59. Rickard, T. A., i, 192-203; De Morgan, 114.
60. Diodorus, III, xii, tr. by Rickard, i, 209-10.
61. Erman, *Life* 451-5.
62. Breasted, *Ancient Times*, 64; Maspero, *Struggle*, 739.
63. Müller-Lyer, *Social Development*, 105.
64. Diodorus, I, lxxiv, 6.
65. Ibid.
66. Hobhouse, *Morals in Evolution*, 283.
67. Erman, *Life*, 124-5.
68. Maspero, *Struggle*, 441.
69. Diodorus, I, lii; Rickard, i, 183.
70. N. Y. *Times*, April 16, 1933.
71. Herodotus, II, 124; Wilkinson in Rawlinson's *Herodotus*, ii, 200n.
72. Capart, *Thebes*, 32.
73. Erman, *Life* 488-93; Borchardt and Rieke, *Egypt*. p. v.
74. CAH, ii, 423.
75. Erman, *Life*, 494.
76. Maspero, *Struggle*, 109.
77. Ibid., 285, 289, 407, 582; CAH, ii, 79.
78. Maspero, *Dawn*, 330; Schneider, H., i, 86.
79. CAH, ii, 212.
80. Diodorus, I, lxxvii, 2.
81. Diodorus, I, lxxv, 3.
82. Sumner, *Folkways*, 236.
83. Diodorus, I, lxxviii, 3.
84. Hobhouse, 108; Maspero, *Dawn*, 337, 479-80; Erman, *Life*, 141.
85. Maspero, *Dawn*, 337.
86. Capart, *Thebes*, 161.
87. Breasted, J. H., *Dawn of Conscience*, 208-10.
88. Erman, *Life*, 67; Diodorus, I, lxx.
89. Erman, *Life*, 121.
90. Moret, 124.
91. Erman, *Literature*, 27.
92. Maspero, *Dawn*, 278.
93. Breasted, *History*, 75.
94. Erman, *Life*, 153, Sumner, *Folkways*, 485.

95. Maspero, *Dawn*, 51.
96. Erman, *Life*, 76.
97. In Briffault, i, 384.
98. In White, E. M., 46.
99. Petrie, Sir W. F., *Egypt and Israel*, 23.
100. Hobhouse, 187.
101. Ibid., 185.
102. Ibid., 186; Erman, *Life*, 185.
103. Petrie, 23.
104. Frazer, *Adonis*, 397.
105. Briffault, i, 384.
106. Diodorus, I, lxxvii, 7; lxxv, 3.
107. Maspero, *Struggle*, 272.
108. Briffault, ii, 174.
109. Ibid., 383.
110. Maspero, *Struggle*, 503; Erman, *Life*, 155.
111. Ibid.; Sanger, W. W., *History of Prostitution*, 40-1; Georg, 172.
112. Erman, *Life*, 247f.
113. Sumner, *Folkways*, 541; Maspero, *Struggle*, 536.
114. Erman, *Life*, 337.
115. In Breasted, *Dawn of Conscience*, 324; cf. Proverbs, xv, 16-7. For further correspondence between the Egyptian and the Jewish authors cf. Breasted, 372-7.
116. Hobhouse, 247; Maspero, *Dawn*, 269; *Struggle*, 228.
117. Strabo, XVII, t, 53.
118. Erman, *Literature*, xxix; 47.
119. Maspero *Dawn*, 195; *Encyc. Brit.*, vii, 329.
120. Spearing, 230.
121. Maspero, *Dawn*, 47-8, 271.
122. CAH, ii, 422.
123. Breasted, *History*, 27; Erman, *Life*, 229f; Downing, Dr. J. G., *Cosmetics, Past and Present*, 2088f.
124. CAH, ii, 421.
125. Maspero, *Struggle*, 504; Erman, *Life*, 212.
126. Schäfer, 235.
127. Sumner, *Folkways*, 191; Maspero, *Struggle*, 494; CAH, ii, 421.
128. Maspero, *Dawn*, 57, 491f.
129. CAH, ii, 421.
130. Diodorus, I, lxxxi; Mencken, H. L., *Treatise on the Gods*, 117.
131. Spencer, *Sociology*, iii, 278.
132. Erman, *Life*, 328, 384.
133. Ibid., 256; Erman, *Literature*, xliii.
134. Ibid., 185.
135. Erman, *Life*, 256, 328.
136. Schneider, H., i, 94.
137. Erman, *Life*, 447; Breasted, *History*, 97.
138. Erman, *Literature*, xxxvii, xlii.
139. Maspero, *Dawn*, 46.
140. Erman, *Literature*, xxxvi-vii; Erman, *Life*, 333f Breasted *Ancient Times*, 42; Maspero, *Dawn*, 221-3; De Morgan, 256.
141. Father Batin, address at Oriental Institute, Chicago, March 29, 1932; CAH, i, 189; Sprengling, M., *The Elphabet*, *passim*.
- 141a. N. Y. Times, Oct. 18, 1934.
142. Maspero, *Dawn*, 398.
143. CAH, i, 121; Erman, *Literature*, 1; Breasted, *Development*, 178.
144. Breasted, J. H., *Oriental Institute*, 149f.
145. Erman, *Life*, 370.
146. Erman, *Literature*, 30-1.
147. Ibid., 22-8.
148. Maspero, *Dawn*, 438.
149. Maspero, *Struggle*, 499.
150. Maspero, *Dawn*, 497.
151. Breasted, *Dawn of Conscience*, 71.
152. Erman, *Literature*, 35-6.
153. CAH, ii, 225.
154. Exs. in Erman, *Literature*, xxx-xxxiv.
155. Erman, *Life*, 389.
156. Schneider, H., i, 81.
157. Breasted, *Ancient Records*, i, 51.
158. Schneider, H., i, 91-2.
159. Erman, *Literature*, 109.
160. Erman, *Literature*, xxv-vii; Maspero, *Struggle*, 494f.
161. Maspero, *Dawn*, 204.
162. Hall, M. P., *An Encyclopedic Outline of Masonic, Hermetic,*

- Qabbalistic and Rosicrucian Symbolic Philosophy*, 37.
163. Sedgwick, W. T.; and Tyler, H. W., *A Short History of Science*, 312.
164. Maspero, *Dawn*, 328.
165. Sedgwick and Tyler, 29.
166. Schneider, H., i, 85-6.
167. CAH, ii, 216; *Encyc. Brit*, viii, 57.
168. Sedgwick and Tyler, 30.
169. Ibid., 89; Breasted, J. H., *Conquest of Civilization*, 88.
170. Williams, H. S., *History of Science*, i, 41.
171. Ibid., i, 34.
172. Spencer, *Sociology*, iii, 251.
173. Tabouis, G.R., *Nebuchadnezzar*, 318; Breasted, *Ancient Times*, 91.
174. Strabo, XVII, i, 46; Diodorus, I, 1, 2.
175. Herodotus, II, 4; CAH, i, 248; Breasted, *History*, 14, 33; *Ancient Times*, 45; Erman, *Life*, 10; Childe, *Ancient East*, 5; Williams, H. S., i, 38f; Maspero, *Dawn*, 16-7, 205-9; Moret, 134; Schneider, H., i, 85; Sedgwick and Tyler, 33; Frazer, *Adonis*, 280, 286-9; *Encyc. Brit.*, iv, 576; v, 654.
176. Ebers Papyrus, 99, 1f, in Erman, *Life*, 357-8.
177. Ibid., 353.
178. Garrison, 57.
179. Herodotus, II, 84; III, 1.
180. Erman, *Life* 362.
181. Garrison, 55-9; Maspero, *Dawn*, 217; Breasted, *Conquest of Civilization*, 88.
182. Smith, G. Elliot, *The Ancient Egyptians*, 57.
- 182a. Himes, Norman, *Medical History of Contraception*, Chap. II, § 1. The suppositories contained chemicals identical with those now used in contraceptive jellies. The matter, however, is not beyond doubt.
183. Erman, *Life*, 360; Maspero, *Dawn*, 219-20; Harding, T. Swann. *Fads*, 328.
184. Garrison, 53.
185. Smith, G. E., *Ancient Egyptians*, 62; Diodorus, I, xxviii, 3.
186. Breasted, *Dawn of Conscience*, 353n.
187. Diodorus, I, lxxxii, 1-2.
188. Pliny, *Historia Naturalis*, VIII, in Tyrrell, Dr. C. A., *Royal Road to Health*, 57.
189. Herodotus, II, 77.
190. Erman, *Life*, 167-96; Capart, *Thebes*, figs. 4 and 107-9.
191. Maspero, *Art*, 132.
192. Pijoan, i, 101; Fergusson, Jas., *History of Architecture in All Countries*, i, 22; Breasted, *History*, 100.
193. E.g., Maspero, *Struggle*, xi.
194. At Beni-Hasan, Lisht, etc.
195. At Medinet-Habu.
196. Maspero, *Art*, 84.
197. Schäfer, *Tafel VI*; Breasted, *Dawn*, 218.
198. Fry, R. E., *Chinese Art*, 13.
199. Schäfer, 358; Capart, *Lectures*, fig. 176.
200. Maspero, *Art*, 174.
201. Schäfer, 343; CAH, ii, 103.
202. Baikte, Jas., *Amarna Age*, 241, 256. All three are in the State Museum at Berlin.
203. Cairo Museum; Maspero, *Art*, fig. 461; Schäfer, 433.
204. Athens Museum; Maspero, *Struggle*, 535.
205. Schäfer, 445.
206. Louvre; Schäfer, 190.
207. Cairo Museum; Schäfer, 246-7.
208. Cairo Museum; Schäfer, 254.
209. Capart, *Thebes*, 173f.
210. Cairo Museum; Breasted, *History*, fig. 55; Maspero, *Art*, fig. 92.
211. Ibid., fig. 194.
212. Schäfer, *Tafel IX*.
213. E.g., Schäfer, 305, 418.
214. Maspero, *Art*, fig. 287.

215. Schäfer, 367.
216. Ibid., *Tafel* XXI.
217. Maspero, *Art*, 67.
218. Erman, *Life*, 448; CAH, ii, 422.
219. CAH, ii, 105; Erman, 250-1.
220. Breasted, *Ancient Records*, ii, 147.
221. Spencer, *Sociology*, iii, 299.
222. Cf. Plato, *Timæus*, 22B.
223. Maspero, *Dawn*, 399.
224. Brown, B., *Wisdom of the Egyptians*, 96-116; Breasted, *Dawn*, 136f.
225. Ibid., 198.
226. Breasted, *Development*, 215.
227. Ibid., 188; *Dawn of Conscience*, 168.
228. Breasted, *Development*, 182.
229. Maspero, *Dawn*, 639.
230. Ibid., 86.
231. Ibid., 95, 92.
232. Ibid., 156-8.
233. Ibid., 120-1.
234. Renard, 121.
235. Capart, *Thebes*, 66; Maspero, *Dawn*, 119; *Struggle*, 536.
236. Maspero, *Dawn*, 102-3.
237. Briffault, iii, 187.
238. Hommel in Maspero, *Dawn*, 45.
239. Howard, Clifford, *Sex Worship*, 98.
240. Diodorus, I, lxxxviii, 1-3; Howard, C., 79; Tod, Lt.-Col. Jas., *Annals and Antiquities of Rajasthan*, 270; Briffault, iii, 205.
241. Carpenter, *Pagan and Christian Creeds*, 183.
242. Maspero, *Dawn*, 110-1.
243. Breasted, *Development*, 24-33; Frazer, *Adonis*, 269-75; 383.
244. Diodorus, I, xiv, 1.
245. Frazer, *Adonis*, 346-50; Maspero, *Dawn*, 131-2; Macrobius, *Saturnalia*, I, 18, in McCabe, Jos., *Story of Religious Controversy*, 169.
246. *Encyc. Brit.*, 11th ed., ix, 52.
247. Moret, 5; Maspero, *Dawn*, 265.
248. Herodotus, II, 37.
249. Breasted, *Dawn of Conscience*, 46, 83.
250. Breasted, *Development*, 293; Brown, B., *Wisdom of the Egyptians*, 178; Maspero, *Dawn*, 199.
251. Translation by Robert Hillyer, in Van Doren, Mark, *Anthology of World Poetry*, 237.
252. In Maspero, *Dawn*, 189-90.
253. Breasted, *Development*, 291.
254. Erman, *Life* 353; exs. in Erman, *Literature*, 39-43.
255. Maspero, *Dawn*, 282; Briffault, ii, 510.
256. Erman, *Life*, 352.
257. Herodotus, II, 82.
258. Breasted, *Development*, 296, 308.
- 258a. Capart, *Thebes*, 95.
259. Ibid. 76.
260. In Weigall, *Akhnaton*, 86.
261. Breasted, *Development*, 315.
262. E.g., Breasted, *Ancient Records*, ii, 369.
263. Breasted, *Development*, 324f.
264. The parallelisms are listed in Weigall, *Akhnaton*, 134-6, and in Breasted, *Dawn of Conscience*, 182f.
265. Breasted, *Development*, 314.
266. Weigall, 102, 105.
267. Capart, *Lectures*, fig. 104.
268. Weigall, 103.
269. Peirce in Weigall, 178; Breasted, *History*, 378.
270. Weigall, 116; Baikie, 284.
272. Baikie, 435.
273. CAH, ii, 154; Breasted, *History*, 446.
274. Ibid., 491.
275. Capart, *Thebes*, 69.
276. Erman, *Life*, 129.
277. Weigall, A., *Life and times of Cleopatra*.
278. Faure, Elie, *History of Art*, i, p. xlvii.

الباب التاسع

1. Maspero, *Passing of the Empires*, 783.
2. CAH, i, 399.
3. The quotations are from Heraclitus, *Fragments*, and Mallock, W., *Lucretius on Life and Death*.
4. Harper, R. F., *Code of Hammurabi*, 3-7.
5. Jastrow, M., *Civilization of Babylonia and Assyria*, 283-4.
6. Sumner, *Folkways*, 504.
7. CAH, iii, 250.
8. Harper, *Code*, 99-100.
9. CAH, i, 489; Maspero, *Struggle*, 43-4.
10. Maspero, *Dawn*, 759; Rawlinson, *Five Great Monarchies of the Ancient Eastern World*, iii, 22-3; McCabe, 141-2; Delaporte, 194-6.
11. CAH, ii, 429; iii, 101.
12. Harper, *Assyrian and Babylonian Literature*, 220.
13. Maspero, *Passing*, 567.
14. Jastrow, 466.
15. Daniel, iv, 30.
16. Rawlinson, it, 510.
17. Herodotus, I, 178. Strabo, to prove his moderation, says 44 (XVI, i, 5).
18. Tabouis, 306.
19. Rawlinson, ii, 514; Herodotus, I, 180.
20. Diodorus, II, ix, 2.
21. Tabouis, 307.
22. Herodotus, I, 181.
23. CAH, i, 503.
24. Diodorus, II, x, 6; Strabo, XVI, i, 5; Maspero, *Passing*, 564, 782; CAH, i, 506-8; Rawlinson, ii, 517.
25. Maspero, *Dawn*, 761.
26. CAH, i, 541.
27. Berosus in Tabouis, 307.
28. Maspero, *Dawn*, 763-4; Delaporte, 107.
29. Maspero, *Dawn*, 556.
30. Strabo, XVI, i, 15. Attendants extinguished the flames with torrents of water.
31. Layard, A. H., *Ninevah and its Remains*, ii, 413.
32. *Code of Hammurabi*, sections 187-9; Delaporte, 113.
33. Lowie, *Are We Civilized?*, 119; CAH, i, 501.
34. Lowie, 60, Maspero, *Dawn*, 769; CAH, i, 107, 501; ii, 227.
35. East India House Inscription in Tabouis, 287.
36. Xenophon, *Cyropædia*, V, iv, 33. The probable invention of this letter by Xenophon hardly lessens its pertinence.
37. Tabouis, 210.
38. Maspero, *Dawn*, 751-2.
- 38a. Jastrow, 292n.
39. Ibid., 326; CAH, i, 545; Maspero *Dawn*, 749, 761; Delaporte, 118, 126, 231; Tabouis, 241.
40. Cf. e.g., Harper, *Assyrian and Babylonian Literature*, xlviii-ix.
41. *Encyc. Brit.*, ii, 863.
42. *Code*, 48.
43. CAH, i, 526; Maspero, *Dawn*, 760; Delaporte, 110; Jastrow, 299.
44. Delaporte, 122; Maspero, *Dawn*, 720.
45. CAH, i, 520-1; Maspero, *Dawn*, 742-4; Jastrow, 326.
46. Maspero, 735.
47. Ibid., 708.
48. Olmstead, A. T., *History of Assyria*, 525-8.
49. *Code*, 2, 132.
50. Delaparte, 134.
51. *Code*, 196.
52. 210.
53. 198.
54. Ibid.
55. 202-4.
56. 195.
57. 218.

58. 194.
59. 143.
60. CAH, i, 517-8.
61. *Code*, 228f.
62. Jastrow, 305, 362; Maspero, *Dawn*, 748; CAH, i, 526.
63. Harper, *Code*, p. 11.
64. Jastrow, 488; CAH, i, 513.
65. CAH, iii, 237.
66. Maspero, *Dawn*, 679, 750; CAH, i, 535.
67. Delaporte, 133-4.
68. Maspero, 636.
69. CAH, i, 529-32.
70. Maspero, 645-6.
71. *Ibid.*, 644.
72. *Ibid.* 643, 650; Jastrow, 193.
73. Briffault, iii, 169.
74. CAH, i, 208, 530.
75. *Ibid.*, 500.
76. Briffault, iii, 88.
77. Maspero, 537.
78. Cf. Langdon, *Babylonian Wisdom*, 18-21.
79. Maspero, 546.
80. *Ibid.*, 566-72.
81. Jastrow, 453-9; Frazer, *Adonis*, 6-7; Briffault, iii, 90; CAH, i, 461; iii, 232.
82. Briffault, iii, 90; Harper, *Assyrian and Babylonian Literature*, liii.
83. Cf. e.g., Harper, 420-1.
84. Tabouis, 387.
85. Jastrow, 280; Maspero, 691-2.
86. *Ibid.*, 687.
87. *Ibid.*, 684-6.
88. *Ibid.*, 689; Jastrow, 381; CAH, i, 531.
89. Jastrow, 249.
90. Maspero, 962.
91. Tabouis, 159, 165, 351.
92. Briffault, iii, 94.
93. Woolley, 125.
94. CAH, iii, 216-7.
95. Harper, *Literature*, 433-9.
96. Maspero, 682.
97. Jastrow, 253-4; Maspero, 643; Harper, lix.
98. Jastrow, 2141-9.
99. *Ibid.*, 267; Tabouis, 343-4, 374.
100. Williams, H. S., i, 74.
101. Tabouis, 365.
102. Herodotus, I, 199; Strabo, XVI, i, 20.
103. "This view is now generally discredited."—Briffault, iii, 203.
104. So Farnell thinks—Sumner, *Folkways*, 541. Frazer (*Adonis*, 50) rejects this interpretation.
105. Frazer, 53.
106. Briffault, iii, 203.
107. Amos, ii, 7; Sumner and Keller, ii, 1273.
108. Frazer, 52; Lacroix, Paul, *History of Prostitution*, i, 21-4, 109.
109. Briffault, iii, 220.
110. Jastrow, 309.
111. Maspero, 738-9.
112. Schneider, H., i, 155.
113. CAH, i, 547.
114. *Ibid.*, 522-3; Hobhouse, 180; Maspero, 734.
115. *Ibid.*
116. Herodotus, I, 196. Several writers, however, described the custom as flourishing 400 years after Herodotus; cf Rawlinson's *Herodotus*, i, 271.
117. Maspero, 737.
118. Section 132.
119. Sumner, *Folkways*, 378.
120. 141-2; Jastrow, 302-3.
121. 143.
122. CAH, i, 524; Maspero, 735-7; *Code*, 142,
123. *Encyc. Brit.*, ii, 863.
124. Maspero, 739.
125. Harper, *Literature*, xlviii; CAH, i, 520.
126. Woolley, 118; White, E. M., 71-5.
127. Maspero, 739.
128. *Ibid.*, 735-8.
129. III, 159.
130. Layard, ii, 411; Sanger, 42.
131. Herodotus, I, 196.
132. V, I, in Tabouis, 366.
133. Delaporte, 199.

134. Jastrow, 31, 69-97; Mason, W. A., 266; CAH, i, 124-5.
135. Jastrow, 275-6; Delaporte, 198; Schneider, H., i, 181; Breasted, *Conquest of Civilization*, 152.
136. Schneider, i, 162.
137. Maspero, 564; CAH, i, 150.
138. Leonard, W. E., *Gilgamesh*, 3.
139. Ibid., 8.
140. Maspero 570f.
141. Delaporte, ix.
142. Jastrow, 415.
143. Pratt, *History of Music* 45; Rawlinson, iii, 20; Schneider, i, 168; Tabouis, 354; CAH, i, 533.
144. Perrot and Chipiez, *History of Art in Chaldea and Assyria*, ii, 292.
145. Cf. "The Lion of Babylon," Jastrow Plate XVIII, a work of glazed tile from the reign of Nebuchadrezzar II.
146. Herodotus, I, 180.
147. Tabouis, 313.
148. Jastrow, 10; Maspero, 624-7.
149. Jastrow, 258, 261, 492; Maspero, 778-80; Strabo, XVI, i, 6; Rawlinson, ii, 580.
150. Sarton, Geo., *Introduction to the History of Science*, 71.
151. Rawlinson, ii, 575; Schneider, i, 171-5; Lowie, 268; Sedgwick and Tyler, 29; CAH, iii, 238f.
152. Tabouis, 47, 317.
153. Schneider, i, 171-5.
154. Maspero, 545.
155. Tabouis, 204, 366.
156. New Orleans States, Feb. 24, 1932.
157. Code, 215-7.
158. 218.
159. Maspero, 780f; Jastrow, 250f.
160. Ibid.; Tabouis, 294, 393.
161. Herodotus, I, 197; Strabo, XVI, i, 20.
162. Schneider, i, 166.
163. Jastrow, 475-83; Langdon, If, 35-6.
164. Ibid., 1.
165. Jastrow, 461-3.
166. Tabouis, 254, 382.
167. Daniel, iv, 33.
168. Tabouis, 230, 264, 383.
169. Maspero, *Passing*, 626.
170. CAH, iii, 208. Jastrow, 184, believes that it was the priestly party which, disgusted with the heresies of Nabonidus, admitted Alexander.
171. Jastrow, 185; CAH, i, 568.

الباب العاشر

1. CAH, i, 468.
2. New York Times, Dec. 26, 1932.
3. CAH, ii, 429.
4. Olmstead, 16; CAH, i, 126.
- 4a. N. Y. Times, Feb. 24, 1933; Mar. 20, 1934.
5. CAH, ii, 248.
6. Harper, *Literature*, 16-7.
7. Jastrow, 166-7; Maspero, *Struggle*, 663-4.
8. Ibid., 50-2; Maspero, *Passing*, 27, 50.
9. Ibid., 85, 94-5; CAH, iii, 25.
10. Diodorus, II, vi-xx; Maspero, *Struggle*, 617; CAH, iii, 27.
11. Maspero *Passing*, 243.
12. Olmstead, 309.
13. Maspero, *Passing*, 275-6.
14. Ibid., 345; CAH, iii, 79.
15. Harper, *Literature* 94-127.
16. Delaporte, 343-4.
17. Maspero, *Passing*, 412f.
18. Olmstead, 488, 494; CAH, iii, 88, 127; Jastrow, 182; Delaporte, 223.
19. Diodorus, II, xxiii, 1-2.
20. Olmstead, 519, 525-8, 531; Maspero, *Passing*, 401-2.
21. Rawlinson, ii, 235.
22. CAH, iii, 100.
23. Maspero, *Passing*, 7.
24. Ibid., 9-10.

25. Rawlinson, i, 474.
26. Ibid., 467.
27. Maspero, *Struggle*, 627-38.
28. EAH, iii, 104-7; Rawlinson, i, 477-9.
29. CAH, i.c.
30. *Encyc Brit.*, ii, 865.
31. Ibid., 863.
32. Maspero, *Passing*, 422-3.
33. Olmstead, 510, 531.
34. Ibid., 522-3, 558.
35. CAH, iii, 186.
- 35a. Olmstead, 331.
36. Rawlinson, i, 405.
37. Olmstead, 537.
38. Ibid., 518; Maspero, *Passing*, 317-9; CAH, iii, 76, 96-7; Delaporte, 353; Rawlinson, i, 401-2.
39. CAH, iii, 107.
40. Ibid.; Delaporte, 285, 352.
- 40a. Olmstead, 624.
41. Maspero, *Passing*, 269.
42. Delaporte, 282; CAH, iii, 104-7.
43. Maspero, *Passing*, 91, 262.
44. Olmstead, 87.
45. CAH, iii, 13.
46. Delaporte, vii.
47. Faure, i, 90.
48. Maspero, 545-6.
49. CAH, iii, 90-1.
50. Ibid., 89-90.
51. Delaporte, 354.
52. CAH, iii, 102, 241, 249.
53. Breasted, *Ancient Times*, 161; Jastrow, 21.
54. Maspero, 461-3.
55. *Encyc. Brit.*, ii, 851.
56. Rawlinson, i, 277; Delaporte, 338; Jastrow, 407; CAH, iii, 109.
57. Schäfer, 555; now in the British Museum.
58. Schäfer, 531.
59. Ibid., 546; in the British Museum.
60. Oriental Institute, Chicago.
61. British Museum.
62. Schäfer, *Tafel XXXIV*.
63. Ibid., 537, 558-9; Jastrow, f. p. 24.
64. Faure, i, 91; Br. Mus.
65. Rawlinson, i, 509.
66. Schäfer, 656.
67. E.g., Baikie, f. p. 213; and Pijoan, i, figs. 175-6.
68. Fergusson, *History of Architecture*, i, 35, 174-6, 205.
69. Rawlinson, i, 299.
70. Layard, ii, 262f.
71. Jastrow, 374; translation slightly improved.
72. Br. Mus.
73. Rawlinson, i, 284.
74. CAH, iii, 16, 75-7; Maspero, *Passing*, 45, 260; Pijoan, i, 121, 111-8; Jastrow, 415; Schäfer, 542-3.
75. Maspero, *Passing*, 460.
76. Harper, *Literature*, 125-6.
77. CAH, iii, 127.
78. Diodorus, ii, xxiii, 3.
79. Preserved in Diodorus, II, xxvii, 2. Cf. Maspero, *Passing*, 448.
80. Nahum, iii, 1.

الباب الحادي عشر

1. Cowan, A. R., *Master-cues in World-History*, 311; Petrie, *Egypt and Israel*, 26.
2. Breasted, *Conquest of Civilization*, 192n.
3. *Encyc. Brit.*, xi, 600-1.
4. Hrozný, F., *ibid.*, 603.
- 4a. New York *World-Telegram*, Mar. 16, 1935.
5. Ibid., 606. Certain archeologists (e.g., Hrozný) have been especially moved by the lenience of the Hittite code with sexual perversions.
6. CAH, iii, 200.
7. Herodotus, IV, 64.
8. Maspero, *Passing*, ocrates, *Airs*.

- xvii-xxii.
9. Ibid., xvii.
 10. Frazer, *Adonis*, 219f.
 11. Ibid.; Maspero, *Passing*, 333.
 12. Frazer, 34, 219-24; Hall, M. P., *An Encyclopedic Outline of Masonic Philosophy*, 36.
 13. Herodotus, I, 93.
 14. Ibid., I, 87.
 15. Febvre, L., *Geographical Introduction to History*, 322.
 16. Moret, 350.
 17. Herodotus, II, 44.
 18. Strabo, XVI, ii, 23.
 19. Diodorus Siculus V, xxxv; Rickard, i, 276.
 20. *Decline and Fall of the Roman Empire*, ed. 1903, i, 296, in Rickard, i, 278.
 21. Maspero, *Struggle*, 192f, 203, 585; Day, Clive, *A History of Commerce*, 12-14; Briffault, i, 463; Sedgwick and Tyler, 14.
 22. Rickard, i, 283.
 23. Herodotus, IV, 42.
 24. Maspero, *Struggle*, 199, 740-1.
 25. Arrian, II, xv.
 26. Ibid., VI, 220.
 27. Zechariah, ix, 3.
 28. XV, ii, 23.
 29. Frazer, *Adonis*, 183-4; Maspero, *Struggle*, 174-9; Bebel, A., *Woman under Socialism*, 39; Briffault, iii, 220; Sanger, *The History of Prostitution*, 42.
 30. Sedgwick and Tyler, 15; Doane, T. W., *Bible Myths*, 41.
 31. E.g., Herodotus, V, 58.
 32. Dussaud, in Venkateswara, 328.
 33. CAH, i, 189.
 34. Maspero, *Struggle*, 572f.
 35. *Proceedings of the Oriental Institute*, Chicago, March 29, 1932.
 36. *New York Times*, Aug. 8, 1930.
 37. Ward, C. O., *The Ancient Lowly*, ii, 83, 85.
 38. CAH, ii, 328-9.
 39. Frazer, *Adonis*, 32-5.
 40. Ibid., 225-7; Maspero *Struggle*, 154-9.
 41. Ibid., 160-1.
 42. Deut., xviii, 10; 2 Kiugs, xxiii, 10; Sumner, *Folkways*, 554.
 43. Frazer, 84; Maspero, *Passing*, 80; CAH, iii, 372.
 44. Mason, W. A., *History of the Art of Writing*, 306; Maspero, *Passing*, 35; Rivers, W. H., *Instinct and the Unconscious*, 132.

الباب الثاني عشر

1. Exod. iii, 8; Numb. xiv, 8; Deut. xxvi, 15, etc.
2. Quoted in Huntingdon, E., *The Pulse of Asia*, 368.
3. *New York Times*, Jan. 20, 1932; May 17, 1932.
4. CAH, ii, 719n; *Encyc. Brit.*, xiii, 42.
5. Gen. xi, 31.
6. Petrie, *Egypt and Israel*, 17.
7. CAH, ii, 356.
8. Breasted, *Dawn of Conscience*, 349.
9. Maspero, *Struggle*, 70-1, 442-3.
10. Exod. xii, 40; Petrie, 38.
11. Exod. i; Deut. x, 22.
12. Exod. i, 12.
13. Josephus, *Works*, ii, 466; *Contra Apion*, i.
14. Strabo, XVI, ii, 35; Tacitus, *Histories*, V, iii, tr'n Murphy, London, 1930, 498.
15. Exod. v, 4-5; Ward, *Ancient Lowly*, ii, 76.
16. Schneider, i, 285.
17. United Press Dispatch from London, Jan. 25, 1932.
18. *New York Times*, April 18, 1932.
19. Numb. xxxi, 1-18; Deut. vii, 16, xx, 13-17; Joshua viii, 26,

- x, 24f, xii.
20. Ibid., xi, 23; Judges v, 31.
21. CAH, iii, Maspero, *Passing*, 127; *Struggle*, 752; Buxton, *Peoples of Asia*, 97.
22. Renan, *History of the People of Israel*, i, 86.
23. Schneider, i, 300; Mason, *Art of Writing*, 289.
- 23a. N. Y. *Times*, Oct. 18, 1934.
24. Maspero, *Struggle*, 684.
25. Judges xvii, 6.
26. 1 Sam. viii, 10-20; cf. Deut. xvii, 14-20.
27. Judges xiii-xvi; xv, 15.
28. 2 Sam. vi, 14.
29. 1 Kings ii, 9.
30. 2 Sam. xi.
31. 2 Sam. xviii, 33.
32. 1 Kings iii, 12.
33. 1 Kings iv, 32.
34. 1 Kings ix, 26-8.
35. Ibid.
36. 1 Kings x.
37. Ibid., x, 14.
38. *Jewish Encyclopedia*, ix, 350; Graetz, H., *Popular History of the Jews*; i, 271.
39. Renan, ii, 100.
40. 2 Chron. ix, 21.
41. Maspero, *Struggle*, 737-40.
42. Josephus, *Antiquities*, VII, 7.
43. 1 Kings iii, 2.
44. 1 Chron. xxix, 2-8.
45. CAH, iii, 347.
46. Ibid.
47. 2 Chron. iii, 4-7; iv, *passim*.
48. 2 Chron. ii, 7-10, 16; 1 Kings v, 6.
49. 2 Chron. ii, 17-18.
50. Cf. 1 Kings vi, 1, with vii, 2.
51. Fergusson, *History of Architecture*, i, 209-11.
52. Shotwell, J., *The Religious Revolution of Today*, 30.
53. Josephus, VIII, 13.
54. CAH, iii, 428.
55. Numb. xxi, 8-9; 2 Kings xviii, 4.
56. Allen, G., *Evolution of the Idea of God*, 192f; Howard, C., *Sex Worship*, 154-5.
57. Smith, W. Robertson, *Religion of the Ancient Semites*, 101.
58. Reinach, *History of Religions* (1930), 176-7.
59. Exod. vii.
60. New York *Times*, May 9, 1931.
61. Exod. xii, 7, 31.
62. Exod. xxxiii, 19.
63. Gen. xxxi, 11-12.
64. Exod. xxxiii, 23.
65. 1 Kings xx, 23.
66. Exod. xv, 3.
67. 2 Sam. xxii, 35.
68. Exod. xxiii, 27-30.
69. Lev. xxv, 23.
70. Exod. xiv, 18.
71. Numb. xxv, 4.
72. Exod. xx, 5-6.
73. Ibid., xxxii, 11-14.
74. Numb. xiv, 13-18.
75. Gen. xviii.
76. Deut. xxviii, 16-28, 61. Cf. the formula of excommunication in the case of Spinoza, in Willis, *Benedict de Spinoza*, 34.
77. Exod. xx, 5; xxxiv, 14; xxiii, 24.
78. Ruth i, 15; Judges xi, 24.
79. Exod. xv, 11; xviii, 11.
80. 2 Chron. ii, 5.
81. Ezek. viii, 14.
82. Jer. ii, 28; xxxii, 35.
83. 2 Kings ii, 15.
84. 2 Sam. vi, 7; 1 Chron. xiii, 10.
85. Sumner, *Folkways*, 554.
86. CAH, iii, 451f.
87. Numb. xviii, 23.
88. Ezra vii, 24.
89. Numb. xviii, 9f.
90. Isaiah xxviii, 7; Judges viii, 33; ix 27; 2 Kings xvii, 9-12, 16-17; xxiii, 10-13; Lamentations ii, 7.
91. Ezek. xvi, 21; xxiii, 37; Isaiah, Ivii, 5.
92. Amos ii, 6.
93. CAH, iii, 458-9; Frazer, *Adonis*, 66.
94. Jer. xxix, 26.
95. Maspero, *Passing*, 783.
96. Applied by G. B. Shaw to Christ

- in "The Revolutionist's Handbook," appended to *Man and Superman*.
98. CAH, vi, 188.
99. Like Isaiah xl-lxvi.
100. CAH, iii, 462.
101. Amos v-vi.
102. Ibid., iii, 12, 15.
103. New York *Times*, Jan. 7, 1934.
104. Hosea viii, 6-7.
105. 2 Kings xviii, 27; Isaiah xxxv, 12.
106. Maspero, *Passing*, 290; CAH, iii, 390.
107. Sarton, 58.
108. Isaiah vii, 8.
109. Ibid., xvi, 7.
110. III, 14-15; v, 8; x, 1f.
111. I, 11f.
112. Amos ix, 14-15.
113. Isaiah vii, 14; ix, 6; xi, 1-6; ii, 4. The final passage is repeated in Micah iv, 3.
114. Hosea xii, 7.
115. 2 Kings xxii, 8; xxiii, 2; Chron. xxxiv, 15, 31-2.
116. Sarton, 63; CAH, iii, 482.
117. 2 Kings xxiii, 2, 4, 10, 13.
118. 2 Kings xxv, 7.
119. Psalm CXXXVII.
120. Jer. xxvii, 6-8.
121. XV, 10; xx, 14.
122. V, 1.
123. V, 8.
124. XXXIV, 8f.
125. VII, 22-3.
126. XXIII, 11; v, 31; iv, 4; ix, 26.
127. XVIII, 23.
128. IV, 20-31; v, 19; ix, 1.
- 128a. Arguments for doubting Jeremiah's authorship of *Lamentations* may be found in the *Jew. Encyc.*, vii, 598.
129. Lam. i, 12; iii, 38f; Jer. xii, 1.
130. Ezek. xvi, xxiii.
131. Ibid., xxii, xxxviii, 2.
132. Ibid., xxxvi.
- 132a. CAH, vi, 183; *Enc. Brit.*, iii, 503.
133. Isaiah lxi, 1.
134. Ibid., xl, 3, 10-11; liii, 3-6.
- 134a. CAH, iii, 498.
135. LXV, 25.
136. XLV, 5.
137. XL, 12, 15, 17, 18, 22, 26.
138. Ezra i, 7-11; Maspero, *Struggle*, 638f; *Bassing*, 784.
139. Nehemiah x, 29.
140. 2 Kings xxii, 10; xxiii, 2; Nehem. viii, 18.
141. CAH, vi, 175.
142. *Enc. Brit.*, iii, 502.
- 142a. *Jew. Encyc.*, v, 322.
143. Ibid.; Sarton, 108; Maspero, *Passing*, 131-2.
144. CAH, iii, 481.
145. Doane, *Bible Myths*, chapter i, *passim*.
146. Ibid., 10.
147. Ibid., ch. i.
148. Cf. Doane, 18-48.
149. Sarton, 63.
150. Renan, iv, 163.
151. Reinach (1930), 19; Frazer, Sir J. G., *The Golden Bough*, 472.
152. Exod. xxi-ii; Lev. xviii.
153. Spencer, *Sociology*, iii, 189.
154. Garrison, *History of Medicine*, 67.
155. Ibid.
156. Ibid.
157. Briffault, iii, 331.
158. Renan, i, 105.
159. Diodorus Siculus I, xciv, 1-2; Doane, 59-61.
160. Diodorus, *ibid*.
161. Lev. xxiv, 11-16; Deut. vii, xiii, xvii, 2-5.
163. Petrie, *Egypt and Israel*, 60-1; CAH, iii, 427-8.
164. Ezra i, 7-11.
165. 2 Chron. v, 13.
166. 2 Sam. vi, 6.
167. *Enc. Brit.*, 11th ed., xv, 311; *Jew. Encyc.*, vii, 88.
168. Briffault, ii, 433; Sumner and Keller, ii, 1113.
- 168a. Reinach (1930), 195; *Jew. Encyc.*, v, 377.
169. Gen. xxiv, 58; Judges i, 12.
170. Howard, 58.

172. Judges iv, 4.
173. 2 Kings xxii, 14.
174. Briffault, iii, 362; Howard, 49; Dubois, 212; Sumner, *Folkways*, 316, 321.
175. Gen. xxx, 1.
176. Cf. Maspero, *Struggle*, 733, 776; CAH, ii, 373.
177. Maspero, *ibid.*
178. Cf. 2 Kings iii, 18-19; Joshua vi, 21, 24.
179. 1 Kings xx, 29.
180. Deut. vii, 6; xiv, 2; 2 Sam. vii, 23, etc.
181. Sanger, *History of Prostitution*, 36.
182. *Ibid.*, 35; Gen. xix, 24-5.
183. Sanger, 37-9.
148. Gen. xxix, 20.
185. Deut. xxi, 10-14.
186. Judges xxi, 20-1.
187. Gen. xxxi, 15; Ruth iv, 10; Hobhouse, *Morals in Evolution*, 197f; Briffault, ii, 212; Lippert, 310.
- 187a. Westermarck, *Moral Ideas*, ii, 609; White, E. M., *Woman in World History*, 169f.
188. Gen. xxx.
189. Dent. xxv, 5.
190. Lev. xx, 10; Deut. xxii, 22.
191. Westermarck, i, 427.
193. Deut. xxiv, 1; Westermarck, ii, 649; Hobhouse, 197f.
194. Gen. xxiv, 67.
195. Lev. xxv, 23.
196. Renard, 160; CAA, i, 201.
197. Deut. xv, 6; xxviii, 12.
198. Sumner, *Folkways*, 276.
199. 2 Kings iv, 1; Matt. xviii, 25.
200. Lev. xxv, 14, 17.
201. Exod. xxi, 2; Deut. xv, 12-14.
202. Lev. xxv, 10.
203. Deut. xv, 7-8; Lev. xxv, 36.
204. Exod. xxi, 10; Deut. xxiv, 19-20.
205. Gen. xxiv, 2-3.
206. Graetz, i, 173.
207. Deut. xvii, 8-12.
208. Numb. v, 27-9.
209. *Ibid.*, 6-8.
210. Exod. xxi, 15-21; xxii, 19.
211. Exod. xxii, 18.
212. Numb. xxxv, 19.
213. Deut. xix.
214. Exod. xxi, 23-5; Lev. xxiv, 9-20.
215. Exod. xx, 17.
216. Renan, ii, 307.
217. *Jew. Encyc.*, vii, 381; Graetz, i, i, 224.
218. *Enc. Brit.*, iii, 504. The *Psalms* seem to have been collected in their present form ca. 150 B.C.—*Ibid.*, xxii, 539.
219. In the poem entitled "Walt Whitman." sect. 44; *Leaves of Grass*, 84-5.
219. The *Jew. Encyc.*, xi, 467, assigns its composition to 200-100 B.C.
220. Songs of Solomon i, 13-16; ii, 1 5, 7, 16, 17; vii, 11, 12.
221. Prov. vii, 26; vi, 32; xxx, 18-19.
222. *Ibid.*, v, 18-1-19; xv, 17.
223. *Ibid.*, vi, 6, 9.
224. XXII, 29.
225. I, 32; xxviii, 20.
226. XIV, 23; xxviii, 11, xvii, 28.
227. XVI, 22; iii, 13-17.
228. *Enc. Brit.*, iii, 504.
229. Jastrow, M., *Book of Job*, 121.
230. Kallen, H., *Book of Job as a Greek Tragedy*, Introduction.
- 230a. Carlyle, Thos., *Complete Works*, Vol. i, *Heroes and Hero-Worship*, p. 280, Lect. II.
231. Job vii, 9-10; xiv, 12.
232. Psalm LXXIII, 12.
233. Psalms XLII, XLIII, 23; LXXIV, 22; LXXXIX, 46; CXV, 2.
234. Job xii, 2-3, 6; xiii, i, 4-5.
235. XXXI, 35.
236. Renan, v, 148; Jastrow, *Job*, 180.
237. Job xxxviii, 1—xl, 2. It has been argued that these chapters are an independent "nature-poem," artificially attached to the *Book of Job*.
238. Job xlii, 7-8.
239. Sarton, 180.
240. Eccles. i, 1.

241. Ibid., vii, 15 ; iv 1 ; v, 8.
242. IX, 11.
243. V, 10, 12.
244. V, 11.
245. VII, 10.
246. I, 9-10.
247. I, 11.
248. I, 2-7 ; iv, 2-3 ; vii, 1.
250. VIII, 15 ; ii, 24 ; v, 18 ; ii, 1.
251. VII, 28, 26.
252. IX, 8.
253. XII, 12.
254. VII, 11, 16.
255. Exod. xxxiii, 20.
256. Eccles. i, 13-18.
257. III, 19, 22 ; xix 10. For the Talmudic interpretation of the final chapter of *Ecclesiastes*, cf. Jastrow, M., *A Gentle Cynic*, 189f.
258. Josephus, *Antiquities*, XI, 8 ; *Works*, i, 417. The account is questioned by some critics-cf. *Jew. Encyc.*, i, 342.

الباب الثالث عشر

1. Huart, C., *Ancient Persian and Iranian Civilization*, 25-6.
2. Maspero, *Passing*, 452.
3. Herodotus, I, 99.
4. Ibid., i, 74.
5. Rawlinson, ii, 370.
6. Daniel vi, 8.
7. Rawlinson, ii, 316-7.
8. Huart, 27.
9. Herodotus, I, 119.
10. *Encyc. Brit.*, xvii, 571.
11. Rawlinson, iii, 389.
12. Maspero, 668-71.
13. Rawlinson, iii, 398.
14. Herodotus, III, 134.
15. Sykes, Sir P., *Persia*, 6.
16. XV, iii, 10.
17. The population estimates are those of Rawlinson, iii, 422, 241.
18. Strabo, XV, ii, 8 ; Rawlinson, ii, 306 ; iii, 164 ; Maspero, 452.
19. Dhalla, M. N., *Zoroastrian Civilization*, 211, 222, 259 ; Rawlinson, iii, 202-4 ; Köhler, Carl, *History of Costume*, 75-6.
20. Rawlinson, iii, 211, 243.
21. Adapted from Rawlinson, iii, 250-1.
22. Huart, 22.
23. Schneider, i, 350.
24. Mason, W. A., 264.
25. Dhalla, 141-2.
26. Herodotus, I, 126.
27. Strabo, XV, iii, 20 ; Herodotus, I, 133.
28. Dhalla, 187-8.
29. Herodotus, V, 52.
30. CAH, iv, 200.
31. Dhalla, 218.
32. Ibid., 144, 257 ; Müller, Max, *India : What Can It Teach Us ?*, 19.
33. Rawlinson, iii, 427.
34. CAH, iv, 185-6.
35. Rawlinson, iii, 245.
36. Ibid., 171-2.
37. Ibid., 228 ; Plutarch, *Life of Artaxerxes*, chs. 5-17.
38. Rawlinson, iii, 221.
39. Dhalla, 237.
40. Ibid., 89.
41. Rawlinson, iii, 241.
42. Herodotus, VII, 39. But perhaps Herodotus had been listening to old wives' tales.
43. Dhalla, 95-9.
44. Ibid., 106.
45. Herodotus, V, 25.
46. Darmesteter, J., *The Zend-Avesta*, i, p. lxxxiiif.
47. Ibid.
48. Huart, 78 ; Darmesteter lxxxvii ; Rawlinson, iii, 246.
49. Ibid., Sumner, *Folkways*, 236.
50. Plutarch, *Artaxerxes*, in *Lives*, iii, 464.
51. Rawlinson, iii, 427 ; Herodotus, III, 95 ; Maspero, *Passing*, 690f ;

- CAH, iv, 198f.
53. Maspero, 572f.
 54. Vendidad, XIX, vi, 45.
 55. Darmesteter, i, xxxvii; *Encyc. Brit.*, xxiii, 987.
 56. Dawson, M. M., *Ethical Religion of Zoroaster*, xiv.
 57. Rawlinson, ii, 323.
 58. Edouard Meyer dates Zarathustra about 1000 B.C.; so also Duncker and Hummel (*Encyc. Brit.*, xxiii, 987; Dawson, xv); A. V. W. Jackson places him about 660-583 B.C. (Sarton, 61).
 59. Briffault, iii, 191.
 60. Dhalla, 72.
 61. Schneider, i, 333; CAH, iv, 210f; Rawlinson, ii, 323.
 62. *Encyc. Brit.*, xxiii, 942-3; Rawlinson, ii, 322; Dhalla, 38f.
 63. Ibid., 40-2; *Encyc. Brit.*, xxiii, 942-3; Maspero, *Passing*, 575-6; Huart, xviii; CAH, iv, 207.
 64. *Encyc. Brit.*, l.c.
 65. Darmesteter, xxvii, Gour, Sir Hari Singh, *Spirit of Buddhism*, 12.
 66. Vend. II. 4, 29, 41.
 67. Ibid., 22-43.
 68. Darmesteter, lxii-iv.
 69. Yasna, xlv, 4.
 70. Darmesteter, lv, lxv.
 71. Dawson, 52f.
 72. *Encyc. Brit.*, xxiii, 988.
 73. Dawson, 46.
 74. Maspero, *Passing*, 583-4; Schneider, i, 336; Rawlinson, ii, 340.
 75. Dawson, 125.
 76. *Shayast-la-Shayast*, XX, 6, in Dawson, 131.
 77. Vend. IV, 1.
 78. Ibid., XVI, iii, 18.
 79. Herodotus, I, 134.
 80. *Shayast-Shayast*, VII, 6, 7, 1, in Dawson, 36-7.
 81. Westermarck, *Morals*, ii, 434; Herodotus, VII, 114; Rawlinson, iii, 35on.
 82. Strabo, XV, iii, 13; Maspero, 592-4.
 83. Reinach (1930), 73; Rawlinson, ii, 338.
 84. The "Ormuzd" Yast, in Darmesteter, ii, 21.
 85. Nask VIII, 58-73, in Darmesteter, i, 380-1.
 86. Vend., XIX, v, 27-34; Yast 22; Yasna LI, 15; Maspero, 590.
 87. Yasna XLV, 7.
 88. Dawson, 246-7.
 89. Ibid., 256f.
 90. Ibid., 250-3.
 91. CAH, iv, 211.
 92. Cf., e.g., Darmesteter, i, pp. lxxii-iii.
 93. CAH, iv, 209.
 94. Dhalla, 201, 218; Maspero, 595.
 95. Harper, *Literature*, 181.
 96. Dhalla, 250-1.
 97. Herodotus, IX, 109; Rawlinson, iii, 170.
 98. Ibid., iii, 518, 524.
 99. Ibid., 170.
 100. Strabo, XV, iii, 20.
 101. Dhalla, 221.
 102. Herodotus, I, 80; Xenophon, *Cyropaedia*, I, ii, 8; VIII, viii, 9; Strabo, XV, iii, 18; Rawlinson, iii, 236.
 103. Dhalla, 155; Dawson, 36-7.
 104. Dhalla, 119, 190-1.
 105. E.g., Vend. IX.
 106. Darmesteter, i, p. lxxviii.
 107. Vend. VIII, 61-5.
 108. I, 4.
 109. I, 135.
 110. Vend. VIII, v, 32; vi, 27.
 111. Strabo, XV, iii, 17; Vend. IV, iii, 47.
 112. Ibid., iii, 1.
 113. XV, ii, 20f.
 114. XX, i, 4; XV, iv, 50-1.
 115. XXI, i, 1.
 116. Maspero, 588. These cases were apparently confined to the Magi.
 117. Herodotus, VII, 83; IX, 76; Rawlinson, iii, 238.
 118. Esther, ii, 14; Rawlinson, iii, 219.
 119. Dhalla, 74-6, 219; Rawlinson, iii, 222, 237.

- 119a. Plutarch, Artaxerxes, *Lives*, iii, 463-6.
120. Dhalla, 70-1.
121. Herodotus, I, 139; Dhalla, 219.
122. Vend. XV, 9-12; XVI, 1-2.
123. Bundahis, XVI, 1, 2, in Dawson, 156.
124. Venkateswara, 177; Dhalla, 225.
125. Ibid., 83-5; Dawson, 151.
126. Herodotus, I, 136.
127. Strabo, XV, iii, 18.
128. Darmesteter, i, p. lxxx.
129. Vend. VII, vii, 41f.
130. Ibid., 36-40.
131. Rawlinson, iii, 235.
132. N. Y. Times, Jan. 6, 1931.
133. Dhalla, 176, 195, 256; Rawlinson, iii, 234.
134. N. Y. Times, Jan. 23, 1933.
135. Dhalla, 253-4.
136. Rawlinson, iii, 278.
137. N. Y. Times, July 28, 1932.
138. Fergusson, *History of Architecture*, i, 198-9; Rawlinson, iii, 298.
139. Breasted in N. Y. Times, March 9, 1932.
140. CAH, iv, 204.
140a. Dhalla, 260-1.
140b. Rawlinson, iii, 244, 400.
141. Maspero, 715.
142. Arrian, *Anabasis of Alexander*, I, 15.
143. Josephus, *Antiquities*, XI viii, 3.
144. Arrian, I, 16.
145. Quintus Curtius, III, 17.
146. Arrian, II, 11, 13; Plutarch, *Life of Alexander*, ch. 20.
147. Quintus Curtius, X, 17; CAH, vi, 369.
148. Plutarch, *Alexander*, ch. 31; Arrian, III, 8.

فهرس الأعلام

أيس (العجل) من معبودات المصريين
٤٠٥

أيقور والأيقورية الخ ١٥٤
أتوسا زوج دارا الأول (حوالى ٥٠٠
ق . م) ٤٠٨

أتوسا ابنة أرت خستى الثانى وزوجته
(حوالى ٣٧٥ ق . م) * ٤٢٥

أتون (إله إختاتون) ١٦٩ — ١٧٢ ،

١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٨٠ ،

أثينة (أو أثينا) — أثينية ، أثينيون

٨ ، ١٠٠ ، ١٣٨ ، ٤٠٨ ، ٤٥٣ ،

إثيوبيا (الحبشة) ، الإثيوبيون ٧ ، ٦٥ ،

١٨٤ ، ٣٥٢ ،

أجاد ١٣ ، ١٨ ، ١٩ ،

أجمنون ٣١٩

أحاسوروس ٣٩٨

أحمس (بردية) ١٢٠

أحمسى ، ملكة مصر (حوالى ١٥٠٠
ق . م) ٧٧

أحموس الثانى ملك مصر (٥٦٩ — ٥٢٦
ق . م) ٧ ، ٣٢٦

أخشويرش ملك الفرس (انظر خشيارشاه)

إختاتون ملك مصر (انظر أمنحوتب الرابع)

٦ ، ٣٠ ، ٩٥ ، ١٠٢ ، ١١٨ ، ١٣٦ ،

١٣٧ ، ١٤٨ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ،

١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ،

١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٩٥ ، ٣٤٤ ، ٣٨٦ ،

٤٣٣

أخنوخ ٣٩٤

الآخيون ١٨٣

(أ)

إبراهيم * ١٠٩ ، ١١٩ ، ٣١٩ ، ٣٢١ ،

٣٤٢ ، ٣٤٤

الأبستاق ٤٢٤ ، ٤٢٦ ، ٤٢٧ ، ٤٣٢ ،

٤٣٣ ، ٤٣٩ ، ٤٤٠ ، ٤٤١ ، ٤٤٣ ،

أبسماتيك الأول ملك مصر وأمبرساو

(٦٦٣ — ٦٠٩ ق . م) ٧ ، ١٨٤ ،

أبسماتيك الثانى ملك مصر (٥٩٣ — ٥٨٨
ق . م) ٧

أبسماتيك الثالث ملك مصر (٥٢٦ — ٥٢٥
ق . م) ٧

أبسو المحيط ٢١٧

إبسين ٢٣

أبشالوم بن سليمان (حوالى ٩٥٠ ق . م)

٣٣٢

أبقرط ١٢٣ ، ٣٠٥ *

ابن خلدون ١٩٤ *

إبنتشار ٣٩

أبو (الإله) ٢٩ . انظر تموز

أبو أو أبى سبيل ١٣٦ ، ١٤٠ ، ١٨٠ ،

١٨١

أبو شهرين ١٣٠

أبو صير ١٣٩

أبوالهول ٤٧ ، ٥١ ، ٥٦ ، ٥٩ ، ١٠٧ ،

١٣٠ ، ١٣٦ ، ٣٠٢ *

أبولون ٢٩٢

أبور (الفيلسوف المصرى) ١٤٩ ،

١٥١ ، ١٥٥

(*) هذه العلامة تشير إلى هامش الصفحة .

أدبا حكيم لاريدو ٢٨٥ ، ٣٠
 آدم ٣٦٨ ، ٣٤٠
 الإدميين ٣٢١ ، ٣١٩ ، ٣٠٠
 إدناي ٣٧٣ ، ٣١٨ ، ٣١٥
 أدنيس ١٦ ، ١٦٩ ، ٢١٨ ، ٢٦٧ ، ٣٠٨
 إدون اسميث (بردية) ١٢٤
 أرازتو وأارات (انظر الأرمن)
 الأراك (جبل) ٦٥ ، ٤٤
 الأراك (نهر) ٤١٠
 أراو ٢٢٢ ، ٢٢١ ، ٢١٩
 الأرامية ، (الأراميين) ٣٢٠ ، ٣١٩ ، ٣٢١ ، ٣٧٧ ، ٤١١
 أران ٤١٠ *
 لاريل أو لاريل (مدينة ومعركة) ٨ ، ٢٦٥ ، ٤٥٦ ، ٤٦٠
 أرتبان أو أرتبانوس أو أردوان من حاشية
 خشيارشاي الأول ٤٥٥
 أرت خشت الأول ملك فارس (٤٦٤ —
 ٤٢٣ ق . م) * ٤٢٠ ، ٤٥١ ، ٤٥٥
 أرت خشت الثاني ملك فارس (٤٠٤ —
 ٣٥٩ ق . م) ٤٣٦ ، ٤٣٨ ، ٤٤٢ *
 ٤٤٥ ، ٤٤٧ ، ٤٥٤ ، ٤٥٥
 أرت خشت الثالث (أوكوس) ملك فارس
 (٣٥٩ — ٣٣٨ ق . م) ٨ ، ٤٥٥
 أرتكز ركس (انظر أرت خشت)
 أرجستس الثاني ملك أرمينية (حوالى
 ٧٠٨ ق . م) ٣٠٣
 أرخزيان ٤٦٠
 أردشير ، انظر ارتكز ركس ملك الفرس
 الأردن (نهر) ٣١٩
 الأرساسيين ٤٢٦ *
 أرسطوفانيز ٣٦٨
 أرسيس ملك الفرس ٣٢٩ ، ٣٣٦ ، ٤٥٦
 أرسيونى ٩٥
 أرشكجال ٢٢٠ ، ٢١٩

أرطخشت انظر أرت خشت
 الأرمن ، وأرمينية ٧ ، ١٤ ، ٢٦٧ ،
 ٢٧٠ ، ٢٧٢ ، ٣٠٠ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣
 ٤٠٦ ، ٤٠٩ ، ٤٢٢ ، ٤٦٠
 لارميا ٧ ، ٣٤٣ ، ٣٤٩ ، ٣٥٦ ، ٣٥٨
 ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦١
 أورورو (عرابة جلجيش) ٢٤٠ ، ٢٤١
 أروك أو إرك ١٣ ، ١٤ * ، ١٧ ، ١٩٠
 ١٩٢ ، ٢٣٩ ، ٢٤٣
 آرى — آريون — آرية ١٠ ، ٣٠١ ،
 ٣٠٣ ، ٣٤٥ ، ٤٠١ ، ٤٠٩ ، ٤١٠
 أريتس إله الفريجيين ٣٠٥
 أريحا ٣٢٣ ، ٣٢٦ *
 لاريدو ١٣ ، ١٤ * ، ٣٠ ، ١٣٩
 إسيارطه ٤٠٨
 إسيانيا ١٨٣ ، ٣١١ ، ٣١٢ *
 اسبنوزا (باروخ) الفيلسوف اليهودى
 الهولندى (١٦٧٢ — ١٦٧٧) ٣٤٢
 استاثيرا ٤٤٢ *
 إستر ٩ ، ١٦٠ ، ١٩٨ ، ٣٧٥ ، ٣٨٦
 استرابون (الجغرافى اليونانى ؟ ق . م
 — ٢٤ ب . م) ٤٨ * ، ٢٠١ ، ٣١٤
 ٤٠٩ ، ٤١٠ ، ٤١٢ *
 أستروك : چان ، كاتب فرنسى فى الطب
 (١٦٨٤ — ١٧٦٦) ٣٦٧ *
 أستواد إله الموت عند الفرس ٤٣٤
 أستياجيس ملك الميديين (حوالى ٥٦٠ ق . م)
 ٤٠١ ، ٤٠٢
 استيورت : ملوك إنجلترا ٣٦١
 إسحق ٣١٩ ، ٣٧٩ ، ٣٨٦
 إسرائيل ٦ ، ٣١٩ ، ٣٢٤ ، ٣٢٦ * ،
 ٣٢٨ ، ٣٣٠ ، ٣٣٢ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨ * ،
 ٣٤٣ ، ٣٤٥ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩ ،
 ٣٥١ ، ٣٥٧ ، ٣٥٩ ، ٣٦٢ ، ٣٦٣ ،
 ٣٦٤ ، ٣٧٢ ، ٣٧٥ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧ ،

٤٢٢ ، ٤٠٤ ، ٣٠٦ ، ٣٠٥
 أسوي وأسيون ٤٤ ، ٦٦ ، ٧٨ ،
 ١٩٨ ، ١٨١ ، ١٠٢ ، ١٠١ ، ٨٤*
 ٤٥٧ ، ٢٦٥
 إشتار ٢٢ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢١٨ ،
 ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ،
 ٢٤٢ ، ٢٦٥ ، ٢٩٥ ، ٣٠٢*
 ٣١٥ ، ٣٨٨ (انظر أيضاً عشتروت)
 إشتارقي ٢١٥ (انظر أيضاً عشتروت)
 إشعيا الأول من أنبياء بني اسرائيل (حوالى
 ٧٢٠ ق. م) ٧ ، ١٧٥ ، ٣٤٣ ،
 ٣٤٨ ، ٣٤٩ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣ ، ٤٥٤ ،
 ٣٥٥ ، ٣٦١ ، ٣٦٢ ، ٣٧٦ ، ٣٨٨ ،
 ٤٢٥
 إشعيا الثاني ٢١٤ ، ٣٥٦ ، ٣٦٢ ،
 ٣٦٣
 الإشكانيين ٣٠٠
 آشور — المدينة — الدولة — الإله :
 ٦ ، ٧ ، ١٢ ، ١٥ ، ٢٣ ، ٤٢ ،
 ٤٣ ، ١٨٣ ، ١٩١ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ،
 ٢٠٠ ، ٢٣٥ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ،
 ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ،
 ٢٧٥ ، ٢٧٦* ، ٢٧٨ ، ٢٩٣ ، ٢٩٥ ،
 ٢٩٧ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ ،
 ٣٠٥ ، ٣٠٨ ، ٣١٩ ، ٤٤١ ، ٣٥١ ،
 ٣٥٢ ، ٣٥٣ ، ٣٦١ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠ ،
 ٤٠١ ، ٤٠٤ ، ٤٠٧ ، ٤٠٩ ، ٤٢٢ ،
 آشور بانينال الأول ملك آشور (٦٦٩ —
 ٦٢٦ ق. م) ٧ ، ١٢ ، ٢٢٧ ، ٢٣٦ ،
 ٢٣٩ ، ٢٦٥ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ،
 ٢٧٢ ، ٢٧٤ ، ٢٧٦ ، ٢٨٢ ، ٢٨٤ ،
 ٢٨٧ ، ٢٩٠ ، ٢٩٥ ، ٢٩٩ ، ٣٤٠ ،
 آشور بانينال الثاني ملك آشور ٢٨٧ ،
 ٢٨٩
 آشور ناصر بال الثاني ملك الأشوريين

٣٩٧ ، ٣٩٢* ، ٣٩١ ، ٣٨٢ ، ٣٧٨ ،
 ٣٩٨ ، ٤٢٥
 أسركون الأول ملك مصر (٩٢٥ — ٨٨٩
 ق. م) ٦
 أسركون الثاني ملك مصر (٨٨٠ — ٨٥٠
 ق. م) ٧
 إشمير : الأسقف ٣٢٢
 اسكتلندة ٣٦٠
 الإسكندر الأكبر ملك مقدونية (٣٣٦ —
 ٣٢٣ ق. م) ٨ ، ١٧ ، ٤٧ ، ٥٤ ،
 ٩٣ ، ١٨٤ ، ٢٠٢ ، ٢٧٢ ، ٢٧٥ ،
 ٣٠٤* ، ٣١٤ ، ٣٨٥ ، ٣٨٨ ،
 ٣٩٧ ، ٣٩٨ ، ٤٠٣ ، ٤٠٥ ، ٤٢١ ،
 ٤٢٢ ، ٤٢٦* ، ٤٣٩* ، ٤٤٧ ،
 ٤٥٤ ، ٤٥٦ ، ٤٥٧ ، ٤٥٨ ، ٤٥٩ ،
 ٤٦٠
 الإسكندرية ٨ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٥٠ ،
 ١٢١ ، ١٤٨ ، ٣١٥ ، ٣٨٨ ، ٣٨٩ ،
 ٣٩٠
 الإسلام ٣٠٩
 اسماعيل ٣١٥
 استنفرو تفر الموسيقى المصري ١٤٦
 أسوان (مدينة وخزان) ١٢٩
 إيسوس (مدينة ومعركة) ٨ ، ٤٣٩ ،
 ٤٥٨
 آسية ٥ ، ٦ ، ٩ ، ١٤ ، ١٩ ، ٢١ ،
 ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٧٦ ، ٧٩ ، ١٠٤ ،
 ١٠٧ ، ١١٩ ، ١٥٨ ، ١٦٠ ، ١٨٤ ،
 ١٨٥ ، ١٨٨ ، ١٩٣* ، ١٩٤ ، ١٩٦ ،
 ٢٠٢ ، ٢٠٤ ، ٢٦٩ ، ٢٧٢ ، ٣٠١ ،
 ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣١٨ ، ٣٢٥ ،
 ٣٢٨ ، ٣٥١ ، ٣٦٩ ، ٣٩٩ ، ٤٠٣ ،
 ٤٠٥ ، ٤٠٧ ، ٤٠٨ ، ٤٠٩ ، ٥٣٤* ،
 ٤٥٧ ، ٤٥٧* ، ٤٥٨ ، ٤٥٩ ، ٤٦٠ ،
 آسية الصغرى ٢٠٣ ، ٣٠١ ، ٣٠٤ ،

أ كسفر ٢٥
 الأ كينيون ٤٠٣ ، ٤٦٠
 إل أو إلو ٣١٨
 إلفنتين ١٢٩
 الألمان ، ألماني ، * ٣٤٤ ، * ٣٥٥ ، * ٤١١
 ألبي القائد البريطاني في الحرب العالمية الأولى ٧٩
 الوهيم ٣١٨ ، ٣٦٧
 إلياذة هوميروس ٣٤٠
 إليت اسمت (بردية) * ٤٤
 إلتيس أو إلباطس ملك ليديا ٧ ، ٣٠٥
 إليشع ٣٤٣ ، ٣٤٦
 إلهو ٣٩٢
 أماسير (انظر أحوس)
 الأمثال (سفر) ٣٨٩ ، ٣٩٥ ، ٣٩٧ ، ٣٩٨
 امحوتب ٦٦ ، ١٤٧ ، ١٥٣
 امربال والد حمورابي ٣٢٤
 امرسن رلف ولدو الكاتب الفيلسوف
 الأمريكي (٣ - ١٨ - ١٨٨٢) ٤٠٣ ، ٤١٣
 امرو ٣١٩
 امريكا وأمريكي ٩ ، ١٠ ، ١٥ ، ٩٦ ، ١٠٠ ، ٢٩٣ ، * ٣١٢
 أمنحوتب بن حابو ، المهندس والمثال المصري
 (حوالي ١٤٠٠ ق. م.) ١٤٨
 أمنحوتب الثاني ملك مصر (١٤٤٧ -
 ١٤٢٠ ق. م.) ٨٠ ، ٩٤
 أمنحوتب الثالث ملك مصر (١٤١٢ -
 ١٣٧٦ ق. م.) ٦ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٨٠ ، ٩٥ ، ١٢٨ ، ١٣٦ ، ١٤٦ ، ١٤٨ ، ١٦٨ ، * ١٦٩ ، ١٩٥
 أمنحوتب الرابع ملك مصر (١٣٨٠ -
 ١٣٦٢ ق. م.) ١٦٨ (انظر إخناتون)
 أمنوب (كتب خطأ أمنحوتب) ١٠٢
 أمون أو أمون زرع إله المصريين الأقدمين
 ٧٧ ، ٩٩ ، ١٥٨ ، ١٦٠ ، ١٦٣ ، ١٦٧

(٨٨٤ - ٨٥٩) ٦ ، ٢٦٧ ، ٢٩٠ ، ٢٩٢ ، ٢٩٤
 آشور نيراري ملك آشور (٧٥٣ -
 ٧٤٦) * ٢٦٦
 آشوري - آشوريون الخ ٧ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ١٨٤ ، ١٨٧ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ٢٠٧ ، ٢٣٤ ، ٢٦٦ ، * ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٨٠ ، ٢٨٣ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٣٠٣ ، ٣٢٦ ، ٣٢٨ ، ٣٣١ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٤٤٩ ، ٤٥٣
 إفرام ٣٤٨ ، ٣٥١ ، ٣٥٢ ، ٣٦٧
 أفرديت أو أفرديتي ٢١٥ ، ٣١٥ ، ٤٣٦
 أفرسياب ٤٣٤
 أفريقية وأفريقي ٤٣ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ٣٠٨ ، ٣١١ ، ٣١٣ ، ٣١٤
 أفغانستان ٩ ، ٩٣ ، ٤٠٩ ، ٤١٠ ، ٤١٣
 أفلاطون ١٠٠
 إفيجينيا ٣١٩
 إقريطش (انظر كريت)
 الأقصر ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٦١ ، ١٢٨ ، ١٨١
 الإقطاع ٢٦ ، ٢٧ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥
 إكيانانا مدينة فارسية مكان هذان الحديثة
 ٤٤٨ ، ٤٣٨ ، ٤٢٠ ، ٤٠٠
 أكبر إمبراطور المفلول (١٥٦٠ - ١٦٠٥
 ب. م.) * ١٦٩ ، ١٩٣
 أكتينوس ٥٤
 أكدي ، أكدي ، أكديون ٥ ، ١٣ ، ١٦ ، ١٨ ، ٢٧ ، ٢٩ ، ٤٢ ، ١٨٨ ، ١٩١ ، ١٩٢ ، ٢٣٧ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٨٥
 أكربلاد ٦٣
 إكزر كس (انظر خيرشا وأخشويرش)

(ب)

بابل ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١٢ ، ١٣ ،
٢٣ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٧٦ ، ١٠٦ ،
١٨٣ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٩٣ ، *
١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٧ ، *
١٩٨ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠٢ ،
٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢١٠ ، ٢١٤ ، ٢٦٤ ،
٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٧٢ ،
٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٢٨٦ ،
٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠٧ ، ٣٠٩ ، ٣١٥ ،
٣١٧ ، ٣٢٤ ، ٣٢٩ ، ٣٣٣ ، ٣٣٥ ،
٣٤٦ ، ٣٥٧ ، ٣٥٨ ، ٣٦٣ ، ٣٦٤ ،
٣٦٨ ، ٤٠٣ ، ٤٠٤ ، ٤٠٦ ، ٤٠٩ ،
٤١٦ ، *٤٢٢ ، ٤٢٣ ، ٤٤٥ ، ٤٥٣ ،
٤٥٨ ، ٤٥٦

بابلون ١٩٥ ، *٢٢٩

بابلي — بابليون — بابليه ١٤ ، *٣٤ ،
٣٦ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ١١٣ ،
١١٨ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ،
١٩٦ ، ٢٠٠ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ،
٢٠٨ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٩ ، ٢٧١ ،
٢٧٦ ، ٢٧٨ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٨٧ ،
٢٩٣ ، ٢٩٩ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٣٥ ،
٣٤٤ ، ٣٤٦ ، ٣٥٦ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ،
٣٦٢ ، ٣٦٤ ، ٣٦٥ ، ٣٦٨ ، ٣٧٢ ،
٣٧٢ ، ٣٨٦ ، ٣٨٨ ، ٣٩٠ ، ٤٠٤ ،
٤١٤ ، ٤٢٢ ، ٤٢٥ ، ٤٢٧ ، *٤٢٩ ،
٤٦٠

باتوس ٣١٥

باتيسي أو الملك الكاهن ٢٦ ، ٢٩ ، ٢١١

البارثون ٣٣٥

بارسبا ١٩٠

بارسوا ٣٩٩

البارسيون ٤٢٦ ، *٤٢٧ ، ٤٣١ ،

٤٣٢

الإمبراطور الروماني الفيلسوف (١٦١) —

٢١ (١٨٠)

أور — نينا ملك لكش (٣١٠٠ ق.م.)
٣٩ ، ٥

أوروك ٢١ ، ٢٣ ، ٢٩

أورو كاجينا ٥ ، ١٧ ، ٣١

أورية الحثي ٣٣١

أوزير إله المصريين ١١٦ ، ١٥٥ ، ١٥٨ ،

١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ،

أوكوس ملك الفرس ٨ ، ٤٥٥ ، (انظر

أرت خستر الثالث)

أونا : الفنان المصري ١٧٦

إلى : إله الحكمة عند السومريين ٣٠ ،

٢١٨

إمبرز (بردية) ١٢٣ ، ١٢٠

إمجه (بحر) ٣٠١

إيران ١١ ، ٢٣٦ ، ٤٠٩ ، ٤١٥ ،

إيراني وإيرانيون ٤١٦ ، *٤٢٤ ، ٤٢٥ ،

٤٢٧

إيرمن المؤرخ الألماني ٥٠

إيريانا فيجو ٤١٠ ، ٤٢٤

إيزابل ٣٥١ *

إيزوب (خرافات) ١٠٢

إيزيس إلهة المصريين ١٢٩ ، ١٥٥ ،

١٤٩ ، ١٦٠ ، ٢١٥

إيطاليا ٣١٣

إيطالي وإيطالية الخ ٢٧ ، ٤٣ ، ٦٧ ،

٧٦ ، ١٨٣ ، ٢٩٢ ، ٣٤٤ ، *٣٤٥ ،

أيليا النبي العبراني (حوالي ٨٩٥ ق.م)

٣٤٥ ، ٣٤٧ ، ٣٤٩

إينانوم ٣٩

أيوب وسفر أيوب ٨ ، ٢٦٥ ، ٢٩٧ ،

٣٦١ ، ٣٨٥ ، ٣٩٠ ، ٣٩١ ، ٣٩٢ ،

٣٩٣

أيونيا وأيونية وأيونيون ٢٤٩ ، ٣٥٦ ،

٤٠٨ ، ٤٠٩ ، ٤٥١ ،

بركليز ٢١ ، ٥١ ، ٥٤
 برلين (المتحف الفن) ١٢١ ، ١٣٢ *
 ١٣٤ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٤٧ ،
 ١٩٨ * ، ٢٩١ ، ٣١٥ *
 البرهية (الشريعة) ٤٣٩
 بروسس ١٤ * ، ٤٢٥
 بريطانيا ٣١١
 بريطاني (المتحف) ٦٢ ، ٨٠ ، ٨٧ ،
 ٩١ ، ١٠٠ ، ١٣٦ ، ١٦٩ * ، ٢٣٩ ،
 ٢٨٦ * ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ * ، ٢٩٢
 باتش ٣٧٣
 بسطة (انظر بوسطة)
 البسفور ٣٣١ ، ٤١٧
 بسكل (أسكر فرديناند العالم الجغرافي .
 الألماني ١٨٢٦ — ١٨٧٥) ٨٦ ،
 ٣٢١
 بسيوس ١٦٣
 البطالة ٨ ، ٤٨ ، ٥٦ ، ٨٨ ، ٩٨ ،
 ٩٩ ، ١٤٢ ، ١٨٤
 بطرس الأكبر امبراطور روسيا (١٦٨٢ —
 ١٧٢٥) ٣٤٨
 بطليموس ٦٢
 بعل إله الفينيقيين ٣١٥ ، ٣٣٩ ، ٣٤٣ * ،
 ٣٥٧ ، ٣٤٦
 بغداد ٤٠ ، ٢٧٩ *
 بك : المثال المصري (حوالى ١٣٧٠ ق . م)
 ١٤٨ ، ١٧٦
 بكتريا ٤٠٩
 يكتوبس (نهر) ٣٠٥
 بل ١٩٠ ، ٢٩٥ ، ٢١٤
 بلاتيه ٤٥٣
 بلخين ٤٦٠
 بل حردك ٢١٤
 بلاوات ٢٨٦ ، ٢٩٤
 بلزوب ٣٤٣

بارمينو ٤٥٩
 باروخ ٣٥٨
 بارميسا ٤٤٢ *
 بازار جاده ٤٢٠ ، ٤٤٧
 باسليوس ٤١٥ *
 بيلوس ٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣١٥
 بتاح أوفتاح إله المصريين ١٦١
 بتاح حوتب ٩٧ ، ١١٤ ، ١٥٠
 بترونيس ٨٠
 البثونين ٣٠
 بجواس ٤٥٦
 البحر الأبيض المتوسط ٤٧ ، ٤٨ * ، ٥٣ ،
 ٥٣ * ، ٦٧ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨٨ ،
 ١٠٤ ، ١٠٨ ، ١٧٥ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ،
 ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٦٦ ، ٢٧٢ ، ٢٧٥ ،
 ٣٠٦ ، ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣١٣ ، ٣١٤ ،
 ٣١٦ ، ٤١٤ ، ٤٥٧
 البحر الأحمر ٤٣ ، ٧٥ ، ٨٧ ، ٨٨ ،
 ١٤١ ، ١٨٢ ، ٣٣٣ ، ٤١٤
 البحر الأسود ٩ ، ١٨٣ ، ٢٠١ ، ٣٠١ ،
 ٣٠٣ ، ٣١١
 بحر إيجة ١٨٣
 بخارى ٤٠٠
 البدارى ٥ ، ٦٣ ، ٦٤
 بربرياش الأول ملك بابل ٦
 بربرياش الثاني ملك كرديةاش ١٩٥ *
 برسبا ٢١٧
 برسيوليس ١٨٧ ، ٤٢٠ ، ٤٢٦ * ،
 ٤٤٥ ، ٤٤٧ * ، ٤٤٨ ، ٤٥٠ ،
 ٤٥٣ ، ٤٥٩ ، ٤٦٠
 برستد (جيمس . ه . عالم الآثار الكبير)
 ١١ * ، ٤٤ ، ٥٩ ، ١١٠ * ، ١٥١ ،
 ١٧٥ ، ٣٥١ * ، ٤٤٧ *
 برفولت (ربرت) ٣٧١ *
 بركييس ٤٠٦
 بركتلنز ١٣٠ ، ٢٩٢

بوليبس المؤرخ اليوناني (حوالي ٢٠٦ —
١٢٨ ق.م) ٤٤٨
بولينزيا ٣٦٨
بومير المهندس المصري ١٤٨
بيلي الثاني ملك مصر (٢٧٣٨ —
٢٦٤٤ ق.م) ٧٤٠٥
بفيا ٢٣١
بيت المقدس ٤٥٨ (انظر أيضاً أورشليم)
بيترى (سيروليم فلندرز عالم الآثار المصرية)
٣١٦، ١٧٨، ١٧٦، ٩٧، ٦٤، ٥٩
٣٢٣، *٣٢٤، *٤٢٣
بير سبع ٣٢١
بيتو ١١٣، ١١٣
بيجنج أو بيكنج أو بيكن ٧٦
بيرن: جورج جوردن نول، البارون
الشاعر الإنجليزي (١٧٨٨ — ١٨٢٤)
٢٨٣، ٢٦٩
بيرو ٣٢١
البيروني ٤٢٠*

(ت)

الثالث عملة ووزن ٢٠٤، ٣٣٣، *٤١٤
تاي — أتول — أنليل
التب ٣٦٨، ٥٢
تي جورا ٢٦٥
تحتوح (شخصية خرافية عند السومريين)
٣١
تحتمس الثالث المصري (حوالي ١٣٧٠ ق.م)
١٤٨، ١٣٦، ١٣٤
تحتمس الأول ملك مصر (١٥٤٥ —
١٥١٤) ١٤٨، ١٢٨، ٧٦، ٦
تحتمس الثاني ملك مصر (١٥١٤ —
١٥٠١) ١١٧، ٧٧، ٧٦، ٦
تحتمس الثالث ملك مصر (١٤٧٩ —
١٤٤٧) ٧٩، ٧٨، ٥٧، ٥٥، ٦
١٣٩، ١٣٥، ١٢٨، ١٢٧، ٨٩

بيلطا — أرتوا ٢٥٦
بلنجا ٣٩٣
بلي الأصفر ١٢٦
بلوتارخ ٤٢٠*، ٤٣٨، ٤٥٩
بلوخستان ٤٠٩
بلوزيم ٢٠٣، *٢٦٨
بلت (إله الآشوريين) ٢٨٤
بلي الأكبر (نيس عيسى مجلس) القائد
الروماني (١٠٦ — ٤٨ ق.م) ٤٧
البيفيلين ٣٠٠
بنت (بونت أو بلاد السومال) ٧٧،
١٤٢، ١٤١، ١٣٩
بنتكست ٣٧٣
البندقية ١٠٤
البنديش ٤٢٦*، ٤٤٣
بندورا ٣٦٩
بنسلفانيا (جامعة) ١٤*
بنيامين ٣٥٦، ٣٧٨، ٣٨٦
بني حسن ١٢٨، ١٤٢
بستون (نقش) ٤٣٨
البهلوية ٤١١
بوهلة السومريين ٣١
بوسطة ٦
بوثنيوس ٣٨٦
بوذا ١٤٩، ٣٦٢
بورسبا ٢٣٦
بوسويه (چاك بنجين أسقف مو الواعظ
الفرنسي ١٦٢٧ — ١٧٠٤) ٣٨٦، ١٥٨
بوسى ٣٦٩
بوعز ٣٧٨
بوغاز كوى ٣٠٢
بولاق (بردية) ٩٧
بولة (أى المملوكة) ٣٧٨
بولس (القديس) استشهد عام ٦٧ ب.م
٣٨٩
بولونيوس ٧٤

توت عنخ أمون ٦ ، ٥٥ ، ٨٠ ، ١٤٤ ،
١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٨٠
التوراة ١٩١ ، ١٩٥ * ٣٢١ ، ٣٣٧ ،
٣٥٢ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٦٢ ، ٣٦٧ ،
٣٨٦ ، ٣٨٨ ، ٣٩١ ، ٣٩٢ * ،
٣٩٥ * ، ٤٢٦
تورين (متحف) ١٣٦ * ، ١٤١
توفة ٣٥٧
تولستوى — الكونت ليو نيقولايتش ،
الكاتب والمصلح الروسى (١٨٢٨ —
١٩١٠) ٣٥٠
قى — أم إخناتون ١٠٢
قيامات ٢١٧ ، ٢٨٧
تيبيريوس إكلوديس نيرو قيصر إمبراطور
رومة (١٤ — ٣٧ م . ب) ٤٤٥
تيمن الأثينى : شخصية فى رواية شيكسبير
بهذا الاسم ١١٣
تين هيوليت (أدلف ١٨٢٨ — ١٨٩٣)
الناقد الفرنسى ١٥٧
تييس ٤٥٩

(ج)

جارستانج (بعثة) ٣٢٣ ، ٣٢٦ *
جاسيرو : موريس ٣٩٠
جالوت ٣٣١
الجبار (كوكبة) ١٥٦
جروتفند : جورج فردريك العالم الألمانى
(١٧٧٥ — ١٨٥٣) ٢٣٦
جريمجورى : البابا جريمجورى الثالث عشر
واسمه الأول أوجو بشكپانى (١٥٧٢ —
١٥٨٥) ١٥٢
الجزيرة (أرض الجزيرة أو ما بين النهرين)
١٣ ، ١٤ ، ٢٤ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٩ ،
١٢٠ ، ١٨٨ ، ١٩٥ * ، ١٩٧ ، ٢٠١ ،
٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٣١٦ ، ٣٢٠ ، ٣٢٢ ،
٣٣٩ ، ٣٦٢ ، ٣٦٨ ، ٤٤٩ ، ٤٥٣

١٦٨ ، ١٧٥ ، ١٩٥ ، ٢٧٢ ، ٣٢٣
٣٢٦ *
تحتس الرابع ملك مصر (١٤٢٠ —
١٤١٢) ٨٠
تحتوت (توت) إله الحكمة عند المصريين
٦٦ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٥٨ ، ١٦٣ ،
٢٨٤ * ، ٣٧١ *
تحتوتو ٣٢٤
تراچان : ماركس البيوس الإمبراطور الرومانى
(٩٨ — ١١٧) ٤٢٣
الأتراك ٣٠٢ * ، ٤٢٠
التركستان ٢٥ ، ٥٢
تركيا ٣٠٢ *
تروبدور ١١٥
تريتشميش ٤٥٥
تشكاجو (جامعة) ٢٨٠ * ، ٤٤٧ *
تشندراجونيا يوريا ملك مجدها (٣٢٢ —
١٩٨ ق . م) ٩٣
تشوسر — چوفرى : الشاعر الإنجليزى
(١٣٢٨ — ١٤٠٠) ١١٨
تفلت فلاصر الأول ملك آشور (١١٥ —
١١٠٢ ق . م) ٦ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ،
٢٩٣ ، ٢٧٢
تفلت فلاصر الثالث ملك آشور (٧٤٥ —
٧٢٧) ٧ ، ٢٦٧ ، ٢٧٢
تفتوت أحد الآلهة المصرية ١٦١
تكوسشت ١٣٧ ، ١٣٨
التكوين (سفر) ١٨٨ * ، ٣٨٥
تل بسطة (انظر بسطة)
تل العمارنة (الواح) ٣٢٣ ، ٣٣٢ *
انظر أيضاً العمارنة
التمود ٣٦٨ ، ٣٧٩
تلو ٣٥
تموز ١٦ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢١ ،
٣١٥ ، ٣٨٨
توت (شهر) ١٦٦

جفرسن : نوبس ، رئيس جمهورية الولايات المتحدة الأمريكية (١٧٤٨ — ١٨٢٦)

٣٣٠

جلجميش ١٦ ، ٣٦ ، ٢١٥ ، ٢٣٩ ،

٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤

جلفاد ٣٣١

جلقر ٣٤١

الجليل ٣٢٣

الجمعية الآسيوية الملكية ٢٣٧

جنيقا ٣٦٠

جهل — منار ٤٤٩ ، ٤٥١

جوته : جوهان وفجانيق ، الشاعر

والفيلسوف الألماني (١٧٤٩ —

١٨٣٢) ٥٤

جوتنجن (جامعة) ٢٣٦

جوديا ٥ ، ٢٠ ، ٢٩ ، ٣١ ، ٣٦ ،

٣٨ ، ٣١٠

جوركي : مكسيم وهو الإسم المستعار

لألوكسي مكسيموفتش بيشكوف الروائي

الروسي المولود عام ١٨٦٨ : ٣٤٠

چوزفين إمبراطورة فرنسا (١٧٦٣ —

١٨١٤) ٢٣١

جيجيس ملك ليديا (حوالي ٦٥٢ ق . م)

٣٠٥ ، ٧

جيجون (نهر) ٤٠٥

الجزيرة : ٦٩

جيمس الأول ملك إنجلترا جلس على عرش

اسكتلنده عام ١٥٦٧ وعلى عرش إنجلترا

عام ١٦٠٣ وفي عام ١٦٢٥ : ٣٥١

(ح)

حارمب ملك مصر (١٣٤٦ — ١٣٢٢ ق . م)

١٨٠ ، ٦

الأحباش انظر الإثيوبيين

الحبشة ٤٤ ، ٢٧٠

حبو (مدينة) ١٢٩

حبو سنب : المهندس المصري ١٤٨

حتحور ٩٤ ، ١٢٨ ، ١٣٩ ، ١٥٦ ، ١٥٨

حتشبسوت ملكة مصر (١٥٠١ — ١٤٧٩)

٥٢ ، ٥٣ ، ٥٧ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٩٦

١٢٩ ، ١٣٥ ، ١٣٩ ، ١٤٨ ، ٣٢٣

* ٣٢٦

الحثية والحثيون الخ ٨٤٤ ، ١٧٨ ، ٢٦٦ ،

٢٦٧ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ ،

٣٠٤ ، ٣٢٤ ، ٣٢٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤١ ، ٣٥٢

حزقيال (حوالي ٥٨٠ ق . م) ٣٣٨ ، *

٣٤٣ ، ٣٥٦ ، ٣٦١

حلقيا (الكاهن) ٣٥٦

حمورابي ملك بابل (٢١٢٣ — ٢٠٨١)

٣ ، ٦ ، ١٧ ، ٢٣ ، ٢٨ ، ٤٢ ،

١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، * ١٩٠ ، ١٩١ ،

١٩٢ ، * ١٩٣ ، ١٩٣ ، * ١٩٤ ، ١٩٦

٢٠٢ ، ٢٠٥ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ،

٢١٠ ، ٢١١ ، ٢٣٢ ، ٢٥٢ ، ٢٧٢ ،

٢٧٦ ، ٣٠٢ ، ٣٠٩ ، ٣٢٤ ، ٣٧١ ،

٣٨٣ ، ٤٤٥

حمورابي — نخوش : ينشي (قناة) ١٩٢

حنانيا ٣٦٠

حواء ٣٦٩

حور المهندس المصري (حوالي ١٤٠٠ ق . م)

١٦٩

حورس ١٥٥ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ،

١٦٠ ، ١٦١

حوربوس ملك القرينيين ٣٠٤

الحويون ٣٤١

حيرام ملك صور (حوالي ٩٥٠ ق . م)

٣١٤ ، ٣١٦ ، ٣٣٢ ، ٣٣٣

حيفا ٣٢٣

(خ)

الخيرو ٣٢٣

خراساباد ٢٩٠ ، ٢٩٢ ، ٢٩٤

دانتى الشاعر الإيطالى ١١٨ ، ١١١
 الدانوب (نهر) ٤٠٧
 دانيال ١٩٦ ، ٣٨٦ ، ٣٩٣ ، ٣٩٤ ، ٤٠١
 داود ملك اليهود (١٠١٠ — ٩٧٤)
 ٦ ، ٣٢٨ ، ٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٣٤٠ ، ٣٤٣ ، ٣٥٠ ، ٣٧٣ ، ٣٨٥ ، ٣٨٦ ، ٣٩٤*
 دبوراه إحدى نبيات بنى إسرائيل (القرن الثالث عشر قبل الميلاد) ٣٨٦ ، ٣٧٥
 دجلة (نهر) ١١ ، ١٣ ، ١٤ ، ٢٣ ، ٤٥ ، ١٨٨ ، ١٩٢ ، ٢٦٥ ، ٢٠١ ، ٣٢١
 درنلو ١٩٠
 الدردنيل ٣٠١ ، ٤١٣ ، ٤٥٧
 دكتا (جبل فى كريت) ٣٧١*
 دليلة ٣٨٦
 دمتري ١٦٠ ، ٢١٥ ، ٢١٨
 دمشق ٧ ، ٢٦٧ ، ٣١٧ ، ٣٢٩
 ٣٤٦ ، ٣٥١ ، ٣٨٠
 دنجر داجو ١٨
 دنجى ٢١ ، ٢٧
 دندره ١٠٨
 الدنكرد ٤٢٦*
 دهاق ٤٣٤
 ده سرزك ٣٥
 ده سرچان : جاك — عالم الآثار الفرنسى (١٨٥٧ — ١٩٢٤) ١١* ، ١٩ ، ٦٤
 دور — شروكين ٢٩٤
 الدوربون ٥٧ ، ١٢٩ ، ١٨٣ ، ١٩٣*
 الدوير ٣٢٣*
 الدبر البحرى ٧٨ ، ١٢٩ ، ١٣٦ ، ١٣٩ ، ١٤٨
 ديموطية ٦٣ ، ١١٠
 ديون (الأرواح الخبيثة عند الفرس) ٤٢٩
 ديودور الصقلى المؤرخ اليونانى (القرن

الحرد — أبستاق ٤٢٧*
 الحروطوش ٦٣
 الخروج (سفر) ٣٨٦
 الحزر (بحر) ٣٩٩
 خشترا (المحارب) ٤١٥
 خشيرشاى الأول ملك الفرس (٤٨٥ — ٤٦٤ ق.م) ٨ ، ١٩٣* ، ٢٣٦ ، ٣١٤ ، ٤١٧ ، ٤٢٠* ، ٤٣٩ ، ٤٤٧ ، ٤٤٩ ، ٤٥٤ ، ٤٥٥ ، ٤٥٨ ، ٤٥٩
 خشيارشاى الثانى ٤٥٥ ، ٤٥٧
 خفرع ٥ ، ٦٦ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٣ ، ١٣٠ ، ١٣٢
 خفرن (انظر خفرع)
 خلده ٣٧٥
 خنوم ١٢٩
 خنوب ١٢٨ ، ١٤٢ ، ١٤٣
 خوفو ملك مصر (٣٠٩٨ — ٣٠٧٥ ق.م) ٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٢
 (د)
 دار الأول ملك الفرس (٥٢١ — ٤٨٥ ق.م) ٨ ، ٢٣٦ ، ٣٠٩ ، ٣٦٥ ، ٤٠٣ ، ٤٠٦ ، ٤٠٧ ، ٤٠٨ ، ٤١٠ ، ٤١٣ ، ٤١٦ ، ٤٢١ ، ٤٢٣ ، ٤٢٥ ، ٤٣٥ ، ٤٣٨ ، ٤٤٥ ، ٤٤٧ ، ٤٤٨ ، ٤٥٤
 دارا الثانى ملك الفرس : او كوس : (٤٢٣ — ٤٠٤) ٨ ، ٤٥٤ ، ٤٥٥ ، ٤٥٦
 دارا الثالث ، أو كودومانوس ملك الفرس ٣٣٨ — ٣٣٠ ق.م) ٨ ، ٤٢٢ ، ٤٥٦
 دار مستتر : جيمس الناقد الفرنسى (١٨٤٩ — ١٨٩٤) ٤٢٨*
 دال النيل ٤٨ ، ٥٣
 دان ٣٢١

رمسيس الرابع ملك مصر (١١٧٢ —

١١٦٦) ١١٦

الرمسيوم ١٠٥ ، ١٢٩ ، ١٨١

رنوفر ١٠٣ ، ١٣٢

الرواقية والرواقيون ١٥٤

رودس ٣١٣

الروسيا ٩ ، ٤٠٧ ، ٤٠٩

رولنسن سير هنرى جرسوك المستشرق

الإنجليزى (١٨١٠ — ١٨٩٥) * ١٤

٢٣٦ ، ٢٣٧

الرومان والرومانية ٨ ، ١٠ ، * ١٤

٤٥ ، ٥٣ ، ٦١ ، ٧٦ ، ٨٧ ، ٩٩

١٠١ ، ١٠٤ ، ١١٨ ، ١٢٥ ، ١٢٩

١٥٦ ، ١٨٦ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٧١

٢٧٣ ، ٢٧٨ ، ٢٨١ ، ٣٠٥ ، ٣٢٦

٣٨٦ ، ٤٠٤ ، ٤٠٧ ، ٤٢١ ، ٤٢٢

٤٢٣

رومه ١٢ ، ٥٣ ، ٨١ ، ١٠٩ ، ١٦٠

١٨٤ ، ١٨٧ ، ٢٠١ ، ٢٣٣ ، ٢٦٤

٢٧٦ ، ٣١٤ ، ٣٤٨ ، ٤٢١ ، ٤٥٤

رى (انظر ر ع)

ريعى — يتاح ، الموسيقى المصرى ١٤٦

ريناخ ٣٧٠

رينات — جوزف إيرنست العالم الفرنسى

(١٨٢٣ — ١٨٩٢) ٣٢٩ ، ٣٧٠

* ٣٩٢

(ز)

زاپونا ٣١٧

زجروس (جبال) ١٩

زجورات برسيا (مهاجل الأفلاك السبعة)

٢٤٧

زرّ بابل ٣٦٥

زرتسترا (انظر زردشت)

زردشت وزردشتى الخ ٧ ، * ٣٧١

(٣٢ — قصة الحضارة ج ٢)

الأول قبل الميلاد) * ٥٢ ، ٦٦ ، ٨٥

* ٨٦ ، ٩٦ ، ٩٨ ، ١٢٦ ، ١٩٧

٢٦٧ ، ٢٧١ ، ٢٩٧ ، * ٣٧١

ديوسيز ملك الميديين (٧٠٩ ق . م) ٧

٤٠٠

ديونيسس * ٣٧١

(ر)

راحيل زوج يعقوب ٢٧٥ ، ٣٧٨

٣٧٩ ، ٣٨٦

رأس الرجاء الصالح ٣١٣

راسام ٢٩٤

راعوث ٣٤٣ ، ٣٧٨ ، ٣٨٦

رامان ٢٩٥

ربرتسن اسمث (وليم) المستشرق الإسكتلندى

(١٨٤٦ — ١٨٩٤) ٣٧٠

ربنسن كروزو ١١٠

الرج قدا ٤٢٧

رهبستنس ٦٩

رسكن (جون) الناقد الإنجليزى (١٨١٩

١٩٠٠) ١٣٦

رسن — هاشناه ٣٧٣

رشيد (حجر) ٦١ ، ٦٢ ، ٢٣٦

رع إله المصريين ١١٣ ، ١٥٦ ، ١٥٧

١٥٨ ، ١٦٠ ، ١٦١

رع حوتب ٧١ ، ١٣٢

رفقة زوج لمسحق ٣٧٩ ، ٣٨٦

ركسانا أخت قبير ٤٠٦

رمسيس الثانى ملك مصر (٨٠٠ — ١٢٣٣

ق . م) ٦ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ١١٦ ، ١٢٧

١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٩

١٤٠ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ٣٠٢

٣٣٣

رمسيس الثالث ملك مصر (١٢٠٤ —

١١٧٢) ٦ ، ٨٦ ، ١٨٢

سبيل أو قيبيل ١٦٠
ست إلهة المصريين ١١٦ ، ١٥٩
سترب وسترية ٤٢١
سترنكاخارا ٤٣٨
ستموت المهندس المصري ١٤٨
ستوريس المؤلف اللاتيني ١٢٢
سجديانوس ٤٥٥
سدوم : مدينة ٣٤٢ ، ٣٧٨
سراية الخادم ٣١٦
سرارا ٢٩٥
سرجوت الأول ملك أكد وسومر
(٢٧٧٢ — ٢٨١٧ ق.م.) ٥ ،
١٣ ، ١٤ ، ١٦ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٣٧
٣١٩
سرجون الثاني ملك آشور (٧٢٢ —
٧٠٥ ق.م.) ٧ ، ٢٦٦ * ، ٢٦٨ ،
٢٧٥ ، ٢٨٧ ، ٢٩٤
سردانية أو سردينية ٣١٣
سردنابالس (أنظر آشور بانيبال) ٢٦٤
٢٨٦
سرديس ٨ ، ١٨٧ ، ٢٠٣ ، ٣٠٥ ،
٣٠٧ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠ ، ٤٠٣ ،
٤١٣ ، ٤٠٤
سسترانس ٤٧
سقارة وهرمها ١٣٩
سقراط الفيلسوف اليوناني (٤٦٩ —
٣٩٩) ٣٩٩ ، ٣٩٠ ، ٤٠٣
سكوت ٣٧٣
السكوديون ٢٧٧ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ،
٣٠٣ ، ٤٠٧
سلاميس (معركة) ٨ ، ٤٥٤ ، ٤٥٥ ،
٤٥٧
سلمانصر الأول ملك آشور (١٢٦٧ ق.م.)
٦ ، ٢٦٦
سلمانصر الثالث ملك آشور (٨٥٩ —
٨١٤ ق.م.) ٦ ، ٢٦٧

٤٠١ ، ٤٠٦ ، ٤١٠ ، ٤٢٤ ، ٤٢٥ ،
٤٢٦ ، ٤٢٦ * ، ٤٢٧ * ، ٤٢٨ ،
٤٢٩ ، ٤٣٠ ، ٤٣١ ، ٤٣٢ ، ٤٣٣ ،
٤٣٥ ، ٤٣٦ ، ٤٣٧ ، ٤٣٩ ، ٤٤١ ،
زكريا ٣١٤
زند ٤٢٦ *
الزند — أبستاق ٣٩٩ ، ٤١١ ، ٤١٢ ،
٤٢٦
زنوفون ٢٩٩ ، ٤٠٣
زوسر ملك مصر حوالي (٣١٥٠ ق.م.)
٦٧ ، ١٣٠ ، ١٣٩ ، ١٤٧
زيوس ٣٠٤ *

(س)

ساحو إله المصريين ١٥٦
سارة زوج إبراهيم ٣٧٥ ، ٣٧٩
سارتن : جورج ٣٧٠ ، ٣٩٤ *
الساسانيون ٤٣٧
ساشيا ٤٠٦
ساكي ٤٥٠
السامرة السامراء ٧ ، ٤٢ ، ٣٦٨ ،
٣١٩ ، ٣٤٨ ، ٣٥١ ، ٣٥٢ ،
٣٦١ ، ٣٦٨
الساموراي ٩٢
السامي والساميون إلى ١٤ * ، ١٥ ، ١٧ ،
١٨ ، ٢٣ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٤٤ ،
٦٥ ، ١٠٧ ، ١٠٩ ، ٢٦٥ ، ٣٠٨ ،
٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣١٧ ، ٣٢٤ ،
٣٣٨ ، ٣٤٥ ، ٣٤٩ ، ٣٦٣ ، ٣٦٨ ،
٣٦٨ ، ٣٧١ ، ٤٠٣
ساو (سايس) والملوك الساويون ٧ ، ٥٠ ،
٧٣ * ، ١١٨ ، ١٣٧ ، ١٨٤
سبأ ٣٣٣
سبرلا ١٣
سيك إله انصرين ١٥٨
سبيتو ٢٤٣

٤٠٨ ، ٣٥٧ ، ٣٥٢ ، ٣٥١ ، ٣٢٣
 السوربون ٧٩ ، ٨٨ ، ١٨٦ ، ٢٦٧ ،
 ٢٦٩ ، ٣٢١ ، ٤٦٠
 سوزانا ٤٠٦
 السوس ٥ ، ٧ ، ١١ ، ١٢ ، ١٥ ،
 ١٩ ، ١٩٠ ، ٢٧٠ ، ٢٩٩ ، ٤١٣ ،
 ٤٢٠ ، ٤٥١ ، ٤٥٢ ، ٤٥٩
 سومر ٥ ، ٦ ، ٩ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ ،
 ١٤ ، ١٤* ، ١٨ ، ٢٢ ، ٢٤ ، ٢٥ ،
 ٢٨ ، ٣٦ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ،
 ١٨٨ ، ١٩١ ، ١٩٢ ، ٢٣٧ ، ٢٦٤ ،
 ٢٦٦ ، ٢٧٢ ، ٢٧٥ ، ٣٢٤
 سومرى — سومريون — سومرية ١٣ ،
 ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٨ ، ٢٠ ، ٢١ ،
 ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٧ ، ٢٨ ،
 ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ،
 ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٨* ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤٢ ،
 ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٦٥ ، ١٥٧ ،
 ١٨٨ ، ١٩١ ، ١٩٤ ، ٢٠٠ ، ٢١٤ ،
 ٢٧١ ، ٢٨٥ ، ٣٠٢ ، ٣١٩ ، ٣٦٨
 سونبيرن : الجرنون تشارلس : الشاعر
 الانجليزى (١٨٣٧ — ١٩٠٩) ١٥٢
 السويس ١٨١ ، ١٨٤
 سياخار ملك المبدئين (٦٤٠ — ٥٨٤ ق.م.)
 ٧ ، ١٩٩ ، ٢٩٩ ، ٤٠٠ ، ٤٠١ ،
 (أنظر أيضا سياكارس)
 سيبو إله المصريين ١٥٦
 سيني الأول ملك مصر (١٣٢١ —
 ١٣٠٠ ق.م.) ٦ ، ٥٤ ، ١٢٩ ،
 ١٣٩
 سيني الثانى ملك مصر (١٢١٤ —
 ١٢١٠ ق.م.) ٦ ، ١٢٨
 سيديت من آلهة المصريين ١٥٦
 سيرل ١٨٤
 سيريز ١٦٠
 سيزوستريس : أنظر سنوسريت

سليمان ملك اليهود (٩٧٤ — ٩٣٧ ق.م.)
 ٦ ، ١٠٠ ، ٢٩٣ ، ٣١٤ ، ٣٢٨ ،
 ٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٣٣٦ ،
 ٣٣٨ ، ٣٣٨* ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ،
 ٣٨٥ ، ٣٨٧ ، ٣٨٩ ، ٣٩٤ ، ٣٩٦ ،
 سمرديس ٤٠٥ ، ٤٠٦ ، ٤١٦
 سمرقند ٤٠٠
 سمورات ٢٦٧
 سميراميس ملكة آشور (٨١١ —
 ٨٠٨ ق.م.) ٢٦٧
 سن ٢٩ ، ٢١٥ ، ٢٩٥
 سنحريب ملك آشور (٧٠٥ — ٦٨١ ق.م.)
 ٧ ، ١٩٥ ، ٢٦٤ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ،
 ٢٧٧ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨٠* ،
 ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٣٠٦* ،
 ٣٥٢
 السند ٤٠٧ ، ٤٠٩
 السندباد البحرى ٢١١
 سندرلا ١١٢
 السنسكرىتيه (اللغة) ٤١١
 سنكر ١٤ ، ٥
 سنوحى ٩٤ ، ١١٠ ، ١١١
 سنوسريت الأول ملك مصر (٢١٩٢ —
 ٢١٥٧ ق.م.) ٦ ، ٧٥ ، ١٣٥
 سنوسريت الثانى ملك مصر (٢٥١١ —
 ٢٠٩٩ ق.م.) ١١٧
 سنوسريت الثالث ملك مصر (٢٠٩٩ —
 ٢٠٦١ ق.م.) ٦ ، ٧٥ ، ٨٧ ،
 ١٣٤
 سنى چنج ٣٦٩
 سوتى المهندس المصرى ١٦٩
 سوتيس (الشعرى) ١٢١
 سوريا ٦ ، ٧٦ ، ٧٨ ، ٨٠ ، ١٣٦ ،
 ١٤٤ ، ١٧٢ ، ١٨٣ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ،
 ٢٣٠ ، ٢٦٧ ، ٢٧٠ ، ٢٧٢ ، ٣٠١ ،
 ٣٠٨ ، ٣١١ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣١٩

سيمديانا ٤٠٩

سيناء : أنظر طور سيناء ٣٢٦

(ش)

شارف ١٢٢

شارلمان ٧٤

شارون ١٦٣ ، ٣٨٨

الشافل عملة بابلية ٢٠٩ ، ٢٠٤

الشاه ٤١٥ *

شاؤل ملك اليهود (١٠٢٥ — ١٠١٠)

٦ ، ٣٢٨ ، ٣٣١ ، ٣٤٠ ، ٣٧٣ ، ٣٨٥

شبتو (السبت) ٣٧٣

شباؤوت ٣٧٣

شرباخ (شهر) ١٦٦

شرجال إله الآشوريين ٢٨٥ *

شرغات : قلعة : ٢٦٥

الشرق الأدنى ٢٧٢ ، ٢٧٧ ، ٢٩٤ ، ٢٩٩

٣٠٨ ، ٣٠٥ ، ٣٠١ ، ٣٠٠ ، ٣١٣

٣٦٢ ، ٣٢٨ ، ٣٢٠ ، ٣١٦ ، ٣٦٨

٣٨٥ ، ٣٨١ ، ٣٨٠ ، ٣٧٩ ، ٣٦٨

٤٠٢ ، ٤٠٤ ، ٤١٠ ، ٤١٣ ، ٤٥٣

الشرق الأقصى ٣٠٩ ، ٣١١

الشرق الأوسط ٣٢٨

الشعري ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٥٦

شلمانصر : أنظر سلمانصر

شميليون : جان فرنسوا عالم الآثار الفرنسي

(١٧٩٠ — ١٨٣٢) ٥٧ ، ٦١ ، ٦٢

٢٣٦ ، ٦٣ ، ٦٢

شمسي أداد السابع ملك آشور (٨٢٤ —

٨١١ ق.م) ٦ ، ٢٩٠

شمش (إله الشمس عند البابليين) ٢١

٢٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ٢١٤ ، ٢٣١ ، ٢٣٩

٢٧٥ ، ٢٩٥ ، ٣٤٣ ، ٣٧١ *

شمشترين ٢٣٢

شمش — شم — أركن ، أخو آشور بانيبال

٢٧٦

شمش — نبشتيم ، ٢١٨ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٣٦٩

شمشون ٢٣٩ ، ٣٣١ ، ٣٨٦

شمعي بن حيرا ٣٣١

شنعار ٣٢٤

شو إله المصريين ١٦١

شوب — آد ملكة السومريين (حوالى

٣٥٠٠ ق.م) ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٨

شوبنهور ، آرثر ، الفيلسوف الألماني

١٧٨٨ — ١٨٦٠) ١٥١

شوشان ١١ ، ١٢

شومر — انظر سومر

شوينفرت ٤٣ ، ٤٤ *

شيشنق الأول ملك مصر (٩٤٧ — ٩٢٥)

٦ ، ٣٤٩

شيشنق الثاني ملك مصر (٨٥٠ — ٨٢٥) ٧

شيشنق الثالث ملك مصر (٨٢١ — ٧٦٩

ق.م) ٧

شيشنق الرابع ملك مصر (٧٦٣ — ٧٢٥) ٧

شيكسبير ، وليم ، الشاعر الإنجليزي

المعروف (١٥٦٤ — ١٦١٦) ١١٣ ، ١٢٨

٣٨٦ ، ١٢٨

شيلوه ٣٧٨

شيول (أرض الظلام عند بني إسرائيل)

٣٤٥

(ص)

صا الحجر — انظر ساو

صدقيا ملك يهوذا (٥٩٧ — ٥٨٦)

٣٥٧ ، ٣٦٠

صفد ٤٦٠

صقلية ٣١٣

الصليبيون ١٧

صمويل أحد القضاة العبرانيين (حوالى

١٠٢٥ ق.م) ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٨٥

٣٨١ ، ٣٨٧ ، ٣٨٨ ، ٣٩٠ ،

٣٩٠* ، ٤٣٠

العذراء ٢١٥

العذراء الأم ٢١٥

العذراء المقدسة ٢١٥

العراة ٧٥ ، ١٢٩ ، ١٣٩

العراق ١١

العرب ٤٣ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٨٤ ، ١٠٢ ،

١١٨ ، ١٨٥ ، ١٨٧ ، ٢٠٣ ،

٢٩٥ ، ٣٠٨ ، ٣٢٠ ، ٣٣٣ ،

٤٢٦*

العربية : اللغة : ٢٨٣*

عزرا ٨ ، ٣٦٦ ، ٣٦٨ ، ٣٧٠

عسر هدون ملك أشور (٦٨١ —

٦٦٩ ق.م) ٧ ، ١٩٥ ، ٢٦٤ ، ٢٦٩ ،

٢٨٧ ، ٢٩١ ، ٢٩٤

عشتروت أو عشتورت ٢١٥ ، ٣٠٨ ،

٣١٨ ، ٣٤٤ ، ٣٤٦ ، ٣٥٧

عصر البرنز ٣٢٣

العصر الحجري ٣٢٣

المصور الوسطى ٢٨٠

عطارد ١١٩* ، ٢٨٤*

عكا ٧٩

عكرون ٣٤٣

العمار ٢١٧

العمارة — رسائل تل ، ٦ ، ١٣٦ ،

١٦٨ ، ١٧٦ ، ١٧٨ ، ١٨٧ ،

١٩٥

عمانويل ٣٥٤

عمورة والعموريون ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤٢ ،

٣٧٨ ، ٣١٩

عمون ٣٤٣

العمونيين ٣٠٠ ، ٣٢١

العهد القديم ٧ ، ٤٢٧

عيسى ٣٥٥

عيلام والعيلاميون ٥ ، ٦ ، ٧ ، ١١ ،

صهيون ٣٥٠ ، ٣٥٨ ، ٣٦٠ ، ٣٧٦

صور ٢٠٣ ، ٣٠٨ ، ٣١٠ ، ٣١١ ،

٣١٤ ، ٣١٦ ، ٣٢٩ ، ٣٣٢ ، ٣٣٦ ،

٣٥١ ، ٣٦١ ، ٣٨٠ ، ٤٥٩

صوفر ٣٩١

سولون أو سولون — المشرع الأثيني

(٦٤٠ — ٥٥٨ ق.م) ٣٠٠ ،

٣٠٧

ضيدا ٢٠٣ ، ٣٠٨ ، ٣١٤ ، ٣٣٢ ،

٣٨٠ ، ٣٣٦

الصين ١٤٤ ، ٣٤٤*

الصينية والصينيون ٩٢ ، ١٤٩ ، ٣٦٩

٤٣٩

(ط)

طارق (مضيق جبل طارق) انظر هرقول

٣١٣

طاهرقا ملك مصر (٦٨٩ — ٦٦٢ ق.م) ٧

طرواده ١٨٣

طور سيناء ٥٢ ، ١٠٩

الطوطم ١٥٥ ، ٣٧٣ ، ٣٧٤*

الطوطمية ٣٧٠

طيبة ٧ ، ٥٣ ، ٧٤ ، ٨٠ ، ٨٩ ، ٩٢

١٤٤ ، ١٤٦ ، ١٧٦ ، ١٨٠ ،

١٨٦ ، ٣٤٦

(ع)

عاموس ٣٢٦ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩ ، ٣٥٠ ،

٣٥١ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤ ،

٣٥٥ ، ٤٢٥

العبري والعبراني الخ ١٦ ، ١١٣ ، ١٥٢ ،

١٧٥ ، ١٩٨ ، ٣٠٣ ، ٣٢٣ ،

٣٢٣* ، ٣٢٤ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ،

٣٣٣ ، ٣٣٥ ، ٣٤٣ ، ٣٤٦ ،

٣٤٩ ، ٣٥٢ ، ٣٥٩ ، ٣٧١ ،

٣٧٢ ، ٣٧٤ ، ٣٧٨ ، ٣٨٠ ،

١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠٣ ، ٢٠٨ ، ٣٠١ ،
٣٢١ ، ٤٥٨ ، ٤٥٩

فرافارتش ٤٣٨

فرجسون (جيمس) مهندس اسكتلندي
ومؤرخ فن العمارة (١٨١٨ —
١٨٨٦) * ٤٤٩

فردرك الثاني الأكبر ملك بروسيا (١٧١٢ —
١٧٨٦) ٢٧١

الفرس ٨ ، ٢٣ ، ١٢٤ ، ١٣٨ ، ١٨٤ ،
٢٠١ ، ٢٣٤ ، ٢٧٢ ، ٢٧٦ ، ٢٨٧ ،
٢٩٣ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠٣ ، ٣٠٦ ،
٣٠٧ ، ٣٤٥ ، ٣٦٤ ، ٣٦٥ ، ٣٦٦ ،
٣٦٨ ، ٣٩٧ ، ٣٩٩ ، ٤٠١ ،
٤٠٣ ، ٤٠٩ ، ٤١٠ ، ٤١١ ، ٤١٢ ،
٤١٥ ، ٤١٦ ، ٤١٧ ، ٤١٨ ، ٤٢٢ ،
٤٢٥ ، ٤٢٦ ، ٤٢٩ ، ٤٣٥ ، ٤٣٢ ،
٤٣٦ ، ٤٣٧ ، ٤٣٨ ، ٤٣٩ ، ٤٤٠ ،
٤٤١ ، ٤٤٢ ، ٤٤٤ ، ٤٤٥ ، ٤٤٦ ،
٤٤٧ ، ٤٤٨ ، ٤٤٩ ، ٤٥٣ ، ٤٥٤ ،
٤٥٥ ، ٤٥٦ ، ٤٥٧ ، ٤٥٨ ، ٤٦٠

فرعون وفراعنة ٨٢ ، ٢٠٣

فرنسا وفرنسيون ١١ ، ١٤ ، * ٤٣ ،
٥٠ ، ٦١ ، ٣١٧

قرونا ٣٠١

فريجيا والفريجيون ٢٣٠ ، ٣٠٠ ،
٣٠٢ ، * ٣٠٤ ، ٣٠٤ ، * ٣٠٥ ،
٣١٨ ، ٤٠٩

فريزر — سير جيمس جورج ، * ٣٧٠
فكتوري (العصر الفكتوري في إنجلترا ،
١٠٣

قلدير (فرانسوا ماري أرويه ده) الكاتب
الفرنسي (١٦٩٤ — ١٧٧٨) ٣٩٦

القلجاء — نهر — ٤٠٧

فلجيس الخامس ملك بارثيا (٢٠٩ —
٢٢٢ ق . م) * ٤٦٥

١٢ ، ١٩ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٦ ، ٤٠ ،
١٩٠ ، ٢٤١ ، ٢٦٤ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ،
٢٧٠ ، ٢٧٢ ، ٢٩٥ ، ٤٢٠

عين جدي ٣٨٨

عين شمس ٧٥ ، ٩٢ ، ١٦٣

(غ)

الغالليون ٧٦

غرانيقوس — نهر ومعركة ٨ ، ٤٣٩ ،
٤٥٧

غزة ٨٨

(ف)

فارس ١٢ ، ١٨٣ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، *
٢٣٥ ، ٣٠١ ، ٣٠٧ ، ٣٢١ ، ٣٩٩ ،
٤٠٠ ، ٤٠١ ، ٤٠٢ ، ٤٠٣ ، ٤٠٤ ،
٤٠٥ ، ٤٠٦ ، ٤٠٨ ، ٤١٣ ، ٤١٤ ،
٤١٥ ، ٤٣٢ ، ٤٥٤ ، ٤٥٦ ، ٤٥٧ ،
٤٦٠

فارستان ٤٠٩

فارسي ٨ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٩ ،
٢٤ ، ٥٠ ، ١٩٦ ، ٢٠٣ ، ٢٦٨ ،
٣٦٨ ، ٤٠٢ ، ٤٠٤ ، ٤٠٥ ، ٤٠٧ ،
٤٠٩ ، ٤١٠ ، ٤٢٣ ، ٤٢٤ ، ٤٢٦ ،
٤٢٧ ، ٤٢٩ ، ٤٣٠ ، ٤٣٣ ، ٤٣٤ ،
٤٣٥ ، ٤٣٦ ، ٤٣٧ ، ٤٣٩ ، ٤٤٠ ،
٤٤٥ ، ٤٤٧ ، ٤٤٨ ، ٤٤٩ ، ٤٥٣ ،
٤٥٧ ، ٤٦٠

فاروس — جزيرة ، ٤٧

فاسكودا ماچاما ٣١٣

فتاح — انظر فتاح

القدا — الهنود ، والعصر القدي في الهند
٣٠١ ، * ٤٢٥

الفرات — نهر ، ١٣ ، ١٥ ، ١٦ ،
٢١ ، ٢٣ ، ٤٥ ، ٧٩ ، ٨٨ ، ١٨٧ ،
١٨٨ ، * ١٨٨ ، ١٩٣ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ،

قرقيش ٧٦ ، ١٩٦ ، ٢٠٣ ، ٣٠٣ ، ٣٠٨

القرنة ١٣

القرينة : انظر الكا

قزوين ٣٠١ *

قشتيا ٤٢٥ ، ٤٢٥ * ، ٤٢٦ *

القضاة : سفر : ٣٨٣ ، ٣٧٥

الفقاس : ١٤ ، ٢٦٦ ، ٢٦٨ ، ٢٩٩ ، ٤٠٩ ، ٣٠١

قبيز ملك الفرس (٥٢٩ — ٥٢٢ ق.م)

٨ ، ١٨٤ ، ٤٠٣ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦ ، ٤١٩

قنسطنطين

قورسقه ٣١٣

قورش الأول ملك الميدين والفرس

(٥٥٥ — ٥٢٩ ق.م) ٨ ، ١٧ ، ٤١٩

١٢٤ ، ٢٠٣ ، ٣٠٣ ، ٣٠٠ ، ٣٠٣ ، ٣٠٧

٣٦٤ ، ٣٦٣ ، ٣٦٢ ، ٣٠٧ ، ٣٦٥

٤١٢ ، ٤٠٣ ، ٤٠٢ ، ٤١٦ ، ٤٥٤

٤٤٧ ، ٤٤٥ ، ٤٤٤

قورش الأصغر الأمير الفارسي (٤٢٤ —

٤٠١ ق.م) ٨ ، ٤٢٠ * ، ٤٥٤ ، ٤٥٥

قويونچك : بلدة : ٢٦٥

قبيل أو سييل : إلهة الفريجين ٣٠٥ ، ٣١٨

قيصر : كيس يوليوس : القائد والحاكم

والمؤرخ الروماني (١٠٠ — ٤٤ ق.م)

٤٧ ، ٥١ ، ١٢١ ، ١٨٤ ، ٢٣٢ ، ٣٣١ ، ٢٧٥

٣٣١ ، ٢٧٥

قيليقية ٤٠٩

القيليقين ٣٠٠

الكا (القرينة) ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ١٦٢

فلسطين ٥ ، ٦ ، ٤٧ ، ٧٥ ، ١٠٩ ، ١٨١

١٨٤ ، ١٩٦ ، ٢٠٣ ، ٢٣٥ ، ٢٧٢

٣٢٣ ، ٣٢٢ ، ٣٢١ ، ٣٢٠ ، ٣٢٤

٣٥١ ، ٣٤٨ ، ٣٣٤ ، ٣٣٢ ، ٣٢٤

٣٥٧ ، ٣٦٥ ، ٣٧٥ ، ٤٠٩ ، ٤٢٣ ، ٤٣٥

٤٣٥

الفلسطينيون ٢٦٨ ، ٣١٩ ، ٣٣٠

فلوتارخ أو بلوتارخ المؤرخ اليوناني (٤٦ ؟

— ١٠٢ ب.م) ١٥٨

فور — إلى ، ١٨٦

القيد ٤٢٧

فيلو (جوديوس) : الفيلسوف اليوناني

اليهودي (٢٠ ق.م — ٥٠ ب.م)

٤٢٨ *

فينوس (الزهرة) ٢١٨ ، ٢١٥

فينيقية (فونيقية) ٦ ، ٨٩ ، ١٠٨ ، ١٨٣

٣٠٩ ، ٢٧٢ ، ٢٦٤ ، ٢٣٠ ، ٣١١

٣١٤ ، ٣٣٣ ، ٣٣٦ ، ٤٢٣ ، ٤٢٣

الفينيقية والفينيقيون الخ ١٨٣ ، ١٨٦ ، ٣٠٨

٣١٤ ، ٣١٣ ، ٣١٢ ، ٣١٠ ، ٣٠٨

٣٢٩ ، ٣٢٠ ، ٣١٨ ، ٣١٦ ، ٣١٥

٣٣٢ ، ٣٣٥ ، ٤٠٥ ، ٤١١

غيوبس ١٣٢

القيوم ٨٧

(ق)

قادش — بلدة ومعركة — ١٨١

القاهرة ٤٩ ، ٥٠ ، ٥٢ ، ٥٣ * ، ٦٤ ، ٦٩

٧٥ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ * ، ١٨٤

١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٤٥ ، ١٨٤

قبادوش وقبادوشين : ٤٠٩ ، ٤٦٠

قبرص ٨٩ ، ٢٣١ ، ٢٦٨ ، ٣٠٠ ، ٣١٥

٣١٣ ، ٣١١

قرطاج ١٨٣ ، ٣١٣ ، ٣١٥ ، ٣٥٧ ، ٤٠٥

٤٠٥

(ك)

كابار : ٥٩
 كابول (مدينة) ٢٠٣
 الكاثوليك ١٠٤
 كارتير : هوارد : عالم الآثار الإنجليزي
 (١٨٧٣) ٥٩
 كارليل : تومس ، الكاتب والمؤرخ
 والفيلسوف الإنجليزي (١٧٩٥ —
 ١٨٨١) * ٣٩٠
 كاري ٤٤٢ *
 الكاشيون ٦ ، ٧٦ ، ١٨٧ ، ١٩٤ ،
 ١٩٥ ، ٢٠٢ ، ٢٣٤ ، ٢٥٠ ، ٢٦٦
 كالي ١٦٠
 كانت : إيمانول ، الفيلسوف الألماني
 (١٧٢٤ — ١٨٠٤) ٢٩٤
 كاهون (بردية) ١٢٥
 كبادوشين انظر قبادوشين
 كتاب الموتى ١٦٣
 كث إله المصريين ١٦١
 كحلة ٣٩٤ *
 الكردي ٢٦٦
 كردستان ٣٩٩
 كرديناش ١٩٥ *
 كرسفردوش . انظر دوش
 الكرنك ٥٢ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ ،
 ٥٩ ، ٦٠ ، ٦٠ * ، ٦١ ، ٦٤ ،
 ٧٥ ، ٧٧ ، ٨٠ ، ١٢٨ ، ١٣٩ ،
 ١٤٤ ، ١٦٨ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ٤٤٩
 كروسس (فارون ؟) ملك ليديا
 (٥٧٠ — ٥٤٦ ق.م) ٧ ، ٣٠٠
 ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٤٠٤ ، ٤٠٦ ،
 كريت ٥ ، ٩ ، ٥٤ ، ١٨٣ ، ١٨٦ ،
 ١٨٧
 الكريتية والكريتيون ٨٩ ، ٢٦٤ ،
 ٣٠٠ ، ٣٠٢ ، ٣١٠ ، ٣١٣

كش ٥ ، ١٣ ، ١٦ ، ١٧ ، ٢٩ ، ١٩٢
 كعبير و شيخ البلد : ١٣٢
 الكاخ ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٨٦ ، ٢٨٩ ،
 ٢٩٠ ، ٢٩٢ ، ٢٩٤
 الكلدان ٢١ ، ١١٩
 كلديا ١١٩
 كليوبطر ٥٣ ، ٦٢ ، ٩٦ ، ١٨٤
 كمبريج : تاريخ جامعة : ١٢٢
 الكمرية والكمريون ٢٦٨ ، ٢٧٧ ، ٣٠٠
 كنعان ٦ ، ٣٢١ ، ٣٢٤ ، ٣٤٠
 الكنعاني والكنعانيون ٣١٩ ، ٣٢٤ ،
 ٣٢٦ ، ٣٤١ ، ٣٧٣ ، ٣٧٦
 كنفوشوس الفيلسوف الصيني (٥٥١ —
 ٤٧٩ ق.م) ١٤٩ ، ٣٦٢
 كمنحوتب (تمثال) ١٣٣
 كواكيلا (معركة) ٤٦٠
 كودومانوس (انظر دارا الثالث) ٤٥٦
 كوش ١٧٢ ، ٣٥٧
 الكولوسيوم ٢٠
 كوتنس كورتيس روفس المؤرخ الروماني
 (٤١ — ٥٤ م.ب) ٢٣٤ ، ٤٥٨
 * ٥٥٩
 كونكسا (معركة) ٨ ، ٤٢٠ * ، ٤٥٥
 كيخسرو (انظر سياخار وسيكارس)
 ٤٠١
 كيويس (انظر خوفو) ٣٠١

(ل)

لابان (هو يعقوب) ٣٤٠
 لاتينية ٤٣ ، ٣٠٢ ، ٤١١ *
 لارسا (الإيسار) ١٣ ، ٢١ ، ٢١٣
 لافنتين (چان ده) القصص الفرنسي
 (١٦٢١ — ١٦٩٥) ١١٢
 اللاويون ٣٣٨ ، ٣٦٦ ، ٣٧٠ ، ٣٨٣
 لبنان ٧٩ ، ٢٩٦ ، ٣١١ ، ٣١٧
 لهرول ٣٢٦ *

(م)

- ما ، إلهة الفريجيين ٣٠٥
 ماثيو آرتلد ، الشاعر والناقد الإنجليزي
 ٤٣٠ (١٨٨٨ — ١٨٢٢)
 ماجوج ٣٦١
 مارستن — سير تشارلس ١٠٩*
 مارستن — بيشة جامعة لقربول ٣٢٦*
 مالتس — ربرت تومس ، العالم الاقتصادي
 الإنجليزي (١٧٦٦ — ١٨٣٤) ٣٩٤
 مالطة ٣١٣
 ماثرا ٣٠١ ، ٤٢٥ ، ٤٣١ ، ٤٣٣ ،
 ٤٣٦
 مثراداس — الضابط الفارسي ، (حوالى
 ٤٠٠ ق.م) ٤٢٠*
 مجدو — هار ، ٧٩
 مجنيزيا ٣١٧
 المجوس ٤٠٦ ، ٤٢٥ ، ٤٢٦ ، ٤٣١ ،
 ٤٣٦
 محمد (صلى الله عليه وسلم) ٣٠٩
 مدكتو ٢٧٠
 مديشى ٨٠
 مدين والمدينين ٣٧٨
 مهاثون (سهل ومعركة) ٨ ، ٤٠٨ ،
 ٤٥٤
 مهاكش ٥٢
 مردك أو مزدوك إله البابليين ١٩٠ ،
 ١٩٣ ، ١٩٦ ، ١٩٨ ، ٢١٤ ، ٢١٧ ،
 ٢٢١ ، ٢٣١ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٨٤*
 ٢٨٦ ، ٢٨٧
 مردك — شبيك — زرماني ، ملك بابل
 ١٩٥*
 مردك — شبيك — زيرى ١٩٥*
 مرسيلى ٣١٣
 مرنبتاح ملك مصر (انظر منفتاح) ٦
 مريم ٢١٥ ، ٢٣٤ ، ٣٧٥

- لكش ١٤ ، ١٣ ، ٥* ، ١٧ ، ١٨ ،
 ٣١ ، ٢٩ ، ٢٠
 للبيت ٣٤١
 لندن ٤٤٧*
 اللوار (نهر) ٣٠١
 لوبيا ١٨٣
 اللويوت ٦ ، ٦٥ ، ١٢٦ ، ١٣٩ ،
 ١٨٤
 لوثر — مارتن ، المصلح الدينى الألماني
 (١٤٨٣ — ١٥٤٦) ٣٠
 لوجال — أندرونوجنا ١٨
 لوجال — زجيرى ، ملك السومريين
 ١٩ ، ١٨ ، ١٧ ، ٥
 لوجال — شجنجور ١٨
 لوجال كيجوب — تدودو ١٨
 اللوفر — متحف ١٩ ، ٢٠ ، ٤٠ ،
 ٨٩ ، ٩٠ ، ١٣٢ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ،
 ١٨٩* ، ١٩٠* ، ٣٠٧ ، ٣١٦ ،
 ٤٥٢
 لوكلس — لوسيس ليسينيس ، القائد
 الرومانى (١١٠ — ٤٥٦ ق.م) ٢٠١
 اللوكونيون ٣٠٠
 لويس الرابع عشر ملك فرنسا (١٦٤٣ —
 ١٧١٥) ٦٣
 ليثة ٣٧٩ ، ٣٧٨
 لينتز — كنفرايد قللم ، رون فن
 الفيلسوف والعالم الألماني فى الرياضيات
 (١٦٤٦ — ١٧١٦) ٣٩٢
 ليدن ١٥٣ ، ٨٤
 ليديا ٧ ، ٣٢١ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ،
 ٣٠٧* ، ٤٠٤ ، ٤٠٧ ، ٤٠٩ ،
 ٤١٤ ، ٤٢١ ، ٤٥٣
 الليديون ٣٠٧ ، ٣٠٦ ، ٣٠٠
 لينى ٣٤٦
 ليفين ٣٤٨

مقابر الملوك ٧٨
مقدونية ١٨٤ ، ٢٩٩ ، ٤٦٠
المقدونيون ٤٥٧
المقير ١٣
المكايين ٣٧١* ، ٣٧٨
المكسيك ٣١٢* ، ٣٦٨
ملر : فردرك مكس ملر العالم اللغوي
الانجليزى (١٨٢٣ — ١٩٠٠) ٩٦
ملكولم ٣٤٣ ، ٣٥٧
ممنون : تمثالا : ٥٢ ، ٥٤
منتسكيو : تشارلس ده سكندا ، يارون ده ،
الأديب الفرنسى (١٦٨٩ — ١٧٥٥)
٣٢١
منثيوحيث ١٣٧ ، ١٣٨
منديس ١٥٨
منشتوسو ملك أكد ٢٧
متشهورن ٣١٥
منف ٧ ، ٥٢ ، ٦٦ ، ٧٤ ، ٩٢ ، ١٤٩
٢٦٩ ، ٤٠٥
منفتاح ملك مصر (١٢٣٣ — ١٢٢٣) :
انظر مرنياح
منفيس : أنظر منف
منقورع ٥ ، ٧٣ ، ٧٣* ، ١٣٠
منيثون (مانيثون) المؤرخ المصرى (حوالى
عام ٣٠٠ ق. م) ١١٩ ، ٣٣٦*
مؤاب ٣١٦ ، ٣٤١ ، ٣٥٢ ، ٣٦١
المؤايين ٣٠٠ ، ٣١٩ ، ٣٢٩ ، ٣٤٣
٣٧٨
موريس : بحيرة : ٨٧
موسى ١٨ ، ١٨١ ، ١٩٢* ، ٣٢٢ ،
٣٢٤ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٢٨
٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤٠ ، ٣٤١ ، ٣٤٢
٣٤٣ ، ٣٤٥ ، ٣٥٦ ، ٣٦٦ ، ٣٧١
٣٧٢ ، ٣٨١ ، ٣٨٦ ، ٣٩٦ ، ٤٤١

مزامير داود ٢٢٤ ، ٣٨٦ ، ٣٩١ ،
٢٨٧
مزنوت ٣٧٣
مسييرو ، جاستن ، عالم الآثار المصرية
الفرنسى (١٨٤٦ — ١٩١٦) ٥٩ ،
٦٤ ، ٦٩ ، ١٣٢ ، ١٣٦
المستيرية (الثقافة) ٣٢٣
المسجيتية (القبائل) ٤٠٥ ، ٤٠٩
السمودى ٤٢٠*
السلحون ٣١٩ ، ٤٢٦*
السمارية (الكتابة) ١٤* ، ١٩ ، ٣٤ ،
٣١٧ ، ٣٢٠ ، ٤١١ ، ٤١٢
المسيحية ١٥٢ ، ١٦٠
مسيرينس (انظر منقورع)
مصر ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ ،
١٢ ، ١٤* ، ١٥ ، ٢٥ ، ٤٣ ، ٤٤ ،
٤٥ — ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٩٥ ،
١٩٦ ، ١٩٨ ، ٢٠٠ ، ٢٠٣ ، ٢٣٣ ،
٢٣٥ ، ٢٦٤ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ،
٢٧٢ ، ٢٩٤ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ،
٣٠٥ ، ٣٠٧ ، ٣١١ ، ٣١٣ ، ٣١٦ ،
٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥ ،
٣٣٣ ، ٣٣٥ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨ ، ٣٤٢ ،
٣٥١ ، ٣٥٢ ، ٣٥٧ ، ٣٦١ ، ٣٦٨ ،
٣٧١* ، ٤٠٥ ، ٤٠٦ ، ٤٢١ ، ٤٣٣ ،
٤٥١ ، ٤٥٣ ، ٤٥٩
مصرى ومصريوق الخ ٣٧ ، ٤٣ ، ٤٤ ،
٤٥ ، ٤٦ — ١٨٦ ، ١٩٦ ، ٣١٢ ،
٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣٢٠ ، ٣٢٦* ، ٣٢٨ ،
٣٤٠ ، ٣٤١ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ٣٧١ ،
٣٧٣ ، ٣٨٨ ، ٣٨٩* ، ٤٠٥ ، ٤٣٥ ،
٤٥٣
المقول — مقولى ١٥ ، ٥٣ ، ٧٦ ،
٣٠٣
مقيوشث ٣٣١

الموسوية : الشريعة : ٣٨٣ ، ٣٦٩ ، ٤٣٩ ، ٤٣٢
 الموصل ٢٦٥
 مولوخ : (مولك) ٣٤٣ ، ٣١٥ ، ٣٥٨
 مونايزا ١٣٠
 موهنجور ، دارو : مدينة : ٣٠٦*
 الميتاني ٦ ، ٢٦٦ ، ٣٠٠ ، ٣٠١
 ميداس : الملك : ٣٠٤
 ميدوم ١٤٢
 ميديا ٢٧٠
 ٢٧٢ ، ٤٠٠ ، ٤٠٣ ، ٤٠٥ ، ٤٠٧
 الميديون ١٩٥ ، ١٩٩ ، ٢٩٩ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠ ، ٤٠١ ، ٤٠٢ ، ٤١٠ ، ٤١٧ ، ٤٢٢ ، ٤٢٥ ، ٤٣٨ ، ٤٥٤ ، ٤٦٠
 الميزيون ٣٠٠
 ميشا ملك مؤاب (حوالي ٨٤٠ ق. م.)
 ٣١٦
 ميلان : ٣١٩ كنيسة : ٤٤٩
 ميلوس ٣١٣
 ميليتس ١٨٧
 المين ، عملة بابلية ٢٠٤
 مينا : مينيس لعله أول ملوك مصر الموحدة
 (حوالي ٣٥٠٠ ق. م.) ٥٣ ، ٦٦ ، ٢١٠
 مينوس ٣٧١*
 المينويون ٣٠٠
 نابليون الأول امبراطور فرنسا (١٨٠٤ — ١٨١٥)
 ٥١ ، ٥٤ ، ٦١ ، ٦١* ، ٧٥ ، ٨٠ ، ٩٣ ، ٩٥ ، ٢٣١ ، ٢٧٣ ، ٤٠٤ ، ٤٠٦
 نابو : إله الحكمة عند البابليين ٢٨٤* ، ٢٩٥
 ناثان ٣٣١
 نارام — سن ملك سومر وأكد

(٢٧٩٥ — ٢٧٣٩) ١٩ ، ٥٤ ، ٢٤٧ ، ٣٩
 نب — سنت (السيدة) ٩٦
 نبو ٢١٤
 نبوپولصر ملك بابل (٦٢٥ — ٦٠٥ ق. م.) ١٩٧ ، ١٩٥ ، ٧ ، ٥٦٢ ، ١٩٧ ، ١٩٦ ، ١٨٧ ، ١٩٩ ، ١٩٨ ، ٢٠٣ ، ٣٠٥ ، ٢١١ ، ٢٢٣ ، ٢٥٠ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٥٧ ، ٣٥٨ ، ٣٦٠ ، ٣٦٤
 نپور ١٣ ، ١٦ ، ١٩ ، ٢١ ، ٣٧ ، ١٩٠ ، ١٩٢ ، ٢٥٦
 نتموز — الفنان المصري ١٧٦
 نتورا — ندين — شام ملك بابل ١٩٥*
 نحاو الثاني ملك مصر . (٦٠٩ — ٥٩٣ ق. م.) ٧ ، ٣٥٧
 نخب ١٤٤
 نزيير ٢١٨
 نعوى ٣٤٣
 نفر ١٣
 نفرتي ١٣٦ ، ١٤٧ ، ١٦٨ ، ١٧٥ ، ١٧٨
 نفر نرع ١٤٠
 نقراطيس ٥٠
 نقش الرماة ٤٥١ ، ٤٥٢
 نقشى — رسم ٤١٠ ، ٤٤٨
 نكلر ٣٠٢
 نكو — انظر نحاو
 نليل ١٩٢
 نمتار ٢٢٠
 نمرود ٢٦٥
 نثار ٢١٤
 نتجرسون ٢٩
 نسكر ساج ٢٩
 ننيجي — ديتي ١٨

نهرينا ٩٥
النوبة ٥٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ١٨١
النوبيون ٦٥ ، ٧٥
نوح ٣٦٩
نوبت الإلهة المصرية ١٥٦
نيتشه ، فردريك قلهم الفيلسوف الألماني
(١٨٤٤ — ١٩٠٠) ١١٥ ، ٤٤٤
نيشتين ٢٣٩
النبل ٢٥ ، ٤٣ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ،
٥٣ ، ٥٤ ، ٦٠ ، ٦٤ ، ٦٦ ، ٦٩ ،
٧٦ ، ٧٨ ، ٨٢ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ،
٩١ ، ٩٦ ، ٩٩ ، ١١٣ ، ١١٩ ،
١٢٠ ، ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٢٦ ، ١٤١ ،
١٥٦ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٢ ، ١٧٣ ،
١٨٨ ، ٣٠٤ ، ٣٢١ ، ٣٢٣ ، ٣٨٨ ،
٤٠٥ ، ٤١٤
نينا ٢٦٥
نيندرتال ٣٧٣
نيفس ٢٩٧
نيزوى ٧ ، ١٢ ، ٤٢ ، ١٨٧ ، ١٩٥ ،
٢٣٧ ، ٢٦٥ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ،
٢٧١ ، ٢٧٨ ، ٢٨٠ ، ٢٨٢ ، ٢٨٦ ،
٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٩٠ ، ٢٩٢ ، ٢٩٤ ،
٢٩٧ ، ٢٩٩ ، ٣٠٨ ، ٣٢٩ ، ٣٣٣ ،
٣٣٥ ، ٣٥١ ، ٣٥٧ ، ٤٠٠ ، ٤٥٣ ،
نيويورك (متحف الفن) ٣٨ ، ٥٧ ،
٧٣ ، ١٣٤ ، ١٣٦ ، ١٤٢ ، ٢٨٩

(ه)

هارد يدف ١٥٣
هارفرد (جامعة) ٣٥١
هايس (نهر) ٣٠٢
هيات ٣٠٢
هذريات ، هذريانس پيليس ايليس
امبراطور الرومان (١١٧ — ١٣٨)
ب . م (٢٣٣)

هرياجس ٢٤٠
هرسى (بردية) ١١٥
هرقول البطل اليونانى الأسطورى ١٣٥ ،
٣١٣ ، ٣١٥
هرقول (أعمدة) ٤١٤
هرم ٥١ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٢ ، ٧٣ ،
انظر أيضاً أهرام
هرمزاله الحكمة عند اليونان ١١٩ *
٢٨٤ *
هرون ٣٢٦ * ، ٣٢٩
هزبرية (الأميرة المصرية) ١٣٩
هزيود الشاعر اليونانى (حوالى ٨٠٠
ق . م) ٣٦٨ *
هستيس (انظر قشتسيا) ٢٣٦ ، ٤٠٦
الهكسوس ٦ ، ٧٣ ، ٧٦ ، ٧٨ ، ٨٨ ،
٩٨ ، ١٣٥ ، ١٥٤ ، ١٩٥ ، ٢٠٢ ،
٢٢٣ ، ٣٢٤ *
هلماش ٢٧٠
هلسينت (انظر الدردنيل) ٣٠١
همدان (انظر الدردنيل) ٣٠١
الهند ٩ ، ١١ ، ٢٥ ، ٨٦ ، ٩٣ ،
١٥٦ ، ١٥٨ ، ١٦٩ ، ١٩٣ * ،
٢٠٣ ، ٣٠١ ، ٣١١ ، ٣١٤ ، ٣٤٤ * ،
٣٦٢ ، ٣٦٨ ، ٤٠٩ ، ٤١٠ ، ٤١٣ ،
٤٢٢ ، ٤٢٧ * ، ٤٥٤ ، ٤٦٠
الهند : جزائر الهند : ٣٠٩
الهندود : ٧١ ، ٣٠١ ، ٤٢٧ ، ٤٢٨ ،
٤٣٠ ، ٤٦٠
الهندورية ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ،
٣٠٨ ، ٣٠٩ ، ٣٩٩ ، ٤٠٩
الهندوس ٣٣٩ ، ٣٧٣ ، ٤٨٥
هندوسى ٤٤٨
هندية ٤١١
هنكر : إدورد ، عالم الآثار الإيرلندى
(١٧٩١ — ١٨٦٦) ١٤ *
هوانج ١٩٣ *

هوتمان ٣٨٧*

هوشع ٣٧٨ ، ٣٥٢ ، ٣٥١
الهوما ٤١٢ ، ٤٢٤ ، ٤٢٥ ، ٤٣٢

الهون ٧٦

هياشيا ١٨٤

هيراپوليس ٣١٨

هيرات ٢٠٣

الهيراطية : الكتابة : ١٠٩ ، ١١٠

هيرودوت المورخ اليوناني (حوالي ٤٨٤ —

٤٢٥ ق. م) ٥١ ، ٤٩ ، ١٤ ، ٥

٥١* ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٨٢

٨٧ ، ١٢٦ ، ١٦١ ، ١٦٦ ، ١٩٧ ،

٢٣٢ ، ٢٣٤ ، ٣٠٧ ، ٣١٠ ،

٣١٣ ، ٤٠٠ ، ٤٠٣ ، ٤٠٤ ،

٤٠٧ ، ٤١٣ ، ٤٣٢ ، ٤٤٠

هيوغلفية ٥٩ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ١٠٨ ،

١٠٩ ، ١١٠ ، ٣١٧

الهيلينية : الحضارة ٧ ، ٣٨٨

هين ، هينريخ : الشاعر الألماني (١٧٩٩ —

١٨٥٦) ٣٨٤

هيوجو ٣٠٢

(و)

وارد ٣٢٦

الوجه البحري ٤٧ ، ٥٠

الوجه القبلي ٤٧

الوركاء ١٣

الوسپرد ٤٢٧

ولي ، تش . ليونارد ١٤* ، ١٦ ، ٣٣

الونديداد ٤٢٦* ، ٤٢٧*

ونيفيس ١٣٩

ويجال ٥٩

وينزي — وني ، انظر طيبة

(ي)

اليابان واليابانيون ٩٢ ، ٩٩ ، ١٢٧ ،

١٢٨ ، ١٤٦ ، ٣٤٤

ياه أو ياهو ٣٤٠*

يزنا ٤٢٦* ، ٤٢٨* ، ٤٣٢

اليزيديين ٣٠٠

يسي ٣٥٤

اليشت ٤٢٧*

يششم ٣٣١

يشوع ٣٢٦* ، ٣٢٧

يعقوب ٣٤٠ ، ٣٧٥ ، ٣٧٨ ، ٣٧٩ ،

٣٨٦

يبلكس ١١٩

الين ٤٣

ينج ، تومس : العالم والفيلسوف الإنجليزي

(١٧٧٣ — ١٨٢٩) ٦٣ ،

اليهود ٦ ، ٧ ، ١١ ، ١٤* ، ١٥١ ،

١٦٣ ، ١٨١ ، ١٨٦ ، ٣٦٨ ،

٢٦٩ ، ٢٩٩ ، ٣١٨ ، ٣٩٨ ،

٤٠٤ ، ٤١٣ ، ٤١٤ ، ٤٢٩

يهوديت ٣٨٦

اليهودية ٤٤٠ ، ٤٣٥

يهوذا ٦ ، ١٨٧ ، ٣٤٣ ، ٣٤٨ ،

٣٥١ ، ٣٥٢ ، ٣٥٧ ، ٣٥٨ ،

٣٦٠ ، ٣٦٧ ، ٣٧١

يهو ١٧٥ ، ١٩٨ ، ٣٣٢ ، ٣٣٤ ،

٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩ ،

٣٤٠ ، ٣٤١ ، ٣٤٢ ، ٣٤٣ ،

٣٤٤ ، ٣٥٢ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦ ،

٣٥٧ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦١ ،

٣٦٢ ، ٣٦٣ ، ٣٦٤ ، ٣٦٧ ،

٣٧٥ ، ٣٨٠ ، ٣٨٦ ، ٣٩٦ ،

٤٣٣

يهوياتيم : الملك ٣٥٧

١٠٩ ، ١١٨ ، ١٢١ ، ١٢٤ ،
 ١٢٥ ، ١٢٧ ، ١٢٩ ، ١٣٦ ،
 ١٤٢ ، ١٤٩ ، ١٥٥ ، ١٥٩ ،
 ١٦٠ ، ١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ،
 ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠٢ ، ٢٣٤ ، ٢٦٤ ،
 ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٧١ ، ٢٨٣ ، ٢٩٣ ،
 ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ،
 ٣٠٧ ، ٣١٠ ، ٣١٢ ، ٣١٢* ، ٣١٣ ،
 ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣٢١ ، ٣٢٦* ، ٣٧١* ،
 ٣٧٨ ، ٣٨٦ ، ٣٨٨ ، ٣٨٩* ، ٣٩٠ ،
 ٣٩٠* ، ٣٩٧ ، ٤٠٣ ، ٤٠٧ ، ٤٠٨ ،
 ٤١٠ ، ٤١١ ، ٤١١* ، ٤١٥ ، ٤٢١ ،
 ٤٢٤ ، ٤٢٥ ، ٤٢٦* ، ٤٢٨ ، ٤٣٠ ،
 ٤٣٦ ، ٤٣٩ ، ٤٣٩* ، ٤٤٠ ، ٤٤٤ ،
 ٤٥١ ، ٤١٣ ، ٤٥٧ ، ٤٥٨

يورپديز : الروائي اليوناني (٤٨٠) —
 ٤٠٦ ق : م) *٣٩٠

يوسف : النبي العبراني (حوالي ١٩٠٠
 ق . م) ٣٨٦

يوسفوس : فلديوس : المؤرخ اليهودي
 (٣٧ — ٩٦ ب . م) ١١٩ ،
 ٣٢٢ ، ٣٢٦* ، ٣٣٤ ، ٤٥٧*

يوشع ٤٢٥

يوشيا ملك اليهود (٦٤١ — ٦١٠ ق م)
 ٣٦٦ ، ٣٥٧ ، ٣٥٦ ، ١٦٣ ، ٧
 ٣٧٥ ، ٣٧٠

يونانان ٣٣١

اليونان ٨ ، ١٠ ، ١٢ ، ١٤* ، ١٦ ،
 ٣٠ ، ٤٥ ، ٤٧ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ،
 ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٧ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ ،
 ٦٧ ، ٦٩ ، ٧٦ ، ٨٧ ، ٩٦ ، ٩٨

القاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٩٥٠

